

نحو أفق بعيد

- ٨ -

احتمالات امكانات ، لا صيرورة ، واحدة ذات وجوه شتى في ازمة غابرة هي اليوم وغدا . شمس لا تشرق ولا تغيب ، بدر ليس له تمام ولا مخاف ، نهر يجري وليس له منبع ولا مصب . السراب في صحراء الغمور ماء حقيقة ، عبث منه ابل ابي العلاء المعري حتى ماتت من الرئي . الزرع في حقول الجزيرة ينمو وابدأ لا يصل الى درجة الحصاد . الامطار تهطل والانهار تفيض ، ويعم الخير في هيئة مجاعة يموت فيها الناس من التخمّة . الطائرة لن تقوم وسوف تقوم ، وقد قامت بالفعل .

ما اروع هذه المدينة اللامدينة في هذا الوطن الذي هو كذكرى وطن او كحلم وطن . وقد سالك الشاعر ، سالك انت بالذات ، دون خلق الله جميعا :

ابكت تلكم الحمامة أم غنّت على فرع غصنها الميثار ؟

يا سيدي فداك نفسي . لقد كنت كائنك لم تكن . أما الآن وقد صرت الى العدم المخض ،

فانت ملء السمع والبصر . وقد حيرني سؤالك زمانا فما وجدت له اجابة الا الآن فقط ، في هذه اللحظة التي كانها الابد .

ان الحمامة قد بكت وغنّت فما بكت ولا غنّت ، لان الغصن الذي حطت عليه هو في واد هو احتمال واد في وطن هو حلم لوطن .

الا ، لا ارى مثلي امترى اليوم في رسم تغصن به عيني وينكره وهمي

انت صور الاشياء بيني وبينه فجھلي كلا جهل وعلمي كلا علم .

غفر الله للجسن بن هانيء ، وغفر لك يا ابا العلاء وانت ترجر مطايك في ذلك السراب الابدی .

وانت يا ابا تمام . اسأل الله ان ينزل فيوض الرحمة على قبرك بين العدوتين ، فانت قد قلت البيتين يقينا ، وذلك البيت إن لم تقله فكانت قد قلته ■



يكتبها: الطيب صالح

الاربعاء ١٩٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين
الساعة ٤،٥٠ مساء .

تنتظر ، وفي خيالك ذلك النسيم الذي يلاحقك من وادي النيل ، يحمل عطرا لن ينضب ما دمت حيا . والنيل منك على مرمى حجر . الا تعلم ؟ لكن كانه في عالم آخر ، او كانه ليس موجودا البتة . النيل بعيد ، كما قال الشاعر . لا توجد ساعة في هذه المحطة ، وساعتك وقفت بتأثير قوة غامضة تصيب الحركة بالشلل في هذا المكان ، وكان الزمن فرس رهان ، زلت به القدم ، وهو يكاد يبلغ نهاية الشوط . عشر دقائق ، عشر دقائق فقط ، وتكتمل الساعة الخامسة . لكنها لن تكتمل ، وسوف تظل هكذا الى الابد ، معلقة بين الثمام والنقصان . تتوق الى الكمال ، ولا تكتمل . الحيطان المشققة ، والالوان الباهتة ، والصور العتيقة ، والوجوه المنعبية الصابرة . الحلم ونصف الحلم واللا حلم . الفعل ورد الفعل واللا فعل .

اختلطت الاشياء فكوّنت عجينا مطاطا لا مغزى له ولا ذات محدّدة . كأن الاشياء قد بدأت وانتهت ، او كأنها لم تبدأ بعد . المكان كذكرى مكان أو كحلم الى مكان . والمدينة كلا مدينة . والوطن كلا وطن . السواقي وقفت منذ زمن وصمت غناؤها الحزين للنيل ، ولكنها ما تزال تدور ، يخرج منها ماء هو احتمال ماء ، لا يسقي زرعاً ولا يدر زرعاً . وسفن النيل وقطارات سكك الحديد توقفت ، ولكنها تجري ، وسوف تظل تجري بين الساعة الرابعة الا عشر دقائق ، والساعة الخامسة تماما ، والى الابد . ولا تصل الى غاياتها . الحرب اشتعلت وخمدت وبدأت ووقفت فهي تدور ولا تدور ، فالقتلى هم القتلى ، والجيش هو الجيش ، والمطامح هي المطامح ، والمزاعم هي المزاعم . هي ليست حربا ولكنها ذكرى حرب او احتمال حرب ، شبت منذ اعوام ، وشبت منذ قرون ، وتشب الآن في مساحة طولها عشر دقائق وطولها الابد . الزعماء السابقون والزعماء اللاحقون اضغاث احلام ، ذكريات زعامات ،

نحو أفق بعيد

- ٩ -

لا يستحقون الثروة التي هبطت عليهم. وهذا باختصار ما تقوله كل هذه الكتب والمقالات الصحفية التي يكتبها الأوروبيون والأمريكان عن العالم العربي. وخاصة عن منطقة الخليج. اللهم الا قلة قليلة يكتبها اناس شرفاء امثال مايكل آدمز.

اغاضني الكتاب ايما اغاظه، ولكن سرني عني قليلا انها لم تكتب عن قطر الا صفحة واحدة كانت الافتراءات التي تضمنتها اخف كثيرا من غيرها.

وكما هو متوقع، صاحبت صدور الكتاب ضوضاء اعلاميه مخطط لها في اوروبا، اذكي جذوتها لسوء الحظ العرب انفسهم، كما يفعلون دائما. وتحول هذا الكتاب التافه الى شيء مرغوب، طبعته منه عشرات الالاف من النسخ. وتحولت الكاتبة بين ليلة واخرى من صحفية من الدرجة الثالثة او الرابعة، الى صحفية

مشهورة تكتب عموداً اسبوعياً في واحدة من كبريات الصحف البريطانية، وتكتب في كبريات المجلات الامريكية. تلك الايام ايضا هبط علينا، كاتب له بعض الشهرة كنت قد سمعت به، ولما قابلته خيل لي انه رجل جاد رزين، فآكرمنا وفادته واحسنا ضيافته. وسافر عنا، ونشر كتابه فاذا هو اكاذيب كبقية الاكاذيب، في زي مذهب اقل فحشا من كتاب صاحبتنا تلك. ثم جاءنا كاتب من صحيفة «الديلي تلغراف» اللئيمة. قلت له اول ما قابلته:-

«نحن نعتقد ان صحيفتكم منحازة ضد العرب، وانتم تكتبون عن العالم العربي اما عن جهل او عن سوء قصد».

فقال لي: «لهذا انا جئت لاصلاح الصورة، فانا لست من نوع الكتاب الذين يتحدث عنهم».

والحق انني خدعت في الرجل، فقد بدا لي مهذباً غاية التهذيب عنده رغبة صادقة، كما خيل لي، ليفهم، وليرى الامور على حقيقتها. وكان انجليزيا قحاً، له شارب مثل شوارب ضباط الجيش، يتكلم بلهجة اكسفوردية خالصة. فساعد كل ذلك على تضليلي. لذلك اكرمت مثواه اكثر من المعتاد، وانفقت عليه من زمني وقتاً. ثم رحل الرجل عنا، وظهر كتابه، فاذا الكذب نفسه، واذا البداية نفسها ■



يكتبها: الطيب صالح

في عام كذا وسبعين، ايام كنت مديراً لوزارة الاعلام القطرية، حلت علينا صحافية انجليزية، نحيلة الجسم، كانها مصابة بالسل، متوترة مثل قطعة مذعورة، عينها عسلستان واسعتان، كان يمكن لو كان وجهها منبسطة سمحا، ان تكونا جميلتين. لكنهما لم تكونا كذلك، فقد كان في هيئة المرأة باكملها شيء منفر، سببه، كما ادركت فيما بعد، ذلك الشيق الذي تراه في وجوه بعض الناس، أنهم يريدون ان يحققوا هدفاً غير شريف باي وسيلة. ولان العرب ناس كرماء، ودولة قطر دولة كريمة فقد استقبلناها في المطار، واستضيفناها في الهوتيل. ولانني عشت بين ظهرائي هؤلاء القوم ردحا، فقد ادركت من اول لقاء لي معها، دون كبير جهد، ان تلك السيدة لم تجيء باحثة عن الحقيقة، لم تجيء لترى وتسمع وتفهم، فتنتقل الى قرأتها الانجليز صورة صادقة عن انجازات الانسان

العربي في هذه البقعة من الارض، وطموحاته ومقاصده كبقية خلق الله. بل على النقيض، جاءت لتعطي المصادقية لصورة ائمة ظالمة كانت قد استقرت في ذهنها قبل ان تصل. فضربت حولها سياجا كثيفا ولم ادعها تقابل احداً أو تكلم احداً. خرجت من عندنا الى دولة الامارات ومن ثم الى الكويت، وكانت قد زارت المملكة العربية السعودية قبل ان تصل الينا. ثم ظهر كتابها فكان كما قدرت، اكاذيب وافتراءات، بل فحش في بعض الاحيان.

عجبت وانا اقرا الكتاب، واتذكر ذلك الوجه الكئيب والذراعين النافرتي العروق، والجسم المتوتر الهزيل والسمت العصبي. انها رسمت لنفسها صورة جذابة كانها «صوفيا لورين» في زمانها، وان الرجال حينما حلت، كادوا يفتنون انفسهم هيما بها، وجريا وراءها، وان رجلاً ثريا حملها في رحلة قصيرة الى القاهرة في طائرته الخاصة، وعاد بها، حتى لا تضيق عليه ولو دقيقة واحدة من حديثها الشهي ومحيياها البهي! الى غير ذلك من هذه الاكاذيب الساذجة. والكتاب في مجمله يقول ان هذه المجتمعات مجتمعات مترفة فاسدة، وان الحكام متسلطون لا يعرفون كيف يدبرون امور دولهم، وان الرجال همج شبقون يسيل لعب الواحد منهم لمنظر المرأة وخاصة اذا كانت اوروبية، وخاصة اذا كانت في فتنة مثل هذه الصحفية الغاضلة! بل ان الكتاب ذهب في الفحش والكذب ابعد من ذلك، وتخلص الكاتبة الى ان هؤلاء العرب «الهمج»

نحو أفق بعيد

١٠



يكتبها: الطيب صالح

ثم رايتها في حفل الاستقبال الذي اقامته في البيت، الملكي، بريتانيا، وكانت في ذلك المساء ترتدي ثوبا جميلاً بسيطاً لا احسب ان وصيفتها اعترضت عليه، وكانت هي وزوجها يتنقلان بين المدعوين ويتبسطان معهم في الحديث. وكانت الملكة تقول لكل شخص تلقاه عبارة أو عبارتين تعنيان له شيئاً، وتعلقان بذاكرته. كنت ليلتها ارتدي جلابية سودانية وعمامة وعباءة، وكانت الملكة قد زارت السودان. قالت لي:

«هذا ليس زياً قطرياً، قلت لها، لا».

فقلت:

«هذا زي سوداني، ليس كذلك؟»

بالتأكيد أنت سوداني».

لم تكن الجملة في حد ذاتها مهمة، ولكنها اسعدتني، فقد بذلت السيدة جهداً، وكانت هي اسعدتني لأن ظننها قد صدق، وقلت لنفسى: «والله هذه الملكة سيدة لطيفة بنت حلال». ولم لا؟ فالمرء لا يكره الناس ضربة لازب.

بعض الناس يلومونني ان لي صديقاً أو صديقين من الاثرياء، وهم اناس صادقهم منذ امد، قبل ان يكونوا اثرياء، فهل اتركهم لأن الله سبحانه وتعالى اسبغ عليهم من فضله، واعطاهم مالا هم مستخلفون فيه؟ ليس

ذلك كان يكون لك صديق ثري، فاذا افتقر قلبت له ظهر المجن؟

منذ اشهر، والشئ بالشئ يذكر، لقبت شاباً في ندوة في الكويت، فقال لي:

«يقال انك توقفت عن الكتابة لسببين».

«ما هو السبب الاول؟».

«يقال انك انجرفت في التدوين واستحوذت عليك الجماعات الدينية».

ضحكت لانني اعلم كم انا مقصر في جنب الله، وان بعض الناس يقولون انني ملحد أو حتى شيوعي.

قلت له:

«يا ابن اخي، انا لا افعل اكثر من انني اصلي صلاة الجمعة كسائر المسلمين، وكثيراً ما فوتتني صلاة الفجر في وقتها، ها، والسبب الثاني؟».

«يقولون انك تصادق الاثرياء والوجهاء».

قلت له:

«يا بُني، صحيح ان لي صديقاً أو صديقين يقال انهم اثرياء، والله ما ادري مقدار ثرائهم، وهو امر لا يعنيني في كثير أو قليل، وهو ليس اكثر من صفة تعلق بالانسان، كان يكون نحيلاً أو بديناً أو احمر أو اسود. واما الوجهاء فقد قابلت منهم عدداً ولكن لا اذكر لك صديقاً واحداً بينهم. ولكن دعك من هذا، قل لي بالله كيف تراني؟ هل ابدو لك كاني خلبس اثرياء ووجهاء، ام انك ترى رجلاً أما اذا الشمس عارضت فيضخى واما بالعشي فيخصر».

قلت له ذلك لأنه شاعر.

هذا ما كان من امر ملكة بريطانيا، اما من امر اولئك الصحفيين الاراذل، فسوف اقصه عليكم الاسبوع القادم ان شاء الله ■

حل علينا في تلك الايام ايضاً، جيش من الصحفيين الانجليز، رجالاً ونساء، كانوا يرافقون الملكة في جولاتها في بلدان الخليج، دعوتهم الى داري، كما كنت افعل مع الصحفيين الاوروبيين خاصة، واقول لعلني اصحح بعض الافكار الخاطئة، لعلني ابذر في اذهانهم بعض الحقائق، لعلني استطيع ان اوجه انظارهم الى الامور الجوهرية في حياة الناس وانجازات الدولة، واصرفها عن التوافه التي اعلم انهم مشغولون بها. وجدتهم مجموعة من الهمج حقاً، باستثناء قلة منهم، كانوا ساخطين على كل شيء، وكانوا يحتقرون ملكتهم، ويسمونهم «برندا»، ولا اعلم لماذا اختاروا لها هذا الاسم، ولكنه اسم يوحي بالخدمات في حانات «سوهو»، ومقاهي «كافيدن تاؤن»، وكانت بينهم صحفية تجيد المحاكاة، فعمضت تقلد الملكة ووصيفتها، وكان الوصيفة ناظرة مدرسة والملكة تلميذة صغيرة، فاذا ارتدت الملكة ثوباً لمناسبة ما، تقول الوصيفة بصوت حازم كمن يخاطب طفلة:

«برندا، انزعى هذا الثوب فوراً، انه لا يناسبك».

فتقول الملكة بصوت خافت كسير:

«انا اسفة يا ليدى هسي».

ثم تجرب ثوباً آخر، فتقول الوصيفة غاضبة:

«برندا، كم مرة نبهتك الى ان اللون الازرق لا يناسب لون بشرتك اخضره حالاً».

وتظل الملكة المسكينة تجرب الثياب، ثوباً بعد ثوب، والوصيفة القاسية لا ترضى على أي منها، واخيراً تجهش الملكة بالبكاء مثل طفلة.

«ماذا افعل يا ليدى هسي؟ انني لا استطيع حضور حفل العشاء، فليس عندي ثوب مناسب».

تصرخ الوصيفة:

«برندا، كفي عن البكاء فوراً والا ضربتك على مؤخرتك، تذكرني انك لم تعودى طفلة، انت ملكة بريطانيا العظمى».

وظلت الصحفية التي تمثل دور الملكة تبكي بحرقة، وظل زملاؤها يضحكون بمتعة، وقلت لنفسى:

«لا حول ولا قوة الا بالله، اي خير يرجى من هؤلاء الرعاع اذا كان هذا حالهم مع ملكتهم؟».

وعجبت ايضاً، فقد كنت قد رايت الملكة عن قرب مرتين، مرة حين طاف بها وزير الاعلام في جولة في متحف قطر الوطني، وهو متحف جميل حقاً، فلم يكن غريباً ان الملكة وزوجها دوق اندبره اعجبا بما رايا، رايتها سيدة مهذبة بسيطة بشوشة، تسمع باهتمام وتسال اسئلة ذكية، وكان واضحاً ان تربيتها جعلت تلك السمائل فيها فطرة وليس تكلفاً، وقد قال لي زميل في الوزارة:

«هذه السيدة لطيفة الى حد انك تود ان تدعوها للعشاء مع عائلتك وتحسن انها سوف تقبل الدعوة».

نحو أفق بعيد

١١

بحرية الصحافة والإذاعة وما شابه وهي شئشئة قديمة عرفناها عنهم . لم يلتفتوا الى مظاهر العمران الواضحة ، ولا الى الخضرة التي انبتت في هذا المكان اليباب ، ولا الى مصانع السجاد وتسييل الغاز وصهر الحديد وتحلية المياه . قالوا ان هذه اشياء مملة لا تثير خيال القارئ الانجليزي الذي يؤثر مواضيع ذات بعد انساني . واقول لهم :

ولكن اي بعد انساني في ذبابة حطت على وجه الملكة ؟ واي بعد انساني في صور الطعام يوضع في الاواني ؟ وهل من الذوق ان تدعو انسانا الى دارك وتولم له ، فيصر على تفحص المطبخ والتأكد ان الطعام يُغذ بطريقة هانجينية ، كما تقولون ؟

واسوا من هذا كله ، انهم حينما حلوا في تلك الرحلة ، كانوا يحسبون اثمان الهدايا التي يقدمها رؤساء الدول المضيفة الى الملكة ، ويبالغون في الحساب ، ليوهمو قراءهم ان هؤلاء القوم الاثرياء

مبذرون لا يدرون ماذا يفعلون باموالهم . وهم بذلك يتجاهلون الحكمة الانجليزية القائلة ، لا تتفحص فم الحصان الذي يهدي لك ،

قال لي فؤاد جميعي ، وهو صديقي منذ عهدي بهيئة الاذاعة البريطانية ، وقد رافق هؤلاء الرعا مندوباً عن القسم العربي في هيئة الاذاعة البريطانية ، وهو رجل محب للانجليز ، تعلم في جامعاتهم ، وتزوج منهم ، ويجيد لغتهم :

« انني لم اكن ادرك قبل هذه الرحلة ، الى اي درجة يزور هؤلاء الصحفيون الانجليز الحقائق . لقد كنت اشهد الاحداث معهم ، ثم اقرا ما يكتبونه في صحفهم ، فاذا هي مخالفة تماما لما راينا وسمعنا ، ■



يكتبها :
الطيب صالح

كنا نؤمل ان يستغل اولئك الصحفيون مناسبة زيارة ملكتهم الى قطر ، فينظروا الى مجتمع ليس معروفا لقراءهم بعيون مفتوحة ، ان لم يكن فيها عطف ، فليس فيها كراهية . ها هنا اناس يعيشون مثلهم تحت الشمس على سطح هذا الكوكب الصغير ، الذي برّبه الخالق سبحانه عباده جميعاً ، على اختلاف ألوانهم واديانهم ومذاهبهم ومشاربهم . اناس يحلمون مثلهم ويسعدون ويشقون مثلهم ، ويولدون ويموتون مثلهم . لهم طريقتهم الخاصة في العيش ، ونظرتهم المميزة الى الكون ، لو فعلوا ذلك لعلمهم كانوا يرحزون ولو قليلاً ، ما ليس عقول قراءهم من حُطل وجهل . وماذا يضير قارئ الى « ديلي ميل » او الى « ديلي اكسبرس » ، او الى « تلغراف » ان يقرأوا لومرة واحدة شيئاً مفيداً عن عالم بعيد مجهول ، من هذه العوالم البشرية المتنوعة المتعددة ؟ اليس ذلك خيراً له من

اخبار الجرائم والفضائح والتفاهات التي تغطي على صحفهم ؟ لكن لسوء الحظ ، امعن هؤلاء الصحفيون الا القليلين منهم ، في ضلالهم القديم . فحين اقترب ، يخت ، الملكة من الميناء ، وكان الامير والوزراء ورجال الدولة ينتظرونها على الرصيف ، انشغل الصحفيون والمصورون برجل وامرأة اوروبيين في قارب شرعي صغير . وقد زعموا بعد ذلك في مقالاتهم انهما كانا يشرفان على الغرق ، ولم يكن ذلك صحيحاً . وفي الوليمة التي اقامها الامير للملكة في خيمة في البر ، سلط الصحفيون كمراتهم وسلط مصورو التلفزيون الاتهم على ذبابة حطت على وجه الملكة . وتسلسل فريق منهم الى المطابخ وراء الخيمة ، حيث يُعد الطعام ، والتقطوا صوراً يُقصد منها الاساءة . ولما راجعناهم في ذلك احتجوا لنا

نحو أفق بعيد

١٢



يكتبها: الطيب صالح

لعلك ظننت أننا سوف نرجعك بالحجارة أو نعلقك من فرع شجرة لانك يهودي .
لم يجبني . لكنني كنت متأكدا ان عبارتي قد احدثت بلبلة كبيرة لديه .
اسمع يا مستر كرافت . كونك يهوديا .. هذه حقيقة ليست مدهشة . بالنسبة لنا .
نظرا لي وفتح فاه . ولكنه لم يقل شيئا .
ولما وصلنا الى دار .ديفيد رايت . اسرعت بالنزول قبله . وفتحت له باب السيارة بالطريقة نفسها .
والعبارة نفسها .
تفضل يا مستر كرافت فانت رجل مهم جدا .
لكن سرعان ما طغى دفا استقبال مستر .ديفيد رايت . لنا . على اي شئنا ان يكون خطر لمستر كرافت . فقد كان ديفد رايت انسانا عفويا ليس في طبيعه التحفظ المألوف عن الانجليز . وجدنا بالفعل . خليطا من الناس . عربا واوروبين . واتخذ الحديث طوقا متشعبة . من السياسة الى الادب الى الفن الى التاريخ . وكنت معنيا طوال السهرة بوقع كل ذلك على صاحبي مستر جوزف كرافت . فارى وجهه يربد احيانا وينبسط احيانا . لكنه ظل صامتا لا يفصح عما يختلج في صدره . ولما عدت به الى فندق الخليج . قلت له :
ارجو الا تكون وجدت هذه الاسمية مضیعة

اذكر جيدا ذلك الامريكي العصبي العابس الوجه . كانت ملامحه يهودية لا مراء فيها . وكانت النظارة السمكية على عينيه توحى لك بانه ضيق الصدر . وهو احساس اكتشف فيما بعد انه احساس خاطيء . لا انكر انني نفرت منه اول ما قابلته . ليس لانه يهودي . فانا لا احمل مشاعر من هذا النوع . فقد عرفت يهودا فضلاء ويهودا اراذل . لا . لم يكن ذلك . ولكن لانه بدا لي متعظسا متعجرفا . وربما كان معه بعض الحق ان يغتر بنفسه . فقد كان جوزف كرافت صحفيا امريكا واسع النفوذ . يكتب عمودا في صحيفة الـ "هيرالد تريبيون" . وتنشره في الوقت نفسه نحو من عشرين صحيفة في كل انحاء الولايات المتحدة . كان على صلة وثيقة بصناع القرار . وكان مع ذلك معروفا بحماسة للصهيونية ولدولة اسرائيل وعدائه للعرب . وقد رأى السفراء العرب في واشنطن . في لحظة من لحظات الالهام . ان يرسلوه الى العالم العربي . ولم يكن قد زاره من قبل . ليقابل الناس . ويتعرف على انماط الحياة . ويرى مظاهر التقدم وال عمران . فلعله يغير من افكاره . او على الاقل يخفف من حدة عدائه للعرب . وكانت دولة قطر اول دولة يزورها . كان السفير الامريكي متوترا جدا متخوفا من تلك الزيارة . ولان طائفة مستر كرافت وصلت قبل موعدها . فلا السفير الامريكي ولا انا استطعنا ان نكون في استقباله في المطار . ذهبت اليه في الجناح الذي حجزناه له في فندق الخليج . فوجدته ثائرا محمر الوجه . اول ما دخلت وعرفته بنفسه صرخ : اسمع . انا رجل مهم جدا . ليس عندي وقت اضيعة . اريد صيدا ضخما . I want to Shoot Big . اريد ان اقبل حالا الامير . (وكان ينطلقها . امير) ووزير الخارجية . ووزير المالية .
قلت له . كل هذا سوف يحدث . لكن الوقت متأخر الآن . خذ راحتك وسوف امر عليك في المساء . وسوف تبدأ مقابلاتك صباح غد .
ولما عدت اليه في المساء . وجدته كما تركته . متوترا متوجسا . قال لي انثناء الحديث . دون اي مناسبة .
هل تعلم انني يهودي ؟
قلت له :

طبعنا انا اعرف انك يهودي . فانا اقرأ مقالاتك في الـ "هيرالد تريبيون" . لم يبد عليه انه استوعب قولي . وكنت قد بدأت استغريء صحبتي له . قلت له :

انا مدعو هذا المساء للعشاء في دار الملحق التجاري البريطاني . اقترح ان تاتي معي فسوف تقابل عددا من الناس وتستمع الى آراء مفيدة .

قبل اقتراحي على مضض . وقدرت انه اعتبر ان في ذلك قليلا من قيمته . ان يبدأ نشاطه الاجتماعي في الدوحة . بدعوة من ملحق تجاري لا اكثر . وليس بدعوة من سفير او وزير . لكنني كنت اعلم ان تلك الاسمية في دار الملحق التجاري البريطاني . سوف تحدث قدرا ليس قليلا من الفوضى في عقل مستر جوزف كرافت . كان .ديفيد رايت . شابا ودودا مستترا . وكانت تجمعني به صلة حسنة . لذلك كنت اعلم يقينا ان ميله للعرب لم يكن من قبيل النفاق الدبلوماسي . ولكنه كان عن قناعة حقيقية لديه .

فتحت لمستر جوزف كرافت باب السيارة . وانحنيت له بطريقة مبالغ فيها . وقلت له :

تفضل يا مستر كرافت . فانت رجل مهم جدا .

نظر الي شرا ولم يقل شيئا . وكنت قد اخذت اتمتع اكثر بصحبتي لذلك الانسان العجيب . وفي الطريق الى دار مستر .ديفيد رايت . قطعت عليه صمته بغتة . فقلت له

لوقتك الثمين .
نظر الي برهة خلال نظارتيه السمكيتين . وخيل لي ان طيف ابتسامة خوم حول عينيه . كانه ادرك . انه ان كان جاء يطلب صيدا ضخما . فقد صادف صيدا له احابيل من نوع لم يخطر له على بال .
في الصباح رافقته لمقابلة وزير الاعلام . فاستقبله الوزير بلطفه المعهود وابتسامته المضيئة . ولا بد ان مستر كرافت عجب اصلا ان شابا عربيا يلبس الخطرة والعقل . يمكن ان يتحدث اللغة الانجليزية بتلكطلاقة . ويقلب الافكار بتلك المهارة . ثم مضينا في زيارتنا التي توجت بمقابلة سمو الامير . ولما خرجنا من عنده نظرت الى صاحبي فاذا هو . لأول مرة . فرحا . متفعلا من شدة الفرح . واذا ذلك الوجه المتجهم باساريه المشدودة . كانه وجه لانسان آخر . كنت اعلم ان الذي ألم به قد حدث لانه قد وجد . صيدا ضخما . على حد قوله . قال لي وهو على تلك الحالة :

جيتي .. هذا الامير انسان لطيف . هؤلاء الناس لا باس بهم . لا باس بهم ابدا . قلت اعكس عليه الآية هذه المرة . فنظرت اليه كما كان ينظر الي طوال مرافقتي له . ولم اقل شيئا .

ثم جمعت بمستر .هوارد . الذي كان يزور الدوحة في الفترة نفسها . ويقيم هو ايضا في فندق الخليج . كان مستر .هوارد . امريكي من الولايات الجنوبية . شديد العداء للصهيونية ولإسرائيل ولليهود على وجه العموم . وقد انتج فلما عن احتلال اسرائيل لمدينة القنيطرة . وسرعان ما شبت بين الرجلين حرب كلامية لا هوادة فيها . وجلست بينهما . لا اشارك في الجدل . ولكنني استمع واضمح . امريكي يكره الصهيونية واليهود . وامريكي يهودي متحمس للصهيونية . وكانهما في حلبة ملاكمة . ورايت صاحبي مستر جوزف كرافت ينوء تحت وابل اللكمات التي وجهها له مستر .هوارد . فقد كان هذا ملاكما شرسا . يضرب كيفما اتفق . ويضرب بلا شفقة .

ولما ودعت مستر جوزف كرافت في المطار احساست انه يتركنا وهو في حيرة عظيمة من امره . كان وجهه وهو يغادر الدوحة مختلفا عن الوجه الذي جاء به . وتابعت مقالاته في صحيفة الـ "هيرالد تريبيون" . مدة بعد تلك الرحلة . فلم اجد انه ذكر زيارته بالخير او بالشر وان كنت لاحظت ان حماسه للصهيونية قد فتر بدرجة نسبية . ثم وانا في باريس قرأت نيا وفاته . تذكرت صحبتني له في الدوحة . واللحظات الممتعة التي اتاحها لي من معابتي اياه . ولا اخفي عليكم انني شعرت بشيء من الحزن ■

نحو أفق بعيد

١٣



يكتبها: الطيب صالح

قلت لنا أنك جاهل وأنا علماء ولكن صدقني أنك أنت الأستاذ ونحن الجهلاء. لقد شعرنا أثناء حديثك أننا نأكل من فمك بين يدي أستاذ.

أما الشيخ عبد العزيز، قد جلس من المتنبي كما يحسن التلعيز بين يدي أستاذ. وأنزل نفسه منه بمنزلة التابع، يفتني أثره بين اليمامة والدهناء بجل إذا حل ويرحل إذا رحل. يلزمه كظله، يحاوره ويداوره يوافقه ويخالفه، يحبه ويحاول أن يجد فكاً من حبه. ولكن هيهات فكل من وقع في أسر المتنبي، أصبح أسيراً ليس له فك. وهذه العلاقة التي ابتدئها الشيخ عبد العزيز، هي في حد ذاتها نمط جديد. ليس له نظير في الأدب العربي. قلت للشيخ:

هذه العلاقة التي رسمتها لنفسك إزاء المتنبي علاقة عجيبة. لقد كان المتنبي يامل طوال حياته أن يحصل على مثل ما حصلت أنت عليه. ألم يكن يسعى؟ لا يمل. السعي وراء الرقعة والسلطان؟ ثم ها أنتذا وكأنك لو كان لك ما كان للمتنبي. وكأنك تريد أن تكون المتنبي وسيف الدولة في آن واحد.

لكنني أيقنت بعد ذلك، حين عرفت الشيخ أكثر، أنه لا يطمح مثل هذا الطموح، وأن تقفبه أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء، كان بمثابة جري وراء أطراف العالم الذي الله وأحبه في طفولته وصباه ثم ضاع منه إلى غير رجعة. لذلك فهو يقيناً امتداد لكل أولئك الشعراء الذين مروا بهذه الديار، ووقفوا على أطلالها، وتاجوا أطراف محبوباتهم على كتاباتها وأوديتها وجبالها. ليس صوت الشيخ عبد العزيز يذكر بصوت غيلان، ذي الرمة، وهو يلف على رمال الدهاء.

ذاتها التي وقف عليها الشيخ

تحن إلى شيء كما حن نازع

دعاء الهوى فارتاد من قيده قسراً

فقلت أرسماً يا صاحبني بدمعة

بذي الترمث قد أثوت منازلها عصراً

بل. ولكن حيث جرى امرؤ القيس وراء طيف صاحبه هز، ولاحق عنترة أطراف عبلة بين لمعان الأستة، وبكى إمام الباين غيلان، طويلاً على أطلال شيء، فإن الشيخ عبد العزيز قد ابتدع رمزا جديداً طريفاً، هو في الوقت نفسه امتداد لتلك الرموز، فلاحق خيال الشاعر العبقري الذي ابتلع في جوفه أخيلة كل أولئك الشعراء. وتلك، وأيم الحق، جراءة من الشيخ ليس مثلها جراءة.

هل نعمة سلمى أو ليل أو هند أو شيء؟ لا يد. إذا لماذا لم يبع الشيخ بكل أسرارها، ولماذا اختار هذا الرمز العسير، والرموز الغربية المثل بين يديه؟

في تلك الزيارة، سمعت لأول مرة قراءات لرسائل الشيخ للمتنبي. أعجبني الصوت، واتضح لي الضوء أكثر، فكتبت واحداً من كثيرين أهابوا به أن ينشر كتاباته على الملأ. ترد، كثيراً، يقدم ويخجم، وبعد لأي أصدر كتابه الأول، في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء، بعد أن أطل فيه النظر، وحذف منه أجزاء كثيرة جميلة، ليثبها إياها. استقبل الكتاب، كما توقعت، باستحسان كبير. ثم أخرج الشيخ كتابه، «رسائل إلى ولدي»، في جزأين، أعقبه كتابه، «حافظ ليل ضجر»، وما يزال عنده الكثير، لم يشأ أن ينشره بعد.

ولكن الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، أكثر من هذا كله، على أن هذا ليس قليلاً. أنه إنسان متميز، من أميز الناس الذين عرفتهم. وهو حيث هو في الرياض، يشع ضوءاً يضيء مساحات واسعة حوله. لقد اتنى عليه وعلى كتاباته أناس كثيرون. بينهم علماء أجلاء، أمثال الدكتور زكي نجيب محمود والدكتور حسن ظاظا والدكتور مصطفى هدارة. ومنهم نقاد كبار مثل رجاء النقاش، وكانوا صادقين فيما ذهبوا إليه. وكنت قد البت على نفسي أن أرجى الحديث عنه إلى حين. يقول لي الشيخ:

«أنت يا الطيب صالح القيني على قارة الطريق ثم تركتني».

واقول له:

«أخشى أن تظن أنني إجمالك. فقلت أترك غيري يكتبون عنك. وها أنت ترى أساتذة كبار هم خير مني. يعيرون عن أعجابهم بكتاباتك».

وبعد، فليس هذا ما أردت أن أقوله عن هذا الشيخ الجليل والإنسان الفريد. فإن الحديث عنه يطول، وسوف يأتي وقته أن شاء الله. أما هذا الآن، فقط احتفاءً بأبلال الشيخ من علته. وعودته سالماً إلى حماه ليواصل باذن الله، الدور الذي ارتضاه لنفسه، دليلاً للحائرين، ومنازةً للسايرين والمقوين.

لا أفن أن أحداً في هذا العصر، شاعراً أو ناثراً، وقف على أطلال العالم القديم في نجد، ذلك العالم الذي تقوضت أركانه تحت وطأة التقدم والعمران، كما وقف الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري. ما من أحد بنى بكاءه، ولا أحد رثى رثاءه. ليس لأنه لا يؤمن بالتقدم والعمران، فهو في أحاديثه وكتبه، مفتتح بعوائد العلم، متحمس للتغيير مسحور بإنجازات الحضارة التكنولوجية. ولكن لأنه وعى بحسه المرفف أن كل ربح وراءه خسارة، وكل أنجاز يصحبه ضياع، وأن ذلك العالم المفقود الذي يرتفع على انقاضه هذا العالم الجديد الأكثر رفاهية، كان على علاقته، علماً بالغا ودوداً.

سافقتني إلى معرفته وأنا في الدوحة منذ نحو عشر سنوات، رسالة جامعتني منه على غير معرفة سابقة. كنت قد دُعيت لزيارة المملكة العربية السعودية عدة مرات، فلم استلح تلبية الدعوة لسبب أو لآخر. ثم جاتني تلك الرسالة الجميلة، والتي تضمنت، كما أدركت فيما بعد، كل خصائص أسلوب الشيخ عبد العزيز، صفاء اللغة، وحرارة التعبير، وسبحات الخيال، وإضاءات من فكر طريف، تلمع فجأة بين السطور. قال لي الشيخ في رسالته:

إن صوتي قد وصله، وأنه يحب أن يتعرف بي. لم أكن أعرف من هو الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، ولكنني أحسست أن هاهنا رجلاً غير عادي.

يستحق أن يسعى الإنسان إليه. فانا كما قال البحري «أكل بالشراف طراً من كل شيء وأش». الكاتب يخاطب الناس جميعاً، ولكنه يكتب بصفة خاصة للناس، مختارين، قد يعرفهم وقد لا يعرفهم ولكنه يعلم أنهم إذا سمعوا أرواها السمع، وإذا نظروا دققوا النظر وإذا ناداهم صوت محب، استجابوا له بمحبة، دون قيد ولا شرط. هؤلاء هم الناس الذين إذا قرأت لهم، أو علمت أنهم يقرأون لك، أحسست بال«وشش»، كما يقول يوسف ادريس. فهذا عالم موحش، وعالم الكتابة أكثر وحشة، وهذه الأرواح المجنونة، والأصوات المتألقة المتواصلة، تخفف من وحشة العالم، وتوهن ولو قليلاً، من إحزان حامل القلم.

وهكذا كان. رأيت قبساً من ضوء الشيخ في تلك الرسالة فقلت أسير وراءه واتفلي أثره، والحكمة ضالة المؤمن، وكذلك المحبة. ولم أكن أعلم حينئذ أن الشيخ نفسه، كان متجنباً إلى ضوء عجيب، وصوت عبقري فريد. كان الضوء لطيفاً، وكان الصوت، صوت الشيخ، ألفاً صافياً لا يشوبه كدر. ثم إذا أنا في مجلس أهل في الرياض، وإذا أنا برجل كالسيف، أقرب إلى الطول، وأقرب إلى النحول، أسمر مشرب بحمرة عليه وسام كرزاد المطر خلف زجاج النافذة، لعله في الأربعين أو لعله في السبعين. يبتسم، ولكن لم يغب عني أنه مثل بالاحزان، ولكنها إحزان نبيلة، كانت عاناها الشعراء في هذه الديار منذ عهد نابغة بني ذبيان. ولأن فؤادي ليس خلوّاً من هذا كله، فقد سلعت عليه وكانني أعرفه من زمن، سلعت عليه بمودة مشوبة بالعطف. ولم العطف؟ لقد مضت بعد ذلك في علاقتي بهذا الإنسان الفريد، أعجب به وأحبه، واشفق عليه، فذلكم العطف، وهو يرثي لحالي، وتلك لعمرى قسمة عادلة وعلاقة متكافئة.

مثل أخى فتح الرحمن البشير، أقول لنفسي، يا للعجب، كأنهما توأمان. تلك الحيوية، وتلك الأريجية، كان قلبه يخرج من بين أضلاعه ويسابق بدنه ليلفك مرحباً، بهش لك ويسحبك من يدك سحباً، ويدنك من مجلسه، ويقحم الطعام عليك اقحاما، ويبدل لك من نفسه كأنك الوحيد لديه، وكل واحد عنده سبان في بذله.

أعجبني داره، وهي مجموعة دور حول حوض سباحة، قلت له ذلك، فقال ضاحكاً «هذا من علامات الساعة»، فقال:

«لا تعرف الحديث الشريف أن من علامات الساعة أن يتناول الحفاة العراة رعاة الإبل في البنيان».

كذلك هو. يبالغ في التهوين من شأن نفسه، ويسخر من حوله وطوله ويؤكد لكل من يلقاه أنه جاهل لم يدخل مدرسة ولم يتعلم في جامعة. ولقد رأيت منذ عامين أثناء مهرجان الجنادرية، يهدي كتبه لأكثر من عشرين كاتباً ومفكراً، كان يملأ أهداء يملأ صفحة كاملة لكل واحد منهم، وكل أهداء مغاير لما سبقه، وفي كل أهداء فكرة طريفة أو عبارة أنيقة لم ترد من قبل. ثم رأيت أوائل هذا العام، يتحدث في بابه إلى جمع غير من أساتذة الجامعة الأمريكيين بدأ حديثه كعادته بالتأكيد على جهله، ثم حل في أفق شائعة، منتقلاً من السياسة إلى الأدب إلى التاريخ، خالطاً الجد بالهزل، يمس يرفق مكان سوء الفهم لديهم، ويصحح ما علق بأذهانهم من تصورات خاطئة عن العرب والمسلمين، بمهارة تثير الإعجاب. وبعد أن فرغ من حديثه وأجاب عن تساؤلاتهم، شكره أكبر الأساتذة سنّاً وقللاً له في ختام كلمته.

نحو أفق بعيد

١٤



يكتبها: الطيب صالح

«أعني ان تعلن شركاتكم عن نفسها في الصحف القطرية، فيعلم القطريون بوجودها فإذا كانت لهم حاجة بها تعاملوا معها. تذكر يا مستر... ان شركاتكم ليست الوحيدة في السوق، ودولتكم ليست الوحيدة في العالم».

بعضهم كان كأنه يستيقظ من نوم، وكأنه نسي ان عهداً قد انقضى، وعهداً قد اطل. وأحياناً كان الواحد منهم حين يبلغ به الضيق مبلغه وتعوذه الحجة، يتفرد في وجهي طويلاً، ثم يقول لي بصوت بارد: «أنت لست قطرياً، اليس كذلك؟».

كنت حين أوصل الواحد منهم الى هذا الحد، أحس ان يومي لم يذهب سدى، فقد كنت اعلم تمام العلم ماذا يقصد بقوله. وأني له ان يدرك ان كوني لست قطرياً ما كان ليغير من الأمر شيئاً. وأني له ان يدرك انه ان كان قد جاء يطلب صيداً، فقد لاقى صياداً له شبك من نوع آخر. انه يرى امامه رجلاً يجلس وراء مكتبه على شكل حدوة حصان

منفرجة، في مكتب مُصفر الحيطان في الطابق العلوي من مبنى التلفزيون. انه يشغل منصباً ليس ذا خطر، في حقيقة الأمر. ولكنه قد يبدو لوهلة للطامعين والمغامرين والحالمين، انه قد يكون وسيلة لتحقيق كل ذلك. انه وضع صعب. واصعب منه الرجل الذي يجلس وراء ذلك الرجل، رجل لا يرويه ولكنه يراقب عبث الناس والاعيب الحياة. كانه بمعزل عنها. ويمتص التجارب كما تمتص الصحراء قطرات المطر. يتركها تتجمع وتغور بعيداً في قيعان الذاكرة. ثم ينساها. يتركها تنصهر في بوتقة الفن، ريثما تنضج. وهو يعلم انها سوف تطفو فجأة بعد امد، على هبئات مختلفة، واشكال لم تكن في الحسبان.

هكذا كنت أسري عن نفسي، وأدافع الوحشة التي تخامرني، وحشة الكتاب والشعراء والمفكرين. حين أجد الوقت وخلو البال أسري عن نفسي يمثل تلك المواجهات والمعابثات. ولا انكر انني كنت أقسو على الانجليز بصفة خاصة، فانا أخبر بمسالكهم. وأنا في حقيقة الأمر أكثر ميلاً إليهم من بقية الاوروبيين، فقد عاشرتهم زمناً، ومارست عندهم أكثر ثمرات حياتي، أيام كان الشباب، مطية الجهل، ومحسن الصبوات والعزل. وقد اكلت من عيشهم وملحهم، وعلمت علم اليقين، انهم رغم كل شيء وعلى علائهم، قوم خيرهم اغلب من شرهم.

بلى. كان الخير وفيراً في تلك الايام، فجذب افواجا الى تلك الارض الهادئة القصية من بلاد العرب، كما يتجمع الذباب على صحن العسل، وكنت أقول، ليتني أجد الوقت لأسجل كل هذا. هذا يصلح شخصية في رواية وهذا لو رسمته كما هو على الورق لما صدقني احد، لكن مايكل آدمز كان من طراز آخر.

مايكل آدمز كان شأنه مختلفاً عن أولئك الصحفيين الاوروبيين الذين حلوا على هذه الديار الأمانة، كمل تحل عصابة من قطاع الطرق. خلال السنوات التي قضيتها في وزارة الاعلام القطرية، رأيت أنماطاً عجيبة من البشر، مروا امام ناظري كما تمر الاشباح. منهم افاقون وباحثون عن الشهرة وباحثون عن ادوار يلعبونها على مسرح الحياة وهاربون من سام الحياة التي الفوها في بلادهم، وقليل منهم المخلص الباحث عن الحقيقة.

ذلك الصحفي الذي اتفقنا معه على نشر ملحق عن دولة قطر، اشترينا منه كذا صفحة بثمن كبير، لعراقة الصحيفة وسعة انتشارها، وساعدناه على جمع الاعلانات. ثم صدر الملحق فإذا به يتضمن مقالات لا علم لنا بها، مليئة بالاخطاء وسوء الفهم. اعترضت على ذلك، فقال لي:

«هذه مادة تحريرية لا سيطرة لقسم الاعلانات عليها».

انتم تنشرون مثل هذه المقالات في صحيفتكم على اي حال. ولكن لماذا تصرون عليها الآن في هذا الملحق بالذات. علماً بأنه لم يكن ليصدر لولا الصفحات التي اشتريناها منكم والاعلانات التي ساعدناكم على جمعها؟

«أنت تعلم بان صحافتنا حرة، ومثل هذه المادة تعطي الصحيفة مصداقيتها. هذه هي الحقائق كما نراها فهل تريدوننا ان نغير الحقائق لمجرد انكم اشتريت منا بضع صفحات؟».

«اسمع، لا تحدثني عن حرية الصحافة، فانا افهم جيداً ماذا تعني حرية صحافتكم. اليس عندكم مثل يقول: الذي يدفع اجر المغني من حقه ان يختار الاغنية؟ هل تريد ان تقنعني ان دولة قطر تدفع لكم مبلغاً ليس قليلاً لتصدروا ملحقاً تشتمونها فيه؟ اي منطق هذا؟».

أحياناً كانوا يقتنعون بوجهة نظرنا، وأحياناً كنا نضطر الى إيقاف التعامل معهم.

ومرة جاءني صحفي يعرض علي ان ننشر ملحقاً عندهم. وخطر لي ان أعبت به قليلاً. قلت له:

«وما هي الفائدة من ذلك؟».

«اليس هذا واضحاً؟ توجد هنا حركة تنمية عظيمة. وللدولة احتياجات كثيرة. لا بد ان تعلن دولة قطر عن احتياجاتها فتعلم بها شركتنا فتأتي الى هنا وتساعد الدولة في انجاز التنمية».

شيء عجيب. تقصد ان دولة قطر تدفع كل هذا المال لصحيفتكم لتقولوا لشركتكم: «دولة قطر تريد ان تعطيكم مالاً اذهبوا وخذود منها؟ اليس المعقول هو ان يحدث العكس؟».

ماذا تعني؟

نحو أفق بعيد

١٥



يكتبها: الطيب صالح

لا أعلم كيف بدأت صلة مايكل آدمز بالعالم العربي، ولكنني أذكره في الخمسينات والستينات. يكتب بانتظام في صحيفة الـ «غارديان» منذ أن كان أسماها الـ «مانشستر غارديان». كان واحدا من الكتاب المرموقين. من حفنة أعطوا هذه الصحيفة العتيقة، السمعة التي تتمتع بها إلى اليوم. منهم «ديف هولدن» الذي قُتل منذ سنوات في القاهرة في ظروف غامضة. ومنهم «جيمس مورس» الذي تحول إلى امرأة وهو على عتبة الأربعين بعد أن تزوج وأنجب. وما يزال يكتب باسم جان مورس.

كيف حاققت بمايكل آدمز بلوى الدفاع عن قضايا العرب، فذلك بالنسبة للكتاب الأوروبي والأمريكي امتحان عسير وبلاء مستطير وعبد لا يقوى على حمله إلا أولو العزم. لقد حطم تبني قضايا العرب، بريطانيين سراً منذ لورد كيرزن الذي كان يبدو وكأنه سفينة لن تغرق. كان من صفوة الأرستقراطية البريطانية، إلى ثراء واقتدار وسعة نفوذ وجاذبية. جعلت من المؤكد أنه سوف يصبح رئيساً للوزارة. كان وزيراً في وزارة «لويد جورج» التي أصدرت وعد بلفور المشؤوم. وما كان محباً للعرب بقدر ما كان

محبا للحق. ظل يقاوم ببسالة ولا يني عن الالتحاح في مجلس الوزراء. أنتم تتحدثون عن إعطاء وطن قومي لليهود في فلسطين. انكم تقصدون قيام دولة، يهودية في فلسطين. والأرض ليست خالية من السكان. لم يُصغ أحد لكلامه وتبددت أحلامه في رئاسة الوزارة. ثم مستر «أرنست بلن» وزير الخارجية في حكومة العمال برئاسة «كلمنت أتلي» كان في شكله الجسدي، وفي قوته وسعة نفوذه في الحزب، يبدو هو الآخر مثل بارجة حربية لا يمكن اغراقها. صرخ في مجلس العموم في وجه النواب اليهود «أنني أرى هنا يهوداً ولكنني لا أرى عرباً». فقد منصبه ومات كسير القلب. ثم مستر «انتوني نتنج» كان وزيراً للدولة في وزارة الخارجية وكان مقرباً من رئيس الوزراء «انتوني إيدن» وكانوا يتحدثون عنه كرئيس وزراء مفضل. كانت أنجحه في صعود، ومقاديره في صعود. استقال من منصبه أثناء حرب ٥٦. حين تآمرت بريطانيا وفرنسا مع إسرائيل على غزو مصر. وقال في خطاب استقالته الموجه إلى استاذة وصديقه ووليه «يوسفني أنني لا أستطيع أن ادافع عن سياسة حكومة صاحبة الجلالة. ماذا حدث له وابن هو الآن؟

حتى «جورج براون» المسكين. كان محتملاً أن يكون رئيساً لحزب العمال ورئيساً للوزارة بدلاً من «هارولد ولسن» لم يكن العرب في حد ذاتهم يعنونه كثيراً ولعله كان أميل لليهود فقد كانت زوجته يهودية. ولكنه كان أزيجي النفس شجاع القلب، ولعله فهم أبعاد القضية الفلسطينية بفضل مجهودات بذلها رجال أمثال اميل البستاني. في تلك الأيام الحالكة بعد هزيمة ٦٧، حين عزّ النصر، كان صوته من الأصوات القليلة التي ارتفعت في بريطانيا منادياً «الفلسطينيون لهم قضية. الفلسطينيون لهم قضية. فقد كل شيء. ومات من كثرة الشراب ووجع القلب.

من هؤلاء الناس الشرفاء، يهود أيضاً، منذ لورد مونتاجيو الوزير اليهودي الوحيد في حكومة لويد جورج. ومنهم يهود أمريكيون أمثال «حنا أرندت» و«ناعوم جيمسني» و«الفرد لينينثال» بل واسرائيليون مثل الجنرال «ماتايو بلذ» الذي كان قائداً للطيران الإسرائيلي في حرب ٦٧، ثم تغيرت حياته، وتخصص في اللغة العربية، وكان أحد أساتذته في جامعة «بيركلي» الشاعر الفلسطيني المرحوم توفيق صايغ. وهو الآن أستاذ اللغة العربية في الجامعة العبرية.

ما الذي رمى بمستر مايكل آدمز هذا المرمي، وأصابه بهذه العدوى؟ لا أدري، ولكنني أعلم أن بريطانيا بقدر ما ألحقت أضراراً جسيمة بالعرب، ظهر فيها دائماً أناس شرفاء رجالاً ونساءً، سبخوا عكس التيار

وتصدوا لآراء قوية معاكسة. ولم يجنبوا عن المناداة بما رأوا أنه الحق والعدل. وتلك والحق يقال، سجية في طبيعتهم، الدفاع عن القضايا الخاسرة، والتحيز للضعيف. ولعل ذلك لا يرضي غرور العرب الذين ينهزمون وكانهم ينتصرون. ويخيل لهم مع خسارتهم أنهم رابحون!

كذلك أنا أعلم، أن ديار العرب، باتساعها وتنوعها ونكاتها وغبائها وسحرها وأوهامها وهداها وإباطيلها، قد جذبت إليها منذ دهر، أوروبيين كثيرين، وإنجليز بصفة خاصة. جاءوا إليها لأسباب شتى ثم وقعوا في أسرها فلم يستطيعوا منه فككتا. لورد وفرد بلنت، وسير رتشارد بيرزن وقيرتود بل، وليدي هينشز ستانهورب، وداوآتي ونسجر، وتي إي لورنس. وليدي ذف قورن ولبي وغيرهم. هذا العالم الذي بدا لهم كسراب الصحراء، اغواهم وحيرهم وأربك عليهم حياتهم. وكانوا منه كما قال المتنبي العظيم الذي يصيب كبد الحقيقة كل مرة: وتولوا بعمّة كهم منه

وأن سر بعضهم أحيانا. لكن مايكل آدمز حين تقابله لا يبدو لك كأنه يمكن أن يكون أسيراً لآية أوهام.

تري رجلاً هادئاً واضحاً جم التواضع. ولعلك لا تذكر إلا إذا أمعنت النظر، أن تحت ذلك الإهاب، فؤاداً جريئاً، وعقلاً مصمماً إذا قرئت فيه فكرة أمن بها، لا يتزحزح عنها، ويدافع عنها حتى آخر رمق. كان، كما قلت لكم، صحفياً مرموقاً، ولو سارت به الأمور سيرا طبيعياً، لاصبح دون شك رئيساً لتحرير صحيفة كبرى. ثم قليلاً قليلاً بدا يغتص في ذلك البحر العربي المتلاطم الأمواج. أخذت مقالاته تزداد قوة وأحاسيسه بالغبن الذي حاق بالفلسطينيين يزداد حدة. وكانت مقالاته شيئاً آخر، قليلون من يستطيعون أن يكتبوا مثلها حتى من العرب أنفسهم. كان صوته قوياً واضحاً مخلصاً ينفذ إلى العقل والقلب معا. وقليلاً قليلاً بدا أنجحه بالف وبدات حظوظه تنعكس. ثم انقطع عن الكتابة اللهم إلا من مقالة أو رسالة تنشرها له الـ «غارديان» أو الـ «تايمز» من حين إلى آخر على استحياء.

قابلته في باريس منذ بضع سنوات في مؤتمر من هذه المؤتمرات، دعوته إلى داري مع آخرين، منهم الديبلوماسية الذكية النشطة ليل فانوس، ومنهم مستر روبرت ستيفن الذي كان يعمل وقتها محرراً للشؤون السياسية في صحيفة «الويزفر» ويتولى شرح قضايا العرب بأسلوبه الهادئ، مثله في ذلك مثل زوجته الدكتورة هلفا قريهم. سألته ماذا يعمل فأجابني ببساطة:

«أعمل دليلاً سياحياً» عجبت أشد العجب وقلت له: «ماذا تقصد دليلاً سياحياً؟» «أرافق السواح إلى البلاد العربية، وقد عدت لتوي من زيارة لعمال» ولما رأى دهشتي تزداد، قال لي، دون أي انفعال: «عندي ولدان يدرسان في الجامعة ولا بد أن أكسب عيشي بطريقة ما، سكت، ولكنني رددت ببني وبين نفسي قول الشاعر الإنجليزي: ماء ماء حيثما نظرت، ولا قطرة واحدة تشرب» بعد ذلك في جولاتي في العالم العربي، كنت أقول لكل من أقابله من اصحاب الشأن ومن يبددهم الحل والربط: هل تعلمون أن مايكل آدمز.. مايكل آدمز.. يعمل دليلاً سياحياً؟ وكانوا يتعجبون أشد العجب، ويعيدون خيراً. ثم هبت لنجدته دولة قطر.

إنه الآن، حسب علمي، يحيا حياة أكاديمية هادئة. أرجو له العافية وراحة البال، حيثما كان. فقد حق له أن يستريح. ثم، يا رعاك الله، ليس أهل مكة أدري بشعابها؟ بل ليس أهل مكة أولى برفضاء أرضها ومطل سبحانه؟

نحو أفق بعيد

١٦



يكتبها: الطيب صالح

أبوه وأنجب بعدها. وهذه حقيقة مهمة في حياته. كانوا فقراء مستورين ولم تكن الحياة سهلة. وصل الجامعة بعد جهد، فدرس اللغة الإنجليزية في جامعة الاسكندرية فأتقنها، لفظاً ومعنى. بشكل ملفت للنظر. وكان اضربه قليلين في إتقانه للغة الإنجليزية بين من عرفت من العرب. كان صعباً أن يقتنع الناس أن «منسي» في عبته وهذره يمكن أن يتقن أي شيء. وقد قضيت كل سنوات معرفتي له. أحاول أن اقنع الناس، أنه إنسان عنده مواهب. وأنه يتقن أشياء كثيرة. قاده حبه للغة الإنجليزية بطبيعة الحال، إلى إنجلترا. فوصلها العام ٥٢. بعد سلسلة من المغامرات والألعاب والد «أونطة» وانخرط في الدراسة في جامعة ليفربول. كان فقيراً لا يملك قوت يومه. فكان يدرس ويعمل، فعمل حمالاً وغاسلاً للصحن في المطاعم، وممرضاً. ثم انتقل إلى لندن. وكان في كل تحركاته كما أخبرنا فيما بعد، يستعين بالجمعيات الخيرية والهيئات الكنسية ويلعب على كل الحبال.

عرفته العام ٥٣، أول عهدي بهيئة الإذاعة البريطانية، فكان نعطيهِ أشياء يكتبها أو يترجمها وأدواراً صغيرة في التمثيليات الإذاعية تعينه على العيش والدراسة. ظل طول حياته يحب التمثيل، وحتى بعد أن أثنى، كان يأتي إلى الإذاعة، ويؤدي أدواراً في التمثيليات، ويصر على تقاضي الأجر. وكنت أقول له «أنت ممثل جيد في الحياة، ولكنك ممثل فاشل في الفن».

قبل أن تتوقف صلتني به في تلك الأيام، زارني ذات يوم في داري، وكان يسكن مني غير بعيد في حي «فلهام» وأنا في حي «ساوث كنزنجتون». قدم في زوج جوارب من نوع رخيص. قلت له:

«ما هذا؟»

«هدية».

«وما هي المناسبة؟»

قال ضاحكاً:

«بمناسبة عيد ميلادك».

«أي عيد ميلاد؟ يا أخي اليوم ليس عيد ميلادي. وافترض أنه عيد ميلادي. هذه رشوة».

قال ضاحكاً:

«يعني...»

«الله يخيبك. يعني حين تريد أن ترشوني، تعطيني رشوة لا تزيد قيمتها عن شلنين؟»

لم يبد عليه أي شعور بالحرج، وقد كانت تلك من ميزات الكبري في الحياة، أنه لا يخجل ولا يهاب ولا يبالي ولا يحس بالحرج. قال لي وهو يضحك من أعماق قلبه، بطريقة طفولية كانت من مقومات جاذبيته:

«قلت أجرب. من عارف؟»

لكننا أصبحنا صديقين حميمين بعد ذلك، بل أنني من بين سائر أصدقائنا المشتركين، أصبحت بمثابة «أب روحي» له، رغم أننا كنا من سن واحدة، ربما لأن الآخرين، عبد المنعم الرفاعي، وأكرم صالح، وعبد الحي عبد الله، ونديم صوالحة وغيرهم، كانوا، على جبههم له، يعاملونه بفضافة، ولا يأخذونه مأخذ الجد.

في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، وأحبوه على علته. رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه، ضوضاء عظيمة. حمل عدة أسماء، أحمد منسي يوسف، ومنسي يوسف بسطاواروس، ومايكل جوزف، ومثل على مسرح الحياة عدة أدوار، حمالاً وممرضاً ومدرساً وممثلًا ومترجماً وكاتباً وأستاذًا جامعيًا ورجل أعمال ومهرجاً. ولد على ملة ومات على ملة. ترك أبناء مسيحيين وأرملة وأبناء مسلمين. حين عرفته أول مرة، كان فقيراً معدماً، ولما مات ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا اجنحة، وحمام سباحة، واستطبيلات خيل، وسيارة «رولز رويس»، و«كاديلاك»، و«مرسيدس»، و«جاغوار»، وماركات أخرى. وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية «فرجينيا»، بالولايات المتحدة، وبيتاً في «واشنطن»، ومطعمًا وشركة سياحة.

لما بلغني نبأ وفاته، اتصلت بدارده في «ثاتشيري»، في ضواحي ساوثهامبتون، بإنجلترا. أجابني صوت أمريكي لشاب، هو ابنه الأكبر «سايمون». علمت منه أن الموت أخذ أباه على حين غرة وهو في أوج الصحة والعافية، فاصيب بسرطان الكبد الذي قضى عليه خلال أسابيع، وكنت وقتها في السودان. ثم خطر لي أن أسأله كيف دُفن أبوه فأخبرني أنهم لم يدفنوه بعد، وكان قد مضى على موته نحو عشرة أيام، وأنهم ينتظرون أن تتم الإجراءات لحرق جثمانه. قلت له «ولكن أبك رجل مسلم، وحرق الجثمان محرم عند المسلمين».

فأجابني «نحن لا نعلم عن إسلامه شيئاً. الذي نعلمه أن والدنا كان مسيحياً، وكان يقول لنا «حين أموت أحرقوا جثمانى».

قلت له «أسمع. لا يوجد أدنى شك أن أبك كان مسلماً، وأنا شاهد على ذلك. أنه أمر خطير أن تحرقوا جثمان رجل مسلم. وتذكر أن أبك خلف أرملة مسلمة ولكم منها أخ مسلم. إذا قُلتَ أنه لم يكن مسلماً فمعنى هذا أن زواجه هذا كان باطلاً».

اتصلت بزوجه في الرياض فاستغاثت بوزارة الخارجية السعودية التي سارعت بالتدخل، فحسم الأمر، ودفن «منسي» - كما كنا نسميه - كمسلم، وأقيمت عليه شعائر المسلمين. وذلك بعد نحو شهر من موته. ومع ذلك نشرت صحيفة «الأهرام»، أن أهله في مصر أقاموا القداس على روحه في الكنيسة القبطية. ورغم حزني عليه فقد ضحكت. قلت هكذا «منسي، لغز في حياته ولغز في مماته. لقد أربك الناس حوله وهو حي، وهاهو يربكهم وهو ميت. كانت الحياة بالنسبة له، نكتة كبيرة، وضحكة متصلة لا تنقطع. كانت الحياة، سلسلة من «شغل الحلبسة»، كما كان يقول.

ولد ونشأ قبطياً في بلدة «ملوي»، في عمق صعيد مصر. وكان يقول لنا أنه كان يقضي معظم أوقاته مع أطفال المسلمين من سنه، فنشأ أقرب إلى المسلمين، توفيت والدته وهو بعد صبي، وكان أكبر أخوته. وتزوج

نحو أفق بعيد

١٧



يكتبها: الطيب صالح

سير توماس مور جد زوجتي العزيزة هو الوزير الفيلسوف مؤلف كتاب «يوتوبيا... أنت يا عبد الحي جاهل، طبعاً لم تسمع بكتاب «يوتوبيا». كان الوزير الأول للملك هنري الثامن، نعم، الملك الشهير الذي تزوج ثماني زوجات. أمر الملك بأعدامه لأنه رفض أن يؤدي له قسم الولاء حين فصل الملك هنري الكنيسة الإنجليزية عن سلطة البابا في روما. كذلك رفض سير توماس مور أن يطلق الملك زوجته كاترين أوف أراجون ليتزوج من أن بولين، فاهمين يا جهلة! أده سير توماس مور هو بطل المسرحية التي ألفها روبرت بولت عنه. مسرحية «رجل لكل المواسم». هذا باختصار هو الرجل الذي تنحدر من سلالة زوجته العزيزة. في مثل هذه المواقف يكون «منسي» في أحسن حالاته. يستعرض أجادته للغة الإنجليزية. ودقة معرفته بتاريخ الإنجليز. وما هو إلا يجد سبباً إضافياً أنه هو شخصياً قد أصبح جزءاً من تاريخ الإنجليز. وازداد عجبنا حين علمنا أن «العروس» بالإضافة لكل هذا، فهي أيضاً عازفة بيانو موهوبة تزاد شهره يوماً بعد يوم، وتقيم حفلات «كونسرت» في قاعة «وخمور» الشهيرة.

ويقول له عبد الرحيم «وايه اللي رمى ست محترمة زي دي علي واحد بغل زيك؟».

حكى لنا أنه تعرف بها في اجتماع لنادي «شباب

حزب المحافظين» على اثر مناظرة حامية تصدى فيها «منسي» لرئيس وزراء بريطانيا آنذاك سير انتوني ايدن. وسوف نرى فيما بعد كيف أن منسي قد مناظرة عن قضية فلسطين، وهو لا يعرف كثيراً عن قضية فلسطين، في مواجهة أحد جهابذة السياسة في بريطانيا، وخرج منتصراً. يقول منسي أنه كان رائعاً في تلك الليلة وهو يواجه الضربات لسير انتوني ايدن، ذلك الديبلوماسي المحنك والسياسي العتيق. دافع عن تأميم مصر للقناة السويس وهاجم سياسة حكومة سير انتوني ايدن العدوانية نحو مصر. بعد الاجتماع جاءت تلك الفتاة الطبية وأعربت له عن إعجابها بشجاعته وقوة دماغه عن بلد، ودعته إلى دارها وعرفته بأهلها. يقول «منسي» أنه قرر في تلك الليلة أن يتزوجها.

وهكذا تحول «منسي» بين عشية وضحاها من حال إلى حال. انتقل من غرفته البسيطة في حي «فولهام» إلى دار من طابقين في شارع «سذني» الشهير، في حي «تنلسي» العريق. كانت «ماري» تعيش هي ووالدتها وخدمتهما فقد كان أخوها واختها متزوجين. وسرعان ما أصبح «منسي» سيداً مطلق السلطان في تلك الدار الإنجليزية المحافظة. كانت حماته التي تربت على أيدي مربيات فرنسيات، وتحدثت اللغة الإنجليزية بلسنة فرنسية، تعيش في الطابق الأرضي، فاستوى هو على الطابق العلوي. كنت نراه متى زرتة يجري طالعا نازلاً أمراً ناهياً. قلب تلك الدار رأساً على عقب. وسرعان ما أخذت الدار تملأ بالبنات من البشر لم تخطر على بال أجداد «ماري» النبلاء الراقدين في مضاجعهم الدارسة في اطراف إنجلترا. يفتح «منسي» لك الباب، فتتهجم عليك روائح الملوخية والكومونية والكوارع والمسفوعة، روائح تتلوى منها دون شك، أمعاء أولئك الأسلاف في مراقدهم النائية.

يقول له عبد الحي، وقد كان يحضر للدكتوراه في الاقتصاد في جامعة أوكسفورد، بلهجة فلاحي الدلتا التي يعتز بها: «يا صعيدي يا قبطي يا ابن الد... والله عال. بقي أنت تجي بلاد الإنجليز آخر الزمن وتتزوج مين؟ حفيد سير توماس مور؟».

يترجرج جسم «منسي» الذي بدأت تظهر عليه آثار النعمة، ويتقلص وجهه المستدير، ويشيع في عينيه الوجل حين ضحك طفو في كان من مكونات جاذبيته. «أنت أصلك فلاح ما تفهمش حاجة، تفكر دي حكاية كبيرة؟ طظ. وايه يعني سير توماس مور؟ ثم ما تنساش اني أنا من سلالة ملوك الفراغة في صعيد مصر. أنت من سلالة ملوك الفراغة؟ أنت من سلالة شحاتين في الصعيد».

«استك يا فلاح. قال ايه؟ جايي يعمل دكتوراه في الاقتصاد. جاتك نيلة. ايه اللي عرف الفلاحين في الاقتصاد؟».

لو أن قسامة «منسي» كانت أقصر ببوصة واحدة أو بوصتين، لاصبح قزماً. ومع تقدم السن، ترهل جسمه، وصار له كرش كبير. ومؤخرة بارزة، فكانت تنظر إلى كرة شفت نصفين، نصف أعلى ونصف أسفل. وكان شديد العناية بمظهره، يلبس قمصان الحرير، والـ «بدل» الفاخرة، يحصل عليها بأثمان بخسة. كان يادي الأمر بفصل ثيابه عند «ترزي» في نواحي «هولبورن». وكان هذا يحصل على القماش بسعر الجملة من محلات «دورمي»، المعروفة في بيكاديلي. وذات يوم انشغل فتطوع «منسي» ليحضر له القماش، فأعطاه الرجل بطاقته، واستغل «منسي» الفرصة فسجل اسمه عند «دورمي» على أنه «ترزي». وحصل على بطاقة، وأصبح بعد ذلك يحصل على القماش بسعر الجملة بهذه الصفة. واشهد أن «منسي» كان كريماً معنا، فكان نذهب معه إلى «دورمي» ونشتري ما يلزمنا بسعر الجملة. كذلك اكتشف «منسي» بقدرته الخارقة على الاكتشاف، ترزياً ماهراً في منطقة الـ «ايسنت أند» الفقيرة، يتقاضى ربع الأسعار التي يتقاضاها التريزة في وسط لندن، فأصبح يفصل ثيابه عنده. حتى بعد أن هاجر إلى أمريكا وفتح الله عليه هناك، كان يحضر خصيصاً إلى لندن، فيشتري القماش من «دورمي» ويفصله عند صاحبه ذاك في الـ «ايسنت

اند». كان يقتني البدل والقمصان بالعشرات دفعة واحدة. ولا بد أنه ترك كميات كبيرة منها بعد موته. لن يستفيد منها أحد لسوء الحظ، لأنني اشك أن يكون في كل هذا العالم الطويل العريض، شخص واحد مثل «منسي».

ومع ذلك لم يعدم طوال حياته نساء يحبينه، بعضهن كن جميلات جمالاً بيتنا، فارعات، تراه يختال إلى جانب الواحدة منهن، فكان نخلة إلى جانب شجرة الدوم. كان وجهه صبوراً يعيل إلى الاستدارة ترجمه عينان واسعتان وقحطان يركزهما على محدثه طول الوقت، دون أن يطرف له جفن. وكانت تلك حيلة تعرفها عنه، فكانت تعابه بوسائل شتى، وكان سريع الضحك، فلا يلبث وجهه أن يتكسر بضحك طفولي. هذا مع سرعة بديهة وتملك تام لناصية اللغة الإنجليزية، وقدرة عجيبة في الذهاب بها كل مذهب. وكان جريئاً، يقتحم الناس اقتحاماً، ويرفع الكلفة فوراً كأنه يعرف الشخص من زمن. وكان هذا الشخص مهما علا شأنه ودونه مرتبة. رافقتني إلى حفل تخرجي من الجامعة، فقابل لأول مرة، سفيراً عربياً وزوجته، وكانا من أسرة حكيمة. انشغلت عنه فترة ولما عدت إليه، وجدته قد أوقف الرجل وزوجته، ووقف هو بينهما، يضرب الرجل على كتفه مرة، ويضرب السيدة على كتفها مرة، ويقول وهو يهقه بالضحك:

«أه، اتكلما كمان، والله لهجتكم ظريفة جداً».

جرت عندهما، وقلت له:..

«أنت مجنون؟ ألا تعرف هؤلاء؟».

«حيكونا مين يعني؟».

ولما أهمته، قال:..

«وايه يعني؟».

كانت الوقاحة تنفعه أحياناً، وتضره أحياناً، ولكنها كانت تسعفه مع النساء في الغالب.

حكى لنا أوائل معرفتنا به، أنه أحب فتاة في ليفربول حبا ملك عليه نفسه، وقد خطبها وحددا موعد الزواج. ولكنها ماتت موتاً مأساوياً في حادث سيارة. قال أنها كانت حبه الأول والآخر، وأنه لن يتزوج بعدها. وسوف يظل وفياً لذكرها إلى الأبد. كانت طريقته عجيبة في الحزن، يقول لك أنه حزين، ولكن لا تبدو عليه أية علامات للحزن. لم يمض وقت طويل حين جاء يخبرنا أنه قد تزوج. دهشنا دهشة عظيمة، ثم تأكدنا أنه قد تزوج بالفعل فتاة من أسرة إنجليزية عريقة تنحدر من سلالة سير توماس مور. بعضنا كان يعرف من هو سير توماس مور. والذين لم يسمعو به من قبل أعطوا «منسي» الفرصة ليتباهى أمامنا جميعاً، فشرح للذين يعرفون وللذين لا يعرفون من هو سير توماس مور بلغة إنجليزية متقنة وكاننا في فصل دراسي..

نحو أفق بعيد

١٨



يكتبها: الطيب صالح

كانت في منسي، خصلتان حميدتان . حبه للبطشاه وحفاظه للسود . وقد ظل طول حياته يحتفظ بكل الصداقات التي كونها منذ بداية حياته ويضيف صداقات جديدة . كانت قدرته مذهلة على التعرف بالناس واصطناع الاصدقاء والاحتفاظ بهم . وكان اصدقاءه من مختلف الاجناس . وشتى المذاهب والمشارب والاقدار والمراتب . وكانوا كلهم عنده سواسية ، الأمير مثل الفقير ، يعاملهم ببساطة ودون تكلف . الا انه كان يعنى بالفقراء والاطفال عناية خاصة ، ويكون معهم على سجيته تماما . ومع الاطفال يكون كأنه طفل . لقد زار الدوحة اول عهدي بها ، منذ خمسة عشر عاما وتعرف بطريقته العجيبة على عدد كبير من الناس في وقت قصير . كلهم مازالوا يذكرونه ويسألون عنه . خاصة بين سانقي سيارات الاجرة . كان يترك اثرا عند الناس لا ينسى . اثرا حسنا في الغالب ، وفي احيان قليلة شيئا من الضيق والنفور . ولكن مهما كان الامر فلن كل من يتعرف به لا ينساه ابدا . لذلك كان يجد اصدقاء جديدا ذهب . حين

رافقتني في رحلتي الى الهند والى استراليا ، وهي قصة سوف ارويها لكم فيما بعد . زاره شاب في الفندق الذي اقمنا به في سيدني . كان الشاب يخاطبه باحترام بالغ لفت نظري، فسالت «منسي» . فقال:

هذا ابن فلان الجزار . تذكر الجزار في سلون ستريت ؟ .

اول مرة رافقت فيها «منسي» الى محل ذلك الجزار اعطاني كمية عظيمة من اللحم وطلب مني مبلغا ضئيلا . قلت للرجل:

لا بد انك اخطأت في الحساب . هذا اللحم يستحق اكثر من هذا بكثير . تلفت الرجل حوله . وكان المحل مزدحما بالزبائن . قال لي: «نعم . انا اسف» .

ثم اعاد اللحم الى مكانه ووزن لي الكمية التي طلبتها . وتقاضاني ثمنا كبيرا عليها . ولما خرجنا قل لي «منسي» غاضبا:

«انت مش حتبطل التغليف بتاعك دا ؟ الرجل عاملك معاملة خاصة لاني فهمته انك صاحب» .

«طيب يا اخي مش كنت تفهمني ؟ انا ظنيت انه اخطا فعلا . ايه عرفني انك بتعمل شغل الاونطة حتى مع الجزائريين» .

لكن لم يكن ذلك شغلا اونطه . فقد كان الرجل صديقه . كما علمت فيما بعد . وقد اقام عنده اول قدمه الى لندن . واصبح كأنه فرد من افراد عائلته . وظل «منسي» وفيما لتلك الصلة طول حياته . ولما فتح الله عليه . كان من بعض هداياه الى صديقه الجزار . سيارة «روفر» .

في سيدني . سألت «منسي» لماذا يعامله الشاب بذلك الاحترام المبالغ فيه . فاجابني:

«لانني انقذته من مصير قاتم . وانا السبب في انه درس في الجامعة واصبح مهندسا» .

ولما استوضحته اكثر . حكى لي ان صديقه الجزار كان ينتمي الى جماعة دينية متزمتة تعيش بمعزل عن الناس ولا تتعامل معهم الا في اضيق الحدود ويرفض افرادها ان يدخلوا ابناءهم المدارس . وقد ظل «منسي» يحاور الرجل حتى غير فكره واخرجه من الجماعة كلية . واقنعه بادخال ابنه المدرسة وكان ابنه الاكبر .

يقول «منسي»:

«لولا ان كان هذا الشاب الآن جزارا في سيدني . او عتالا في ميناء لندن . قلت له

«كنت ادخلت الرجل الاسلام بالمرة وكسبت اجرا» .

يقول «منسي» ضاحكا . «ايامها كنت كافرا . ولو كنت مسلما . كنت ادخلته الاسلام . بس ما تنساش اني انا ادخلت عشرات في الاسلام في امريكا» .

واقول له: «سبحان الله . ربنا حكمته بالغة . يتحول واحد كافر زيك الى داعية للاسلام» .

يضحك بمتعة حقيقية فقد كانت تناقضات الحياة تستهويه وتنشع روحه كما ينتعش النبات بالماء . يقول:

«تصور واحد زيك يتجاوز واحدة من الاشراف . وانتو المسلمين اولاد المسلمين اللي متجاوز انجليزية واللي متجاوز سويسرية واللي متجاوز مش عارف ايه» .

زارته ايضا سيدة مصرية مع زوجها الاسترالي . وقد حكى لي «منسي» انه كان يعرفها ويعرف عائلتها ايام كان طالبا في جامعة الاسكندرية وانه لم يرها منذ ثلاثين عاما . تذكر ايامها في الاسكندرية . والسيدة تضحك بسعادة . وهو يسألها عن افراد عائلتها . ماذا حدث للفلان واين فلانة الآن . والزوج بيتسم . والزوجة تقول لزوجها: «هذا هو مايكل الذي طالما حدثتك عنه . كان يحبني ويريد ان يتزوجني اليس كذلك يا مايكل ؟» .

والقول له باللغة العربية:

«انت حترجع مايكل ثاني والا ايه ؟ مش خلاص اسلمت وبقي اسمك احمد ؟» . يظل يضحك . فقد كانت سيدني جميلة في تلك الايام . وكان هو في احسن حالاته . وقد عاد الزمن ثلاثين عاما الى الوراء . ومذا بهم ان كان اسمه «مايكل» او «احمد» .

ذلك لم يمنعه من ان يدعو كل اولئك الاصدقاء القدامى الذين اكتشفهم في سيدني . على حسابي . كان يدعوهم للغداء او العشاء ويوقع الفاتورة على رقم غرفتي . وقد اسعده ذلك سعادة هائلة . وظل يحكي القصة بعد ذلك مرارا وتكرارا ويضحك كل مرة بالطريقة نفسها . فلم يكن احب اليه من ان يبرهن على انه «حذق» وانني «مغل» .

بتلك الطريقة . اصبح «منسي» شخصية معروفة في كل منطقة جنوب غربي لندن بل وابعد من ذلك . كان معروفا في «وست كنزنجتن» و«ايرلز كورت» و«ساوث كنزنجتن» و«تشلسي» و«سلون» و«بلجراهيا» و«ماي فير» . يعرف بلانعي الخضار والجزارين واصحاب المطاعم والحانات والمقاهي . والاطباء والمرضات في المستشفيات . ورجال الشرطة والعمال والعمالات في المحلات التجارية واصحاب محلات البقالة والممثلين والممثلات واعضاء في البرلمان واستاذة في الجامعة ورجال دين واصنافا لا تحصى من البشر . ولم تكن معرفة سطحية . كانوا جميعا اصدقاء يزورونه في داره ويوزرونهم في دورهم . طائفة هائلة نادرة المثال . طائفة «نابوليونية» كما كان يقول . وسيارة مثل فقاغة الصليبون وتسمى «الفقاغة» (Bubble Car) ظهرت لفترة قصيرة تلك الايام ثم اختفت . كانت له «عجلة» اول مجيئه الى لندن . وبعد ان تزوج وانتقل الى «سيدني ستريت» وتحسنت احواله نسبيا . اشترى تلك السيارة العجيبة . كنت اكون معه احيانا فننحشر في عز الزحام في بيكاديلي بين حافلتين من باصات لندن الحمر الضخمة ذوات الطابقين . يثير منظر تلك السيارة القمينة المكورة بسقفها الزجاجي ونحن قابعان في جوفها . سخريه الركاب من وراء ومن امام . ويتحول ميدان «بيكاديلي» الى سيرك . الناس يهتفون والسيارات ترمز . ونحن حبيسان في تلك الفقاغة . و«منسي» يضحك ويضحك ويضحك ■

للحديث بقية .

نحو أفق بعيد

١٩



يكتبها: الطيب صالح

لكن «منسي» لم يكن يستطيع. فالحياة شيء والفن شيء. والأونصة قد تصلح في الحياة. ولكنها لا تصلح في الفن أبداً. في الحياة، يمثل بالسليقة. وكان قوي غير مرئية تسنده. يجازف. ويتخطى الحواجز. ويذهب أبعد مما يجب. تماماً كما يفعل الشعراء الموهوبون. ولو أنه رضي بذلك الدور الذي هيأته الحياة له. لعله كان ينجح أكثر مما انجز بكثير. وأنا لا أشك. أنه كان في متناول يديه لو أراد. أن يصبح من أساطين التجارة والمال. لكن «منسي» كان يريد أن يحيا وأن يكتب وأن يمثل. وفوق كل شيء، أن يضحك. كانت تلك متعته الحقيقية. أن يحول أحداث حياته إلى مادة للضحك. ولم تكن تراه أسعد حالاً منه وهو يتصدر مجلساً والناس منجذبون إليه وهو يحكي لهم بعض ما حدث له. ذلك كان مسرحه الحقيقي. ويستحسن أن يوجد شخص، مثلي، يكون شارك في تلك الأحداث. لكي يذكره ويذكرني جذوة حملته. أحك لهم يا طيب لما سافرنا لبيروت. حصل إيه في المطار.

هذا معناه أنه يريد أن يحكي هو القصة. فأعطيه طرف الخط. وأضيف شيئاً من حين لآخر. وأوجه الوجهة التي يريد بها بالفعل. لذلك فبالإضافة إلى أنني كنت «أباروحي» له. فقد كنت أقوم بدور الممثل المساند في العروض الكوميديّة. كما عند «لوريل وهاردي» و«موركم ووايز». تجد شخصين في هذا النوع من الكوميديا. بينهما تباين واضح جسمياً وعقلياً فالنحيل إزاء السمين والطويل إزاء القصير. واحد ذكي واسع الحيلة يخرج من المشاكل مثل الشعرة من العجين. والثاني «أهبل». يتعثر فيقع ولا يدري أين الباب فيخبط رأسه في الحائط. وهو الذي تقع على رأسه المشكلة. عموماً هذا كان دوري. واعترف أنه دور قميت به طائفاً مختاراً وعن أدراك تام. فأنا جانب مودتي العميلة له. فقد كان «منسي» ظاهرة فريدة. ظللت أسايره وأراقبه بحيرة ودهشة وضيق في بعض الأحيان ومتعة بصحبته في أحيان كثيرة. لقد كان مثلي في هذا كل أصدقائه الحميمين. ولكن لعلني كنت الوحيد بينهم الذي قبله على علاته وأخذه مأخذ الجد. أما «منسي» نفسه لم يأخذ الدور الذي هيأته الحياة له مأخذ الجد. وأراد أن يلعب أدواراً لم يكن مهياً لها. وكان حين يخطئ في الحياة يخطئ لأنه يتصرف كـ «فنان». في ذلك الفن الحقيقي الموهوم. فيصبح مثل ممثل على المسرح ينسى دوره ويتلعم ويفقد حاسة التوقيت والقدرة على الاستجابة لذلك اكتفى ببضعة ملايين بدلاً من مليارات. وبقصر واحد بدلاً من قصور ويخوت ووطنات خاصة وبنوك وشركات. والآن. وقد مات فجأة مثل حصان سباق كبا ولما يبلغ نهاية الشوط. أعود فأقول. أنه كان حكيماً بل زاهداً بدرجة ما. فعاداً يضير الإنسان بعد الموت أنه لم يترك وراءه شيئاً. وهذا يجديه أنه ترك مليوناً أو ملياراتاً.

كان يكتب تمثيليات لا قيمة لها ثقيل بعضها وترفض أغلبها. وأذكر أنه كتب مرة تمثيلية عن رجل صاف رجلاتهم أن ينتحز بالقاء نفسه في النهر من الجسر. فأخذ يحاوره إلى أن اقتنع بعدم الانتحار. ذهب الثاني إلى حال سبيله. وانتحر الأول بأن القى بنفسه في النهر. كان «منسي» سعيداً بها. ولكنني حين قراتها وجدتها ميتة ليس فيها حياة. وكان مناوراً تائراً وأضحا بالكتابات المسرحية الكبير «ساميول بكت». دون أي شيء قريب من فكر «بكت». وأعماقه الفلسفية. لذلك رفضتها. وعجبت حين علمت فيما بعد. أن منسي عرضها مترجمة إلى اللغة الإنجليزية. على «ساميول بكت» شخصياً. وأن ذلك الكتاب العملاق الذي أحدث فتناً حقيقياً في المسرح العالمي بمسرحيته. في انتظار غودو. قد قرأها بأعنان ونالقت «منسي» عنها باهتمام. وأنه انتهى عليها وقال له

هذا عمل جميل ملفت للنظر. ■

للحديث بقية.

كان باب شقنتنا في «نيرولوبليس» قبالة متحف فكتوريا والبورت. يفتح على الممر الذي يؤدي إلى الدار الفاخرة التي تسكنها «مارفو فونتين» فنانة الباليه الشهيرة مع زوجها سفير بنما. كانت شقة واسعة تحت الأرض Basement تقاسمتها مع صلاح أحمد محمد صلاح. ولما عاد إلى السودان تركها في «سكن معي محمد إبراهيم الشوش». كان صاحب الدار. مستر «بومبيرج». وهو أخو الرسام المعروف «ديفد بومبيرج». يزورنا أحياناً أواخر المساء مع زوجته. ونحدث في الفن والشعر والأدب والمسرح والسيلسة. وما شئت من أحاديث يسوقها شرح الشباب وهذوء الليل وانفتاح الشبهة للحياة. لم أشتري الشقة لسوء الحظ كما نصحتني مستر بومبيرج بذلك الثمن القليل الذي عرضه أكراماً لتلك الأمسيات. وكان ذلك واحداً من القرارات الكثيرة الخاطئة والفرص الضائعة. والآن وقد أخذ العمر يتقاصر ويستطيل ظل الماضي. انظر إلى الوراء فأرى تلك الأخطاء تشرئب بأعناقها كالجمال عند خط الأفق. يضحك «منسي» ويقول لي «أنت حفضل مغفل. أراي تضع فرصة زي دي؟ ولعله كان على حق. فمن غير مغفل. مثلي يدفع فواتير الحساب لرجل مليونير مثل «منسي».

كما فعلت في «سبديني»!

كنت أرى «مارفو فونتين» راتحة أو غادية في سيارتها الـ «رولز رويس» لتحييني وأحييها على البعد. ولم يخطر على بالي أن أذهب أكثر ولم أقابلها وجهاً لوجه وأحدث إليها. إلا بعد عامين من سكني جوارها. وكان ذلك في دمشق. أما «منسي» فما أن أدرك أنها جارتني حتى سارع بالتعرف عليها وعلى زوجها وصار يزورها ويؤرهما ويؤرانه. كذلك تعرف على الممثل الاسترالي المعروف «بيتر فنش». والممثل الأيرلندي الشهير «بيتر أوتول». وكانا يسكنان قريباً منه في «نتلسي». كان حي «نتلسي» تلك الأيام محط الرسامين والشعراء والكتاب والممثلين. ثم ارتفعت أسعار السكن في السبعينات فهاجروا بعيداً إلى شرق وشمال لندن. وبعضهم ذهب إلى الريف. لم يكن عسيراً على «منسي» أن يتوغل في ذلك المجتمع الجذاب. وهو مجتمع منفتح بطبيعته. أقل مغوراً من الإنسان الأجنبي. من المجتمعات الإنجليزية الأخرى. وهب أنه لم يكن كذلك. فهل كان الأمر يستعصي على «منسي» أبداً. أنه الآن على أي حال مسلح تسليحاً غير عادي. فهو. بالإضافة إلى جرأته ولغته الإنجليزية المطواعة. يسكن في شارع معروف في حي عريق. ووراءه أصهاره الأملج. ثم زوجته عازفة البيانو المعروفة في الأوساط الموسيقية. العجيب أن «ماري» زوجة «منسي» لم تكن تكثر بالوسط الفني ولم يكن يبدو على سمعتها أنها «فنانة». كانت سيدة بيت عادية. تجدها دائماً تكتس أو تغسل أو تطبخ. بينما هو يتصدر المجلس يتدفق في الحديث عن الرسم والشعر والمسرح والموسيقى وما شابه.

عن طريق هذه الصلات الواسعة. حصل على أدوار صغيرة في السينما. كان يهول لنا الأمر. كأنه هو البطل. ثم تذهب ونشاهد الفيلم فلذا «منسي» سابق تكتسي في القاهرة أو «جرسون» في مقل في بيروت. وإذا دوره لا يتجاوز دقيقة أو دقيقتين. ولو كانت عنده أدنى موهبة في التمثيل لحملته تلك الصلات بعيداً. ولكنه كان ممثلاً موهوباً في الحياة فقط. أما في «الفن» فكان شيئاً آخر. ما أن يقف أمام الميكروفون أو الكاميرا. حتى يصبح فائراً أو يبالغ في الأداء فيبدو سخيفاً. كان جمال الكنانة رحمه الله. وقد كان رئيساً لقسم الدراما في الإذاعة تلك الأيام. يحبه ويعطيه دوراً في أي تمثيلية يخرجها. ليستمتع بمعبثته وشمته. كانوا كلهم يشتمونه يبدون حديثهم معه بيا كذا. ويا ابن كذا. يصرخ جمال كنانة «يا واد يا ابن... أنت طول الوقت عمال تتنطط وتترقص وأول ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تنهد. الله يخرب بيتك. ما تحط شوية من الأونصة دي في الشغل».

نحو أفق بعيد

٢٠



يكتبها: الطيب صالح

كان العرب في ذلك الاجتماع مجمعين على نصره القضية الفلسطينية وتأييد كفاح الجزائر الذي كان قد أبتغ وحان قطافه ، ومختلفين على كل ما عداهما . لكنني كنت غرض الإلهاب جدا ، وكذلك العالم العربي ، ومصر وسورية متحدتين ، ودمشق ، الفيحاء ، فيحاء بحق وحقيق ، والقاهرة ، الظافرة تصنع احلاما تبدو كلها قريبة المنال . صلاح جاهين يكتب وام كلثوم تغني ، وعبد الوهاب . وصباح تهتف ، كأنها تصدق ما تقول . انا عارفة السكة لوحدية . من الموسكي لسوق الحميدية . مسكين سوق الحميدية . كان تلك الايام حول الجامع الاموي العتيق . كما كان على ايام هشام بن عبد الملك . لم يكونوا قد ازالوا بعد ، ذلك الماضي السحيق العريق ولم يشقوا طرق الاسفلت . ولبنان كأنه في حلم جميل لن ينتهي . المال يتدفق من كل الجهات . كما قال الشاعر القطري ، البيب فاض ومصب السيل لبنان ، والمصارف لا تدري اين تضع

البيزات ، والليرة مثل الذهب ، والمطاعم والمراقص والملاهي غاصة بالخلق من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر ، ونساء بيروت على طول الساحل يستقبلن شمس البحر المتوسط وكان ذلك الزمان الرغد سوف يدوم الى الابد . كان اخونا نزار قباني يكتب شعرا يبكي العذاري في خدورهن ويجعل العجايز يتحسرن على شبابهن ، وقال بيتين سار بهما الركبان :

انبلول للمضم هل اخبروا امي
فعد لسي زنديك اني هنا عندك

اه يا صفا . ما اقسى ما عبثت بي وبكم الحياة منذ ذلك العهد ! اجل كانوا احفيا بي حقا . ارسلوني لفترات طويلة الى مكتبهم في بيروت ، وكانت تلك ميزة لا ينالها الا اصحاب الخطوة ، وحاضرت في معهد التدريب عدة مرات ، وكان مستر ووترفيلك رئيسنا الاعلى يقول لي ضاحكا :

« انهم دعوني مرة واحدة ثم لم يدعوني بعدها . لماذا انت دعوك مرة وثانية وثالثة ؟ »

كان نصيبي من السفر في مهمات رسمية اكثر من غيري ، وكان كلما يجد امر يضيفي بريقا ويزيد من الحسنات التي تسجل في التقارير السنوية ، يقولون « فلان » في اغلب الاحيان .

لا عجب اذا انني كنت مغتبطا بوضعي ، راضيا عن نفسي ، ارى الدنيا مثل حسناء مرغوبة تدعوها فتستجيب .

وبينا انا كذلك ، اذا بمنسي . رحمه الله وغفر له . يعرض لي كما عرض ابليس لادم عليه السلام في الفردوس ■ للحديث بقية .

لولا « منسي » رحمه الله وغفر له ، لعل الرياح كانت تمضي بي رخاء في عملي في هيئة الاذاعة البريطانية . كنت سعيدا ، مرضيا عني ، يضرب بي المثل . وقد رفعوني الى رتبة مساعد رئيس قسم ولما ابلغ الثلاثين . وكان ذلك امرا عزيزا تلك الايام . اصبحت احضر اجتماعات رؤساء الاقسام . وفي مكتب مستقل وسكرتيرة . شاهدت حفل تتويج الملكة من داخل بيعة « وستمنستر ابي » مع عليه القوم الذين دعوا لتلك المناسبة من الشرق والغرب ، وبعدها جالست رؤساء ووزراء في الحفل الذي اقيم في « وستمنستر هول » . صحيح ان الزبي الذي ارتديته لتلك المناسبة ، كان « عاريا » ، مستاجرا من محلات « موس برذرز » في « كوفنت غاردن » . ستره سوداء ذات ذيل تجعلك تبدو مثل طائر البطريق ، وقبعة طويلة وياقة منشاة . وصحيح انني بعد ان انتهي الحفل وانفض السامر ، جاءت السيارات الفاخرة تحمل اولئك الرؤساء

والوزراء . اما انا فقد سرت على قدمي الى محطة القطار الذي يسير تحت الارض . وكان القطار مزدحما ، فظلت واقفا والناس يعجبون مني وانا في زي الوجهاء ووضع الدھماء . ذلك وضع كان اليب بمنسي . اذن لاستغله احسن استغلال وحوله الى قصة اخرى تروى . لكنني على اي حال تمتعت بذلك العالم السحري في ذلك اليوم القصير ، وما كنت اعلم ان الحياة كانت تعابثني مثل امرأة لعبوب ، كما ظلت تفعل ، لانها كانت تراودني لامر لم يكن يخطر لي على البال .

كذلك كنت اول عربي يرسلونه الى نيويورك لاستغطة ، اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ذلك الحدث المشهود الذي امه معظم زعماء العالم ، وكنت شاهدا حين خلع نيكيتا خروشوف حذاءه ، وضرب به المائدة احتقارا ، ورئيس وزراء بريطانيا واقفا يخطب . رايت اعضاء نيجيريا يدخلون القاعة في ثيابهم الفضفاضة ، والدنيا لا تسعهم من الفرح ، يتقدمهم ذلك الرجل الوقور سير ابو بكر تافوا بليوه . كانت نيجيريا قد استقلت توها وقبلوها عضوا في منظمة الامم المتحدة . ذبحوه ذبحا بعد ذلك ، كما ذبحوا احمدو بللو السردوانا الجليل في هوجة من هوجات الجند التي يسمونها ثورات . وكنت شاهدا حين اعلن داج همرشولد الامين العام للأمم المتحدة انه لن يستقيل كما طالب الاتحاد السوفييتي . مرت الاعوام ولعبت الولايات المتحدة الدور نفسه ازاء صاحبنا احمد مختار امبو مدير عام منظمة اليونسكو . يومذاك في نيويورك شن خروشوف حربا شرسة ضد همرشولد واتهمه بانه ذيل الغرب وانه مسؤول عن مقتل باتريس لومومبا وكل الناس التي حدثت في الكونغو . واذكر جملة قالها همرشولد في خطابه القصير الذي اعلن فيه انه باق في منصبه . قال موجها حديثه لزعماء دول العالم الثالث « هذه المنظمة لم تقم لخدمة الدول الكبرى . انها انشئت لخدمتكم انتم ، فانتم الذين تحتاجون لها لا الدول الكبرى » .

نحو أفق بعيد

٢١



يكتبها: الطبيب صالح

ويعمل محرراً في قسم الاستماع في كفرشام ؟
هذا «الخوaja» ايضا لم يكن بيني وبينه ود .
او على احسن الفروض كانت علاقة متارحجة
تحسن احيانا وتسوء في اغلب الاحيان . لم يكن
من «العروبيين» كما كانوا يستفون . امثال مستر
ووترفيلد ومستر هوايتهد . اولئك الرجال
والنساء الذين عاشوا سنوات شبابه في العالم
العربي . وتعرفوا على العرب عن قرب واحببهم .
كان هذا متخصصا في الشؤون الألمانية . رجلا
متوقد الذهن وراعه تاريخ اكاديمي مشرق . ولكن
يبدو ان اشياء قد حدثت له عكزت عليه صفو
حياته . وقد عمل معظم وقته في اقسام الاذاعات
الموجهة الى شرق أوروبا . وهي اذاعت كنا نعددها
اقرب الى وزارة الخارجية منها الى هيئة الاذاعة
البريطانية . وقد كان كفاحنا نحن العرب تلك
الايام . يؤيدنا في ذلك مستر ووترفيلد ومستر
هوايتهد . منصبا على ابعاد القسم العربي من
نفوذ وزارة الخارجية . وجعله خدمة اذاعية
حقيقية . كان انسانا متناقضا مستترا يستدرجك
الى التناقض . فلذا انسقت له وعبرت عن رايتك
بصرامة . فجاء قلبك لك ظهر المخبر . ولكن يزعج

دخلت مكتب مستر ووترفيلد فاذا
هو ومساعداه ومعهما مراقب الادارة
للاذاعات الخارجية . كان رجلا مبهوب
الجانب . لا يظهر عندها الا اذا طرا امر جليل . ولم
يكن بيني وبينه ود . فقد كان يعتقد انني مدلل
اكثر مما يجب وانني لا اعبأ كثيرا بالنظم
الادارية . لم يهش مستر ووترفيلد في وجهي
كعادته . وانشأ إلي بالجلوس . نظر اتي مراقب
الادارة نظرة صارمة من وراء نظارته السمكية .
ولم يمهلني طويلا . ولكنه ناولني في صمت رزمة
من الاوراق . قلبتها واننا لا اعلم حقيقة الامر . فاذا
هي جميعا اوامر دفع باسم مستر «بسطاوريوس» .
نظير اشتراكه في عدد من البرامج . وكلها مهمورة
بتوقيعي . لم بلغت انتباهي فيها شيء فاعدتها
اليه . اعطاني انها مرة اخرى وقال لي :

«تفحص الاوراق جيدا .
درستها على مهل . وانا اعلم فكري محاولا ان
اجد تفسيراً لهذه المحكمة . كان من الواضح انها
محكمة ادارية وان امرا خطيرا قد حدث . فإلى
جانب وجود ذلك الموظف الكبير . كانت في ركن
المكتب سكرتيرة تسجل ما يدور . ايضا لم لاحظ
اي شيء غير عادي . ولما فرغت رفعت راسي ونظرت اليه نظرة لا بد انها نمت
عن احساس تجاهه . فقد سارع مستر ووترفيلد . وقد كان كريما معي دائما .
وابتسم لي ابتسامة خفيفة جدا كأنه يقول لي «طول بالك» . كان مستر
ووترفيلد كما حدثتكم في مكان آخر . كاتباً . وكان منصب رئيس الاذاعة
العربية اقل منه بكثير . وكان في قرارة نفسه يحتقر البيروقراطيين ويضيق
بالتزم الاداري . وقد خاض معارك عدة ضد هذا الرجل بالذات .
قال لي مراقب الادارة بصوت بارد . كما يكون صوت الانجليزي باردا حين
يخلو من الود :

«هذه التوقيعات هي توقيعاتك . اليس كذلك ؟»

«نعم» .

«هل درست الاوراق جيدا ؟»

«نعم» .

«الم تلاحظ اي شيء غير عادي ؟»

«مالذا تقصد اي شيء غير عادي ؟»

«الاجور المطلوب دفعها مثلا» .

«مالها الاجور المطلوب دفعها ؟»

«كم تدفعون لمثل من الدرجة (الف) على تمثيلية طولها نصف ساعة ؟»

«ندفع كذا» .

«واذا كان موظفا في هيئة الاذاعة البريطانية ؟»

«ندفع له ثلث الاجر» .

«انتظر الى الاجور التي دفعت لمستر بسطاوريوس على مدى ..»

قال هذا . وناولني الاوراق . نظرت فيها فاذا هي اجور كاملة .

هل كنت تعلم ان مستر بسطاوريوس او مستر مايكل او مهما كان اسمه
موظف في هيئة الاذاعة البريطانية ويعمل محرراً في قسم الاستماع للاذاعات
الاجنبية في كفرشام ؟

صمت وقد بدأت افهم جسامه الخطا الذي وقعت فيه . ومع انني لعنت
«منسي» في سري . فانني لم افكر طويلا . فقد كنت غفرا . وقد اخذتني العزة
بالاثم . ولعلني قلت لنفسني «ان كان هذا (الخوaja) متعجرفا فيوسعي ان
اجعل فوق جهل الجاهلينا . واسو اما يمكن ان يحدث هو ان استقبل واعود
ادراجي من حيث اتيت وارتاح من التناقضات ووجع القلب» . قلت له . وقد
استقر عزمي على الاستبسال . كما يفعل «اولاد العرب» عندنا حين يخرب
الامر :

«نعم» .

التفت اتي مستر .. مساعد رئيس القسم فجأة . واعاد علي السؤال بلؤم
وبطء :

«هل كنت تعلم ان مستر بسطاوريوس موظف في هيئة الاذاعة البريطانية

انه مفكر متحرر . ويقول لكل من يقابله من الزوار العرب :

«انا رجل راديكالي الفكر . انتمي الى اليسار المتطرف من حزب العمال» .

وكنتم اعقب علي قوله :

«مستر .. هذا يدعي انه متحرر ولكنه في الواقع استعماري امبريالي» .

هذا كان يغيظه . كما قدرت . وقد ناداني مرة الى مكتبه وقال لي :

«انت تخرجني بهذا الكلام» .

والقول له . مستندا الى «اصول اللب» . الانجليزي :

«ولكن يا مستر .. هذه دُعابة . الا تقبل المزاح ؟ الستم تقولون انكم

تتمازجون على سائر الامم بروح الدعابة ؟»

انني ادرك الان انني كنت «لا مباليا» اكثر مما يجب . ربما لانني كنت اعني

تناقض وضعي . خاصة في سنوات الغليان القومي تلك في العالم العربي .

وكانما كل نجاح احرزته في عملي مع الانجليز . يزيد وضعي تعقيدا . وكانني

كمن يهدم اليوم بيديه ما بناه بالامس . وذلك سلوك لم يكن يقدره او يحتمله

الارجل «كبار» حقيقة . امثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد .

قلت له :

«نعم» .

نظر بعضهم الى بعض بطريقة لم افهم مغزاها الا فيما بعد .

سالني مراقب الادارة وهو يتصنع الرفق . وقد حق له ان يتصنع الرفق .

فقد وضعني . كما خجل له . في مازق لا مخرج منه :

«هل كان مستر كناني يعلم ؟»

كان جمال الكناني . رحمه الله . العربي الاول في القسم تلك الايام .

مستودا سندا كاملا من مستر هوايتهد ومستر ووترفيلد . يفعل ما يشاء ولا

يبالي . وكانت كراهية مراقب الادارة هذا له ربما تفوق كراهيته لي . لذلك . من

الواضح انه يريد ان يقتل عصفورين بحجر واحد . قلت له :

«لا اعلم» .

كيف لا تعلم ؟ الست مساعده وتقوم مقامه في غيابه ؟ الم نتحدثنا ابدا في

هذا الموضوع ؟

«لا» .

نظر بعضهم الى بعض كزة اخرى . وقال لي مساعد رئيس القسم بسلامته

المعهودة :

«مستر بسطاوريوس صديقك . اليس كذلك ؟»

هنا سارع مستر ووترفيلد الى تجديتي . نظر الى مساعده نظرة صارمة .

وقال له :

«علي رشتك يا فلان» ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

٢٢



يكتبها: الطبيب صالح

كيف كان ينجز كل هذه الأعمال في وقت واحد؟ يتحرك بين أماكن متباعدة مستعملا سيارته الـ «فكاعة» تلك، فبينما تراه في «كفرشام» على بعد ساعة من لندن، اذا هو في أقصى شمال المدينة، ثم اذا هو عندنا في «بش هاوس»، فكانك تراه ولا تراه، وكأنك تدري اين هو وكأنك لا تدري. لا عجب ان كل المسؤولين في القسم انكروا انهم يعلمون. لقد كانوا فعلا لا يعلمون، وكانوا يعلمون في الوقت نفسه. وانا لا استطيع ان اوقن هل خالفتم حماية لمنسي، ام خيل لي انني اعلم بالفعل.

امضيت وقتا وبذلت جهدا بعد ذلك في اصلاح خطئي، ولكن تلك البحبوحة التي غمرتني لم تعد الى سابق عهدها ابدا، فقد ظلت تلك الحادثة تلاحقني في التقارير السنوية زمنا ليس بالقصير. اما «منسي» فقد خرج كعادته من القضية كلها كما تخرج الشجرة من العجين. وصل بطريقته الى مدير الاذاعات الخارجية، وكان يعتبر الرجل الثاني في ادارة الـ B.B.C. بلسرها، ياتي بعد

المدير العام مباشرة. اقتحم على مستر «تانجي لين» مكتبه دون موعد، ولما عرفه بنفسه، فهقه الرجل بالضحك. قال له، كما روى لنا منسي، وهو يغرق في الضحك «انت الرجل الذي ادخل القسم العربي في ورطة كبيرة».

كان «تانجي لين» هذا من الرجال «الكبار» من فصيلة مستر ووترفيلد، ولم يكن اداريا بالمعنى الضيق، ولكنه كان متسامحا حلما واسع الافق. كان رجلا مستنيرا قضى فترة من حياته في مصر. وكان كاتباً مرموقاً له كتاب مهم اسمه «النابوليونون» عن الانجليز الذين سبحو عكس التيار القومي في بريطانيا وايدوا «نابليون بونابرت» في صراعه ضد الانجليز. وقد كان على صلة وثيقة باوساط الكتاب والفنانين، فاخوه «ديفد لين» المخرج السينمائي المعروف الذي اخرج فيلم «لورانس العرب» ولا بد ان شخصية «منسي» قد استهوته. فقد استماله تملعا الى جانبه ودعاه الى داره وعرفه بزوجه وعياله. وسرعان ما اعيد «منسي» الى عمله في «كفرشام» وصدر امر للقسم العربي بان يرفعوا الحظر الذي كانوا فرضوه عليه.

ظل «منسي» على صلة وثيقة به حتى مات. وقد رد له الجميل حين زار مستر «تانجي لين» مصر، وكان «منسي» يعمل وقتها استاذاً في الجامعة الامريكية في القاهرة. سخر كل نفوذه وصلاته الواسعة لخدمته، فاستقبل كأنه رئيس وزراء، ورتب له طائرة خاصة حملته وزوجه الى الاقصر واسوان، ورافقه في كل تحركاته في مصر.

انني لم اكن اقبل مستر «تانجي لين» الا مرة واحدة في العام، حين كان يقرأ علي التقرير السنوي وكان حين يصل الى الجملة التي ظلت تتردد في التقارير على مدى سنوات، ولكن عليه ان يعتني اكثر بالمسائل الادارية، بيتسم بلطف كأنه يقول لي:

«لا عليك فانا اعلم مصدر هذه التهمة».

(للحديث بقية)

ليتني، غفر الله لي، اكون ولو ممسكا بخطام بعير سيدنا عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما. ذكروا ان رجلا سبه في الطريق، فلم يرد عليه وظل سائرا والرجل يتبعه ويسبه. فلما وصل سيدنا عبد الله بن عمر الى داره التفت الى الرجل وقال له: «يا هذا، انا وعاصم اخي لا نسب للنس». واكثر ما يهزني في هذه القصة انه قال «انا وعاصم اخي». ولك ان تتخيل انه لم يرد ان ينفرد بالفضل، او انه ذكر اخاه في ذلك السياق لغرط محبته له، وكأنه معه. يستحضره في جميع احواله. وعاصم هذا كما نعلم هو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، من تلك الاعرابية التي آبت ان تغش اللين وقالت لأمها «ان كان عمر لا يرانا فان الله يرانا». فرأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفراسته ما رأى، فزوجه من ابنه وجاء من ذريتهما اشج بني مروان، الذي اوسق الدنيا عدلا. زمنا قصيرا ليته طال، الى ان مات او قتل. تلك ذرية بعضها من بعض.

ذلك لان من حسناتي القليلة، عفا الله عني، انني لست شتاما ولا صخابا في الاسواق. بيد ان منسي يومئذ، اخرجني عن طوري. لقد قطع علي طريقي، وظهر فجأة مثل الشيطان ليفسد علي ذلك الحلم الجميل. هاأنذا الان متهم بالتقصير الاداري وهو تقصير واضح لا مرأى فيه. لكنه محتمل، الذي لا يحتمل هو انني متهم في امانتي وقد كنت اظن انها فوق الشبهات.

«مستر بيسطاوروس صديك، اليس كذلك؟».

هكذا قال مساعد المدير. ومع ان مستر ووترفيلد الكريم هب لنجدي، فان الضرر قد وقع والكلام قد قيل ان حقا وان كذبا. بل ان الامر كان اكثر فداحة، فقد علمت فيما بعد انهم استجوبوا قبلي، جمال الكنانى رئيس القسم، وكان رغم نضجه وتجربته الطويلة قد وقع في الخطأ نفسه. قال انه لم يكن يعلم ان «منسي» موظف في قسم آخر في هيئة الاذاعة البريطانية. كل المسؤولين في القسم انكروا انهم يعلمون، وهذا يعني انني خرجت على اجماع المسؤولين في القسم فاغضبهم ذلك، وقبلت تهمة التقصير، ووضعت نفسي في وضع مريب.

لذلك خرجت عن طوري، وشتعت «منسي» أقصى ما اعانني عليه طبعي. لكنه لم يأخذ الامر مأخذ الجد، واعتبره نكتة وشطارة و «شغل خلبسه». لقد اريك كعادته، جهازا اداريا ضخما منظما تنظيما دقيقا. كانت اوامر الدفع تذهب من عندنا الى الوحدة الادارية في القسم للتدقيق والمراجعة، وهي بدورها ترسلها الى القسم الاداري للاذاعات الخارجية ومن ثم تذهب الى الجهاز الاداري المركزي. كان «منسي» رحمه الله، يعمل في قسم الاستماع باسم «مايكل» ويعمل معنا باسم «بسطاوروس»، وفي الوقت نفسه يعمل مدرسا للغة الانجليزية في مدرسة ثانوية باسم «جوزف». وظل هكذا قرابة ثلاث سنوات، وكل اولئك الاداريين يدققون ويحسبون ويراجعون. ولا احد يدري، الى ان اكتشف بالصدفة المحضة بعد ذلك، حين كان يسترجع هذه القصة كان اكثر ما يطر به فيها انه كان يعلم الانجليز لغتهم.

نحو أفق بعيد

٢٣

هذه السيدة من الناس الاخيار الذين صادفتهم في رحلة الحياة. تعرّفت بها عام ١٩٥٤ او نحوه بواسطة «منسي». كانت تعمل رئيسة لقسم النصوص في الاذاعات الداخلية في هيئة الاذاعة البريطانية، فاكشف «منسي» وجودها فوراً، وكانت قد درّسته اللغة الانجليزية في جامعة الاسكندرية. واذا كنت انا قد قمت بدور «الاب الروحي» له فان هذه السيدة كانت له بمثابة الام. كانت علاقة مؤثرة حقاً. يكون «منسي» على سجيته تماماً معها. يضحك كالطفل، ويقص عليها كل ترهات حياته، وهي تضحك. ولا تجد غرابة في كل ما يقوله او يفعله. وكان «منسي» على صلة دائمة بها. يكلمها بالتلفون حينما كان، ويمر عليها في باريس في كل سفراته ليقضي اليوم واليومين.

تخرّجت باربرا من جامعة كامبردج واخر الاربعينات حيث درست الادب الانجليزي. وعملت فترة هي وزوجها، محاضرين في جامعة الاسكندرية. وقد مات زوجها، وكان

شاعراً موهوباً في حادث سيارة في اليونان، وترك لها طفلتين عكفت على تربيتهما، فنشأتا نابغتين، فدرست الكبرى اللغة الصينية وهي الآن من العلماء المعدودين في ميدان الدراسات الصينية، وتخصصت الصغرى في اللغة العربية ونبغت فيها. وربما يعود اغلب الفضل الى «باربرا براي» في اكتشاف الاسماء التي اصبح لها فيما بعد شأن كبير في المسرح الانجليزي، امثال هارولد بنتر و جون ازدن وجون اوزبورن فقد استغلت نفوذها كرئيسة لقسم النصوص في الترويج لاعمالهم واخرجت بعضها للاذاعة في البرنامج الثالث. واليها ايضا يعود الفضل في ذيوع شهرة «ساميول بكت» في انجلترا. كان «بكت» معروفاً في القارة الأوروبية وخاصة في فرنسا، فهو يكتب باللغة الفرنسية بالجودة نفسها التي يكتب بها بالانجليزية. لقد احبه الالمان لانهم وجدوا في القنامة الموحشة التي تشيع في اعماله شيئاً صافاً نزعاً في طبعهم، واحبه الفرنسيون لانهم اعجبوا بجراته اللغوية، واغوتهم موهبته، وهي موهبة يمتاز بها الكتاب الايرلنديون عموماً، في خلط الجد بالهزل ودفع الاشياء الى ما وراء حدود المعقول. اما الانجليز الانجلوسكسون فقد انتظروا الى اوائل الخمسينات الى ان قبض لـ «بكت» اناس امثال «باربرا براي» يفتحون عيونهم على ابعاد عبقرية هذا الكاتب الفذ.

(للحديث بقية)



يكتبها: الطبيب صالح

اقتحم «منسي» بصخبه وضوضائه عالم «ساميول بكت» الهاديء المنعزل وكانت وسيلته الى ذلك «مسز باربرا براي». هذا الكاتب صاحب المسرحيات والروايات التي اصبحت معالم في مسيرة الادب العالمي، يعيش في فرنسا منذ سنوات، لا يقابل الا نفراً قليلاً من الحواريين والاصدقاء، ولا يتحدث للصحف ولا يظهر على شاشات التلفزيون. وحين فاز بجائزة نوبل قال مذكوراً «الآن حلت اللعنة، واختفى زمنا الى ان هدأت الضجة. وقد خطر لي منذ اعوام ان اعمل معه مقابلة لمجلة حوار التي كان يحررها المرحوم توفيق صايغ وطلبت من مسز باربرا براي ان ترتب لي لقاء معه. قالت لي:-

«سوف ارتب لك اللقاء. ولكن حين تقابل سام، سوف تدرك انه يجب عليك الاتصر على اجراء حديث صحفي معه».

سالتها عن السبب فقالت:-

«سام رجل قديس، منطو على نفسه والفكاره، لا يفهم امور الدنيا ولا يحفل بها، ويريد ان يترك وشائه». قدرت رغبته ولم احاول بعد ذلك مقابلة «ساميول بكت».

قد يبدو هذا العزوف عن الناس غريباً من كاتب تقوم اعماله على صعوبة التواصل بين البشر والعزلة الحتمية التي تلازم الكاتب البشري مثل اللعنة في رحلته القصيرة في الحياة. هل لانه نشأ كاثوليكيًا في ايرلندة ثم ابتعد عن الحضرة؟ ام لانه صاحب عن قرب الكاتب الايرلندي العملاق «جيمس جويس» مؤلف «يوليسيس»، الكاتب الذي ربما احدث الثورة الوحيدة في دنيا الادب في القرن العشرين؟ لقد اخذ «ساميول بكت» عن «جويس» عنايته باللغة والذهاب بها كل مذهب، وكذلك نظرتة العنيفة للحياة. لكنه خرج عن طوق استاذته وشق لنفسه طريقاً طريفاً نسيج وحده، وقدم رؤيا ادبية مريبة يبدو فيها الانسان كانه في صحراء يباب في ليل كوني حالك السواد، بلا نصير ولا معين. هذا كاتب عنده فترات الصمت بين الجمل اهم من الجمل نفسها، لذلك فهو لا يعطي مسرحياته الا لخرجين ينق بهم، وكثيراً ما يصير على اخراجها بنفسه. وقد ظل في كتاباته يكتف ويحذف ويقلل من الكلمات ويزيد من الصمت حتى نشر مؤخرًا عملاً اسماه «رواية» من صفحة واحدة فقط.

هذا هو العالم الذي اقتحمه «منسي» بلغظه وجلبته ومرجه، عالم على النقيض تماماً من عالمه. ام تراه كان كذلك حقاً؟ وكانت وسيلته «مسز باربرا براي».



نحو أفق بعيد

٢٤



يكتبها: الطبيب صالح

بل ، أنا اعرف ما هو الالم في نظر «باربرا براي» وفي نظري أنا أيضا . ولكن من يطعم الزوجة والعيال ، ويدفع أقساط المدارس والجامعات ؟ كل هذه الأشياء الصغيرة ، أم الكبيرة ، التي تكبل الإنسان بقيود يشتم وثاقها يوما بعد يوم . وتجعله يصمت حين يجب عليه ان يصرخ ، ويدعن حين يتحتم عليه ان يرفض . «باربرا براي» لا تابه لذلك . لقد استقالت من هيئة الإذاعة البريطانية منذ ثلاثين عاما وهي في قمة النجاح ، وليس عندها مصدر دخل . غامرت وحملت طفلتيها وجاءت الى باريس . استاجرت شقة صغيرة في الحي اللاتيني قريبا من «بوليفار سان ميشيل» ، وعلى مرمى حجر من نهر «السن» ، ماتزال تعيش فيها الى اليوم . رفضت بتاتا ان تشتري بيتا او شقة بالاقساط كما يفعل كل الناس . «منسي» ، وأنا حاولنا اقناعها ولكنها

قالت انها لا تحب ان تمتلك اي شيء . وتحب ان تفارق الدنيا وليس وراءها شيء . اخذت تعيش من كتاباتها في النقد للصحف الفرنسية والانجليزية ، فهي ناقدة متمكنة لها نفوذ وصيت ، وترجم من الفرنسية الى الانجليزية ، وكثيرون يعتبرونها احسن مترجم في هذا المجال . وقد ترجمت جميع روايات الكاتبة الفرنسية الشهيرة «مارجريت دورا» لا حبا في المال ولكن لان الكاتبة صديقتها . وحين يضيق بها الحال ، تكتب «سيناريوهات» للسينما ، فهي تحقر السينما ، ولا تعتبرها شكلا فنيا محترما . وكان بوسعها ان تجمع مالا وفيرا من كل هذا الجهد . ولكنها لا تحسن تدبير المال ولا تابه له ، وتقع دائما فريسة لطمع الناشرين وخداعهم .

دائما تجعلني احس بالخجل من نفسي ، هذه السيدة العجيبة . لا تنتمي لحزب . وليس عندها أي مطمح ، وتعطي الحياة اكثر ما تأخذ منها . كانتا تحمل على عاتقها هموم الإنسانية بأسرها ، اذا وقع زلزال في الجزائر او فيضاض في السودان او مجاعة في اثيوبيا ، يعصر الالم قلبها ، كانتا مسؤولة شخصيا عما حدث . ولا تكتفي بذلك بل تجمع التوقيعات وترسل الاحتجاجات . تؤيد كفاح الشعب الفلسطيني وتكره النظام العنصري في جنوب افريقيا ، وتمقت التسلسل والفقر حينما يكون . وانا لا اشك انها تحس مأساة جنوب السودان اكثر مما يحسها جون قرنق وبقية هؤلاء الزعماء النجباء ، الاذكاء الاغبياء . «باربرا براي» تؤمن كما جاء في القران الكريم ان من قتل نفسا واحدة بغير حق ، فكأنما قتل الناس جميعا ، وهؤلاء عندهم ان يموت مليون ، لا شيء . في سبيل ان يصبح الواد منهم زعيما .

في تلك الليلة شعرت بخجل عميق . قلت لها ، وانا اعلم ان كلامي اعرج وحجتي جوفاء :

«انت تعلمين اننا حين ندخل اليونسكو ، كما في كل المنظمات الدولية ، نقسم يمينا ان نكون محايدين ولا نتدخل في شؤون الدول الاعضاء في المنظمة» .
كلام فارغ .

اطارت النوم من عيني . وقضيت الليل مسهدا اضرب اخماسا في اسداس .. وذلك اضعف اليمين ■

(للحديث بقية)

حين اعدم الرئيس السابق جعفر محمد نميري ، الرجل الهرم محمود محمد طه رحمه الله ، كلمتني «باربرا براي» في الدوحة من باريس ، آخر الليل . كان صوتها على التلفون غاضبا حادا ، اقرب الى الصراخ . وذلك امر لم اعهد منها ، فهي عادة هادئة رقيقة مهذبة . قالت لي :

«الآن ان تفعل شيئا ؟»
«الفعل شيئا بخصوص ماذا ؟»
«الم تسمع الاخبار ؟ الم تسمع بان رئيسكم الهمجي قد اعدم رجلا في الثمانين من عمره ؟ انه امر مخجل حقا ، من يصدق ان هذا يحدث في هذا العصر ؟»
صمت وتركتها تسترسل فماذا اقول لها . لم تهدأ ثائرتها بل ان غضبها ازداد قوة وهي تمضي في الكلام . وحين يطول صمتي تقول لي بعنف :

«هل انت هناك ؟ هل تسمعي ؟»

«نعم يا باربرا ، انا هنا واسمع جيدا ،

اذن لماذا لا تفعل شيئا ؟»

قلت لها متضاحكا لعني اعددها الى هدونها :

«الآن ؟ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟»

لم تستجب لمحاولتي ، وقالت لي بصوت اكثر غضبا :

«انني كنت اتحدث منذ لحظات مع البيت الابيض في واشنطن .

طلبت محادثة الرئيس ريجان . طبعنا انكروا انه موجود . كلمني احد

مساعديه . قلت له كل ما خطر على بالي . قلت له ان دم هذا الرجل

المسكين معلق في رقبتكم» .

سالتها متفليها :

«ولكن ما دخل الرئيس ريجان بمقتل محمود محمد طه ؟»

«لا تكن غبيا . هل تظن انهم ما كانوا يستطيعون انقاذه لو

ارادوا ؟ هل يستطيع نميري ان يرفض لهم طلبا ؟ اليسوا هم الذين

جاءوا به وهم الذين يساعدونه على البقاء في الحكم ؟»

«وماذا قال لك مساعد الرئيس ؟»

«ماذا يمكن ان يقول لي ؟ احد هؤلاء الشبان التافهين الذين

يسمونهم تجاوزا مساعدي رئيس . كل عملهم انهم يحملون حقائبه

ويترامضون حوله . لم يظهر عليه انه فهم ما اقول واظنه لا يعلم اين

السودان ومن هو نميري او محمود محمد طه . اخذ اسمي وعنواني

وتلفوني ووعد بان ينقل احتجاجي للرئيس . بعد ان انتهت المكالمه

طلبته فوراً .

قلت لها متضاحكا مرة اخرى :

«انه لشرف عظيم ان تضعيني في كلمة مع رئيس اكبر دولة في

العالم . انا الموظف الغلبان في منظمة اليونسكو» .

تحول سخطها من الرئيس الأمريكي الى اليونسكو ، فهي تكره

المؤسسات البيروقراطية من حيث هي . فقد استقالت من هيئة الإذاعة

البريطانية وتعاونت فترة قصيرة مع منظمة اليونسكو ثم رفضت

التعامل معها :

«متى تستقيل من هذه المنظمة الجوفاء وتتفرغ لما هو اهم ؟»

«وما هو الالم ؟»

«الاتعرف الى الآن ما هو الالم ؟»

نحو أفق بعيد

٢٥



يكتبها: الطبيب صالح

عبد العزيز على كتفه. اسماء عبد العزيز على اسم الشيخ عبد العزيز التويجري، فقد احتضنه ورعاه طوال مدة اقامته في الرياض. وقد حكى لنا «منسي» في تلك الليلة كيف انه خرج رابحا ماليا من ذلك الزواج. فقد تكفل الشيخ عبد العزيز بجميع النفقات، وحجز للعروسين جناحا في الهوتيل على حسابه واعطاه مبلغا اضافيا نقدا. وحين جاء وقت الذهاب الى الهوتيل لم يجدوا «منسي» وبحثوا عنه فوجدوه نائما في غرفة من غرف الدار. وحكى لنا ايضا انه حين اراد ان يطلب العروس من اهلها ضربوا له موعدا، ووصفوا له كيف يصل اليهم، فذهب الى دار اخرى، وظل ينتظر زمنا طويلا الى ان جاء احد اهل البيت فوجده جالسا. ساله من هو وماذا يريد. قال «منسي»:

«أمالهين الجماعة؟»

«اي جماعة؟»

«الله دامش بيت؟...»

كل هذا واصهاره الجدد ينتظرونه في بيت آخر. واخيرا وصلهم وقد كادوا يياسون منه وينفضون. حين جاء وقت دفع الحساب تصدت له «باربرا». دائما اما تدفع هي او ادفع انا؟ «منسي» ينظر البنا وكل منايح، وكان الامر لا يعنيه ليس لانه بخيل، فقد كان كريما جدا بعض الاحيان. ولكن لانه مع انفس معينين كان يضع نفسه في وضع الذي ياخذ ولا يعطي. وكأنه يؤكد محبته بهذه الطريقة. لكنني هذه المرة صممت ان يدفع «منسي» الحساب. قلت لباربرا مستعيرا وصف عبد الرحيم الرفاعي له:

«هذا البغل رجل ثري. جاء الى باريس في سيارة امريكية طويلة عريضة ونزل في هوتيل ذي خمس نجوم. وثمن هذا المعطف من الفراء الذي يلبسه وحده يكفيك شهرا كاملا. لماذا تدفعين او ادفع انا؟ انت وانا فقيران.»

قال لي «منسي»:

«يس بلاش غلبة. ادفع او سيب باربرا تدفع.»

أخرجت زوجته التي يبدو انها لم تكن عرفت طباعه بعد. قالت له:

«يا احمد ادفع الحساب يا اخي.»

قال لها ضاحكا:

«طيب ادفع وامري لله. لو كنت عارف اني «حاتكج» بالفاتورة كنا طلبنا حاجات ارخص.»

حين مات. لم اشأ ان اتصل بـ «باربرا» الا بعد زمن. فقد خفت الا تكون قد سمعت النبا وكنت اعلم وقع ذلك عليها. وجدتها تعلم، وكانت مبتشرة اكثر حتى مما توقعت. قالت لي في نهاية المكالمة:

«طبعاسوف تكتب عن (منسي).»

«كنا قد اتفقنا ان نكتب قصة حياته معا، باللغة الانجليزية ثم باللغة العربية.»

«كان سيكون كتابا مهما... ورائجا ايضا... «منسي» كان انسانا مهما ونادرا... على طريقته.»

«الآن، بعد موته، لا ادري... توجد احداث لا اعرفها... واشياء كان احسن ان يرويها هو، بطريقته... سوف افكر... لعلمي اكتب عنه، ولكن بعد حين.»

(للحديث بقية)

ذلك الكاتب الكبير، ويا للغرابة، قد وجد في «منسي» انسانا يجذب اهتمامه ويستحق ان يقضي معه الساعة والساعتين، واصبح «منسي» بعد ذلك يشير اليه باسم «سام». كانه صديقه الحميم وكأنه يعرفه منذ سنوات.

ماذا وجد «سامبول بكت» في «منسي» انه يبدو كأنه على طرف نقيض منه. فهذا رجل مترهب قضى حياته يحدق في اغوار ذاته، ويعاني اوجاعا روحية وعقلية مفرطة. كل ذلك يظهر في وجهه الغريب، الحاد التقاطيع المليء الاخاديد. كان الزمن حفر عليه بمعول العينان اللامعتان، نظراتهما مركزة، فيهما خليط من التحدي والذعر. كأنه يحدق في شيء مهول لا يراه احد غيره. لقد حرق الكتاب والشعراء والرسامون والفلاسفة قبله في تلك الهوة واصيبوا بالذعر. بعضهم انتحر، وبعضهم اصيب بالجنون، وآخرون لجأوا الى وسائل شتى ليسرّوا عن انفسهم. ولكن هذا رجل فعل ما فعله ابو العلاء الضريع.

فاخذ نفسه بالشدة، وعاش في عزلة متفرغا تماما لهوموه العقلية والروحية و«منسي» كما خيل لي، عاش على سطح الحياة يركض من تجربة ليدخل في تجربة، ولا يلبث طويلا حتى يرى ما تحت السطح، يثرثر ويضحك، وتحيط به اينما ذهب، جلبية وضوضاء. لكن من المؤكد ان «بكت» قضى ايضا من وقته يستمع الى «منسي»، ولا بد انه كان مستمعا، فان «منسي» لم يكن يترك لاحد حتى «بكت» فرصة للكلام ومن المؤكد ايضا انه قرا كتابات «منسي» على علاقتها، ولعله وجد فيها شيئا جذابا، كما يجد كبار الرسامين احيانا اشياء جذابة في رسوم الاطفال. ولعل ذلك الكاتب الذي يزن الكلمات بميزان، اعجب بجراة انسان يقول، ولا يبالي ما يقول.

من حسن حظ «بكت» ان «منسي» كان يلم بباريس كما يهب الاعصار، فبمكث اليوم واليومين ثم يختفي. وبكت، يقضي معظم وقته في الريف فكان «منسي» يصادفه او لا يصادفه. ولكنه كان دائما يقابل «باربرا» باري، بل انه كان يجيء الى باريس خصيصا لمقابلتها. يكلمها بالتلفون اينما كان من واشنطن او لندن او القاهرة او الرياض. ثم يحل فجأة ودائما يجدها كأنها تنتظره، كما تنتظر الام اوبة طفلها، حين كنت اكون في باريس كنت احضر تلك المقابلات. يكون «منسي» على سجيته تماما يضحك ويثرثر، وهي وانا نستمتع. وانا اؤدي دوري المعتاد كممثل مساعد، اوقظ ذاكرته واتم له جملة واعطيه بداية القصة ليستهل هو في روايتها، تستمع لباربرا وعلى وجهها حنو عظيم. تقول وهي تضحك ضحكته الخجولة المهدبة:

«انت ومنسي يجب ان تشتركا في تقديم كوميديا على المسرح.»

واقول لها:

«مثل لوريل وهاردي.»

ويقول «منسي»:

«او ابوت وكوستيللو.»

كل مرة نكتشف معها مطعما جديدا في ذلك الحي من باريس الذي تعرفه كراحة يدها، مطاعم صغيرة. كل منها يتخصص في نوع معين من الطعام رخيصة الاسعار لا يؤمها السواح. آخر مرة اجتمعنا معا كان في مطعم يتخصص في الاسماك والاصداف، قريب من النهر، في الضفة اليسرى. كان «منسي» يصطحب زوجته العربية المسلمة، ويحمل طفله

نحو أفق بعيد

٢٦

والهتاف من الجانب العربي، زادت جراءة على جراته. تكلم بجنان ثابت ولغة انجليزية فصيحة. لكنه لم يقل شيئا يجذب الاهتمام وقد حاول أن يغطي جهله بقوله، أنه سوف يترك التفاصيل للفريق المساند له.

كل واحد من هؤلاء كان على بينة من أمره فتحدثوا كلهم حديثا مفيدا مليئا بالحقائق الدامغة.

ثم اعطى الرئيس الكلمة لريتشارد كروسمان، فخطأ نحو المنصة بقلمته المديدة، وسترزوبعة من التأييد ضمت كثيرين لم يكونوا مع العرب أو اليهود، ولكنهم كانوا يعرفون من هو ريتشارد كروسمان.

تحدث بصوت اجش تميز به، واسلوب جمع فيه بين وقار استاذ سابق في جامعة أوكسفورد ودهاء سياسي متمرس تعلم الصنعة في مؤتمرات حزب العمل، وغمار معارك مجلس العموم حيث واجه خصوما ضخاما من وزن ونستون تشرشل وانتوني ايدن. ماذا يصنع حلمي حمي العربية، فارسنا المسكين «منسي» في مواجهة هذا «العلج»

الجبار؟ ولما فرغ ريتشارد كروسمان، تأكد في ان قضية فلسطين قد خذلت تلك الليلة في تلك الساحة.

بعد ذلك حدث امر عجيب لا اذكر بوضوح كيف حدث، ولكنني اذكر «علج» للصهيونية الجبار، وقد تقلص وصغر، يفتح فمه ويغلقه كأنه فقد القدرة على الكلام، وقد احمر وجهه وسال العرق على جبينه، وفارسانا «منسي» قد تحول الى سبع كلسر، يجري غلاديا رائحا من آخر القاعة الى المنصة يشير بيديه، ويسب في حلق الرجل ويكاد يضع اصبعه في عينه ويلج في سؤاله:

«هل انت بريطاني أم اسراييلي؟»

يزداد وجه ريتشارد كروسمان احمرارا، وصلحينا «منسي» يرمح كالغزال الى آخر القاعة ثم يمرق كلسهم الى المنصة، يمد كرشه الى امام ومؤخرته الى وراء ويدير عينيه اللتين زادت اتساعا في القاعة، وقد حلت عليه طلقة لا ادري من اين جاء بها.

«نحن نعلم انك يهودي... لا اعتراض لنا على ذلك. من حق كل انسان ان يكون كما يشاء... نحن لسنا ضد اليهود... لكن نريد ان نفهم... ولأولئك مع بريطانيا أم مع اسراييلي؟»

لم يكن ريتشارد كروسمان يهوديا حسب علمي ولكنه كان من الواضح ان «منسي» اراد ان يرزعزع الثقة في مصداقيته ويمرّق ثوب الوقار والاحترام الذي يكسوه. وقد نجح في ذلك تماما. حول المناظرة الى مهزلة وحول خصمه الى شيء يثير الضحك.

ولما عنت الاصوات، انتصر. وبالمعجب، الاقتراح الذي دافع عنه فارسانا «التعليل» وهو لا يعرف عن قضية فلسطين اكثر مما يعرف راعي الابل في بلدية كردفان. وكان ذلك النصر دليلا آخر اضلله «منسي» الى خيبرته، ان الصديق والمنطق واتباع الاصول، لا تجدي، انما الذي يجدي في الحياة وفي قضية فلسطين وفي كل شيء، هو «الاونطة» و«شغل الحليسة».

لفتت تلك الليلة الانظار اليه، ومنها نظر الرئيس عبد الناصر الذي ارسلت له السفارة المصرية - حسب رواية منسي - تقريرا مدعما بالصور كيف ان شابا مصريا مسح الارض، بلحد جهادة السيلسة في بريطانيا. ولعل ذلك كان صحيحا فقد تلقى «منسي» دعوة لحضور مؤتمر للمفكرين المصريين وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياته. ولكنه قبل ذلك قام بعمل ربما يكون اجرا عمل اقدم عليه وكاد بسببه ان يطرد من بريطانيا ■

(للحديث بقية)



يكتبها: الطيب صالح

في طريقنا الى مقر اتحاد طلبية جامعة لندن، سالني «منسي» عن قضية فلسطين.

كانت جراءة كبيرة من اتحاد الطلبة ان يختار ذلك الموضوع، في تلك الايام العصيبة اوائل الستينات.

هذا المجلس يوافق على ان تقوم دولة مستقلة للفلسطينيين في فلسطين.

ولا ادري من الذي اختار «منسي» ليكون المدافع الرئيسي عن قضية فلسطين تلك الليلة، في مواجهة خصم قوي شديد المراس. ولكن لانه كان يحب الجدل، ويحب الظهور والضوء فلا بد انه بذل جهدا ليحصل على الدور. كان المتحدث الرئيسي المعارض له، هو مستر ريتشارد كروسمان.

«ريتشارد كروسمان؟ طز. وايه يعني؟»

لكن «ريتشارد كروسمان» لم يكن رجلا سهلا، في الواقع، ولو كان «منسي» بالامر شخصا اخر غير «منسي» لحسب لمواجهته الف حساب. كان من مفكري اليسار المهدويين، ومن المنظرين الكبار في حزب العمال. عمل استادا في جامعة أوكسفورد

قبل ان يصبح نائبا في البرلمان. وقد صار فيما بعد وزيرا ومستشارا اثرا عند هارولد ولين رئيس الوزراء. ولما ترك الوزارة اصبح رئيسا لتحرير مجلة «نيو ستيتسمان» الواسعة النفوذ. وكان قد اشترك من قبل في لجنة كونتها الحكومة البريطانية لدراسة اوضاع العرب واليهود في فلسطين ورفع تقرير عن ذلك. وكان منحازا تماما لوجهة النظر الصهيونية.

قال لي «منسي» ونحن في سيارته تلك في طريقنا الى مقر الاتحاد، وقد بقي اقل من ساعة على بدء المناظرة:

«اسمع، قول لي بسرعة ايه حكيية فلسطين دي..»

«الله بخيك. تقصد انك سوف تواجه ريتشارد كروسمان وانت لم تستعد؟ الا تعرف من هو ريتشارد كروسمان؟»

«بلاش غلبة. بس انت قول لي بسرعة ايه حكيية وعد بلغور ومش عارف ايه وشغل الحليسة دا؟»

«يا ابني دا مش لعب. هذه مناظرة مهمة جدا... فرصة نادرة لن تتكرر. الله يخرب بيتك. انت مين اختارك لتكون ناطقا باسم العرب؟»

«ما لكش دعوة. بس اديني شوية معلومات وما تخلّش علي. قل ريتشارد كروسمان، طز وايه يعني؟»

انتابني قلق حقيقي. امتلات القاعة بالخلق، والذين لم يجدوا امكان وقفا في الطرقات والذهبات. سفراء عرب واجانب، واعضاء في البرلمان وصحفيون ومصورون. ورايو وتلفزيون. كان واضحا ان كلا من الجانبين، عربا ويهودا قد بذل جهدا كبيرا لحشد الناس. لا غرابة فان المناظرات التي تعقد في اتحاد الطلبة في الجامعات، خاصة في أوكسفورد ولندن، لها تاثير ووزن معنوي كبير، ودائما تحظى باهتمام وسائل الاعلام.

لحسن الحظ كان مع «منسي» فريق قوي، كان احدهم، علي ما اذكر، «ارسكن شلدزن» الكاتب الصحفي الذي دافع ببسالة عن العرب وقضية فلسطين بالذات، ثم لما ازداد عليه العنت والضغط، الى السلاح واختفى من الساحة تماما.

حين خطا «منسي» الى المنصة بقلمته القصيرة، وجسمه الذي كانت تتواءمته قد بدأت تتضخم من وراء ومن امام هبت في وجهه عاصفة قوية من التشجيع

أمر وأمر



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد ٢٧

في منتصف الطريق، قال لي
«في واحد صاحبي هنا، نمر عليه خمس دقائق،
مين».

واحد من المسؤولين الكبار في شركة آرثر رانك،
يا أخي خليفنا نواصل. المحاضرة في السابعة مساء،
اصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس». تعرف مين
جيمتل دور لورنس؟ الك جنس. في دور لعربي شاب، اهم
دور بعد «لورنس»، بيغفروا في عمر الشريف. انا ناوي
الطش الدور. المخرج جيكون «ديفيد لين» اخو «تاتجي»،
تاتجي وعدني يكلم اخوه.
ضحكت ولم اقل شيئا.
«بتضحك ليه؟ هو يعني عمر الشريف احسن مني»
«ابدا. مين قال عمر الشريف احسن منك؟»
«اذا كانت الحكاية انه بيتكلم انجليزي كويس، سا
اجدع منه الف مرة في الانجليزي».

«مؤكد».

«و اذا كانت حكيمة تمثيل، دا حتى سير لورانس اليفيه
اعجب بتمثيل».

«عجيب».

«انت مش مصدق؟ انت عارف مين علم لورانس اليفيه
ازاي يمثل شخصية المهدي في فيلم «الخرطوم»؟»
«انت؟»

«ايوه يا سيدي انا. الرجال كلن حيجنن لما قرأت له من
الذاكرة كل المونولوجات بتاع هاملت.. بنفس الطريقة لي
هو اداها بيها في الفيلم».

«يا ابني سيب الهزار. الحكاية مش لعب. الاونطة تنفع
في كل شي الا في الفن.. انت تعرف انجليزي كويس وتحفظ
مونولوجات هاملت وريشارد الثالث. لكنك ممثل هائل.
عمر الشريف ممثل عالي.. وانت مين؟ مين سمع بعيني
بسطاuros. حتى اسمك لا يصلح للسبينا. وبعدين.. عمر
الشريف رجل وسيم وانت ما شاء الله».

«انا مش وسيم» البنات بتقول لي اني اشبه علي خان. في
الاحتفال في قصر بكنجهام الاميرة مارجريت اخذت بي.
«انت قابلت الاميرة مارجريت؟»
«الا قابلت الاميرة مارجريت يا أخي ما انت عارف الغسة
من طلقك للسرم عليك».

مجرد تذكر تلك الحادثة اسعده جدا فضحك بطريقتي.
وانا ايضا ضحكت، فقد كنت اعلم انهم كادوا يطردونه من
انجلترا.

وجدنا دارا كبيرة تطل على واد جميل، ورجلا انجليزيا
كانه جاء من عصر آخر. ومع اننا حللنا عليه على غير موعد
فقد فرح حقيقة للقاء «منسي».

«مايك! يا لها من مفاجأة سارة. عجيب انك جئت فقد
كنت افكر فيك».

«قلت امر عليك. انا في طريقني الى اكسفورد للاستماع الى
محاضرة هامة يلقيها بروفيسور توينبي.. اه.. نسيت ان
اقدم لك مستر صالح.. صديقي. يعمل مع في
ال «بي. بي. سي. (B.B.C.) التفت الرجل الي:
«اه. انت اذا تعمل مع مايكل».

«نعم. مستر.. مايكل من كبار المسؤولين في ال B.B.C. كما
تعلم. وهو رئيسي البشر».

لم بخف «منسي» سروره انني اؤدي الدور كما يجب.
وكانه اراد ان يرد لي التحية. فقل للرجل
«مستر صالح من المعاونين الاكفاء الذين يعملون معي».

انصرف الرجل كليا الى «منسي»، واتضح لي من الحديث
لماذا كان يفكر في «منسي»، ولماذا فرح لمقدمه ■

عند باب «بوش هاوس». وانا في طريقني الى محطة
«بادنجتن».. لأخذ القطار الى اكسفورد. عرض لي
«منسي».

«طيب رايح فين».

«اكسفورد».

«عندك ايه في اكسفورد؟»

«بروفيسور توينبي.. يلقي محاضرة. عن قضية
فلسطين».

«برضه فلسطين. يا أخي خليك في لندن. الويك اند
قربت».

«هذه محاضرة مهمة».

«خلاص اجي معاك».

كانت تلك عادة «منسي». ضحكت لانه كان يجدني ذاهبا
الى اي مكان فيقول لي «اجي معاك. وقد رافقتي بالطريقة
نفسها الى الهند والى استراليا».

«يا أخي انت صايع ما عندك اهل؟ ما تروح لزوجتك
وعيلك».

«بلا زوجة بلا عيل بلا غم. يا لك بينا».

كان محفوظا في «ماري» تلك السيدة الطيبة. تزوج
وانجب، وعاش كما يحلو له، كانه اعزب. يسافر ويعود
ويظهر ويختفي. وهي في حالها. كانه ضيف
احيانا كنت انتبه فجأة انني لم اراه منذ اسبوعين او
ثلاثة، فأتصل بدارة، فتزد علي «ماري».

«منسي ليس موجودا».

«اين هو؟»

«لا اعلم».

«منذ متى».

«منذ اسبوعين».

«ولا تسألينه اين يذهب؟»

«انت تعرف «منسي».. هكذا هو. لكنه يعود دائما».

ظل يذكرها كثيرا بعد ان توفيت في حادث حريق في دارهم
في واشنطن. وكان يقول انها قديسة. واشهد انها كانت شيئا
من ذلك.

«قطار بتاع ايه يا شيخ. نروح بسيارتني».

«لا يا عم. لا يمكن اروح لحد اكسفورد «بالقلملة، بتاعتك
دي. تسمي دي سيارة».

«انت لسه في زمن ال «بيل»؟ يا ابني احنا دلوقت في
مرحلة جديدة. اشتريت سيارة محترمة.. حاجة ابهة».

اتضح انها سيارة «نصف عمر». لا اذكر نوعها اشتراها
بطريقته الملتوية. صاحبه الجزار. يعرف واحدا. يعرف
صاحب كراج. يعرف واحدا يتاجر في السيارات المستعملة.
«لكنني احب السفر بالقطار».

لو كان لي من الامرشية، لربطت العالم العربي كله، من
طنجة الى مسقط. ومن اللاذقية الى نيالا. بشبكة من السكك
الحديدية مثل قطارات ال T.G.V. السريعة في فرنسا.
وقطارات ال Bull في اليابان. الانسان الذي كان يسير الشهر
والشهرين بالبعير، من صنعاء الى مكة. لماذا قلر فجأة لهذه
الوسيلة الجنوبية؟ المطارات مهما بلغت، تبدو شيئا موقتا.
محطات السكك الحديدية لها طعم آخر وسحر خاص.
المحطات الخلوية والمناظر المتنوعة. تعرف انك قد قمت من
مكان ووصلت الى مكان. تنام وتقرأ وتصادف اصنافا من
خلق الله. ليس مثل الطائرة. تغضض وتفتح فلذا انت قد
انتقلت من حال الى حال.

«يا لالا بلاش كلام فارغ. يا لالا يا أخي سيب البطة بتاعتك
دا. احسن تضيق منّا المحاضرة».

عكس الآية كعادته. وتصدر المجلس. واصبح كانه هو
الذاهب الى اكسفورد، وانني مجرد تابع له.

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

تعد رجلك. وتفتح النافذة اذا شئت. وتستنشق هواء الريف الانجليزي المنعش اذا شئت. تتفقت الحقول على الجانبين. حقول ناعمة بتلالها المنخفضة مثل طينات الثوب. والقرى الانجلوسكسونية باينة بالحجرية وسقوفها الازرقاوية في قيعان الاودية و-ل سفوح التلال. تركنا الرجل الانجليزي من شركة. ارثر رانك. واقفا امام باب داره. يلوح لنا بيده. وفي عينيه حلم لن يتحقق. كما ان حلم «منسي» في الحصول على دور عمر الشريف في فلم «لورنس العرب» لن يتحقق. كنت قد الممت بطرف من القصة من الحديث بين «منسي» وصاحبه الانجليزي. وقد اثرت الاساله الآن ونحن في طريقنا الى اكسفورد. وان اتركها تتقخم وتتغير وتتبدل في خياله. كنت اشهد الواقعة معه. ثم يروها فاذا هي مختلفة تماما عما رايت وسمعت. وجدنا كزار احمد كزار وحسن بشير في استقبالنا قال لي كزار وهو ينظر الي «منسي»:- «مين الحلبي ذا ال جنبته معاك؟» نسسي اشقامنا المصريين «حلب» و «اولاد ريف» بدافع المحبة. وهم يسفوننا اشياء بدافع المحبة. قال «منسي» وكأنه يعرف الرجل من زمن: «ابيه يا خوي خلبي دي؟ انت فاكركني من المصريين بنوغ وجه بحري؟ دا انا صعيدي من قرايبكم..» كان كزار. رحمه الله. سودانيا قحشا. فيه كل فضائل السودانيين الاقحاح. وبعض مساوئهم. كان رجلا «شيخ عرب» كما نقول. حتى في بذلته الافرنجية. وفي اكسفورد. كانه يتلفع ثوبا ويمسك عصا. ويجلس في ظل شجرة كبيرة وسط قبيلة. عمل في الادارة منذ عهد الانجليز. فكان مامورا ومفتش مركز. ووصل في العهد الوطني الى رتبة محافظ. وقد عمل مساعدا للامين العام لمجلس الوزراء في حكومة الصادق المهدي الاولى. وصار وزيرا لشؤون مجلس الوزراء في عهد النميري. وكان خبيرا بشؤون جنوب السودان. ذلك لان «منسي» دخل معه بعد ذلك في جدل حاد عن الجنوب وهو لا يعرف عنه الا كما يعرف في قضية فلسطين.

اما حسن بشير. فهو زميلي وصديقي منذ عهد الدراسة. عمل في وزارة المالية. واصبح مساعدا لمحافظ البنك المركزي. وكان بوسعه ان يذهب ابعد. ولكنه انسان واضح. لا يحب الف وال دوران. فلم يرق ذلك لاصحاب الشأن ■

للحديث بقية

كان «منسي» يضحك كعادته في اغلب الاحيان. وقد وقف الرجل من شركة «ارثر رانك» عند باب داره. يلوح لنا بيده.

اخذت السيارة الى الطريق. واعتدلت في سيرها. سيارة «نصف عمر». اي نعم. وحصل عليها «منسي» الله اعلم كيف. اي نعم. ولكنها سيارة لها نوافذ وابواب. تصل سرعتها الى مائتي كيلومتر في الساعة.

حياة «منسي» يمكن ان تقاس. بوجه من الوجوه بانواع السيارات التي اشتراها. او هبطت عليه من السماء. في آخر حياته. حين اصبح «سيد ثاتشيري» او «لورنث ثاتشيري». كما كان يقول. ويسكن في القصر الذي زعم انه كان استراحة صيد للملك جون. كان يخرج كل صباح في زي الفرسان. ممتطيا صهوة حصانه «سنام». يمر على قطعان البقر والضأن. ويتفقد اشجار البلوط والصنوبر والتفاح والتوت والفراولة. جاره من ناحية الشرق لورد «منتباتن». عم الدوق زوج الملكة. او خاله. وجارته من ناحية الغرب ليدي هذه او تلك. ثم يصل الى الاصطبل. يربت تلى رقاب الخيل ويحادثها ويستنشق تلك الرائحة الفريدة التي تنبعث من الخيل في مراحتها. يختم جولته بالكراجات. يفتح الابواب فاذا السيارات مصطفة كما الخيل في الاصطبل. يتفحصها واحدة واحدة. يرفع الغطاء ويفتح الباب ويدخل. يجلس ويمسك بعجلة القيادة. وينطلق بها وهي ساكنة. في افق رحبة ولا يد. سيارة الفورد وسيارة الروفر وسيارة البيوك وسيارة الجاكوار وسيارة المرسيدس. ثم اخيرا يصل الى نهاية المطاف. الى سيارة... الرولز. يرفع عنها الغطاء كما يرفع النقاب عن وجه العروس الجميلة المستهواة. يدخل ويملا رنتيه بذلك العطر العجيب. يمسك بعجلة القيادة. ويدير المحرك ثم يوقفه. يخرج ويقف على حافة حوض السباحة وينظر الى خياله يتفرق ويتجمع ويطول ويقصر على صفحة الماء. قليلون جدا هم الناس الذين يمشي الواحد منهم خافيا او يركب حمارا او بعيرا وثراد عند الافق. شامخا كانه امير من امراء الحياة. كان «منسي» قد وصل بالفعل الى نهاية المطاف. وكأنه فيما يبدو. لم يجد بعد ذلك سببا للبقاء.

لكنني استبق الاحداث نحن الان في بداية الرحلة. في طريقنا الى اكسفورد. في سيارة لها نوافذ وابواب.

نحو أفق بعيد ٢٩



بقلم الطيب صالح

جلسنا في الصف الاول، وكانت القاعة ممتلئة. لا عجب، فقد كان المحاضر بروفود ارنولد توينبي اعظم مؤرخي عصره. ثم ان الحدث كان الاول من نوعه. كانت مناسبة تاريخية اذا صح القول. ذلك لان كلا من اتحاد الطلبة العرب في جامعة اوكسفورد واتحاد الطلبة اليهود وجه الدعوة لبروفيسور توينبي لالقاء محاضرة عن قضية فلسطين، فاجابهم بأنه رجل تقدمت به السن ولا يقوى على اللقاء محاضرتين، ولكن يسره ان يلقي محاضرة واحدة على العرب واليهود مجتمعين. قبل الطلبة اليهود بلا تردد، فقد كانوا كمادة اليهود عموما، لا يجدون فرصة للتحدث الى العرب الا انتهزوها. اما العرب فمنهم من رفض ومنهم من تردد.

تغير الحال الان. في تلك الايام كان الاتصال باليهود وحتى مجرد التحدث اليهم امرا يكاد يكون محرما على العربي. كان امرا عجيبا تلك الايام، ان ترى عربيا ويهوديا دعيا مع آخرين في تلفزيون من تلفزيونات اوروبا. يرفض العربي ان يجلس في غرفة واحدة مع اليهودي، فيجلسونه في غرفة منفصلة. ويقضون الوقت كله يضيفون الخناق على العربي، لماذا لا يريد ان يجلس في صعيد واحد مع اليهودي. ويخرج اليهودي منتصرا دون ان يفعل شيئا. قليلون جدا من كانت عندهم الشجاعة للتمرد على هذا الحظر. اما نحن فقد كنا اغوارا ولم نكن نبالي.

نقول: ليس لنا عقول مثل عقولهم، وحجج اقوى من حججهم؟

كانت تزامنا في الدراسة في جامعة لندن فتاة انجليزية من اصل يهودي، اذكر اسمها جيدا رغم طول العهد. كان اسمها «شيرلي»، وكانت وسيمة الوجه، ضاحكة العينين، لها غمازتان على خديها، تفعلان الاعاجيب اذا ضحكت. وكنا خمسة. من مصر والعراق وفلسطين والمغرب والسودان. دائما تجد شيرلي معنا. تؤثرنا على غريتنا وتأوي الينا دون سوانا تقول لنا لماذا لا يعيش العرب واليهود في سلام؟ ونقول لها نعم والله، لماذا لا يعيشون في سلام! تقول لنا نحن ابناء عمومة واقرب الناس بعضنا الى بعض. ونقول لها صدقت. العرب ابناء اسماعيل بن ابراهيم، وانتم ابناء اسحق بن ابراهيم. اللغة العربية واللغة العبرية متقاربتان الى حد بعيد.

صدقت يا شيرلي. هما متقاربتان الى حد بعيد.. اذا لماذا الحروب واراقة الدماء؟ لماذا اهدار الطاقات وتبديد المال؟ لماذا لا يرفرف السلام باجنحته على تلك الربوع؟ ونقول لها يا ليت السلام يرفرف على تلك الربوع! واصدقكم القول، ان كل واحد منا، كان مستعدا، لو ترك له الامر، ان يعقد صلحا منفردا مع «شيرلي».

وذات صباح جامتنا تسعى، كما سعت اليابانية الى صاحبها المصري في قصيدة شاعر النيل الشهيرة. قالت لنا، انه الوداع.

«فيم الوداع والى اين تذهبن يا شيرلي؟» نظرت الينا متعجبة برهة، ثم اجابتنا كما اجابت اليابانية صاحبها المصري:

«فاجابتنى بصوت راغبي
نباوني برحيل عاجل
لا ارى لي بعده مآثبا،

قلنا لها:
«ولكن لماذا؟»
نظرت الينا كره اخرى، بعينين غير ضاحكتين، وخدين بلا غمازتين. قالت:
«الا تعرفون ان الحرب قد قامت بين مصر واسرائيل؟»

قلنا لها، كما قال المصري لصاحبه اليابانية في القصيدة:

«قلت والالام تغري مهجتي
ويك ما تفعل في الحرب الظلمة؟»

قلنا لها:
«وانت ما شأنك بالحرب؟»
قالت:
«انا جندي في جيش الاحتياط الاسرائيلي، وقد دعيت للخدمة العسكرية.»

نظر بعضنا الى بعض، ودار بين كل واحد منا وبين نفسه، وبين كل واحد منا والاخرين حديث طويل في صمت. هل يفعل ان هذه الفتاة الجميلة اللطيفة تذهب الى الحرب، وتحمل السلاح، وتحارب مع الاعداء، وتقتل العرب؟

ثم تحولت الحيرة الى غضب عظيم. على انفسنا، وعلى شيرلي، وعلى اسرائيل. كنا في مقتبل العمر، عندنا، كما عند الشباب، قدرة عظيمة على التسامح. وايضا، كما عند الشباب، استعداد كبير للتضحية والفداء. الا ان احدا لم يطلب منا فعل اي شيء.

نحن وغريتنا. كثيرون من الشباب العرب ذهبوا الى السفارة المصرية يعرضون التطوع. قالوا بارك الله فيكم. حين تدعو الحاجة اليكم سوف نتصل بكم. ولكن الجيش المصري مسيطر تماما على الموقف.

ثم نظرنا الى شاشات التلفزيون، فاذا الجنود الاسرائيليون يستحمون في قناة السويس. صحيح ان الانجليز والفرنسيين اعانوا اسرائيل في تلك الحرب، عام ٥٦. ولكن الامر نفسه حدث بعد ذلك في حرب ٦٧.

اما «شيرلي» فانها لم تعد. ولعلها قتلت او قُتلت. ولعلها اثرت البقاء نهائيا في اسرائيل. ما اعجب ما كانت تلك الايام. ويا هل ترى، يا رعاك الله، انتهت بعد الاعاجيب! ■

نحو أفق بعيد ٢٠



بقلم الطبيب صالح

وحسن بشير يحضران لدراسات عليا في كلية «سلنت أنتوني».

تحدث «توينبي» حديثا مليئا بالعلم والحكمة. واذكر من بعض ما قاله في تلك الليلة أن قصة العرب واليهود في فلسطين، تشبه الماسي الملحمة الإغريقية. شر يقود إلى شر يقود إلى شر في سلسلة لا نهائية لها. تحدث طويلا عن الشر الذي حاق باليهود في أوروبا، في روسيا وإيطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا. ذكر مستمعيه أن اليهود كانوا يصلبون في الميادين العامة في إنجلترا حتى القرن الثامن عشر. تحدث عن معاناة اليهود على أيدي النازيين في ألمانيا، وقال أن تلك البشاعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، لا يمكن أن تفسر بأنها عمل شخص واحد مختل العقل، هو أدولف هتلر، ولكنها إنم تحمل وزره حضارة أوروبا الغربية بأسرها.

في مقابل ذلك الماضي «توينبي» في الحديث عن التسلمح الذي وجده اليهود من العرب والمسلمين، وخاصة في الأندلس، حيث أطلقت الحضارة العربية الإسلامية العنان لطاقت اليهود، فكان منهم وزراء وسفراء وعلماء وفلاسفة. وتعجب كيف أن شعبا عانى ما عاناه اليهود من عنت واضطهاد، على أيدي الأوروبيين، يلحق الاضطهاد نفسه بقوم لا ذنب لهم فيما حدث. واختتم محاضرتة بقوله أن على الفريقين أن يعملوا على كسر هذه الحلقة الشريرة والخروج من ذلك المازق التاريخي. والأفان الأمر سوف ينتهي حتما بكارثة تحيق بالبشرية بأسرها، كما يحدث في الماسي الإغريقية. ونشأت اليهود خاصة أن يعملوا الدار بشجاعة وجسارة لا يجد وسيلة أخرى غير العنف للخروج من ذلك المازق التاريخي.

صفق أكثر الناس مجاملة، لا تأييدا، فقد كان حديث «توينبي» أكثر حكمة ورسالة مما كان يطلبه العرب واليهود تلك الأيام. أما العرب فقد كانوا في تلك الأيام العصبية المريرة يريدون انحيازا واضحا إلى جانبهم. وأما اليهود، فقد كانوا وما زالوا مزهوين بباطلهم. ولكن هذا رجل فكر طويلا في مصائر الشعوب والأمم، ورأى أكثر من أي مؤرخ آخر في عصره، مسيرة الإنسان منذ فجر التاريخ، كشيء واحد متكامل مترابط الأجزاء. وكان قد بلغ الثمانين أو قاربها، فلم يكن يهيمه أن يرضى العرب أو اليهود.

ثم حل على القاعة صمت عميق، كما يحدث للناس حين يلقي عليهم قول طريف، يعرفون بعضه ويجهلون البعض الآخر.

من قلب ذلك الصمت، انبثق «منسي» فجأة، تعلما كما ترمي حجرا في بحيرة ساكنة ■

لا عجب أن القاعة امتلات، فقد كان المحاضر هو بروفيسور ارتولد توينبي أعظم مؤرخي عصره، وأبعدهم نظرا، وأعظمهم ادراكا. ذلك مؤرخ نظر إلى تاريخ الإنسانية كبحر متلاطم الأمواج، موجة تصعد وتبلغ الذروة، ثم تهبط وتنحسر، لتعلو موجة أخرى. حضارات تولد وتنمو وتزدهر وتذبل فتولد بدلا منها حضارات جديدة.

جلسنا في الصف الامامي، وكان «منسي» لا يكاد يستقر في مقعده، يتلفت يمنة ويسرة ويتنسم لكل من تقع عليه عينه، لقد انعشقه هواء أكسفورد. واستجلبت روحه لمفغناطيس ذلك المكان السحري. هذه المدينة الصغيرة التي تكتسب سميتها وروحها من وجود الجامعة فيها، هي عبارة عن رمز لأفضل، وربما أيضا لاسوأ، ما في الحضارة البريطانية. يخرج البريطاني من هنا وهو يحمل صك الانتماء إلى صفوة مميزة. رؤساء اتحاد الطلبة في أكسفورد، غالبا ما يدخلون البرلمان، وغالبا ما يصيرون وزراء. وقد ذهب من هذا المكان الصغير، أيام سطوة الامبراطورية البريطانية شبان في العشرينات من أعمارهم، لا يميزهم شيء إلا أنهم ينتمون لتلك النخبة الحكيمة، سيطروا على مصائر شعوب في الهند والسودان ونيجييريا وكينيا وفلسطين. وكان الواحد منهم يحكم رقعة أكبر من الجزر البريطانية.

كانت جامعة أكسفورد حلما دفيناً عند «منسي»، حصنا من حصون الإنجليز لم يستطع اقتحامه. لذلك اشرق وجهه وتواترت لغتاته أول ما ظهرت لنا أبراج الكليات، ثم لما اجتزنا المباني التي تجمع في معمارها بين هيئة الكنائس وقلاع القرون الوسطى.. الحيطان السميك والابواب الضخمة والنوافذ المستطيلة والبلحات الداخلية التي اقتبسوها ولا بد من المعمار العربي الأندلسي.. وكان «منسي» يردد أسماء الكليات كأنه ينشد نشيدا اسطوريا قديما.. باليول.. ميرتن.. مودلن.. ومدهام.. وككيل.. بيتسم ذات اليمين وذات الشمال وخاصة للطالبات. وهن يهرولن من قاعات المحاضرات أو يمتطين الدراجات.. ومن حين لآخر نمر باستاذ يسرع الخطى وقد نفخ الهواء عباقته السوداء.

نظر بروفيسور توينبي إلى القاعة الممتلئة، وأدار عينيه المشعيتين في وجوه الحضور، عربا ويهودا، وابتسم ابتسامة تحمل معاني كثيرة.

اجتمع العرب واليهود لأول مرة في جامعة أكسفورد، ولعل المرحوم كرار كان أحد الذين اقتنعوا الطلبة العرب بالقبول، فقد كان أحد زعمائهم. كان هو

٣١ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

البروفيسور... الحلقة الجهنمية... التي صنعتوها انتم الأوروبيون... لا يا سيدي، ان فلسطين أرض عربية. وقد ظلت عربية منذ... منذ... ثلاثة آلاف عام... وسوف تظل عربية الى الأبد... سوف تستردّها بالقوة ان عاجلا وان...

تحولت المهمة الى ضوضاء، وارتفعت اصوات من اطراف القاعة تطلب منه باللغتين العربية والانجليزية ان يجلس. ولما نجحت أخيرا ان جره جرا الى الجلوس، قال لي: «أيه الحكاية؟ هو أنا قلت حاجة غلط؟»

«الله يخبك، اسكت، افهمك بعدين...» علت وجه العالم الجليل «بروفيسور توينبي، حيرة عظيمة. وظل بقية المساء، وهو يرد على الأسئلة. ينظر الى «منسي» من وقت الى آخر، كأنه يحاول ان يحل معضلة. لا بد انه، ببساطة العلماء من طرازه، ظن انه لا بد ان يكون قد أساء التعبير عن افكاره، والا فكيف يساء فهمه الى ذلك الحد. اما «منسي»، فقد جلس هادئا مطمئنا وكأنه لم يفعل شيئا.

ولما خرجنا، قال له كرار، وكان، كما يحدث لـ «منسي» عادة، قد ألفه كأنه يعرفه من زمن: «يا صعيدي يا مغفل، يظهر ان المصريين يتابع القاهرة على حق. يظهر ان الصعيدية فعلا اشتروا الترمواي... انت بليد ما تفهم الكلام ولا كنت سرحلن؟»

ضحك «منسي»، ضحكته الطفولية الجذابة، وقال بلهجة صعيدية مزيفة كما في الأفلام: «بصراحة كدى يا رجالة... اصلو الأستاذ بتاعكم دا طول حبتين... وأنا كنت تعبان... لاني مع عدم المؤاخذه... كنت امبارح سهران سهرة خلوة في لندره... وبعدين سابق العربية لحد اكسفورد... رحت في سابع نومه...» ثم أضاف:

«وبعدين يا أخي الواحد تعب من حكاية فلسطين دي، قال له حسن بشير: «ولما انت تعبان ونائم ومش فاهم الكلام... ما كنت تتلهي وتسكت. رحت عامل خطبة وطنانه ولا كأنك جمال عبد الناصر. انا افكرتك حتقول (ان ما اخذ بالقوة لن يسترد الا بالقوة)».

قال «منسي» ضاحكا: «دا انت بتقول فيها؟ طب والنبي الجملة كانت على لساني لولا ان الاخ دا عامل بشديني، وأنا مش فاهم هو بيعمل كده ليه... دا أنا حتى استغربت الناس ما سفلقتش ليه...»

قلت له معلبا، وكنت اعلم انه اختار الرقم اعتباطا: «مين قال لك ان فلسطين عربية من ثلاث الاف سنة بس؟»

«أمال هي عربية من امتي؟» «من سبعة الاف سنة على الأقل.» «لا يا شيخ: أنا افكرتهم ثلاث الاف. اصلو اليهود بيقولوا انها كانت بتاعهم من ثلاث الاف سنة، قلت يا واد خليمهم ثلاث الاف... اهو برضه كويسين... هي ثلاث الاف سنة شويه يا رجالة؟»

للحديث بقية

ادار «منسي» ظهره لـ «بروفيسور توينبي»، وجل بعينه الواسعتين في الحضور الذين اخرجهم وقوفه عن صمتهم فشتخت اليه ابصارهم. وضع يده اليسرى في جيبه، ونفخ صدره، ورفع رأسه الى اعلى، ثم دار نحو «بروفيسور توينبي» ببطء، ونصف وجهه الأيسر ما يزال يميل نحو الجمهور. اتخذ وقفة دراماتيكية، ولعل صورة لورانس اوليفيه، وهو يحث جنوده على القتال في دور الملك هنري الخامس في معركة «اجنكورت»، ضد الفرنسيين، كانت ماثلة في مخيلته. كان يحفظ عن ظهر قلب اغلب خطب الملك هنري في مسرحية شيكسبير تلك، ويؤديها بصوت قريب من صوت لورانس اوليفيه. او لعله تمثل نابليون في معركة «واسترلنز»! كانت احلام العظيمة تخطر احيانا على بال «منسي»، ولكن كما تمر سحابة الصيف في السماء، سرعان ما تتبدد دون ان تترك اثرا. ان قلمته على الاقل، تقرب من قامه نابليون، وهو في وقفته هذه يذكر المرء من بعيد، من بعيد جدا، بوقفة نابليون في تلك اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان «دافيد». هذا المكان العريق، اكسفورد، مفعم بالتاريخ والاهام، والاحلام التي تتبدد كسحائب الصيف، والاحلام التي بلغت غايتها، ولا بد ان شيئا ما قد حدث لـ «منسي»، فاخرجه عن طوره.

قال بلهجة اكثر تقفرا من المعتاد، وهو يضغط على «بروفيسور» و «توينبي»، التي كان ينطقها «تا انبي»، بطريقة الانجليز الأرستقراط: «بروففسر تا انبي... انني استمعت الى محاضرتك القيمة باهتمام بالغ، ووجدت فيها... وجدت فيها اشياء كثيرة تدعو للتفكير. واود باديء ذي بدء... ان اشرك اجزل الشكر... بالاصالة عن نفسي، وبالانابة عن الحاضرين... واظن انني اعبر عنهم جميعا حين اقول... انها كانت محاضرة قيمة و... ومفيدة جدا... ولكن اسمح لي ان اقول... انني دهشت حقا... ان اسمع مؤرخا مثلك... مؤرخا عظيما مثلك، ليس معروفا عنه انه معاد للعرب... بل لعنا نحن العرب نعتبرك واحدا من اصدقائنا... نعم، ادهشني حقا قولك... ان العرب، طوال تاريخهم، اساموا معاملة اليهود... واضطهدوهم... وعذبوهم...»

كنت اجلس الى يمينه، وحسن بشير وكرار الى يساره. نظرنا ثلاثتنا اليه مذعورين في وقت واحد. وسرت مهمة بين الحاضرين وسمعت بعض الضحكات المكتومة. واخذت اجذبه من ذيل «جاكته»، لأجلسه. ولكنه كان قد تقمص دورا وأبحر بعيدا واصبح من الصعب ايقاظه من حلمه...

«وتقول... ان على العرب الآن... ان يساعدوا اليهود على الخروج من المازق التاريخي الذي وضعوهم فيه... يا سيدي البروفيسور... من الذي وضع اليهود في مازق تاريخي؟ الستم انتم؟ الأوروبيين؟ انتم الذين اضطهدتم اليهود... وعلقتموهم في المشلق في الميادين العامة... قلت ان العرب ما زالوا يشنقون من بقي عندهم من اليهود في الميادين العامة... مجرد افتراء ودعليات صهيونية كاذبة... انتم الذين فعلتم ذلك... وضعتموهم في معسكرات الاعتقال... وفي افران الغاز... والان تريدون منا نحن العرب... نحن الأبرياء الذين لا ذنب لنا فيما حدث لليهود... ان تكفر عن خطيتكم... ان تكسر كما قلت يا سيدي



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد ٢٢

التي تصدر حديثاً باللغة الإنجليزية. وهو زعم لم نأخذه مأخذ الجد. أعدته متعمداً إلى أكسفورد. قلت له:-

- أكسفورد جنود مشكدة؟

- يا سلام على أكسفورد. أنت عارف أنني سجلت للدكتوراه في أكسفورد؟

- لا يا شيخ؟

- الله، أنت ما تعرف الحكاية دي؟ دا أنا حتى كدت أتجوز واحدة من أكسفورد، بنت زي القمر. كانت تدرس تاريخ في كلية «سانت هيلدا».

- وبعدين؟

- بعدين أه؟ ما أنت عارف الحكاية، اتلميت على حضراتكم، ولقيت الـ B.B.C. تقول لنا كلمتين فارغين نأخذ عليهم فلوس.

- وتزوجت ماري.

- أه يا سيدي.

- ماري سيدة فاضلة، وانت لا تستحقها. أي واحدة غيرها كانت طلقك من زمان.

- ما قلناش حاجة. ماري بنت حلال وربة بيت والكلام الفارغ دا. بس البنت بتاعة أكسفورد كانت حلوة فوي. زي النقطة.

تذكرت صاحبه من شركة «ارثر رانك» فسالته عنه. استجاب فوراً لهذا الموضوع الجديد وكأنه كان ينتظر السؤال منذ زمن. قال وهو يضحك:-

- الراجل الأهل اللي أنت شفتها دا يشغل «منصب كبير» في الشركة ومن عائلة محترمة ومتجوز ست زي القمر.

- أنا المفكوة أعزب، مش بلين أنه في ست في البيت.

«ما هي دي الحكاية. أصله يا سيدي الأستاذ دا راح مصر وقابل واحدة ملفوفة. عيكة بتاعة اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين سنة. راجل مفضل. شاف بنت مصرية عيونها عسلية وشعرها أسود. ومخلطلة. راح متدهول في حبها. أنت عارف الراجل دا سنة فوق الخمسين».

- وبعدين؟

- بعدين أه؟ البنت مش جاده... ضمكت عليه واوهمته أنها بتحبه ومستعدة تتجوزه.

- أنت شفتها؟

- الـ شفتها. ما أنا يا استاذ حاضر القصة من بدايتها. ثم قل وهو يضحك:-

- أصله أنت مش واخد بالك... أنا يا سيدي باشتغل معاه مستشار في الشؤون العربية، يعني لما بييجو ينتجو فيلم زي الخرطوم أو لورانس والكلام الفارغ دا، يستشيرو مين؟

- أنت؟

- أيوه يا سيدي. أنا، أنت فكر أنا معتمد على الكلام الفارغ بتاع الـ B.B.C.

- وبعدين؟

- وبعدين زي ما بيعملوا الإنجليز الهل. الخواجه لما رجع لإنجلترا حكى لمراة، وطلب منها الطلاق. قل أه؟ بيحب. دا مراة زي القمر.

- أوعى البنت تكون مسلمة.

- لا يا سيدي. اطمئن. قطبة من جماعتنا. أنتو بس تعملو في مسلمين في حكاية الجواز. والفرض أنها مسلمة. ما هو الأستاذ دا مستعد يعمل أي حاجة عشان يتجوز حبيبة قلبه.

- والبنت؟

- يا شيخ! دي بتضحك عليه، لا حتجوزه ولا حاجة.

- وانت بورك أه في الحكاية دي؟

- تصور الراجل الأهل دا، مرات بتصل بي الساعة اثنين صباحا عشان يحكي في حكاية حبه وغرامه. دا متصور أنني سألته البنت تتجوزه.

- وفي نظري ذلك؟

- أهو كده. في نظري ذلك تلطش البور من مين؟ من بسلامته عمر الشريف.

- الله يلعلك. أنت حتخرب بيت الراجل.

- أبدا. لا حاخرب بيته ولا حاجة. بكرة يرجع لمراة وتنتهي الحكاية.

كل «منسي» في أكسفورد مثل السمكة في الماء. كما يقل. وأصبح من ذلك، أنه كان مثل حمار الوحش في الخلا.

تعرفتنا على أناس كثيرين. قلنا في كلية «سانت أنتوني».

كلية كراو وحسن بشير. الأخوين «ليونهارت» عالمي الاجتماع. وتعرفنا على الرجل الذي ترجم من اللغة الروسية رواية «دكتور جيفاكو» للكاتب الروسي الشهير «باسترنك» التي حولت إلى فيلم سينمائي مثل فيه دور «دكتور جيفاكو» عمر الشريف. غريم «منسي» في فيلم «لورانس». وقابلنا الكاتب الإنجليزي المعروف «جون وين» الذي كان في تلك الحقبة استاذاً للشعر. هذا المنصب الذي ابتدعت جامعة أكسفورد خصيصاً للكاتب والشعراء. كان «منسي» على سجيته تملأ في ذلك العالم المفتوح المستتر. الذي يتحدث فيه الناس لجرد متعة الحديث. ويلمعون بالافكار كما تلعب بكرة الـ «بنج بونج». كان بدلي بدلوهم هما كان الموضوع. لا يهمه أن كان ملما به أو لا. وسواء كان علم اجتماع أو اقتصاد أو فلسفة أو سياسة أو أدبا. أحياناً يصيب وأحياناً يخطئ. ولكنه كان يعوض جهله بحسن استخدامه للغة. وطبيعته المرحية وبديهيته الحاضرة. لذلك ترك أثرنا حسناً عند كل من قابلناه. وقد طلب له المقام فاراد أن يبقى فترة أطول. وكان كراو قد أحب مرجه وهذره فشجعه على البقاء. لكنني عاندت وقلت لهم:

- هذا أناس صانع ما عنده شغل. أما أنا فلا بد أن أعود إلى عمل.

قل «منسي»:-

- شغل أيه يا خوي؟ هو اللي أنتو بتعملوه دا شغل؟

كان «منسي» يعتبر الإذاعة «شغل أوطنة» وأنها مهنة لا تحتاج إلى معرفة أو جهد. لكنه كان يحبها. ولما هاجر إلى أمريكا كان من ضمن ما فعله أنه أنشا محطة إذاعة للدعوة للإسلام. وكان يومئذ قد أسلم وحسن إسلامه.

تلك السعادة التي غمرته طوال وجودنا في أكسفورد. لازمته ونحن عائدون في طريقنا إلى لندن. كان يضحك ويلترل ويبت من موضوع إلى آخر ومن فكرة إلى أخرى. دون توقف ودون تسلسل أو منطق. والحقه مع «بروسور تويني» بدأت تتحول في خياله تدريجياً إلى أسطورة أخرى في «ملوجيا» حياته. قل وهو يضحك من أعلق قلبه:-

- تصور أنا رحت كليس على الراجل وأنا مش فاهم الحكاية أيه ولا هو قل أيه.

قلت له:-

- أنك بحماقتك في أكسفورد ضيعت انتصارك في لندن على «ريتشارد كروسمن». مثل نابليون... أضاع في موسكو ما كسبه في أوسترلitz.

أعجبه أنني شبهته بنابليون. قل:-

- أنا برضه زي نابليون. مش كده.

أضحكني هذا جداً. قل:-

- بتضحك ليه؟ هو أيه يعني نابليون؟ حشة تلباني من كورسيكا.

قلت:

- بس أنت تشبه مين ولا مين؟ مرة على خن. مرة نابليون. ومين كمان؟

قل وكأنه لم يفلح في فكرة أخرى:-

- أنت عارف أن جمال عبد الناصر واد ججع بصحيح. صعيدي حمش. بس يا خسارة معاه شلة من الجهلة. أنت عارف هو محتاج للناس زي مين؟

- زيك أنت؟

- أهو كده. واحد صعيدي حمش. ومتعلم. وبتاع كليبته. يلعب بالبيضة والحجر زي حضرتي...

أضحكني ذلك. كما أضحكني من قبل قوله أنه يشبه نابليون:-

- أنت برضك بتضحك؟ هو يعني الأوباش اللي معاه دول أحسن مني؟

- أنت تعرفهم؟

- لا أعرفهم. أنت عارف الجدة دا اسمه أيه. دلوقتي بقى وزير قد الدنيا ومش عارف أيه. دا مراة كانت بتفصل هبومها عند الست اليونانية اللي أنا كنت ساكن عندها في الإسكندرية كان بيجي وياها. اتعرفت عليه وبقينا أصحاب. كما بنسهر كل ليلة ويا بعض.

بعد ذلك. حين عاد إلى مصر والقام فيها فترة. زعم أنه تعرف على جمال عبد الناصر وصار أحد مستشاريه وكان يلخص له الكتب

التي تصدر حديثاً باللغة الإنجليزية. وهو زعم لم نأخذه مأخذ الجد. أعدته متعمداً إلى أكسفورد. قلت له:-

- أكسفورد جنود مشكدة؟

- يا سلام على أكسفورد. أنت عارف أنني سجلت للدكتوراه في أكسفورد؟

- لا يا شيخ؟

- الله، أنت ما تعرف الحكاية دي؟ دا أنا حتى كدت أتجوز واحدة من أكسفورد، بنت زي القمر. كانت تدرس تاريخ في كلية «سانت هيلدا».

- وبعدين؟

- بعدين أه؟ ما أنت عارف الحكاية، اتلميت على حضراتكم، ولقيت الـ B.B.C. تقول لنا كلمتين فارغين نأخذ عليهم فلوس.

- وتزوجت ماري.

- أه يا سيدي.

- ماري سيدة فاضلة، وانت لا تستحقها. أي واحدة غيرها كانت طلقك من زمان.

- ما قلناش حاجة. ماري بنت حلال وربة بيت والكلام الفارغ دا. بس البنت بتاعة أكسفورد كانت حلوة فوي. زي النقطة.

تذكرت صاحبه من شركة «ارثر رانك» فسالته عنه. استجاب فوراً لهذا الموضوع الجديد وكأنه كان ينتظر السؤال منذ زمن. قال وهو يضحك:-

- الراجل الأهل اللي أنت شفتها دا يشغل «منصب كبير» في الشركة ومن عائلة محترمة ومتجوز ست زي القمر.

- أنا المفكوة أعزب، مش بلين أنه في ست في البيت.

«ما هي دي الحكاية. أصله يا سيدي الأستاذ دا راح مصر وقابل واحدة ملفوفة. عيكة بتاعة اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين سنة. راجل مفضل. شاف بنت مصرية عيونها عسلية وشعرها أسود. ومخلطلة. راح متدهول في حبها. أنت عارف الراجل دا سنة فوق الخمسين».

- وبعدين؟

- بعدين أه؟ البنت مش جاده... ضمكت عليه واوهمته أنها بتحبه ومستعدة تتجوزه.

- أنت شفتها؟

- الـ شفتها. ما أنا يا استاذ حاضر القصة من بدايتها. ثم قل وهو يضحك:-

- أصله أنت مش واخد بالك... أنا يا سيدي باشتغل معاه مستشار في الشؤون العربية، يعني لما بييجو ينتجو فيلم زي الخرطوم أو لورانس والكلام الفارغ دا، يستشيرو مين؟

- أنت؟

- أيوه يا سيدي. أنا، أنت فكر أنا معتمد على الكلام الفارغ بتاع الـ B.B.C.

- وبعدين؟

- وبعدين زي ما بيعملوا الإنجليز الهل. الخواجه لما رجع لإنجلترا حكى لمراة، وطلب منها الطلاق. قل أه؟ بيحب. دا مراة زي القمر.

- أوعى البنت تكون مسلمة.

- لا يا سيدي. اطمئن. قطبة من جماعتنا. أنتو بس تعملو في مسلمين في حكاية الجواز. والفرض أنها مسلمة. ما هو الأستاذ دا مستعد يعمل أي حاجة عشان يتجوز حبيبة قلبه.

- والبنت؟

- يا شيخ! دي بتضحك عليه، لا حتجوزه ولا حاجة.

- وانت بورك أه في الحكاية دي؟

- تصور الراجل الأهل دا، مرات بتصل بي الساعة اثنين صباحا عشان يحكي في حكاية حبه وغرامه. دا متصور أنني سألته البنت تتجوزه.

- وفي نظري ذلك؟

- أهو كده. في نظري ذلك تلطش البور من مين؟ من بسلامته عمر الشريف.

- الله يلعلك. أنت حتخرب بيت الراجل.

- أبدا. لا حاخرب بيته ولا حاجة. بكرة يرجع لمراة وتنتهي الحكاية.

انتهت الحكاية بان الرجل من شركة «ارثر رانك» لم يطلق زوجته ولم يتزوج «البنت» وإن «منسي» لم يحصل على دور عمر الشريف ولا أي دور آخر في فيلم «لورانس». ولكن الحياة كانت تخبره له أدوات أخرى في الواقع ■

للحديث بقية

نحو أفق بعيد ٢٢



بقلم الطبيب صالح

جهر اسماء المدعوين وهم يدخلون قاعة الاستقبال، واحدا بعد الآخر. لم يعجبني ذلك، وقلت لنفسي لم الجلبة والضوضاء، قدخلت دون ان اعطيه اسمي. وما هو الا قليل، حتى سمعت الحاجب ينلدي بصوته الجهر.

الدكتور مايكل بسطاوروس، رئيس القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية، كان رئيس القسم العربي الحقيقي موجودا في الحفل، فالتفت متعجبا.

نعم، انني استطيع ان اتخيل، كيف اقتحم «منسي» ذلك الحصن الحصين الذي لا يدخله كل من دب ودب، لا يدخله كل من شاء، هكذا، ضربة لازب. تجاوز السور الحديدي الخارجي الذي يتشبه به السواح، ينظرون من بعيد الى مراسم تغيير الحرس، يراودهم الامل ان يروا وجهها يطل عليهم من نافذة او ردهة. دخل الى الفناء الداخلي، ولعله صعد درجا، ثم فتحت له الابواب، وسار به الحرس الملكي في دهاليز واسعة طويلة. كل خطوة محسوبة منذ عهد سحيق غابر. اخيرا وصل الى... نهاية المطاف. الى شيء مبهم كأنه سيارة الـ «رولز» بين السيارات.

وصل دون استئذان، ودون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة.

فتح الباب الاخير، ونادى حجاب الملكة الذي لا بد انه لم يكن كسائر الحجاب:

«الدكتور منسي يوسف بسطاوروس، رئيس الوفد المصري».

هل تذكره وهو يقارع سير انتوني ايدن في اجتماع شباب المحافظين؟

هل تذكره وهو يصرع تينا ضخما من «تينينات» الانجليز؟

هل تذكره في اكسفورد وهو يحارب في غير محترَب، ويعارك في غير معترك؟

انه الآن في هذا المكان، يقوم بدور اعظم من اي دور قام به من قبل، او سيقوم به من بعد.

مثل «منسي» بثوبه المستعار وصفته المنتحلة، امام الرمز الأكبر للإمبراطورية البريطانية... ملكة انجلترا واسكتلندا وايرلنده وويلز وجزر الهيرديز وجزيرة مان وما وراء البحار، وريثة تاج الملوك جيمس وجورج وادوارد، سليله آل وندسور وهانوفر، راعية الكنيسة، رئيسة الكومنولث!

وماذا فعل «منسي» هل حي وانصرف؟ هل اكتفى بذلك القدر؟ ابدا. كانت تلك لحظة لا بد انه ظل يستعد لها على غير علم منه منذ ولد، وكأنما الاقدار قد هيأته لذلك اللقاء «التاريخي». ولعله ايقن انه هو ايضا يرمز لشيء ما، وانه لم يات منسولا، ولكنه يقف ذلك الموقف بمقتضى منطق، وان بدا عجيبا، فانه عادل على وجه من الوجوه ■ للحديث بقية

حين وقف «منسي» ذلك الموقف «التاريخي» في ذلك المكان الذي لا يدخله الناس ضربة لازب. لعله احس بأنه جاء بمقتضى منطق عادل، وانه هو ايضا يرمز لشيء ما. كان ما يزال في المرحلة الثانية من مراحل حياته، مرحلة الـ «بيل» التي اعقبت مرحلة الـ «عجلة».

حدث ذلك اواخر الخمسينات او اوائل الستينات، لا اذكر على وجه التحديد. لكنه كان حدثا كبيرا. استضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. جاءت الوفود من كل الانحاء وصافد ان «منسي» رحمه الله كان على صلة حميمة برئيس الوفد المصري، منذ هو طالب في جامعة الاسكندرية. لذلك كان سهلا عليه ان يلتزم بالوفد المصري. كان يرافقهم في محبتهم وذهابهم، يساعدهم على شراء لوازمهم من الاسواق، ويرتب لهم مقابلاتهم، ويصطحب من يرغب منهم الى عبادات الاطباء، ويسهل لهم امورهم. وقد وظف لذلك، كما يمكن ان يتخيل الانسان، طاقته الهائلة ومعرفته الواسعة بمدينة لندن. اصبح شخصا ضروريا لا غنى عنه بالنسبة لهم. وقليل قليل اصبح كأنه واحد منهم. كأنه عضو في الوفد وقد روى «منسي» انه تحاليل على سكرتارية المؤتمر، فوضعوا اسمه في قائمة اعضاء الوفود، وصاروا يرسلون له كل اوراق المؤتمر بما في ذلك بطاقات الدعوات التي كانت تقام تكريما لهم. اصبح «منسي» يحضر اجتماعات المؤتمر في النهار، ويحضر حفلات الاستقبال في المساء. ولم يجد اعضاء الوفد المصري غربة في ذلك، فقد كانوا يظنونه ايضا مندوبا عن هيئة الاذاعة البريطانية.

وجد «منسي» دورا محترما يليق به، فانهمك فيه بكل طاقته. وكعادته حين يتقمص دورا، فانه لم يكن يقف عند حد. لذلك كادت هذه الحادثة ان تنتهي بطرده من بريطانيا.

مر كل شيء بسلام، الى ان حل ذلك المساء، حين اقامت الملكة حفل الختام للوفود في قصر بكنجهام. لبس «منسي» بدلة السهرة التي لا بد انه استأجرها او استعارها. ثم مضى الى مواعده المضروب في القصر. مكان اكثر سحرا والقا وهيبه من كل الامكنة التي دخلها من قبل. انني استطيع ان اتخيل كيف دخل «منسي» قصر بكنجهام ذلك المعقل الامبريالي، المحاط بالبروتوكولات والرموز والطقوس. لقد صحتني مرة الى حفل استقبال اقامته سفارة من السفارات. لم يكن مدعوا بالطبع، ولكنه جاء هكذا، وكأنه يظن انه مدعو اصلا وبالفعل لكل الاحتفالات التي تقام لاي سبب وفي اي مكان على وجه الارض. كأنه ضيف مستديم على مائدة الحياة! كان على الباب رجل في بدلة حمراء كأنه جنرال في الجيش، يعلن بصوت

٣٤ نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

جدا. كيف تحتملين القيام بهذا الدور الممل يوما بعد يوم؟

يقول «منسي»، ان الملكة ضحكت. ولكن اغلب الظن انها ابتسمت ابتسامة خفيفة، لتخفي دهشتها من تلك الجراة، فهي مدربة لمثل هذه المواقف.

بعد ذلك دخل معها في حديث طويل عن مهامها كمملكة، وعن حياتها العائلية. وبلغت به الجراة انه سألها عن تربية الامير تشارلز ولي العهد وعن تعليمه. ليس ذلك فحسب ولكنه اخذ يعطيها نصائح عن افضل السبل لتربيته وتعليمه.

استغرقت المكالمة وقتا طويلا بحسب ذلك المكان. وقف الصف، وبدأ رؤساء الوفود يتعجبون من هذا الذي اعطته الملكة كل هذا الوقت. وكان محمد احمد محبوب وراء «منسي»، ينتظر دوره، بقلامة المديدة، وخبرته الطويلة، وبذلتة الانثقة التي لم يستعرها، ولكن اشتراها من حد ماله.

تحرك دوق ادنبرة، زوج الملكة الذي كان يقف الى جانبها، وامسك «منسي» برفق من ذراعه وخرج به من الصف. قال له: «انت صغير السن جدا. كيف اصبحت رئيس وفد دولة كبيرة كمصر؟»

قضى «منسي» ذلك المساء كما يمكن ان يتخيل المرء اكل وشرب وحاور وجال وضحك، وتعرف بلورد هذا ولدي تلك، وتحدثت اللغة الانجليزية على اصولها في مكن اسرارها وامنع حصونها. وفي غمرة تلك السعادة اغفل امرا مهما، وهو ان ذلك القصر ليس مكانا هملا، وان الانسان لا يدخل ذلك الحصن دون دعوة ودون وجه حق، مهما بدا له انه رمز لشيء ما، او انه صاحب حق ما. كانت ثمة عيون تراقب وتحرس، وترى وتسمع.

ثاني يوم، مع اول الصباح، وهو لم يكد يستيقظ من نومه، حل عليه رجال اشداء من طراز لم يعرفه من قبل. رجال الامن كانوا يعرفون عنه كل شيء منذ ان وطئت قدماه ارض جزيرتهم. كل صغيرة وكبيرة احصوها في سجلاتهم. وعلى مدى شهر او نحوه ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بانه عميل للمخابرات المصرية - قالوا له انهم لا يجدون تفسيرا آخر لسلوكه المريب. العجيب ان المصريين ايضا اتهموه بانه عميل للمخابرات البريطانية فهم ايضا لا يجدوا سببا منطقيا لسلوكه.

دخل «منسي» في مازق حقيقي، فجنّد كل طاقته واتصالاته ومعارفه. واخيرا انتهى الانجليز الى الرأي بانه شخص اما احمق او مجنون لا يدري ماذا يفعل.

انما «منسي» رحمه الله لم يكن احمق ولا مجنونا. كان كما وصفته استاذته باربرا بريي، انسانا نادرا على طريقته. ■

للحديث بقي

كان يعلم ان رئيس الوفد الحقيقي كان مريضا تلك الليلة، وانه ما من احد سوف ينوب عنه. ولعل ذلك كان حتما، فقد كان المنطق العجيب الذي اعطى «منسي» «شرعيته» ومبررات سلوكه عن علم او عن غير علم، يقتضي ان يلعب هو ذلك الدور. ان يكون هو الرئيس. ولم لا؟

الم ينتزع نبلليون وهو «حقة تلياني» من كورسيكا، التاج ويضعه بيده على راسه ويفرض نفسه «امبراطورا» على فرنسا؟

الا تغدق الحياة على اناس لا يبدو انهم يمتازون على بقية خلق الله؟

الا يشغل بعض الناس مساحات من الافق اكبر مما يستحقون؟

بمقتضى هذا المنطلق العجيب، وقف «منسي» في الصف الذي يؤدي الى الملكة، بين رؤساء الوفود. الرمز الامبريالي، الذي يعزف من اجله السلام الملكي، وتتحرك باسمه الجيوش، وتخفق الاعلام على سفن الحرب في عرض البحار.

وكان وراءه في الصف، محمد احمد محبوب، رئيس وفد السودان. ذلك ايضا كان عدلا على وجه من الوجوه، ان يقف محمد احمد محبوب بقلامة المديدة، وسمته المهيب، وبيانه الناصع، وعقله الراجح، وخبرته في معترك السياسة وراء «منسي» في ثوبه المستعار وصفته المنتحلة!

بعد ذلك بزمان، حكينا القصة لمحمد احمد محبوب رحمه الله. غضب اول الامر، بوصفه زعيما، ثم نظر اليها بوصفه شاعرا، فضحك. ولعله كان يومئذ اقدر على فهم «المغزى» واستبطان «الرمز» فقد كان منفيا في لندن، بعد ان انتزعت منه «ثورة مايو المظفرة» رئاسة الوزارة. لقد جاء واحدا، لا يختلف كثيرا عن «منسي» في نهاية الامر. (دون اذن ودون وجه حق في ثوب مستعار وصفة منتحلة) فازاحه عن مقعده وجلس هو مكانه.

كان الرؤساء يسلمون على الملكة فتقول لكل منهم بضع كلمات على سبيل المجاملة، ثم ينصرفون، ولا ياخذ اللقاء اكثر من دقيقة او دقيقتين.

لكن «منسي» كان مختلفا. لم يفوضه احد. جاء بمحض ارادته، لا كمتسول، ولكن بمقتضى منطق عادل في نظره. وباسم من؟

باسم كل الذين وقفوا وراء الاسوار ينتظرون من بعيد لعل وجها يطل عليهم من النافذة.

باسم اولئك الذين لم يجدوا مكانا على المائدة لان آخرين احتلوا مساحات اكبر مما يحق لهم.

يروى «منسي» رحمه الله، ان الملكة بعد ان حبته حسب ما تقتضي المراسم والاصول، فجأة قال لها، دون تفكير، ودون ان يناديها بلقب «صاحبة الجلالة»، كما تقتضي الاصول.

«اسمعي. لا بد انك تجددين هذه المناسبات مئة

٢٥ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

تشعب الحديث في دار سعد الدين وهبة الكاتب المسرحي الشهير، الذي كان يومئذ وكلا لوزارة الثقافة، وزوجته الممثلة الكبيرة سميحة أيوب، إلى أن جاء ذكر «منسي». بدأ سعد الدين وهبة يحكي قصة رحلة رافقه فيها «منسي» إلى الكويت، فلم أكن أنا الوحيد الذي حظي برفقته في الاسفار، إلا أنني ربما كنت أكثرهم حظاً. كان «منسي» رحمه الله يحب السفر، لذلك اقتني شركة للسياحة تنتج له ركوب الطائرات والنزول في الفنادق بأسعار مخفضة. وكان يحب الصحبة ويحب الضحك. فإذا وجد رفيقاً تطيب له صحبته مسافراً إلى أي مكان، سافر معه. كان يحب صلاح جاهين بطريقة مؤثرة، فإذا خطر على باله في واشنطن، يسافر فوراً إلى القاهرة لرؤياه. وإذا تذكر عبد الرحيم الرفاعي، سافر إلى «برين» وإذا عنت له باربرا بري في باريس، سافر إلى باريس. كان يبدو أنساناً حراً تماماً، طليقاً مثل طائر في الفضاء.

لم يذهب سعد الدين وهبة بعيداً في رواية القصة حتى دق جرس الباب. ثم إذا صاحبنا حقيقة ماثلاً للعبان. كان أحداً ناداه فاستجاب. صدفة، نعم، ولكنها صدفة تكررت كثيراً. يأتي ذكره، ولا أحد يظنه في المدينة، فإذا الباب يدق أو التلغون برن. دخل ضاحكاً وكأنه كان معنا منذ أول المساء.

«منسي! الله يخرب بيتك. أنت جايي منين؟» هجموا عليه بالعناق والقبل والشتائم، وخاصة الشتائم، فقد كان فيه شيء يغري بالشتيم، ولكن عن محبة.

تهلل وجهه طرباً لحرارة الاستقبال وكثرة السباب، والاثر المسرحي الهائل الذي أحدثه بدخوله إلى دار اعلم باصول المسرح الحقيقي منه... تناوشه الناس ذات اليمين وذات اليسار، وكانوا كلهم يعرفونه ويحبونه بدرجات متفاوتة، يوسف ادريس ومحمود سالم ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وآخرون.

اندرج حالا في الحديث وكأنه شارك فيه منذ البداية، وطابت له الامسية كما تطيب الامسي في القاهرة، ووجد جمهوراً ليس كسائر الجماهير، أناساً اصحاب مواهب واخوة سمر وفكاهة وطرائف. ولبس زي المهرج فاصبح محور الانتباه ومركز الدائرة.

مضى سعد الدين وهبة يحكي القصة، وكان البطل، يتدخل باستمرار ويجاذبه حبل الرواية ليسير بها على هواه. وكنت استمتع لاهيا وأنا لا اعلم أنني سوف أكون وشيكاً ممثلاً في فصل تعيس من فصولها في بيروت.

كان يحب الغموض، يظهر فجأة ويختفي فجأة. يا واد أنت جايي من انهي داهية؟. يقول «منسي».

«وعاوزين تعرفوا ليه؟» يقول يوسف ادريس الذي كان مأخوذاً بشخصيته من زمن.

«الواد دا لازم بيشتغل في السي. اي. ايه. طب ازاى عرفت أننا سهرانين هنا؟».

يضحك «منسي» فقد كان يحب ان يضفي على نفسه مزيداً من السحر والغموض.

ويقول احدهم:

«هي السي اي ايه مغفلة تشغل واحد عبيطزي دا دا كل حياته هزار وضحك وما يعرفش يخبي اتر اسرار».

ويقول الثاني:

«ما هو دا كله تمثيل للتمويه».

لكن الحقيقة كانت ابسط من ذلك. لقد وصل «منسي» من امريكا منذ اسبوعين، كما اخبرني فيما بعد، بعيداً عن التمثيل والتهرج، وزار اهله في القاهرة والصعيد، فقد كان طول حياته باراً باهله، وتفقد احوال اخواته واخوته، ثم انقطع اياماً بصحبة صديقه الحميم صلاح جاهين قبل ان يظهر في تلك الليلة.

كان قد مضى على هجرته إلى امريكا أكثر من خمسة عشر عاماً.

ايام كنا معا في لندن، كنت اقول له:

«سافر إلى امريكا. انها بلاد ينفع فيها النصب. اما دخلت السجن او اصبحت مليونيراً».

لكنه لم يأخذ قولي مأخذ الجد، فقد كان سعيداً بحياته في إنجلترا.

ثم ذات يوم، سافر على طريقته، دون خطة او تفكير مسبق، في رحلة من الرحلات التي كانت تنظمها هيئة الإذاعة البريطانية إلى نيويورك. يدفع الإنسان مبلغاً زهيداً يغطي ثمن تذكرة الطائرة ونفقة الإقامة في مدينة نيويورك مدة اسبوع.

سافر وليس في نيته الإقامة، فلم يكن يحمل مالا او متاعاً، ولم تكن تأشيرة الدخول تسمح له بالإقامة. ولكن الناس عادوا ولم يعد. وسألنا رفاقه في السفر فقالوا انه اختفى منذ وصلوا نيويورك ولا يعلمون أين ذهب ■

٣٦ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

الاجماع العربي، وهي عبارة اكتسبت اعماقا وادعانا فيما بعد، حين رددت في مجالس انقل وزنا و غير احتراماً. ومن محاسن الصدف ان اغلب اعضاء اللجنة ظلوا ثابتين على مدى اربعة او خمسة اعوام، فنشأت بينهم ألفة شخصية وتقارب في الرأي. حتى اخونا جمعة الفذاني اصبح يمرور الوقت ينظر الى الامور نظرة واقعية مهنية، كما كنا نقول.

هذا ورئيسنا الحليم، الدكتور عبد الاحد جمل الدين، يدفع بالتي هي احسن، يخدم الثورات ويطلق النيران، واذا تعقدت الامور يسعفه طبعه المصري فيقول شيئاً يضحك الناس، فيضحكون ويستريحون، وكان يجلس الى يمينه على المنصة، الاستاذ سليم، ياتي مساعد الامين العام، يستمع في صمت، ويعاني في صبر، ويدخن بلا توقف.

كان الامين العام مريضاً في المستشفى، فذهبنا نعوده، احسن استقبالنات وتلطف معنا في الحديث، ثم جاء ذكر الاعلام وقضاياها قال:

«اعلام ايه؟ انا عاوز اعمل تنمية».

فقال له احداً:

«لكن سيادتكم... ما هو برضه الاعلام داخل في التنمية».

كان آخر اجتماع تعقده اللجنة الدائمة للاعلام في القاهرة بعد ذلك حدثت احداث، وتفرق الناس سذراً، وذهبوا ايدي سبا.

قال لي «منسي»:

«والله فكرة عظيمة نروح بيروت، انا اصلاً مسافر الى الرياض، نقضي اياماً في بيروت، بعدها انت تسافر الى الدوحة، وانا اواصل السير الى الرياض».

ساعة واحدة توصلك من القاهرة الى بيروت، مثل المسافة من القاهرة الى اسوان، ودمشق اقرب الى القاهرة من اسوان، تخيل.

حلقت الطائرة فوق سماء بيروت اول المساء، الجبال والسماء والبحر حقاً كما وصفها الشعراء وتغنى بها وديع الصافي وفيروز، السلام والمحبة والعطاء كل ذلك حقاً لبنان، كل شيء معد اعداداً جميلاً للخراب، لقد بذل مئات الالاف من الرجال والنساء جهداً مضنياً على مدى عشرات السنين ليصنعوا بلداً مثل عروس خضلة ترف للموت.

لكننا في ذلك المساء من عام ٧٥، لم نكن نعلم ■

(للحديث بقية)

كان يجب علي ان انتبه، ونحن في مطار القاهرة نستعد للسفر، وانا المح «منسي» يجري من مكان الى مكان، يهمس في اذن موظف شركة الطيران، ويوشوش لموظف الجمارك، ويلطف موظف الجوازات، قلت هذه طبيعة «منسي»، يحول اي امر، مهما كان عادياً وبسيطاً الى شيء يشبه المؤامرة، حتى وانا اصعد سلم الطائرة، رايت يهمس لموظف شركة الطيران، فلم اكثر، دخل مسروراً وكأنه احرز نصراً من نوع ما.

وصلنا مطار بيروت اوائل المساء في ذلك اليوم من عام ١٩٧٥ الذي اصبح يؤرخ به فيما بعد على انه البداية الحقيقية للحرب اللبنانية، الحرب التي لم تضع اوزارها الى اليوم، وكان وصولنا قريباً من المهزلة، في جو متوتر، على غير علم منا، في مساء كان بداية لليل طويل حالك، يخفي في جوفه كوارث يشيب لهولها الولدان.

في دار سعد الدين وهبة، وكان المساء مساء من نوع آخر كما وصفت لكم قبلاً، سالني «منسي» عن وجهتي، قلت له انني عائد الى عملي في الدوحة، ولكنني سوف اعرج على بيروت لاقضي فيها اياماً، كنت قد حضرت اجتماع اللجنة الدائمة للاعلام، في مقر الجامعة العربية، ناقشنا مواضيع اصبحت بنوداً ثابتة في كل اجتماعات لجان الاعلام ومؤتمرات وزراء الاعلام الى يومنا هذا... التحرك الاعلامي العربي في الخارج، صورة العرب المشوهة في اجهزة الاعلام الغربية، انشاء وكالة انباء عربية موحدة، اقرار ميثاق شرف اعلامي، ايقاف الحملات الاعلامية التي تشنها الدول العربية بعضها ضد بعض، الى غير ذلك، كانت لجنة محترمة من رجال الفاضل سعدون الجاسم وعلي شمو وغالب ابو الفرج وابراهيم الصلحي وعبد العزيز الرواس، ومرسي سعد الدين، وعبد الله الحوراني وجمعة الفذاني والشيخ عيسى بن سلمان، وطه يس، واديب نعمن وآخرون لا يقلون عن هؤلاء الذين ذكرت فضلاً وحكمة، كانوا جميعاً رجالاً عقاء، اخوة اشقاء، كانت تلك الايام تتطلب قدراً كبيراً من العقل والحكمة الان، الله اعلم.

كنا نقول «لنضع نصب اعيننا الاهداف الثابتة للامة العربية ولا ننشغل بالتغيرات التي تأتي وتزول، وكنا نحاول ان نجد ارضاً صلبة نقف عليها وسط عالم من رمال متحركة، وكانت تلك اللجنة، حسب علمي، اول من استعمل عبارة «الحد الأدنى من

٢٧ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

فنيا طريقا يتكشف امامي، واريد ان اتابعه الى نهايته، وارى الى اين يصل. وفجأة تحول ذلك المكان في المطار الى مسرح، وتحولنا نحن جميعا، اعضاء السفارة القطرية وضابط الجمارك وعددا من الناس وقفوا يتابعون ما يجري وأنا، الى ممثلين ثانويين في مهزلة بطلها «منسي».

اصر الموظف على فتح الصندوقين، فقد كان منظرهما يبعث على الشك، خاصة في تلك الاجواء المتوترة، كما اتضح لنا فيما بعد. لعل فيما سحا، لعل فيهما مخدرات، لعل فيهما مصائب أخرى. من يدري؟ ولما رفع عن كل صندوق غطاؤه، نظرنا فلذا هما مملوءان بتياب نسائية داخلية، من جميع الاشكال والالوان. أخذ الضابط يخرجها، ومع كل رزمة تخرج، احس بنفسي ازداد غضبا وحرجا ودهشة. وكان «منسي» انفاء ذلك كله يردد متصالحا:..

«حاجات بسيطة. شوية هدايا».

الآن اذكر القصة التي حكاهما لنا سعد الدين وهبة في بيته في القاهرة وافهم سر سلوك «منسي». انه سب في المطار وهو يجري من مكان الى مكان، يهمس في اذنه هذا ويوشوش لذاك.

اعيدت الاشياء ورد على كل صندوق غطاؤه. اطلق الضابط زمتا وكأنه فقد القدرة على التفكير وفقد القدرة على الكلام. ورغم انه لا بد ان يكون قد رأى اعاجيب كثيرة من موقعه ذاك، وكأنه لم ير شيئا مثل ذلك من قبل. واخيرا رفع راسه ونظر الى الاخوة القطريين وقل بصوت هادئ لا تدري ان كان وراءه غضب ام عجب: «الاستاذ هيدا من جماعتكم؟»

تمنيت وانا في حالتي تلك لو قالوا لا، ولكن سدم سارع وقال «نعم».

ولما خرجنا من المطار، قلت لـ «منسي»: «اسمع. من هنا كل واحد يروح في طريق. والله لا تصاحبني. لا تنزل معي في هوتيل، ولا تعرفني ولا اعرفك» ■

الطبيب صالح

السماء فوق بيروت رحيمة قريبة المنال، نجومها عقود من اللؤلؤ تختلط بقناديل الكهرباء التي تتوهج على سفوح الجبال. وعلى اليسار، والطائرة تقترب من ارض المطار، بحر ناعم شفاف اول الليل، امواجه، كما قال الشاعر، مثل عرائس في غلائل بيض، تتراخض نحو الشاطئ، وتذوب. بعد قليل سوف تمطر هذه السماء الرحيمة شواظ من لهب، وهذه الجبال المضئنة سوف تهتز بهدير المدافع، وهذا البحر الآمن المطمئن، سوف يدفع الى الشاطئ بشياطين الدمار والهلاك.

لكننا لم نكن نعلم ان كل ذلك سوف يحدث وشيكا، ونحن ندخل صالة المسافرين القادمين، ونمضي لنتسلم امتعتنا.

فجأة انتبهت وكانني استيقظ من حلم. قلت لـ «منسي» مذعورا:..

«الله يخرب بيتك. ايه دا؟»

قال متصالحا:..

«شوية هدايا».

«اي هدايا؟ دي لازم بضائع مهربة».

كان اخوة من السفارة القطرية قد جاؤوا لاستقبالي، ودخلوا حظيرة الجمارك، فوقفوا ينتظرون متعجبين. حمل الشياطين صندوقين ضخمين، كل منهما يزن اطنانا، ولما اصر موظف الجمارك ان يرى ما بداخلهما، قال «منسي»:..

«حتتعب نفسك على ايه؟ دي حاجات بسيطة. شوية هدايا».

ثم اضاف، غير مبال بوجود القطريين:

«وكان انا موظف في دولة قطر وعضو في وفد رسمي».

نظر الى الاخوة من السفارة القطرية وفي عيونهم دهشة وتساؤل، وكنت انا اكثر دهشة منهم. لقد عرفت ضروبا من جراحة «منسي» من قبل، ولكنني لم اتخيل ان تبلغ به الجراحة ان يزعم انه يعمل في دولة اعضاء سفارتها حاضرون، ينتظرون ويسمعون. وكما كان يحدث لي طوال صحبتي له، فقد اختلط الغضب والخرج لدي، باهتمام عقلي بحت، كأنني ارى عملا

أصغر وأجمل



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٢٨

انزلني الاخوة القطريون في فندق الـ «هوليدي إن» الذي احرقته الحرب فيما بعد، كما احرق كل الفنادق الكبيرة في تلك المنطقة - الفينيسيا، والكازار، و«السان جورج». كان قد انشئ حديثاً يومذاك. كانت حركة التعمير في بيروت لا تنقطع، تغيب عنها شهراً ثم تعود فإذا هوتيلات وعمارات... كان اطفالاً شيدوا قصوراً من الرمال على شاطئ البحر، ثم سثموا، فقوضوها في لحظات.

انني اعرف جيداً تلك المنطقة بين «الزيتونة» و«عين المريسة». حين كنت اعمل مع هيئة الاذاعة البريطانية، كنت انتدب للعمل في مكتبهم في بيروت. في نزلة الداعوق، في شارع فينيسيا الذي ينحدر الى البحر عند فندق الـ «سان جورج». كان حسن المديجي، ملك عين المريسة، ومحمود نصير رحمه الله، ملك الزيتون، مصريان نزحاً الى بيروت واستقرا فيها، وكانا ينتجان البرامج لهيئة الاذاعة البريطانية، وكانت لهما شنة وزينة تلك الايام. وحسن المديجي خاصة حياته اسطورة اكثر عجباً من اسطورة «منسي». تعرفت على بيروت من خلالهما ومن خلال صلاح احمد الذي كان ملحقاً صحفياً في سفارة السودان.

اقمت معه اول مرة قدمت الى بيروت، عام ٥٨، في الطابق الثاني عشر في عمارة متقاربة، على اطراف الحمراء. اذكر ذلك الصباح جيداً. نظرت الى المدينة تتأرجح بين الجبل والبحر، تحت ضوء الصباح الحاد الواقع على العين، بعد ضوء لندن الشاحب وسماؤها الغائمة. زرقة البحر تمتزج بزرقة السماء تمتزج بأشعة الشمس المنعكسة من سطوح البيوت والعمارات، تمتزج بالخضرة على سفوح الجبل، فكانت تنظر الى مدينة وهمية ليست ثابتة تماماً في الزمان والمكان. خليج جونبة كانه على مرمى حجر، وتلك ولا بد، قمة «بسنكتا»، حيث اعكف ميخائيل نعيمة. لقد شددت اليه الرجال فيما بعد. ولعلك اذا دققت النظر ترى قبرص. انت هنا في مفترق طرق وملتقى حضارات. هذه بلاد «ليديا» و«فديجيا» وبلاد الشام. الى الغرب «يوروبا»، والى الجنوب «البريكيا» و«فرنسيا» و«افريقيا» وادي النيل. والى الشرق «ارابيا» و«تريا» و«ارابيا» و«سيرا»، ديار قحطان وعدنان. ووراء ذلك «مسيوتاميا» ارض بابل واشور ما بين النهرين. ثم جاءت النصرانية وجاء الاسلام الحنيف بلسان عربي مبين. وقامت اشياء فوق اشياء.

جامعي «منسي» وقت الضحى، سعيداً مبتسماً وكان شيئاً لم يحدث، وكنت والحق يقلل، قد هدأت ثائرتي. وبدت لي حكاية «منسي» في المطار، هيئة بالقباس الى نذر الشر المحتمل. اول ما دخلت الهوتيل في الليلة الماضية، احسست بنذر الشر، ولاحظت وجود شبان كثيرين يحملون السلاح وينظرون نظرات شرسة للداخلين والخارجين. ثم جامعي احمد سعيد محمدي صاحب «دار العودة»، فأكد لي ان البلد مقبلة على انفجار خطر. اما «منسي»، فلم يبد عليه انه احس بشيء من ذلك. قال:-

«تعرف انا نزلت في هوتيل لوكس في شارع الحمراء. اصحابه شبان أرمن. ادوني جناح كامل بسعر ارخص من السعر الي انت بتدفعه في غرفة هنا... انت ايه الي نزلت في الكلام الفارغ دا؟»

قلت له:-
«انت ليك اصحاب في بيروت؟»
«اووه كثير، دول اصحابي من زمان. دايماً انزل عندهم. شبان زي السكر».

ثم اضحك:-
«يا خوي ايه العبادة بتاعتك دي؟ عملت انك زعلان والكلام الفارغ دا. تعرف انك ضيعت على نفسك سهرة حلوة جداً».

كان «منسي» يعطش (الجيم) ولا ينطلقها على الطريقة المصرية، ولا يقول (اوي) ولكن يقول (قوي) بلهجة اهل الصعيد.

قال:-
«يلا بينا وبلاش الكلام الفارغ دا. انا حجزت لك جناح

زي الي عندي... حبيبتك الهوتيل... دول شبان زي الحلاوة... نقضي ايام جميلة جداً».

قلت له انني قررت السفر في ذلك اليوم لان الحالة متوترة وسوف تحصل مصائب كثيرة.

«يا شيخ بلاش كلام فارغ. البلد عال ومش حتحصل اى حاجة... خليك كمان ثلاث ايام».

ثم سألته عن الصناديق:-
«البلاوي الجبتها من القاهرة عملت فيها ايه؟»

قال ضاحكاً:-
«بعيتها».

«بعيتها؟ مش قلت انها هدايا؟»
«انت صدقت انها هدايا؟ وحاهدي هدم نسوان لمن

بس؟»
«لعلك الله. الاخوان من السفارة القطرية حيلتو اني باشغل معك في التهريب».

اسعده جداً انه ادخلني في ورطة. قلت له:-
«دي الصناديق الي حكى لنا عنها سعد الدين...

كده؟»
«اه. حاولت ادخلها ما عرفتتش».

«ورجعت بيها للقاهرة؟»
«وسببتها في المطار سنة كاملة. ولما لقيتكم مسافرو

لبيروت... وحضرتك قال ايه؟ موظف محترم في دولة قطر، وجليبي في مهمة رسمية، قلت والله دي فرصة».

«وعملت انك موظف في حكومة قطر وانك عضو في وفد رسمي».

قال «منسي» وهو يضحك بطريقته المعجبية، كما يفعل حين يظن انه نجح في عملية نصب بارعة:-
«يا محترم، انت مش واخذ بالك. وانا شحنت والبض

من القاهرة الى بيروت على اسم حضرتك».

«يعني ايه على اسم حضرتك؟»
«يعني يا محترم اني فهمت كل المسؤولين في مطار القاهرة

انها بتاعتك... امل انت شيليني اجري من هنا لينا فكرني بعمل ايه؟»

رغم كل شيء، فلانني لم املك الا ان اضحك. قلت له:-
«واشمعني كلها هدم نسوان؟ وكمان ملابس داخلية...

الله يلعلك. لا بد انك نصبت على واحد».

«اصل الحكاية ان تاجر يهودي في واشنطن الفلس. كان بيعصلي بضاعته. اشتريتها منه تقريباً ببلاش. ما عرفتتش

ادخلها لا في مصر ولا في الكويت ولا في بيروت. كانوا بيدنا، جمارك اكثر من تمنها. ولما عثرت عليك قلت والله فرجت

كسبت فيها كثير».

«دول فرحوا بيها قوي... شبان زي الحلاوة... ادوني فيها سعر محترم... انت عارف انها اصناف غالية... حريز

وحاجات حلوة جداً».

قلت له:-
«مش انت بتقول انك رجل لري وعندك مدرسة لتعليم

اللغات ومطعم وشركة سياحة وبيت في ارقى حي في واشنطن؟»

«انت بتقول حي محترم؟ انت عارف مين جارتنا؟ روبرت كندي. دا عيال بيبيعو مع عياله كل يوم».

«طيب. ما دمت من الاكابر وعيالك اصحاب عيال روبرت كندي، مش عيب عليك تتصرف كأنك شحات؟»

ضحك طويلاً، وضحك بسعادة حقيقية، فقد كان ذلك هو القصد. لقد قام بعمل «وجودي» طريف وجريء، عمل ليس

له اي مبرر او معنى، الا انه سوف يصبح اسطورة اخرى في «مولوجيا» حياته.

تركته في بيروت وانا مطمئن انه سوف يدبر اموره بشكل من الاشكال. ولما ارتفعت طائرة خطوط طيران الشرق الاوسط الباسلة في الجو، كانت السماء صافية لا يشوبها

غيمة، وكان البحر مثل حلم بديع لن ينتهي، وكانت تلك المدينة الرائعة، بكل ما احتوته من اشياء ثمينة وحيلة، وثييلة، تلمع اسفل بيوتها تحت شمس البحر الـ «المنوسط» تنتظر الزلزال ■ (للحديث بقية)

أحمر وأبيض



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٣٩

تركت «مسي» في بيروت يدبر أمره بوجه من الوجوه. في ذلك اليوم من عام خمسة وسبعين، حين بدأت الحرب في ديار لبنان. ولعل وجوده هناك، في ذلك اليوم بالذات، لم يكن بعيدا عن واقع الحال. ألم تكن حياته سلسلة من أعمال «عشبية» تحدث ارتجالا، بلا معنى ولا مبرر؟ إلا أنها كانت تنتهي نهايات سعيدة، ولا تدوم طويلا. وهذه الحرب ما معناها؟ لقد طال أمدها وتنوعت مصائبها، وصدق فيها قول زهير:-

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذمية
وتضرا إذا ضربتموها فتضرم

فتعركم عرك الرحي بثقالها
وتلقح كشافها ثم تنتج فتنتم

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم
كاحمد عاد ثم ترضع فتفطم

تصبر يا رعاك الله. أليست هذه الأبيات وبقية أبيات القصيدة، وقد قيلت منذ نحو ثلاثة عشر قرنا، اصدق ما قيل بالعربية في وصف الحرب إلى يومنا هذا؟ ورغم أن الإنسان يعجب بعبقريّة الشاعر الذي اختصر كل هذه الأزمنة، إلا أنه أيضا يحس بالحزن، أن الأمور لم تعتل منذ أيام عيس وذيان، رغم كل ما حدث من أحداث، وما جد من أفكار، وما أريق من دماء، وما سكب من دموع.

لكن لا يتبادر إلى الذهن أن اللبنانيين وحدهم مشغلو حروب، فنحن في السودان، على سبيل المثال لا الحصر، عندنا حرب تدور رحاها منذ أكثر من ثلاثين عاما، لا تقف حتى تبدأ من جديد، أتت على الأخضر واليابس، واهلكت الزرع والضرع، وافنت الشيخ والطفل الرضيع. ولا أحد يدري لماذا بدأت وكيف تنتهي، وفيها من البشاعات والحماقات والأكاذيب، ما في حرب لبنان. وإذا كان في لبنان «غلمان شؤم»، كما قال زهير، فغلمان الشؤم عندنا كثيرون. إلا أنني الآن، اتحدث عن بيروت، والشئ بالشئ يذكر، وبيروت عزيزة علي مثل الخرطوم، وحزني على ماسي السودان، ليس أكثر من حزني على ماسي لبنان.

ومالي لا أفعل؟ لقد عرفتهم أيام صفوهم فوجدتهم اصفياء كرماء أوفياء. وظلوا صامدين يتحملون في صبر طوال هذه السنوات التعيسة، مستشفياتهم تستقبل الضحايا تحت وابل القنابل، وطائراتهم تجوب الأفاق، ما أن يكف الضرب حتى يفتح المطار وتصعد الطائرات وتهبط. وصحفهم تطلع في أوانها، ومكتباتهم ملأى بالكتب، ومطابعهم تعمل بكفاءة ومصانعهم تنتج. ما أن تصمت المدافع حتى تفتح المحلات التجارية، ويخرج الناس إلى الشوارع، بين ركام العمارات المهدمة، يتحدون بنوازع الخير والحياة الكامنة في طبيعتهم، قوى الشر والموت. هؤلاء

هم أهل لبنان «العاديون»، وهم الأكثرية، وقد حركت الحرب فيهم، عواطف التراحم والتضحية والنبل. بقدر ما سافت من بشاعات، ولولاهم لما بقي شيء يتقاتل عليه الزعماء. كذلك في السودان، لولا طيبة الناس «العاديين»، وانسانيتهم وحكمتهم، لتمزق السودان مرقا مثل ثوب قديم مهلهل، ولقضت حماقات الزعماء على البقية الباقية منه إلى غير رجعة.

لذلك لم انقطع عن بيروت، أزورها كل عام أو عامين أو ثلاثة، طوال سنوات الحرب، مثل الشعراء الأوائل، كل واحد منهم مشدود إلى طلل. وفي كل مرة أجد شيئا قد تحطم... مطعما الفتة، أو مقهى جلست فيه إلى ناس أعزاء، أو فندقا نزلت فيه... كل ذلك الحي، بكل تلك الذكريات، قد احترق. مكتب الـ B.B.C، الذي كان ملتقى الأدباء والشعراء والصحفيين والأكاديميين ورجال الدين ورجال السياسة... ودار حسن المليجي التي كانت منتدى عامرا، وشرفة دار محمود نصير «ملك الزيتونة»، حيث جلسنا ليالي نشرف من عل على المدينة، وننظر إلى البحر، ونراقب الطائرات تمر أمامنا رائحة غداية... دار «شعر» على الجانب الآخر لشارع فنيسيا قبالة مكتب الـ B.B.C، كنت حين أمل العمل، أذهب إلى يوسف الخال أقضي معه الساعة والساعتين. كان أنسانا رائعا وسواء اتفقت معه أو اختلفت، فأنك لم تكن تملك إلا أن تحبه. ولم تكن أفكاره التي أثارها بعض الناس ضده، من قبيل الشيوعية والتعصب، ولكنها كانت من نتاج قريحته المتوقدة، وطبيعته المغرمة بالابتكار والاثارة... كل ذلك، وأكثر منه قد احترق.

أول ما نشر لي نشر في بيروت، وأول ما عرفت عرفت في بيروت. وقد رايت جبالا وتلوجا وبحارا ومدنا أكبر وعوالم أرحب، لكن هذه المدينة كان بيني وبينها وشائج من عهد غابر. ومثل كثيرون. هذه مدينة تعيش في قلوب ناس كثيرين. لقد بكت عليها عادة السمان، خنساء هذا العصر، فاحسنت البكاء. ورنائها بلند الحيدري فاحسن الرثاء. ورنائها نزار قباني وسمر عطا الله ومحمد الفيتوري وأدونيس ومحمّد درويش وآخرون. وكتبت عنها خالدة سعيد مقالات مدهشة في هذه «المجلة». ولا بد أن ما هدمه الحقد سوف تبنيه «المحبة»، من جديد. كل هذا الحب لا يمكن أن يذهب سدى.

وبعد... لعل ذلك البصيص من الضوء يبشر بمطلع الفجر. ها قد هيا الله سبحانه وتعالى، رجلا أو لي عزم ومروءة وأريحية، مثل الحارث بن عوف وهم بن سنان، يحملون ديات القتل، ويضمدون الجراح، ويجففون الدموع من عيون النواكل والأيتام. ولعل بركات تلك البقعة المباركة قد حلت على الرجال المجتمعين في «الطائف»، فحنت القلوب وثابت العزائم. وعسى أن يجيء شاعر عبقرى مثل زهير، يوفي هذه الحرب حقها من الهجاء والرثاء، ويوفي أولئك النفر الكرام حقهم من الثناء. من قال أن المديح مبتذل في الشعر؟ ثمة أعمال أريحية، تقتضي شعرا أريحية.

وقبلا قال المتنبي العظيم:
شاعر المجد صنوه شاعر اللفظ
كلانا رب المعاني الدقائق

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

حين قدمت على بغداد في شهر نوفمبر الماضي، كانوا قد عينوا عبيد الحسين زويلف لتوهم مدير الجهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونسكو الاقليمي في عمان، الذي يرأسه الدكتور محمد ابراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. ان اكون امياً بين الاميين، ياله من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة،

كم انا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت اكتشف اشياء جديدة. لقد طوقت هذا العام المتنوع الجميل عدة مرات من قبل، وظننت اني اعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، انني لم اعرفه حقاً لأنني لم أنظر اليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الاميين. اكثر من مائة مليون امي في العالم العربي! معنى ذلك انك لن تستطيع ان تصنع تنمية، ولا ان تقيم حضراً ولا مستقبلاً. لن تستطيع ان تحقق شيئاً من هذه الاحلام الجميلة التي تعن لهؤلاء الناس الاكابر. واذا صدقنا شعار منظمة اليونسكو، وهو حق، بما ان الحرب تنشا في عقول البشر، فلا بد من اقامة حصون السلام في عقول البشر. معنى ذلك انك لن تستطيع اقامة اي من هذه الحصون، إلا اذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدنا، بل كانت اجمل. كان سوق المربد، عامراً وتبارى الخطباء والشعراء والقي محمد الفيثوري قصيدته العصماء، لم يتركوا لك ما نقول.

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الاريحي، ولكنهم تناسوه واخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الأمية.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الأمية تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. إلا أن عبد الحسين زويلف كان واثقاً انهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراعتهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودودة ووجهه الطيب، ورافقني طوال اقامتي، وكان سعيداً متفائلاً. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطفه يس اسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. اخذوا الاميين في كل مكان، في الاهوار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب الببدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الأمية قضاء تاماً. وكما تتحول احداث

الحروب إلى اساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الأمية، إلى اسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف.

قصدت الكويت بعد بغداد، وهناك لقبت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل اخيه في بغداد تماماً. كأنه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الأمية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودمائة الخلق وحب الخير والايمان العميق بقيمة الانسان.

بعض المهن والحرف تفعل هذا الاثر في اصحابها. الاطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سرأ لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث امام اعينهم يوماً بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل ان تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد امد من الظلام، تنحل لهم الرموز، وتنسبك الغاز الحروف. ك... ت... ب... /كتب/ع... ر... ف... /عرف/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الأمية إلى وجوه الاميين، رجالاً ونساء، فجأة تسع بالحياة حين يقرأون ويكتبون ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها ان تتعلم الآن؟ انها تلك الرغبة المتأصلة في الانسان ان يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة افضل مع الآخرين، إلا ان معظم الذين يقبلون على فصول محو الأمية تحذوهم ايضاً رغبات ملحة لتحسين اوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الأمية، وهو احسن جهاز رأيت في البلاد التي زرتها. كان معداً اعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الأمية، من الكويتيين وغيرهم.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت ان اعرج على دار كريمة واسلم على ساكنها الكريم، الاستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال اربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الايام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الاعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الانسان الغد. ومهما يكن فان تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الانجليزية والفرنسية، سوف يظل اثرأ جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومآثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غدت بي الطائرة نحو صنعاء. هناك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف اجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف أزرع حبه، وارى العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع. في العالم العربي، عالم الاميين على الاقل، عالم واحد ■

(للحديث بقية)

ألمع وإنك



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٠

وصلت «سيدني» ليلا، وكانت من الجو مثل أغلب المدن، مساحات من الضوء تتسع أو تضيق. هذه على هضبة، وهذه في واد، وهذه على ضفة نهر، وهذه على شاطئ بحر. مدن تبدو لي حين تجيئها ليلا، كأنها معلقة بين السماء والأرض، بين الظلام والظلام، شيء يبعث على الآسى. الإنسان، هذا المخلوق القوي الضعيف، الغني الفقير، يبذل جهدا بائسا ليؤكد ذاته وسط وحشة الكون. وذلكم إحساس ظل يلح على شيخنا الجليل، أبي العلاء عوى في ظلام الليل عاف لعله

يجاب واني والديار عواي
صوافن خيل عند باب مملك
جمعن وما ايامه بصواي

ها هنا مساحة شاسعة من الضوء على شاطئ بحر. كنت قد تركت الدوحة، في عز الصيف، وسيت ان الصيف في الدوحة شتاء في سيدني، وفي عز الصيف، من يذكر الشتاء؟ لذلك لم اخذ للبرد عدته. فوصلت في شتاء زمهرير، وايضا شعرت بالوحشة، رغم انني اخو سفر، عاشق ترحال. كأنني شعرت انني ابتعدت جدا هذه المرة عن العالم الذي الغته. والشرق غرب والجنوب شمال، ولا بد من احداث قفزة كبيرة في ببداء الخيال. اوده، واين وادي هور ووادي الخزامي ووادي العقيق من هذه الاصقاع؟ ولم اكن اعرف احدا، ولم يستقبلني احد في المطار، ومع ذلك سمح لي مسؤول الجوازات بالدخول في اقل من دقيقة. لا اذكر انه قلب صفحات الجواز، او تأكد من وجود الـ «فيزا»، فقط نظر الى الجواز ونظر الي ثم تمنى لي اقامة سعيدة. وقد عجبت لذلك، نظرا لما حدث من سفارتهم في دلهي، ولولا سعة حيلة «منسي» لعلني لم اكن لاجيء هنا اصلا.

قلت اذهب الى الـ «هلتون»، فلم اكن قد حجزت مسبقا، فهذه الفنادق التي اقامها مستر هلتون كصرح «حضاري» يخلد ذكراه، هي هي اينما حلت. السعر يزيد قليلا او ينقص قليلا، والغرفة تكبر قليلا او تصغر قليلا، وبوسعك ان تدخلها وانت مغمض العينين، فتعرف ابن الحمام، واين خزانة الثياب، واين السرير. وقد جمع مستر هلتون، كما يفعل الامريكان، بين الدنيا والدين، فوضع في كل غرفة من غرف فنادقه المنتشرة في كل انحاء العالم، انجيدا، فضمن بذلك، كما ظن، ملايين الدنيا وثواب الآخرة. الحمد لله، بدأت تجد الان في بعض فنادق المسلمين، مصحفا شريفا، وسهما يدلك ابن القبلة.

سألني موظف الاستقبال هل عندي حجز، فقلت له دون تفكير «نعم». نظر فوجد اسمي، يا للعجب، وقال: «نعم. يوجد حجز باسمك. انت موظف في الشركة العالمية للسياحة، اليس كذلك؟»

لا حول ولا قوة الا بالله. اذا «منسي» في المدينة. كنت قد ضقت به ذرعا في «دلهي»، كما كان يحدث احيانا، ونحن نضيق ذرعا حتى بمن نحب، وكان يريد ان نساغر الى «سيدني» عن طريق «بومباي»، وكنت انا قد عزمتم ان اذهب عن طريق «بانجكوك»، وهو الطريق الاقصر، فافترقنا، سافر هو في طريق وانا في طريق، وقلت لعل الطرق تذهب به وجهة اخرى، واتفرغ انا للمهمة التي كلغتنني بها دولة قطر. دون ان اشغل نفسي بعبث «منسي» وابتكاراته. لكنني الان سعيد انه موجود في «سيدني»، ان لك صديقا في تلك المدينة الغربية في ذلك العالم البعيد. واتضح لي فيما بعد، ان وجوده كان خيرا وبركة، فقد كان لي نعم الرقيق وايضا نعم المعين. ومع ذلك فقد استكثرت ان اكون عاملا في شركة «منسي» العالمية للسياحة. قلت لموظف الاستقبال:—

انا في الواقع اعمل في حكومة قطر وليس في الشركة العالمية للسياحة.

قال الموظف «اوه»، ولم افهم الا فيما بعد، لماذا قال «اوه»، بتلك الطريقة. جاءني «منسي» بعد منتصف النهار، بعد ان نعت وصحوت على مهل، وكان رغم كل شيء، انسانا مهذبا، لا ينقل عليك، الا احيانا، واذا شعر انك تريد ان تخلو الى نفسك يتركك وشأنك. قال، اول ما فتحت له الباب، دون تحية، كأننا لم نلتق في «دلهي».

«اوه ياخوي العباطة بتاعتك دي»، «اوه».

«اوه حكاية انك موظف في حكومة قطر دي؟ وانا قابل لهم انك موظف في الشركة بتاعتنا».

«طيب ما هي دي الحقيقة».

«انت عارف باللهاله بتاعتك ضيقت على نفسك قد ايه؟ خمسين في المائة. احنا كشركة سياحية بناخذ خصم خمسين في المائة في الهوتيلات».

«يا اخي انا موفد من دولة في مهمة رسمية. يعني عاوزني احي آخر الدنيا وعشان اوفر شوية دولارات اكذب على الناس؟ وكمان اكون موظف مع مين؟ مع شركة سياحة فالصو ما حد سمع بيها».

«طيب يا سيدني، خليك زي ما انت. حتفضل طول عمرك مغفل. عامل انك ما تكذبش والكلام الفارغ دا. اوه. ولا قول لي.. انت لازم معك فلوس كثير. انا نسيت انك بتشتغل مع الجماعة بتوع البترول».

لسوء حظي، كما اكتشفت بعد ذلك، ان «منسي» ظن بالفعل انني اعمل مالا كثيرا، لانني اعمل في دولة بترولية، فكان يستضيف الناس في الهوتيل، ويوقع الفواتير على رقم غرفتي. هذه الالاعب الصغيرة كانت تسعده جدا. ايام كنا معا في لندن، كان يدخل كافيتريا البي بي سي (B.B.C) ويأخذ ما يشاء من اطعمة، ثم يذهب ويجلس دون ان يدفع. يفعل ذلك ليس خلسة ولكن عيانا بيانا، كأنه حق من حقوقه. ولما عاد من امريكا واستقر في «عزبته»، في جنوب انجلترا، قضينا معه «ويك اند» انا وعائلتي، فاحتفي بنا، كعادته، ولم يال جهدا في اكرامنا. ولما اوصلنا الى محطة السكة الحديد لنعود الى لندن، لاحظت انه اخذ يمازح الحارس على الباب، ثم غافله وتسلسل دون ان يدفع ثمن تذكرة الرصيف، وهو ليس اكثر من بضعة «شيللنات»، قلت له:—

«الله يلعنك. انت مهما تغتني تفضل برضك شحات».

اضحكه ذلك جدا، فقد كان يفعل تلك الاشياء بحكم دافع طفو لي للضحك، ليس اكثر.

سألته الان، ونحن في فندق «هلتون»، في «سيدني»،:—

«كيف عرفت موعد وصولي؟»

قال ضاحكا، لسبب سوف تعرفونه فيما بعد:—

«ما هو اصله صديقي «درفا» اداني تفاصيل رحلاتك».

«طيب وكيف تاكدت اني حانزل في الهوتيل بالذات؟»

«تليباتي حاسة سادسة»، انا كنت متأكد انك حتنزل في الهوتيل دا. انت ما تعرفش الحكاية دي؟ اني باعرف الحاجات قبل ما تحصل، وعلى اي حال لو كنت نزلت في هوتيل ثاني، كنت حادور عليك والايقب. يعني حتروح فين؟»

(للحديث بقية)

المرآة



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤١

وأنا أتأهب للسفر إلى «دلهي» كلمني «منسي» من لندن. كان عصر يوم الجمعة. ولم أكن سمعت منه منذ أشهر.

- اسمع يا طبيب.. أنا حاضرك عليك بكرة أخذ معاك كم يوم ومن هناك أسافر للرياض.

- بكرة أنا مش حاكون موجود في الدوحة لأنني مسافر.

- على فين؟
- على دلهي.
- وعندك أیه في دلهي؟
- مسافر في مهمة.

- لا يا شيخ؟ طب اسمع. والله دي فكرة كويسة. أیه رأيك أجي معاك؟ أصلي أنا ما زتش الهند قبل كدة.

- يا ابني أنا مش مسافر من لندن إلى أكسفورد أو أدنبرة.. بقول لك أنا مسافر إلى دلهي ومنها إلى سيدني. ومنها إلى طوكيو. ورايح في مهمة رسمية. يعني شغل. مش رايح اتفسح.

- طب وماله؟ دي حتكون رحلة ظريفة جدا، انت تعمل شغلك وبرضه تتفسح ونضحك ونتفرج ع الدنيا. باللا بلاش غلبة. أنا خلاص قررت أجي معاك، بس انت أدبني تفاصيل الرحلة.

- يا ابني أنا مسافر بكرة صباحا الساعة سبعة ودلوقت الساعة أربعة. ايمتي حتحصل تعمل الحجز؟

- قلت الساعة سبعة؟ أه، دي طائرة الـ B.A. أنا كنت حاجز على طيران الخليج، لا دي بسيطة. انت نسيت اني عندي شركة سياحة؟ خلاص. بكرة حتلاقيني في المطار. دي حتكون رحلة عظيمة جدا.

كان يمر على الدوحة بين الحين والآخر في سفراته من الرياض والبيها. فقد كانت له فيها أعمال تجارية ثم تزوج هناك وأصبح له في الرياض زوجة ودار. استقبلته ذات مرة في مطار الدوحة، فإذا هو قد تزى بزى عربي، ولم أكن قد رأيته على تلك الهيئة من قبل عباءة و«شداشة» و«غطرة» وعقال، وله لحية صغيرة على شكل مثلث و«عنفة»، وليس له شارب، بدا لي كأنه «خوaja» يمثل دور عربي في فيلم امريكي. حجزه موظف الجوازات، فذهبت أسأله قال:

- هادا الرجال يحمل جواز سفر امريكي واسمه مايكل ما ادري ايش، وهينته عربي ويتكلم عربي ويقول انه مسلم، ايش هادا؟ هذا لازم جاسوس.

كان «منسي» سعيدا جدا بذلك الوضع المحير، مستغرقا في الضحك قلت للشباب القطري:

- يا ابني هذا ليس جاسوسا، هذا بلوى اكبر، ارجوك دعه يدخل على مسؤوليتي.

لحسن الحظ أعدت ضحكة «منسي» العجيبة التي تقول ان صاحبها لا يمكن ان يخبيء سرا او يضمر شرا. أعدت الشاب القطري، فأخذ يضحك هو الآخر. اذن له بالدخول ولكنه احتفظ بالجواز من باب الاحتياط. انتهت المكالمة التليفونية وأنا بين مصدق ومكذب وفي

صباح اليوم التالي في الساعة السابعة دخلت الطائرة فإذا ثمة صاحبي بعينه. لا بد انه نام طول الطريق من لندن واستيقظ نشطا كعادته. يقال ان نابليون كانت عنده هذه الموهبة. ينام في أي وقت وفي أي مكان، وأحيانا ينام لبضعة دقائق ويصحو فكانه نام ساعات وإذا كانت العبقرية تقاس بسهولة النوم، فأنني أشهد ان «منسي» كان عبقريا. نام في صحن الحرم المكي الشريف بين صلاة المغرب والعشاء، والناس في زحاج، وتلهيل وتكبير. كان ذلك في عمرتي الأولى. وقد زاملني فيها. وكان معنا شاب من الحرس الوطني السعودي، فتكون في الشوط الخامس في السعي، و«منسي» ما يزال يتلصق في الشوط الثاني. نمر عليه فنحده قد ضل الطريق فنوجه وجهه الصفاو المروة. ثم نعود إليه فإذا هو قد تاه مرة أخرى. ولما قضى سعيه بعد لأي، نام نوما عميقا وكان في داره وفي غرفة نومه. ألى ان نهبناه لنعود إلى جدة، قلت له:

- الله يخيك، هل هذا مكان ينام فيه الانسان؟ قال:

- ما هو أصلي أنا ماليش ذنوب. عشان كده نمت لأنني مرتاح الضمير.

أسعدته الدهشة على وجهي، وكان قد حجز لي المقعد المجاور له. لم يقف ليحييني ولكنه أخذ يملس كرسيه بيديه وينظر حوله كأنه يريد ان يشهد جمهورا غير مرئي على المعجزة الجديدة التي انجزها.

- شايف يا ابني أزاى؟ انت ما تخيلتش اني حاقدر اعمل الحكاية دي. مش كده؟ دا انا قلبت الدنيا، عملت اللي ما يعمل عشان غير الحجز.

بعد ذلك «دوشني» بالثرثرة إلى ان وصلنا دلهي فاضاع علي تلك المتعة الخاصة التي اجدتها في لقاء مدينة جديدة علي من الجو، ان اقدم على مدينة لا اعرفها، في وضخ النهار. اراها من الطائرة على كامل هيئتها مثل نموذج مصغر. بجبالها اذا كان لها جبال، وصحرائها اذا كانت وسط صحراء، ونهرها اذا كانت على نهر. ولعل تلك هي الصورة التي تعلق في الذهن. بعد ان ينسى الانسان اسماء الشوارع واشكال المباني وزحمة الناس والسيارات.

أنش له الدكتور حسن نعمة سفير قطر، وابراهيم طه ابوب سفير السودان، والفاه كأنهما يعرفانه من زمن. فأسعداه المكان وطابت له الحياة. وكان «منسي» رجا الله. على ذكائه وسعة تجربته، فيه براءة الطفل. حين يحس انه محبوب ومقبول، يكون في أحسن حالاته. فتصفو روحه ويشرق ذهنه وتتأجج طاقة المرح الساكنة اصلا غير بعيد في طبعه.

كذلك كلف به «درفا» الموظف الهندي الذي كلفه السفير القطري بتنظيم مقابلاتي وتنقلاتي. ولكنه أخذ بـ «منسي» وانصرف له كلية.

(للحديث بقية)

أكثر وأجمل



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٢

الدكتور حسن نعمة الذي ما يزال سفيراً لدولة قطر في «دلهي»، إنسان لا تجد مثله كثيرين. نال درجة الدكتوراة في اللغة العربية من جامعة «كمبريدج» واختارته دولة قطر سفيراً لها في الهند منذ ما يربو عن عشر سنوات. فاحب الهند وعشق فنونها وأدائها وحضارتها فطاب له المقام فيها. وكانوا كلما أرادوا أن ينقلوه إلى دولة أخرى، يهرع إلى الدوحة راجياً أن يتركوه حيث هو، فيتركونه وهذه من حسنات دولة قطر. وأنا أشهد عن تجربة أنها دولة كثيرة الحسنات. إذا وجدت أن سفيراً ارتاح في بلد، لا تنعص عيشه بالنقل. وقد تركت صديقنا عبد الله الجيدة في الرباط عقداً من الزمان.

هذا، وقد عاش حسن نعمة السودانيين في «كمبريدج»، وفي «الدوحة»، فحفظ شعر الحرذلو الكبير والتجاني يوسف بشير. يقول لك حين تلقاه «يا زول، أنا راقد قنّي وأمدخ المصطفى». والسوداني حين يقول ذلك، فمعناه أن الحياة قد طابت له خصوصاً، فيجيش خاطره بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم تكن هذه الصورة بعيدة عن حال الدكتور حسن نعمة حين لقيناه، «منسي»، وأنا، في دلهي، وجدنا له داراً جميلة رحيمة مبنية على طراز إسلامي مغربي مع مسحة من الطراز الإنجليزي في عهد الـ «راج» (Raj). وللدار باحة واسعة مغطّية ترعى فيها أبقار تدر له اللبن غريضاً. وكان يعيش حياة بسيطة متقشفة، طعامه اللبن الرائب في الغالب. وكان كثير السفر، طاف الهند شرقاً وغرباً، ودرس موسيقاها وفنونها وعمارتها وأدائها. وهو إلى ذلك شاعر مجيد وراويّة للشعر العربي قديمه وحديثه، ومغرم بصفة خاصة بالشعراء المسلمين «الميتافيزيقيين»، أمثال جلال الدين الرومي وابن الفارض والشيرازي وسعدي. لذلك لم يكن عسيراً عليه أن يجد لـ «منسي» مكاناً في تلك الأفاق الرحبة التي يعيش فيها، فتألفا دون مشقة.

كذلك أنشأ لـ «منسي» سفير السودان، إبراهيم طه أيوب فهو من «الحللاويين»، كما نقول، نسبة إلى «وادي حلها»، وهؤلاء قوم يعتبرهم المؤرخون أعرق شعوب وادي النيل، وكانت ديارهم تمتد من جنوب مصر إلى شمال السودان، مكونة مثلاً من لحة جسيمة بين البلدين. إلى أن أغرقت مياه السد العالي ديارهم، فنقل سكان الجانب المصري إلى أطراف الصعيد، وأجلى الذين في الجانب السوداني إلى أرض البطانة في الشرق. الله أعلم أيهما أفضل، أن لو بقيت تلك الرحم موصولة، أو أن تكسب مصر مزيداً من الماء ومزيداً من الكهرباء!

وهم قوم اشتهر عنهم في شطري وادي النيل، أنهم أهل نزاهة واستقامة وجرأة في الحق، ونوع من القول الساخر الذي يلقونه بشكل عفوي. وفوق ذلك فهم أهل دراية وضأن دول. فقد كان منهم سدنة المعابد الفرعونية من قديم، وفي دهم الاخلاص للرمز والتفاني في خدمة «المؤسسة». وحين جاءهم العرب بالإسلام الحنيف، قبلوه سلماً لا حرباً. لأنهم راوا لأول وهلة أنه الحق ومنهم على الأرجح، «بلال»، مؤذن الرسول... ومنهم في تاريخ السودان الحديث جمال محمد أحمد، أحد المفكرين المحدثين بين عذوتي الوادي والذي لم ينل حظاً كما يجب، رغم أنه صار سفيراً ووزيراً. ومنهم إبراهيم أحمد، أحد رواد الحركة الوطنية وأحد المؤسسين لجامعة الخرطوم. ومنهم دأود عبد اللطيف الذي كان محافظاً ثم وزيراً. وكان من الأكفاء ومن مشاهير الأذكاء الظرفاء في السودان. ومنهم محمد نور الدين، من الرواد الأولين، ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي، وكان يدعو صراحة إلى وحدة اندماجية بين مصر والسودان.

يُحكى أن محمد نور الدين كانت تربطه صداقة قوية بعبد الله خليل، الذي كان على التقيض تماماً في فكره السيلسي، فقد كان من قادة حزب الأمة وصار رئيساً للوزارة في أول حكومة لحزب الأمة. وكانا فقيرين شأن كل الزعماء تلك الأيام. علم السيد عبد الرحمن المهدي أنهما في ضائقة، فكلّف أحد معاونيه أن يحمل مبلغاً من المال لكل واحد

منهما. ذهب الرجل أولاً إلى عبد الله خليل، ولما أعطاه المال، قال له -

«محمد نور الدين أكثر حاجة مني فأذهب بالمال إليه، قال له الرجل، خذ المال فإن السيد أرسل مثله لمحمد نور الدين». ثم ذهب الرجل إلى محمد نور الدين، ولما أعاد إليه الهدية، قال له -

«عبد الله خليل أحوج مني فخذ إليه». فافهمه أن السيد قد أرسل مبلغاً مثله لعبد الله خليل. ولما جاء إلى السيد عبد الرحمن المهدي، عليهم جميعاً رحمة الله، وقصّ عليه القصة، بكى...

جمعني الظروف صدفة في عمان بالأردن منذ عامين، باحمد المهدي، وهو ابن السيد عبد الرحمن المهدي وعم الصادق المهدي، وكنت قد عرفته في إنجلترا حين كان يدرس في جامعة «أكسفورد»، ثم عملت معه فترة قصيرة لما كان وزيراً للإعلام في حكومة الصادق المهدي الأولى عام ستة وستين، وهو من جبلي وبينني وبينه مودة. سألته عن هذه القصة فأكدّها لي، وقال -

«سوف أقص عليك ما هو أعجب منها. حل وفد من الحزب الشيوعي السوفيتي ضيفاً على الحزب الشيوعي السوداني. ولما سمع السيد عبد الرحمن المهدي، نادى عبد الخالق محجوب أمين عام الحزب الشيوعي السوداني، وكان يحذب عليه ويعامله كابنه لأنه كان صديقاً لوالده، وقال له -

«يا عبد الخالق، أنا سمعت أن الشيوعيين الروس نزلوا ضيوفاً عليكم، وأنا أعرف أن حزبكم ما عنده قدرة ضيافتهم وإكرامهم. نحن بهما أن يأخذوا فكرة طيبة عن السودان وأن الشيوعيين في السودان نلس كرماء يقومون بواجب الضيف. كيف أنتو ماشين تكرمهم؟»

أجاب عبد الخالق محجوب -
«والله يا سيد نحن ما فكرنا في الموضوع دا... نكرمهم على قدر قدرتنا. يمكن نعمل لهم حفلة شاي».

فقال له السيد عبد الرحمن -

«أبدا. حفلة الشاي مش كفاية. تعزمهم كلهم للعشاء هنا. نعمل لهم عشاء كبير عندي هنا».

وهكذا اجتمع الشيوعيون، سودانيون وبلشفيك، على مأذنة السيد عبد الرحمن المهدي رجل الدين وامام طائفة الانصار، وراعي حزب الأمة... أولئك رجال من أمة قد خلت رحمتهم والرحمة واسعة.

ذلك، ومن قوم إبراهيم طه أيوب أيضاً، محمد توفيق احد اركان الحزب الاتحادي الديمقراطي، وكان وزيراً للخارجية في حكومة الصادق المهدي بعد انتفاضة رجب المباركة، وهو الآن في السجن. وذلك من عجائب السودان، أنه لا يمر عليه وقت الا وتجد فيه زعماء يحكمون، ولهم نظراء داخل السجون. كان هذا العراق الشاسع لا يتسع لهم جميعاً في وقت واحد. ومن الأماني العزيزة قبل أن يغادر الإنسان هذه الحياة الدنيا، والعمر مثل ظل الضحى أخذ يتقاصر، وذلك الأفق الذي كان يبدو بعيداً أخذ يدنو، أن يرى زماناً يكون الناس فيه كلهم طلقاء، ولا يكون داخل السجون إلا القلة الحقيقيون واللصوص الحقيقيون.

كان إبراهيم طه أيوب، الذي تقلبت به الأحوال بعد ذلك، ذكياً، فاحب في «منسي»، ذكاه، وكان ضحوكاً فاحشاً، في «منسي» ميله للضحك، وكان طريفاً، فوجد إنساناً لم ير أحداً على شاكلته من قبل.

هذا، ونحن في دار الدكتور حسن نعمة في «دلهي». صيف عام ثمانين وتسعمائة ألف، والنيل ساكن إلا من عازف ينفر على الـ «سيتار»، تلك الألحان الهندية الحزينة التي تمرّق بياض القلب. وقد كان القلب خالياً لم يتنور بعد نارهم من وراء أزروعات، ولا أنبى له الطيف الذي أقص مضجع البحري.

الم تر للبرق كيف أنبرى

خيال الم لها من «سوى»

ونحن هجود على «بعض»

الكر وراحة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٣

انتبهت في «دلهي» الى صفة أخرى في «مسي» لم ألاحظها من قبل. كان مثل بعض الحيوانات التي وهبتها الطبيعة قدرة التكيف الجسدي، حسب البيئة التي تسكنها. فإذا عاشت في خضرة وزرع، يصبح لونتها أخضر. وإذا عاشت في الرمل، يتلون جسمها بلون الرمل. طبعه لم يكن متقلبا. أبدا. كان دائما على سجيته في كل الأحوال. لكنني نظرت اليه في الهند، فإذا هو «هندي» بالمعنى الجسماني. اكتسب جسمه لونا أعمق شمرة. أو هكذا تخيل لي. وبدأ لي شعور راسه. أو ما بقي منه. مثل شعر الهنود. تناعمت خلجات وجهه وحركات يديه مع تواتر حركات الهنود. وكان يعرف بضع حمل من اللغة الهندية مثل لغات كثيرة لم يكن يعرف إلا جملا منها. يستعملها بطريقة توحي أنه ضليع فيها. أضف إلى ذلك موهبته في رفع الكلفة وتخطي الحواجز، وتعاطفه المتواصل مع الضعفاء وصغار الناس. لا عجب إذا، أن «درفا» أقبل عليه كأنه يعرفه من زمن. وانصرف له كلية. يكون عندي موعد مع مسؤول في الدولة، فانا لم أجد سائقا، وإنما جئت في عمل، فلا أجد السيارة. ولا أجد «درفا». وذهب إلى مواعدي في سيارة أجرة واسأل «درفا» فيما بعد... «أين كنت يا «درفا»؟» فيقول...

«كنت مع الدكتور أحمد» وصرت أحيانا اضطر إلى اصطحاب «مسي» إلى مقابلاتي، حتى أضمن السيارة. لو أن دولة قطر كانت تعلم أن «مسي» سوف يصبح طرفا في هذه القضية، فلعلها كانت تعدل عن عزمها، أو تكلف شخصا محيري بتلك المهمة. لقد أخذت قطر قرارات مؤتمرات وزراء الإعلام مأخذ الجد، وكل الكلام عن صورة العرب المشوهة في العالم، وانبرت، نيلبة عن الدول العربية، لدراسة إمكان انشاء مؤسسة إعلامية كبرى. على نمط المؤسسات العالمية الكبيرة، مثل مؤسسة فورد وروكفلر والمجلس البريطاني ومؤسسة جوتة الألمانية، والمؤسسات الثقافية والإعلامية في فرنسا والسويد واليابان. وكان الهدف، أن تقوم هذه المؤسسة العربية بتمويل ضخ، من الدول العربية البترولية خاصة، وتنطلق في العمل في افق الاعلام الرحبة والثقافة والفكر والفن، ناقلة حضارة العرب بكل ثرائها وتنوعها، في ماضيها وحاضرها، إلى شتى أرجاء المعمورة. بمعنى آخر، أن يصبح العرب مشاركين فاعلين في سوق الأفكار المطروحة في العالم، ومساهمين بما عندهم في «مائدة» الحضارة الإنسانية، بدل أن يكونوا عالة على الآخرين، يأخذون ولا يعطون. تصور أي حلم رائع لو أنه تحقق. وكان القصد أيضا أن تكون هذه المؤسسة مستقلة تماما، تتحرك بلا قيود ولا حدود، في إطار الهدف السامي المتفق عليه أصلا. ولا بد لي من القول، احتفاء للحق، أن سمو أمير دولة قطر تحمس لهذه الفكرة حماسة بالغة، وأيدها تأييدا مطلقا.

وهكذا اختارت دولة قطر رجل الاعلام الكبير، الأستاذ محمود الشريف، وقد كان مديرا لوزارة الاعلام القطرية قبل، ليسافر إلى أمريكا، وانتدبتني لأسافر للهند واستراليا واليابان وبعض دول أوروبا الغربية. وقد كلفنا بأن نتعرف على «الصورة» العربية، في تلك البلاد، ونلم بانماط المؤسسات التي على غرار المؤسسة العربية المرجوة. وقد رأينا عجايبا. وند الحلم الجميل في مهده لسوء الحظ. ولم ترتفع الهمم إلى مستوى الطموح النبيل. إلا أنني شخصيا استفدت فائدة لا تقدر بثمن. وقد كانت تلك عارفة أسدتها إلى دولة قطر، فلولاها لما أتيت لي أن أزور تلك البلاد البعيدة، واتعرف على تلك العوالم الغربية.

وصلنا «دلهي» في اليوم الذي مات فيه «سانجي غاندي»، الابن الأكبر لرئيسة الوزراء، إذ سقطت به طائرتة، وكانت تعده ليخلفها في الحكم. وكان شابا مغامرا جريئا، يثر حبا عميقا لدى بعض الناس، وكراهية مريرة لدى البعض الآخر، فوجدنا أغلب الهنود حزانى لمصرعه، وقلة من الشاملتين. وقد حزن الدكتور حسن نعمة، سفير دولة قطر، حزنا عميقا. فقد كان صديقا لـ «سانجي». ومعجبا به.

ويؤمل فيه خيرا كثيرا في مساندة قضايا العرب. لم تكن الهند غريبة علي، فقد قرأت شعر رابندرانات طاغور وسيرة حياة غاندي وسيرة نهرو وشاهدت افلام المخرج الهندي الموهوب «ساجت زوي»، وشغفت حبا بموسيقى «رافي شانكار»، واستمعت إلى نهرو القذ عن «ب. ب. يتحدث في نيويورك عام ستين». وكنا في السودان ونحن سبعة في المدارس الثانوية أو آخر الأربعينات، نعجب بإفكار المهاتما غاندي، ونتابع باهتمام مسيرة كفاح الهند ضد الاستعمار البريطاني. بل أن ظهور مؤتمر الخريجين في السودان كمنطلق للعمل الوطني، كان متأثرا إلى حد كبير بحركة المؤتمر الهندي. كنا نعرف أسماء زعماء الهند، ونعرف جغرافيتها وتاريخها وتستهوينا أسماء مدنها، ونحفظ قصيدة شوقي التي حيا فيها غاندي وهو في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن...

سلام النيل يا غاندي وهاك الزهر من دي
سلام حالب الشاة سلام ناسح سرد

وكنا نظرب بصفة خاصة لقول أمير الشعراء...
وقل هاتوا أساعيك أتى الحاري من الهند

كنا نحس، أن هذا الرجل التحيل، العاري الجسم الامن ازار من القطن، نسجه بيديه، ينطوي على معنى جسيم يوجب خيالنا، كنا قد قرأنا عنه في الكتب في سير المسلمين الأوائل، ولم نره مجسما ملم عيوننا من قبل، اللهم الا عند قلة من النشك والزهد.

وهذا، وكانت بين السودان والهند علاقة بحكم الاستعمار البريطاني للبلدين، في أساليب الحكم والإدارة والذبح وتخطيط المدن. وكان بعد علينا أحيانا بريطانيون عمل في الهند، أذكر منهم ضابطا في الجيش، يدعى كولونيل أكستر، جاء يعلمنا اللغة الإنجليزية، فرض علينا كتابا كان بعيدا عن مداركنا في تلك السن المبكرة، وقد عرفت بعد ذلك بسنوات أنه من روائع الأدب الإنجليزي، وهو كتاب «مذكرات صائد ثعالب» للكاتب الكبير «سيغفريد ساسون»، استسحقنا الكتاب، وقلنا مالنا ولصيد الثعالب وطلبنا من استاذنا الكولونيل أن يستبدله بكتاب آخر. لكنه استشاط غضبا، وقرعنا بلهجة قاسية متعالية لم نتعود عليها. ولما عاد إلينا في اليوم التالي، وجد اثنا قد صلفنا له نسخ الكتاب على منضدته، وجلسنا صامتين، علت الدهشة وجه: ثم صرخ غاضبا...

«ما معنى هذا؟» لم يرد عليه أحد منا، وظللنا ننظر اليه في صمت. لم يقصر في شتمنا، وقال اثنا «هه»، لا تجدي فينا تربية ولا تعليم، ثم خرج. ولما علم ناظر المدرسة بما حدث، وكان اسكتلنديا فاضلا يدعى «مستر لانج»، وكان محبا للسودان، علينا بمطابعت أهله، كلنا مشقة الكولونيل، فاعدوه إلى بلاده في غضون اسبوع.

كان ذلك أول عمل من أعمال المقاومة السلمية، نقوم به، ونحن بعد أبقاع لم تبلغ العشرين. ولم يكن ذلك بوحي من فلسفة المهاتما غاندي، فذلك في طبعنا ومزاج شعبنا. إن نقولم الغطرسة والتسلط بالاحتقار والصمت. ثم إذا: «ن» الكيل وعيل الصبر، نهب فجأة، كما يفيض نهر النيل. وسب الاعاصير في صحراء العثمور. فعلنا ذلك مع الأتراك ومع الانجليز ومع الحكام الوطنيين «أولاد البلد».

خليل هذا ربيع عزة فاعللا... هذه «دلهي»، إذا. عاصمة «عموم الهند»، «إنسان عين» الإمبراطورية البريطانية أيام عزاها. مثل الخرطوم كما بناهما المستعمرون، ولكن شتان بين هذه وتلك.

هذا، وصاحب «مسي»، مثل صاحب الشهوروري «جاء بقتلي الأتار»، هو على أثري وصاحبه «درفا»، على أثره، وكلنا يبعذ السير نحو ذلك الأفق البعيد القريب ■

أكر وراء



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٤

طوال اقامتي في دلهي، او دلهي الجديدة، بالاحرى، لازمني احساس كائن في دار من هذه الدور، التي بناها في ضاحية من ضواحي الخرطوم، ثري من اترياء العهود الاخيرة، يكون اترى من تجارة العملة او تهريب البضائع المحظورة، او بطريقة من الطرق الملتوية التي تشجع عليها قوانين مرتجلة لا تملك الدولة القدرة الكافية على تطبيقها. غير بعيد بيوت الطين وزحام الفقراء، وصاحبنا هذا اقام داره على مساحه اقدنة، وجعل فيها حوضا للسباحة وملعبا للـ «تينس» وملعبا للـ «سكواش» وما شئت من غرائب. حوطها بسور من الحجر، فوقه اسلاك شائكة تحمي الدار من غائلة اللصوص والمتطفلين. طوابق فوق طوابق، وغرف وراء غرف مثل الهوتيل، ولا هي بالقصر ولا بالهوتيل. تغلب فيها نوافذ الزجاج في عز الحر والشمس الساطعة. والاثاث هذا من امريكا وهذا من ايطاليا وهذا من هنج كنج. شيء مفتعل لا يمت بصلة الى البيئة التي وجد فيها. مثل المستعمرات القديمة التي اقامها اليونان والرومان في الصحراء، ما لبثت ان طمرت بالرمال وعفى عليها الزمن.

كذلك هذه المدينة، انشأها الانجليز حاضرة للمكهم في الهند، وسط عالم غريب كانه بحر متلاطم الامواج. ارادوها واحة من الحضارة، والنظام والعقل، وسط عالم «همجي» في زعمهم، وتيارات من الفوضى. وكما ان سير كرسنفرز، خطط مدينة لندن واعطاها سمنها وطابعها، فقد استقدموا الى الهند مهندسا معماريا شهيرا هو «سير اذور ليونتر» فرسم دلهي، وفي ذهنه قصر بكنجهام وشارع الـ «مال» الذي يؤدي الى ميدان الطرف الاغر وحدائق سان جيمس ومقر رئاسة الوزارة في داوننج ستريت ومؤسسات الدولة في واين هول. واذا كان قصر بكنجهام هو «صخرة» لندن ومركز الجذب فيها، فمركز الجذب في دلهي، هو مقر الـ «قايس روني» نائب الملك او الملكة، وظل العرش البريطاني على ارض الهند. الميدان هنا اوسع من الميدان امام قصر بكنجهام، ودور الحكم المبنية من حجر احمر اكثر فخامة وابهة من مثيلاتها في لندن. هنا بنوا ببذخ، لانهم ظنوا انهم سوف يبقون الى الابد، اما عندنا فلم تكن عندهم نية البقاء، فبنوا بلا اكتراث وعلى عجل.

اقاموا نمطا هزيلا مصغرا في الخرطوم المسكينة. اتخذوا القصر الذي قتل فيه غوردون، مقرا للحاكم العام. وجعلوا امامه باحة على نمط الباحة امام قصر بكنجهام، ومذوا شارعا على غرار شارع الـ «مال» في لندن، يؤدي الى محطة السكك الحديدية. وبما لبثهم تركوا لنا محطة معتبرة، مثل محطة واترلو او فكتوريا، او على الاقل مثل محطات الاقاليم في «نيوكاسل» او «برايتن». اذا لحمدنا لهم ذلك ابد الدهر، لان الحكام الوطنيين «اولاد البلد» لم يجدوا

الوقت حتى الان ليبنوا محطة تليق بدولة مساحتها مليون ميل مربع. حتى الحكام العسكريون، وهؤلاء كما قرانا في كتب التاريخ، يحبون الابهة والفخفة لم يفعلوا ذلك عندنا. لم يجد علينا الزمان الى الان، بحاكم مثل «نابليون» او حتى «فرانكو» يترك وراءه صرحا فخما تسمو اليه انظار الاجيال القادمة بخليط من الاعتزاز والمهابة ونقول «صحيح انه اغلق البرلمان وحظر الاحزاب وعطل الصحف. ولكن انظروا ماذا بنى. ياله من حاكم عظيم حقاً».

لم يكن عسيرا على عوادي الزمن ان تطمس معالم الخلم المتواضع الذي حققه الحكم البريطاني في بلاد السودان، الاشجار الضخمة المتشابكة الوارفة الظل على امتداد شارع النيل، شارع كنتشر سابقا، وكانوا قد جاءوا بها من الهند، شاخت وبعضها سقط وبعضها قطع. قصر الحاكم العام، مقر رئاسة الجمهورية الان قالوا ان سقفه تداعى وحيطانه تشققت. الميدان الذي وزنته اياه الانجليز، وكنا نراه جميلا اول عهدنا بالخرطوم، ذبلت ازهاره وصبحت اشجاره، وهاجرت اطياره، وبس غشبه.

الحلم الانجليزي المتواضع لم تبق منه الا اصداء بعيدة، ابعد مما وجد امرؤ القيس من اطلال سلمى بذى خال.

ومع ذلك اجد في دلهي، طعم الخرطوم. الحلم الاميريالي هنا اعظم واوسع مدى. لكنها هي الاخرى سوف تستسلم مثل الخرطوم، فهذه احلام مهما كانت جميلة فهي احلام الغرباء، والسودان مثل الهند، يحلم بمنطق آخر.

غير بعيد من وسط المدينة، وراء الشوارع الواسعة والباحات الفسيحة، وراء الاشجار الظليلة والـ «افق» المهدبة، وراء القلل الراقية والهوتيلات الـ «لوسر»، تزخر امواج من البشر هم اهل الهند كما كانوا منذ قرون، تتدافع نحو مركز المدينة لتغرق الحلم الاميريالي الى الابد. وها هي ذي الطلائع ابقار ميملة ترعى في الاحياء الراقية من نافذة غرفتك ترى الحواة ينغصون مزاميرهم للافاعي، وترى مشعوذين يوهمونك بانهم يجعلون الناس يسبحون في الهواء. نسمع صراخ الباعة وزحمة البشر، وخليطاً من الانغام الهندية وموسيقى القرب الاسكتلندية ومارشات عسكرية من ابواق نحاسية، والخلق حول المسجد الكبير، كانه في يوم الحشر.

ماذا يفعل «النظام» الانجليزي في هذه الفوضى الازلية؟ لا بد انهم كرهوا هذا التزاخم وهذه الضوضاء. هؤلاء الناس المنطوون على انفسهم المؤثرون العزلة والابتعاد عن الآخرين، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، ما الذي اتى بهم الى هذا العالم المسحور وجذبهم الى هذا الافق البعيد المحير؟ ■

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٥

أن ترى (جواهر لال نهرو) وتستمتع الى حديثه عن قرب.

كان ذلك عام ستين، في ذلك الاجتماع المشهود للجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك.

كان يشرح للأمريكان في مؤتمر صحفي، ان عدم الانحياز ليس (معسكرا) ولكنه تجمع لدول يوحد بينها التقارب في وجهات النظر والمصائر المتماثلة والخوف من ان تكون ذبلا لهذه القوة العظمى او تلك

كانت الولايات المتحدة قد استقرت الى ان عدم الانحياز (معسكر) من دول تضمر العداء لها، وتدور في فلك الاتحاد السوفييتي، فقال لهم (نهرو) ان تجمع عدم الانحياز ليس موجها ضدهم او ضد اي احد.

وقد شهد الأمريكان في تلك الدورة اكثر من دليل على صدق قول (نهرو) فقد تصدى عدد من زعماء عدم الانحياز لـ، نيكيتا خروتشوف) زعيم الاتحاد السوفييتي تلك الايام، وكان احمد سيكتوري رئيس غينيا الذي كانت وسائل الاعلام الامريكية تصوره بأنه شيوعي، يخرج من الاجتماعات ويؤدي فريضة الصلاة ثم يعود. كذلك شرح لهم (نهرو) لماذا يتحتم عليهم ان يعترفوا بالصين الشيوعية ولا يحولوا دون قبولها عضوا في الامم المتحدة.

وقد ابهر بهم في افاق التاريخ والحضارة والـ، جيوبوليتيكا) ليووضح وجهة نظره.

كان صوته هادئا سهل الوقع على الاذن ووجهه طلق مبتسم، وسنفته جميعاً بزيه الهندي وغطاء رأسه الابيض، والوردة الحمراء في عروة سترته، التي تميز بها، كل ذلك كان يشع جاذبية لا مراء فيها.

اصغوا كالمسحورين، الى حديث رصين متنوع، زاخر بالحكمة، ومفعم بمرح داخلي، كما تجد عند كبار الفلاسفة والمفكرين، حديثاً بسيط بلغة انجليزية عالية، ولكنها بعيدة عن التفتت، وكان في الوقت نفسه شامخاً جثم الكبرياء.

ولم تكن تلك هي المرة الاولى في تاريخ الانسانية، يقف فيها مثل ذلك الموقف، رجل هو في حقيقته اكبر بمراحل من اناس يرجحونه في موازين القوة واي زعيم امريكي في تلك الحقبة وما اعقبها من جقب يمكن ان ترجح به كفة الميزان على (نهرو)؟

عجب البريطانيون حين انضوت الهند المستقلة تحت لواء (رابطة شعوب الكومنولث، وعجيبوا اكثر حين قال (نهرو) الذي قضى زهرة شبابه في سجونهم، في خطبة له في لندن انه لا يحس بأي مرارة تجاه بريطانيا، وهتف تشيترشيل الاستعماري اللدود وعيناه تكاد ان تدمعان من التأثر.

(هل هذا ممكن: نهرو لا يكرهني!)

لقد حاول تشيترشيل جهده ليحول دون استيلاء الهند، واتهم رئيس الوزراء العمالي (كليمنت اتلي) الذي استقلت الهند في عهده، بأنه يتخلى عن ائمن ما تملكه بريطانيا.

باله من فارق بين الرجلين: الرجل العظيم، والرجل الذي تمنحه الظروف مخائل العظمة.

واذا كان غاندي هو روح الهند، فان (نهرو) هو مؤسسها ووضع دعائياتها الاولى.

كان محظوظا ان الاقدار قد جمعت بينه وبين ذلك الانسان في ذلك الوقت بالذات، كانهما كانا على ما، وذلك لا يحدث الا نادراً، ان يوافق رجل الروح، رجل الفكر والعمل.

نشأ في حبوثة شان نبلاء الهند الـ (براهمين) ودرج مع السادة المستعمرين في (ايتون) وفي (اكسفورد) وقد استهوته حياتهم واستجاب لآغراءات حضارتهم.

وكان في سجيته أميل للوردات الانجليز منه الى فقراء الهند، ولو ترك نفسه على سجيته لعله كان يعضي مثل مئات الهنود من طبقته، ويصبح آخراً، ان لم يكن انساناً تافهاً، فانساناً لا يؤبه له.

ثم تلاقيا هو وغاندي، كانما على ميعاد، تعهده وحرك فيه طاقات التفرد الكامنة، وبث فيه من روحه، فبدأ رحلة طويلة مضيئة في استبطان مجاهل وطنه، الذي ينتمي اليه ولا يعرفه، واستبطان مجاهل نفسه، عاش على الكفاف، ولبت في السجن سنين، ومشى حافياً، وانخرط في زحام الدماء وغمار الناس، فتح قلبه وعقله لتلك الاصوات البعيدة الخافتة، التي كادت تطمسها حياته في (ايتون) و (اكسفورد).

كل ذلك تجده في كتابه (اكتشاف الهند)، ولا غنى للمستعمرون ان زمانهم في الهند قد انقضى، كان (نهرو) مستعداً، كذلك طوال التاريخ، تجيء لحظة يحس فيها الدخلاء، مهما كانت نواياهم حسنة، ومهما كانت احلامهم كبيرة، ان زمانهم قد انقضى ولا بد من الرحيل، ولم يكن في الهند كلها، رجل واحد يمكن ان ينافس (نهرو) على الزعامة.

كنا نتابع كل ذلك، ونتأثر به ونحن احداث في مدرسة (وادي سيدنا) الثانوية على بعد اكثر من الف ميل، وشأننا في ذلك كما قال البحري:

ذاك مني وليست الذارداري

باعتقار منها ولا الجنس جنسي ومن اجل ذلك ايضا، لم تكن الهند غريبة علي، ولذلك وجدت في (دلهي) ما يذكرني بالخرطوم.

هؤلاء القوم الفرنجة الجرمان الانكلو سكسون، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، اني حلم غريب طاف بهم فساقتهم الى هذا الأفق المسحور؟

(للحديث بقية)

أحمر وراحه



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٦

دخل الإنجليز بلاد السودان منذردين، يقدّمون رجلاً ويؤخرون، فقد كان المد الاستعماري قد انحسر. والقرن التاسع عشر يوشك أن ينطوي وكان رئيس وزرائهم، مستر فلادستون، اسكتلندياً تقياً له ضمير يحاسبه كل ليلة حين يأتى إلى فراشه لم يكن استعمارياً على نهج المستعمرين قال لهم إن الثورة المهدية حركة وطنية مشروعة لشعب يطلب الحرية ويريد أن يزيح عن كاهله نير حكم اجنبي غشوم وله قولة تبدو غريبة بمقاييس ذلك الزمان، بل حتى بمقاييس زماننا هذا قال: هذه الجزر، هذه الأرض التي نقف عليها، ليست لنا، ولا هي لأوروبا، ولكنها ملك للإنسانية بأسرها.

لذلك ظل يقاوم إرسال جيش لفتح السودان، وكان بين كل حين وآخر، يبعث حملة صغيرة استجابة لضغط الرأي العام. لانقاذ ذلك الرجل الغريب، جنرال غوردون. حيث الاستعمار مثل مسرحية من مسرحيات شيكسبير، حيث الخير والشر يختلطان بصورة مميزة، تزخر بشخصيات بين الماساة والكوميديا والعبث، امتزجت أهواؤها وطموحاتها وغرايات سلوكها بالمثلث الاستعماري. وكان من أعرب هذه الشخصيات، جنرال غوردون، أو غوردون الصيني كما كانوا يسمونه.

ظل في الخرطوم في قصره المتواضع على ضفة النيل الأزرق، والخطوب تحيط به من كل جانب، مصراً على البقاء، يشرب الوسكي ويقرأ الإنجيل، ويكتب مذكراته، ويبعث رسائل مطولة إلى أهله، لا يعلم أن كانت سوف تصلهم، لبث ينتظر، كأنه مسلوب الإرادة، ينتظر مصيره المحتوم، تقول كتب التاريخ إن الامام المهدي أراد أن يستبقه حياً، ليعفاه به الزعيم المصري أحمد عرابي، لكن كان واضحاً، أن غوردون، وهو يقف على عتبة القصر، كأنه لا يسمع ولا يرى، كان يطلب الموت ولا يد أن جند الامام رأوا ذلك في عينيه، فلم يخبيوا ظنه.

الشعب البريطاني كان يبحث عن أبطال ويبحث عن شهداء فوجد في غوردون ضالته، حتى الملكة فكتوريا اختارت لمقتل غوردون

هاج الرأي العام وماج، وكان فلادستون الحكيم يظن غير ذلك، ولكنه لم يستطع مقاومة التيار، فأرسل جيشاً بقيادة استعماري لدود، هو كتنسر، لاختضاع السودان، والقضاء على الثورة المهدية، وأخذ التار لمقتل غوردون، وأفهاد أولئك، الهيج المتوحشين، أنهم لا يستطيعون أن يعبتوا بهيبة التاج البريطاني، ويظنوا أنهم بمنجى من العقاب، هكذا أراد الرأي العام في بريطانيا

ولم يكن الأمر سهلاً، فقد أظهر أولئك، الهيج، في معركة كرري، أعلى أم دُرْمان، الواسا من البطولة الحقيقية والبسالة، لم تدر بخلد الجيش الغازي الذي جاء من وراء البحر، دون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة، ألا إن الأمر استتب لهم، وأصبح كتنسر يعرف به، لورد كتنسر أف أم درمان، كما تقول، لورنس أف أرابيا، وكلايف أف انديا، وأصبحنا نتعلم في كتب المطالعة العربية التي ألفها، مستر سكوت، الإنجليزي أن كتنسر، ففتح السودان ووضع فيه أساس العمران،

حكموا بلاد السودان المترامية الأطراف، بكثير من الحكمة وكثير من العدل، والحق يقال وهذه، اشكالية، كما يحلو لأخواننا أن يقولوا، الاستعمار في أساسه، شر لا مراء فيه، ولكن هذا المستعمر يحكم بالعدل والقسطاس في إطار هذا الشر، فكيف يكون هذا؟ وتسال العالم الخير بتقلبات البلاد والعباد، ودواعي الخير والشر في أحوال الناس، أليهما أفضل، المستعمر الغاصب العادل، أم الحاكم الوطني، ابن البلد وهو ظلود غشوم؟

ويقول العالم الخير إن الإجابة واضحة، وقد صدق ولكن الذين يذخرون عن الإنجليز من الشعب السوداني

الكريم الصبور، كل ما نزلت بهم الخطوب، واحتوشتم في النوب، خاصة في العهود الأخيرة، يقولون في حسرة: زمن الإنجليز يا حليله، زمن الإنجليز الله بطراد بالخير وحسبك هذا من ياس

وخم كان عددهم، هؤلاء الإنجليز، تقول مائة ألف، ثم عشرة آلاف، تقول ألفاً، كلا كانوا أقل من خمسمائة من الأرجح حسبما تروي كتب التاريخ، تبصر يا رعاك الله هذا السودان، بطوله وعرضه وسمائه وأرضه، وخبره وشره وجهه وأنسه، حكمه أقل من خمسمائة من هؤلاء القبيل الحمر، الذين جاءوا من وراء البحر، صحيح، كانت تدعمهم جيوش غير مربية، وضعوها في ضواحي العاصمة وفي الثغور البعيدة، وتستندهم، هيبة، الإمبراطورية البريطانية، ومع ذلك

ثم جاءت العهود، الوطنية، تنزى، أحياناً برلمانات وأحزاب، وأحياناً حكم عسكري صرف، وأحياناً حكم عسكري دكتاتوري، بلبس قناع الديموقراطية والاستراتيجية، والعدالة الناجزة والزفاد المرتقب، ونزير بعضه كليهم منه لا أرضاً قطعوا ولا ظهراً أبقوا

واليوم يظننا عند جديد بظله، بعد انتفاضة رجب المباركة، وثورة مايو الخالدة، وثورة أكتوبر المظفرة والنيل الحكيم الصور ينظر ويتعجب، أخواننا هؤلاء قاموا بعد أن فكروا وقدروا، نعمل لكم نظاماً فدرالياً، يعني، يا رعاك الله، الدولة الواحدة تتجزأ إلى دول، والحكومة الواحدة تتطير حكومات، وبدلاً من برلمان ووزارة في الخرطوم، تكون عندنا برلمانات ووزارات في دنقلا وكردفان وأعالى النيل وبحر الغزال والجزيرة وكسلا والخرطوم وقروي ودقلا، انظر كم رئيساً ووزيراً سيد، ينبخون بكل كلمهم على كاهل الشعب المسكين، فوق ما كان محتمل يا سبحان الله، أما قلتم أن الشعب ليس مهيأاً للديموقراطية البرلمانية؟ إذا كيف يكون مهيأاً للديموقراطية الفدرالية، وهي أكثر تعقيداً وأعظم خطراً؟ هذا أيضاً يصلح موضوعاً مسرحية يكتبها شيكسبير العبقري، لو كان حياً لقد كتب من قبل مسرحية عن ملك دانت له الملكة، وكان رزقه يأنيه رغداً من حيث لا يحسب وفي لحظة من لحظات الاستبصار والنفاة الزائدة بالنفس، قسم الملكة بين بناته فلما منه أنه يقضي الصيف مع هذه والشتاء مع هذه والربيع مع تلك، ويظل هو كما كان، مثلاً مهيأاً فوق الجميع ولكن الأمور سارت على عكس ما كان، وانتهى به الأمر طريداً شريداً، في العواصف والتلج والزهمير، وحيداً إلا من المهرج الذي كان يضحكه أيام العز

قال المهرج للملك، يا أحق.

فقال الملك عاضياً

يا ولد، تقول لي أحق وأنا الملك.

فقال المهرج

لأنك اضعت الألقاب التي ولدت بها جميعاً ولم يبق لك إلا هذا اللقب.

يقول نقاد شيكسبير إن عقدة هذه المسرحية، هي، الحق، وإذا شئت قلت، الجهالة.

أد

هذا ونحن في، دلهي، صيف ثمانين وتسعمائة والف والليل يجمع أطرافه ويتكثف، والغناء الحزين يزيد القلب كدداً، وتلك الذكرى التي تلاحقني من وادي النيل تحل عطران ينضب ما دمت حياً، صاحبي، منسى، على أنثري مثل صاحب الشهيروري، وصاحبه، زرقاء، على أنثري، فدنوناً من الطلول، والطلول ليست في بلاد الهند، ولكنها في بلاد الشام عربى يغلبت

الملك وراثته



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٧

تمثال «لورد كلايف» صاحب الهند. لم يزل قائما في مكانه في «دلهي» تهب عليه الرياح من الجنوب والشمال. وتسفَعه أمطار الـ «مونسون» وتجلس الطير على رأسه. وهو يتحمل هذه المهانة في صبر. زاماً شفثيه كما يفعل الانجليز مثله. ناظراً الى الأفق نظرة تجمع بين الاحتقار والرضى عن النفس. انه مصير مهين حقاً لرجل كانت تنحني له جباه «راجات» الهند. وتوجف القلوب من خشيتيه. وتتعلق مصائر الملايين بكلمة منه. ولعل هذا ما اراده «نهر» ان يجعل الهند تشار لنفسها من الغزاة الفاتحين على طريقته. كذلك ظلت تماثيل كل الرجال الذين مكثوا لسلطان بريطانيا في هذه البلاد. لم يزيحوها عن اماكنها.

جامعوا الى هذا الأفق البعيد، متشبثين بأذيال «شركة الهند الشرقية» يحدوهم الطمع واحلام المجد والفضول وحب المغامرة. وكان البرتغاليون والاسبان قد سبقوهم الى تلك الاصقاع من آسيا. ثم تجاوزهم الفرنسيون فانصبوا على القارة في هجمة شبيهة بهجمات القبائل البربرية التي انقضت مثل الوباء على العالم القديم. فزلزلت اركانه وقوضت بنيانه. وقلبت اعلاه اسفله.

دخلوا بخليط من التدبير والحذر. والاقدام والاحجام. وقليل قليل. وجدوا انفسهم سادة على شبه قارة. جزيرتهم بالنسبة لها. مثل الشامة البيضاء في جلد الثور الاسود. وجدوا عالماً يموج بالوان من البشر. ويرطن بلغات عجب. منهم من يعبد الشجر. ومنهم من يعبد الحجر. ومنهم من يعبد البقر. ومنهم من يعبد الاله الواحد الاحد. ماذا يصنع النظام البريطاني في هذه الفوضى الكونية؟ هالهم الامر. ولكن كعبدتهم حين يقعون في ورطة. فقد ربطوا جاشهم. واستجمعوا قواهم. واذعنوا للنداء. نداء المجد والخلود. انه وهم فتاك اودى باقيال قلوبهم وبعدهم عبر التاريخ. لقد جروراه «حنابعل» عبر جبال الالب. وساق الاسكندر المقدوني الى بلاد ما بين النهرين. واغوى قيصر الرومان فاذهبه الى مصر. واخرج نابليون من مامته وقصم ظهره في فيافي روسيا. وحدا هتلر الى فرنسا. وقاد اللنبي الى القدس. وساق كتشنر الى ام درمان. الحلم نفسه والخيلاء نفسها. مهما بدا لهم ذلك مختلفا. حلم تافه بميزان العدل الكوني. ليس اجل خطراً من اغفاء العصفور على غصن الشجرة. جامعوا باللغة الغريبة ونظامهم الطبقي المعقد. والقانون والوسكي والانجيل. اقتطعوا البلاد اقطاعيات. وحكموها بمزيج من القسوة والرحمة والشجاعة والجبن. والاهتمام والنفور. وكانت البلاد تفعل فيهم فعلها وتؤثر فيهم من حيث لا يعلمون يقضون الشتاء في «دلهي» والصيف في «سملا».

ويتبعون «كبيرهم» الـ «فايس» روي. ظل العرش البريطاني على ارض الهند. يرحلون حيث يرحل. وينزلون حيث ينزل. مثل قبيلة من البدو. يقيسون اهميتهم بمدى قربهم او بعدهم عنه. وكان «كلايف» هو حامي بيضتهم وفارس عذرتهم. شان «لوجارد» نيجريا. و«رودس» في روديسيا. و«كرومر» في مصر. و«كتشنر» في السودان.

اعطوا الهند واخذوا منها. كما فعلوا حينما حلوا. وقد اخذوا اكثر مما اعطوا. ولم يكونوا يتصورون انها سوف تغيرهم وتفسد عليهم حياتهم. ذلك ادركوه بعد ان رحلوا عنها.

فرضوا شرائعهم وقوانينهم. واقاموا «دلهي» الجديدة. على هواهم رمزا لهذا النظام الامبريالي الجديد. الـ «باكس بريتانيكا». وقد خيل لهم. كما خيل للذين من قبلهم. انهم يستطيعون ان يخلدوا تلك اللحظة العابرة الى الابد. فملأوا ارض الهند بتمثال رجالهم الذين مكثوا لهم فيها. تماثيل من الصخر والرخام والبرونز. هذا يمتطي حصانا. وهذا يمتشق حساما. وهذا ينظر بصلف. وهذا ينظر بحكمة. ثم حان وقت الرحيل. كما يحدث حتما للغزاة الفاتحين عبر التاريخ. ودقت ساعة منتصف الليل. واعلن «نهر» بصوت متهدج ان الهند قد عادت الى نفسها.

كان يتوقع منهم. بل كان من حقهم. ان يزيلوا تلك الانصاب الاستعمارية من اماكنها. ولكن «نهر» الخبير بتعرجات دروب التاريخ. المدرك لسخرى الاقدار التي لا تني تضحك من ثقافة مسمى الانسان قرر ان يدع ذكريات ذلك العهد الغريب على حالها. وظلت واقفة تعتورها الرياح. وتموج حولها وتكاد تغرقها جماهير الهنود في تدافعها الازلي. كان يعي ان الحقبة الاستعمارية ايضا. بخيرها وشرها. اصبحت ملكا للهند. تتصرف فيها كيف تشاء.

وهكذا بقي «كلايف» مثالا في «دلهي». مثل الاسير. بعد ان كانت تعنوا له الجباه. لقد اصبحت «رهينة» الحلم المجنون الذي طاف ببني قومه فاخرجهم من ديارهم. وجاء بهم الى ديار لا يفهمونها ولا يعرفون عنها الا القليل. سوف تمر به الحقبة. وهو في اس «الابدي» لا يستطيع منه فككا. تتماوج حوله جموع دهماء الهند. الذين اراد ان يفرض عليهم نظاما غريبا بلا جدوى ولو استطاع لراهم احرارا طلقاء في عوزهم وفاقتهم وفوضاهم.

انها «نكتة» من اعجب النكات في تاريخ الإنسانية. ابتدئها خيال زعيم عميق التجربة. مرهف الحس لسخرية الاقدار التي لا تني تضحك من ثقافة مسمى الانسان! ■

(للحديث بقية)

أكرم وأكرم



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٨

ظل .كلايف. صاحب الهند، مائلاً حيث وضعته الأقدار. سجين الغرور الإنساني، تمر عليه الحقب وتقف على رأسه الطير أما صاحبانا .كتشنر. و.غوردون. فقد افلتا من ذلك المصير. لأن الزعماء الذين ال إليهم أمر السودان بعد رحيل الإنجليز، لم يكن عندهم ذلك الحس التاريخي الساخر الذي كان عند .نهر.و. تمثالان فقط اقامهما الإنجليز في بلاد السودان المتسعة الاكتاف. فقد فهموا أن أولئك القوم البدو البرعاة في أرض البطانة والبحر الأحمر وكردفان، الزراع العباد حاملو كتاب الله الكريم، ليس لهم حفاوة بالأصنام. أنهم يعبدون الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس كمثلته شيء. أدركوا أن السودان بخلاف الهند. هناك أبواب متعددة. وأصنام من ذهب وقضة، تغم الخيال، كما يحجب الضباب أفق السماء.

ومع ذلك كان لا بد من خلق رمز امبريالي. من نوع ما. كانوا، رغم كل شيء قوما حكماء، يحاولون أن يسبروا غور الشعوب التي فرضوا سلطانهم عليها. وقد فهموا أنه لا بد للسلطة الجديدة أن تظهر بمظهر جديد. لذلك خططوا العاصمة على هيئة العلم البريطاني، وزرعوا على جنبات الشوارع اشجارا لم يعرفها أهل السودان من قبل. جاءوا بها من الهند. اشجار النيم واللبلاب والكافور. شيّدوا دور الحكم بالحجر والطوب. وكان أهل البلد يبتون بالطين في الغالب. وجعلوا اسقف دور سكناهم بالقزميد الأحمر مما اثار عجب الناس. وكان .الحاكم العام. يخرج من حين إلى آخر في موكب فخم، أن لم يكن في عظمة موكب الـ .فايس زوي. في .دلهي. فقد كان كافياً لإدخال الهيبة في القلوب، وإفهام أولئك الزراع الرعاة، أنهم يتفياون ظل حكم قادر. يعني ما يقول ويامر فيطاع.

كذلك عملوا تمثالين من البرونز، أحدهما لـ .غوردون. المسكين على ظهر جمل، والثاني لـ .كتشنر. على صهوة حصان.

ظل .غوردون. في طربوشه وهيئته المتحللة، يجلس على ظهر جملة، طيلة خمسين عاما ونيف. يحرق بعينين ساهمتين، كأنما إلى أعماق ذاته. وظل .كتشنر. على حصانه، ينظر بعينين غاضبتين، مشيراً بأصبعه إلى أم درمان وراء النهر وكان حتماً أن يصبحا هدفاً لسخرية الناس، فكانوا يقولون عن .غوردون. أنه خيبة الأمل راكبة جمل. وسال سائل لا يدري ما يقول. أما أن لهذا الفارس أن يترجل، وهو يعني .كتشنر. هذه

العبارة كما نعلم، قالتها اسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، حين رأت ابنها الذي صلبه الحجاج معلقاً إياها بمكة. شتان بين ذلك .العج. وبين عبد الله بن الزبير. رضوان الله عليهم جميعاً

ثم، كما يحدث للدخلاء الفاتحين طوال التاريخ، جاءت ساعة الرحيل، فجلا الإنجليز عن بلاد السودان، وانزل اسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب رحمهما الله، العلم البريطاني ورفعاً مكانه العلم الجديد، على سارية قصر الحاكم العام الذي أصبح القصر الجمهوري ثم قصر الشعب فيما بعد. وهو علم صنعوه على عجل، فكانهم أخذوا على حين غرة، فلم يأخذوا اهبتهم للاستقلال. جعلوه من ثلاثة ألوان، وقالوا اللون الأزرق رمز الماء، والأخضر رمز الخصب والزرع، والأصفر لون الصحراء، وهي كما ترى رموز سطحية مفتعلة لا تصلح رموزاً حتى لسرواية قصصية. وجعلوا شعار الدولة .وحيد القرن. وقالوا أنه رمز الصلابة، وقد كان حيواناً أخذاً في الانقراض ولعله انقرض بالفعل. وأسموا الدولة .جمهورية السودان. وهو تحصيل حاصل.

وكان حتماً أن يجلو .كتشنر. و.غوردون. ويلحقا بقومهما، فسارع الحكام الجدد إلى أنزالهما من منصتيهما، ولم يكونوا يعلمون أنهم بذلك أنما يطلقانها من سجنهما التاريخي، مضيعين فرصة نادرة للسخرية كما فعل .نهر.و.

ثم توالى العهود الوطنية، عهد يتلو عهداً، وثورة على إثر ثورة، وزعيم مخلص يعقب زعيماً مخلصاً، انطوى عهد الديمقراطية الأول بخيره وشره، وكان خيره أكثر من شره، وانطوى العهد العسكري الأول بسلام في الأغلب الأعم، وانطوى عهد الديمقراطية الثانية بأحزابه وضوضائه بلا خير ولا شر، ثم ظهر على المسرح .فتى الغيتان واخو الإخوان.، الزعيم القائد جعفر محمد النميري، فكان عهده مراحل. المرحلة الأولى غلب فيها الخير على الشر، والمرحلة الثانية استوى فيها الخير والشر، والمرحلة الأخيرة غلب فيها الشر على الخير. ثم هبت رياح ثورة .نيسان. المباركة في رجب شهر الخير. وهنا يدخل مسرح التاريخ لوهلة قصيرة، أقصر مما يطرف جفن العين، صاحبنا إبراهيم طه أيوب، هل تذكره، الذي لقبنا في .دلهي. أنا و.منسي. صيف عام ثمانين وتسعمائة والف. ■

(للحديث بقية)

أكرم وأفقه



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٤٩

لما فاض الكيل وعيل الصبر. هب شعب السودان الصبور. كما يفيض النيل. وتهب الأعاصير في صحراء العنمور. سقط النعمري بعد زهاء سبعة عشر عاماً من حكم متقلب غريب الأطوار. ليس لأنه كان رجلاً شريفاً. كان يظن أنه يحسن صنعا. كان سودانياً كسائر السودانيين الذين يعرفونه يقولون أنه رجل وديع دمت خجول. وهو امر يبدو غريباً في انسان ضرب جزيرة. أنا. بالقنابل وشق عبد الخالق محجوب والشفيع احمد الشيخ. وقتل صديقه الحميم الذي مكن له في الحكم. فاروق حمد الله. وقتل الرجل الشيخ محمود محمد طه أنه حتماً لم يرد شيئاً من هذا ان يحدث. ولكن هذه الامور تبدأ صغيرة ثم تكبر. وشيء يقود الى شيء. فإذا بالرجل الوديعة الخجول. يتحول الى قاتل سفاح

الحجاج بن يوسف كان يعلم الصبية القران. وعبد الملك بن مروان الذي امر بضرب الكعبة الشريفة بالمنجنيق. كان رجلاً فقيهاً عالماً بالشعر. هذه الامور ليست جديدة. انها موجودة في كتب التاريخ وكتب الادب. وموجودة في مسرحيات شيكسبير العبقري ويقولون انه كريم شهيم. اخو اخوان. وانا رغم انني لا اعرفه. استطيع ان اصدق هذا. فهو سوداني كسائر السودانيين. وهذه هي المناسبة. كل هؤلاء الناس كرام فضلاء. كلهم رجال شرفاء. كما قال انتوني في مسرحية يوليوس قيصر ولو ان اخانا جعفر محمد النعمري. فهو اخونا على اي حال. لم يدع لذلك الاغراء الفتاك. اغراء المجد والخلود. ولم يستيقظ مبكراً في ذلك اليوم بالذات. ولم ينتزع الحكم من اهله. او الذين خيل لهم انهم اهله. لعله كان ينتهي به الامر بان يصبح قائداً للجيش. ثم يذهب الى التقاعد بالطرق العادية ويقضي بقية ايامه هانئاً قريح العين

ينام ملء جفنيه لا تنقل ضميره كل تلك الدماء التي اراقها وفي سبيل ماذا؟ في سبيل مطلب تافه. هو بميزان العدل الكوني. اقل خطراً من اغفاءة العصفور على غصن الشجرة

رووا ان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقف فجأة في المسجد ذات يوم وقال. اللهم اشهدوا انني كنت ارعى غنماً لخالتي لي من مخزوم وكنت اجوع فلا اجد ما اطعمه. فكأن يتصدقن علي بشيء من اللبن اتقوى به. ثم جلس. ولما سألوه لم يفعل ذلك قال. انني احسست في نفسي رهوا فاردت ان اذلها.

وقد سمع يوماً يحدث نفسه. بخ بخ يا بني الخطاب. لقد اصبحت اميراً المؤمنين. النعمري الذي نصب نفسه اميراً للمؤمنين اخر العهد. وبايعه اناس سرعان ما تنكروا له فيما بعد. كان يزعم انه يقتفى اثر عمر بن الخطاب. ولكن هيئات

سقى القصر الجمهوري. قصر الحاكم العام. قصر الشعب وسقى الجيش جيش الشعب. وسقى الدولة جمهورية السودان الديمقراطية. غير العلم وغير شعار الدولة ووضع دستوراً على هواه. ووضع صورته على العملة. اصبح عبد الملك بن مروان وابا جعفر المنصور وهرون الرشيد ورويسبير ونابليون وعمارة دنقس وعبد الله جماع. البسوه الطاقية ذات القرنين واجلسوه على عرش ملوك سنار زغردت له النساء وغنى له المغنون. وقد بدا له ان الامر قد استتب له تماماً. وانه مظل في الارض. كان طيلة سبعة عشر عاماً. مثل ممثل وحيد على المسرح. في مسرحية من هذه المسرحيات الحديثة. التي يؤدي فيها الممثل ادواراً عدة. مستعيناً بالاقنعة. يخلع قناعاً ويلبس قناعاً. وكان الشعب مثل جمهور صامت. ينظر ويتعجب وكان يقول في مقابلاته الصحفية انه حول السودان الى جنة. وهو ضرب عجيب من ضروب خداع النفس. فقد كان واضحاً لكل ذي عينين. ان السودان كان مثل رجل مريض يشرف على الموت. كانت الخرطوم الجميلة مثل طفل يتيم في ثوب مهلهل. وكنت اقول لمن اقابل من وزرائه كيف يرضى صاحبكم بهذه الخرابة حاضرة الملكة.

ثم كأنما سئم اللعب. وسرت فيه رغبة دفينه لتحطيم الذات. حرب الجنوب بعد ان اخدها عاد فاشعلها من جديد. واخطت سياسات رعاء. وارثك حماقات لا مبرر لها. وكان يعين الوزراء ويفصلهم دون علمهم ودون سبب واضح. وقالوا انه تصوف وزهد. ولكن زهد لم يشمل الزهد في الحكم. واخيراً اقدم على عمل من اغرب ما يقدم عليه حاكم. فجأة اغلق عشرين سفارة من سفاراته. وهي نصف وزارة خارجيته وذلك بحجة التقشف وتخفيض النفقة. وقد اتضح ان الخسائر التي حاققت بالدولة من جراء هذا العمل العبثي. اكثر كثيراً من نفقات ترك السفارات مفتوحة. ناهيك بالضرر الجسيم الذي لحق بسمعة الدولة هب الشعب العظيم هبة رجل واحد. في انتفاضة رائعة كانت الثانية في تاريخه الحديث ضد حكم عسكري. ولعله كان اول شعب يفعل ذلك في العالم المعاصر. وهنا يدخل المسرح صاحبنا ابراهيم طه ايوب الذي كان سفيراً للسودان في. دلهي. حين زيارها. منسي. وانا. عام تمانين وتسعمائة والف حين تار الشعب ثورته تلك. كان سفيراً للسودان في. نايروبي. ولسبب ما اصبحت المصدر الوحيد لاجبار الانتفاضة في ايامها الاولى. فانحاز اليها. وكان يزود وكالات الانباء بالاجبار. ولما نجحت الثورة وسقط النعمري. وقامت حكومة انتقالية برئاسة المشير عبد الرحمن سيوار الذهب. اختاروا صاحبنا ابراهيم طه ايوب وزيراً للخارجية ■

(للحديث بقية)

أحمد ورائحه



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٠

ذلك العهد لم يدم طويلا، وليته فعل. فقد أوفى سوار الذهب مواعده، فاجرى الانتخابات في موعدها. وسلب الحكم لأخيه، أو الدبر نفسوا إليه أهله. وذهب في حال سبيله

هذا العمل السيسطة، أسر خيال ملايين الناس في السودان وخارج السودان. وأصبح ذلك الرجل الزاهد، عبد الرحمن سوار الذهب، رمزا مضمينا من رموز هذا العصر للقياد في الحزب منذ أربع سنوات، فاجتمع خلق كثير في خيمته في منى.. من بينهم أحمد مختار أميو الذي كان مديرا عاما لمنظمة اليونسكو حينئذ. أقبل الناس يحبون الرجل الذي لما قدموا له كأس الحكم قال «اصرفوها عني». كان أميو يصارع في تلك الآونة ليحتفظ بمنصبه، وأقلقه قرر بينه وبين نفسه في تلك اللحظة المشاركة. إن في الحياة أشياء أخرى غير المناصب. وإن اليونسكو بهيئتها وقيمتها، لا تساوي عند الله جناح بعوضة حججنا معه ذلك العام. الفاتح حمد والطاهر مختار وأنا. وكان معمر زوجته وابنة أخيه وصديقه الحميم من أيام الطفولة، فضيلو ضيوف. نقيب المحامين في السنغال كان رجلا عجيبا. كان يؤمن في الصلاة ويرتل القرآن بصوت جميل بقراءة ورش طاف وسعى وادى الشاعر، واكتشفنا بعد أن فرغنا من الحزب، أنه كان يعانى طوال الوقت. فقد كان مصابا بمرضطان الحسد، وهو لا يدري

ذهب أحمد مختار أميو إلى موعد في «دلهي». وعاد الفاتح حمد وزوجة أميو وابنة أخيه إلى باريس وذهب الطاهر مختار إلى الرياض وبقيت مع الحاج فضيلو ضيوف في جدة ظل أسبوعا في مستشفى الحرس الوطني، وكان الأطباء يعلمون أن حالته ميؤوس منها

دخلته الطائفة وعانقته وعانقني. ودعا لي. ودمعت عيناها تلك دموع لن أنساها ما حبيت. لم يلبث أن توفاه الله بعيد وصوله إلى دكار

قابلت صديق صياد، أحمد مختار أميو، بعد ذلك بقليل. في مكتبه في الطابق الخامس في مقر اليونسكو في باريس. كانت الأحداث تتدافع حوله وهو هادئ ساكن. وكأنه قد استقر على رأي ولا بد أنني ذكرته بصديق طفولته كنا قد أصبحنا صديقين في أيامه الأخيرة، حين غدا وأضحى أنه سوف يخسر المعركة، فانا شعوف بالمعارك الخاسرة

كان أحمد مختار أميو أيام مجده، حين يسير في أروقة اليونسكو، يحدث هزة واضحة، مثل التمساح حين يخلو في النهر ولكن ننظر إليه الآن خسر المعركة يوم السبت، وسائر يوم الأحد أو الاثنين كان في وداعه في المطار، عند الرزاق قدورة، وسنير البكري، ومحمد إبراهيم كاتلم، وسعيد مغربل، والفاتح حمد وأنا ورجل وسيدة من قدامى موظفي اليونسكو هذا كل ما في الأمر، بعد ثلاثة عشر عاما من الحل والربط، والنهبل والنهبلان

لعبت عبد الرحمن سوار الذهب منذ شهرين في صلاة الجمعة في عمان، لحني في الصلاة فلبث يتخفطني عند الباب كذلك هو. انسان مهذب أبدا، راد الناس، فتدافعوا نحوه، يسلمون عليه، وكانهم يتبركون برجل صالح من عهد عابر

أما صاحبنا إبراهيم طه أيوب، الذي لمع نجمه برهة قصيرة أيام الانتفاضة فاصبح وزيرا للخارجية، فانه لما عاد رجال الأحزاب إلى الحكم بعد الانتخابات، رجع هو أدراجه إلى وزارة الخارجية، فعيّنه سفيراً للسودان في روما. ولا بد أنه كان يحس بالرضى، فقد قام بواجبه، وكتب أسطرًا أن لم يكن صفحات من تاريخ وطنه ولعله قل أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له، هو أن يفضي بقية سنواته سفيراً إلى أن يصل سن التقاعد. ولكن هيهات

فرح الناس بالصادق المهدي، وكنت من جملة الفرحين قلنا إذا كان الأمر أمر تعليم، فهذا رجل تعلم في جامعة أكسفورد، وما ادراك ما جامعة أكسفورد. وإذا كان المطلوب هو التجربة والخبرة، فهذا رجل أنته رئاسة الوزارة متقاعدًا إليه تجرجر أذيالها وهو لما يتجاوز الثلاثين وإذا كان المطلوب على العصبية، كما وصفها ابن خلدون، فهذا رجل سليل أمة وورث حكم أضف إلى ذلك بسطة في العقل والجسم، وطلاقة في اللسان ونصاعة في البيان وهو بعد مهذب كريم، أخو أخوان، مثل سائر السودانيين

في تلك الأيام كنت أزور السودان، فصر رجل، محب، للصادق المهدي أن يجمعني به. قلت له: يا أخي ما لي ولتؤلاء الحكام، اسم في وادي وأنا في وادي، اتفقتا أن نجلس معه صلاة المغرب في داره في أم درمان، فأنه دار الإذاعة ولما وصلنا، وجدنا أنه قد اتصل بالتلفون من مقر رئاسة

الوزارة، واعتذر بأنه سوف يتأخر، لأن المجلس كان مجتمعاً ذلك المساء في أمر هام وجدت دارا بسيطة خدور كثيرين من الميسورين في أم درمان لم يكن فيها أي مظهر للذخ أو الثرف كانت دارا واسعة، عابرة ومأهولة وقد لاحظت وأنا أتوصا أن حفيظة، الماء مشحورة فقلت لزوجتي رئيس الوزراء -

حتى أنتم حفيظة ماتكم مشحورة، فاضحكها ذلك صليبا صلاة المغرب، أنا وصاحبني، وكانت تلك أول مرة أصلي فيها في دار رئيس وزراء

جاءت لنا زوجته، سارة، وهي سيدة ذكية لطيفة، بالشاشي والكحل، وجاءت ابنته وسلمت علينا، ثم لم يلبث أن لحق بنا السيد رئيس الوزراء

لقد عرفته في لندن حين كان قاتلا في جامعة أكسفورد كان تلك الأيام مثل كاسيوس، كما وصفه شيكسبير في مسرحية «يوليوس قيصر». ثم عملت معه فترة وجيزة عام ٦٦ حين كان رئيسا للوزراء ووزيرا للإعلام وهو لما يتجاوز الثلاثين، ثم ها هو الآن بعد نحو عشرين عاما هو هو، لم يتغير كثيرا، نفس أدبه الجم ودمايته المعهودة

رايت وجه صاحبي بضئ بمحبة خالصة، وأنا كلما أرى وجود المحبين أحس بالشفقة في حجتنا تلك مع أحمد مختار أميو، رأينا رجلا في منى، ينكب على يدي شيخ يقبلها ويبكي قلت للطاهر مختار -

أرجو أن يكون هذا الشيخ أهلا لمحبة هذا المريد، جلستا تشرب الشاي وتاكل الكيك.. وكان الصادق المهدي كعهده دائما، مهذبا لطيفا جم التواضع

قال لي صاحبي، الذي كان يستمع إلى كل كلمة يقولها الصادق المهدي، كأنه يشرب ماء فلسطينا في يوم فائظ -

أصبح السيد رئيس الوزراء، ضحكنا، فقد تذكرت كيف أن الناس كانوا يقولون في مجالس خلفاء بني العباس، عظماء المؤمنين.. ومن أنا حتى أصبح السيد رئيس الوزراء -

لا بد أن السيد رئيس الوزراء قد استمع إلى نصائح كثيرة من أناس كثيرين، ولا أفقه في حاجة إلى مزيد من النصيح،

ثم، كأنما عمدا، وجهت الحديث إلى الأشياء العملية الصغيرة، كما يفعل عامة الناس وقد أحسست أن السيد رئيس الوزراء، كان يؤثر أن يتحدث على مستوى أعلى، وأنا لا أنال إلى أن أخوض في عمار العثر مع الخائضين، ولكنني كنت قد قضيت أيام في السودان ورايت طواير البنزين والخيزر، ولمست انقطاع الماء والكهرباء وغابيت من صعوبة المواصلات واستحالة السفر من مكان إلى مكان

وخرجنا من عنده، وكان صاحبي بيوم في سحبات من المحبة والخالصة، وأنا أيضا كنت حسن الظن في الصادق المهدي، أو لم فيه خيرا كثيرا لكنني لم أقع أسير جاذبيته كما فعل صاحبي وقلت لنفسى -

هذا رجل اجتمع له كل مقومات الزعيم الكبير، ومع ذلك مع ذلك... مضى رجال الأحزاب يخطون خيطه عشواء، وكان انتفاضة رجب المباركة لم تحدث، وكان ما كان طوال سبعة عشر عاما لم يكن، وكان الزمن رصيد لا ينفد يبدونه كيف شاموا ثم، كما كان حتما أن يحدث، استيقظوا ذات صباح، فإذا الجيش قد ربط خواصر الجسور وأغلق أهواء الطرق، وإذا الصف معطلة، والبرلمان موصد، والأحزاب محظورة، وإذا هم داخل السجنون

وهنا تنتهي قصة صاحبنا إبراهيم طه أيوب، التي بدأت معنا في «دلهي». عام ثمانين وتسعمائة والفت، فقد أحواله إلى التقاعد، بين عشرات رأى العهد الجديد أن مصلحة الوطن تقتضي إحتضنهم إلى التقاعد

أنتي أتذكر الآن عبد الرحمن سوار الذهب، والناس مجتمعون عليه في خيمته في منى، وأتذكر أحمد مختار أميو وسن في الحرم النبوي الشريف في صلاة العصر، وأتذكر الصادق المهدي، يتحدث حديثه المهذب في داره في أم درمان بعيد صلاة المغرب، وأتذكر فضيلو ضيوف، رحمه الله، وعبيداه دهمان، وأنا أودعه إلى غير لقاء في الطائفة في جدة

أما صاحبنا الجديد في الخرطوم، فلا بد أنه هو أيضا كريم مهذب أخو أخوان، لنز كان حقا تقب ورعا كما يقال، فانهيدار البدار ■

(الحدث بقعة)

أحمر وراحة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥١

لم يكن في الدوحة، تلك الأيام، وليس فيها حتى الآن حسب علمي، سفارة استرالية. لذلك رثبت أمري على أن أحصل على الفيزا في «دلهي». وقد اتصلنا بالقنصل الاسترالي في البحرين، فوعد أن يكتب إلى سفارتهم في «دلهي» ليمتحنوني الفيزا.

ذهبت أنا و«منسي»، وهو يحمل جوازهم الأمريكي، وأنا أحمل جوازي السوداني، وهو جواز ظللت اتشبه به كل هذه السنوات لا أرضى عنه بديلاً، رغم كل ما يسببه لي من متاعب، حتى داخل السودان نفسه، حيث تدخل بصعوبة وتخرج بصعوبة، يعطونك إياه لعامين فقط، والدنيا كلها تعطي مواطنيها الجوازات لخمس أعوام، ومنهم من يعطيه لعشرة أعوام. وبطاليتك شيء اسمه تأشيرة الخروج، كانت في ألمانيا الشرقية، وحتى في ألمانيا الشرقية، انهارت الحيطان، ورفعت القيود، وأصبح الناس يدخلون ويخرجون، أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم. دخلت للقنصل قبل «منسي»، وكنت قد ملأت «الفورمات»، واستوفيت الإجراءات، قلب صفحات الجواز طويلاً، وتمعن فيه ملياً، وكأنه شيء لم ير مثله من قبل. قال لي بعد لاي -

«أنا أسف يا مستر صالح، الموافقة لم تصل من «كانبرا»، عليك أن تنتظر... ربما تصل الموافقة في غضون أسبوع... ليس عندي وقت... سوف أسافر غداً أو بعد غد... أنا أسف لذلك...»

ولكن لماذا «كانبرا»؟ أنا أعلم أن من حكم أن تمنحوا الفيزا دون الرجوع إلى «كانبرا»... توجد حالات يجب أن تطلب فيها موافقة الوزارة في «كانبرا»، وهذا إجراء طبيعي... كل الدول تفعل ذلك... على أي حال الأمر بسيط... سوف نتصل بـ «كانبرا»... يمكنك أن تحصل على الفيزا من سفارتنا في سنغافورة...

«لكنني لست مسافراً إلى سنغافورة، أنا في طريقك... لماذا لا تنزل فيها ليوم أو يومين؟» «أسمع، إذا كان دخول بلدكم بهذه الصعوبة فسوف ألغي الرحلة كلية... أنت تعلم أنني مسافر إلى استراليا، ليس للسياحة، ولكن في مهمة رسمية، اشرك على أي حال...»

رأني «منسي» أخرج غاضباً، وحاول أن يكلمني، ولكنني سارعت بالعودة إلى «هوتيل»، لم تمض ساعة، وإذا بالتلفون يدق... «مستر صالح؟» «نعم...»

«هنا السفارة لاسترالية، أنا سكرتيرة السفير، أنه يود أن يتحدث معك... ثم إذا صوت مرح يقول

«مستر صالح، أنا أسف جداً لسوء التفاهم الذي حدث لك مع القنصل، أنه لم يكن يعلم من أنت، دكتور مايكل موجود معي الآن وقد شرح لي كل شيء، يسعدني أن تزورني في مكنتي، الآن إذا كان ذلك يناسبك... سوف تجد الفيزا حاضرة... هل عندك وسيلة نقل... يمكننا أن نرسل لك سيارة...»

لم تكن عندي وسيلة نقل في الواقع، فقد كانت السيارة ومعها «درفا» وقفا على «منسي» كالمعتاد، فضلت ألا استغل كرم السفير، فأخذت سيارة أجرة، وفي الطريق تخيلت ما حدث في دقائق ألم «منسي» بجليّة الموقف من القنصل، فسارع واقتحم مكتب السفير، دون استئذان، كعادته، وفي وقت قصير جعل السفير بالغة، كأنه يعرفه من زمن. رسم

له صورة مبالغاً فيها عن «أهميته»، هو أولاً، وعن «أهميتي»، ثانياً، وعن «أهمية» المهمة التي تقوم بها معاً في استراليا ثالثاً.

استقبلوني عند الباب، وساقوني باحترام زائد إلى مكتب السفير، وجدت صاحبي «منسي»، أو «دكتور مايكل»، مسترخياً يشرب الشاي، هب السفير من مقعده وهرع يرحب بي، كان شاباً في أوائل الأربعينات من عمره، ممشوق القامة، مملوءاً حيوية، كما يتخيل الإنسان الاستراليين، سمته مزيج من جامعة «هارفرد»، وجامعة «كامبريدج».

لاحظت أن «منسي» في تلك الفترة القصيرة، قد رفع الكلفة تماماً مع السفير، والاستراليون أصلاً، مثل الأمريكيين، في طبعهم ببساطة وبعد عن التكلف، وكنا نأراد «منسي» أن يفهمني مدى الانجاز الذي حققه، فقال «هل تعلم أن «ريتشارد» حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة «ييل»؟»

قلت متغيباً

«ريتشارد؟»

«سعادة السفير».

قال السفير

«أنا أسف جداً لما حدث يا مستر صالح، أنت تعرف القنصل، يطبقون القانون بطريقة روتينية، طبعاً هم معذورون، علمت من دكتور مايكل أنك كاتب كبير وشخصية مرموقة في دولة قطر...»

كان «منسي» يعلم أنني سوف أنفي عن نفسي هذه الصفات، فلم يترك لي فرصة للرد، ولكنه سارع ففعل ضاحكاً

«مستر صالح رجل متواضع، لا عجب أن القنصل لم يهتم به كما يجب...»

سأقنا الحديث إلى الكاتب الاسترالي «باترك هويت»، والرسم الاسترالي «سدني تولا»، ومغنية الأوبرا الاسترالية «جون سذرلاند»، والاستراليون لأنهم بعيدون عن مراكز الحضارة ويعلمون أن الأوروبيين خاصة، يعتبرونهم أجلاً لا فكر لهم ولا ثقافة ولا فن، بهمهم جداً أن يقدموا أنفسهم إلى العالم على أنهم قوم متحضرون يحتلون بالفن والثقافة، لذلك فهم فخرون بالاستراليين الذين أحرزوا شهرة واسعة في العالم، ولذلك أيضاً فإن السفير قد سعد باننا لم تكن جاهلين تماماً باستراليا.

كان انساناً لطيفاً بحق، انساناً له وأنس لنا، وكان واضحاً أنه يريد أن يستبقينا أطول وقت.

أعطاني الجواز وفيه تأشيرة الدخول، مجاملة، ولا بد أنه مهد لي الطريق أيضاً، لأنني، كما ذكرت لكم حين وصلت إلى سدني سمح لي موظف الجوازات بالدخول، دون أن يعبا بتقليب صفحات الجواز.

قال السفير

«يسعدني أن تتعشياً معي هذا المساء إذا لم تكون مرتبطين...»

كنت أعلم أن «منسي» سوف يقبل دون تردد، فهذا طريق جديد انفتح له، يسير فيه كعادته دون أن يلوي على شيء؟ تجربة إنسانية يلاحظها كما يفعل الشعراء والفنانون، وأنا أيضاً لا أبالي أفعل ذلك في بعض الأحيان.

سارعت بالاعتذار للسفير، ولا بد أنني فعلت ذلك بلهجة حاسمة لأن «منسي» اكتفى بأن نظر إلي باستغراب ولم يقل شيئاً.

لكنني لم أقبل دعوة السفير، لأنني أحسست أنه يبالغ في الحفاوة بنا على افتراض «أهمية» ليست لنا في الواقع... (للحديث بقية)

أكرم ورائتكم



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٢

أُتُصِّحْتُ لي في «منسي» خلال تلك الرحلة مواهب ديبلوماسية لم أعدها فيه من قبل. ولكنها كانت مثل كل مواهبه، شيئاً فوضوياً ليس له ضابط ولا رابط، تحتاج إلى شخص، ربما مثلي، يكبح جماحها ويوجهها الوجهة الصحيحة. حينئذ تتحول إلى طاقة مبدعة بحق. وربما أنه قرر منذ البداية، هكذا ضربة لأزب، أنه طرف في المهمة التي كُلِّفْتُ بها دولة قطر، فقد أثرت أن استفيد منه على أية حال، فصرت اصطحبه معي إلى المقابلات التي ليس لها طابع رسمي. ولعله لم يكن لي في الأمر حيلة، فقد كان «دُرُقا»، وسيارته، وقفا على «منسي».

قابلت المسؤولين في الدولة بمفردي ورافقتي «منسي» في مقابلاتي لرجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون ومؤسسة الهند التي أنشأها «نهر» عقب الاستقلال مباشرة وهي مؤسسة على نمط المؤسسة التي كانت دولة قطر تفكر في إنشائها. وجدنا صحافة معادية لرئيسة الوزراء، مسز غاندي، على وجه العموم، وخاصة الصحافة الناطقة باللغة الانجليزية. وهي صحافة كما تدل أسماؤها، «ستيتسمان» (Statesman) و«تايمز أوف انديا» (Times of India) وغير ذلك، قامت على طراز الصحافة البريطانية ومتأثرة بها. وقد قابلنا رئيس تحرير هاتين الصحيفتين، ولمسنا منهما عداً شديداً لمسز غاندي يصل حد الكراهية الشخصية. ويمكن القول أن ذلك العدا كان يمتد إلى كل سياستها الخارجية، بما في ذلك تأييدها للقضايا العربية. وقد أبلى «منسي» بلاء حسناً في هذه اللقاءات وكانت نزغته «الهجومية» تجدي في تلك الحالات.

كنت وأياه مثل لاعبي كرة، يفهم أحدهما الآخر فهما تاماً. كنت أرمي الفكرة، فيتلقفها ويجري بها فإذا وجدت أنه ابتعد بها عن القصد أعدتها إلى مجراها. وكنا أحياناً نتعمد إبداء وجهات نظر تبدو مختلفة، حتى لا يظن السامع، أننا مثل بعض الإذاعات، نردد كلاماً رسمياً ممجوجاً. وكنا نعلم أن صورة العالم العربي في مخيلات الناس الذين تقابلهم صورة غائمة على أحسن الفروض، فكنا نحاول أن نترك لديهم ذكرى عنا كأناس مستنيرين متحضرين. ولأن الأشخاص الذين قابلناهم، كانوا أشخاصاً مثقفين في الغالب، فكنا نجهد أن نجعلهم يحسون أننا أناداء لهم... على الأقل. أقول على الأقل لأن «منسي» كان يؤمهم أنهم أدنى منه بكثير. وفي الواقع، فإن الأمر لم يكن صعباً، فالهند اهتمام قديم لدي وكان «منسي» كعادته يُحرز بالقليل الذي عنده، أكثر مما أحرز أنا بالكثير الذي ربما يكون عندي.

كذلك أدهشني، أنني رأيت في «منسي» خلال تلك الرحلة حماسة للإسلام لم أعرفها فيه من قبل. تسألني لماذا أسلم أصلاً؟ لا أدري على وجه التحديد، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ببساطة وكأنه ينتقل من دار إلى دار مجاورة. ولم يكن ذلك بغرض

«تجارة بصيها أو امرأة ينكحها». كان يقول أنه قرأ القرآن الكريم وهو صبي في «ملوي»، في الصعيد، مع أطفال المسلمين. وكان بالفعل يحفظ آيات منه، وذلك أمر ليس مستغرباً، فأقباط وادي النيل، وهم «ذوو قربي ورحم» اقتربوا جداً من المسلمين. وأذكر أن أبناء القبط كانوا يقرأون القرآن معنا في مدارس السور.

ويحضرون دروس الدين. وكان معنا قبطي يقرأ القرآن بصوت جميل. وفي مدينة أم درمان حتى يسمى «المسالمة»، وهؤلاء أقباط هاجروا من مصر، وبعضهم دخل الإسلام، فتجد في العائلة الواحدة مسلمين ونصارى. كذلك الحال في بلاد الشام وربما في العراق أيضاً. وفي لبنان، تكاد لا تجد فرقة من هذه الفرق المتقاتلة، إلا وفيها المسلمون والنصارى. وأنا استعمل كلمة «نصارى»، عمداً، فهذه هي الكلمة التي استعملها المسلمون والعرب طوال تاريخهم، وهي كلمة ليست فيها أية إحياءات عدوانية، بل على العكس هي كلمة خافضة بالمود والرحمة. أما كلمة «مسيحيون»، جاءتنا في العهود المتأخرة.

ونحن نعلم أن العرب النصارى انحازوا للعرب المسلمين في موقعة «اليرموك»، وفي موقعة «القادسية». وقد قال القائد المسلم حين أصيب في موقعة القادسية، للعربي النصراني: «أنت أخونا وإن لم تكن من ملتنا فأحمل اللواء عني».

هذه هي الحال منذ قديم الزمان. التسامح الديني من سمات أرضنا ومزاج شعوبنا، فقيم إذا هذه الحروب التي تُذكى نيرانها باسم الدين، وفي سبيل ماذا هذه العداوة والبغضاء والحزازات؟

الأم الخلف بينكموا إلام

وهذي الضجة الكبرى علام
وفيم يكيد بعضكم لبعض
وتبدون العداوة والخصاما؟

وكانما كُتب على الشعراء أن يسألوا هذه الاسئلة طوال التاريخ دون جدوى.

أسلم «منسي» في واشنطن على يدي أمام مسجد ما، وسرعان ما أصبح داعية للإسلام، كأنه مسلم منذ ولد. وقد أنشأ إذاعة تدعو للإسلام، وكان يحاضر هنا وهناك في أمريكا عن الإسلام. وقد زعم أن أمة من الناس اعتنقت الإسلام على يديه. وكان يسألني متحدياً:

«أنا دخلت ناس كثيرة الإسلام. أنت دخلت كم واحداً؟»

لعلني، لبنت، قلوب بعض الناس. أو أنني أزلت بعض سوء الفهم عن الإسلام، هنا وهناك. أما أنني أدخلت أحداً في الإسلام، فاللهم لا ■

الكر وراء



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٣

عاد «دُرْقا» صاحب «منسي» بالتذاكر والحجز تذكر «دُرْقا» الهندي؟ لقد كلفته السفارة القطرية بتسهيل مهمتي وتنظيم لقاءاتي. ولكن «منسي» استحوذ عليه فانصرف له تماماً. ولم يعد يفيدني في شيء. انشغل «منسي» بالاسواق ومحلات تفصيل الثياب. حيث يصنعون لك بذلة كاملة في يوم واحد. وقد وجد في «دلهي» أنواعاً فأخرة من الأقمشة زهيدة الثمن. كذلك لقي أصدقاء. عجب كيف أنه كان يجد معارف وأصدقاء أينما ذهب. أما أنا فقد كان أمامي عمل لا بد من انجازه. وقد أذعنت لذلك الوضع الذي لم يخل من طرافة. فكنت أرى «دُرْقا» طالعاً نازلاً. يجري من مكان إلى مكان وراء «دكتور أحمد». كنت أعبت به أحياناً فاستوقفه وأسأله:-

«يا درقا. أين أنت؟ ألم يكن مفروضاً أن توصلني إلى مبنى التلفزيون؟»

فرد بذلك الهدوء الهندي الذي يغيظ:-
«أنا أسف يا مستر صالح. ولكن دكتور أحمد كان عنده موعد هام».

وكان واضحاً لدي، أن «منسي» قد أوهم «درقا» بأنه هو الموفد في مهمة من حكومة قطر. وأنني مجرد مرافق له.

يقول «منسي» ضاحكاً:-
«اسمع. النهارده تقدر تأخذ «درقا» والعربية. أنا مش محتاج لهم. بس على شرط أجي معاك». لم أكن أجد بداً من أن أدعه يرافقني إلى بعض مقبلاتي الرسمية. وكان هذا يؤكد لـ «درقا» أن «دكتور أحمد» هو الموفد الحقيقي، وهو الجدير بالرعاية. وأنني مرافق له.

لكن «درقا» قد تجاوز الحد الآن. كنت قد طلبت منه أن يحجز لي على الطائرة إلى «بانجكوك» ثم «سديني». وكان «منسي» يريد أن تسافر إلى «بومبي» ثم إلى «سديني» قلت له:-

«يا أخي. يكفي أننا تعرفنا على مدينة في الهند. فلنتعرف على مدينة في بلد آخر. ثم إن «بانجكوك» في خط سيرنا و«بومبي» تبعد بنا نحو الغرب». أظهر لي أنه اقتنع بهذا الرأي. لذلك دهشت حين وجدت أن «درقا» قد عمل الحجز عن طريق «بومبي». «أما قلت لك أن تحجز لي إلى «بانجكوك»؟»
«نعم. ولكن دكتور أحمد أمرني أن أعمل الحجز إلى «بومبي»».

عاد «دكتور أحمد» إلى الهوتيل سعيداً لسبب أو لآخر. وعجيب أيضاً كيف أن «منسي» كان يجد سبباً للسعادة في كل خطوة يخطوها. هل الحياة مليئة بالمسرات إلى هذا الحد؟ أم أنه كان يملك «مصنعاً ذاتياً» لانتاج السعادة.

«اسمع. أنا سوف أسافر إلى «بانجكوك» كما قررت

منذ البداية. إذا كنت تحب تسافر معي إلى «بانجكوك» فاهلاً وسهلاً. والأفعم السلامة».

«يا أخي بلاش حماقة. بانجكوك إيه بس؟ دي بلد كلام فارغ. أنا لازم أروح «بومبي» لأنه عندي موعد هام بتاع «بزنس»».

«سبحان الله. كنت افطن أنه قام بهذه الرحلة ارتجالاً. عفو الخاطر. فمتى رتب «موعداً» هاماً. في «بومبي»؟»

«يا ابني أحياناً ما بتلعبش... وال«بزنس» عاوزة كده... هُبْ هُبْ. أنت فاكّر الفلوس بتجي ببلاش؟ ولا أنت فاكّر أن الحكاية كلها اونطة؟»

أضحكني ذلك. فقال:-

«صحيح الاونطة تنفع. بس لازم كمان شوية جهد».

قلت فليذهب إلى «بومبي» ولعل السبل تؤدي به إلى وجهة أخرى. وأخلو أنا إلى نفسي. وبعد أسبوعين من ضوضاء «منسي» والفوضى التي تلازمه. كنت قد حسنت إلى مصاحبة نفسي. الآن أمضي وحدي في طريقي. أنزل حيث أشاء. أتسكع في شوارع المدن الغربية. وأتعرف على الأشياء على مهل. وأتمعن في المشاهد. انتقي منها كيف أشاء. أضعه في خزانة الذاكرة إلى حين. معي كتيبي وأوراقي. ومعني زادي المطمور. الذي ربما قد نسيت. فأذكره فجأة حيث لا أتوقع. تذكرني به مبة ريح أو لمعة ضوء أو صوت إنسان أو الشمس تشرق أو تغيب في أفق غريب. ومعني المتنبئ العظيم رائد الأفاق. رهين مفترق الطرق:-
نحن أترى وقد سالنا بنجد

أطويل طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق

وكثير من رده تعليل
زودينا من حسن وجهك ما دام

فحسن الوجوه حال تحول
وصليتنا نصلك في هذه الدنيا

فان المقام فيها قليل.
هكذا الفضل أن تكون هذه الأبيات الجلييلة. ليس أقصير طريقنا أم طویل. وليس «نؤلينا من حسن وجهك». فانما أراد «الزاد». طيب الله ثراه. والذي يقدر يبدو طويلاً وما هو في حقيقة الأمر بالطویل. ثم قال. رحمه الله رحمة واسعة. هذا البيت الذي يقوم مقام قصائد عند غيره من الشعراء:-
لا أقمن على مكان وأطاب

ولا يُمكن المكان الرحيل
والمكان «بانجكوك». وما كانت. كما بدت لي يومذاك. «بالبند الطيب».

(للحديث بقية)

أصوات



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٤

كنت قد قرأت أن الكاتب الإنجليزي «سمرست موم» كان حين يزور «بانجكوك» يقيم بمنزل الـ «أورينتال». وإذا أنني لم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة. ولم تكن تربطني بها أية صلة فقد كنت تلك صلة من نوع ما. صلة واهية. أي نعم. فقد كنت «سمرست موم» كاتباً بالمعنى الحقيقي للكلمة. لا بضمير أن الانجليز لا يعدونه بين عظماء كتابهم. وبعض نقادهم يحتقرونه احتقاراً واضحاً. ولكنه كان من أنجح الكتاب في التاريخ. قصصه القصيرة ورواياته ومسرحياته. إن لم تحدث «ثورة» في عالم الأدب. ولم تقدم «رؤى» طريفة للحياة. كما فعل الكتاب المعاصرة أمثال «تشارلز ديكنز» و«توماس هاردي» و«جورج كرناد» و«جيمس جويس» و«جربهام جرين» إلا أنها أعمال مصقولة مكتوبة بلمه ومهارة.

كان «سمرست موم» يرد على هجوم النقاد بقوله إنه لا يكتب ليشر بآية أفكار. وأنه ليس من هؤلاء الكتاب الذين يريدون «تغيير العالم». ولكنه يكتب لمتعة الشخصية ولادخال المتعة على نفس القارئ. وربما يكون في هذا ظلم له. فقد سلط قلمه الساخر بسوسة أحياناً. على حياة «صناع الامبراطورية» في اسيا خاصة. وقدم نماذج عجيبة للفرور والطمع وحب التسلسل. وتقلب توازن القلب البشري. كانت كتبه توزع بمئات الآلاف. وترجمت إلى أكثر اللغات. وكان الانجليز من الطبقات التي اتخذها مادة لسخريته. تمتلئ بهم مسارح لندن. ينظرون إلى انفسهم في مرآة الفن. ويستعذبون هجاء الكاتب لهم. ربما لأنه كان من تلك الطبقات العليا وكان يعرف اصول مخاطبتهم.

كذلك جاءه مل وغير من السينما في بريطانيا وفي امريكا. التي حولت عدداً من قصصه القصيرة ورواياته. إلى افلام ناجحة. منها فلم «الامطار» المقتبس من قصته «العاصفة». ومثلت فيه الدور الرئيسي تلك الممثلة الشعبية الحظ «ريتا هيوارث» التي اخذت الزمان على جمالها. فحسن الوجه «حال تحول» كما قال «الاستاذ» كانت صاعقة الحسن في شبابها. وتزوجها الممثل الأمريكي الموهوب «اورسن ولز» ومن بعده على خان. ثم اهل نجمها واصبحت بمرض عضال. وماتت العام الماضي في حالة مأساوية في مصحة في نيويورك. كان دورها في فلم «الامطار» من ادوارها التي لا تنسى. دور المرأة «السلطة» التي نهبت في القسيس. وهو يسعى إلى اصلاحها. عواطف مدمرة لم يكن يعلم أنها سلكته في اعماله.

نعم. هذا كاتب مليونير يستحق أن يسمى «كاتباً». والمال في نهاية الامر. واحد من المقاييس التي يقاس بها الناس. وهو مقاييس سهل شيء واضح. يرى ويحس وله دوي. اما الذكاء. واما حسن الخلق. واما الفضل. واما العلم. فكيف تقيس هذه الامور؟ ولا عليك من قول الحسن من هاني: -

وقد زادني تيبها على الناس أنني

اراني اغناهم وإن كنت ذا فقر

بالله هل هذا كلام؟ هل الفقير يجوز له أن يتيه على الناس بفقره؟ أجل! كان «سمرست موم» كاتباً. حقيقياً. كتبه غلت له الملايين. قضى حياته الطويلة. في داره الشهيرة «فيللا مورسك» في خليج «انتيب» على الـ «كوت دازور». كيف قالوا؟ شاطئه اللآزورد. ما هو «اللازورد» يا ام عمرو؟

ثمة لا حر ولا برد. ووزقة البحر الاسطوري مثل حلم قريب المثال. الصباح يوقظ الأفكار النائمة. وسكون الليل. «يجيب» الاصوات من بعيد. كان يجلس في «بلكوته» داره. ينسج أحلامه الغالية الثمن. يحمل له النسيم عطر الياسمين. وتغني له الطيور النازحة في هجرتها الأتلية من الشمال أو الجنوب. وتهذي ثائرة نفسه امواج البحر المتوسط. حين يكون الطقس دافئاً يليق الـ «روب دي شامبر» الحريري الشهير. وحين يبرد قليلاً يتلفع ببطانية من الكاشمير. يفرغ من العمل. فيرسله إلى الناشر الذي ينتظره بفارغ صبر. ثم يتوافد عليه اصداقائه من كل حذب وصوب. ليسرؤا عنه. بعد الالام التي عاناها في الكتابة. وأي اصحاب؟ نجوم الفن ونجماته. واثرياء الكتاب واثرياء التسعير. واثرياء الرسامين. واثرياء الاثرياء. ليس هذا جميلاً؟ ما هو الخطأ في هذا؟

شيء جلو. تقولين يا ام عمرو؟ صدقت. وهل أنا غيران؟ نعم.

سوى أن الرجل قد ترك كل هذا وراءه. وذهب إلى حيث لا ينفع مل ولا شهرة. الله اعلم من ورثه فلم تكن له زوجة ولا عيال. ولم تكن له رغبة بالنساء اصلاً.

نعم. هذا كاتب. فهل تسمي نفسك كاتباً مثله يا ابا زينب؟ انها لعمله صلة واهية. بل هي اوهى من خيط المنكبوت.

في ناشر شهيم شهلول. حفظه الله ورعاه. واغدى عليه من جميل عطاياء. دخل ميدان النشر اصلاً لأنه يعشق الكتب. يبرها ويحنو عليها. ولم شملها كما يجمع اللغضاء من قارعات الطرق. يؤويها ويطلعها ويسقيها. وينفق عليها من خُز ماله. وهو انسان ابلح بهش لك ويحسن استقبالك. يفعل ذلك مع كل الكتاب والشعراء الذين ينشر لهم. والانصاف يقتضي ان اقول انه كلما لقيت

كنت لا اراه الا كما كان كثير يرى عره. يدفع الي بالالف والدين. أحياناً ليرات وأحياناً ربات وأحياناً دولارات حسب المكان الذي يوجد الزمان علياً فيه بالقضاء. والف والفان. بأي عملة كانت. ليس مبلغاً هيناً. اللهم الا بعمله لبنان والسودان. وكنت اعلم انه يقطع ذلك من قوت عياله. فتنشر الكتب عندها. مثل كتابتها. لا يدر مالا. وابن نحن من هذه الدور الكبيرة في باريس ولندن ونيويورك. حيث الناشرون اباطرة والكتب قباصرة. هذا. وهو يعاني من تزوير المزورين وشح الموزعين. يقوم المسكين بهذا العمل الجليل في خدمة الثقافة العربية. لا تدعمه دولة ولا تشد ازره حكومة. فالدول والحكومات. ايدها الله. مشغولة في ديارنا بما هو اجدى وانفع.

انذهب عن هذا الناشر البطل الذي يخدم الثقافة في اصعب الظروف تحت وابل الغنابل. وأنا ارثي لحاله واعتب نفسي قات. «يا اخي حرام عليك. تأخذ فلوس من هذا المسكين؟ من اين يجيب المال لك ولا مثالك؟ الا يكفك انه اذا علم اسمك في الافاق؟ اما يرضيك ان تكتب قترا من عمان إلى الفيوان؟ اما اصبحت بفضل هذا النشر تدعى للمنتقيات الفكرية والمنتديات الادبية؟ ألم يجعلك شيئاً مذكوراً. بعد ان كنت لا شيء تكتب عنك الاطروحات الجامعية وتمنع لك الدكتوراهات الفخرية؟ ثراب لك من كاتب البيت. لو كانت عندك ذرة من اريحية. لدفعت انت من جيبك لهذا الناشر بدل ان تساله الدفء.

هكذا. ومع ذلك. فلا تحزن يا ابا زينب. ان عاجلاً وان اجلاً سوف يجيبك المال. سوف يجذب حشرت. كاشلاء اللجام. لا تستطيع ان تتمتع به. فهذا دين الحياة كما تعلم..

«تعطي حين يكون الوعي مشقاً. وحين تعطي. تعطي بطرق محيرة.

تجعل العطاء يفشل الشهوة.

هكذا قال الشاعر الانجليزي. واحسن منه قول «الاستاذ»..

«من راما بعينها شافله الفطن فيها كما تشوق الخمول»

لا تحزن. واحمد الله على ما اعطاك وهو كثير. تفكر انك اسعد بالمالين. و«بودلير» البنفس. الذي يطلع اليوم عنه كل عام كتاب. ولم يكن يجد لمن الطعام والشراب. و«فوقول» الذي خرج من تحت عبائه كل الكتاب. ومن ايضاً «اوسكار وايلد» النعيس. الذي خادعته الحياة برهة. فظن الامر لهما ولعبا. ولما هو من علبائه. نزح إلى باريس. فلم يكن يجد كراء غرفته الفقيرة. وكان يستجدي لمن غسله. وما لك ذهاب بعيداً؟ انظر إلى الجاحظ العبقري الذي تداعت عليه كتبه. وابن المقفع الذي مات قتيلاً. حتى «الاستاذ» الذي لن يوجد الزمان بمثله. اكل طلعهم ياكل سما زعافاً. والتجاني يوسف بشير. شاعر السودان العظيم. الذي لم يسسوا إلى الآن شريعاً باسمه ولا يعرف الا القليلون ابن قبرة. وهلم جرا.

لا تبتئس يا ابا زينب. وتمتع بهذه اللحظة العابرة. واذهب إلى نزل الـ «أورينتال» حيث كان يحل «الكاتب سمرست موم». هذه الحرارة التي خايرتك سحابة صيف. وهي ليست من طبعك. لعلك تعبت من الترحل. وتريد ان تاوي إلى جيل. تريد ان تخذل إلى مكان تحبه. لا تبرحه. تسع فيه نداء الاذان في الفجر. والنيل بعيد. النيل بعيد. ولعلك ايضاً تذكرت. بل انت بقينا تذكرت ام عمرو وابن منك ام عمرو؟

(للحديث بقية)

أصوات



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٥

قال الدليل، بصوت ليس حسناً، ولغة انجليزية ركيكة، ولكنة امريكية تجرح الاذن:-
«انتم هنا في عالم الاحلام، في الشرق الساحر، في ارض «تايلاند، الخلافة، هذه البلاد يُطلق عليها «ارض الابتسام»، هل تعرفون لماذا؟»

واجابته سائحة امريكية مسنة، فاكثر السائحات الامريكيات في هذه المجموعة مُسنات:-

«لأن الناس هنا سعداء، يبتسمون دائماً،

اسرف الدليل في الضحك، واستجاب السواح الامريكان لضحكه، وقد ظل يضحك طوال الرحلة، وفي اغلب الاحيان، دون سبب، قال:-

«فري قود... هذا هو... انت لست جميلة فقط، ولكنك ذكية ايضاً، الناس هنا كلهم سعداء... هابي...»

«هابي... دائماً يبتسمون، هل انتم سعداء؟»

واجابته اصوات امريكية، نساء ورجالاً:-

«شور... بالتأكيد، نحن سعداء،

طبعاً انتم سعداء، واضح هذا على وجوهكم،

«اي لف امريكا... احب امريكا لانها ارض السعادة...»

مثل تايلاند... تايلاند وامريكا بلاد السعادة... سوف

تتعلمون بهذه الرحلة النهرية الرائعة، هل تعلمون ما

اسم هذا النهر الرائع؟ هذا نهر «شاو فرايا»، يعني

نهر الملوك...»

انا عادة انساق وراء هذه الاوهام، واستسلم لها

تماماً في حينها، ثم اصحو منها، صحبت دليلاً اول مرة

زرت فيها الاهرامات، كان يخلط التاريخ الفرعوني

بالتاريخ اليوناني بالتاريخ الاسلامي، فكان الخليفة

المامون من الملوك الفراعنة، وكان رمسيس من خلفاء

بني العباس، كان مرحاً مرحاً غير مصطنع، ويتحدث

بطريقة ساخرة توحى لك انه يعلم في قرارة نفسه ان

الكلام الذي يقوله لك ليس صحيحاً، ولعله قدر ان

السواح، وخاصة الامريكان، لا تهتمهم هذه المعلومات

على اي حال، كان دليلاً مملوئاً حيوية وجاذبية، يقدم

لك تاريخاً من صنعه هو، ليس موجوداً في كتب

التاريخ، ولم لا؟ فالتاريخ في الغالب، رجم بالغيب،

اختفى هذا النوع الآن، لسوء الحظ، اصبح الاولاد في

مصر، خريجي جامعات، ويحسبون اللغات الاجنبية،

ويعطونك كمّاً هائلاً من المعلومات، التي سرعان ما

تنساها.

لماذا اضيق اذا بهذا الدليل التايلندي؟

اعجبني نزل الـ «اورينتال»، الذي يقوم على حافة

النهر تماماً، وجدته فندقاً «كلاسيكياً» مريحاً، كل شيء

فيه مفعول بذوق، دون ترف ودون بذخ، لا ادري ماذا

حدث له الآن، ولكنه كان تلك الايام، واحداً من اجمل

الفنادق التي عرفتني، لاحظت اول دخولي، انهم اسموا

قسماً منه باسم «سمرست موم»، اعطوني غرفة

واسعة، حسنة الاثاث دون مغالاة، تطل على النهر، ولم

يكن ثمن الإقامة كبيراً، كان ارخص كثيراً من نظرائه في

اي بلد آخر، وكما افعل عادة، فقد انضممت في اليوم

الاول الى رحلة من الرحلات التي ينظمها الـ «هوتيل»،

اتعرف فيها على المعالم الرئيسية للمدينة، بهذه

الطريقة تكون صورة عامة تضيف اليها بعد ذلك اذا

سنت، بالمشي والتسكع على مهل، وفي اليوم الثاني قمت

بهذه الرحلة النهرية التي تستغرق اليوم كله.

كان الدليل التايلندي يوجه حديثه بصفة خاصة الى السواح الامريكان الذين غلبوا على هذه المجموعة لا عجب، فهم سادة الدنيا الآن، الرومان الجدد، جيوبهم عامرة بالدولارات وكمراتهم مشرعة كأنها مدافع رشاش، يصورون كل شيء، اذا راوا معبدًا أو بقرة ترعى، أو طفلاً نصف عار، أو امرأة تعمل في الحقل، أو قارباً «سامبان»، ينزلق على وجه الماء، ويصور بعضهم بعضاً، ماذا يطلبون؟ هل يريدون ان يوقفوا الفلك عن الدوران؟ ويضحكون، انهم سعداء... «هابي... هابي... يبتسمون ويضحون بالضحك.

هل يرون ما حولهم حقاً؟ لقد جاءوا يحملون في مخيلاتهم صوراً لن تتزعزع، عن عوالم ساحرة، صنعتها لهم الدعايات السياحية والروايات الرومنسية والفلام «هوليوود»، ينظرون الى حياة الناس كما هي، فلا يرون الا هذه الصور الزاهية التي استقرت في اذهانهم، الناس والحياة بالنسبة لهم، مثل تلك الالوان الغائمة في لوحات الرسام الفرنسي «مونيه»، و«تايلاند، خاصة، تستجيب لكل مطالبهم، وترضي كل تصوراتهم الموهومة، فقد فعلت «هولي» ذلك، فيها الاعاجيب.

اناس لطيفون، والحق يقال، ليس في طبيعتهم تكلف، يتعرفون على الناس بسهولة ويتحدثون بعفوية، ولكن ليس عندهم رغبة حقيقية للمعرفة، وسيان عندهم ان كنت من مصر أو الصومال أو السنغال، وربما يكونون معذورين، فبلادهم واسعة وغنية، وقد عملوا فيها بجهد، واخرجوا ما فيها من كنوز، واصبحت التكنولوجيا في ايديهم مثل السحر عند قبائل بدائية، كل شيء ممكن، وكل حلم قريب المثال، وانت تستلذذهم وتضيق بهم في الوقت نفسه، كما يحدث لك مع الاطفال.

مرت سفينتنا على القصر الملكي بقبابه المذهبة وقد رست اسفله، «الحراقات الملكية، المستطيلة، وقال الدليل:

«في عام ١٩٨٧ سوف يبلغ ملكنا المحبوب، صاحب

الجلالة «بوميبول، الستين من العمر، سوف تقام في

بلادنا احتفالات خرافية ابتهاجاً بهذه المناسبة

السعيدة، هذه القوارب الاسطورية التي ترونها سوف

تنطلق فوق النهر مثل اجنحة الملائكة، لا بد ان تعودوا

الى «تايلاند، حينئذ لتشهدوا هذا الحدث التاريخي.

زرت القصر بعد هذه الرحلة، فوجدت معماراً

«فكتورياً»، كما في قصر «بكنجهام» في لندن، الا ان

السقف علته قباب مذهبة، ذات قمم حادة تصعد في

السماء كما في المعابد البوذية، ذلك ان «تايلاند، حكمها

في القرن التاسع عشر ملك على شاكلة بطرس الاكبر في

روسيا، ومحمد علي باشا في مصر، استهوته الحضارة

الاوربية واراد ان يجعل «تايلاند، قطعة من اوروبا

فعمل هذا الخليط العجيب، وبني هذا القصر الذي لا

هو بالشرقي ولا بالغربي.



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٦

السفينة النهرية ذات الطابقين، تسير على مهل فوق نهر «شاؤفرايا» متجهة بنا إلى «أيوتاهايا» العاصمة القديمة، على بعد سبعين كيلومترا من «بانجكوك». يا له من اسم جميل، «أيوتاهايا». لماذا هجروها وأنشأوا عاصمة أخرى بدلا منها؟

ظلت حاضرة الملك أكثر من أربعة قرون. كما أخبرنا الدليل، من عام ١٣٥٠ حتى عام ١٧٦٧. ثم حدث لها ما حدث لأرم ذات العماد وشوالين البلقاء. سوف نرى اطلال القصور وشظايا المعابد، والحصون، وتمائيل بوذا، مقطعة الرؤوس، مكسرة الأذرع والأرجل، متناثرة الأشلاء على ساحات المدينة البائدة. سوف يلتقط السواح الأمريكيان صورا كثيرة لهذا الخراب وهم يضحكون. ترقع المرأة عند قدمي الـ «بوذا» ويأخذ لها زوجها صورة. يقف الرجل على بقايا درج قصر تقوض، وتأخذ له زوجته صورة. وبيتسمون ويضحكون.

يضحكون لأوهي الأسباب، هؤلاء القوم، لانهم واثقون من انفسهم، ينتمون إلى أمة قاهرة وحضارة، غالبية. وفي أعينهم، هذا النهر المريد ذو المياه العكرة هو «نهر الملوك»، وهذه البلاد الفقيرة، هي «سيام الأسطورية»، التي لم ينشئها أهلها ولكن أنشأتها السينما في «هوليوود». وقد وفدوا إليها في طائرات الـ «بان أم»، الجمبو التي صنعتها مصانعهم يحملون الدولار «الخرافي»، الذي تقاس به العملات شرقا وغربا. فما لهم لا يضحكون؟

أما أنا فما الذي يسعدني؟ ليس معي آلة تصوير، وقومي رعاهم الله، واصطحب شاعرا لا يدعك تهنا بالحلقة التي أنت فيها، لا يني يوسوس لك بما يعكر صفوك.

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا

وغناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصبة كلهم منه

وان سر بعضهم أحيانا.

صدقت يا سيد الشعراء، وليتك لم تصدق، فهذا الخطام والركام خير شاهد على صدق قولك. وهو امر لا يبعث على الضحك، ولكنه يبعث على الأسى. فما أنا قد أسيت واستغربت كما تريد. وهبك اشعر العالمين من عرب ووطان، فما فائدة هذا الآن؟

هذا، ونحن لم نزل بعد في اول الطريق، لم نبليغ العاصمة الأارسة «أيوتاهايا»، يا له من اسم جميل له نغم سلس، بخلاف «بانجكوك» الذي كأنه هولندي. و«سيام» أجمل من «تايلاند». ما الذي حدث فغفروا اسم البلد ونقلوا العاصمة؟ وعزمت ان اقرا في تاريخ هذه البلاد، حين اعود. ومزت السنوات منذ عام ثمانين وأنا ما ازال أجهل لماذا انتقلوا من «سيام» إلى «تايلاند» ومن «أيوتاهايا» إلى «بانجكوك».

الأ أنني في تلك الرحلة، فهمت شيئا، ان لم اكن فهمت غيره لكان ذلك حسبي.

أخبرنا الدليل، وهو يضحك كعادته ان «تايلاند» تقع في منتصف المسافة بين الهند والصين، وان مساحتها تقرب من مساحة فرنسا، وانها عرفت أقدم حضارة على وجه الأرض. عجبت لذلك، فقد كنت اظن السومريين وقدماء المصريين، هم رؤاد الحضارة، وان السومريين سبقوا قدماء المصريين بقليل. لا بأس. فليكن التايلنديون اول من اقام حضارة على الأرض ولعل ضيقي بالدليل خف حينئذ، فقد اخذ يصنع التاريخ على هواه، كما فعل الدليل المصري. وربما بدا يسخر من عقول السواح الأمريكيان الذين اوسعهم ملقا اول الامر.

أما انها بين الصين والهند، فقد تاكد لي خلال اقامتي ان «تايلاند» لا تشبه الصين ولا الهند، بمعنى لم يقصده الدليل. ذلك أنني لم اجد فيهم حيوية الصينيين ولا سكينه الهنود. فيهم شيء اخر ذكرني بناس أعرفهم ظللت اجهد ذهني لأتذكر من هم طوال اقامتي في «بانجكوك».

زرت معابد كثيرة في هذه الرحلة النهرية وخلال تجوالي - في مدينة «بانجكوك» - في كل معبد، بوذا. البوذا الضخم الراقد على جنبه، و«بوذا الزبرجد» و«بوذا الذهبي». اختلطت المعابد في ذاكرتي فكانها معبد واحد لكنني اذكر بوضوح بوذا عملاقا يجلس القرفصاء في معبد ما. بوذا عظيم الثديين، عظيم الكفلين، عظيم الكرش، بين الانثى والذكر، وجهه مليح يحمل تعبيرا بين الرضى والغضب، بين الحزن والابتسام. كان الوثن مثل ناقلة غنلة يزحم جنبات المعبد، ويسد نوافذ الخيال، في غيم كثيف من دخان البخور وللند، وحوله غياد يقرعون اجراسا صغيرة لها رنين ناعم، يختلط بعضه ببعض مثل ضحكات الأطفال، وهم يزجرون بالدعاء، ويلقون للصنم بقصاصات اوراق، فيها ولا شك، رجاءاتهم وتوسلاتهم.

هنالك، ياسبحان الله، طاف بي خاطر حنيفي كريم. اتضح لي فجأة امر كان يجب علي ان افهمه من زمن. تخيلت الصنم العملاق وقد أقصي عن المعبد، وسكنت الزمرات وصممت الإجراس. اصبح المكان فضاء مفتوحا على الافق اللامتناهي، فهو جزء منه وهو امتداد له. اصبح مسجدا. زالت الحجب بين خيال العابد في مكان عبادته والافاق الممتدة داخل نفسه وخارجها. لا يوجد وثن يحصر اقطار العقل. لا ثمة الا المطلق، الاله الواحد الاحد الذي ليس كمثل شيء ولا يحده زمان ولا مكان. الله جل جلاله اله المسلمين والعالمين 5 5 5 5 5



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٧

قفأ بي يا صاحبي قليلا على مغاني «تابلاند» الساحرة، أرض «سيام»، الأسطورية، بلاد السعادة والابتسام.

فلنحتف بهذا اليوم المشرق القصير على ظهر هذه السفينة، فإنه «رهن» بأيام الشهور الأطول. لا بد أن هذه البلاد كانت في يوم من الأيام فردوساً من هذه الفرديس الضائعة. ولا بأس أن مثل هذه الأوصاف لا يبتدعها أهل البلد أنفسهم. ولكن يسبقها عليهم عادة الغرباء، وليس أكثر غرابة من الأوروبيين.

خرجوا من ديارهم الجلدية كمن يخرج من كهف، وتدفعوا مثل سحائب من الجراد على القوام بسطاء في أفاق بعيدة. أخذوا يسمون الأسماء بلا هوادة، ويعلقون الانقلاب جزأها. حدثوا أن لاسيان حين وصلوا إلى حيث تقوم مدينة «مانيللا» الآن، مانيللا عاصمة الفلبين، وكانت أرضاً عراء مستنقعا، وجدوا رجلاً يذودون عنهم حشرة قارصة ويحكون أجسادهم ويصرخون «مانيا مانيا»، إشارة إلى الحشرة. فسألوه بالآسيانية، التي لم يكونوا قد تعلموها بعد، ما اسم ذلك المكان، فقالوا «مانيا مانيا». فظن الآسيان أن المكان يسمى «مانيللا». والعجيب أن أهل البلد قبلوا التسمية، فأصبحت عاصمتهم تحمل اسماً لا يعني شيئاً.

مثل هذا حدث في السودان وجد الإنجليز عندنا بلدة عامرة على مفترق طرق، تسمى «اتيرا»، لأنها قامت على نهر «اتيرا» الذي يسميه الناس «الأتراوي». وهو نهر كبير يرقد النيل بعد أن يفارق الخرطوم، مشهور ومذكور في آثارنا وأشعارنا. وقد قال الخزندلو في معرض الفخر:

«شيخ الأتيراوي وماشي فيه كلامي».

وقد ذكر أولو العلم أن الاسم مشتق من «اتابوراش»، أي النهر الذي يجيء من أرض الظلام. جلب الإنجليز معهم مترجمين، ظنوا أننا قوم أعاجم غُلف الألسنة، نجعل العين الفاء والطاء تاء كما في «عطيل»، فقالوا لا بد أنها «عطيرة».

فأخذنا نقول «عطيرة عطيرة» إلى يومنا هذا، كما قال الفلبينيون من قبلنا مانيللا... مانيللا.

ماذا تسمى هذا يا رعاك الله؟ أظنه يدخل في باب الغزو الحضاري وطمس الهوية ومحو الذاتية. لكن لا بأس، لعل هذه البلاد كانت حقيقة في زمن غابر فردوساً من هذه الفرديس الضائعة. حتماً على كل أمة في ما يبدو، أن تضيق فردوساً لتبكي عليه، فكانها جبلت جبل الله الإنسان عليها.

أذاك انت يا صاحبي؟ أما تزال توسوس لي تريد أن تُفسد عليّ هذا اليوم القصير الأجل؟ صدقت، كما تصدق كل مرة، ولكن ماذا يجدي هذا الآن؟

هذه بلاد واسعة، مساحتها أكثر من نصف مليون كيلومتر مربع، فيها الجبال والشلالات والغابات والسهول الخصبة والشواطئ الرملية الممتدة. وسواء قامت فيها أول حضارة على وجه الأرض، كما زعم الدليل أم لم تقم، فثمة أدلة كثيرة تؤكد أنها انتجت حضارة لا يُستهان بها. ترى ذلك في المعابد المُنحطة، بمعمارها العجيب، وأبراجها العالية، بعضها يعلو في شكل مُكَدَّس يضيق تدريجياً مثل بعض الأشجار الاستوائية. هذا بالتأكيد معمار أكثر طرافة وجاذبية من المعمار الأوروبي القوطي كما في كاتدرائية «نوتردام» في باريس. معبد «وات أرون» - معبد الفجر - في بانجكوك بناء مذهش حقاً. ومعبد «وان فرا» ذو القبة المذهبة حيث يسكن «بودا الزمرد» والحصون والقصور التي شيدها الملوك المتعاقبون من آل «شاكري»، ومن سبقهم. كذلك تجد آثار هذه الحضارة في الفنون والصناعات القديمة وأزياء النساء.

هذا كله يحتويه ثوب بوذي واسع فضفاض، فالبودية أصلاً كذلك، وهي ديانة تسعين بالمائة من أهل «تابلاند»، وقد وصلتهم في القرن الثالث قبل الميلاد، بواسطة مبشرين أرسلهم الإمبراطور «أسوك» الهندي وليس صدفة أن «تابلاند» التي تتجاذبها المؤثرات الصينية والمؤثرات الهندية، اختارت البوذية، مؤثرة أيهاً على كنغوشية الصين وهندوكية الهند. والمسلمون باتون في المرتبة الثانية بعد البوذيين، ويغلبون في الجزء الجنوبي من القطر. كذلك توجد أقليات من المسيحيين والسيخ والهندوس.

عنصر الـ «تائي»، الغالب، جاءوا على الأرجح من الصين، وجلبوا معهم الأنشطة الصينية في الإدارة والحكم. وقد مزجوا هذا بشرائع «مانو» الهندوكية، وغُلفوه بغلاف رقيق من الأساليب الأوروبية. فحصل لهم النظام الذي هم عليه الآن. وكما يحدث دائماً، اختلطت السلالات والأعراق.

امتزج الـ «تائي»، بمئات الآلاف من الأسرى الذين جازوهم في حروبهم الطويلة مع جارتهم «بورما»، ووجد عليهم الناس من الهند وفارس والصين. وجاءتهم أعداد قليلة من العرب. وكما يحدث في كل الدنيا، تفرع الناس قبائل، فإذا كان عندنا كنانة وطيء وتميم وبنو أسد وبنو كلب وبنو مرة ومن لف لفهم، فعندهم الـ «مُنْ»، والـ «لاوا»، والـ «كارن»، والـ «تشاونام».

المرآة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٨

بل، المدن مثل البشر، لها ظاهرها وباطن، تخفي عنك وجهها وتلك بوجه. ألا أن هذه المدينة، كأنها بلا أسرار، وكأن ظاهرها هو باطنها.

السائق الذي استقبلني في المطار، إذ أن الهوتيلات في «بانجوك»، ترسل لك سيارة تستقبلك في المطار، لم يمهلني طويلاً. لم تكد السيارة تتحرك، حتى التفت إلى وعلى وجهه ابتسامة بريئة، نعم بريئة براءة حقيقية، وسألني

«ما هي رغبات سعادتك؟ ما هو الصنف الذي تفضله؟ قل لي بصراحة. كل شيء متوفر».

كانت إجراءات المطار قد تفت بسهولة، فالسباحة عندهم مصدر رئيسي من مصادر الدخل، والكتب السياحية تقول لك أن في مدينة «بانجوك»، ما يرضي كل «الذواق». حتى الفيزا، تحصل عليها دون مشقة في المطار.

لم اضيق وقتاً في سؤاله عن قصده، فقد فهمت قصده. قلت له:

«أنا متعب الآن، بعد أن استجم سوف أخبرك بـ «رغباتي». كان الفصل صيفاً، وهذا مناخ استوائي. المكان كانه... كأنه... بماذا يذكرك في هذا المكان؟ والطائرة، هذه الركوبة المجنونة، تنفلك في لمح البصر من مناخ إلى مناخ، ولا تترك فرصة لخيالك كي يلحق بك.

نشرت أشيائي في الغرفة فصارت أقل وحشة، غرفة غريبة في بلد غريب، في أفق بعيد.

نظرت من النافذة إلى النهر، الذي أصبح منذ الغد «نهر الملوك»، أنه الآن قبيل الغروب، نهر عادي، وهذا بكفيني. تستطيع أن تتخيل لوهلة أنك في القاهرة أو الخرطوم. الناس على الجسور، والسيارات تروح وتجيء، وهذا النهر كسائر الأنهار، يعطي المدينة وزنها وطابعها، ويحدد أبعادها، فكانه مغناطيس يجذب إليه الحياة على الضفتين.

لأنني نشأت على ضفة نهر، فأنني اعتاد اسرع، على المدن التي تقوم على ضفاف أنهار. أول ما قدمت مدينة الدوحة، قضيت زمناً وأنا أحس أن المدينة كأنها بلا مركز ثقل وكأنها معلقة في الهواء. ثم أدركت أن سبب هذا الإحساس أن المدينة لا تقوم على ضفة نهر وليس فيها سكك حديدية فلا تسمع ذلك الصوت المنير، صوت قفقهة القطارات أواخر الليل، طبعاً الفتها بعد ذلك واحببتها كما هي.

كنت قد تمهللت وأنا أتعرف على سكني الجديد الذي سوف يؤويني بضع ليال ثم أرحل عنه، وقد لا أعود إليه أبداً. ونسيت أمر السائق الذي أوصلني من المطار، ولم يخطر لي أنه سوف يأخذ مزاحي مأخذ الجد، لذلك دهشت حين وجدته ينتظر عند باب المنزل أسرع نحوي.

«ها؟ هل أرتحت الآن؟»

قلت له

«لشع، ما أزال متعباً».

«غداً إذا؟»

«نعم، غداً».

تسكت قليلاً غير بعيد من الـ «موتيل» - إعلانات

«مقاصر التدليك، وصور النساء، شبه عارات، تحاصر من كل جانب. وسط المدينة، مثل كثير من مدن العالم، ليس فيه شيء يميزه، وهذه البضاعة المعروضة في السوق، تزيد المكان قبلاً على قبح. وقد اتضح لي فيما بعد، أن مصيبة هذه المدينة أنها قطعت الوشائج بين ماضيها وحاضرها. وهي مدينة ليست وليدة اليوم، فقد أنشئت منذ أكثر من مائتي عام. الماضي تجده في المتاحف والمعابد والإبنية القديمة، وهنا هذه الحياة الحديثة، بكل ألفتها منفصلة لا تمت إلى ذلك الماضي بصلة. الأمر ليس سهلاً، ونحن أيضاً. انظر إلى القاهرة المحروسة. في الوسط، تلك العمارات التي تُعد تحفاً في فن المعمار، انظر إلى منظرها الكئيب وهيئتها الرثة، وإلى الخراب الذي حاق بالمدينة على أيدي المقاولين والتجار، رحم الله حسن فتحي الذي كان يصرخ في البرية. والخرطوم انعكس حالاً، تلك المدينة التي تقوم في موقع من أجمل مواقع المدن في العالم، أي بشاعة حاقت بها، من سوء التخطيط وقلة الذوق! هل نحن حقاً فقراء إلى هذا الحد؟

وقفت سيارة أمريكية فارمة، فيها امرأتان، التي تجلس وراء عجلة القيادة كأنها خليط من دم صيني ودم أمريكي. أننى لا مرأى في ذلك، ولكن شعرها قد سر جداً، «الاجارسون»، كأنها غلام، قالت:

«هل تحب أن تمضي وقتاً طيباً؟».

بأله من سؤال! ومن الذي لا يحب أن يقضي وقتاً طيباً في هذه الحياة الدنيا؟ ولكن ما أبعد هذا الذي يدعوني إليه من الوقت الطيب! اليس كذلك يا أختي كنده؟ مالك أخذت إلى الصمت؟ ألم تقل شعراً يصلح لهذا المقام؟

لا عليك، فانا أعلم أنك تسمو عن هذا، وترباً بنفسك عن مثل هذه القاذورات. ولا تثريب عليك أنك جزأت وراء خيالك أبعد قليلاً مما يجوز، حين قلت:

غداً وأعدها فحبذا تلف

الصق صدري بـ (...) الناهد

قلت للمرأة مازحاً:

«هل أنت بنت أم ولد؟».

لم اتوقع ما حدث، وانتابني ما هو أكثر من الدهشة، إذ أن المرأة كشفت فجأة بحركة غاضبة عن صدر عار، صدر أننى لا مرأى في ذلك، واغلقت باب السيارة بعنف، وانطلقت لا تلوي على شيء.

أضحكني ذلك، ولا أدري ماذا كان يجب علي أن أفعل، فانا بعد كاتب، وهذه التجارب على غرابتها حصاناً يُجمع ويخزن إلى حين.

وجدت السائق عند باب الهوتيل، ضحك كأنه كان شاهداً على ما حدث، ضحك ضحكة بريئة بحق البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها، ولا بد لها من عزيمة تحميها. قال

«غداً إذا؟».

قلت له

«نعم، غداً».

المرآة



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٥٩

في اليوم الثالث قال لي السائق، ليس بغضب، ولكن كمن يعتب علي أنني أضيع على نفسي فرصة ثمينة

«ما هي حكايتك؟ أنت دائماً تعبان.. تعبان؟ لك ثلاثة أيام، ألم تستجم بعد؟، قلت له ضاحكاً..»

«تريد الصراحة؟ ليس لي رغبة فيما تعرضه علي، ولكن تعال استضيفك علي شراب، جلسنا في مقهى النزل، وكنت قد اشفتت عليه، واحسست ببعض الذنب أنني ضللتك. مسكين.. لا بد أن له زوجة وأطفالاً، ويعول والديه المسنين. واضح من وجهه الوديع أنه بار بابويه، رؤوف بابنائه. ليس من «بانجكوك»، علي الأرجح، فأغلب سكان المدن في عالم الفقراء، العالم لماذا؟ الثالث؟ نرحوا اليها من الزيف. كأنه من «كوسنتي، أو «الجلد، أو.. «جوبا.. نعم، هذا هو. هذه المدينة الاستوائية تذكرني بـ «جوبا، وهؤلاء الناس يذكرونني بأهل جنوب السودان، دغك عن اختلاف الألوان. هل كان عندهم في سالف العصر والأوان فردوس ثم أضاعوه؟ إذا لماذا لا يكون عليه كما نيكى نحن علي فراديسنا الضائعة؟

راوا الشوارع والزحام والعمارات الزجاجية والمحلات التجارية الموسقة بأصناف السلع المستوردة. خالوا السراب ماء. صدقوا الوعود وظنوا ذلك الجحيم هو الفردوس الموعود. تركوا زراعاتهم وصناعاتهم وجاءوا يسفون وراء الحلم المستحيل. مسكين.. لا بد أنه أيضاً أمي، أو شبه أمي، يخوض غمار الحياة بلا سلاح. قال وهو يمتص شراب الكوكاكولا المستورد من مضاصة البلاستيك، وقد اشرق وجهه فجأة..

«علي أي حال أنا سعيد جداً اليوم. حالفتي الحظ فظفرت برؤوس ثريين. دبّرت لهما شيئاً ممتازاً.. هائي كلاس.. ليس من النوع المبتذل الذي تجده في شوارع «بانجكوك، ومحلات التدليك.. حاجة هائي كلاس بحق. لذلك أجزلاني العطاء..

«كم اعطيتك؟»

«خمسین دولاراً..»

«هذا مبلغ كبير؟»

«مبلغ كبير؟ هذا أكثر مما اكسبه من الشركة في اسبوع كامل..»

«السيارة ليست ملكك؟»

«طبعاً السيارة ليست ملكي؟ كل التاكسيات في «بانجكوك، تملكها شركات..»

لا عجب أنه مخبور لا يزعه أي احساس بالاثم وجهه منبسط وضميره مرتاح.

كان معدل الدخل في «تايلاند، تلك الايام اقل من مائتي دولار في العام، لكل رجل وامرأة وطفل وشيخ. يوفر هذا المسكين منها نفقة السكن والطعام والشراب والعلاج والتعليم، ويُدخر شيئاً يصدّه به غوائل الزمان ونوايب الخدشان.

لا عجب، مجرد وسيط. كأنه يساعدك على تاجر بيت أو شراء تذكرة سفر بالطائرة. ويأخذ «عمولة،

البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها ولا بد لها من قوة تحميها.

أدا والسودان؟ معدل الدخل في السودان الى الآن، لا يزيد عن أربعمئة دولار علي أحسن الفروض. من هذه الحصلة الضئيلة يبدد المبددون وينهب الناهبون، وتجيئ الجيوش وتشتت الحروب. الفقر فضيحة.

نساء «سو ذري، وحفرة الشيخ، وحفرة الون، وام باد، بعد قرون من حياة مصونة وجمي أمر. أذكر مثل البيض المكنون في أوكار النصور، جبار عليهن الزمان، واجلاهن القحط وغباء الحكام عن ديارهن. فجئن يتسولن في شوارع الخرطوم. الله يستر عليهن مما هو أسوأ. في أثناء ذلك تشتعل الثورات وتخدم، وتقوم العهود وتسقط.

الليلة والليله
زوا سرت سرتة
أدوني في سرتة
الفقر مصيبة. والثراء أيضاً مصيبة. وإذا اجتمعت المصيبتان فتلكم الطامة الكبرى.

هذه المدينة افسدها الأمريكان، كما اذ سدوا «مانبلا، عاصمة الفلبين. كانت مرتعاً لجنودهم يستريحون فيه من غدايات المعارك. في المحيط الهادي وفي شرق آسيا، خلال الحرب العالمية الثانية ثم في حرب فيتنام. أناخوا عليها بكلكلهم، كما يفعل الجنود، وأراقوا عليها دولاراتهم، وجدوا قوماً بسطاء ضعفاء لا يعصمهم عاصم، فعاثوا في المدينة كما شاموا، وتركوها كما ترى ***

البراءة وحدها لا تكفي. مثل نبات الوشمي أو نلر العشب اليابس.. أو كما قال الشاعر السوداني -

الجَن ناز غويش ان علقوها تعيش
بش ما انت جاهل وان جفيت معيش
قلت للسائق التايلندي، وهو يجلس قبالي في مقهى نزل الـ «أورينتال، الذي كان يُلم به الكاتب المليونير «سمرست موم».. -

«وهذه الدولارات العشر مني أنا أيضاً، لأنني ضللتك..»
فرح بها أئماً فرح. ولعلّه يسدُ بها ثغرة في حياته.. ثوب يشتريه لابنته أو لابنه. كان سعيداً مرتاح الضمير، لا يعذبه أدنى شعور بالاثم.

وأنا أيضاً شعرت ببعض الرأجة. غفر الله لي، فأنني لا أعلم أن كانت تلك حسنة أثاب عليها ولكن الأعمال بالنيات، كما جاء في الاثر، ليس كذلك يارعة الله؟

الجَن، تمنى العطف، ومنا تمنى الحب

عويش، أي العشب الجاف وسيفان القصب وما شابه. ونادى

سرعان ما تنفنى.

علق النار، أي أشعلها ■

(الحديث بغير)

نحو أفق بعيد

(الفصل الثاني)

أكرم ورثتك



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦١

قال المسؤول الكبير في وزارة الخارجية الأسترالية، «اسمع خويبتا تبغ الفصح والريد واللحوم للعرب هذا لا يحتم علينا ان نؤيد مواقفهم السياسية الا نعلم بان استراليا تسمى «البلد المحفوظ» عندنا كل شيء البترول والزراعة والصناعة بلادنا شاسعة. قارة كاملة هذه بلاد مملوءة بالخيرات نحن لا نحتاج للعرب في اي شيء».

اغاضني الرجل ولكن صراخه اعجبني. كنت قد قضيت معه نحواً من ساعة احاوره واداوره. ولاخظت انه لم يقدم في قهوة او شايا. علماً بانني جئت الى مواعيد في التاسعة صباحاً قلت له «الا تقدمون شيئاً لضيوفاكم؟ هذا وقت شرب القهوة البس كذلك نحن في بلادنا نقدم القهوة والشاي لضيوفا».

قال وهو يضعف على الجرس «اه انا اسف انا شخصياً لا اخذ هذه المكيفات. تضر القلب وهذه الحكومة قد فرضت علينا سياسة التقيف. يقولون ان احوالنا الاقتصادية ليست كما يجب. اسعدني التناقض الذي اوقعته فيه البلد المراء بالخيرات. يعاني من ضائقة اقتصادية. ويفرض سياسة تقيف» وابشمت له كما قال الأستاذ.

ولما صاروا الناس خفاً

جزيت على انضمام بابتسام

كنت وحدي في كانبيرا. تلك المدينة الجميلة ذات الباحات الواسعة والميادين المغشاة التي خططوها لتكون عاصمة ادارية متفرقة. منسي. وانا في مطار «سدني». هو صوب لندن. وانا صوب كانبيرا.

لم يستطع ان يجد وسيلة لیسافر معي الى طوكيو. كانت تلك اول مرة اراء عاجزاً امام هدف يريد تحقيقه. قالوا له ان الوسيلة الوحيدة هي ان يسافر انا عن طريق موسكو. او يعود الى لندن ويسافر من هناك الى طوكيو. وحاول ان يقنعني ان يسافر معا عن طريق موسكو. كنت اقبل. فذاك عالم لا اعرف عنه الا ما قرأته في الكتب والصحف. يا ليت. ولي عند الروس حقوق من ترجمة كتبتي. يمكن ان نعيش بها زمناً رغداً وننقلها عندهم بالزئول. حتى الروس ياكلون مال النعام؟ نعم. يا ليت. فمن عرف الكثير عن «العرب».. انجلترا وفرنسا ويطالبوا والمانييا وامريكا. هذا هو العالم في نظري. نتعلم لغاته. ونعرف تاريخه. وابدأ نحن غداً ونأخون اليه. نهيم به حياً ولا نأخذ منه مميزات هذا الحب. كيف قلت يا طيب الله تراك.

ان كان يجمعنا حب لغزته

فليت أنا بقدر الحب نقسم

اجل. نعيشه وننفر منه. اما الاتحاد السوفييتي والصين والهند واليابان وامريكا اللاتينية. فهي بلاد لا وزن لها في حسابنا. حتى اخواننا الذين شاركوا في صنع حضارتنا. حتى الافارقة. جيراننا وذوو رحمتنا. يا ليتني ولكن ليس عندي وقت. وامامي عمل لا يد من انجاز.

لو انني بذلت اقل جهد. لغير «منسي». مساره ليلحق بي في طوكيو.. لكنني بعد نحو عشرة ايام. كنت قد ضللت مصيبيته. وتلت الى مصاحبة نفسي. لذلك تلبثت عزيمته بشئ الطرق شجعتني ان يذهب الى «باريس».

والله فكرة. انا في زمن ما شفتش «باربرا بريسي». باريس حثكون حلوة جدا الايام دي. بس يا خسارة انت مش حثكون وياتا.

معلش.. انضم اليكم بعد عودتي من طوكيو. «دي اول مرة تحصل في الحكاية دي. قال ايه. اني تجاوزت الاميل المسموحة في كشركة سياحة والكلام الفارغ دا.. قلت لهم يا اولاد الابه.. ما هي طوكيو اقرب من هنا مما ارجع للندن. انما تعمل ايه؟ قواين معقدة وناس ما تعرفش تتصرف. خلاص يا اخي. مش انت زرت طوكيو. قبل كده».

وانا زرتها يحي اكثر من عشر مرات. انا اعرف اليابان شبر شبر. انت تعرف اني اتقن اللغة اليابانية.

«يا راجل حرام عليك» انت تعرف لغة يابانية. «انت مش مصدق» انت ناسي ان عندي مدرسة لتعليم اللغات في واشنطن. ماحدث الطريق الـ «اوديو فيريول» وانا حتى

ترجمت قصة لـ «مشيما» الى اللغة الانجليزية» انت سعا ما سمعتش بـ «مشيما».

«لا يا سيدي. سمعت. بس انت تترجم قصة من اليابانية الى الانجليزية. دا الفراء صحيح ونشرتها هي».

ضحك ضحكة. تعني ان هذا الكلام قد يكون صدقا وقد يكون كذبا. وعلا ان اقبله على علاته ثم قل.

«حتحتاج لي بصحيح في اليابان. كنت حستفقد مني قوي في مهمتك».

«لا شك في ذلك. ولكن معلش امري لله. احاول اقوم بالمهمة وحدي. اعمل ال الهدر عليه. طبعاً سوف افتقد قدراتك المتعددة وعطريتك».

«انت بتضحك ما هو انا فعلاً عبقري.. ليه انتو مش عاوزين تترقبوا بالحقيقة دي».

«شوف يا ابني. انت فعلاً نموذج فريد من البشر. انسان نسيح وحده. لن يتكرر. اما انت عبقري فالله اعلم».

«اولاً يا استاذ اتعلم ازاى تتكلم عربي. عامل انت كاتب وشغل «الحلقة» دا. وانت ما تعرفش قواعد اللغة العربية. هي مش وحده. بالكسر ولكن وحده. بالفتح».

«ليه».

«لانها ممنوعة من الصرف. يا ابني دي مضاف ومضاف اليه».

«انت مش فاهم حاجة. انت نسبت ان عندي «يكالوريوس» في اللغة العربية من جامعة لندن».

ضحكت لقد كنت اعلم كيف حصل على تلك الشهادة كنت اساعده في اللغة العربية والتاريخ العربي. لم يكن بعد الفرق بين عبد الملك بن مروان الذي كان يسميه «عبد الله» ابني مروان.. وبين ابني جعفر المنصور الذي كان يسميه «جعفر بن المنصور». وفي ذات اليوم الذي نال فيه الدرجة جنسنا في مفه في شارع «كنجز رود» في «تشلسي» ودخل معي في جدل حول مسألة لغوية قلت له

«اسمع. تذكر اني استاذك. وبدوني ما كنت تأخذ الدرجة دي».

ضحك الان. بطريقة لأخضت قدسة حصوله على درجة «يكالوريوس» بكاملها. ثم قال

«سبكت من الحكاية دي. بذمتك مش انا ساعدت مساعدة رابعة في مهمتك. مش نحن ويا بعض قمنا بعمل ديبلومسي على اعل مستوى».

«اشهد انك اظهرت مواهب ديبلوماسية لا يستهان بها».

«ايه رايت في حوارنا مع مستر «كامرون».. مش حوار اهل الراجل» انت من ناحية وانا من ناحية».

«كان كويس».

والشباب الفلسطيني في الـ A.B.S. (هيئة الإذاعة الأسترالية). انت مني ولا انت واخذ بالك. انا فوراً عرفت انه عربي. مش هو اللي قدمك للمخرج الاسترالي. واجروا معك مقابلة ساعة كاملة. في اهم برنامج اذاعي عندهم».

«كله دا صحيح.. فضلك لا يتكرر».

«بس انت زعمت مني ورحمت عملت المقابلة لوحدك اصلك خفت اني اخطب الاضواء منك».

«اكيد. هو انا اعرف اتكلم انجليزي زيك يا دكتور» بذمتك انت صحيح عندك شهادة دكتوراه».

«الا عندي شهادة دكتوراه» انت لشع ما تعرفش انه «يه دي» ما تعرفش اني انا عندي مش شهادة دكتوراه واحد».

«ثلاثة شهادات دكتوراه».

«يعني انت زي زكي مبارك.. يا راجل خاف الله».

«سبكت من الحكاية دي. بذمتك مش انا وانت تنفع سفراء متجولين» تصور لو عملونا سفراء نخد القضية العربية مش

كان احسن من الكلام الفارغ الي بيعملوه دا».

بعد اكثر من عشرة ايام من مثل هذا اللغظ. بدأت ابرم بـ «منسي» واثق الى ان اخلو بنفسي لذلك لم اشجعه على السفر معي الى طوكيو. ومع ذلك حين جنسنا في مطار «سدني» هو

يتجه الى لندن وانا الى كانبيرا. احسست ببعض الحزن. ولما اقلعت طائرته قبل تميت لو استفتيته والآن. وانا واجهه هذا الانسان الضئيل. فكرت في «منسي». قلت يا ليت كان معي. فلن وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف ■

أمر ورائي



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٢

تركت بلاد سننم، الاسطورية ورائي، ليس كما ترك
الاستاذ، حلب في ديار الشام، فلم يكن ثمة امر
احييتة وخبث ظني، وكان القلب خالياً لم يتنور
بعد، نارهم من وراء أرعات، لا، ولا كان امامي ملك اقصده لا
ادري كيف يكون حالي معه، ولكن لعنني لم اعدم حذوة من
تلك النار المقدسة التي احترقت ذلك القلب العظيم

ان كان احد ينتظرنا في سدني، فهو منسي، في سدني،
سوف نرى.
كيف قلت، غفر الله لك
على قلبي كأن الريح تخني.
ثم ماذا؟ لقد اشتعل الرأس شيباً، وبدأت الذاكرة تخون
الا انني اذكر جيداً بيتك العجيبين.

صحبتي على الفلاة فتاة
عادة اللون عندها التبديل
سترتك الجبال عنها ولكن
بك منها من اللحن تقبيل

كيف تأتي لك هذا المعنى الغريب، وأي فتاة كانت
تصحبك في تلك الفلاة، ومن قبل من؟ الفتاة تقبل فتاة سامحك
الله!

حاشاك ان يزقني مثل الى همومك واشواقك، وأي ابن انثى
يسمو الى مثل اشواقك وهمومك، ولكنني مثلك على الاقل في
هذه البيداء، ارى ولو قليلاً، واسمع، واتذكر، اتذكر
الشمس تارة عن يميني وتارة عن يساري، متى كان ذلك
واذكر ثلوجاً في قمم جبال في عز الصيف، ابن رايت ذلك
واذكر اودية وغابات وبخارا تلمع مياهها تحت ضوء
النجوم، واذكر مدناً تضوي مصابيحها، كأن السماء قد
انطبقت على الارض، اللهم الا الخرطوم، هنالك الارض
تنتظر مزيداً من الضوء، والسماء مضيئة كانت لم تر السماء
من قبل.

الان في هذه الفلاة في الفضاء، بين بانجكوك، وسدني،
اتذكر قولك

ولله سيري ما اقل ثبته
عشيتة شرقي الحدالي وغرب
عشيتة اخفى الناس بي من قلوبته
واهدى الطريقين التي اتجنب

ما اشد ما صعبت الامر على نفسك، وقد كنت تستطيع لو
ارتدت، ان تاوي الى مكان لا تبرحه، مع ألف تسكن اليه،
تصحونان معاً على نداء الاذان في الفجر

ويوم كليل العاشقين كمنته
اراقب فيه الشمس ايان تغرب
وغيني على اذن أغركانه
من الليل باق بين عينيه كوكب

شفتت به الظلماء اذني عنائه

فيطغى وارخيه مراراً فيطرب

ذلك عنان الشعر، هذا الظلام الذي تتحدث عنه ليس
ظلاماً، والضوء الذي انجس في جوفه مثل... ربة،
كاشفة، ليس ضوءاً، هذا ضوء الشعر في ظلام الكور، ليس
كذلك، كانت اخذت الظلام الذي اتاخ بكله على امرى
القيس، وعاناه نابغة بني ذبيان، فاشتعلت في جوفه نيران
عقربتك، ولم تجدك ذلك نفعاً، لانك لم تلتفت كما يجب، الى
النور الذي ولد مع الصبي العربي اليتيم في ام القرى، كانت
القصيدة عندك هي الهدف، وقد قال شيكسبير بعدك

المسرحية هي القصد، ثمة يكمن ضمير الملك.

وقد اعياك الملوك والامراء الامير الذي لو لم تـ...
بذيتك البيت لكان حسبه، يستطعنك المدح، ويد... دارا
فيطلب منك ان تصفها، ويعشق جارية فيامرك ان نمول فيها
شعراً، وينظم شعراً ركيكاً فيطلب منك ان تجيزه، انت الذي
قلت فيه

وقفت وما في الموت شك لواقف
كانك في جفن الردى وهو نائم

تمريك الابطال كلمي هزيمة
ووجهك وضاح وتغرك بلسم

ثم ينقض عليك اللغويون والمنافقون والحساد...
الشعراء، ويقولون لك

هلاً مدحت الامير بالفضل من هذا؟
هلاً قلت

وقفت وما في الموت شك لواقف
ووجهك وضاح وتغرك بلسم

هذا وانت من انت، فترد عليهم بقول امرى القيس:
كأنى لم اركب جواداً بلدة

ولم اتبطن كاعبا ذات خلخل
ولم اشبا الرق الزوى ولم اقل

لخيل كزى كزدة...
رحمك الله وغفر لك، ما اشد ما قاسيت من نكس ومن
الناس، لنذهب معاً الى هذا الصقع الذي لم تركض فيه
خيلك، سوف تجد منسي، في انتظاركنا، ولا عليك انه لا يفهمك
ولا يفدرك، تعال الى سدني، حيث الغنى العربي كما
وصفت

غريب الوجه واليد واللسان
هناك، سوف ترى

• الثبته النبط في السير، فكانه قال، ما أسرع ما كلن
سيري، ■

أكر واقعة



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٣

لم يكن عندي حجز في واقع الامر، ولكنني
اجبت موظف الاستقبال دون تفكير، وربما كان
ذلك من اثر صحبتي لـ «منسي».

نعم.

نظر فوجد اسمي
نعم. يوجد حجز باسمك. انت موظف في الشركة
العالمية للسياحة. اليس كذلك؟

انقُذت حينئذ ان «منسي» قد سبقني الى «سدني».
وفرحت لذلك، ان اجد انسانا اعرفه في هذه الاصقاع
النائية. لقد ابعدت جداً عن العوالم التي اعرفها.
وربما لأول مرة في اسفاري احس بالوحشة. وعمق هذا
الشعور انني حللت في شتاء زمهرير. لقد ولدت في
الصيف. في شهر يوليو - تموز العتيق، لذلك فانني
احتمل الحرّ مهما طغى، اما البرد فانه يصيب روحي
بالكابة، ويصيب عقلي بالشلل. وكانت الدوحة صيفا
حين تركتها، وصاحبت الصيف في «دلهي». ثم في
«بانجكوك». وفجأة اذا بالعالم ينقلب رأساً على عقب.
الحمد لله اذا، ان لي صديقاً في هذا العالم الموحش.

قال «منسي»، وهو ما يزال عند الباب، دون ان
يحييني وكأننا لم نفترق منذ اسبوع
«انت مش حتبطل التفتيل بتاعك دا؟»
ليه؟

انا قابل لهم انك موظف معنا في الشركة عشان
يدوك تخفيض. تقوم تقول لهم انك موظف في حكومة
قطر ومش عارف ايه؟ انت ما تعرفش اننا كشركة
سياحية بتأخذ خمسين في المائة تخفيض؟

كان قد سبقني الى «سدني» بيومين، تحرك خلاهما
تحركات واسعة كما اتضح لي فيما بعد. كنت اغبطه
على سرعة تاقلمه مع البيئات التي يحل فيها، وانا
بطيء التاقلم، اخذ وقتاً لانتقل من حال الى حال، ها هو
الآن في هذه المدينة الغربية على حافة الكون، مرتاحاً
مطمئناً كانه في لندن او القاهرة او الرياض. واغاضني
انه جاء مستعداً للشتاء. كان عليه معطف من فراء
الثعلب، لا بد انه غالي الثمن، وان كنت اشك انه دفع
فيه قيمته الحقيقية. ذلك جعله يبدو في نظري باعثاً
على الضحك. قلت له:

«ايه اللي انت عامله في نفسك دا؟»

«رائع مش كده»

«الله يخيبك. انت عامل زي الممثلين الفرنسيين

دي امور ذلح»

«انت اصلك جاهل ما تعرفش في الحاجات دي.
اسمع، سيبك من الكلام الفارغ دا... انا عملت موعد
بكره الصبح مع مدير عام هيئة الاستعلامات»

وبعدين حنتغذى مع مدير عام هيئة الاداعة
الاستراتيجية... و...
«الله.. الله.. ايه دا؟»

«ايه دا يعني ايه؟ زي ما بقول لك. امال احنا جايين
نلعب ولا نشغل؟»

«وانت مالك ومال الحكاية دي؟»

«ازاي انا مالي؟»

«مش نحن جايين في مهمة اعلامية هنا؟»

«انت جاي في مهمة اعلامية؟»

قال وهو يضحك بطريقة العجيبة:

«يا استاذ انت مش واخذ بالك. انا اصبحت رسمياً
شريكك في هذه المهمة. انت ناسي اني انا اللي جيت لك
الفيزا؟ انت ما تعرفش اني انا خليت السفير الاسراني
في «دلهي» يكتب لوزارة الخارجية هنا عشان يعملوا
الاجراءات اللازمة؟»
«ملين؟»

«احنا الاتنين. احمد الله اني خلّيته يحط اسمك في
الرسالة، والا ما كانش حيسالوا فيك. انا افكرتك
حتوصل امس، وخليتهم يروحوا لك المطار».

«وانت بصفتك ايه؟»

«بصفتي مستشار اعلامي».

«مستشار اعلامي لمن؟»

ضحك دون ان يجيب. الله اعلم اي صفة جيدة
اضفاها على نفسه.

تأكدت من صدق قوله حين دخلنا على مدير عام
هيئة الاستعلامات. هذا منصب يعادل وزير الاعلام
عندنا، فاستراليا مثل بريطانيا، ليس فيها وزارة
اعلام. كان «منسي» يبدو لي في زيّه الفاخر مضحكاً.
لانني كنت اعلم انه يدخل على الرجل في صفة منتحلة.
اما في عيني ذلك المدير العام، فلا بد انه بدا شخصاً
مهما حقاً. كان يلبس بدلة من الصوف الفاخر الذي لا
بد انه اشتراه من «دورمي» في لندن بثمن بخس. و«ايه
ذلك المعطف من الفرو. اتجه الرجل اليه دون تردد»
وصافحه باحترام واضح. قدمني «منسي» اليه بطريقة
لا تترك مجالاً للشك انني تابع او مساعد له. واذ انني
لم اكن قد افقت بعد من «قفزة الطائرة النفاثة - الـ
Jet Lag» فقد تركته يصول ويجول وحده، لا اندخل
الا حين احس انه قد اشتط شططا بينا. ابل في الدفاع
عن القضايا العربية بلاء حسناً والحق يقال. تحدث
وكانه سفير مسؤول او ناطق رسمي باسم جامعة
الدول العربية. بل انه كان كذلك حقيقة. في نظر نفسه
وفي نظر المدير الاسترالي ■

أكثر وأقل



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٤

السادس والعشرون من شهر يناير عام ١٧٨٨. تاريخ له طعم مرير في حلق الاستراليين. ومع ذلك فهم يحتفلون به. ربما لأن للشعوب رغبة لا تُحد في الاحتفال. وربما كما يحتفل السجين بإطلاق سراحه.

تسير في شوارع «سدني» فكانك في «نيويورك» تارة. وفي لندن تارة أخرى. هنا في وسط المدينة حيث يقوم نزل الـ «هلتن» في شارع «بت. Pitt» تحس كأنك في «نيويورك» لا بد أنهم أسموه باسم «وليم بت» رئيس وزراء بريطانيا الذي استعمرت استراليا في عهده. هذا المعمار البشع الذي ابتدعه الأمريكان. كما في «مانهاتان» في «نيويورك» لا لحاجة الناس اليه. ولكن لمجرد التباهي بما في أيديهم من تكنولوجيا. واحساس الكائن البشري. وهو احساس جهول كما نعلم. بأنه قادر على كل شيء. وتسير باتجاه البحر. وهو غير بعيد. فإذا أسماء الشوارع وهياة المباني. كانك في لندن.

وفي واقع الامر. فإن أوجه الشبه بين استراليا عموما وبين امريكا أكثر مما بينها وبين انجلترا. فاستراليا مثل امريكا. نشأت على اطراف الحضارة الأوروبية. وهي مثلها قامت على اكتاف المهاجرين من العالم الأوروبي. وقد كانت مثل امريكا مستعمرة بريطانية ثم كسرت القيد وثبتت عن الطوق.

ولكن شتان بين الهجرتين. فالأوروبيون الذين نزحوا الى امريكا. كانوا في الغالب. رجالا ونساء ذوي عقيدة ومبادئ. فزوا بدينهم من الاضطهاد او سعيا وراء العيش الكريم. اما هؤلاء فكان لهم شأن آخر.

كان البحار المغامر «وليم دامبير» أول بريطاني تطأ قدمه ارض استراليا. وكان ذلك عام ١٦٨٨. الا ان ذلك لم يحدث اثرًا يذكر. فقد اهتم الأوروبيون قاطبة امر استراليا التي كانت تبدو لهم عالمًا اقرب الى الخرافة منه الى الواقع. مما جعل «جوناثان سوفت» مؤلف «رحلات قلقر» يطلق عليها اسم «بلاد الياهو». ثم في التاسع والعشرين من ابريل عام ١٧٧٠ رست سفينة «كابتن كوك» في خليج واسع في الطرف الجنوبي الشرقي لاستراليا. اطلق عليه اسم «بوتاني بي» - خليج النباتات. لكنه لم يمكث طويلا بل واصل سيره شمالا بحذاء الساحل. هبط في لسان ممتد في البحر وهناك غرز العلم البريطاني واسمى كل ذلك الجزء الجنوبي الشرقي «نيو ساوث ويلز» ويلز الجنوبية الجديدة.

ايضاً لم يابه الانجليز باستراليا. ولم يلتفتوا اليها الا بعد ان ضاعت منهم مستعمراتهم الامريكية بعد حرب التحرير. ادركوا انهم بضيايع تلك المستعمرات. ما عادوا يجدون ارضا ينفون اليها الفاضل من المجرمين الذين ضاقت سجونهم عنهم. وبدا لهم ان تلك الارض البعيدة التي اضافها «كابتن كوك» الى ممتلكات التاج البريطاني. تصلح لذلك الغرض. واعلن رئيس الوزراء «وليم بت» في البرلمان ان النفي الى استراليا هو انجع وسيلة وارخصها. للتخلص من

المجرمين الذين لم تعد سجون بريطانيا تتسع لهم وهكذا. في ١٣ مايو عام ١٧٨٨. ابحر اسطول من احدى عشرة سفينة تحمل الفا وثلاثين سجيناً. تحت امره «كابتن آرثر فيليب». الذي اصبح أول حاكم للمستعمرة الجديدة. وفي ١٨ يناير ١٧٨٨. بعد رحلة دامت ثمانية اشهر. القت السفن مراسيها في «بوتاني بي». حيث حل «كابتن كوك» قبل ثمانية عشر عاماً.

لم يرق الموقع لـ «كابتن فيليب». فاختار مكاناً ابعد شمالاً بقليل. هناك القى عصاه. وافرغ حمولة - له من المجرمين. ورفع في تلك السماء البكر. العلم الامبراطوري البريطاني. واسمى المكان «سدني» على اسم «لورد سدني» وزير المستعمرات. كان ذلك على وجه التحديد في السادس والعشرين من يناير عام ١٧٨٨. اي قبل ما يربو بقليل عن قرن. من دخول الجيش البريطاني لبلاد السودان. واذا كانت حرب التحرير قد صبغت علاقة الامريكيين بالانجليز. فإن هبوط أولئك النفر من «المجرمين» في ذلك المكان قد صبغ علاقة الاستراليين بالانجليز الى يومنا هذا.

على السطح لا ترى شيئاً. وانت تتجول الا في شوارع هذه المدينة المزدهرة ذات الثلاثة ملايين او اكثر. بدورها التجارية العامرة. وابنياتها التي تشرئب باعناقها في السماء. واسماء شوارعها التي تذكر بالعهد الاستعماري. ووجوه اهله التي يغلب عليها الشمت الانجلوسكسوني. ولكنك حين تمنع النظر. تدرك ان تاريخ هذا الشعب عبارة عن ملحمة من فظاظة الانسان الأوروبي. ضد نفسه وضد الآخرين. نحن نعلم من الكتب التي ظهرت مؤخراً. ان معظم أولئك «المجرمين» لم يكونوا مجرمين حقيقة. ولأنهم كانوا «ضحايا» نظام اجتماعي ظالم. وكما يحدث دائماً. فان الظلم يولد الظلم. والعنف ينبث العنف. بعد ذلك حين ال الامر الى هؤلاء «المجرمين» المضطهدين. اوقعوا هم بدورهم الظلم والاضطهاد على سكان البلد الاوائل. الـ «ابوروجينز» المساكين الذين عاشوا في تلك الاصقاع قروناً. على الفطرة في غفلة عما تخبئه لهم الاقدار.

ليس عجباً اذا. ان يخرج من هذه البيئة. كاتب عظيم الموهبة هو «باترك هوابت» الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٧١. صور في رواياته صراع الانسان الشرس من اجل البقاء. والدرك الاسفل الذي يسبحر اليه احياناً في سبيل البقاء. من هذه البيئة ايضا. خرج الرسام الكبير «سدني نولان» الذي رسم الانسان والطبيعة بشكل ليس له مثيل. كانما في كوكب خرج عن المدار واهملته الاقدار. ولا عجب كذلك. ان تنبت بيئة كهذه. كاتباً مثل «الن مؤزهد». مؤلف «النبل الابيض». و«النبل الازرق». و«اللقاء المدمر». كاتباً مرهف الشعور. عميق الاحساس بوطاة الظلم الذي يلحقه الانسان باخيه الانسان ■

أحمر وأخضر



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٥

ربما يخيل لك من هذا الموقع في البحر، وانت تنظر الى المدينة تعلو وتهبط، وتتفرق وتتجمع في انصاف دوائر، أنك قد حللت في فردوس من فراديس الأرض. الزرقة تحيط بك من كل النواحي، زرقة صافية شفافة وشمس الضحى، رغم لدغة البرد، تغمر الماء والسماء، وتنعكس من زجاج الى زجاج، ومن قمة الى قمة، فوق العمارات الشاهقة على الشاطئ.

القصور الجميلة، والـ هفل، الانيقة، والحدائق المزهرة والعشب الأخضر الغض، والبشر يسبحون او يستلقون على الرمال تحت شمس الشتاء، بعض النساء صدورهن عارية تترجرج وهن يتراكضن لاحتضان موجات المحيط الهادئ، ويضحكن ويجعل الموح ضحكتهن من شاطئ الى شاطئ، وتعلو فوق ذلك كله قمم الجبال، الزرق، عند الأفق.

لم يكن «منسي»، يحب المشي، اعتاد على السيارة، فكانت مسيرة بضغ خطوط تجعله يلهث من التعب، ولم تكن له رغبة في التعرف على معالم المدن التي يزورها، كان ينظر اليها نظرة مُجمله، وكأنه يجد فيما يرى صوراً قد راها من قبل، وكنت اعجب من اين يحصل على معلوماته، فلم اكن اراه يقرأ شيئاً، ولم يكن يتمغن في شيء، ورغم ذلك يدهشك حين تساله، بدقة ملاحظته، وغزارة معلوماته.

اقتنعه بعد جهد ان تقوم بهذه الرحلة، وان نمشي سيراً على الاقدام الى المرفأ، بادئين سيرنا من مبنى البلدية، غير بعيد من نزل الـ «هلتن»، حيث نقيم، اتجهنا شرقاً صوب البحر في شارع «جورج ستريت»، تاركين حديقة «هايدبارك»، الى يميننا، ومرفأ «دارلينج»، الى يسارنا. نحن الآن في الجزء القديم من المدينة، كما خططنا «لأخلأ ملكورى»، الحكم الذي يُعزى اليه الفضل ايضاً في اسباغ اسم «استراليا» على القارة بأكملها، بعد ان كانت تعرف من قبل باسم Terra Australis - الأرض الجنوبية!

هذا رجل من طراز الرجال الذين برزوا خلال المد الاستعماري البريطاني، رجال التقت اوهامهم وطموحاتهم الشخصية، مع المرامي الكبرى لبلادهم، مثل كلابي وكيرين في الهند، وكرومر في مصر، ولوجازد في نيجيريا، وكنتشر في السودان، وروث في روديسيا، «بناء الامبراطورية»، كما تسميهم كتب التاريخ. كانوا جميعاً ينتمون الى الطبقة العليا، لا يخافهم ادنى شك في تفوق طبقتهم خاصة، وتفوق العنصر البريطاني على وجه العموم، وانهم اصحاب «رسالة حضارية»، واجبه ان يفرضوها على العالم حتى ينتشر السلم البريطاني (Pax Britanica) كما عُم من قبل السلم الروماني (Pax Romana).

كذلك ذهب «لأخلأ ملكورى»، الى استراليا عام ١٨٠٩، قانداً اعل وحكماً عاماً على مستعمرة «نيوساوث ويلز»، وملحقاتها. كان حينئذ ضابطاً عالي الرتبة في الجيش في الثامنة والاربعين من العمر، يحمل خبرة واسعة من خدمته في الشرق الأقصى والشرق الاوسط، ويؤمن ايماً راسخاً بتميز النظم البريطانية والديانة المسيحية البروتستانتية. ولا بد انه حين استلم مهام منصبه في يناير عام ١٨٠٩ نظر بانتمزاًز لا حد له، الى المجتمع الغريب الذي كُلف بتصريف شؤونه. وجد مجتمعاً انقسم فيه البيض الى «سادة»، و«عبيد»، فقد انضم الى المستعمرة في العقود التي تلت عهد «كابتن فيليب»، بعض المغامرين والطامعين من الطبقة الوسطى والطبقة العليا. ووجد مظاهر انحلال خلقي لا بد انها صدمت احساسه البروتستانتية. كان الرجال يعاشرون النساء دون زواج، والعريضة شائعة والجرائم متفشية. وكانت الاوبئة والأمراض قد فتكت بالاهالي، سكان البلد الاوائل الذين اخذ عددهم يتناقص بشكل ملحوظ. كانوا محط سخريه البيض وامتهانهم حتى انه كانت من وسائل التسلية عندهم ان يغروهم بالسكر، ثم يتفرون عليه بتحصا، بعد حث الهتات، تماماً كما يفعل الهنود.

اصدر الحاكم الجديد نداءات تهيب بالطبقات العليا ان يتحلوا بضبط النفس والنزاهة، وتهيب بالطبقات الدنيا ان يعزفوا عن شرب الخمر، وطلبهم بعدم ابداء «الاهالي»، وحثهم جميعاً، بيضاً واهالي ان يقيموا شعائر الدين ويواظبوا على حضور الصلوات بانتظام في الكنيسة - ايام الاحد.

ولم يكتف الحاكم بالبيانات والنداءات، ولكنه فرض قوانين صارمة، واغلق الحانات، ولاحق شاربي الخمر، ومنع مظاهر الانحلال الجنسي، وفتح المدارس لتعليم المذهب البروتستانتى. وصاحب هذه الحملة «الخلقية»، جهد كبير لتخطيط المدينة وتعميرها. وقد اوكل الحاكم بهذه المهمة، مهندساً معمارياً نابغة كان سجيناً بتهمة التزوير، فاعتقه واناط به امر تخطيط المدينة. ويمكن القول، ان هذا «المجرم»، الموهوب، «فرانسيس كرينوي»، هو بالنسبة لمدينة «سدني»، بمثابة «سير كرسنتون»، بالنسبة لمدينة لندن، و«هوسمان»، بالنسبة لمدينة باريس.

كذلك اقام «لأخلأ ملكورى»، المؤسسات الملزمة ابداً للنظام الاستعماري: الكنيسة، والمدرسة، والمستشفى، والسجن، وسُمى الاسماء، ذلك ايضاً امر ملازم للاستعمار. اسماء الملوك والامراء والنبلاء وقادة الجيش والزعماء السياسيين في الوطن الام، فكانه فرض احلاماً جديدة بدل الاحلام القديمة، لان «الاهالي»، سكان استراليا الاوائل كانوا يقيمون الطلوس لما يسمونه «زمن الحلم»، حيث تختلط ذكريات ماضيهم البعيد بحاضرهم في عناق سرمدى. في قلب ذلك الحلم غرس «لأخلأ ملكورى»، رمزا اجنبياً جديداً بشكل خُيل اليه انه سوف يدوم الى الابد. اقام بلحة سماداً «باحة ملكورى»، وبني في وسطها مسلة عالية. كأنما اراد ذلك، الموضع ان يكون مركز العالم، منه تؤخذ الابعاد، وبه تقاس المسافات. انه ما يزال موجوداً غير بعيد من حيث نقف الآن. ولما انتهى مهمته عام ١٨٢١، كان قد نجح بمفليس النظام الاستعماري، نجاحاً جعل «تشارلز دارون»، صاحب نظرية «النشأة والتطور»، يقول حين زار «سدني»، عام ١٨٣٦: «... كوسيلة لجعل النفس فضلاء لاعادة خلقهم من شرملة من السلفه الذين لا يرجى منهم خير في جزء من العالم، الى مواطنين صالحين فاعلين في جزء اخر. وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً، مركزاً مضيئاً للحضارة، فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ.

لكن شاعرا من شعراء استراليا الاوائل، رأى، كما يفعل الشعراء دائماً، الظلام الذي يكمن وراء ذلك السطح المضيء، فقد قال «البارون فيلد»، الذي كان ثاني رئيس للمحكمة العليا، قال يصف استراليا:

«ولدت في ساعة الخطيئة الاولى،
حين حلت اللعنة بالارض».

لذلك هذه الغلبة من الاشجار اليابسة،...
سرتنا في شارع الملك «جورج»، المخاذي لشوارع الامراء «يوزك»، و«كلاركس»، و«كنت»، «مازين بـ» «ماركت ستريت»، و«كنج ستريت»، و«مارجريت ستريت». المعمار انجليزي احيناً وامريكي احيناً، الى ان وصلنا المرفأ. اخذنا هذه السفينة السياحية من سفن «شركة توماس كوك»، ضربت بنا في عرض البحر، الى يسارنا عجيبتان من عجائب الانجاز الاسترالي، الجسر ومبنى الاوبرا. تجاورنا خليج «ولمبولو»، ودخلنا خليج «اليزابث»، الشمس سلطعة وزرقة البحر موازية تماماً لزرقة السماء. «منسي»، يضحك، لأنه تذكر بفعل ترابط الافكار البنات الاستراليات اللاتي كن يجاورنه في شارع «سدني»، في لندن. وانا انظر الى ناطحات السحاب ووراءها الجبال «الزرق»، والفكر في قول «تشارلز دارون»،... «نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ» ثم الفكر في قول القاضي الشاعر، الذي كأنما رأى كل ذلك من وراء الغيب: «لذلك هذه الغلبة من الاشجار اليابسة».

أحمر ورقة



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

٦٦

من اعجب ما سجله التاريخ من اقوال المستوطنين البيض في استراليا. عبارة لرجل يدعى «سي. لوكهارت». قالها عام ١٨٤٩:

«لا شيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ «ابوروجينز» الذين شاءت الإرادة الإلهية ان تسمح لهم بالاحتفاظ بالارض ريثما يجيء عنصر افضل يحل محلهم».

هذا الرجل المغرور الذي لم ينسب له التاريخ عملاً يؤثر. استحق «الخلود» وان كان خلوداً خيراً منه النسيان. بانه افصح بهذه العبارة التي ظلت ترحف مع حركة التاريخ، كما يتحرك الحجر في قاع النهر. انه عبر دون موارد، ودون حياة، عن مبرر اساسي من مبررات الاستعمار الاوروبي، وهو ان الاجناس غير الأوروبية، الـ «همج» في زعمهم، ليسوا بشراً بمفهومهم للكلمة، ويمكن اعتبارهم غير موجودين. وان الحيز الذي يشغلونه على سطح الارض، هو في الحقيقة خال من السكان. ولم يكتفوا بهذا الصلف العرقي، ولكنهم جعلوه قانوناً إلهياً، واضفوا عليه مبرراً أخلاقياً. قد يكون الاله الذي تذرعوا به «برستنتيا» كما في استراليا، او «كالقنبا» كما في جنوب افريقيا، او «كانوليكنا» كما في امريكا اللاتينية، وقد يكون «يهوه» اله اليهود كما في فلسطين. ويمكن ان يسمع الانسان صدئاً عبارة مستر لوكهارت في عبارة جولدا مائير بعد اكثر من قرن من الزمان، «الفلسطينيون؟ اين هم هؤلاء الفلسطينيون؟».

في ذلك الصباح من شهر يناير عام ١٧٨٨، حين رست سفن «كابتن فيليب» على شاطئ استراليا، نظر البيض فلم تر عيونهم بشراً. راوا شخصاً مثل الاشباح هي في اعتقادهم «لا شيء» كانوا عراة تلمع اجسامهم في الشمس، من الدهن الذي يتعشجون به اتقاء الحشرات. على وجوههم ورقابهم علامات من طلاء. بأيديهم الرماح، وفي انوفهم اشياء مثل الرؤم. منهم من يحمل درعاً، ومنهم من يحمل آلة محدودة.

وقف السود على صخور الشاطئ. وكانوا من قبيلة الـ «ايسورا» كما نعلم الان، ينظرون كالمسحورين، الى المنظر الذي لا بد انه بدا لهم مثل كابوس من قوى شريرة اقتحمت حلمهم الطويل.

تلك المخلوقات الغريبة التي كانوا تسلمت جلودها عنها لشدة احمرارها، اخذت تفرغ حمولة القوارب التي كانت اضخم بكثير من القوارب التي اعتادوا عليها. خرج رجال ونساء واطفال. بعضهم كانوا يرسفون في اغلال الحديد، وبعضهم يلبسون خرقة ممزقة، وبعضهم يحملون السلاح، ويعطون الاوامر باصوات شرسة. ثم نظروا بدهشة اكبر الى عدد منهم يتجمعون تحت شجرة. وقف رجل بينهم وتحذث فيهم بصوت عريض، كما يتحدث الرجل الكبير الى الاطفال. ثم اخذ كأنما يتلو ترانيم سحرية، كان الجمع يرددتها وراءه. ذلك الرجل، كما تحدثنا كتب التاريخ، كان قسيساً بروتستانتياً يدعى «ريتشارد جونسون».

تخرج من جامعة كيمبردج، وتشرب مبادئ المذهب التبشيري المتطرف الذي كان سائداً تلك الايام. وقد انضم الى هذه الرحلة ليقدم «الرب» في تلك الاصقاع البعيدة. سارع اول ما القت السفن مراسيها فاقام الصلاة شكراً لله لانه بلغهم مقصدهم سالمين، وانه خولهم تلك الارض، يتبواون منها كيف شاءوا. كانت مهمته عسيرة، كما اتضح فيما بعد، خاصة بين قومه البيض، الذين كانوا ابعد ما يكون، عن «الاباء المهاجرين» الذين ذهبوا من قبل الى امريكا. واصبح «جونسون» هذا مشكلة بالنسبة للحكام العسكريين الذين لم يكونوا يشاطرونه حماسه الديني.

نظر الفريقان بعضهم الى بعض في لحظة نادرة من لحظات التاريخ. ولم ينع احدهم عن الاخر اي شيء. كان «السود» غارقين في حلمهم الذي خيل لهم انه سوف يدوم الى الابد. سوف تمضي حقبة قبل ان يفهموا مغزى الكارثة التي حاقت بهم.

اما البيض فانهم لم يدركوا - وما كان يهمهم ان يدركوا - ان تلك الاشباح كانت جزءاً من «شعب» توطن تلك الارض منذ اكثر من ثلاثين الف عام. جاءوا في مجرات متعددة من اسيا، عبر «تاسمانيا» و«غينيا الجديدة». انتشروا في جزيرة استراليا باكمتها، وغطوا وجه الارض مثل ثوب رقيق شفاف. وتقسّموا قبائل كان عددها نحو خمسمائة في تلك اللحظة. وكان عددهم نحو ثلاثمائة الف. كانوا مثل مستنقع انقطع عن نهر التاريخ، فعاشوا كل تلك القرون في عزلة تامة عن الاحداث التي المت ببقية سكان الارض. ولما وصل الاوروبيون، وجدوهم ما يزالون في مرحلة البداية الاولى. كانوا يعيشون على الصيد من البر والبحر، ويعتمدون على الات بدائية. ورغم ذلك فقد ابتكروا نظاماً مكتملاً للعيش يلائمهم تماماً. وابتدعوا «ثقافة» ليست تافهة اذا نظرت فيها بامعان، يمتزج فيها البتر بالسما بالطبيعة بالماضي بالحاضر بالمستقبل في عناق سرمدى اسموه «زمن الحلم». وكانت الارض هي مركز الحلم، اذا حرمتهم منها فقد حرمتهم كل شيء. كانوا انتزع «هويتهم» كما يقال هذه الايام.

تقول الارض، بلسان شاعر استرالي معاصر - من البيض - فالشعراء لا جنس لهم، وهم دائماً اكثر انصافاً واعمق احساساً:

«... اين راح ابناي الابكار،

الذين اخرجتهم من رحمتي،

من زمان، من زمان؟

لماذا، لماذا يبكون؟

ماذا حدث للاساطير،

الاساطير التي نسجت والقوانين؟

قل لي ماذا حدث؟

انت الذي ولدت بعدهم

بزمان، بزمان.

لماذا لا اسمع،

الأصرخات ارواحهم تدوي في الكهوف؟ ■

٦٧ نحو أفق بعيد



بقلم الطبيب صالح

العجين، متجمعة عند تلك الحفر. مادة ليست حية ولا ميتة. لكنها عصاراة الحياة.

تحت الغشاء الخارجي للارض، كانت الاشياء غافية تنتظر ساعة الميلاد... الشمس والقمر والاشجار والحشرات والطيور والحيوان. نائمة مثل بذور في صحراء تنتظر المطر.

في صباح اليوم الاول تمللت الشمس في رحم الارض، فقد احست برغبة ملحة لان تولد. شقت غشاء الارض وخرجت. فغمرت الارض بالضياء والدفع، وغمر الدفع الحفر التي تحتها كان ينام القدماء.

كانوا منهكين متعبين، بخلاف سكان السماء، مبيضة لحاهم ضامرة اجسادهم ظلوا نائمين طوال العصور.

وهكذا، احس كل واحد منهم في هذا اليوم الاول، دفع الشمس، فاذا بجسده يتشقق عن اطفال. خرج نعبان من صرة الرجل - النعبان. الرجل - الببغاء، احس بشيء له ريش يخرج من جسده، فاذا هو ببغاء. الرجل - الكانغرو تمخض عن كانغرو، والرجل - النملة ولد نملة، والرجل الزهرة، خرجت من جسده زهرة. وكل مخلوق من هذه المخلوقات الوليدة، اول ما مس الارض، رفع وجهه نحو الشمس.

في قيعان الحفر، التي امتلات بالماء، حرك القدماء، اقدامهم، القدم اليسرى، ثم القدم اليمنى. ثم هزوا اكتافهم وحركوا اذرعهم. انشقت اجفانهم ففتحو اعينهم، نظروا فراوا اطفالهم يمشون في ضوء الشمس.

تساقط الطين عن افخاذهم كما تسقط المشيمة غشاء الجنين، عن جسد الجنين. وكما يصرخ الطفل اول ما يولد، فتح كل واحد من القدماء، فمه وصرخ «انا.. انا نعبان، انا.. انا ببغاء، انا.. انا زهرة».

هذا النداء الاول، نداء تسمية الاسماء، ظل بعد ذلك واز الابد، اقدس طلسم في «غناء القدماء».

ثم، كل واحد منهم، خطا خطوة بقدمه اليسرى، ودفع الشمس يغمره، ونادى باسم ثان وخطا بقدمه اليمنى وهتف باسم ثالث.. نادى بركة الماء، ونبات البوص، وشجر الصمغ، ينادي ذات اليمين وذات الشمال ينادي المخلوقات ان تولد، يغني لها ويذجل اسماءها. ثم طاف القدماء، العالم طولا وعرضا وهم يغنون. غنوا للانهار وجبال الملح وكتبان الرمل وكانوا اثناء تجوالهم يتركون دروبا مثل خيوط غير مرئية. ويتركون علامات مثل بصمات الاصابع.

غطوا العالم بأسره بلحاف من الغناء، ولما فرغوا، احسوا بالتعب. احسوا باعضائهم تبرد ببرد الحقب الطويلة، وتيبس بعضهم اندس حيث هو في باطن الارض. وبعضهم حبا الى اعماق المغارات والكهوف، وبعضهم غاب في الحفر الابدية، من حيث خرج. عادوا كلهم الى رحم الارض. ■

(للحديث بقية)

في استراليا اكثر من اي ارض اخرى استوطنها الاوروبيون. وقفت فلسفتان متناقضتان كلية، احدهما ازاء الاخرى.

الفلسفة الاوروبية المادية في ناحية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر، فلسفة تعتبر «الارض» مجرد شيء، من حق الانسان ان يملكه ويستأثر به، ويقسمه كيف شاء، ويستغله كيف بدا له. والانسان، بمقتضى هذه الفلسفة، ليس الكائن البشري عموماً، ولكنه الانسان القوي القادر، الذي اختارته العناية الالهية وقوانين التمييز

الطبيعية، اي الاوروبي، ليكون خليفة على الارض. وكان المؤمنون بهذه الفلسفة، يستندون الى التفوق التكنولوجي والى المدافع والبارود. في الجانب المقابل، وقفت فلسفة «اسطورية - شاعرية»، ترى «الارض» على امتدادها، كائناً حياً، يحس ويتالم، مخلوقاً له قداسة مثل «كاتدرائية مفتوحة»، كما وصفها احد الكتاب.

احترار المستوطنون الاوائل في امر الـ «ابوروجينز» راوا اناس لا يشبهون اي اناس عرفوهم من قبل، او سمعوا بهم. لم يجدوا لهم زعماء ولا معابد ولا اوثاناً يعبدونها ولا «ديانة»، يؤمنون بها. ولم يكونوا يملكون شيئاً، لا بيوتاً ولا مزارع ولا مقتنيات ولا ارضاً. وكانوا في ترحال مستمر، دون سبب واضح، كأنهم يبحثون عن شيء مبهم ضاع منهم.

اتضح بعد زمن طويل ان الـ «ابوروجينز» يعتبرون الارض باجمعها، معبداً لهم، وان فيها علامات والغازات واسراراً، لا بد من مواصلتها باستمرار، والا توقفت الحياة، وان «الارض» تناديهم وتتحدث اليهم، وان لهم طرقاً على وجه الارض لا يخطنونها، كما يعرف الطائر المهاجر طريقه في السماء.

يصف الكاتب الانجليزي «برؤوس شاتون»، قصة ظهور المخلوقات على الارض، كما يتصورها الـ «ابوروجينز» في كتابه البديع «دروب الغناء»:

«في البدء كانت الارض طيناً لازباً منبسطة، منفصلة عن السماء والبحر المالح الرصاصي. وكان يغمرها ظل رهيف مثل الشفق. لم تكن بعد شمس ولا قمر ولا نجوم. وكان يسكن في المدى القصي «سكان السماء»، كانت لهم هيئة البشر وسيقانهم مثل سيقان النعام، وعلى رؤوسهم شعر عسجدي كأنه نسيج العنكبوت. كانوا في نضارة دائمة، يعيشون في فردوس مخضر وراء الغيوم في الافق الغربي.

لم يكن على وجه الارض، سوى حفر، سوف تمتلئ بالماء يوماً ما. لم تكن ثمة حيوانات ولا نباتات، لا شيء سوى مادة لينة مثل

٦٨ نحو أفق بعيد

ملاؤها في أوقات معينة، والآ اختلطت الأمور وضاعت المسالك كانت هذه النخبة من الحكماء تقف سداً في وجه الغزو الثقافي الأوربي، فركز الأوربيون هجومهم عليها، ولما انهارت، انهار شعب الأبوروجينز برمتة يقول الكاتب الأسترالي (جيمس كاوان) في كتابه «أسرار زمن الحلم».

مكي نفهم المخنة العظيمة التي يتعرض لها أي مجتمع قديم في صراعة للحفاظ بتماسكه للاستمرار في الحياة. لا بد لنا أن نفهم خطورة المواجهة المدمرة، بين المادية الأوربية والكاراجي، بصلة قدوة ومرشداً ثقافياً وروحياً للمجتمع، فإن الكارثة التي حدثت بالأبوروجينز من تدمير لتراثهم الروحي والمثولوجي، ما تزال تحدث لمجتمعات أخرى إلى يومنا هذا.

لذلك نستطيع أن نتخيل احساس شاعرهم، وهو يغني بهذه الكلمات.

«اتلفت خلفي نحو الجبال العالية،

صوب «بنقارنجي».

صوب «ووريني» و«لقلقي».

نمشي نحو اسهلول ومصب الوادي،

اشعر بالحزن،

اذ نفارق المخل.

تلك الجبال الصخرية عند «دارنقوا».

وجبهة الجبل التي اسمها «بلاويرو».

نقتفي اثر الكانغرو

عبر السهل الواسع،

ابكي لانني اضعفت «مكاني».

يتفطر قلبي وأنا اقف في السهل المنبسط.

انتظر هطول المطر،

هذه الكلمات على بساطتها الا تثير في نفسك شجناً ليس غريباً عليك، تعرفه في الشعر العربي القديم؟ الا تذكرك هذه الكلمات بقول زهير بن ابي سلمى:

لمن طلل كالوخي عاف منازلة

عفا الرّس منه، فالرّسيس، فعاقلة

فرقد، فصارات، فاكناث منعج،

فشرقي سلمى، حوضه فاجاوله

فوادي البدي فالطوي فتدابق،

فوادي القنان، جزعه فافاكله،

وغيب من الوسمى، خو تلاغه

اجابت روايته الشّجاع، هو

انظر الى ذكر الاماكن هنا وهناك، وان الشاعر يغمم بها كنيا طلاس. تخيل شاعر الـ (ابوروجينز) وهو ينتظر المطر، والشاعر العربي وقد تذكر المطر يهطل في زمان مضى، ثم تأمل ان الطلل العربي ليس مكاناً واحداً، ولكنه واسع شمل عدة امكنة، وانه مثل سطور كتاب امحت واختلط بعضها ببعض تقول كانتها.. لعلها.. دروب الغناء ■

(للحديث بقية)

ذلك كان منذ عهد بعيد الذي حدث، وكيف حدث، ظل ثابتاً في الزمان. هذا هو «زمان الحلم» كما يسمونه. كل شيء قد تم وانتهى، ولكنه سوف يتكرر ويتجدد في صيرورة مستمرة. والإنسان هو الذي يعيد تلك اللحظة، يعيد نشأتها، بالهجرة في «دروب الغناء» في مواسم معينة، مهتدياً بعلامات تركها «القدماء» على الأرض، كما يهتدي الملاحون بالنجوم، حتى يصل الى الاماكن «الحارة»، حيث تكمن الـ «كُرْمبا» - روح الأرض



بقلم الطبيب صالح

تمتد «دروب الغناء» على وجه الأرض من اقصاها الى اقصاها، تلتقي وتتفرق، مثل نسج العنكبوت. وطوال الرحلة، يغني الانسان يغني حين يحل، ويغني حين يرحل، ينادي بالاسماء القديمة، ويسترجع اللحظة الاولى. تستيقظ الأرض وتحول الى جسم مضيء، الى افق مبتاهيزيقي يحفظ كل تاريخ «الشعب»، وسيرته في الحياة، وكيف غمرته الهبات والنعم، مثل القدرة على الرقص والغناء، وصنع الات الصيد، وكل المهارات التي اتاحت له العيش.

في رحلة الحلم، يعيد الانسان صلته بالطبيعة، ليس بالمعنى البيئي المعاصر، ولكن بالمعنى الشعاري - الاسطوري القديم. تقول الأرض للبشر، كما غنى شاعرهم -

«لقد ذبلتم وغازت نضارتكم. سوف اصوركم. سوف اضع طلاء جديداً عليكم، فتعود اليكم نضارتكم من جديد،

ويقول احد حكمائهم عن علاقتهم بالأرض -

«نحن نؤمن ان الأرض هي التي تملكنا ولا نقول أننا نملك الأرض. الأرض ليست لنا، ولكننا نحن للأرض».

لذلك حين جاء المستوطنون الأوربيون، وقسموا الأرض ملكيات تظل في حوزتهم الى ما لا نهاية، بحكم القوانين المعقدة التي فرضوها، كانوا في نظر الـ «ابوروجينز» كأنهم قطعوا جسم كائن حي. قطعوا ايضا خيوط الغناء القديمة، وغفوا على الاماكن «الحارة»، وطمسوا معالم الحلم. انتهكوا قداسة الأرض، في نظر الـ «ابوروجينز» انتهاكاً افزع مالمو أنهم القوا عليها قبلة ذرية.

حينئذ، ضاع الانسان في غمار المجتمع الأوربي الجديد بمفهومه المادي. تزعزعت صلته بالأرض، وتزعزع احساسه بالامن، واصابته البلبله والحيرة، وانصرف الى السكر والجريمة.

لم تكن عندهم مؤسسات للحكم، ولا زعماء، فقط اعراف تنظم شؤون حياتهم، بطريقة عفوية. كان لهم نخبة من رجالهم، كانوا بمثابة الامناء على تراثهم. اولئك هم الـ «كاراجي»، أي «الحكماء»، كانوا ينتخبون منذ صغرهم حسب مواصفات معينة، ويعُدون اعداداً طويلاً شاقاً، يصيرون بعده مرشدين روحيين للشعب، يقودونه في رحلة الحلم، يعرفون الدروب والاغاني القديمة والاماكن «الحارة»، والكهوف حيث التصاوير التي خلفها القدماء، التي لا بد من إعادة

٦٩ نحو أفق بعيد

على ذقنه. ذكرني وجهه الواضح المتسم بوجه أبي. هبط على مؤخرته. وأخذ كوباً كبيراً. صب فيه كمية كبيرة. من السكر.
كلمه «اركادي» فاستمع له الرجل دون أن يتدخل. ولما سكت «اركادي» رُد عليه الرجل بصوت خفيض وهو يخطباصبعه رسوماً في الرمل. ثم اتجه نحو سيارة «الفولكس واغون» التي اتخذها الرجل العجوز «الآن» داراً

● سالت «اركادي».. من هذا؟
- ابن أخت الرجل العجوز وهو أيضاً مدير أعماله الروحي
● وجاء يطلب ماذا؟
- يمتحننا

● هل نجحنا في الامتحان؟
- توقع أن يشرّفنا الشيخ.. الـ (Boss)
● متى؟
- قريباً

● يا ليتني أستطيع أن أفهم حكاية مدير الأعمال الروحي هذه
- صعب

هَب الدُّخَان من نار الشاي في وجوهنا. طرد الذباب على الأقل. أخرجت دفتري ووضعت على ركبتي.

قال «اركادي» ان الخطوة الاولى هي ان افهم مغزى عبارتين من كلام الـ «ابوروجينيز».. عبارة «كُزدا» وعبارة «كتنقورلو».. الرجل الكبير «الن» هو «كُزدا».. اي «الرئيس».. أو «صاحب» الأرض التي سوف نزرعها. جز المسؤول عنها.. يعني بها.. يتأكد ان تظل الأرض في عافية.. اغانيتها.. وشعارها تؤدي في اوقاتها. الرجل في القميص الأزرق هو الـ «كتنقورلو» بالنسبة لـ «الآن».. انه مساعده ومدير أعماله. وهو ينتمي الي «فُخْد» طوطي مغاير رغم انه ابن أخت «الآن» سواء حقيقة أو تخيلاً. كلمة «كتنقورلو» تعني «ذا رجم».

● قلت هذا يعني ان مدير الأعمال له دائماً حلم. مختلف عن الرئيس
- نعم. هو كذلك.

قال «اركادي» ان كلًا من الرجلين. يتمتع بحقوق طفوسية متبادلة في أرض الآخر. وهما يعملان معاً كفريق واحد لرعاية أرض الطرفين. وكون «الرئيس» دائماً أسيراً من «مدير الأعمال» معناه ان الحكمة الطفوسية حكمة قبلية. تنتقل من جيل الى جيل.

● قال «اركادي» ان الاوروبيين ظنوا اول عهدهم بالـ «ابوروجينيز» ان «الرئيس» هو شخص مثل مدير مصنع او شركة. وان «مدير الأعمال» شخص لا وزن له.. كانوا جاهلين.. قال ان الـ «ابوروجينيز» احياناً يفسرون وظيفة الـ «كتنقورلو» بأنه بمثابة الشرطي. الرئيس لا يخطو اي خطوة دون موافقة الشرطي. خذ حالة «الآن».. يقول ابن أخته انها تعيسان لان خط سكة الحديد سوف يُخرب مكاناً مهماً من اماكن «الحلم».. حيث يرقد «الضُب» ابو العشيرة... ولكن هو الذي سوف يتخذ القرار. وليس الرئيس. (Boss) هل يخرجان معنا ام لا.

- الامر المدهش في هذا النظام هو ان «مسؤولية» الأرض. ليست في يد «المالك» ولكن في يد فرد من افراد العشيرة المجاورة.

● والعكس بالعكس.
- تماماً.

● اي ان الحرب بين الجارين تصبح صعبة.
- بل مستحيلة.

كأن أمريكا وروسيا.. كأن كل واحدة منهما تملك حق رسم السياسة الداخلية في البلد الآخر.
«فُس» هما قدامان..
من كتاب «دروب الغناء» للكاتب الانجليزي «يروش شاتون».

(للحديث بقية)

انتفخنا قليلاً. فاذا بيد سوداء تمتد من فجوة في المشمع المشدود على باب سيارة الـ «فولكس واغون».. التي استقرت على الأرض بلا عجلات. ثم بعد برهة. خرج رجل مشدود عضلات الجسم. على رأسه قبعة حال لونها. ويلبس بنطلوناً متسخاً. وقميصاً عليه رسوم قيثارات ونوت موسيقية وكان حافياً. وقف في ضوء الشمس. ونظر نظرة فاحصة الى «اركادي». ثم خفض رأسه بوقار. ضرب الكلب فكف عن النباح.

خاطبه «اركادي» بلغة «والبري» اصغى الرجل صامتاً. ثم اختفى وراء المشمع.



بقلم الطبيب صالح

● قلت لـ «اركادي» انه يذكرني بهيلا سلاسي.

- أكثر هيبية.

● أكثر هيبية. صدقت. بكثير. هل يعود؟

- قال «اركادي».. «أظن».

● هل يعرف الانجليزية؟

- نعم. ولكنه يابى أن يتحدث بها. الانجليزية ليست لغته المفضلة.

علمت من «اركادي» ان سوء الحظ شاء لقبيلة الـ «كاييتيجي» ان تقطن عند ممر خط التلغراف. لذلك اضطروا للاتصال بالبيض مبكراً. تعلموا صنع السكاكين ورموس الرُمَاح من زجاج الموصلات السلكية. اراد البيض ان يرعبوهم ليكفوا عن ذلك. فقتلوا عدداً منهم. أخذ الـ «كاييتيجي» ثأرهم فقتلوا عدداً من البيض. كنا قد مررنا من قبل. بقبر عامل التلغراف. الذي استطاع وهو في الرمق الأخير. ان يدق على التلغراف رسالة الى زوجته في «ابليد». كان ذلك عام ١٨٧٤. وقد اصيب بطعنة رمح. ظل البوليس يقتل الـ «كاييتيجي» انتقاماً حتى عام ١٩٢٠.

راى «الآن» وهو صبي. اباه واخوته يقتلون رمياً بالرصاص.

● تقول انه آخر من بقي منهم؟

- آخر من بقي من عشيرته. نعم. في هذه الناحية.

استندنا الى جذع شجرة صمغ. واخذنا نتابع الحياة تسري في المخيم ميفس. وروبي. ذهبتا لزيارة صديقاتهما «بُخ توم» استسلم للنوم. «بتي» يجلس القرفصاء. ويتنسم.

الأرض عطشى. يابسة. مشقة. صف طويل من النمل. يدب نشاطاً على مقربة مني.

● قال «اركادي» فجأة. «ابن» «ماذيون»؟ كان يجب ان تصل منذ ساعات. على اي حال. لنصنع الشاي..

جمعت الحطب. واوقدت النار. واخرج «اركادي» عذة الشاي من المتاع اعطى «بتي» شطيرة لحم فالتهمها في الحال. وطلب شطيرة أخرى بطريقة رجل تعود أن يأمر قبطاً.

كاد الماء يغور. حين طرقت اذاننا فجأة ضوضاء كبيرة في المخيم. ونولت النساء. وركضت الكلاب. واسرع الاطفال والكلاب يبحثون عن مكان يحتمون به. رابنا صرخاً عالياً من غبار احمر يدهمنا.. اعصار الـ «ولي-ولي».

تقدم الاعصار وهو يدوي ويزمجر. امتص في جوفه اوراق الشجر والحطب وصفائح الحديد. ودفعها الى اعلى والتف حولها مثل حلزون. وكس ارض المخيم وعبر الطريق.

لحظات. ثم سكنت الضجة. وعاد كل شيء كما كان.

بعد قليل. قدم علينا رجل في اواسط العمر. ويلبس قميصاً أزرق. سماوي الزرقة. رأسه عار. بلا قبعة. على رأسه شعيرات قليلة. بيضاء. جعدة. وكذلك

٧٠ نحو أفق بعيد

بالحقيقة. سوف يتضح لنا حينئذ ان قصة يحكيها شمس ما عن جبل او نهر او شجرة، ليست لغواً تافهاً، وانما هي تعبير عن احداث حقيقية، في نظرهم، بطريقة رمزية مجازية.

وهكذا حين تواجهنا تلك الصخور الضخام في وسط استراليا، المسماة بصخور «أورو»، سوف يواجهنا في آن واحد، جسم مادي في هيئة صخور، وايضا وجود ميتافيزيقي هو عبارة عن الاساطير والرموز التي تحيط بتلك الصخور. ولا يبعد عن فهم الـ «ابوروجينيز» ان الصخور تكونت بفعل عوامل الطبيعة من شمس ومطر ورياح، ولكنهم يعتقدون ان ذلك لم يحدث ضربة لازب، وان قوى الطبيعة تخضع لقوى خفية تنفخ روحها في الاشياء وتحدد مسارها..

هكذا صار الفراغ الممتد في الطبيعة ينطق بلسان المجاز الاسطوري. لم يعد عراء لا حياة له، ولكنه أصبح «ببلوغرافيا»، سجلاً غنياً بالمعاني، لشعب يملك ذات قوة لا يفلت منها شيء، وحاسة مرهفة قادرة على توصيل المعلومات طازجة غضة كما جاءت اول مرة.

لا يجوز ابدا الاستخفاف بملاحم الشعب وطقوسه. ان القاص الذي يروي تاريخ الحلم لموقع من المواقع التي تحيط بتلك الصخور، يقوم بدور خطير قدر له منذ ولد. وكل موقع له قاص. فاذا كان القاص من قبيلة «الارنب»، مثلاً، فان مهمته ان يتذكر الاساطير الخاصة بموقع قبيلته، ويوصلها الى بقية افراد القبيلة اثناء الاحتفالات الطقوسية التي تلت ذلك الموقع. وكذلك القاص من قبيلة «النعبان»، وقبيلة «الكانغرو»، وغيرها.

على كل واحد منهم ان يوصل ادق تفاصيل الحلم الى افراد قبيلته، كي يشاركوا جميعاً في استرجاع اللحظة البكر في الزمن الاول، وحتى تستطيع القبيلة ان تضيف حلمها الى احلام القبائل الاخرى.

تلتقي قبائل القطر جميعاً في مواسم معينة تجيء من الانحاء. تعسكر في موقع خاص له دلالة عندهم. تنضم احتفالات من الطقوس والرقص والغناء. كل قبيلة تحكي تفاصيل حلمها وتستمع الى احلام الاخرين. كل قبيلة تضيف جزءاً الى ذلك النسيج الواسع الذي يسمونه «زمن الحلم»... نسيج متنوع الاجزاء يسع القبائل جميعاً. ■

(للحديث بقية)

يقول الكاتب الاسترالي «جيفس كوان» في كتابه «اسرار زمن الحلم»:
«علينا ان نفهم كيف يتحول الحيز الطبيعي الى تعبير ميتافيزيقي عامر بالمعاني، معبراً بذلك اصدق تعبير عن الروح المميزة للشعب الـ «ابوروجينيز». وحتى يتسنى لنا ذلك، فلا بد لنا من ان نكف الانغاز والاسرار التي تحيط بتاريخ الارض والشعب. وعلينا بادىء ذي بدء ان نطلق عنان خيالنا، ونتعوذ على التفكير بالرمز والمجاز.



بقلم الطيب صالح

لا نجدنا ان نستمع الى صوت الطبيعة، من وراء حجاب الحكمة الاوروبية، تلك المادة التي استسلمنا لها منذ انهيار الروحانية الدينية النخبوية في القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر. كل ما نلناه هو اننا قطعنا الصلة مع منابعنا الروحية العميقة، وفقدنا القدرة على ان نرشف السمع لتلك الاصوات الخفية الغامضة التي تحيط بنا على الدوام.

تلك القدرة على النظر الى المحسوسات المادية في الطبيعة، كانما من موقع خارج الزمن، هي قدرة يتميز بها الـ «ابوروجينيز» بدرجة خارقة. انها بحق رهبة اتاحت لهؤلاء القوم العيش والاستمرار منذ اقدم العصور. ويمكن القول ان ثقافة الـ «ابوروجينيز» هي اقدم ثقافة ابتدعتها الانسان، وانها اكثر الثقافات صلابه، وانها عاشت دون ان ينال منها التشويه الذي يرتبط بما يطلق عليه «انحلال الثقافة». تلك فكرة اوروبية طارئة، فحتى وصول الاوروبيين في القرن الثامن عشر، ظلت ثقافة الـ «ابوروجينيز» التي عاشت على الاربعين الف عام، تعطي الدعم الروحي اللازم لمجتمع في اوج ازدهاره الاجتماعي والوجداني.

علينا ان نعي كيف نظر الـ «ابوروجينيز» الى الارض وماذا وجدوا فيها. علينا ان نغير نظرتنا الى المثلوجيا على انها نوع من التعبير البدائي المتخلف، ونقبل بانها لغة ميتافيزيقية بالغة التعقيد للتعبير عما يمكن ان يُسنى

مناقشة



بقلم الطبيب صالح

ربما يغفر المرء بعض الغفران لأوروبا، ما الحق استعمارها بالبشرية من أضرار جسيمة، أنها انجبت على مر العصور رجالا شرفاء ونساء، دافعوا بشجاعة عن حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها، وكانوا في أحيان كثيرة يلقون في وجه تيار قوي مناهض لهم

من هذه الزمرة الكريمة، برؤسهم، جي كيرنان، استاذ التاريخ الحديث في جامعة أدنبره، سابقا، لقد صدر كتابه المهم «سادة الجنس البشري»، أول مرة عام ١٩٦٩، كان الاستعمار الأوروبي قد أخذ ينحسر حينئذ، ولكنه لم ينته تماما، وكانت المبررات الخلقية والفكرية للنظام الاستعماري - ما تزال سائدة، لذلك كان برؤسهم، كيرنان، من العلماء الأوائل في أوروبا، الذين دمغوا، بأسلوب عميق مؤثر،

الوحدانية التي أظهرها الأوروبيون، في فرض نفوذهم على شعوب آسيا وأفريقيا والأمريكتين، وكان أيضا من الأوائل الذين نوهوا بأن ثقافات الشعوب التي اعتبرها الأوروبيون بدائية، تنطوي على حكمة إنسانية عميقة، لا تقل أهمية عن الحكمة الأوروبية، بل تفعلها في كثير من الأحيان

يقول برؤسهم، كيرنان، في الفصل عن شعب الـ «أبوروغينيز» في استراليا، الاعتقاد بأن ما يسمى بالشعوب المتخلفة، لن تستطيع أن تستجيب لمطالبات الحضارة، ولا سبيل أمامها إلا الانقراض، كان اعتقادا شائعا لدى كثيرين من ملانغ الاستعمار الأوروبي، ولم يكن بين قبول هذا الافتراض، والتعجيل بذهاب تلك الشعوب إلى العالم الآخر، إلا خطوة قصيرة، هذا ما حدث في جزيرة «تسمانيا» بشكل لم يسبق له مثيل، منذ أن فتكت جحافل الإسبان بجزر البحر الكاريبي...

وفي الأرض الأم (أستراليا) أخذت بشاعات مماثلة تتكشف يوما بعد يوم، لعلها لم تصل إلى حد القضاء قضاء مبرما على الأهلين، في شكل «حل نهائي»، كما حدث في «تسمانيا»، لم يستطيعوا ذلك، لأن الأرض كبيرة، انتشرت فيها قبائل الـ «أبوروغينيز» على مساحات واسعة، ولأن البيض أرادوا أن يلقوا على أعداد من الأهلين، كطبقة من الأرقاء، ولا ريب أن نظام «المهجرين الجرمين»، كان له أثر عميق على نظرة الأوروبيين إلى الـ «أبوروغينيز».

في عام ١٨٣٤ وحده، نُفي إلى استراليا من هؤلاء السجناء، أكثر من خمسة آلاف ولما احتجت سلطات «نيوساوث ويلز» أنها لن تستطيع استقبال المزيد منهم بعد عام ١٨٤٠، صاروا يتفوقهم إلى غرب استراليا حتى عام ١٨٦٧، ولما توفى المكان مجموع السجناء الذين ابعدوا إلى استراليا، قد بلغ ١٣٧،٦١ أي ما يقارب نصف تعداد السكان السود، ولا شك أن كثيرين من أولئك السجناء كانوا أفضل أخلاقا من القضاة الذين ادانهم ولكنهم فسدوا بعد ذلك بالعيش في مناخ اجرامي، وفي ظل النظام الاستعماري، كان هؤلاء البيض يجدون عزاء في احتقار الملونين، وكان السجناء المعتقون يحاولون أن ينفذوا الثقة بأنفسهم ويكسبوا الاحترام، بالإعلان في تعذيب السود واضطهادهم وكانت جماعات من السجناء، تعمل تحت الحراسة المسلحة عند كبار الملاك من المزارعين، فلا غرو أنهم وقد استعبدوا أبناء جلدتهم من البيض، لم يكونوا يجدون في قلوبهم قطرة من الشفقة على شرادهم من السود.

احس «شارلز دارون» بالرضى أول مرة زار فيها استراليا، من مظاهر التقدم الذي تُم بفضل نظام السخرة، مثل إنشاء الطرق بكلفة زهيدة، ولكن احساسه تغير في زيارته للأحقة، لقد احس حين اقام في مزرعة يعمل فيها أربعون من السجناء، أن نظام السخرة، سوف يفسد المناخ الاجتماعي، وأن السلوك الاجرامي الشائع سوف يُعدي الواهدين الجدد، وأن الفساد الاجتماعي سوف يتسع ويستمر

كل من سهل على البيض أن يمتنعوا أولئك القوم الوديعين المساكين، أسهل كثيرا مما تأتي لهم مع قبائل الملوري الشجعان الاثنا عشر، وهو امر ان دل على شيء فانما يدل على ضعف الاثر المسيحي على سلوك المستعمرين، كانت استراليا مثل نيوزيلندة، أرضا لا تكفل رغد العيش الا لأولئك الذين يملكون نواصي التكنولوجيا المتقدمة، وأنه لا يدعو إلى الإعجاب حقا، أن الـ «أبوروغينيز» نجحوا رغم مهاراتهم المحدودة، أن يستمروا في العيش أصلا، ولا جدال، أنهم استخدموا ما تيسر لهم من مهارات، أحسن استخدام.

كانوا صيادين على درجة عالية من المهارة، وقد ابتدعوا سلاح الـ «بومرانج».

نحو أفق بعيد

الدهش، الذي لم يستطع البيض رغم تفوقهم التقني، أن يبتدعوا مثله، أصبح ان الحرب كانت تنشب أحيانا بين القبائل ولكنها كانت حروبا صغيرة قليلة الضرر، ولم تكن تحدث الا قليلا، بسبب اتساع الأرض، وبعد القبائل بعضها عن بعض لم يحس الـ «أبوروغينيز» بالخوف من الرجل الأبيض أول ما التقوا به، فقد كانوا قوما ودودين، لا يعرفون الخوف، بعضهم ينق ببعض، وقد وثقوا بالرجل الأبيض وظنوه «أخا» في الإنسانية، بل إن قبيلة منهم ظلت الرجل الأبيض روحا من أرواح أسلافهم بعثت إلى الحياة على تلك الصورة، أما الرجل الأبيض فقد كان أبعد ما يكون عن اعتبار انسان الـ «أبوروغينيز» أخا في الإنسانية

لم يحس الرجل الأبيض بحاجة إلى إخفاء احتقاره أو السيطرة على غطرسته، إزاء «الاهالي»، العزل من السلاح الذين لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم، وقد أصدر قائد حملة استكشافية عام ١٨٦٠، وهو رجل يدعى «بيرك»، الأوامر إلى رجاله:

«إذا احسستم منهم بأي استفزاز، لا تترددوا في إطلاق النار عليهم في الحال

انه لا امر يدعو للعجب أن الرجل الأبيض كان يشتط غضبا، إذا أبدى «الاهالي» أي استعداد للمقاومة، وإذا تفرقوا خوفا من طلقات الرصاص، يحتقرهم منها ابامهم بالجين، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء القوم يؤسساء، يقدرون على الأوروبيين الوانا من الرافة والشفقة حين يجدون احدا منهم في شدة، كانوا يرافون بهم كما يرافون بأطفالهم، وقد اعتنت مجموعة منهم برجل يدعى «كنج»، ضل الطريق فاقام في ضيافتهم وعنايتهم زهاء شهرين، وقد قال كاتب معاصر (الآن مؤرّخ) ان المذكرات التي تركها «كنج»، عن تجربته تعد «أروع سجل للعرفان الجميل»، وهي كلمات تهز المشاعر وتقدم خير دليل على إنسانية «أبوروغينيز» ولعلها أيضا بمثابة مرآة للسود في «خليج كوبر» بعد أن انقضوا الآن كلية.

اقطع المستوطنون البيض، الذين وصلوا حديثا على اثر الرواد المكشوفين، مساحات واسعة من الأرض جعلوها مراعى لتربية الإغنام والخيول، كانوا... شرسا من الرجال الذين جابوا الأفق بحثا عن الثروة وكانوا يمتنا عن أي سلطة من غطرستهم، وقد وجدوا في استراليا قوما يختلفون عن الملوري الإنداء، فساح لهم استعمارهم، ولم يجدوا ما يحملهم على الاعتراف بحقوقهم في ملكية الأرض، كانوا يسخرون أعدادا قليلة من الاهالي في أعمال بغضبة، هؤلاء كانوا ينفصلون عن قبائلهم بمرور الزمن ويصبحون «مدجنين» في نظر البيض، أما بقية الـ «أبيو»، كما كانوا يستوهم احتقارا فكانوا يتركونهم هملًا مثل الوحوش الضالة.

أما النساء فقد كان أمرهن مختلفا، هؤلاء عندهن دائما شيء يُطلب، ومهما أمعن البيض، هنا وفي جنوب افريقيا، في احتقار، الاحتسا المنحطة، فإن هذا الاحتقار لم يمنعه من معارضة نساءهم، لذلك فإن غالبية الملونين في تلك البلاد اليوم، هي من دماء مختلطة

ماذا يفعل الناس حين تغتصب منهم أراضيهم غير اللجوء إلى النهب، حينئذ، البيض المقتصبون مبررا أخلاقيا في إبادتهم، أما رعايا بالخصوص، أو بالشعب أو بـ وسيلة فعالة في عرفهم، وكانوا يقولون أن السود ليست لهم أرواح، لذلك فإن التخلص منهم لا يعتبر قتلًا.

ثارت احتجاجات في إنجلترا من قبل الناس الذين يحتجون عادة على مثل هذه الامور، ولم يدموا من يستمع اليهم، ففي عام ١٨٣٧، أعلنت لجنة برلمانية كان مسير «جلادستون» احد اعضائها عن استنكارها للاعمال البشعة التي كان البيض يمارسونها ضد السود في استراليا، ووصفتها بأنها «من البشاعة بدرجة لا يقبلها العقل»، وقد وجهت الحكومة البريطانية من لندن نداءات استنكار إلى استراليا، لم يكثر لها المستوطنون، وحين فُتحت استراليا الحكم الذاتي عام ١٨٥٥ - ١٨٥٦ انتهت أي سيطرة لبريطانيا على مجريات الأمور هناك، لم تحتفظ الحكومة البريطانية بأي حق في حماية الاهالي وضمان حقوقهم، في حين انه ضمنت لنفسها جني الأرباح من الاستثمارات واستيراد لحوم الضأن، دون أن تكلف عناء السؤال عن الوسائل التي تجيء بها تلك الهبات

سادت في أوروبا كلها في ذلك الوقت فلسفة روج لها ممثلو الاستعمار في تلك البلاد المقهورة، أن الشعوب «المنحطة» لا مفر لها من أن تستبدل، بل إن تتفرض في النهاية، وأن ذلك امر طبيعي مثل ضخاب المناجم ومصانع الغزل في أوروبا، لا بد أن يصير التقدم ولا بد من دفع الثمن لهذا التقدم والافضل ان يدفع آخرون هذا الثمن، وهكذا نجد «لودر روزييري»، الذي استدرج حزب الاحرار إلى تبني الامبريالية يستلهم هذه الفلسفة في خطابه الذي القاه في «أديد» بأستراليا عام ١٨٨٣

«أن الأقدار قد اختارت العنصر البريطاني ليحمل الرسالة ويكون معبرا عن امال البشرية في الرقي والتقدم».

هكذا طغت في استراليا، ليس فكرة «أخوة الانسان»، ولكن فكرة «أخوة الانسان الأبيض».

الملك

نحو أفق بعيد ٧٢

تُسايِرُها النُّيرانُ في كل مسلح
به القومُ صرعى والذِّيار طُلُول
وكرُت فمرُت في دماء ملطية

ملطية أم للبينين تكول
كل هذا راه الشاعر قبل أن يحدث حين رأى الليل قتيلاً بـ «درب القلة» أو
بالأحرى رأى قتيلاً في الليل . في تلك اللحظة كان الشاعر منتصراً ومهزوماً .
قاتلاً ومقتولاً مشاركاً في الأحداث . ومبتعداً عنها مراقباً لها .

يقول المؤرخون أن سيف الدولة عبر الفرات إلى دلوك إلى قنطرة صنجة إلى
درب القلة . فشن الغارة . فعطف عليه العدو . فقتل كثيراً من الأرمن ورجع
إلى ملطية . وعبر قباقب حتى ورد المخاض على الفرات . ورحل إلى سميساط .
فورد الخبر بأن العدو في بلد المسلمين . فأسرع إلى دلوك وغيرها . فادرك
جيش العدو راجعاً إلى جيحان فهزمه وأسر قسطنطين بن الدمشقي وخرج
الدمشق على وجهه .

كل هذا راه الشاعر رأي العيان في الواقع . وكان قد راه بعين الشاعر قبل
أن يحدث . فكان القتل الذي لقيه بدرب القلة لم يكن قتيلاً واحداً . بل
جموعاً من القتل لما يزالون في ضمير الغيب .

كان النصر غالباً سالت فيه دماء كثيرة . من الروم ومن العرب أيضاً .
والشاعر يرمو بنصر العرب . وفي الوقت نفسه لا يعدم الرثاء على العدو
المهزوم . كيف لا وهو يسمع ولولات النساء وأنات الجرحى . وأنا لا أجد
شعائت في هذين البيتين . اللذين يخاطب بهما الدمشقي . وقد نجا بنفسه
وترك ابنه للأسر . بل أجد عاطفة لا تبعد عن الحزن .

نجوت بأحدى مهجتيك حريجة
وخلفت إحدى مهجتيك تسيل .
أتسلم للخطية ابنك هارباً
ويسكن في الدنيا اليك خليل ؟

الحزن . حتى في مثل هذا الموقف . لا يستغرب من هذا الشاعر العظيم .
فهو خبير بأحوال الناس . عليم بتقلبات النصر والهزيمة . وقد عانى ما
عانى . مهزوم حتى في أوقات انتصاره عليه . كما قال الزأفني . سيماء الملك
المخلوع

لذلك تجده ينصرف فجأة عن مدح سيف الدولة . ويلوذ بنفسه . في أبيات
مُتعبة كأنها لا تمت إلى القصيدة بصلة . وكأنها قصيدة منفصلة . يبدوها
متحدّياً .

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس بوقات لها وطبول
يقول الشارح في معنى هذا البيت : يقول إذا كنت سيف الدولة . فإن غيرك
من الملوك بمنزلة البوق والطبل . أي لا يغنون غناكم ولا يقومون مقامك .
هذا كلام لا نفع منه . إلا أن الشارح يضيف دون أكثر

«وقال العروضي : أراد بالبوق والطبل الشعراء الذين يشيعون ذكره
ويذكرون في أشعارهم غزواته ...»

صدق العروضي . فهذا ما قصده إليه الشاعر . وقد عنى نفسه على وجه
الخصوص . انتظر كيف قلل من شأن سيف الدولة . بعض الناس .. سيها ..
لدولة . ثم انتظر كيف رفع من شأن نفسه . فصور أنه طبول تدوي وبوقات
تصك الاسماع . وكان حزيناً وكان مهزوماً . لأنه كان يدرك في قرارة نفسه . أن
الامير في واد وهو في واد

•••••

رحمك الله . لقد وقفت وقفةً . وجوديةً . كما يقال هذه الأيام . في لحظة
كانها خارج حدود الزمان والمكان . في ليل ليس كالليل . وراه فجر ليس
كالفجر . تحمل ثاراً غامضاً . وطموحاً لا يحد . وحباً مثل البغضاء . وغروراً
بنفسك لا يفرك عليه أحد . الفجر لم يشف كمدك كما زعمت . بل زادك كمداً
سمعت أنين الجرحى ورأيت دماء القتلى . وإذا كنت قتيلاً بعد ذلك . فلعلك
رأيت دمك ينتشر في الأفق . ويتشكل على هيئة فجر يخرج من جوف الظلام

هل ظننت أنني انصرفت عنك بكل
ذلك الحديث عن شعب الهامورو جنين
الوديع ؟ معاذ الله . لعنني أطلعت
فيه . لأن الأسى يبعث الأسى . معاذ الله
يا سيدي . فقد كنت معي أبداً . وأنا
أجوس هذه الديار التي أقامها قوم على
انقراض قوم . أرى وأسمع وأحزن كما
قال البحري

ذاك مني وليست الدار داري
بالتقارب منها ولا الجنس جنسي
وكثيراً ما جال في خاطري بيتك
العجيب . الذي لا يبدو أن له صلة
بهذا المقام . لا أدري لماذا . كيف قلت .
غفر الله لك ؟



بقلم الطبيب صالح

لقيت بدرب القلة الفجر لقيت
شفقت كيدي والليل فيه قتيلاً
أنني لقيت الفجر بعد ذلك . بين «سذني» و«طوكيو» . فمأذا أردت من
تذكيري بقولك هذا الآن ؟

يقول الشيخ ناصيف البازجي في شرحه :
«درب القلة موضع وراء الفرات . والدرب كل مدخل إلى بلاد الروم .
والقلة أعلى الجبل . وقوله والليل فيه قتل حال . ويروى «شفقت كيدي» .
أي أنه بدا له الفجر عند هذا المكان فاشتفت كبده بانصرام الليل كما يشتفي
العدو بنكبة عدوه . وجعل الليل قتيلاً لظهور حمرة الشفق عند انقضائه
فتسببها بالدم . انتهى .»

وربما يكون «درب القلة» هذا . هو الموضوع الذي عبر منه امرؤ القيس إلى
بلاد الروم . وقال في ذلك بيته المشهور :
بكي صاحبي لما رأى السدر دونه

وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
وقد حدثني العالم الموريتاني الجليل . الشيخ سالم وذ عذود . أن
«الدرب» في قول امرؤ القيس . تعني الحدود الفاصلة بين بلاد الحرب وبلاد
الروم . ويرى استاذنا العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد . أن «الدرب» مكان
بعينه . ومهما يكن فإن «قتل الليل» الذي راه المتنبي في ذلك الموضوع . أمره
عجيب .

أما الشيخ عبد الرحمن البرقوقي . فإنه يشرح البيت كما قال البازجي .
حذوك النعل بالنعل . ولكنه يزيد :
«يقول ابن جني : سألته . يعني المتنبي . عن معنى هذا البيت فقال : -
«أفينا القلة في وقت السحر . فكانت لقيت بها الفجر . ثم سرنا صبيحة ذلك
اليوم إلى العصر أربعين ميلاً وشننا الغارات وغنمنا وشفيت كمدتي لانحصار
الليل عني . والليل قتل في ذلك الموضوع . فكان النهار لما أشرق بضوئه على
الليل قتله وظفريه .»

أن كان المتنبي حقاً قال هذا الكلام . وأن ابن جني فهم عنه قوله تمام
الفهم . فلا بد أن الشاعر أعطى مريدَه ابن جني . بمقدار . فكل من أطل
صحبته هذا الشاعر العبقري . يدرك أن الأمر أجل من محض ليل ينحصر .
ونهار يطلع . وضوء يفتك بالظلام . ولا يغيب عن البال . أن القصيدة
تتحدث عن صراع دموي بين قوى الخير والشر والحب والبغضاء والثار
والأخذ بالثار . هذا قتل عظيم : حتى الحب دونه الموت .
يحزُّه لمع الأسنة فوقه

فليس لمشتاق إليه وصول
ما أغزى الدماء في هذه القصيدة . دماء تغيض حتى تصبح طوفاناً تخوض
فيه الخيل . -

فخاضت فجيع الجمع خووضاً كأنه
بكل نجيع لم تخضه كفيل

(للحديث بقية)

٧٤ نحو أفق بعيد

وكان الرجل أراد أن يلوذ بي فيرتاح من منسي، برهة، فوجه كلامه إلي هذا هو راك أنت أيضاً يا مستر صالح؟

لقد احدثت عبارة منسي، اثرًا، هذا لا ريب فيه، خاصة بتشويه السمعة، الاستراليون ايضا يحسبون احياناً أن العالم لا يابه بهم، ولا يقدرهم حق قدرهم، ويتعامل عليهم في كثير من الاحيان، لا تكاد توجد امة، ليس في تاريخها شيء يسبب لها الحرج أو الخزي، اليابانيون، ومعاملتهم للأسرى في الحرب العالمية الثانية، الألمان وما فعلوه باليهود وغير اليهود، الأمريكان وضرب هيروشينا وتاجازاكي بالقنابل الذرية الفرنسيون وما فعلوه في الجزائر، الانجليز الذين ابتكروا معسكرات الاعتقال، وما فعلوه في فلسطين وأفريقيا، والرؤس والصين والاسبان والبرتغال وهلم جرا، قليلة هي الامم التي ليس في تاريخها عمل تتمنى لو لم يكن، لماذا اذا تلقى الأوزار على العرب، وكيف اصبحوا وكأنهم، الجنادة، في التاريخ؟ لعل العرب يسألون انفسهم اولاً، قبل ان يلوموا الآخرين.

قلت له

لا اعرف على وجه اليقين ماذا تقدمون في برامجكم في الاذاعة والتلفزيون، فانني لم اقض وقتاً كافياً هنا، ولكن بعض ما شاهدته، خاصة في نشرات الاخبار، يجعلني اعتقد أن دكتور مايكل ليس مخطئاً، اما صحفكم، فمن الواضح أنها تتحدث عن العالم العربي، اما عن جهل، او عن سوء قصد...

وكان منسي، كان يقرأ فكري، فقد اخذ الفكرة التي كنت أنوي ان اطرحها، وانطلق بها.

نعم، صحفكم على وجه الخصوص، لا يفتح الإنسان اي صحيفة الا ويجد ذكراً لذلك الفلم الثاقف الذي كله اكاذيب، ولا هدف منه سوى الاساءة للعرب..

كانت تلك هي القضية تلك الايام، الشغل الشاغل لوسائل الاعلام، في أوروبا وفي أمريكا وحتى في استراليا، مثل قضية سلمان رشدي، هذه الايام، كل حين يخرجون بشيء جديد، يشغل الناس ويثير الجدل والبلبله.

قال احد المسؤولين:

على اي حال، الخطأ خطؤكم انتم، والتقصير منكم انتم، لا توجد مؤامرة، للاساءة للعرب كما تتوهمون، الامر ليس أكثر من عدم توفر المعلومات المطلوبة في الوقت المناسب، انتم لا تساعدوننا، ولا تساعدون اي احد، في الحصول على المعلومات، بل كثيراً ما تخلقون العراقيل، وسائل اتصالكم لم تفهم بعد، ان العالم مترابط، والعصر عصر معلومات..

واضاف المدير العام ضاحكاً، وكان اميلهم الى الضحك:

ثم ان العرب يفعلون أشياء غير لطيفة احياناً، فماذا تريدوننا ان نفعل؟ نتستر عليها؟ نفرض عليها رقابة كما تفعلون انتم؟..

لم يدع منسي، هذا القول يمر دون رد، فلم يكن ذلك في طبيعه، ولكنه سارع الى القول، وهو يضحك بخبث، كما تخيلت:

وهل ما تفعلونه انتم، لطيف دائماً؟

رفع الرجل يديه كمن يستسلم في معركة، وقمنا من المائدة، وكل منا يبتسم او يضحك، وكان منسي، اكثرنا سعادة، فقد حمل لواء العروبة خلفاً في ذلك الركن القصي من اركان المعمورة، أحسن أداء دور لم يكلفه به احد، ولم يتل عليه أجراً ولم يجن من ورائه شكراً، فقط، استمتاع مجرد بأداء الدور، لا أكثر.

كانوا رجالاً لطيفين بحق، قلنا لعلنا تركنا عندهم الفكاراً قد تنمر ولو بعد حين، كان منسي، يحب هذا القول ويردده كثيراً:

أزم الخير على وجه المياد، ينمّر ولو بعد حين، ثم ونحن نسير في الممر الطويل، اذا بذلك الشاب

استوقفه منسي، وسأله

اسمع يا اخ، أنت عربي، مش كده؟

نعم، كان عربياً، وكان فلسطينياً مهاجراً، يعمل في هيئة الاذاعة الاسترالية، اسمه ابراهيم الخوري، اذا لم نخفي الذاكرة ■

(للحديث بقية)

قال منسي، فجأة، ونحن نمشي في ردهات هيئة الاذاعة الاسترالية، بصراً طبيب أو كذا لك الشاب دا عربي، قبل أن أمعن فيه النظر، كان منسي، قد جرى نحوه.

اسمع يا اخ، أنت عربي، مش كده؟

كنا خارجين لتوننا من اجتماع على الغداء، مع المدير العام لهيئة الاذاعة الاسترالية، وعدد من المسؤولين - دخل منسي، مبتسماً، وخرج ضاحكاً يقهقه، ولعله تذكر ايامه في هيئة الاذاعة البريطانية في لندن، حين كان يلهث في سيارته الـ «تيل»، من «كفرشام» الى «بوش هاوز»، يترجم ويمثل، لقاء جنينيات معدودات، ورغم سعة حيلته فانه لم يصل الى المدير العام، الذي كان يجلس في افق بعيد المنزل، ما اطول الطريق الذي قطعه، هذه ايضا هيئة، وهذا ايضا مدير عام، يدخل مبتسماً، عليه معطف من الفراء، وبذلة، من الصوف الفاخر، وحذاء ايطالي من الجلد الغالي، لعلها «قوچي»، هذا منسي، اخ لم لا يعرفه، ولكنني اعلم انه في اعماقه لم يتغير، وان هذا المظهر البراق، مثل الزي المستعار الذي يرتديه الممثل ليؤدي دوراً على المسرح.



بقلم الطبيب صالح

رحمه الله، انه الآن يمثل دور السفير، المدافع عن كرامة العرب وسمعتهم، وهو دور لم يكلفه به احد، ولم يتقاض عليه أجراً، وقد اذاع احسن أداء، ونهض به على خير وجه، ولعله كان محقاً، فلو ان احداً كلف بدور مهم، ربما كان يؤديه على خير وجه، ولكن احداً لم يطلب منه اي شيء، كل الادوار التي اداها، انتزعها انتزاعاً.

تحدث اثناء الغداء كانه مسؤول عربي كبير، قد يكون مستشاراً لحاكم او رئيس دولة، تعدد ان يترك الامر غامضاً، وكان كعادته، يخلط الجد بالهزل، والصدق بالكر، تسعفه فصاحته في اللغة، وبديته الحاضرة، ومواهبه الكامنة.. وكان حين يحس انه في ورطة، ينظر الى بتلك الطريقة التي توحى بانني معاون له، وذلك، كما قلت، دور راق لي، فقبلته عن طيب خاطر، لانه اتاح لي فرصة نادرة اشارك في الحديث، وراقب منسي، فكانتني ممثل ومتفرج في الوقت نفسه.

شرق بنا الحديث وغرب، وكنا بين اناس مهذبين مستنيرين، يقرعون الحجة بالحجة، ويدافعون بلطف، ويجادلون بذكاء، لذلك حين قال منسي، هذا، لم يكن وقحا ولكنه تحذق وكانه يعزج: من الواضح لنا ان وسائل اعلامكم ليست اكثر من صدى للاعلام الغربي، نفس التصاميل علينا، والازدراء بنا وتشويه سمعتنا، انها اشياء اصبحت مملّة.. تعودنا عليها..

ضحك وهو يقول، تشويه سمعتنا، وقد استعمل التعبير عمداً، بداهة شديد، كما خيل لي، بدلاً من التعبير المألوف، تشويه صورتنا، لم يكن قد قضى في استراليا اكثر من اربعة ايام، ولم يكن قد زار البلد من قبل، وليست له معرفة عميقة بما يجري فيه، انما تلك كانت صفة في طبيعه، يقول دون مبالاة، ويرمي الزميمة قد تصيب وقد تخطيء.

كان واضحاً في انهم بوغتوا بقوله، ولكنهم كانوا رجالاً انكباء ذوي ذريرة، فسارعوا الى تغطية احساسهم بوسائل شتى، بعضهم ابتسم، وبعضهم ضحك، وقال المدير العام:

انتظر يا دكتور مايكل! هذا ليس عدلاً! انت تعلم ان هيئة الاذاعة الاسترالية مؤسسة مستقلة، لا تخضع لأي نفوذ، حتى الحكومة ليس لها سلطة عليها، انها مؤسسة محايدة تماماً.. نحن نغطي الشؤون الدولية بموضوعية كاملة.. لا يوجد اي سبب يجعلنا نتحامل على العرب، او.. تشويه سمعتهم كما تقول..

واقعة

نحو أفق بعيد ٧٥



بقلم الطبيب صالح

زارنا الشاب الفلسطيني في الشَّل، مساء ذلك اليوم. كانت حقارمية موفقة من «منسي». فقد أصبح ذلك الشاب دليلاً فيما بعد، فتح لنا كثيراً من الأبواب، وذلّل لنا كثيراً من الصعاب. وأخذ يأيدنا في طرقات البلد الغريب، وعزّفنا على الجالية العربية في «سدني». وقد أضف «منسي» تلك الحسنة، إلى القائمة الطويلة من أفضاله عليّ، وظل بعد ذلك كلما طاب له المجلس وراق له الجو، يذكرني بأنه بذكائه وقوة ملاحظته أدرك فوراً، ونحن نسير في طرقات مهنة الإذاعة الاسترالية، بعد أن خرجنا من الغداء مع المدير العام، أن الشاب عربي.

«قول لهم يا طبيب. مش دا اللي حصل؟ أنت ماشي مش وأخذ بالك. أنا عرفت في الحال... طبيب بدمتك مش أنا اللي نجحت لك المهمة؟ من غيري ما كنتش حتعرف تعمل حاجة... احكي لهم إزاي أنا بذعت في الغداء بتاع المدير العام الراجل ذهل.....»

كلّ ذلك في الرياض. كلما أزور الرياض الآن، أول ما أصل المطار، اتذكر «منسي». أكاد أراه رأي العين. أول مرة زرت الرياض، بدعوة من الشيخ عبد العزيز وجدته في سيارة كبيرة ينتظر عند سلم الطائرة. ضحك، وكنت أعلم أنه يريد أن يفهمني أن تلك الحفاوة ليست أكراماً لحاطري بقدر ما هي برهان على نفوذه الواسع ويده الطولى. كلفه الشيخ بترتيب أمر أقامتي وتنقلاتي، وهو ينشط لمثل تلك المهام، فقام بذلك على أحسن وجه. كان رفيقي في أول عمرة اعتمرتها، والعمرة الأولى لها رهبة خاصة وذوق لا يجده الإنسان بعد ذلك. أجده كلما عدت إلى تلك الإمكان الكريمة. أراه يسعي بين الصفا والمروة، بجسمه المثلل، وهو يكاد ينوء من الأعياء. أراه مكياً على أستانر الكعبة، ثم وهو نائم في صحن الحرم، بين صلاة المغرب والعشاء، والناس يمشون حوله.

خرج رابحاً من زيارتي تلك، من نواح كثيرة، فقد حجز جناحاً في الهوتيل بجواري، له ولزوجته، وأضف التكلفة إلى حساب زيارتي. كان يفعل ذلك كل مرة. وفي المرات التي لم يقم فيها في الهوتيل، كان ينتهز فرصة وجودي فيحضر ثيابه للغسيل ويبدله للتنظيف.

في الرياض أيضاً، صلياً معاً، لم أكن قد اقتنعت بعد أنه أسلم حقاً. وقفت أصلي صلاة المغرب، جاء ببساطة ووقف معي. يا سبحان الله. كان قبل ذلك أخي، ثم ما هوذا الآن يصبح أيضاً أخي في الله.

لكن هذه هي المرة الأخيرة التي لقاه فيها في الرياض. كان قد وجد عملاً في شركة. لم يكن في حاجة إلى العمل، ولكنه يحب أن يشغل نفسه بشيء. يحب أن يكون له مكتب وحاجب وسكرتير وتلفون. ويا حبذا لو كان ذلك على نفقة شخص آخر. كان يستطيع لو أراد أن يحصل على هذه الأشياء من ماله الخاص.

أقول له:

«يا ابني ما تروح تقعد في عزيتك، في إنجلترا. هل انت محتاج تشتغل بمرتب؟ روح اتمتع بفلوسك قبل ما تموت وبأخذوها الورثة». «أموت؟ أموت دا إيه يا خوي؟ يا ابني احنا لسع ماعملناش حاجة. لسع فاضله حاجات كتير تتعمل...»

لم يكن الموت بخمير بياله. كان مشغولاً بالحياة. يقول ضاحكاً..

«أنت فاكترني بشتغل؟ دي عملية بسيطة ماتأخذش مني ساعة بالكثير الوقت الباقي أعمل فيه أشغالي الخاصة... فين حلاقي كل التسهيلات دي؟ تلتكس وفاكس وتلفونات وطلاعين. وكله ببلاش».

«وإيه هو شغلك بالضبط».

«أحضّر تقارير لمدير الشركة».

«تقارير مالية».

«دا شغل بيعملهو ناس تانيين. أنا مستشار خاص للمدير العام. في حاجات كثيرة. صحافة علاقات عامة اتصالات دولية... حاجات زي دي. أنا الرجل الثاني في الشركة. بعد المدير العام مباشرة. أمال أنت فاكتر إيه... بعمل للمدير العام كل يوم ملخصات من الصحف الأجنبية وتحليلات سياسية والكلام الفارغ دا. أوكد لك أن حتى في وزارة الخارجية ما يعرفوش يعملوا تحليلات

زي اللي أنا باعملها».

«وإيه قيادة الحكاية دي لمدير عام شركة تجارية؟».

«إزاي يا أستاذ؟ أنت فاكتر التجارة بيع وشراء وصادرات وواردات؟ أنت فاكترها إيه؟ دكان بقالة في أم درمان؟ يا ابني دا شغل على مستويات كبيرة. وعلاقات وشغل حليسه والذي منه... ثم أن المدير العام شاب متعلم وبيفهم دا وأخذ ماجستير في إدارة الأعمال من أمريكا... خسارة دا مسافر. كنت عرفتك بيه. شاب زي السكر. كان حبيبتك أوي. أنت عارف أن أبوه يبقى ابن عم... ووالدته... وهو متجوز بنت...»

«سببك من الحكاية دي. بدمتك الشركة دي فعلاً بتستفيد منك».

«ألا تستفيد مني؟ دا المدير العام متمسك بي مش عاوز يسيبني. بيني وبينك أنا ناوي أروح. على رأيك. حاسل إيه بالفلوس؟».

تقلب في أعمال عدة في الرياض. سرعان ما يمل العمل فيتركه إلى عمل آخر. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري، وإبنه عبد المحسن، يرعيانه ويخرجانه من المازق، ويديران له وظيفة كلما ترك وظيفة.

كان لا بد أن أزور مكتبه. أصر عليّ ذلك حتى أرى بعيني كم هو مهم وكم هو ذو حول وطول، وما كنت في حاجة إلى برهان. استقبله السعاة والحجاب والعمال بحفاوة عظيمة فيما يشبه المظاهرة. يمازحهم ويناديهم باسمائهم، وكان واضحاً أنهم يحبونه حباً حقيقياً. هكذا هو دائماً مع صغار الناس. ظلوا يتوافدون عليه في مكتبه. هذا عنده مشكلة إقامة، وهذا يريد منه أن يتوسط له ليبيدوا راتبه، وهذا زوجته مريضة، وهو ينتشل ويكبر بخليط من الزهو بامهنته ويفعل رغبة مخلصاً لمساعدة ضعفاء الناس.

أخذ بلغت نظري إلى اثاث المكتب، كانهم بشر أحياء يريد أن يعرفني بهم. السجاد والستائر والطاولات والكراسي والتلفونات والخزانات ونباتات الظل والأزهار.

«بص يا طبيب. أنت خدت بالك من السجادة؟ أوعى تفكر أنه سجادة عادي. دا سجادة عجمي... تحفة نادرة».

«لا يا شيخ! ويكون بكم؟».

«أوه. مبلغ كبير. أوكد لك أن ثمنه أكثر من مرتبك في سنة كاملة».

«عجيب. وأنت اشتريته بفلوسك؟».

«ليه؟ أنت فاكترني عيب زي ما الجماعة بتتوع مصر بيقولوا على الصعابدة. يا أستاذ دا من فلوس الشركة. أنت عارف أنني أنا الوحيد اللي عنده مكتب زي دا. أصل المدير العام بقدرني جداً... مش عاوز يسيبني...».

لاحظت التلفونات، كل تلفون بلون. ماذا يصنع الإنسان بمجموعة من التلفونات وهو لا يسمع إلا باذن واحدة؟ وماذا يصنع بمجموعة من السيارات؟ لكن «منسي» لم يكن شخصاً واحداً. كان مجموعة أشخاص في جلد واحد.

رايت السيارات مصطفة مثل خيل في اصطبلاتها أول ما دخلت داره في المساء. أصر عليّ أن ياخذني في جولة. أتعرف على معالم البيت، كما يتجول الإنسان في متحف. حمام السباحة... مهم جداً عنده أن يكون في الدار حمام سباحة. كان يحب السباحة، ويسبح مثل عجل النمر. «القرنيتي، كما نقول في السودان و«سيد قشقة»، كما يقولون في مصر. من القراجات وموديلات السيارات. نقل عدداً منها بعد ذلك إلى «عزيتة»، في «سلاوت هامتون». الحديقة... الأشجار... النباتات النادرة... المطابخ... جناح السواقين والعمال والشغيلة... الوصائف الفلبينيات...

«إيه دا كله يا دكتور؟ دي حكاية كبيرة بتحيل...».

«عجبك؟ إيه رأيك أن دا كله ببلاش... علاوة على المرتب».

حتماً كانت الحياة تمزح معه، فالحياة فيما يبدو تعمل كل واحد على طريقته.

كان ذلك آخر عهدي به في المملكة. لم أره سعيدياً كما رأيته تلك الليلة. يضحك ويضحك ويضحك. يحمل ابنته عبد العزيز، الذي يشبهه كأنه نسخة منه، خاصة حين يضحك.

احتفى بنا حفاوة عظيمة، وتبها له جمهور كبير في تلك الليلة، فانطلق لا يلوي على شيء، وأنا أساعده وأنش ذكرياته، وأعطيه أطراف المواضيع.

«أحكي لهم يا طبيب احنا عملنا إيه في استراليا. دا احنا عملنا عمال... قول الحق. مش أنا اللي قلت لك على الشاب أنه عربي... قلت لي خليتنا نروح في حلالنا...».

جاءنا الشاب الفلسطيني في المساء، وأصبح دليلاً بعد ذلك طوال إقامتنا في «سدني». ومن أيديده علينا أنه عرفنا برجل لبثاني، من هؤلاء الناس الذين حين تصادفهم، تحسن أن الحياة قد أسدت إليك جيلاً لا ينسى ■

(للحديث بقية)

٧٦ نحو أفق بعيد

اغلبهم في المدينتين الكبيرين «سدني» و «ملبورن». وكان اللبنانيون اكثرهم عددا، فقد بدأت هجرتهم الى استراليا منذ القرن الماضي، تحت وطأة الحروب والمجاعات، كما يحدث اليوم. بعضهم امتزج بالجاليات الأخرى الوافدة، وآخرون ظلوا يتشبثون بهويتهم اللبنانية، وكلهم يحمل حنيننا دفينا لذلك الوطن الجريح. يأكلون الكبة والتبولة والشاورما، ويغربون لآغاني وديع الصافي وصباح وفيروز.

يليه من ناحية العدد المصريون، وهؤلاء هاجروا حديثا نسبيا، لم يقطعوا بعد روابطهم بمصر، يعودون اليها كلما استطاعوا، وتحس أنهم يفضلون العودة اذا وجدوا الى ذلك سبيلا، وبعضهم يعود بالفعل.

ثم الفلسطينيون. وهؤلاء كما هو معروف، تفرقوا في البلاد ايدي سبا. خرجوا موجات موجات، كلما ألئت بهم قارعة في الوطن الأم، هاجروا طلبا للماوى والامن ولقمة العيش. تجدهم حينما ذهب، في كندا وأمريكا وفي كل بلاد أوروبا، على وجوههم شيء يميزهم عن بقية المهاجرين العرب. اكثر عزمًا واكثر حزنًا واكثر مرارة. يطوون اجنحتهم على حلم، يبدو لهم قريب المثل احيانا، وعسيرا احيانا.

وجدنا ايضا اعدادا اقل من اليمنيين والسوريين والصوماليين والمغاربة وبعض الاقباط السودانيين. ولا بد أن عدد السودانيين قد زاد الآن. وكلهم أصحاب خبرات ومهارات، وكثيرون منهم يحملون شهادات عالية في الطب والهندسة والزراعة وغيرها. وبعضهم اساتذة في الجامعات. ذلك لأن هذه البلاد لا تدخل اليها الا من تستطيع أن تستفيد منه.

وكانما العالم العربي لم يكتف بما فعله بنفسه في عقر الديار، فلاحق هؤلاء المهاجرين بانقساماته وحزازاته واباطيله. ولعلمهم لو تركوا وشأنهم على الأقل، لعل الأحوال كانت تستقر بهم في هذا البلد البعيد. انهم جميعا غرباء هنا، مشغولون بهجوم الحياة، وهم في نظر المجتمع الاسترالي شيء واحد. وربما كان ينتج منهم خير ينفع العالم العربي كله.

لكننا وجدنا صورة طبق الاصل للعالم العربي. الخلافات نفسها، والصراعات نفسها، والتفاهات نفسها. عالم يعوج بعضه في بعض، يتلقى اصدااء الحزازات والاحن والحقاقات في الوطن الأم، ان صبح القول، فكانهم حيوانات فقدت حكمة البقاء الغريزي على الأقل. او كمسافرين في سفينة تصارع الموج، وبعضهم أخذ بخناق بعض.

الأ أن امام المسلمين ومطران المارونيين كانا على وفاق. كانا صديقين، يتزاوران ويتعاونان على البر والتقوى. لذلك كنا نجتمع بالناس في دار الامام مرة، وفي دار المطران مرة.

يقال ان الحال قد تغير الآن، في العالم العربي، وفي استراليا بطبيعة الحال. يا ليت. لكننا سوف نصدق حقا، حين تضع الحرب اوزارها في لبنان وفي السودان، وفي سائر بلاد العرب والمسلمين. حينئذ سوف تطيب الليالي لسفارها، وتعود الطيور لاوكارها، وحتى ذلك الحلم العسير، حلم العودة الى فلسطين لن يكون بعيد المثال ■

(للحديث بقية)

تسامع الناس بوجودنا في «سدني»، ولم يال «منسي»، وسعا، فاسبغ على رحلتنا اهمية اكبر بكثير مما تستحق. وكانت الجالية العربية من الخلاف والشقاق والتمزق بدرجة يرثى لها، ولعلمهم ظنوا أننا جئناهم مصلحين ووسطاء خير. وما كنا في الحقيقة كذلك، فما من احد طلب منا القيام بتلك المهمة، ولكن «منسي» كذابه ابدًا، وجد وضعنا يتيح له القيام بدور ما، دور رسول الوفاق واصلاح ذات البين، فهب من توه للنهوض به.

والعرب في طبعهم الحنين الى اهلهم وذويهم على البعد، ولكنهم فيما يبدو، لا يطبقونهم عن قرب. كنا غرباء، وقد كانوا لو يعلمون اكثر غربة منا، فرحبوا بمقدمنا، كما يرحب المقيم بالوافد.

اصبح الناس يتوافدون علينا، وكان «منسي» يزداد سعادة مع كل زيارة، فكان في احسن حالاته. انه هنا، مرة أخرى، الممثل الرئيسي على مسرح واسع. والدور الذي يقوم به ليس هينا بل هو دور خطير، دور سفير الاصلاح، ورسول الوفاق. وكان صديقنا الفلسطيني يقف الى جانبنا في اغلب الاحيان، يشد أزرنا ويعرفنا على البلد والناس. والفلسطينيون بحكم وضعهم، وما فعلته الاقدار بهم اكثر من غيرهم حماسة لأن يكون العرب يدًا واحدة، وان كانوا هم انفسهم ليسوا بمعنى عن الخلاف والشقاق.

جاءنا جورج سمعان واخوه ميشيل، وهما لبنانيان، وقد كانا ولعلمهما ما زالا يصدران صحيفة باللغة العربية، علمنا منهما انها توزع ما بين عشرين الى ثلاثين ألف نسخة. كانت، كما اذكر، صحيفة رصينة الى حد كبير، تتوجه الى الجالية العربية ككل، وتتعد بقدر الامكان عن مزالق الخلاف والفرقة. وقد شكنا لنا من ضعف الموارد وقلة الدعم، علما بانهما يقومان بجهد لا ينكر، في ربط الجالية العربية في استراليا بعضها ببعض، وربطها بالوطن العربي. وقد بذلت ما في وسعي بعد عودتي في مساعدتهما، ولعلمهما حصلا على بعض العون من دول الخليج. زارنا انثس يعملون في مؤسسات الدولة، وآخرون يعملون اعمالا حرة، وبعضهم يعمل في وسائل الاعلام والاتصال. ونحن سعيانا للتعرف على امام المسجد، ومطران الجالية المارونية في استراليا.

انني اذكر جيدا ذلك الانسان الكريم. رجل بسيط وقور مطمئن النفس، قلبه عامر بالخير، عليه سمت اخبار النصارى الاقدمين، كما يصفهم القرآن الكريم. كان عالما بالفقه والحديث وتاريخ الاسلام وكلام العرب، فقد نال درجة الدكتوراه في الفقه الاسلامي من جامعة السوربون. وقد ظل بعيدا عن الصراعات العربية وقاوم كل وسائل الضغط والاغراء، كي ينحاز الى فريق من الفرق المتحاربة في لبنان.

كان تعداد الجالية العربية تلك الايام، زهاء ثلاثمئة ألف،



بقلم الطبيب صالح

نحو أفق بعيد

وعندهم الوقت والمال للسفر والاطلاع والتمتع بالموسيقى والادب والباليه وما شابه، ولا بد أن كل هذا يكسبهم ثراء روحيا واتساعا عقليا كما لا يتاح لغمار الناس. وفي طبع الاخيار منهم بساطة وبعد عن التكلف، لان التصنع والتكبر وما شابههما، أمور مبعثها فقدان الثقة بالنفس، وهؤلاء لديهم ثقة بانفسهم لا حدود لها.

حزني دائما ما ورد في الانجيل، الذي ليس عنده يؤخذ منه، والذي عنده يعطى ويزاد. كان منسي، يتمثل كثيرا بهذا القول ايضا، حسب ما تقتضي الظروف. الا انه قول ينطبق على هذه الطبقة. يكونون اكثر وسامة من بقية خلق الله، فيتزوجون نساء جميلات. ويكونون اثرياء، فيتزوجون بنات الاثرياء. وقد تزوج عدد منهم امريكيات من عائلات ثرية، طلبا للمال في الغالب، فالامريكان تغريهم الانقلاب ويشترون العراقة بالمال. منهم ام ونستون تشيرتشيل وام هارولد ماكلان وام لورد هيلشام.

انجبت هذه الطبقة، الى جانب رجال الحكم والسياسة، اشخاصا مشهورين في عالم الادب والفن والفكر. منهم الفيلسوف الكبير «برتراند رسل»، والروائية المعروفة «فرجينيا وولف»، والناقد الادبي البارز «لورد سيسيل»، والشاعر الرومانسي الذائع الصيت «لورد بايرون».

وفي هذه الطبقة تقليد قديم بعدم المبالاة بلخصه شعار «ال سيسيل، المنحدرين من صلب احد وزراء الملكة اليزابيث الاولى. «ال سيسيل لا يعاون باحد». يظهر هذا في عدم تقديمهم بالاصول المتبعة في الماكن والمجلس والسلوك، فتراهم أحيانا في ثياب رثة، ويلبسون الجاككات المرقعة، فاصبحت موضحة، وصار الناس يضعون رقع الحلد تقليدا لهم. وعندهم ان التائق في الملابس والاسراف في التظاهر من علامات «الوضاعة».

ربما يفسر عدم المبالاة هذا، ان كثيرين من افراد هذه الطبقة، دافعوا بشجاعة عن قضايا الشعوب المستضعفة، وثاروا في وجه طبقتهم نفسها. من هؤلاء «لورد بايرون»، الذي انحاز الى جانب اليونانيين في حربهم ضد الاتراك العثمانيين، ولورد ولغرد بلنت، الذي ايد الثورة العربية في مصر ضد الاستعمار الانجليزي، وظل يدعو للقضية المصرية طول حياته. ولورد كيزن، العتيذ، الذي قال قولته الشهيرة في مجلس الوزراء، قبل صدور وعد بلفور «انتم تتحدثون عن اقامة دولة، يهودية في فلسطين، والارض ليست خالية من السكان».

هذه الطبقة، ما تزال تمسك بمقاييد الامور في بريطانيا في واقع الامر، رغم ما يبدو على السطح من تحولات اجتماعية وسياسية. وقد احتفظوا بنفوذهم بسبب قدرتهم على التأقلم ومجارية التغييرات الاجتماعية. لذلك فهم، حين تقتضي الظروف، يتبنون زعماء من الطبقات الوسطى والسفلى. وقد جعلوا دزرائيل الفقيه اليهودي الاصل، رئيسا للوزارة، وكذلك، لويد جورج، الذي نشأ نشأة فقيرة في ويلز، ومارجريت ثاتشر التي تنتمي الى طبقة العمال وصغار التجار.

كان منسي، منجذبا الى هذه الطبقة، وكانت له صلات مع بعض افرادها. ولعل تلك الصلات هي التي حالت بينه وبين الطرد من انجلترا، حين اقتحم قصر بكنجهام دون وجه حق. لا عجب انه سعيد الان بهذا اللقاء مع «مستر كامرون»، فقد رأى فيه سمات لورد من لوردات الانجليز.

قبل ان يبنوا دار الاوبرا في «سدني»، كان الاستراليون يتباهون بالجسر الذي يصل الشاطئ الشمالي للبحر بالشاطئ الجنوبي. انه هيكمل ضخمة، كان يُعتبر في زمانه، آية من آيات الانجاز الهندسي. وما تزال له مهابة الى اليوم، خاصة اذا نظرت اليه عند الفجر وقبيل الغروب.

اتقوه عام ١٩٣٢، بعد تسع سنوات من عمل متصل. وكانت فكرة اقامته قد خطرت لذلك المجرم، النابغة الذي خطط مدينة «سدني». ولكن حلم «فرانسيس فريثوي»، لم يتحقق الا بعد اكثر



بقلم الطيب صالح

من مائة عام. طوله ٥٠٣ امتار، ويرتفع قوسه عن سطح الماء في اعلى نقطة منه بمقدار ١٣٤ مترا. وقد انجز في مناخ من التوتر السياسي والركود الاقتصادي. وكما حدث في انحاء اخرى من العالم، فقد قامت في استراليا حركة يمينية متطرفة، متأثرة بالحركة النازية في المانيا. وكانت في مقاطعة «نيو ساوث ويلز»، حينئذ حكومة لبرالية. ويحكي الاستراليون بشيء من الفخر، انه في يوم الافتتاح، وقبل ان يقص رئيس الوزراء الشريط، ركض احد زعماء حزب «الحرس الجديد»، على حصانه وقطع الشريط بسيفه، باسم شعب نيو ساوث ويلز. لم تمكث الحكومة طويلا، بعد هذه الحادثة، فقد سقطت، وحلت محلها حكومة يمينية متطرفة.

كنا قد سمعنا القصة من قبل، ولكن «مستر كامرون»، رئيس المجلس الاسترالي لرعاية الفنون، اعادها علينا، ونحن نجلس في مكتبه في مبنى الاوبرا، امامنا البحر والى الشمال الجسر وقد ازدحم بحركة السيارات وقت الضحى. لم يكن فخورا وهو يروي لنا القصة، فقد كان رجلا مستنيرا متحضرا واسع الثقافة، من الناس الذين تركوا لدينا ذكرى طيبة. وقد وصفه «منسي»، فيما بعد بأنه يشبه لوردات الانجليز.

كان منسي يحس بجاذبية تلقائية نحو افراد الطبقة الارستقراطية من الانجليز، فتزوج منهم، وجاورهم في حي «تشلسي»، وكان يصول ويجول في الاحياء الراقية، «بلقراشيا»، و«سلون سكوير»، و«نايتسبريدج». وتعمد ان يشتري مزرعة ودارا بجوار «لورد مونتباتن»، قريب الملكة. وانتهت حياته هناك، بين خيله وسياراته وخدمه وحشمه، كما تخيل كيف تنتهي حياة اللوردات.

ليس كل لوردات الانجليز اخيارا، فقد خرج من بينهم قتلة ولصوص ومزورون ونصابون. ولكن الاخيار منهم، يتمتعون بجاذبية لا تنكر. وخيارهم اكثر. يكونون اثرياء في الغالب، او ميسوري الحال على اقل تقدير، فينشأون بمناخ من الخلال التي تتأني للناس بسبب الصراع من اجل لقمة العيش. ويعيشون في دور راحة، تحيط بها اكثر

الاحيان مزارع واسعة، فيعلق باشخاصهم احساس السعة والرحابة. وفي تقاليد اسرهم طلب العلم، اما عن رغبة او وجاهة، فيلحقون بالمدراس العريقة، مثل «هارو»، و«ايتن»، و«رقي»، ومن ثم يعضون الى احدى جامعتين، لا غير، اما «اكسفورد»، واما «كامبريدج». وعادة يلحق الابن بالمدرسة نفسها، مثل ابيه وجده، والكلية نفسها، والجامعة نفسها.

مراكز



بقلم الطبيب صالح

وجدنا في مستر «كامرون» انساناً متحضرًا مستنيراً متواضعاً. ولو كان بخلاف ذلك لالتمسنا له العذر. النجاح يغري بعض الناس بالغطرسة والخيلاء، وهذا رجل مهم، في موقع مهم، في قطر ناجح. بل ان البناء الذي يجلس فيه، هو رمز من رموز الانجاز البشري في هذا الركن من الارض. ما اطول الطريق الذي سارته استراليا منذ ان افرغت سفن كابتن «فيليب» حملتها من «المجرمين» في ذلك الصباح من عام ١٧٨٨. وكاننا تاريخ استراليا حتى هذه اللحظة هو بمثابة محاولة مستمرة للهروب من تلك البداية. لقد وُصموا بانهم يتحدرون من اصلااب مجرمين، فظفروا يحاولون ان يقنعوا العالم بانهم لا يقلون تحضرًا عن مراكز الحضارة العريقة في اوروبا.

مبنى دار الاوبرا الوطنية حيث نجلس الآن في مكتب مستر «كامرون» تحفة معمارية وعجيبة من عجائب الدنيا، يسفونها، عجيبة الدنيا الثامنة. وانها كذلك. مثل سفينة ذات اشعة عدة توشك ان تتطلق في البحر. واحيانا يبدو المبنى مثل طائر خرافي كثير الاجنحة على اهبة ان يثب في الهواء.

كان مستر «كامرون» فخورا بذلك الانجاز، ولكنه لم يكن مزهواً به. ربما لانه كان يدرك الثمن الفادح الذي دفعه شعب الـ «ابوروجينز» المسكين. كان فيما يبدو مهتما اهتماماً عميقاً بذلك الجانب من تاريخ استراليا. ولعله تعتد ان يفهمنا ان الموقع الذي اقيمت عليه دار الاوبرا «بنلونق بوينت»، قد سُمي باسم رجل من الابوروجينز. كان من اوائل من اتصلوا منهم بالاوربيين الوافدين، وسرعان ما ألم باللغة الانجليزية المأما كافياً مكنه من ان يقوم بمهمة المترجم بين البيض والابوروجينز. سعدوا به فارسلوه الى انجلترا، كما ترسل الحيوانات النادرة، ليتسل به الناس. وهناك قضى وقتاً جليلاً، اليسوه الثياب الاوربية، وكانوا يخضرونه في الحفلات يتفرجون عليه يرقص ويغني. لكنه لم يلبث ان مل كل ذلك، وثاب الى نفسه، واحس برغبة عظيمة للحاق بقومه، فعاد الى استراليا. وجد انه قد تغير ولم يعد يالف العيش مع قومه، فعاش في كوخ منعزل بنوه له في ذلك الموضع، ولجا الى السكر والعريضة. ولم يلبث ان مات وحيداً تعيساً. كان «بنلونق» المسكين من اوائل الضحايا لما يُعرف الآن بـ «الصدمة الحضارية» وشهيداً من شهداء الغزو الثقافي الاوربي.

اكبرت في مستر «كامرون»، انه حكى لنا تلك القصة، حكاهها ببساطة، وكأنه اراد ان يكسر حدة دهشتنا بذلك الانجاز الكبير. كأنه اراد ان يقول، ان التقدم له ثمن، واحيانا يكون الثمن اعلًى بكثير من التقدم الذي ينتج عنه.

اهل الحكمة والعلم والفكر في استراليا، بداوا يقولون الآن، ان التقدم المادي الذي تحقق، لا يبيّر الثمن الباهظ الذي دفع، بالقضاء على شعب الابوروجينز وثقافته الفريدة. ألا ان كل ذلك قد يبدو لك

نحو أفق بعيد

٧٨

شيئاً بعيداً لا تكاد تحس وخزه، في صباح مثل هذا، في مكان مثل هذا، وانت تنظر من نافذة مستر «كامرون» الى البحر يزيق ويخضر في ضوء الشمس. ولعلك لا ترفض الراي الذي عبّر عنه «تشارلز دارون» عام ١٨٣٦:

«... وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً.. مركزاً مضيئاً من مراكز الحضارة.. فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ». اخبرنا مستر «كامرون» انهم شرعوا في البناء عام ١٩٥٩، وكانوا قد اختاروا تصميمًا لمهندس معماري شاب من الدنمارك يدعى «يوزن اثزن» لم يكن معروفاً حينئذ. ولكن المحكمين في المسابقة العالمية التي اعلنوا عنها، استهواهم التصميم لطرافته وجراته. وقد قدروا ان البناء لن يكلف اكثر من سبعة ملايين دولار، ولن يستغرق انجازه اكثر من اربع سنوات. ولكنه لم يتم حتى عام ١٩٧٣، وكلف ١٠٢ مليون دولار.

افتتحته ملكة بريطانيا في احتفال ضخم دُعي له اناس من مختلف انحاء العالم، اشتهروا في مجالات السياسة والثقافة والفنون. وقد تألفت الاضواء في سماء مدينة «سدني» التي امضت اسابيع في الاعياد والاحتفالات. ولا بد ان الاستراليين قد احسوا يومئذ انهم قد محوا الى الابد وصمة العار التي لاحقتهم قرابة مائتي عام، وانهم قد «اعتقوا الزمان من اسار» كما يقول شيكسبير.

قال مستر «كامرون» بشيء من الفخر: «لم تدفع الدولة دولاراً واحداً من نفقات هذا المشروع». سالناه كيف حدث ذلك فاجاب:

«لانا جمعنا المال من الشعب بواسطة «اللوتري» - اليانصيب. هذا انجاز شعبي بحق».

ذلك احساس تجده عند الاستراليين اينما اتجهت، ان «الشعب» هو السيد، وانهم اقاموا مجتمعاً حراً حرية حقيقية، لا تكبله اي من القيود التي تكبل المجتمعات القديمة في اوروبا. ليست فيه فوارق ولا طبقات، مثل مبنى دار الاوبرا في «سدني»، شيء جديد طريف، مثل طائر يطير بعدة اجنحة. الله اعلم. صحيح ان الانسان هنا يحس ان كل شيء ممكن، وانه يستطيع، مهما كانت ظروفه، ان يصل الى اقصى ما تمكنه قدراته. ربّما. ولكنك تعلم من قراءة تاريخهم ان ذلك يحدث ضمن حدود معينة، وانهم ليسوا معصومين كلية من النقائص التي هي في طبع الانسان في كل مكان.

هذا البناء ليس كما يوحي اسمه، وقفاً على الاوبرا، فهو يضم مسارح وقاعات لعرض الافلام، وصلات لعرض الرسوم، وقاعات للموسيقى والباليه. تجولنا في انحاء، وزاد عجبنا مما راينا داخله. وقد حدّثونا، ان الفرق المسرحية والموسيقية وفرق الاوبرا والباليه، تجيء للعرض هنا من لندن وباريس وموسكو ونيويورك وستكهولم وغيرها، وان الدار تقدم نحو اثني عشر عرضاً متنوعاً كل يوم، وان اكثر من مليون ونصف متفرج يدخلون الدار في العام الواحد.

انه امر مدهش حقاً. ولكنني حدثت نفسي بعد ذلك، انني لو كنت احد افراد قبيلة الـ «ايورا» التي كانت تقطن «سدني» قبل مجيء الاوربيين، وابادوها او كادوا، فأنني لن اجد عزاء في كل هذا العالم الجميل. لن اجد عزاء عن «دروب الفناء» التي تقطعت، والديار التي عفت، وعن «زمن الحلم» الذي مضى الى غير رجعة. ■

٧٩ نحو أفق بعيد

«يوم من قالانا .. يوم من قالانا .. وانت ما اسمك؟»
«قبأ قبأيل».

حمل الصدى نداء الفتاة والفتى من شاطئ الى شاطئ .. واخذ الشاطآن يناديان:
«يوم من قالانا .. قبأ قبأيل».

في اليوم الثالث دخل الفتى الماء وكان قوة غامضة تشده . وسبح صوب الضفة الشمالية . والفتاة تجذبه اليها بوجهها العسلي واسنانها البيضاء وضحكاتها العذبة . وصل منتصف النهر . فسبحا مع التيار جنباً الى جنب حتى وصلا جزيرة صغيرة وسط النهر . بعيداً عن عين الرقباء .

اخذا يلتقيان كل يوم . واعطاهما الحب جراً . فكان الفتى يسبح احبانا الى الضفة الشمالية . والفتاة تسبح الى الضفة الجنوبية .

وازدادا جراً . فلم يعودا يكثران ان الفتاة ممهورة لفتى من قبيلتها . والفتى ملتزم لفتاة من قبيلته . وقر عزمهما على الفرار سرّاً الى التلال البعيدة .

ثم . كما كان مقدراً ان يحدث . كشف الرقباء سرهما . فاسرعوا يخبرون حكماء القبيلتين .

ادرك هؤلاء لاول وهلة . انهم اذا لم يتداركوا الامر . فان كارثة سوف تحدث . سينهار السلم الذي اظلمهم زمناً طويلاً . وسوف تنشب الحرب . ويعودون الى ما كانوا عليه من خصام وشقاق .

اجتمع حكماء الشمال وحكماء الجنوب وتفاكروا في الامر . قال احدهم عفو الخاطر . دون ان يمعن النظر:

«ارى ان ندعهما ينجا بنفسيهما . ماذا يضيرنا من ذلك ؟ ونعود الى ما كنا عليه .»

لكن رايه لم يجد قبولا .

واشار حكيم منهم . لعله كان ابعد نظراً مما ينبغي . ان يقبلوا بالامر الحاصل . ويزوجوهما . فربما يكون ذلك بداية عهد جديد من التعايش السلمي بين القبيلتين .

ايضا هذا الرأي لم يجد استحساناً . ونظر الحكماء الى قائله كانه مجنون .

واخيراً وصلوا الى حل راوا انه الحل الحاسم . اجمعوا رايهم على قتل الفتى والفتاة العاشقين . وبذلك يقضون على الفتنة في مهدها . وتكون دماء العاشقين تمنا زهيدا لدوام السلم بين القبيلتين .

في ليلة كثيفة الظلام . تسلل «قبأ قبأيل» من الضفة الجنوبية . ودخلت «يوم من قالانا» من الضفة الشمالية . سبح كل منهما تجاه الآخر . والتقيا في منتصف النهر . كانا ينويان السباحة اسفل النهر . ثم ينطلقان نحو التلال البعيدة . لم يكادا يلتقيان حتى انهالت عليهما الرياح من الضفتين . اخذا يسبحان والدماء تنزف من جسديهما حتى وصلا الجزيرة . هناك اسلم كل منهما روحه .

تقول الاسطورة ان غابة اليوم الكثيفة التي نمت في تلك البقعة من النهر . هي الرياح التي اُردت الحبيبين . وان دماءهما صبغت مياه النهر حتى وصلت الى الصخور في ذلك الموضع . فهي حمراء الى اليوم . وان الضفادع على الضفتين ظلت تبكي عليهما الى يومنا هذا . تنادي ضفادع الضفة الجنوبية باكية «قبأ قبأيل» فتجيبها ضفادع الضفة الشمالية «يوم من قالانا» ■

(للحديث بقية)

يروى الـ «ابوروجينيز» في اساطيرهم . ان نهر «مورمبذجي» . وهو احد نهريين تقوم عليهما مدينة «كانبر» اليوم . كان في زمن مضى . هذا فاصلاً بين قبيلتين . طال بينهما الخصام والنزاع . ثم اجتمع الحكماء من الجانبين . حكماء القبيلة التي تسكن الضفة الجنوبية من النهر . وحكماء القبيلة التي تسكن الضفة الشمالية من النهر . تفاكروا في امورهم وما صارت اليه احوالهم . وقدروا ان السلم خير من الحرب . والوثام خير من الخصام . وان في الارض على غدوتي النهر . متسعاً لهم جميعاً .

بدا لهم ان الخصام والنزاع . انما يشجران بسبب الاختلاط والمعاملات . يشتم سفيه من سفهاء القبيلة الشمالية سفهاء من سفهاء القبيلة الجنوبية . وهذا يضر به . فتشتعل النار . وربما يلاحق صياد جشع . سمكة اعجبته الى الضفة الاخرى . فيرميه واحد من هناك بسهم . وقد يعبر فتية نزفون النهر ليلاً الى الضفة الشمالية . لانهم راوا كواراً غسل معلقة في شجرة «يوكالبينس» فاغراهم المنظر . فيعترض سبيلهم فتان من الضفة الشمالية . وكل قبيلة ملتزمة بحماية ابنائها . ولو كانوا سفهاء . فاذا هي الحرب . واذا هو القتل والجرح والضرب . وقد تدوم الحرب اشهرها وقد تدوم اعواماً .

راى حكماء القبيلتين . ان ذلك حمق لا يجوز . وضلال ما بعده ضلال . وقر رايهم على ان يضعوا حداً لاسباب الخصام . بان تلزم كل قبيلة حداً وراء النهر . كل قبيلة تعيش في ارضها مستقلة عن القبيلة الاخرى . لا يلتقيان الا في المواسم الكبرى مع بقية القبائل .

اخذوا العهود والمواثيق . والتزمت كل قبيلة بما عاهدت عليه . فانقطع دابر الشقاق . وحل السلم . وطاب العيش . كل في ارضه . وسعد الحكماء على غدوتي النهر .

مضى ربح من الزمن . ثم ذات صباح جميل . من هذه الاصباح التي تغري بالمغامرة وتجرواها الشقاء . راى فتى محارب مزهو بنفسه . من القبيلة الجنوبية . فتاة من القبيلة الشمالية تسبح وحدها في النهر . كانت هي الاخرى مزهوة بشبابها سعيدة بالشمس والمياه الصافية . وخضرة الغابات . ونداءات الطيور من غصن الى غصن . فكانت تضحك وحدها كأنها للا شيء . تغطس ثم تطفو . وتسبح مسافة ثم تسلقي على ظهرها تنظر الى السماء . وصدرها العاري يلمع في الضوء ويختفي ويبين كأنها من فرجات غيم خفيف .

وقف الفتى ينظر اليها كالماخوذ . ثم ضحك هو ايضاً . اخذ يضحك ويلوح برمحه . فلوحت له بيدها .

في اليوم الثاني ناداها :
«ما اسمك؟»

نادته وهي تقترب من منتصف النهر . واسنانها مثل حبات اللؤلؤ تلمع في ضوء الشمس . في وجه مثل العسل المجنى من شجر الكافور :



بقلم الطيب صالح

٨٠ نحو أفق بعيد

وأخيراً حتى الحكماء يشسوا من سماع الصوت. فكبروا طويلاً في مغزى ما حدث، ثم اهتموا الى ان قوى شريرة لم يحسبوا حسابها، تسلفت الى افئدة الناس، وباتت توسوس لهم. استجاب لها الشباب اول الامر، ثم تبعتهم غالبية القبيلة. كان شعور قد نما لدى الناس، بالضيق من نفوذ الصوت القديم. ونمت لديهم، والحكماء لا يعلمون، الرغبة في الانطلاق، والحياة بعيداً عن اوامر الصوت ونواهيها. وبالفعل، بدت لهم حياتهم الجديدة اول الامر، افضل مما كانت. أصبح كل انسان على هواه يفعل ما يحلو له، لا يزعجه ذلك الصوت بحدوده وقيوده. وكان الحكماء يراقبون ما يجري، وينتظرون وقوع الكارثة.

مضى زمن على تلك الحال والناس سادرون في لهوهم. لاحظ الحكماء ان اصوات الناس اصسحت تحدد في الكلام، وان الصغار لم يعودوا يكثرثون لنصح الكبار، وان الطقوس القبلية فقدت بهجتها، وان القوي لم يعد يساعد الضعيف، وان القبيلة بدات تتفكك واصبح كل شخص قائماً بذاته. وأخيراً حدث ما خشيه الحكماء، تشاجر شابان، فقتل احدهما الآخر.

لم يحدث طوال تاريخهم ان اعتدى فرد من افراد القبيلة على آخر. احسوا بكابة لم يعرفوها من قبل. وساورهم الخوف، كان مياه النهر قد فاضت، وان الجبال قد ارتجت وتفتتت، وكان حريقاً هائلاً قد اشتعل في الغابات. وانتهبوا فجأة ان صموا رهيباً قد نزل على العالم. سكنت الريح، واستقر الماء على حالة واحدة، وصممت الطيور والضفادع والحشرات، ولم يعودوا يسمعون حساً لوحوش الغاب، وبدت لهم الاشجار مغبرة كدرة، كان قد ران عليها غبار قرون. احسوا بالحيرة والضياغ.

قام الحكماء، ومشوا حزاني مثقلي الخطى، وجلسوا عند جذع الشجرة. لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه. ورويداً رويداً اخذ الناس يلحقون بهم. واحداً واحداً، واثنين اثنين. وجماعات جماعات. الى ان جاءت القبيلة عن بكرة ابيها، وتحلقوا حول جذع الشجرة.

تكثف صمتهم ورفقت مشاعرهم وتجمعت هواجسهم فكانهم سمك في شبكة محكمة الشج. ولما مالت الشمس للغروب وكادت تختفي وراء الافق، وبلغت اشجانهم اقصى مداها، فجأة سمعوا الصوت.

تحدث اليهم كما كان يفعل من قديم. حدثهم عن اشياء يعرفونها واشياء يجهلون، اشياء عن حياتهم الآن، واشياء مبهمة عن امس الامس وغد الغد. وجدوا للكلمات حلاوة اكثر مما عرفوه من قبل، فاستمعوا اليه وهم يبتكون.

ولما فرغ الصوت. تريث حتى هدا العويل وكفت الدموع. ثم قال لهم انهم لن يسمعه بعد يومهم ذاك، ولكنهم سوف يجدونه ان احتاجوا اليه، وسوف يعطيهم اشارة فليفهموا جيداً مغزاه، واذا التبس عليهم الامر فليسالوا الحكماء.

انشق جذع الشجرة في دوي مثل قصف الرعد، وخرج من الجذع عمود من الضوء الساطع، صعد وتطاير اشعة كثيرة. بعضها سقط في مياه النهر، وبعضها غاب في التلال، وبعضها تناثر في الغابات، وبعضها توارى في الكهوف وبعض الاشعة اندست في اجساد الحكماء.

(للحديث بقية)

في اساطير اله ابورو جينز: من جنوب استراليا، ان جد القبيلة الاول، كان يخاطبهم كل صباح من جذع شجرة صمغ. يجيء افراد القبيلة عن بكرة ابيهم كل صباح، ويجلسون في حلقة حول جذع الشجرة. ينتظر الصوت حتى يكتمل العدد، وإذا غاب احد منهم، يحتجب، فلم يكن يتخلف احد منهم. حتى الرجال المسنون، حتى النساء اللاتي اثقلهن الكبر، حتى الاطفال الرضع يجيئون على صدور امهاتهم.

يجلسون صامتين ينتظرون ان يخرج اليهم الصوت من جذع الشجرة. احياناً يطول انتظارهم و احياناً يقصر. يعمق صمتهم وترهف احساسهم، فاذا بالهواجس والمخاوف والاحلام والامال لكل واحد منهم، كأنها هاجس واحد وخوف واحد وحلم واحد لهم جميعاً. حينئذ يخرج الصوت من جذع الشجرة. يحدثهم عن اشياء يعرفونها واشياء لا يعرفونها، اشياء تتصل بسير حياتهم اليومي، واخرى ترتبط بامور مبهمة من ماضيهم ومستقبلهم.

ويحسسون وقعه بطرائق شتى. يجد الرجل البهجة، كأنه غطس في ماء النهر اول الصباح. ويحس بالخوف، كأن فهداً باغته في الغاب. ويجد اللذة، مثلما يجد حين يتنفس رائحة الشواء من لحم ارنب بري. ويجد الطمانينة، كأنه في كوخه اخر المساء، وقد سكنت الحياة، وعنده زوجته واطفاله. وتستمع المرأة الى الصوت وطفلها يرضع من ثديها، فتشملها متعة غامضة لا تدري من اين تأتي، هل من فم الطفل ام من جذع الشجرة. وقد يحس الواحد منهم، انه بئر عميقة الغور وان الصوت يخرج من تلك البئر.

وحين ينفضون، يجدون ان الاشياء قد اعتدلت واعتدلت اوضاعها الصحيحة. الكدر الذي علق بالحياة، كما يعلق الغبار باوراق الشجر، فجأة يختفي كما تغتسل الاشجار بماء المطر، فاذا العالم كأنه ولد لتوه. الخلافات التي قد تكون شجرت بينهم تبدو خفيفة مثل اجنحة الفراش، والحقد يذوب وينبت محله شعور حلو المذاق بالود والانتماء الكلي. يضحكون لاوهى سبب ودون سبب، ويجدون رغبة للغناء والرقص، ويتذكرون اشياء تجلب السعادة، كانوا قد نسوها. وكذلك يمضي بهم اليوم.

وحين ينفضون، يجدون ان الاشياء قد اعتدلت واعتدلت اوضاعها الصحيحة. الكدر الذي علق بالحياة، كما يعلق الغبار باوراق الشجر، فجأة يختفي كما تغتسل الاشجار بماء المطر، فاذا العالم كأنه ولد لتوه. الخلافات التي قد تكون شجرت بينهم تبدو خفيفة مثل اجنحة الفراش، والحقد يذوب وينبت محله شعور حلو المذاق بالود والانتماء الكلي. يضحكون لاوهى سبب ودون سبب، ويجدون رغبة للغناء والرقص، ويتذكرون اشياء تجلب السعادة، كانوا قد نسوها. وكذلك يمضي بهم اليوم.

مضت حياتهم هكذا رداً، لا تتعكر حتى تصفو ولا تضيق حتى تتسع. وذات صباح جاءوا كعادتهم الى جذع الشجرة، ولبنوا ينتظرون ان يخرج اليهم الصوت. لا شيء. ادركوا بعد مدة ان عددهم لم يكتمل، وتفقدوا انفسهم فوجدوا ان شاباً منهم لم يحضر. بحثوا عنه فلم يعثروا عليه. طال انتظارهم ولا صوت، ولما يشسوا تفرقوا وهم يحسون بحزن عظيم. وكان اكثرهم حزناً الحكماء، فقد ادركوا ان كارثة سوف تحل بالقبيلة.

في اليوم الثاني تخلف آخرون. وفي اليوم الثالث زاد عدد المتخلفين، وكان الحكماء يجيئون كل صباح ومن بقي معهم من الناس، ويجلسون اليوم بطوله على امل ان يخرج لهم صوت ابيهم من جذع الشجرة، ولا صوت، فينصرفون اكثر خوفاً وكابة.



بقلم الطبيب صالح

٨١ نحو أفق بعيد

قرأنا قاتش. الأسطوري. الذي نصفه من السمك ونصفه من الكواسر.

قال الحكماء إن شراً مستطيراً قد وقع. حملته اليهم أرواح خبيثة كانت قبل سجنينة في الجبال البعيدة. قالوا لا بد أن شخصاً ما قد تعدى على حرمة من حرمات القدماء. فخرجت تلك القوى الشريرة من محابسها. وجاءت تنشر الرعب والخراب على الأرض.

هرع الحكماء من القبيلتين إلى الكهوف. وأعادوا طلاء التصاوير. لعل أرواح أسلافهم ترضى. سارعوا إلى مزارات القدماء. وانشدوا لهم الأناشيد المقدسة. ذبحوا القرابين وأقاموا شعائر الطقوس. ولا فائدة.

جف الماء في الوادي. وكان من قبل يوصلهم من العام إلى العام بيس العشب وتعتري فروع الشجر. وهاجرت الوحوش. كفت الطيور عن الغناء. وأخلدت الضفادع إلى الصمت. ثم أخذت الحرائق تشتعل في العشب اليابس والغابات كأنما بفعل قوى شيطانية.

وفجأة اندلعت نار الحرب بين القبيلتين. الأمر الذي لم يحدث أبداً طوال تاريخهم.

اجتمع حكماء القبيلتين عليهم يردون الناس إلى صوابهم. ولا فائدة. ففي أوقات الجنون لا تجدي الحكمة. ولما يئسوا قرروا أن ينزحوا عن تلك الأرض الملعونة. ويذهبوا إلى الجبال البعيدة. يتوسلون إلى أزواج أسلافهم عليها تعيد المياه إلى مجاريها.

تحاربت القبيلتان الشقيقتان بشراسة من فقد حكماء. ولم يعد يستطيع أن يميز رأسه عن قدميه.

تحاربوا طويلاً حتى استنفدوا كل أسلحتهم. ولم يجدوا غير الصخور والحجارة. رمى أحدهم حجراً فأخذ يصعد في السماء ويكبر.

توقفت الحرب ورفع الناس وجوههم إلى السماء. كانت تلك أول مرة منذ زمن طويل. فقد كانوا مشغولين بقتل بعضهم بعضاً. وكانت عيونهم معلقة بالأرض.

نظروا إلى الصخرة تعلو وتتضخم حتى صارت شينا مهولاً ملا اقطار السماء. وحجب ضوء الشمس. ثم نظروا فإذا بالصخرة تنشق في جلجلة عظيمة عن شيء مثل العقيق الأحمر.

تقول الأسطورة. أن حجر العقيق حين نظر من ذلك العلو إلى ساحة الحرب. ورأى جثث القتلى. ورأى الخراب والدمار. بكى. سح دموعاً غزيراً مثل وابل المطر. ملأت الوادي وبللت الأرض. ولما كفت دموع السماء. ظهر قوس قزح.

صار الأبوروجينز بعد ذلك كلما راوا قوس قزح يظهر في السماء يقولون إن جرماً عظيماً قد وقع على الأرض. وأن أحداً ما قد تعدى على عرف من الأعراق القديمة. فالسما تبيكي لأجل ذلك.

(للحديث بقية)

عاشت قبيلتان من قبائل الـ. أبورو جينز. في الماضي البعيد جنباً إلى جنب في سلام وصفاء. كانتا تنتميان إلى أصل. طوطمي. واحد. يرتفع بهما إلى جد واحد. جسمهما أعراق مشتركة وشعائرها وطقوس الت اليهم من. زمن الحلم. كانت تشب بين القبيلتين نزاعات صغيرة. كما يحدث لكل الأقوام. ولكن حكماءهم. كانوا سرعان ما يجتمعون. ويتدارسون الأمر بروية. ويتذكرون الأعراق القديمة والموانيق التي توارثوها عن آبائهم الأولين. حبلاً بعد جيل. كانوا كلما حدث شئ في ثوب حياتهم يقولون أن تصاوير أسلافهم في الكهوف تناديهم أن يعيدوا علاءها. يذهب حكماء القبيلتين جماعة. ويتعاونون على طلاء التصاوير. حسب الأساليب القديمة التي توارثت اليهم. فتستقر أرواح أسلافهم في مراقدها. وتجلو الأرواح الشريرة عن سمائهم وأرضهم. وتعود حياتهم إلى ما كانت عليه.



بقلم الطبيب صالح

وأحياناً يُخيل لهم. أن أمزجة الناس قد تعكرت. وأرواحهم قد تكذرت. لأن جداً من أجدادهم الأولين قد أحس بالوحشة. فبنهض حكماء القبيلتين. وهم أبناء عمومة. ويجلسون عند مرقد جدّهم. يغنون له الأغاني العتيقة ويتوسلون بالطقوس المقدسة لديهم. فلا يرحلون حتى تكون روح أبيهم قد اطمأنت في مثابها. فتسكن حياتهم هم أيضاً.

كانت الحرب حراماً عليهم. وكان قتل ذوي الأرحام عندهم. كان السماء قد وقعت على الأرض. هكذا سارت بهم الحياة حقياً. على أطراف واد واسع. في أرض بين الجذب والخصب. تظطر السماء فيها ولكن بمقدار.

حين تظطر السماء. يمتلئ الوادي بالماء. ويصير كأنه بحيرة معتدة. حينئذ تطيب الحياة للناس من القبيلتين. يشربون وتشرب الحيوانات والوحوش. يكثر الصيد. وتخضر أشجار الصمغ وتخضر غابات البوص. ينتشر الفراش في السماء مثل غيم رقيق مختلف الألوان. ويهدل الحمام. وتضخض الضفادع. وتخرج السلاحف والسحالي من مكانها.

يبدو لهم حينئذ أن أرواح أسلافهم قد هنتت. وأن أرواح الشر قد ابتعدت عن أفقهم. وأن السماء قد تصالحت مع الأرض. هذا هو الوقت الذي يتجمهر فيه الناس في موسم حافل. يتناشدون الأشعار. ويصفون إلى روايتهم يحركون أشجانهم بالأساطير القديمة.

حتى كان ذات عام. نظروا إلى السحاب يتراكم في الأفق في موعده المعلوم. أحسوا بالفرح يتحرك في صدورهم وأيقنوا أنه الغيث. لكن السماء لم تف بالوعد. وكان أيدي خفية بعثرت ذلك السحاب. وكذلك في الأيام التالية. يتجمع السحاب ويتقل حتى يكاد يسقط على الأرض. ثم فجأة يتبدد كما ينقشع الطيف. ثم صفت السماء تماماً. وأصحت الشمس تصب نيرانها على الأرض يوماً بعد يوم. مثل عين

٨٢ نحو أفق بعيد

وكانت، كلما اقترب منها تركله أو تنشب اظافرها في وجهه. عاد «بوبيادي» من سفره، وعلم بما حدث. تالم ألما عظيما لفعله أخيه، ومن فورده، انطلق يبحث عنه. وقف الأخوان وجها لوجه، على صخرة عالية، وتحتها الشاطئ وهدير أمواج البحر.

نظر «بوبيادي» طويلا في وجه أخيه وأحس بالحزن حتى امتلأت عيناه بالدموع. لم يكن الشخص الذي يقف أمامه هو أخاه الذي عرفه واحبه. عبرت برأس «بوبيادي» ذكريات حياتهما معا في أيام الطفولة والشباب، حين كانا مثل شخص واحد، لا يفترقان، يسبحان في البحر، ويتنافسان في رمي الرمح والبومرانج، ويصيدان الكانغرو، والأرانب البرية. رأى «بوبيادي» شخصا مختلفا مكفهر الوجه، جاحظ العينين كأنه مجنون، أو كأنه روح من تلك الأرواح الشريرة التي تحكي عنها أساطير القبيلة. وفجأة سمع «بوبيادي» صوت زوجته ياتيه كأنما من كهف، تستغيث وتنادي باسمه، فتوتر جسمه وفار الغيظ في صدره.

اندفع الأخوان أحدهما نحو الآخر، وكل واحد منهما مصمم على قتل الآخر. تعاركا بشراسة على الربوة العالية، وكانا في شغل عن البحر فلم يسمعا هدير الموج تحت أقدامهما. وسمعت المرأة عراك الأخوين بسببها، فسكنت وارهفت السمع.

كان «غردانق» قويا، فقاوم مقاومة عنيفة، وكاد أحيانا أن ينتصر على أخيه. ولكن «بوبيادي» كان أقوى منه، وضاعف من قوته أنه كان مظلوما، وأن أعراف القبيلة وأرواح الأسلاف كانت تقف إلى جانبه وتقاتل معه. تمكن من أخيه وطرحه أرضا وأراد أن يهشم رأسه بصخرة كبيرة. ولكن جسمه لم يطاوعه. قوة ما شلت ذراعه واسقطت الحجر من يده.

أدار ظهره لأخيه، وقد عزم على أن يأخذ زوجته ويذهب. أحس بغتة بسلاح البومرانج، ينغرز بين كتفيه. ترنح وسقط أسفل الربوة على شاطئ البحر والرمح في يده. قفز «غردانق» أثره فإذا بالرمح المشرع ينغرس في بطنه وينفذ من ظهره. حينئذ جاء البحر وحمل جثتي الأخوين إلى جوفه.

تحول البومرانج المغروس في كتف «بوبيادي» زعنفة في ظهر سمك القرش، وصار «بوبيادي» سمك قرش، كلما رأى انسانا، يظنه «غردانق» فينقض عليه. وتحول نصل الرمح في ظهر «غردانق» إلى ذنب عقرب البحر، وأصبح «غردانق» عقرب بحر يظن كل انسان هو «بوبيادي» فيلدغه.

يروى الـ «أبوروونيز» في أساطيرهم قصة مأساوية عن نشأة سمك القرش، وعقرب البحر التي لا نجاة من لدغتها، وكان سبب المأساة امرأة.

تقول الأسطورة أن أخوين كانا يحب أحدهما الآخر حبا جما، تجدهما دائما متلازمين، لا يفترقان أبدا. كانا وسيمين قوين، تراشما القبيلة زينة شبابها. كان «بوبيادي» أكبر الأخوين، أسرع شبان القبيلة في العدو، وأرماهم بالرمح. وكان الأصغر «غردانق» أكثرهم

مهارة في السباحة وأحسنهم في رمي البومرانج. كانا يقضيان سحابة يومهما معا، يصطادان السمك أو ينصبان الشراك للطير والوحش، ويتنافسان في العدو ورمي الرمح والبومرانج.

وفجأة وقع الأخ الأكبر «بوبيادي» في غرام فتاة من فتيات القبيلة. كان أخوه على غير علم منه، يحبها أيضا. إلا أن الفتاة استجابت لحب «بوبيادي» وبادلته حبا بحب. شعر «غردانق» بخيبة الأمل، وزاد من احساسه بالمرارة أن أخاه لم يعد يقضي معه كل وقته، كما كان، بل أصبح يؤثر صحبة حبيبته.

كان «بوبيادي» دمث الخلق، ضحوكا بطبعه، إلا أن حبه لتلك الفتاة أعطاه سعادة غامرة، جعلته يبدو في نظر أخيه شخصا مختلفا. وبقدر ما كان «بوبيادي» يزداد سعادة كان «غردانق» يزداد تعاسة. ولما تزوج «بوبيادي» حبيبته، تحولت مرارة «غردانق» إلى حقد امتلأ به قلبه، وملك كل احساسه. أصبح أخوه الذي كان يحبه حبا جما حتى الأمس القريب، عدوا بغیضا لن يتردد في قتله إذا عثت له فرصة.

أصبح يتوعد، وراء ظهر أخيه، إلى الزوجة، وهي تصده، فقد كانت تحب «بوبيادي» بحق. وكان «غردانق» يزداد حبا لها رغم ذلك، حتى صارت عاطفته هوسا لا يفارقه.

وذات يوم انتهز الأخ الأصغر فرصة غياب أخيه في سفر، فانتظر حتى جاء الليل، فأخذ الزوجة قسرا وهرب بها إلى مكان بعيد على شاطئ البحر.

ظن «غردانق» أنه قد حقق حلمه، وأنه سوف يعيش سعيدا مع حبيبته، يصيدان السمك، ويسبحان في البحر، وينصبان الشراك للطير، ويبنيان عشا هائلا بعيدا عن القبيلة. ولكن سرعان ما خاب ظنه، فقد كانت المرأة تحب زوجها بحق، فكانت تقضي كل وقتها في البكاء والعيويل.



بقلم الطبيب صالح

٨٢ نحو أفق بعيد

سارا جنبنا الى جنب، وكان «كاركان» عابسا ينهش قلبه الحقد، وأحياناً يحس بالخوف، فقد كان الأمر الذي عزم عليه مخالفاً لكل أعراف القبيلة. لحظ «ونجو» تعاسة أخيه، فلم يفهم سببها، ولكنه حاول أن يسري عنه، فأخذ يمارحه ويضحك له. ثم راح يغني بصوته الجميل، فأرهفت له الطيور على أغصان الشجر، وهبطت الفراشات على الصخور وتلال النمل تستمع إليه. فجأة كف «كاركان» عن المشي، وقال لأخيه بصوت غريب لشدة غلاظته:

«لنعد الى الحي. لا يبدو أننا سنجد صيدا حسنا اليوم. الا ان «ونجو» بدأ يستطيب الرحلة، وأسعده وقع غناؤه على الطيور والأشجار والصخور، وتفتحت روحه لفوح عطر الزهور، ونداء الحيوانات في الغاب، فأخذ ينط ويجري ويصرخ ويغني. لذلك لم يسمع صوت أخيه وهو يناديه من بعد:

«لنعد الى الحي. سوف نجني في يوم آخر». وصلا الى المكان حيث اعد «كاركان» الشوك. احس فحاة الوساوس التي خامرت في الطريق لتمنعه من قتل أخيه قد ذهبت. امتلا قلبه بالحقد من جديد، واستقر عزمه على القتل.

قال لـ «ونجو»:

«إذا رأيت العشب يرتعش، فانه صيد. عليك ان تجري بكل قوتك وتقفز عليه وتمسك به. الى ان الحق بك».

ثم حرك حبلا طويلا كان قد ربطه، فاهتز العشب. صرخ «ونجو» صرخة القبيلة حين تهجم على صيد، ونط في الهواء بكل قوته، ووقع في الحفرة، فانغrust الاوتار الحادة في جسمه.

تحولت صرخة النشوة الى صرخة مدوية بالآلم، اقشعر لها جسد «كاركان» فجري دون وعي نحو الحفرة.

تعثرت قدمه بصخور فتطاير منها الشرر، ووقع فارتطم راسه بصخرة حادة فتهشم ومات في الحال.

أما «ونجو» فانه لم يمت من فوره، ولكنه ظل اباما ينهش الأرض ويحبو والدم ينزف من جسده، فكان من ذلك واد عميق، امتلا بالدم.

سرت النار من الشرر المتطاير من الحجارة، في مساحة واسعة، أتت على كل ما فيها، وحولته الى رماد. من ذلك الرماد خرج طائر أشهب مثل الصقر، ظل يحوم فوق تلك البقعة.

تقول الاسطورة ان الوادي الذي حفره «ونجو» بجسده هو «وادي الدم» المرعب، وان الطين الاحمر المقدس الذي يصبغون به اجسادهم لتأدية الطقوس، اصطبغ بالدماء التي نزلت من جسد «ونجو». وتضيف الاسطورة ان الصقر الأشهب الذي يلازم ذلك الموضع، ويظل يحوم فوقه، وبين كل حين وآخر يصرخ صرخة ترتجف لها القلوب، إنما هو روح «كاركان» الذي يبكي على أخيه «ونجو» أبد الدهر.

(للحديث بقية)

في الزمان البعيد، حين كانت اساطير الدأبوروجينز، ماتزال في طور التكوين، عاش أخوان، احدهما يدعى «كاركان» والثاني يدعى «ونجو».

كان «كاركان» عظيم الجسم، تعطيه قوته الجسدية جسارة وهيبة، كانوا يشبهونه بالسبع في قوته وبالنمر في رشاقة حركته، وبالتعلب في دهائه، وبالنعام في سرعة عدوه، لم يكن له ند

من بين فتيان القبيلة في الشراسة في القتال، والمهارة في استعمال الدبومراتج، ورمي الرمح. كان بلا منازع، فارسهم المعلم، وحامي حماهم.

الا ان القبيلة رغم اعجابها به، فأنها لم تكن تحبه. فقد كان متغطرسا متهورا سريع الغضب خشن الطبع. ولم يكن يكثر لنصح حكماء القبيلة، وقد جرهم بنزقه وحمقه الى صراعات مع جيرانهم لم يكن لهم يد فيها. لذلك لم يكونوا يحبونه، وكانوا يؤثرون عليه اخاه الاصغر «ونجو».

كان هذا على النقيض من «كاركان»، دمث الطبع، سمح النفس، دائم المرح. وكان صغير الحجم بالقياس الى أخيه، لا يميل الى النزاع والشجار، ولكنه يفضل السباحة في النهر، والسياسة في الغاب ينظر الى أجنحة الفراش بالوانها العجيبة. ويقلد اصوات الطيور والوحوش، ويجني العسل والتفاح البري. كان له صوت عذب، حين يغني به في العشيات، تجتمع حوله القبيلة رجالاً ونساء يصغون إليه.

هذا الحب كان يغيب «كاركان»، ويوغر صدره على أخيه. ليس هذا فحسب، ولكن «ميرومورا» زينة فتيات القبيلة، فضلت هي الأخرى «ونجو» على «كاركان». كان «كاركان» يظن انه امر طبيعي ان تختاره هو، ولكن «ميرومورا» الجميلة احب «ونجو» لرقه طبعه وجمال صوته، ولطف معشره. كان «كاركان» الشرس يبت في نفسها الانقباض، والخوف، الا انها كانت تجد الراحة والطمأنينة في صحبة «ونجو».

باركت القبيلة هذا الاختيار، وفرحت به، واخذت تستعد للعرس.

شعر «كاركان» بالإهانة والغيب حتى امتلا قلبه بالحقد على أخيه وعزم على ان يتحایل على قتله.

في مكان بعيد عن الحي، وسط غابة كثيفة من نبات البوص والعشب، حفر «كاركان» حفرة كبيرة، وغرس فيها اوتارا كان قد برى اطرافها فصارت حادة مثل أسنة الرماح، وغطاها بالعشب. ثم تحایل على أخيه وأوهمه ان الصيد يكثر في تلك البقعة، فخرج معه.



بقلم الطيب صالح

واقعة

نحو أفق بعيد ٨٤

فعلى الاثينيين ان يتوقعوا ضياع نفوذهم بالانسياس وراء عواطف الرحمة نحو اناس لن يرحموا الاثينيين اذا انتصروا عليهم.

تغلب رأي المعتدلين في هذه الحالة، ولكن حتى هذا لم يمنع الاثينيين من قتل الف رجل بدلا من الستة الاف الذين قرروا قتلهم بادية الامر.

بعد ان فتكت «اثينا» بمدينة «متلين»، وجعلتها مثلا، رأى الاثينيون باغراء من «كليون»، انهم يستطيعون ضربة لازمة ان يرفعوا عن كاهلهم ضريبة الحرب التي ارهقتهم، بمضاعفة «الجزية» التي فرضوها على المدن الخاضعة لسلطانهم، بمقتضى المعاهدات المبرمة بينهم وبين تلك المدن.

اعلنت الزيادة عام ٤٢٥ ق.م، وارسلت طلبات الدفع الى كل المدن، ولم يستجبوا مدينة «ميلوس»، المستقلة التي لم تدخل في ظل نفوذ «اثينا»، ولم تربطها بها اية معاهدة. وقد رفضت «ميلوس»، ان تدفع، فانتظر الاثينيون حتى عام ٤١٦ ق.م، حين احسوا بانهم يملكون القوة العسكرية الكفيلة لاجبارها على الانصياع. حينئذ جردوا حملة الى «ميلوس»، وارسلوا معها طلب الدفع باثر رجعي. ويقول المؤرخ اليوناني «ثيوسايبديس»، ان سفراء «اثينا» كانوا صريحين كل الصراحة مع اهل «ميلوس»، فقالوا لهم:

«لن نضيع وقتكم في الاستماع الى حجج مزيفة نبرر بها مطالبنا. لن نقول لكم اننا نستحق الزعامة والنفوذ لاننا حاربنا الفرس نيابة عنكم وطردها عن ارض «هيلاس». ولن نتظاهر باننا ننتقم منكم بسبب اي ذنب ارتكبنموه ضدا. انتم تعلمون كما نعلم نحن ان طبيعة الأشياء تقضي بان تكون «الحقوق» امرا لا ينطبق الا بين اطراف متعابلة في ميزان القوة. القوي حر في ان يفعل ما تمكنه قوته من فعله، والضعيف يدعون ويعاني كما تحتم عليه طبيعة ضعفه».

لم يقتنع اهل «ميلوس» بهذا المنطق، وقرروا الا يرضخوا لمطالبهم، وقالوا للاثينيين ان الالهة التي تؤيد الحق سوف تؤيدهم وتنتصرهم، فاجابهم الاثينيون بصراحة تامة ايضا:

«حين نتحدثون عن تأييد الالهة، فلعلها تنظر البنا نحن ايضا بعين الرضى، ان انا اهدافنا وسلوكنا لا تتعارض بوجه من الوجوه مع ما نعتقد ان الالهة ترضى عنه ومع ما يفعله الناس بعضهم ازاء بعض. فحسب ما وصل اليه علمنا عن الالهة التي نؤمن بها، والرجال الذين تعاملنا معهم وخبرناهم، فان الدول بمقتضى القوانين التي تحكم سلوكها، يحق لها ان تبسط نفوذها الى اقصى ما تسمح به قدرتها. وما نحن اول من ابتكر هذا القانون، ولا نحن اول من عمل بمقتضاه. لقد وجدناه في الدنيا حين جننا، وسوف نتركه لمن يجيء بعدنا. كل ما فعلناه اننا استفدنا منه، ولا يخامرنا ادنى شك انكم او غيركم لو كنتم تملكون مثل ما نملك من قوة لفعلتم مثل ما نفعل. واما فيما يتعلق بالالهة فنحن مطمئنون تماما من ناحيتنا».

قاومت مدينة «ميلوس» بضعة اشهر، ثم استسلمت، فذبح الاثينيون كل الرجال الذين بلغوا سن الرشد، واخذوا النساء والاطفال سبايا، وابعوهم في اسواق الرقيق. ولكن السماء لم تغض الطرف عن الظلم الذي حاق بمدينة «ميلوس»، ولم تغفر لاثينا غرورها وجبروتها، فبعد ستة اشهر من هذا التاريخ ارسلت «اثينا» حملة ضخمة لغزو جزيرة صقلية، فمكنت بهزيمة نكراء. ولم يحل عام ٤١٢ ق.م حتى كانت كل الشعوب الخاضعة لاثينا قد ثارت عليها ورفعت السلاح في وجهها ■

حين تدلهم الخطوب، اتعزى بعد كتاب الله الكريم، وسيرة الرسول الامين، اعظم من اظلمته السماء، واقلته الغبراء، اتعزى بشعر العرب. ولو شئت لسقت شعرا كثيرا يصلح لهذه الايام، ولكن حسبي ذلك البيت من شعر «الاستاذ» الذي لا امل من ترديده: من راحا بعينها شاقه القطان فيها كما تشبوق الحمول

قال العكبري، قال ابو الفتح: «اي من عرف الدنيا حق معرفتها يتيقن ان اهلها راحلون لا محالة، فلم يجد بين القاطن والراجل فرقا، فهذا يشوقه وهذا يشوقه، لان الرحيل قد شملهما. والمعنى: من رأى الدنيا بعينها وتوسمها بحقيقتها، شاقه القاطن فيها لقله مقامه، كما يشوقه الضائع عنها لسرعة زوالها...»



بقلم الطبيب صالح

واضيف، غفر الله لي، ان ابا الطبيب، اراد ايضا ان يضع حياة الانسان القصيرة في سياق الابد، لعل الانسان يدرك لو يستطيع، كم هي عابرة حياته، وكم هي تافهة مساعيه وطموحاته. والانسان، لانه ظلم جهول، قد يزين له غروره ان عمره القصير هو الابد، وانه مخلص في الارض، وان لا احد قبله ولا احد بعده. ينسى ان اناسا اثر اناس جاءوا قبلنا واحسنوا واساموا، ثم رحلوا. وسوف يجيء بعدنا اناس قد يرون ما نحسبه نحن صوابا، انه عين الخطل وغاية الحمق.

كذلك اجد العزاء في كتب التاريخ، وقد اعارني منذ ايام صديقي الدكتور محمد ابراهيم كاظم، احد حكماء العرب في هذا العصر، كتابا مملوءا بالحكمة للكاتب الانجليزي «بروفسر سي. نورثوك باركنسن»، عنوانه «تطور الفكر السياسي»، كنت قد قرأت لباركنسن كتابه الشهير «قانون باركنسن»، الذي يسخر فيه من البيروقراطية والبيروقراطيين لكنني ما كنت اعلم انه مؤرخ ايضا.

هذا الكتاب ليس مرجعا تاريخيا، ولكنه عرض لحقب متباعدة من تاريخ الإنسانية بطريقة فيها روح الطرافة والعبث، تذكرك بأسلوب المؤرخ الحبر «اي. جي. بي. نيلور». وقد لغت نظري فقرات يتحدث فيها الكاتب عن علاقات «اثينا» بجيرانها في القرن الخامس قبل الميلاد، اسوقها لكم فيما يلي:

«تجدر الإشارة الى مثلين من امثلة السلوك الامبريالي لمدينة «اثينا» يرجع تاريخهما الى الفترة التي اعقبت موت «بركليس» مباشرة. ففي عام ٤٢٨ ق.م، وصلت الاخبار الى «اثينا» بان مدينة «متلين» الخاضعة لنفوذها تعد للانقلاب عليها والاستقلال بذاتها، فارسل الاثينيون جيشا حاصر المدينة بالبر والبحر حتى اضطرت الى الاستسلام. اعقب ذلك جدل في «اثينا» ماذا يفعلون بالمدينة المهزومة. ونجح «كليون»، بانع الجلود في اذكاء حماس العامة، فصدر قرار بذبح كل رجال «متلين» الذين بلغوا سن التجنيد، وارسلت الاوامر بالفعل لتطبيق القرار. ولكن الجدل ثار من جديد في اليوم التالي فقد طالب «ديودوتس» بالرحمة لاهل «متلين» وعارضه «كليون»، الذي طالب بما اسماه «العدل»، وقال في مراقبته ان مقتضيات النظام الامبريالي لـ «اثينا» تحتم على الدوام بث الرعب في قلوب الرعايا الرافضين لسلطان «اثينا» والا

نحو أفق بعيد ٨٥

ولعمري انه أسلوب في الترجمة سوف يحدث جدلاً كبيراً بين مؤيدين ومعارضين، ولكن المهم في الأمر أنها ترجمة سلسلة واضحة، سوف تزيد المؤمنين من غير العرب إيماناً، ولعل الله يفتح بها على قلوب أغلقت أقفالها حتى الآن.

اليوم أعطاني تفسيراً طريفاً لمعنى «يا جوج وما جوج»، فانا كلما لقيتُه أذهب منه بفائدة. ولعله استفاد مني بشيء، فقد تحدثنا في معنى «ضحكت»، في الآية، حين ضحكت زوجة سيدنا إبراهيم وقالت عجوز عقيم. وذكرت له بيت تابط شراً في قصيدته الشهيرة التي يتهدد فيها قبيلة هذيل:

نضحك الضبع لقتلي هذيل
وترى الذئب نحوها يستهل

وهو معنى عجيب ينهني إليه أخي عبدالله ولد أربيه، من ديار شتقيط، رحمه الله رحمة واسعة، كان انساناً عالمًا وربما، هو أيضاً من عباد الله الذين يمشون على الأرض هونا، وقد سعدت بصحبته زمناً في الدوحة الميمونة، ثم نكبتني فيه طوارق الدهر، التي لا تترك حبيباً لحبيب.

حدثني إبراهيم أن رجلاً صالحاً من اصفياه في عمان، يتردد عليه وينهل من بركاته، قال له ذات يوم، في معرض الحديث عن القرآن الكريم، أن القرآن يثير عنده الشعور بالحنن. خطر لي بكاء الرسول الكريم حين سمع ترتيل عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، وقلت لأبراهيم:

لعل صديقك قصد الحزن بالمعنى اليوناني القديم pathos، فذلك كما تعلم احساس أشمل من الحزن. أنه احساس ماساوي بحالة الإنسان في نظام الكون، فيه معنى الشجى والأسى وربما أيضاً الفرح. وإذا كان اخواننا التصاري يجدون كل هذه المعاني حين ينظرون الى تمثال الـ pieta الشهير لمايكل أنجلو في الفاتيكان، فنحن عندنا أكثر منه بكثير في سورة مريم.

أقول لمن أحاور من اخواننا النصاريين:

«اقرأوا قصة ميلاد السيد المسيح عليه السلام في أناجيلكم، ثم قاربوا ذلك بسورة مريم. انظروا أي جلال وأي روعة بل وأي اعجاز في سورة مريم. سورة تبدأ بالرحمة، وتنتشر الرحمة في ثناياها وصفة الله سبحانه فيها «الرحمن»، يصفها الانسان من قبيل تشبيه الاسنى بالابنى، كأنها سمفونية موسيقية كبرى وحين تصل الى الآية الكريمة:

«قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعلنه آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً».

حينئذ تدرك كيف تجتمع معاني الاسى والشجى والحنن وفرح البشرى وأكثر من ذلك في معنى واحد.

انني أجد كل هذه المعاني مجسمة، حين أستمع الى سورة مريم بصوت الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد الرحمن الدروني رحمهما الله. الأول هو أمير المقرئين بلا شك، ولكنني أجد في صوت الشيخ عبد الرحمن الدروني حلاوة لا أجدها في أصوات مقرئين أكثر منه شهرة. وانت لا تصادفه كثيراً، ومن الإذاعات القليلة التي تذيع قراءاته، إذاعة القرآن الكريم من مكة المكرمة، وقد كنت أداوم على سماعها أيام إقامتي بالدوحة.

مالي ولاي تمأد؟ انني اعرف ذلك البيت من شعره منذ أمد ولكنه يبدو لي هذه الأيام كأنني أراه لأول مرة. كذلك الشعر. ياخذ من نواكب الزمان وطوارق الحدثن الوانا شتى وطرائف عجايب:

أعنى علي تفريق دمعي فأنني
أرى الشمل منهم ليس بالتقارب ■

لي صديق أردني

فلسطيني، أراد من الصالحين، وأرجو أن يكون كذلك ان شاء الله، تطيب لي صحبته، وأجد فيها متعة وفائدة. داره صغيرة بسيطة في ضاحية من ضواحي عمان. عامرة بالكتب العربية والانجليزية، والرفوف ملأى بكتب الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. أسعدني كل ذلك. الضاحية لأنها على ربوة مخضرة تطل على أودية من هنا ومن هنأ. الهواء المنعش العليل الذي تمتع به خلفاء بني مروان. بساطة الدار. ليس فيها شيء زائد عن الحاجة. ذكرتني بدار صديقنا صاحب «تفسير التفاسير» في الرياض أبي عبد الرحمن الطغام صنف واحد، كما استن لنا رسولنا الكريم.

شيء من أريز وشيء من دجاج بالمرق وشيء من بقل وخضرة وطماطم. أعدته زوجته التي تحمل شهادة الدكتوراه، وكانت صائمة في ذلك اليوم، وجاءتنا به ابنته الوحيدة. له ستة أبناء وبنت واحدة، بارك الله له فيهم. كلهم ناجحون، وهو كنيته «أبو ناجح».

يكتب الفقه والحديث والتفاسير، لأنه يترجم القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية منذ عشر سنوات، وقد أصدر مؤخراً ترجمته لسورة البقرة. وأشهد أنها خير ما رأيت من ترجمات. ذلك لأن الترجمة عنده ليست محض عمل، ولكنها تقرب الى الله وزلفى. وشتان بين أن يترجم القرآن رجل مسلم فتح الله بصيرته على معاني كتابه المنزل، وأن يترجمه مستشرق، سيان عنده كلام الله جل جلاله وكلام الجاحظ وابن خلدون.

هذا، الى جانب حساسية مرهفة لوقع كلام العرب، فهو شاعر مجيد، يتذوق جرس الكلمات ويفهم ابعادها ومراميها ويميز بين ظواهر المعاني ومستطناتها. يعلم أن كلام الله بعيد الغور، يجل عن الاحاطة والحصص، فيستخير الله، ويعمل الفكر، ويرجو أن يفتح الله عليه. ابن من هذا جهد مستشرق يكون على أحسن الفروض، أعنى عن النور الذي يسطع بين يديه! ولو كان لي من الأمر شيء، لمنع تداول تراجم المستشرقين بين المسلمين. انني لا أعلم أن مسلماً قد ترجم الإنجيل الى اللغة العربية، فما لهم يستحلون ما حرم نحن على أنفسنا؟

ذلكم إبراهيم أبو ناب، من الناس الذين يمشون على الأرض هونا، القبيل الذين يحبهم قلبي، وتطيب لي صحبتهم، وأرجو أن أحشر في زمرتهم.

حدثني أن ترجمته تعتمد منهاج الاستدلال بالسباق. لذلك فهو حين يترجم الآية الكريمة من سورة البقرة:

«أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا أن نصر الله قريب». فهو لا يترجم «تدخلوا الجنة» enter paradise، كما فعل غيره، ولكنه يترجمها attain to heaven وأنا معه في ذلك، فكلمة attain فيها معنى الحصول على الشيء بعد جهد، وليس مثلها enter التي هي مطلق الدخول.



بقلم الطبيب صالح

٨٦ نحو أفق بعيد

والمعنى واضح، رغم الكلمات الغريبة، وهو أنهم تبتوا لأعدائهم، وكانوا من بني أسد، وأعداؤهم تبتوا لهم، ولك أن تتخيل كم قتل بعضهم من بعض في هذه المعركة الطاحنة.

ولعبد الشارق بن عبد العزى أبيات جميلة مشهورة في هذا المعنى نفسه، يصف معركة لهم مع بني بئنة، تحاربوا فيها حتى نفدت افواسهم وسهامهم:

فلما لم يندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا اليها
تلاؤ مزنة برقت لأخرى اذا حجلوا بأسياق ردينا

الى ان يقول:

فابوا بالسيوف مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحسنا
فباتوا بالصغيد لهم أحاح ولو خفت لنا الكنى سرينا

وهي كما ترى أبيات محزنة،

تلخص نهايات الحروب في كل زمان ومكان.

أما قصيدة الجرمي الطائي، فله أبيات بليغة تحدث عندي حزناً عميقاً بسبب ما قطعته الحرب من أواصر وأرحام، يقول:

ولم أر خيلاً مثليها يوم أدركت
بني شعبي خلف اللهم على ظهر
أبر بايمان وأجرأ مقدماً
وأنقض مثلاً للذي كان من وثر
عشية قطعنا قرائن بيننا
باسياقنا والشامدون بنو بدر.

ما أعجب ذلك! وما أعجب موقف بني بدر وهم يتفرجون على العراك بين بني شعبي وبني ثعل!

ويترك معبد بن علقمة باب الصلح مفتوحاً في هذه الأبيات الرصينة، التي تنم عن رغبة في السلم من موقف القوة، ويترك الأمر للخصم:

فقل لزهير ان شتمت سرائنا
فلسنا بشئامن لسمتشم
ولكننا نأبى الظلام ونفتضي
بكل رقيق الشفرتين مصع
وتجهل أيدينا ويحلم رأينا
ونشتم بالافعال لا بالتكلم
وان الثمادي في الذي كان بيننا
بكفك، فاستأخر له او تقدم

ثم هذه الأبيات العجيبة التي قالها شبيل الغزاري في رثاء ابنه أخيه بعد ان حاربهم وقتلهم:

أيا لهفي على من كنت أدعو
فيكفيني وساعده شديد
وما من ذلة غلبوا ولكن
كذاك الأسد تفرسها الاسود
فلولا أنهم سبقت اليهم
سوابق نيلنا وهمو بعيد
لحاسونا حياض الموت حتى
تطايير من جوانبنا شديد

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

بعض الشعر مثل النار المدفونة تحت الرماد، تذكره الحوادث وطوارق الأيام. وهذا الشعر الذي أسوقه اليك، لا بد أنك تعرفه، وإن لم تكن رايته من قبل، فلعلك لا تألفه لأول وهلة. ألا أنك ستستعذبه اذا صبرت عليه، ولعلك تجد فيه مثلي فائدة وعزاء.

لله در محمد بن عبد الله الأزدي حين قال:

ولا أدفع ابن العم يعشي على شفا

وان يلفثني من اذاه الجنادع
ولكن اواسيه وأسى ذنوبه

لترجعه يوماً الي الرواجع
هذا شعر شريف كما كان يقول أشباخنا، فابن العم لا فكاك لك منه، فاصبر على اذاه وجناديه، أي دواخيه، فلا بد أنه راجع اليك في يوم من الأيام.

وهذان بيتان حكيمان لا يُعرف قائلهما، الذي اطلقهما منذ أكثر من ألف عام على الأرجح ومضى في سبيله:

الشر يسبذوه في الأصل أصغره

وليس يصلى بنار الحرب جانبيها
الحرب يلحق فيها الكارهمون كما

تدنو الصباح الى الجزى فتعديها
وفي هذه الأبيات يرثي قيس بن زهير العنسي، وقد كان من فرسان حرب داخس والغبراء وشعرائها، حمل بن بدر الغزاري، والأبيات تشير الى واقعة محزنة من وقائع تلك الحرب المشؤومة:

تعلم أن خير الناس ميتٌ على جفر الهبابة لا يريم
ولو لا ظلمة ما زلت أسكي عليه الدهر با طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر بنى والبغي مرتعه وخيم

وقال العباس بن مرداس السلمي، وكان من الفرسان المحدثين، وأمه الخنساء الشاعرة، وقد لقي الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأبلى بلاء حسناً. وهذه الأبيات الشهيرة من المنتصفات التي لا تبخس الخصم قدره، قال:

فلج أن مثل الحي حياً مقبلاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمي للحقيقة منهمو وأضرب منا بالسيوف القواصا
اذا ما شدنا شدة تصبوا لنا اذا صدور المذاكي والرماح المذاصا
الخيال حالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن الا عواصا

٨٧ نحو افق بعيد

سخرية تقترب من روح شيكسبير التي ترثي لتفاهة مسعى الانسان، وهو يشن الحروب ويدبل الدول ويرتكب الحماقات. في سمت هذا المؤرخ العتيد تبرم كأنما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ.. تقرا كتابه، فإذا فرغت منه فكانما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من أقصى اليسار الى لا قرار. كان متحمسا لحزب العمال، ثم فتر حماسه، انه الان في نحو الثمانين، عليل يقف على حافة القبر. اسأل الله ان يشفيه فهو من هؤلاء الانجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيرا من سيئاتهم...

قامت زويعة اول ما صدر الكتاب - جذور نشوب الحرب العالمية الثانية - اخريات الخمسينات، لان الن تيلور قال ان ادولف هتلر لم يكن عبقريا شيطانيا، كما يزعم، ولكنه كان رجلاً عادياً لا يملك اية مؤهلات خارقة، وانه لم يكن يعمل وفق خطة جهنمية، ولكنه كان يتخبط، كبقية الزعماء والسياسيين، وانه نجح لان الانجليز والفرنسيين كانوا اكثر تخبطاً منه. هذا الرأي اغضب اليهود وكثيراً من الاوربيين، اما الاوربيون فلانهم لم يجدوا سبباً منطقياً لما حدث، فخلقوا اسطورة «ادولف هتلر العبقرى الشيطان». كانت المانيا اكثر الدول الاوروبية تحضراً وكان اليهود في المانيا من اكثر الجاليات اليهودية في اوربا رخاء واستقراراً. لماذا اذا حدث ما حدث؟.. واذا كانت المانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتملاً ان تفعله فرنسا او بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابضة في اعماق اللا وعي الاوروبي عموماً؟..

واما اليهود، فانهم بطريقتهم «المثولوجية» في النظر الى تاريخهم، اعطوا ماساتهم، وهي ماساة لا شك فيها ابعاد ملحمية كما في الاساطير القديمة، فجاء الن تيلور، ونظر اليها كما ينظر الى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولان اليهود لم يكونوا بمعزل تماماً عما حدث لهم...

انكر ندوة تليفزيونية تلك الايام. كان الن تيلور يرد فيها عن اسئلة حول كتابه قال له احد المشاركين، وكان واضحاً انه يهودي «انك بافتراضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في اقامة دولة اسرائيل، فرد عليه تيلور بتبرم واضح «اسمع. لا تحدثني عن اسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. اسرائيل لا شيء. بريطانيا لا شيء. امريكا لا شيء. روسيا لا شيء».

●●●

انني لا اعرف ان مؤرخاً غيره جرؤ على مثل هذا القول، وقد كان ذلك امراً جليلاً بحق في تلك الايام. لقد اوصلته دراساته فيما يبدو الى ان الكائن البشري عموماً «لا شيء» وهو راي يشبه راي المرجوم مصطفى صادق الرافعي حين قال: «ما الانسان، وما خيره وشره» انه مثل حفرة برجل نملة لتدفن فيها نملة..

نعم، هذا مؤرخ من طراز نادر، لا يجود الزمان بمثله الا على فترات متباعدة ■

(للحديث بقية)

حين علمت نبأ موت المؤرخ الانجليزي الحبر «اي جي بي تيلور» الذي توفي منذ اسبوعين، شعرت كأنني افقد صديقاً عزيزاً، رغم انني لم اقابل الرجل ولم اعرفه الا من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته. ذلك لانني كنت اعتبره واحداً من هذه الزمرة الكريمة من الرجال والنساء، الذين تجمعك بهم اواصر الروح والعقل والضمير، على بعد السيار واختلاف الاعراق والانتماءات، فكانهم اهلك بحق.

كان بحر علوم في ميدانه، يملك الى ذلك عقلاً نافذاً جذاباً وبياناً ناصعاً ساخراً، وجرأة على السباحة عكس التيار، والتصريح بافكار يعلم انها سوف تغضب الكثيرين وتجرح عليه العداوات والاحقاد، لكنه كان باحثاً عن الحقيقة اثنى وجدها، وعنده تلك النزاهة والشجاعة اللتان يمتاز بهما بعض علماء الانجليز الخالص. وكان يؤمن ان التاريخ يجب الا يكون حكراً على المتخصصين، ولكن على المؤرخ ان يجعله جذاباً ومفهوماً على اوسع نطاق. فكان من اوائل المؤرخين الذين استغلوا وسائل الاتصال الجماهيرية، فكتب في الصحف، وحاضر في التلفزيون. واكثر ما اثار عليه سخط زملائه الاكاديميين، انه لم يحجم، رغم انه كان اميل الى اليسار، ان يكتب في صحف «بيفربروك» اليمينية المتطرفة، بل انه كان صديقاً لصاحبها «لورد بيفربروك»، وألف كتاباً عن حياته.

ربما لأجل ذلك لم يعطوه كرسي استاذ التاريخ المعاصر في جامعة اوكسفورد الذي كان يحلم به، وفضلوا عليه منافسه «توفر روبر»، وهو مؤرخ اقل منه قدراً في نظر الكثيرين، ولكن حسبه انه كان طوال حياته مثار اهتمام واسع، من الاكاديميين وغيرهم، وان محاضراته في التلفزيون كانت تعتبر مناسبات مهمة تظل اصداؤها تتردد زمناً طويلاً بعد عرضها، وان فصوله في جامعة اوكسفورد التي كانت تبدأ في التاسعة صباحاً، كانت تمتلىء بمستمعين من تلاميذه، ومن تلاميذ يتقاطرون عليه من الكليات الأخرى، وجمهور يفد من اقاصي القطر خصيصاً للاستماع اليه.

لقد كانت اول مقالة كتبها في هذه الصفحة بتاريخ ١٩٨٩/١/٢٥، عن هذا المؤرخ الجليل. واستميج القاريء عذراً في ان اعيد بعض فقراتها. قلت:

«يعجبني من المؤرخين الانجليز المعاصرين، اي جي بي تيلور، او الن تيلور كما يسميه انصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك لانه ينظر الى التاريخ بجرأة وطرافة وغير قليل من السخرية. وهي



بقلم الطيب صالح



بقلم الطبيب صالح

حين قدمت على بغداد في شهر نوفمبر الماضي، كانوا قد بدءوا عيد الحسين زويلف لتوهم مدير الجهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونيسكو الاقليمي في عمان، الذي يرأسه الدكتور محمد ابراهيم كاظم، قد جندني في هذه المعركة. ان اكون امياً بين الاميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة،

كم انا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت اكتشف اشياء جديدة. لقد طوقت هذا العام المتنوع الجميل عدة مرات من قبل، وظننت أنني اعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، أنني لم اعرفه حقاً لأنني لم انظر اليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الاميين. اكثر من مائة مليون اني في العالم العربي! معنى ذلك انك لن تستطيع ان تصنع تنمية، ولا ان تقيم حضراً ولا مستقبل. لن تستطيع ان تحقق شيئاً من هذه الاحلام الجميلة التي تعن لهؤلاء الناس الاكابر. واذا صدقنا شعار منظمة اليونيسكو، وهو حق، بما ان الحرب تنشا في عقول البشر، فلا بد من اقامة حصون السلام في عقول البشر. معنى ذلك انك لن تستطيع اقامة اي من هذه الحصون، إلا اذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدنا، بل كانت اجمل. كان سوق المربد، عامراً وتبارى الخطباء والشعراء والقي محمد الفيتوري قصيدته العصماء ولم يتركوا لك ما تقول.

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وحففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الاريحي، ولكنهم تناسوه واخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الأمية.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الأمية تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. إلا أن عبد الحسين زويلف كان واثقاً انهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراعتهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودودة ووجهه الطيب، ورافقني طوال اقامتي، وكان سعيداً متفائلاً. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطفه يس اسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الاميين في كل مكان، في الاهوار حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو. في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الأمية قضاء تاماً. وكما تتحول احوال

الحروب إلى اساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الأمية، إلى اسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف. قصدت الكويت بعد بغداد، وهناك لقيت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل اخيه في بغداد تماماً. كأنه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الأمية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودمائة الخلق وحب الخير والایمان العميق بقيمة الانسان.

بعض المهن والحرف تفعل هذا الاثر في اصحابها. الاطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سرّاً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث امام اعينهم يوماً بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل ان تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد امد من الظلام، تنحل لهم الرموز، وتنسف الغار الحروف. ك... ت... ب... /كتب/ع... ر... ف... /عرف/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الأمية إلى وجوه الاميين، رجالاً ونساء، فجأة تشع بالحياة حين يقرأون ويكتبون ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها ان تتعلم الآن؟ انها تلك الرغبة المتأصلة في الانسان ان يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة افضل مع الآخرين، الا ان معظم الذين يقبلون على فصول محو الأمية تحدوهم ايضا رغبات ملحة لتحسين اوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الأمية، وهو احسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معداً اعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الأمية، من الكويتيين وغيرهم. تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت ان اعرج على دار كريمة واسلم على ساكنها الكريم، الاستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال اربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الايام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الاعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الانسان الفذ. ومهما يكن فإن تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الانجليزية والفرنسية، سوف يظل اثرأ جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذت بي الطائفة نحو صنعاء. هنالك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف اجد صديقي عبد العزيز المقاتل. وسوف ازور «حجة» واري العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع. في العالم العربي، عالم الاميين على الاقل، عالم واحد ■

(للحديث بقية)

والتربية



بقلم الطبيب صالح

في صيغاء، وجدت محمد المصواحي رئيس جهاز تعليم الكبار ومحو الأمية، كما توقعات، التواضع الجرم، ودمائة الخلق، والروح الخيرة التي تضيء الوجه وتطل من العينين، مثل كل العاملين في هذا الميدان. أصغر سنا من عبد العزيز النجدي في الكويت، وعبد الحسين زويلف في العراق، لذلك فهو أكثر منهما اندفاعاً.

المشكلة في نخله واضحة، والحل واضح. الأمية هي الوباء الذي يجب ان تحشد لمحاربته كل الطاقات وتسخر كل الامكانيات. لقد بذلت اليمن جهداً لا يستهان به، ولكن الحكومات تنظر الى الأمور من زاوية مختلفة. لا بد من توفير الغذاء للجياح، والعلاج للمرضى، والعناد للجيش. وثمة التعليم النظامي، المدارس والمعاهد والجامعات. واذا كانت الموارد محدودة، فكيف تصنع؟

قابلت في رحلتي بعد ذلك مسؤولين يرون الامر بخلاف ما يراه محمد المصواحي. يقولون لك ان المشكلة سوف تختفي من تلقاء نفسها حين يعم التعليم النظامي، التعليم عندهم هو الذي يكون بين جدران المدارس، اما فصول محو الأمية، وناس يتعلمون في العراء تحت الشجر، والقوافل المتنقلة، والدروس المسجلة على الفيديو والكاسيت، وتجيء عبر الراديو والتلفزيون الى غير ذلك من الافكار الجديدة، فهذا في رأيهم ليس تعليمًا وتسألهم:

وماذا يحدث حتى يعم التعليم النظامي؟ ماذا تصنعون بأعداد الاميين التي تزايد يوماً بعد يوم؟ ما هو مصير اولئك الذين يقطعون تعليمهم في سن مبكرة لسبب او لآخر، ثم يرتدون الى الأمية؟

ويجيبونك بأنه لا مناص للدولة من ان تضحي بهؤلاء في سبيل اعداد اجيال متعلمة تعليمياً صحيحاً في المدارس النظامية.

منظمة اليونسكو كانت المنظمة الدولية الوحيدة التي رفضت هذه الفلسفة الممعة في القسوة. المنظمات التي بيدها المال مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، كانت تؤكد على التنمية الاقتصادية، وتؤمن بانك اذا وجدت الحل لمشكلة الفقر، فسوف تحل المشاكل الأخرى من تلقاء نفسها.

بدأ الحال يتغير. اخذت هذه المنظمات تميل الى وجهة نظر اليونسكو، وتقبل بان الانسان الأمي الذي يعيش الآن، لا يعزبه ان الاجيال القادمة سوف تكون متعلمة، وان له الحق هو ايضا في ان ينمي الطاقات العقلية والروحية التي منحه الله اياها الى اقصى مدى، وان التنمية الاقتصادية التي تبني على الأمية والجهل، انما تقوم على رمال. لذلك فقد اعلن المجتمع الدولي هذا العام، عام ١٩٩٠، بداية عقد

مكافحة الأمية في العالم. بأمل القضاء عليها كلية بنهاية القرن. وهو مطلب عسير، ولكنه ليس مستحيلاً. اذا صدقت النبوة وصح العزم، لو تحقق الحلم، فسوف تكون البشرية ككل، قد انجزت اول ثورة حقيقية في تاريخها. يوجد مليار، الف مليون انسي في العالم الآن. يوجد مائة مليون طفل لا امل لهم في الحصول على التعليم النظامي، تصور اي فلام يلف هذا الكوكب! اي طاقات بشرية معطلة!

وربما لأول مرة يعترف المجتمع الدولي ككل، ان التنمية الاقتصادية ليست هي كل شيء، وان تنمية قدرات الانسان العقلية والروحية، واعطاء المهارات الضرورية لمواجهة الحياة، لا تقل اهمية عن التنمية الاقتصادية، ان لم تزد عنها في الاهمية. وقد جاء في ورقة العمل الرئيسية التي قدمت في المؤتمر العالمي حول «التربية للجميع»، الذي عقد في تايلاند في اذار (مارس) من هذا العام، ما يلي:

«ان التنمية البشرية هي في صميم أي تحرك انساني، وان التربية لكونها عبارة عن تسليح الافراد من خلال توفير المستويات الاساسية من التعلم، هي حق من حقوق الانسان، ومسؤولية اجتماعية».

وتقول الوثيقة في مكان آخر:

«ان حلقة الوصل بين التربية الاساسية وتنمية الافراد والمجتمعات تعتمد على تحصيل مستويات التعلم المطلوبة، لا على مجرد الالتحاق او الاشتراك في البرامج التعليمية او الحصول على الشهادات... يجب ان تتاح لكل الأطفال واليافعين والشباب فرصة بلوغ مستوى مقبول من التعلم من خلال الفرص المتاحة في التربية الاساسية... عدم توافر فرص الالتحاق في المدارس النظامية يجب ألا يمنع اي طفل من الحصول على اساس تربوي مشترك يؤهله للحياة او للتعلم في المستقبل...».

هذا يعني الاعتراف بامرين اولاً ان التنمية البشرية هي الاساس في التنمية الاقتصادية ولا تنمية بشرية مع الأمية. وثانياً ان التعليم النظامي، بشكله التقليدي، لا يستطيع وحده حل المشكلة. لا بد من استعمال وسائل جديدة متنوعة، وخاصة وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التلفزيون في التصدي لهذه المشكلة الكبيرة.

هذا ايضا يعني ان محمد المصواحي ورفقائه العاملين في ميدان محو الأمية في العالم العربي، ومن على شاكلتهم في انحاء العالم الأخرى، كانوا ابعد نظراً من البنك الدولي وغيره من المنظمات الدولية. لقد مارسوا المشاكل عن قرب، ورأوا الحلول تتكشف لهم على هيئة معجزات تحدث بين ايديهم كل يوم. المشاكل والحلول ليست احصائيات ونظريات وتصورات يصنعها اناس اذكاء في اماكن بعيدة، انهم يرونها ماثلة امامهم في هيئة رجال ونساء يعرفونهم بأسمائهم. كل واحد منهم مثل حبة القمح في كوم القمح، قائمة بذاتها وتنطوي على سر عظيم. غدا سوف تبدأ هذه العوالم المغلقة تبوح ببعض اسرارها، تتحسس طريقها في الظلام. تاخذ في فك طلاسم الحروف، حينئذ ينشأ ضوء يغمر وجود الاميين، وينعكس على وجوه الذين ساعدوا على حدوث المعجزة مثل محمد المصواحي ومن على شاكلته من عباد الله الأبرار ■

وراءك



بقلم الطبيب صالح

تسافر من صنعاء الى الرياض، فكانت تعبر الجسر من ام درمان الى الخرطوم بحري، او من الاعظمية الى الكاظمية او من الرباط الى سلا. تركت صنعاء البلقاء قاصدا الرياض العصماء، وحين تسافر بالطائرة هكذا، تبدو لك هذه العواصم العربية كأنها احياء في مدينة واحدة. تلم بها ليلا او نهارا. الاضواء اوضح هنا، والمطار اكبر هنا، البيوت اسوأ حالا في مكان،

والمآذن اكثر ارتفاعا في مكان. هنا يبنون بالحجر الابيض، وهنا يبنون بالطوب الاحمر، وهنا يبنون بالطين الاخضر، وهنا يبنون بالاسمنت والزجاج والحديد. هنا رواب مخضرة، وهنا صحارى مصفرة، وهنا نهر جار، وهنا بحر أجاج. وحين تسمع نداءات المؤذنين في الفجر، لا تكاد تميز اين انت. الله اكبر في القاهرة كما الله اكبر في بغداد.

جموع تتزاحم في الشوارع والاسواق، امواج من محيط واحد وحقيقة واحدة. ثوب من نسيج واحد ولكنه متعدد الالوان. ويا لها من الوان مذهشة اذا نظرت اليها بعين الرضى. انما لا تتعجل شروق الشمس، ولا تمرق الثوب لانك تضيق بتعدد الالوان.

في صنعاء ذات القوام الرشيق والسمت المميز، لقبت فيمن لقبت، صديقي سيد احمد الحردلو، الشاعر الموهوب، الذي كان سفيرا ناجحا للسودان في اليمن. وجدت انهم خلعه من عمله. كل عهد تجود به علينا الايام، لا تقر عينه، حتى يعزل افواجا من السفراء والضباط والوكلاء والمدراء ومن هم ادنى من ذلك. كأنهم يقلعون اشجارا بدأت تثمر ليزرعوا مكانها اشجارا آخر. وينتظرون الحصاد، ويقولون ان ذلك لاجل مصلحة الوطن. الله للوطن. ولو سألوا راعي ابل في ارض البطانة اميا لا يقرأ ولا يكتب، لانهم كيف تكون مصلحة الوطن. انه يعلم انك لا تدبج الناقة الحلوب، ولا تعقر الجمل الطروب.

* رفاعة الرئية قافاها البليبي طربان،

ذاك جمل الشاعر الشكري، الذي لو عقره لما قضى وطرا.

وقد قال ابو العلاء رحمه الله:

أرجو لها شرا ولم أر مثلا

سفائر ليل او سفائن ال

ومن منبغات اذا جرن واديا

تخللنا منهم فوق جبال

ذاك وقد قضيت اياما عامرة مع الاميين بصحبة محمد المضواحي. في اليمن ايضا قاموا بحملة وطنية لمحو الامية بذات عام ١٩٨٢، شاركت فيها الهيئات الحكومية والشعبية والشرطة والجيش، وكادوا يبلغون الهدف. وقد طبقوا النظرية التي بلورها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. واحسنوا الاستفادة من الجهاز العربي لمكافحة الامية وتعليم الكبار. الا انهم لسوء الحظ ضعف حماسهم بعد ذلك كما فعلت دول

عربية اخرى، فاجذبت الامية تزحف من جديد.

انشاء ذلك جددت العهد بصديقي الدكتور عبد العزيز المقالح، الشاعر العالم الاديب، مدير جامعة صنعاء، وهو احد الرجال الذين يعتد بهم في العالم العربي. وقد زاد من سعادتي انه هيا لي لقاءات مع الطلبة والاساتذة في الجامعة، استفدت منها اكثر مما استفادوا مني. كذلك سعدت بلقاء الاخ حسن اللوزي، الوزير الشاعر. وقد وجدت عندهم اخي سليمان العيسى، الشاعر الكبير ذا الخيال الجموح والقلب الخفاق. وقد اهداني ابياتا من شعره، جادت بها قريحته عفو الخاطر، ما وددت ان لي بها حمر النعم، يقول فيها:

دعنا اذا في قاع قاع النيل

نخرج من دمنا قاع النيل

نخرج من دمنا قاع النيل

نخرج يوما يا اخا المقليل

ليس على الله بمستحيل

ثم سافرنا الى حجة، على بعد قرابة اربع ساعات بالسيارة، في طريق متعرجة تصعد في جبال جرد تحتها اوبية خضر. ولما بلغنا حجة، اذا بلدة عامرة تشرف على مناظر تخلب اللب، اصبنا الغداء في نزل على ربوة جميلة ثم، كانت تنوافذ عليه قوافل من السواح الالمان والطلبيان والامريكان وغيرهم. يا سبحان الله. جمال بلاد العرب يتفتح به الناس من الشرق والغرب، واهله عنه في شغل.

طفنا بعد ذلك بصفوف مكافحة الامية، رجالا ونساء، اذكر منها على وجه الخصوص، صفوا للنساء، تراوحت اعمار النساء فيه بين العشرين واقل، وما فوق الخمسين. ووجدنا صبية في الحادية عشرة، فضلت صف محو الامية على المدرسة النظامية، لانها انسدت اكثر الى مدرسة محو الامية، ولان اختها التي تكبرها سنا كانت في فصل محو الامية. وقد وجدت في ذلك دليلا على ان التعليم يمكن ان يتم حيثما اختار الطالب، وليس حتما ان يقدم بين جدران المدارس النظامية. وان انس لا انس تلك العيون النجل المشعة بالذكاء، تطل من ثنايا البراقع كأنما الى افق قريب المثال.

سوف نصل ان شاء الله، انما لا تتعجل مولد الفجر. لا تتعجل مولد الفجر يا عمرك الله، فالامر ليس بيدك، وكل شيء له اوان، النخلة لا تثمر قبل الموسم، والله غالب على امره.

هذا وقد ابتعدت الطائرة من صنعاء واقتربت من الرياض. انما هما في خيالي اجزاء من مدينة واحدة. سلام على تلك المدينة. وانت ابها، الشاعر، لذت بعالم الاطفال فرارا من عالم الكبار، كما الود بعالم الاميين. انت في معقلك في «تعر، البيت الأكتب الال للاطفال. تكتب وتنتظر. ارجو الا يطول انتظارك، والسلام عليك ان تقول:

اني ممن يبحثون عن رنة

جديدة للدودة، المهترئة

اعني بها دماسا الكريمة

في الأمة المنكوبة العظيمة

* رفاعة مدينة على النيل الازرق جنوب شرقي الخرطوم على اطراف البطانة.

ديار قبيلة الشكرية العتيدة

الرنة، اي ان سكانها خليط

قافاها، اي تركها وراهم

البليبي، اسم جمل الشاعر، وذ عوض الكريم، ربما لجمال لونه الابيض،

مثل الفضة.

(للحديث بقية)

والمكان



بقلم الطبيب صالح

انت هنا في نجد، باريج هوانيا الذي دوح السعراء منذ قال قائلهم..
وتحسب سلمى ما تزال كعهدنا
بوادي الخزامى أم على رس

الجهود التي تبذلها الوزارات والمؤسسات الخاصة. ويعود التفات الدولة الى قضية مكافحة الامية في المملكة الى عام ١٩٤٩، حين وجدت ان الضرورة تقتضي فتح صفوف مسانية للاميين في المدارس. وفي عام ١٩٥٤ انشئت ادارة خاصة لمحو الامية وتعليم الكبار سميت «ادارة الثقافة الشعبية»، كانت تتبع التعليم الابتدائي، ثم استقلت بذاتها، واصبحت في عام ١٩٧٧ تعرف بـ «ادارة تعليم الكبار ومحو الامية». وفي عام ١٩٨٥ ارتفعت الى مستوى الامانة العامة، وسميت «الامانة العامة لتعليم الكبار».

هذا ان دل على شيء، فانما يدل على مدى الاهمية التي توليها المملكة العربية السعودية لقضية الامية، فقد وجدت في بعض الدول التي زرتها، ان الجهاز المشرف على مكافحة الامية، لا تنح له الامكانيات البشرية والمالية اللازمة، وهذا يعني ان الدولة لا تضع قضية الامية في درجة عالية في سلم اولوياتها. ولعل لهذه الدول بعض العذر اذ ان مواردها المحدودة لا تفي بكل الحاجات، ولا تتسع لكل المطالب الملحة. ورغم ذلك، فان جميع المؤتمرات الدولية التي انعقدت لدراسة قضية الامية، قد اوصت بان تضع الدول قضية مكافحة الامية في موضع بارز بين اولوياتها، وان يكون الجهاز الاداري المشرف على جهود مكافحة الامية، على درجة عالية. هذا بالطبع يقتضي التزاماً من الدولة، كما يقتضي اصدار تشريعات وسياسات على اعلى مستوى.

المملكة العربية السعودية واحدة من الدول العربية التي فعلت ذلك، فاصدرت التشريعات المطلوبة، وخصصت الموارد اللازمة. ويظهر عمق هذا الالتزام بوضوح، في كلمة قدم بها وزير المعارف، الدكتور عبد العزيز الخويطر، لكتاب اصدرته الوزارة عام ١٩٨٦، عن جهودها في مكافحة الامية، جاء فيها:

«والامم تقاس من جلة ما تقاس به، باهتمامها بالالتفات لهذا الجانب، مجتمعاً وافراداً، لان التكاتف ياتي بالنتيجة السحرية المنوخة، والتراخي اهدار لجهود اي من الطرفين، جهد المجتمع، او جهود الافراد المتناثرة.. لهذا مجهود الدولة، وما ترصده من اموال، وما توفره من طاقات لا يستغرب.. فهي الدولة المسلمة التي اشاد قرانها، وهو منبع تعاليمها، ومصدر ارشادها ورشادها، بالعلم، واكد اجر حامله وثوابه في الدنيا والاخرة، وحث على طلبه وتكريم حامله».

كل هذا حق، وثمة جهات اخرى غير وزارة المعارف، تقوم بجهد عظيم في مكافحة الامية، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، وزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والحرس الوطني السعودي على وجه الخصوص، يقوم بجهد ضخم ملغى للنظر، ربما يكون فريداً من نوعه، في مكافحة الامية واتاحة فرص التعليم الى ارفع المستويات بين افراده، ورغم ذلك فان مشكلة الامية لم تحل تماماً، ومعدلاتها ما تزال مرتفعة بالنسبة لمجموع السكان، ذلك بلا شك، ليس بسبب اي تقصير من جانب الدولة، ولكنه يعزى الى ظروف بيئية واجتماعية.

نجد التي ناجاها
غيلان، واطن فيها
الشيخ عبد العزيز، هواء
رقيق الحواشي حتى في
شهور الصيف، نعم،
تروق لي هذه المدينة
الحسنة، تجد مطارها
اول ما تصل، مفتوحاً
على الأفق، كأنه امتداد
له، لذلك فانت لا تحس
فيه بالاختناق الذي
تحسه في بعض
المطارات، وقد وفق

مصممو معماره في الجمع بين القديم والجديد، فاصبح دون شك تحفة من تحف المعمار المعاصر، ليس مثله مطار جدة، ذو الاجزاء المبعثرة، والاسقف كأنها خيام مقوضة. وعلى الجدران لوحات جميلة، بينها جدارية للفنان المغربي الشهير فريد بلكاشية، اذا مررت بها في صالة المغادرين للرحلات الدولية، فتربث عندها قليلاً، ففيها فن كثير. تصل، فتتهبط في طريقك الى حيث ختم الجوازات وتسلم المتاع، الى باحة فيها شلالات ماء تنهمر على صخور ملساء، واضواء رهيفة تصب على اشجار وزرع. يزداد عندك الاحساس بالرفاه والسعة.

كذلك الشوارع، وسبعة، وقد بذلوا جهداً كبيراً في زراعة النخل والشجر على جانبيها، توجد بقايا نخل قديم هنا وهنا، لم تفتك بها بعد الابنية الحديثة. لعلهم اكلوا من الاسمنت والزجاج، ورغم انني من اتباع الدكتور حسن فتحي رحمه الله، ولا يعجبني المعمار الحديث عموماً، الا انني لا انكر ان بعض هذه الابنية الحديثة ذات معمار طريف اخاذ. واذا كانت دور الحكومة تميل الى الضخامة، فلا بأس، لان مساحة القطر شاسعة، والمقياس، الـ Scale الذي تقاس به، كبير ايضاً.

لكنك تدهش حين تدخل مبنى وزارة المعارف، فهو بناء قديم متواضع بمقاييس مدينة الرياض. وتدهش اكثر حين تدخل مكتب الوزير، الدكتور عبد العزيز الخويطر، فهو مكتب بسيط بكل المقاييس، كان واضحاً لي انه فعل ذلك عن قصد وليس بسبب ضيق ذات اليد وقد سألته آخر مرة زرتة، فاجابني ضاحكاً، انه يؤثر ان يضع كل موارد الوزارة في المدارس. رجل كريم الخلق، جم التواضع، موطاً الاكتاف، على دراية وعلم غزير. اعرفه منذ ايام دراسته في لندن في الخمسينات، تعرفت به عن طريق الدكتور محمد ابراهيم الشوش، الذي كان يراسله في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

قضية مكافحة الامية من اختصاص وزارته، فهو ايضا رئيس اللجنة العليا لتعليم الكبار، التي تضم عدة جهات تعنى بذلك مثل وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية والحرس الوطني والرئاسة العامة لتعليم البنات ووزارة الاعلام وغيرها. وهذه اللجنة تضع الخطة الشاملة لمحو الامية، وتنسق



بقلم الطبيب صالح

بالكتب والوسائل التعليمية، ويتابعون سيرها بالرعاية والنصح.

وقد أسعدني أيضاً، أنني وجدت أن وزارة المعارف، تنظم حملات شاملة تساهم فيها وزارات أخرى مثل وزارة الصحة والزراعة، في أماكن التجمع السكاني في الريف والبادية، تقدم فيها إلى جانب دروس القراءة والكتابة، دروس ومواد فلمية بغرض التوعية الصحية والدينية والاجتماعية. هذا ما يسميه الدكتور محيي الدين صابر المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بـ «محو الأمية الحضارية». فهو يرى أن الأمية لا تقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة، ولكنها تتعداها إلى جوانب أخرى لا تقل خطورة، تنضوي جميعاً تحت شعار «الأمية الحضارية». لذلك فهو يدعو إلى أن يصحب الجهد لتعليم الأميين القراءة والكتابة، جهود مترامنة لتعليمهم مهارات تمكنهم من رفع مستواهم المعيشي، وتفجير قدراتهم الكامنة بحيث يستطيعون أن يعيشوا حياة أكثر ثراءً، ويكونوا مواطنين فاعلين يساهمون في تنمية البيئات التي يعيشون فيها، وبالتالي في نهضة الوطن عموماً. وهكذا تكون الحملة «شاملة»، لأنها تتجه إلى كل اعراض الأمية والتخلف في وقت واحد. هذا «المفهوم» أصبح سائداً في الوطن العربي عامة، ومعمولاً به بدرجات متفاوتة من الجدبة.

ومن السنن الحسنة التي استنتجتها وزارة المعارف السعودية أنها ابتكرت ما أسمته «الأسرة الوطنية لتعليم الكبار»، فقد أصدر وزير المعارف قراراً عام ١٤٠٤هـ بتكوين لجان استشارية باسم «الأسر الوطنية» تكون ضمن جهاز التطوير التربوي، الهدف منها إساءة النصح للوزارة فيما يتعلق بتطوير المناهج واساليب التعليم وغير ذلك، وهي تضم إلى جانب المختصين من وزارة المعارف، أعضاء يتراوح عددهم في كل لجنة، ما بين ثمانية إلى خمسة عشر عضواً، يراعى في اختيارهم أن يكونوا من مناطق وخبرات مختلفة، ويحبذ أن يكونوا من اساتذة الجامعات والعاملين في مجال التربية والتعليم. وتعمل هذه اللجان مدة ثلاث سنوات. وتجدد عضوية بعض الافراد اذا دعت الحاجة اليهم مدة اطول.

واضح من هذا، أن وزارة المعارف تعمل على توسيع الدائرة التي تتلقى منها المشورة في امور التعليم. والفكرة معمول بها لدى اغلب الدول العربية بأشكال عدة، ولكنها هنا اخذت شكلاً له مقومات الثبات والاستمرار. وقد أصبح من الاسور المقبولة الآن في العالم، أن تطرح قضايا التربية على جمهور اوسع من دائرة المختصين وبعض الدول، مثل دول اسكندنافيا، تذهب حداً بعيداً في ذلك. ويصدق هذا بصفة خاصة على قضايا تعليم الأميين. والدراسات التي اجرتها منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمؤتمرات التي انعقدت لهذا الغرض كلها تؤكد على جدوى المشاركة الواسعة في صياغة الاهداف والخطط والوسائل للجهد القومي في التعليم. ويحمد لوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية أنها بدأت تسير في هذا الطريق، ربما بشيء من الحذر وقد يأتي يوم تجد بين أعضاء هذه «الأسر القومية» اشخاصاً من غير الأكاديميين والمختصين. ربما يكون بعضهم من الذين تعلموا في فصول محو الأمية، ولم لا؟ لقد تخرج الآن بالفعل من هذه الفصول، اناس واصلوا سيرهم حتى نالوا شهادات الدكتوراه واصبحوا اساتذة في الجامعات ■

(للحديث بقية)

لم تتوقف جهود المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٤٩ للقضاء على الأمية. وهي جهود متنوعة شملت القتر كله وفق خطة عشرينية هي الآن في نهاية مرحلتها الرابعة.

تعرفت على تنوع هذه الجهود وكثافتها، من مقابلاتي مع المسؤولين في وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات والحرس الوطني، وغير ذلك من الوزارات والمؤسسات وقد استفدت فائدة كبيرة من صحبتي للاستاذ محمد بن ابراهيم الفوزان الأمين العام

لتعليم الكبار، والاستاذ محمد الحسين مدير محو الأمية في منطقة الرياض. كما زرت مؤسسات عدة، ليست معنية بقضية مكافحة الأمية بطريقة مباشرة، ولكنها تدخل في نطاق اهتماماتها التربوية والاجتماعية، من هذه المؤسسات برنامج الخليج العربي لمساعدة منظمات الأمم المتحدة، الذي يرأسه الامير طلال بن عبد العزيز. هذا البرنامج الذي تدعّمه دول الخليج، والمملكة العربية السعودية بصفة خاصة، أدّى وما يزال، خدمات جليلة للمجتمع الدولي في مبادئ الطفولة والتنمية والاتصال وغيرها. ويرجع اغلب الفضل في نجاحه واتساع نشاطاته الى الجهود الشخصية لهذا الانسان الكريم، الامير طلال، الذي ينفق من وقته وماله لتخفيف الام البشرية في كل مكان. وقد نذر نفسه لهذا العمل النبيل بحيث أصبح الآن واحداً من هؤلاء الناس الاخبار الذين يشار اليهم بالبنان في الاسرة الدولية. كذلك زرت الدكتور صالح بن ناصر في المجلس الأعلى لرعاية الشباب الذي يرأسه الامير فيصل بن فهد، والدكتور علي التويجري المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج، كما قابلت في الامانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، الدكتور عبد الله الجاسر، والدكتور عبد العزيز جلال. ولم اغفل وسائل الاعلام والاتصال، وخاصة التلفزيون إذ أن كل الدراسات والمؤتمرات تجمع، على أن بوسع هذه الوسائل أن تقوم بدور فعال في مساندة الجهود المبذولة لمكافحة الأمية، اعظم كثيراً مما تفعل الآن.

اتضح لي من هذه اللقاءات ثم من زيارتي لفصول محو الأمية برفقة الاستاذ الفوزان والاستاذ محمد الحسين، أن الجهد متصل في مكافحة الأمية، التي اجمع الناس على انها داء وبيل لا بد من القضاء عليه. وقد سرّني أنني وجدت انهم دائبون على مراجعة مخططاتهم في ضوء التجربة، وتقويمها واستخلاص العبر منها. وهكذا، فانهم قد طوروا مناهج الدراسة وعلّوها، حيثما اقتضت الظروف، الاساليب المتبعة فهم مثلاً يغلّفون فصولاً او مدارس في أماكن يجدون أن الحاجة لا تدعو اليها، ويفتحون عوضاً عنها فصولاً في أماكن أخرى. كذلك فهم ينظمون حملات موسمية في أماكن مختارة لمكافحة الأمية بين البدو الرحّل، ويدعمون المؤسسات الحكومية والاهلية التي تفتح فصولاً لمحو الأمية للعاملين فيها، فيمدونها

نحو أفق بعيد

« لا يمكن أن يكون الوجود الإنساني صامتاً. ولا يمكن أن يعيش على الألفاظ الجوفاء، بل يعيش على الكلمات الصادقة وحدها. الكلمات التي يغير الإنسان بها العالم. أن تعيش إنسانياً، معناه أن «تسمى العالم»، أو بعبارة أخرى أن تدرك العالم. وأن تتخذ منه موقفاً إيجابياً، وأن تعمل على تغييره. وعندما «تسمى العالم»، فإنه يبدو لنا كمسألة تتطلب تسمية جديدة، أي أننا عندما ندرك العالم المحيط بنا، ونتعرف عليه وعلى التناقضات الموجودة فيه، حينئذ تبرز أمامنا مشكلات تفرض علينا أن نجد لها حلولاً. وحين يتغير العالم فإنه بناشدين أن نتعرف عليه وندركه من جديد، وأن نتعامل مع الواقع الجديد ونحاول تطويره وحل مشكلاته باستمرار....
... الحوار لقاء بين الناس من أجل «تسمية» العالم، لذلك لا يمكن أن يقوم حوار بين من يريدون تسمية العالم ومن لا يريدون ذلك، بين من ينكرون على غيرهم الحق في معرفة العالم وتغييره، وبين من يريدون لأنفسهم ولغيرهم ذلك الحق. ومن ثم يجب على من حرموا هذا الحق في تسمية العالم، أن يستعيدوا أولاً هذا الحق الطبيعي، وأن يمنحوا استمرار هذا العدوان للإنساني».

وأول خطوة في سبيل استعادة هذا الحق، هي اكتساب القدرة على التعامل مع الرموز التي تتشكل منها «الأسماء». وقد بسطت لك قبلاً، كيف أن أول ما فعله الأبوروغينز، سكان أستراليا الأولين، منذ أكثر من خمسين ألف عام، أنهم «سموا الأسماء». ثم جاء الأوروبيون، ومحووا تلك الأسماء القديمة وفرضوا بدلاً عنها أسماء جديدة، وحالوا بين الأبوروغينز، وبين أن يستعيدوا في ذاكرتهم، الأسماء التي ضاعت منهم. وبهذا المعنى يمكن القول أيضاً، أن كل ما يشكو منه العرب اليوم، من تشويه لتصوراتهم عن أنفسهم، وازدراء بحضارتهم، وتزييف لمساهماتهم الإنسانية في الماضي والحاضر، إنما يدخل في باب الحرمان من الحق المشروع لكل الناس في المساهمة في «صناعة الأسماء».

وعندي أيضاً، أنه ليس محض صدفة، أن العرب في جاهليتهم، كانوا يحتقرون القراءة والكتابة ويعدونها ضرباً من السحر والكهانة. وقد توارث أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما روي عن الشاعر النجدي النابغة، ذي الرمة، أنه كان يملئ قصيدة على كاتب يكتتبها له. ووجد أن الكاتب قد أخطأ في كلمة، فقال له: «اكتبها هكذا». فقال الكاتب متعجباً «أو تكتب».

فقال ذو الرمة «نعم. ولكن اكتب عني». هكذا كانوا يرون الجهل حسنة، ويرون العلم مسبة، فلا غرو أنهم عبدوا أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم. إلى أن بعث الله سبحانه وتعالى إليهم، رسولا منهم، يركبهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وتقول «ولكنه هو نفسه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب». بلى، ولكنك تعلم، أنه صلى الله عليه وسلم، كان له شأن أجبر. كان قلبه العظيم مفتوحاً على أسرار الكون، يتلقاها من لدن حكيم عليم. كان فوق الكلمات والحروف، لأنه مفتاح خزائن الأسرار، ومنبع تجليات الأنوار. ومع ذلك فقد كان يحض المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وكان يحمل الأسرى لقاء تعليم عدد من المسلمين. وقد كانت تلك أول حملة لمكافحة الأمية في جزيرة العرب، بل وفي العالم ■

● كان ذو الرمة، واسمه غيلان، شاعراً إسلامياً. إلا أن بعض عادات الجاهلية، ظلت في الإسلام، حتى انقرضت

(للحديث بقية)

يقول الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، الأستاذ في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض، في دراسة حسنة عن تعليم الكبار ومحو الأمية في المملكة العربية السعودية:

«أن التغلب على مشكلة الأمية يعني بناء أمة قادرة على الإنتاج، تتكيف بالتغيرات الحضارية، ذات قدرة ومهارة فنية، وذات أفق واسعة قابلة للتفاعل مع برامج التنمية، مبالغة للعمل الجماعي، مؤمنة بأهمية العلم والتعليم

والتكنولوجيا، وناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر». «ها هنا بالطبع تأكيد على الجانب التنموي في قضية مكافحة الأمية، وهو عين الصواب، وأنه الجانب الذي أخذ يلتفت انتباه المنظمات الدولية التي تهتم بالتنمية أولاً وأخيراً، مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية. وقد كانت هذه المنظمات كما قلنا، لا تكترب للأمية، وتعتبرها عرضاً سوف يزول بزوال الفقر. ثم ادكرت بعد أمة أن الفقر لن يزول ما دامت ثمة أمية».

أما أن الأمية تكون «ناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر»، فهذا قول يختلف بصده الأراء. ومن جميل ما قيل عنه، ما كتبه الدكتور محمد إبراهيم كاظم أستاذ التربية بجامعة الأزهر، ومدير مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية، في ورقة له عن «بناء القدرات لمواجهة تحديات العصر». قال:

«ومحاولتنا لرؤية المستقبل إذن، إنما هي في صميمها تحليل منظومي أو نسقي للماضي والحاضر في محاولة لصياغة وتشكيل المستقبل. هذه الصياغة لا يمكن أن تنفصل عن تفضيلاتنا ورؤانا في الحاضر واستهدافنا لصياغة مقصودة ومفضلة لمكونات الأحداث والأشياء والأشخاص والأفكار حتى تقع وفق هذه الرؤية. والفرق بين الرجم بالغيب المنهى عنه، والدراسات المستقبلية التي تهتم بها من قبيل الاهتمام بأصور الجماعة والمجتمع، هو أن الدراسات المستقبلية تبدأ في ضوء الحاضر أيًا كان، وأما كان رأينا فيه، بتصور الصيغة التي تمثل تفضيلاتنا لمسارنا نحو المستقبل، وتبين أن هذا المستقبل، لكي يترجح وقوعه، يحتاج لتوفير مقومات ومكونات، كما يحتاج - إذا كان موقفاً إيجابياً - إلى الإيمان والعلم والحساب والخيال والأمل والطموح».

وأهم من محض التنمية عندي، أن الإنسان الأمي حين ينفذ عنه أغلال أميته، فإنه يصبح هو نفسه، في حد ذاته، إنساناً أفضل، إنساناً أكثر انفتاحاً على أفاق الكون الرحبة وأساراه التي تغري بالاكشاف. ولا تعود حياته تقاس بعدد الأعوام التي قضاه على وجه الأرض، ولكن بدرجة عمق تجربته الفكرية والروحية، ومدى قدرته على التواصل مع نفسه ومع الآخرين ومع أصوات الحياة في الكون. وقد عبر عن هذا المعنى أجمل تعبير المفكر البرازيلي الذائع الصيت، باولو فرييري، في عبارة أوردتها الدكتور محمد نبيل نوفل، في الفصل الجميل عن هذا المفكر في كتابه القيم «دراسات في الفكر التربوي المعاصر»، يقول باولو فرييري، وهو واحد من الأقطاب الذين جاءوا بمفاهيم عميقة طريفة، عن قضية الأمية في العالم:



بقلم الطبيب صالح



بقلم الطبيب صالح

تكثر الامية في بعض اقطار الوطن العربي، اما لعدم اكتراث الدولة، واما لعدم توفر الامكانيات، واما للسببين معاً. ولكن في المملكة العربية السعودية، تجد الدولة ملتزمة التزاماً كاملاً بمكافحة الامية ومحاولة القضاء عليها، وقد عملت كل ما يتوقع منها عمله، فاصدرت التشريعات، وانشأت الاجهزة، ووضعت الخطط ووفرت المال اللازم. ومع ذلك فان احصائيات منظمة اليونسكو تشير الى ان معدلات الامية في المملكة مرتفعة بحيث يصبح من غير المحتمل ان يقضى على الامية قضاء تاماً بنهاية هذا القرن. اللهم الا اذا بذلت جهود اعظم من الجهود التي تبذل الان. رغم عظمها. والا اذا اقحمت اسلحة اضافية في المعركة، مثل وسائل الاتصال الجماهيري وخاصة التلفزيون.

يذكر الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، في دراسته الحسنة عن مكافحة الامية في المملكة، سببين اساسيين اعاقا الجهد السعودي، اولهما هو:

«تأثير المناخ الاقتصادي المزدهر بالمملكة كعامل سلبي في جهود محو الامية، اذ انه يقلل من اهمية الحوافز المادية المقررة، كما يقلل في نظر الاميين، من اهمية التعليم كضرورة لتحقيق الرخاء الاقتصادي لعدم احساسهم بالحاجة اليه ولانصرافهم الى اغتنام الأتراء المتاح بوفرة ويسر».

حقاً، هذا عائق اساسي لان من اهم الحوافز التي تدفع الامي الى التعلم، الرغبة في تحسين حالته المعيشية. واذا كانت حالته حسنة بطبيعة الحال، فما الذي يجعله يغامر بالدخول في عالم جديد عليه كل الجدة، يتطلب منه بذل الجهد. واعمال الفكر، خاصة اذا كان قد تقديمت به السن، واستقرت حياته على وتيرة معينة؟

ويمضي الدكتور الحميدي في سبر هذه العلة فيقول: «ولا نستغرب هذه النتيجة في مجتمع كان وما يزال يطمح لتحقيق برامج طموحة، اتاحت فرصاً للعمل أمام جميع ابناءه، بما فيهم الاميين، دون ان تضع قيوداً او شروطاً تمنع الاميين من الحصول السهل على العمل، بل والعمل المجزي مادياً، الامر الذي جعل من العمل المجزي دافعاً لهم للعزوف عن الالتحاق بمدارس محو الامية».

هذا قول فيه نظر، وينطوي على تطرف الى النقيض ربما دفعت اليه حسن النية. اما ان الامية داء يجب القضاء

عليه فذلك حق. واما ان الامي مُصاب يُعزل كما يُعزل الحمل الاجرب ويحرم حق العمل، فذلك مذهب بعيد لم يذهب اليه احد. واذا كان صاحب العمل لا يأنف من تشغيل الامي رغم اميته، فلماذا تتدخل الدولة لتحول دون ذلك، مع العلم بان حق العمل حق اساسي اقرته وثيقة حقوق الانسان في المجتمع الدولي؟ لا. افضل من ذلك ما هو متبع الان ومعمول به في المملكة العربية السعودية وفي دول عربية اخرى. ذلك ان يكافأ الامي على محو اميته، فتحسن وظيفته ويرفع راتبه.

ثم يضيف الدكتور الحميدي سبباً آخر لا يقل اهمية عن السبب الاول فيقول:

«ان المكائنة الاجتماعية للتعلم، وان كانت قد بدأت تحتل موقعها الطبيعي في تيار التطور الحضاري المتوثب الذي يسود المملكة، الا انها لا تزال الاضعف تأثيراً في نظر العامة والاميين خاصة، بالقياس الى نظرتهم الاخرى كالانتماء القبلي».

نعم، هذا عائق كبير، يجول دون ازالة الامية في كثير من البلاد العربية، ذلك لان العنجهية القبلية العربية، وهي خصلة قل نظيرها في العالم، تعطي الفرد، خاصة اذا كان ينتمي الى قبيلة يظن انها ذات محند وشرف، احساساً بالتميز لا يجد انه يحتاج معه الى اي شرف آخر. وعندنا في السودان، يرى «الجعليون»، انهم اشرف القبائل، وقد يكون «الجعلي»، امياً يخدم عند وزير من قبيلة ادنى في موازين الشرف القبلي في نظر «الجعليين»، فيختال عليه تيهياً وفخراً. وهذا جرير يفخر على الفرزدق في بيته الشهير:

مُضِرُّ ابِي وابو الملوك فهل لكم
يا خَرَزْ تغلب من اب كائينا

كان جرير غفر الله له، ابن راعي غنم، وكان ابو الفرزدق رئيساً يشار اليه بالبنان، ومع ذلك انظر اي جراءة وعنجهية! ثمة عائق آخر يشير اليه الدكتور الحميدي عرضاً فيقول:

«اما ما يتبقى من الاميين، وخاصة من النساء، وسكان الهجر والبدو الرحل، فهؤلاء تجد الدولة مشقة كبيرة في جذبهم الى برامج محو الامية».

قضية الامية بين النساء في العالم العربي قضية كبيرة، واحصائيات منظمة اليونسكو تؤكد ان نسبة الامية بين النساء في العالم العربي، اعلى منها بين الرجال. والمملكة العربية السعودية من الدول العربية التي ترتفع فيها نسبة الامية بين النساء بشكل ملفت للنظر، رغم الجهود التي تبذل لمحاربتها.

سوف نواصل الحديث في ذلك ان شاء الله. انما هي جميعاً عوامل متشابكة تؤدي في نهاية الامر الى ما اتفق على تسميته بـ «التخلف»، والتخلف يساعد على استمرارها وفتكها بجسم المجتمع. انها قيد متين ذو حلقات مترابطة، ولا بد من كسر القيد بوسيلة او باخرى، كي يستطيع المجتمع ان يسارع الخطى وينتج ويبعد، وقد يخلق في افق لا تخطر على البال. واذا كانت توجد وسيلة واحدة انجح من غيرها، فتلكم التعليم ■

(للحديث بقية)

وراء



بقلم الطبيب صالح

اربعة الاف دارس. وليس نادرا ان يقابل الانسان ضباطا كانوا اميين حين التحقوا بالحرس الوطني، ثم درجوا في مدارج التعليم انطلاقا من فصول محو الامية الى ان ارسلوا في بعثات تدريبية خارج المملكة، وقد تجدهم يتحدثون الانجليزية والفرنسية.

يصاحب هذا بطبيعة الحال، تحول في اسلوب العيش بالنسبة لهؤلاء الشباب. بعد البادية والخيام والابل، يجدون انفسهم وذويهم يعيشون في مجتمعات سكنية تتوفر فيها كل اسباب الحياة الحديثة. ولا بد انه تحول لا يخلو من بعض المعاناة، ولكن يخفف من اي ألم قد يحسونه من هذه النقلة الكبيرة في اسلوب العيش، انهم يظلون على صلة بجذورهم في البادية، يتنقلون بينها وبين نمط حياتهم الجديدة. وذلك على أي حال ثمن لا بد للمجتمع ان يدفعه لقاء التقدم. والمجتمع المحظوظ هو الذي تكون ارباحه اكثر من خسائره في غمار هذه التحولات.

وليس احد اكثر ادراكا لكل هذا، من الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب مساعد رئيس الحرس الوطني، الذي يهتم بهذه الأمور بحكم طبيعة عمله. لا غرو، فهو من بادية نجد، وقد جرب هذه التحولات بنفسه، وذاق حلوها ومرها. والذي يقرأ كتبه المليئة بالشاعرية والحكمة، ويتابع حررفته وهو يقف كالشعراء الاولين على الاطلال بين البعامة والذهناء، يحس مدى عناء الانسان الذي يفقد عالما النفا، على علاته، ويكسب عالما اكثر رفاهة ولكنه اقل الفة. ومن هذا، يدرك المرء بوضوح عمق التجربة الانسانية التي خاضتها المملكة في تاريخها الحديث.

اما فيما يتعلق بمكافحة الامية بين النساء، فان احدي العقبات الكبيرة هي انعدام الحافز القوي للتعلم. ففي حالة الرجال، يوجد حافز واضح، وهو تحسين الوضع الوظيفي، وزيادة الراتب، وتحسين الوضع الاجتماعي عموما. اما النساء الاميات فليس لديهن حافز كهذا. هذا بالإضافة الى ان المرأة تجد صعوبة اكثر من الرجل في الخروج من بيتها والذهاب الى فصول محو الامية. رغم ان المسؤولين يحاولون تذليل هذه الصعاب، بتوفير وسائل النقل، وجعل دروس محو الامية للنساء تنتهي قبل مغيب الشمس ■

(للحديث بقية)

ترتفع نسبة الامية بين البدو وبين النساء، كما تقول الاحصائيات، والمشكلة ذات طابع خاص بين البدو، فالبدواء كما نعلم نهج حياة، ولها اصول قديمة، بعضها يعوق جهود محو الامية مثل القيم القبلية التي اشار اليها الدكتور الحميدي في دراسته. وبعض الناس يتحمس لحالة البدو الى حد المناداة بالمحافظة عليها، اذ ان فيها، على علاتها فضائل كثيرة.

لا ينكر ان ثمة سحرا خاصا في هؤلاء القوم، الذين ظلوا مرتبطين بتلك الغياfi الواسعة، وتلك الافاق الممتدة كانهم بقية من عهد غابر، وهو سحر جذب اليه رجالا ونساء من وراء البحر، امثال «داوتي»، صاحب «ارابيا دسبرتا»، و«سجّر»، الذي طاف بالربع الخالي، و«ليدي هستر» ستاهوب، التي فضلت البادية على حياتها المرفهة في لندن. ويا ليت، تقبل يا ليت، لو توقف الفلك عن الدوران، لو بقيت الاشياء على حالها كما كانت على عهد ذي الرمة واضرابه، لكنها سنة الحياة، وهي خيارات صعبة، ولا بد من ضياع شيء مقابل شيء.

ومهما يكن، فان من اكبر الجهود التي تبذل لمحو الامية بين البدو، تقوم بها هذه المؤسسة الفريدة الحرس الوطني السعودي. وبما ان معظم ضباط وجنود الحرس الوطني من اصول بدوية، فقد اكتسبت هذه المؤسسة بطبيعة ظروفها، مسؤوليات تربوية وثقافية واجتماعية بالإضافة الى وظيفتها العسكرية.

وهكذا، فالى جانب المعاهد العسكرية، انشأ الحرس الوطني مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومدارس لتعليم المهارات مثل اعمال الصيانة وسوافة السيارات وغيرها. كذلك توجد مدارس عادية في المستوى الابتدائي والثانوي بعضها نهاري وبعضها مسائي. بالإضافة الى ذلك توجد مدارس خاصة بمحو الامية، تستوعب الاميين اول ما يدخلون الحرس الوطني وتعلمهم القراءة والكتابة ثم يواصلون دراستهم في اقسام المتابعة حيث ينالون الشهادة الابتدائية للكبار. بعد ذلك يجد الجندي الطريق مفتوحا امامه، يكاد لا يعوقه عائق عن الوصول الى اقصى ما تسمح به قدراته.

يتم هذا النشاط بالتعاون الوثيق مع وزارة المعارف. وهو نشاط واسع، فعلى سبيل المثال بلغ عدد فصول محو الامية في عام ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ ١٦٧ فصلا ضمت اكثر من

مناقشة



بقلم الطبيب صالح

بدأ المجتمع الدولي يرى بوضوح أكثر ان التعليم هو أحد المنطلقات الرئيسية، أو هو المنطلق الرئيسي لصياغة المستقبل، وبناء عالم منتج مستقر يتيح لقطانه الفرص لتحقيق ذواتهم الى اقصى ما تسمح به مواهبهم. كذلك أدرك ان عليه ان يكسر أغلال الأمية التي تثقله، كمر يواجه القرن الحادي والعشرين بحرية وثقة. وهكذا وجدت أربع منظمات دولية جهودها، فعقدت مؤتمرا في تايلاند في شهر مارس الماضي تحت شعار «التربية للجميع». هذه المنظمات هي اليونسكو واليونسيف وبرنامج الأمم المتحدة للتربية والبنك الدولي. وتقول الوثيقة المشتركة التي قدمتها هذه المنظمات للمؤتمر:

«تحديد أولويات الإنفاق العام ضروري، إذ يواجه كل بلد في المدى القصير درجة من طلب فرص التعلم أكبر مما يمكن توفيره. وعلى هذه الأولويات ان تشجع البرامج التي تصل بعض الفئات الخاصة، مثل تلك التي تمثل نقصا في تكافؤ الفرص، دون عزل متعمد لأي مشترك محتمل. وتنبؤ الاعتبارات المعنية بالمساواة والفعالية، ان الافضلية الأولى في الموارد العامة، يجب ان تكون للتربية الابتدائية. ولكن يجب ان توضع الأولويات داخل مفهوم شامل طويل المدى، ينفذ على مراحل حتى يحصل الجميع على فرصة الاستفادة من التربية الأساسية، وذلك من أجل المساواة ولتأمين حاجات التعلم الأساسية للجميع».

هذا يعني ان على كل جيل ان يبذل قصارى جهده لحل المشاكل في وقتها، والا يترك حلها للأجيال القادمة، حتى لا تتراكم المشاكل الى درجة يستعصي على الحل كلية. في الوطن العربي اليوم أكثر من مائة مليون أمي. هذا يعني ان الأجيال الماضية قد قصرت بشكل ما. صحيح انه توجد بعض المبررات لهذا التقصير، ولكن واقع الأمر هو ان ما هنا دينا ثقيلًا القى على كاهل الجيل الحاضر. على هذا الجيل ان يطرح عن كاهله هذا العبء، بالإضافة الى الوفاء بمسؤولياته التي تفرضها الحياة الحاضرة.

وتمضي الوثيقة فتقول:

«ان الوضع الراهن للتربية الأساسية غير كاف لتأمين

حاجات التعلم الأساسية لجميع الأطفال واليافعين والراشدين. وإذا استمرت الاتجاهات الحالية والطرق التقليدية المستعملة في التربية والتدريب، فمن المؤكد ان وضع التعلم في العالم سيتردى، وسيزيد هذا من حدة المشاكل العالمية عوض ان يساعد على معالجتها...»

«العالم» الذي تتحدث عنه هذه الفقرة هو «العالم الثالث». والوطن العربي عموما ينضوي تحت هذا «العالم». ولعل المرء يعجب، انه رغم الجهود التي بذلت في مجال التعليم في قرابة نصف القرن الماضي، وبعضها جهود باسلة، فان معدلات الأمية في الوطن العربي مازال أعلى منها في اغلب أقطار العالم الثالث.

ارتفاع نسب الأمية أو انخفاضها، يمكن ان يعتبر «رمزا» لمدى نجاح أي دولة أو اخفاقها في الوفاء بالتزاماتها لشعبها في الحاضر والمستقبل. كل انسان أمي او انسانة أمية، هو بمثابة «نصب تذكاري» متحرك، ذكرى مجسمة عن واجب أهمل انجازه ودين أغفل سداده. وإذا تراكمت هذه الديون على أمة، يصبح وضعها عسيرا ان لم يكن مستحيلا.

وقد أجمعت الدراسات عن الأمية في العالم العربي، على ان الأمية أكثر ما تكون بين النساء خاصة اذا كن من البادية أو الريف. وهي كذلك في البلاد العربية قاطبة، دون استثناء، بدرجات متفاوتة. وأحيانا تفعل الدولة كل ما يجب عليها فعله، فتفتح المدارس، وتعد الفصول، وتهيئ المدرسين، ومع ذلك لا يقبل النساء على التعلم. توجد أسباب كثيرة، منها المفاهيم الخاطئة والنظرة البنيوية المعوجة. وقد سرني أنني وجدت في سوريا مثلا، ان المراكز التي يشرف عليها الاتحاد النسائي، تنظم ندوات لتوعية الرجال ايضا، ففي أحيان كثيرة يكون الرجل هو العائق للمرأة من التعلم، فيمنع زوجته او ابنته من الالتحاق بفصول محو الأمية.

لقد وجدت في رحلاتي في العالم العربي، في المهمة التي كلفني بها منظمة اليونسكو، ان وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة التلفزيون، تستطيع ان تساهم مساهمة أكبر بكثير مما تفعله الآن، في حل مشكلة الأمية. هذه الوسائل بما لها من قدرة على التأثير، تستطيع على الأقل، ان تخلق مناخا عاما، تكون فيه الرغبة في الحصول على المعرفة، أمرا مستحبا ومألوفًا. الجهد الذي يبذل الآن، هو في أحسن الحالات، جهدا مبعثرا، ينقصه الالتزام الثابت، والادراك العميق لخطورة المشكلة التي يتحتم على العالم العربي ان يحلها.

مسئلة الأمية في الوطن العربي مسئلة ليست عادية، وتحتاج الى جهود غير عادية لحلها، او كما تقول الوثيقة الدولية:

«هناك حاجة ملحة لرؤية جديدة في التربية الأساسية تجعلها تركز على التعلم، وتوسع هذه الرؤية مجال التربية الأساسية لتشمل نطاقا واسعا من الفئات والمجموعات ومن طرق تقديم التعلم لها، وتحشد موارد حكومية خاصة واجتماعية اضافية وتنشئ تحالفات جديدة بين المؤسسات والوكالات المختلفة المعنية بالتربية الأساسية، وتقوي مناخ التعلم».

نحو افق بعيد

الى بغداد الى الكويت الى صنعاء. والآن في حلوان. مشكلة الابنية في الوطن العربي مشكلة غير عادية، ولن تحل بالطرق العادية، ولكن بواسطة رجال ونساء منقطعين لخدمة المجتمع ولديهم رغبة جامحة لفعل الخير.

وها هم اولاء، اجدتهم ثنتين امامي حينما حللت. عبد الحسين زويلف في بغداد، وعبد العزيز النجدي في الكويت ومحمد المضواحي في صنعاء وابراهيم الفوزان في الرياض، وآخرون سوف اقابلهم في الرباط وفي تونس وفي دمشق وفي حلب، وآخرون لم اسعد بمقابلتهم ولكنهم موجودون ولا شك في كل انحاء العالم العربي. جنود مجهولون او كالمجهولين، يضيفون مثل النجوم في ظلمات الليل، يبددون اليأس والخذلان، ويوقظون من سباتها، تلك المعاني النبيلة التي تكمن في وجدان هذه الامة العظيمة. يساهمون بحق في صياغة المستقبل، بلا جلبة ولا ضوضاء، ولا غطرسة ولا كبرياء.

وهنا في حلوان، في هذه الابنية «المؤقتة» في هذه الارض «المعارضة»، هذا الرجل الكريم حسن قاسم، وهذه السيدة الوسيمة الصبوحة غنايات الفقي.

يتنظم المركز للدارسين والدارسات فصولا لتعلم القراءة والكتابة، كما يهيئ لهم الفرصة لتعلم حرف مثل النسيج والتدبير المنزلي والتفصيل والخياطة والتجارة والحدادة والسباكة وغيرها. بالإضافة الى ذلك يقوم المركز بدور المرشد والموجه، فيتعرف على الظروف الخاصة للدارسين والدارسات ويسعى جهده لتذليلها، كما يوفر لهم دخلا من تسويق مصنوعاتهم التي تصل احيانا درجة عالية من الجودة.

وجدت بين الدارسات فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، توفي والدها، وترك لها اخوة واخوات فاضطرت ان تساعد امها على اعاليتهم، ووجدت واحدة صغيرة السن دهشت حين عرفت انها زوجت وطلقت من رجل اساء معاملتها ثم هجرها. ونساء بين العشرين والخمسين، مطلقات او ارامل، يقمن باعالة أطفالهن بلا سند ولا عون. كل هؤلاء فتح لهن هذا المركز الفريد باب الأمل وجدد ثقتهن في الناس والحياة. ذلك تراه واضحا في الوجوه التي اخذت الحيوية تدب في قسمايتها، والعيون التي بدأت تشع بالذكاء. وهذه السيدة العجيبة، غنايات الفقي، تسبغ عليهن من عطفها، فهي لهن بمثابة الام والاخت والصديقة، تأخذ بأيديهن الى ان يكملن تدريبهن، ثم تجد لهن عملا في مصنع او محل تجاري. وأحيانا تستقل الواحدة منهن في عمل حر.

كانت التان من الات النسيج متعطلتين. وقالت لي السيدة غنايات الفقي، ان ثمن الواحدة منهما الف دولار، لا اكثر، وانها لا تجد المال لشراء مكنات جديدة.

تأمل عشرة الاف دولار يجود بها انسان سباق الى الخير، في هذه الامة الطويلة العريضة، الغنية الفقيرة، تحدث أثرا كبيرا في هذا المركز. ومائة ألف او مئتا ألف دولار لعلها تبني مركزا جديدا «دائما» يستقبل اضعاف العدد الحالي من الدارسين والدارسات. وما مائة ألف ومائتا ألف واكثر انما محض ارقام ميتة سجيئة على الورق، في مصرف ما، في مكان ما، مثل الحروف والكلمات، اذا نفخت فيها الحياة، تحولت الى ابتسامات على الشفاه واضواء في العيون. ■

(تدبر)



بقلم الطبيب صالح

كانت «حلوان» فيما مضى، بلدة قائمة بذاتها، يقصدها الناس من مصر ومن خارج مصر، للاستشفاء في مياهها المعدنية. كذلك اشتهرت بصناعة النسيج. ثم ضاقت مدينة القاهرة بسكانها، فبنى الناس على طول الطريق الممتدة حتى حلوان، فاصبحت كانهما جزء من المدينة الكبيرة. لذلك حين تصلها، تكاد لا تميز انك قد انتقلت من مكان الى مكان، ولكنك حين تدقق النظر، تجد المباني والاسواق والمزارع والبساتين، كأنك في حاضرة من حواضر الريف. ذكرتني قليلا بمدينة «وذ مدني» السودانية في الجزيرة. لم تبق مزارع ولا بساتين في القاهرة. التهمت مباني الاسمنت والزجاج الخضرة والزرع وخاصة في منطقة الهرم، كما حدث لعوطة الشام الفخاء.

يقول العلماء ان تلك الارض هي اكثر ارض الله خصوبة، ويا للعجب كيف يردم الناس طين النبل بالاسمنت، ثم ينفقون المال الطائل لاستصلاح ارض الصحراء. ويا ليتهم كان بناء بسر العين، هياكل ديمية مكذبة بعضها الى بعض، وبعضها فوق بعض. وقد ظل الاستاذ الجليل الدكتور حسن فتحي يصرخ ولا يجيب، يحاول ان يوقف ذلك الطوفان. رحمه الله. مات وفي قلبه حسرة، فقد رأى مدينة القاهرة الجميلة تكاد تغرق تماما، كما حدث لاغلب المدن العربية.

تركنا الطريق الكبير، وبخنا معسكرا كشافيا، ثم عرجنا يسارا في طريق ليست معبدة، حتى وصلنا الى مجموعة من المباني التي بدت لي كأنها بنيت على عجل لغرض مؤقت. هذا هو «مركز تعليم الكبار متعدد الأغراض». وسرعان ما تأكد لي صدق احساسي بأنه بناء «مؤقت». فقد علمت من المدير، الاستاذ حسن قاسم، ان الارض التي اقيم عليها المركز هي جزء من المعسكر الكشفي الذي «اعارهم» اياها، ويطلب الآن اعادتها. ورغم ذلك فهو مركز فريد من نوعه، افتتحته وزارة التربية عام ١٩٧٨ بمساعدة من منظمة اليونسكو.

وسط هذا التفتت، يمضي السيد حسن قاسم، والسيدة غنايات الفقي المشرفة على التدبير المنزلي في عملهم النبيل، بحماسة واثبات واخلاص يدعوا الى الاعجاب. انهما من هذه الفصيلة النادرة، مثل كل الناس الذين يعملون في هذا الميدان. وقد تأكد لدي في تلك الزيارة احساس ظل يخامرني منذ بدأت رحلتي. انطلاقا من عمان



بقلم الطبيب صالح

دخلت مجلسهم، وأنا مشغول البال، مشئت الأفكار، بي ما يسائر الناس وزيادة، فقد عاودني أيضا ذلك الطيف من وراء أزوعات، فجسد لي حزناً إلى احزاني. لكنني ما لبثت أن وجدته. وأنا أنظر اليهم يتبارون في مضمار الاستاذ. وجدتهني اروق بعد كدر، واتهلل بعد ضجر، واتحرك بعد ركود. لله درهم. هل قلت أنهم مثل كلاب تتناوش عظماً؟ حاشا لله. هؤلاء قناصون لشوارد

المعاني، غواصون على اللؤلؤ في الأعماق. جافوا المضاجع، وفارقوا الدنيا بزخرفها، وانقطعوا للعلم. تركوا لنا هذا الارث العظيم من فقه وحديث ولغة وسير، ونحن مهما فعلنا، فلا أكثر من طائر يحسو بمنقاره في البحر، او كحصاة تكون في سفح الجبل.

اقول، ما ان ازمع المتنبي مفارقة ابن العميد، حتى تحركت سواكن عبقريته، فهذا شاعر داؤه الرحيل، وشفاؤه في الرحيل. او كما قال:

ذرائي والفلاة بلا ليل

دجهمي والهجير بلا لثم

فاني استريح بذني وهذا

واتعب بالانساخ والمقام تاقت نفسه الى ما يكره ويهواه، وتحلل من قيود المكان، وسجن الدعة ورغد العيش، فجاشت قريحته الجبارة، وجاءته ابيات القصيدة تترى كأنها تملى عليه املاء، بلا تكلف ولا تصنع:

فأما تريني لا اقيم ببلدة

فأنا غمدي في دلوقي من حدي

فأخبره عروضي وأطعمه جلدي

نجانب لا يفكرن في النخس والسعد

يحل القنا يوم الطمان يعقوتي

تبدل أيامي وعيشي ومنزلي

وأوجه فتيان حياء تلتثوا

عليهن لا خوفاً من الحر والبرد نعم، هذا هو صاحبنا الذي نعرفه من قديم: هذا ابو الطيب المتنبي الذي عهدناه، لا احد قبله، ولا احد بعده، وكان تلك القصيدة الاولى في مدح ابن العميد، كانت عيشاً يعيث به ريثما يجيئه الشعر الحق في هذه القصيدة الثانية. وابن من هذا السيف الذي ياكل حافته ويندلق من حده، ذاك السيف المرقع، المحلى بالذهب، الذي جلده «منفساته» وعتاده؟

واعجب لشاعر يصف مقدمته على المدح وهو مفارقة، فهو كعجده ابدأ، قادم ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق. وما اروع هذه الابيات التي يصف فيها حال الابل التي حملته الى ابن العميد:

كفانا الربيع العيس من بركاته

فجأته لم تسمع حذاء سوى الرعد

إذا ما استجبن الماء يعرض نفسه

كرعن بسبت في اناء من الورد

كأننا ارادت شكرنا الارض عنده

فلم يخلنا جو ميطناه من رعد

لنا مذهب العباد في ترك غيره

واثنائه بنغي الرغائب بالزهد

نعم، نعم، نعم.

يقول ابن جني العتيد:

«يقول، اذا مرت هذه الابل بالمياه التي غادرتها السيول لكثرتها، صارت كأنها تعرض نفسها عليها، وان كان لا عرض ولا استحياء ولكنه ضربه مثلاً، فكانها تشرب مستحيية من كثرة العرض عليها. وكرعن، شرين، واصله من انخال الكارع الشارب في الماء ليشرب. وجعل الموضع المضمن الماء، لكثرة الزهر فيه، كأنه اناء من الورد. والسبت مشافرها...»

قال العروضي «ما اصنع برجل ادعى انه قرأ على المتنبي ثم يروي هذه الرواية ويفسر هذا التفسير؟ وقد صحت روايتنا عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي، وابو محمد بن القاسم الجرمي وابو الحسن الرضجي، وابو بكر الشعراني، وعدة من الرواة يطول ذكرهم:

إذا ما استجبن الماء يعرض نفسه

كرعن بشيب في اناء من الورد

إذا ما استجبن بالجيم من الاحابة، والاستجابة اشبه بالعرض ووافق. والمعنى انه (اي الماء) يعرض نفسه وهي تجيب. والكرع بالشيب ان ترشف الابل الماء، وحكاية صوت مشافرها عند شرب الماء، شيب...»

قال الواحدي «قول ابن جني ليس ببعيد عن الصواب، وقد شبه المشفر بالسبت، وهو حسن، ومنه قول طرفة:

وخذ كبرطاس الشامى ومشفر

كسبت اليماني قد لم يجرد..»

واقول، غفر الله لي، ان شيعنا العروضي قد اصاب، وشيعنا ابن جني والواحدى ذهبا مذهبا عجبيا، اذ كيف «تستحي» هذه الابل من الماء يعرض نفسه عليها؟ وابن موضع «الحياء» في هذه القصيدة المتينة، وقد فسر ابن جني البيت الذي قبل هذا بان الابل جاءت المدح مسرعة لم يلزم لها حادي يحدوها فقد كان الرعد لها بمثابة الحادي؟ وكيف يستقيم «الحياء» مع كون الابل قد «كرعت» الماء، والكرع شرب فيه نهم وعجلة حال الظمان. وعندي ان المتنبي لو اراد هذا المعنى الذي ذهب اليه ابن جني والواحدى على طرافته، لنحا نحواً آخر.

اظن البيت كما قال العروضي:

إذا ما استجبن الماء يعرض نفسه

كرعن بشيب في اناء من الورد

هكذا تسمع وترى. تسمع اصوات الابل الظماى تعب الماء عباً شيب. شيب. شيب، وترى النبات والزهر من مختلف الالوان حول الماء وعلى وجهه. ولعلك ترى ظلال الابل منعكسة على صفحة الماء. هكذا تصبح الصورة بدبعة لا حدود لجمالها في الخيال، مثل مزهرية صينية نادرة، او كرسم من هذه الرسوم المزهفة التي صنعها الفنانون اليابانيون القدامى على

(للتعت ملأ)

الحرير ■



بقلم الطيب صالح

قال ابو البقاء العُكبري رحمه الله، في مقدّمة شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي، انزل الله شاييب الغيث على مثنواه اينما كان: «اما بعد، فاني لما اتقنت الديوان، الذي انتشر ذكره في سائر البلدان، وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الامام ابي الحرم مكى بن ريان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسائة، وقرأته بالديار المصرية على الشيخ ابي محمد عبد المنعم بن صالح التميمي النحوي، ورأيت الناس قد اكثروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه، فاعربوا فيه بكل فن واغربوا، فممنهم من قصد المعاني دون الغريب، ومنهم من قصد الاعراب باللفظ القريب، ومنهم من اطلال فيه واسهب غاية التسهيب، ومنهم من قصد التعصب عليه، ونسبه الى غير ما كان قصد اليه. وما فيهم من أتى فيه بشيء شاف، ولا بغوض هو للطالب كاف.

فاستبخرت الله تعالى، وجمعت في كتابي هذا من اقاويل شراحه الاعلام، معتمدا على قول امام القول المقدم فيه، الموضح لمعانيه، المقدم في علم البيان أبي الفتح بن عثمان، وقول امام الادباء، وقدة الشعراء، احمد بن سليمان، أبي العلاء. وقول الفاضل اللبيب، امام كل اديب، أبي زكريا يحيى بن الخطيب، وقول الامام الراشد ذي الرأي المسدد ابي الحسن علي بن احمد. وقول جماعة كابني علي بن فورية، وأبي الفضل العروضي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي محمد الحسن ابن وكيع، وابن الاقليلي وجماعه...

وأقول، غفر الله لي، جزاك المولى احسن الجزاء يا ابا البقاء. لقد قمت بعمل نبيل، ونهضت بعبء عظيم ثَقِيل. ولولاك واسئالك، لتمزقت اللغة اشلاء، وتاهت توهان الناقة الضبطاء. اذا لبركت باجرانها الغمة، واكتنف الظلام الامة، ورثت حباثها، وعم ضلالها، وامعنت فيها عوامل الخراب والتمزيق، فوق ما هي عليه. لو حدث ذلك، لكننا جميعا نتحدث اليوم لغة كلغة شركات الطيران العربية، ينصبون الفاعل، ويرفعون المفعول، ويجمعون المثني، ويتنون المفردة، يذكرون المؤنث ويختنون المذكر.

نحوافق بعيد

١٠٠

يعربون ما لا يعرب ويضربون ما لا يضرب. يفعلون باللغة العربية الشريفة فعل البذاءة، حسب تعبير اخواننا في تونس. وهؤلاء الاعاجم من انجليس وفرنسيس، والمان وتليان، في مطراتهم وظائراتهم، لغتهم فصيحة واصواتهم صريحه. وهلم جرا. لا عجب ان الامر برمته كما تشاهد ونرى، فركاكة اللغة دليل اكيد على سماجة الفكر، وقصور الهمة وبنائة المطلب. لا عجب أيضاً ان القوم يصطخبون في غير مصطخب، ويحتربون في غير محترّب.

ونحن في هذا الزمان الاعوج كما قال الشاعر الشكري، على كثرة ما عندنا من دكتوراهات وجامعات، اكثر علينا من الهموم على القلوب، والفلس على الجيوب، والهزائم في الحروب، والخطل في المطلوب، لا نرى شيئاً يسر الصديق ويغيب العدو، اللهم الا أضواء تلمع هنا وهناك بين الغيبة والقيينة. ولو جاءهم أبو البقاء ببحره الزاخر وعلمه النادر، لما رضوا ان يجعلوه محاضراً في جامعة من جامعاتهم، ناهيك باستاذ. يقولون له: ولكن اين شهادة الدكتوراه يا ابا البقاء؟.

وهم، من اين يجيئون بشهادات الدكتوراه في اللغة العربية وعلومها وفنونها؟ من لئس ومضريض، وباريص ولوص انجليص، من اندبرغ وهابلدبرغ وبطرسبرغ وماشتت من اباطيل.

هذا، ونسخة ديوان ابي الطيب التي بين يدي الآن، طبعها مصطفى البابي الحلبي بمصر المعمورة عام ١٩٣٦ ميلادية، وقد ضبطها وصححها ووضع فهراسها الاساتذة الاجلاء مصطفى السقا وابراهيم الاباري وعبد الحفيظ شلبي. اجزل الله عطاءهم واحسن ثوابهم. ولم تعد طباعتها بعد ذلك حسب علمي، لا ادري لماذا. وهي طبعة نادرة اعانني في الحصول عليها اخي حازم هاشم الصحفي الاديب، بثمن ليس زهيداً، ولكنه لا شيء بالقياس الى ما في جوفها من كنوز لا تقدر بثمن. وحازم هذا اخو صدق، محب للغة العرب، يتحدث بها في حياته اليومية مؤثراً اياها على اللغة الدارجة، وهو عليم بشعاب القاهرة المحروسة، يعرف اسواقها وكتبخاناتها، يخرج لك الكحل من العين والابرة من كوم الثن. انه واحد من عصبة كريمة نادمتهم كما نادم حسان بن ثابت اصحابه بجلق في الزمان الاول، يحلون في عيني مدينة القاهرة وحيدة الدر، فوق ما هي عليه من حلاوة. يجمعني واياهم صفاء المودة وحب لغة العرب، وتنسم روائح النيل والشرف في القول والعمل، في اي تلاح حلا، وفي اي واد نزال. تنصيد المعاني المعاني وتقتفي اثار البهاليل من القدماء والمعاصرين. نفرح لافراح هذه الامة الشماء والرغناء، وناسي لما سيها. نقول، بخ بخ وواحسرتاه وواحرباه!



بقلم الطبيب صالح

يجربني الأديب العبقري
يتحزب للأديب العبقري، وعلى
هذا البعد في الزمان، ما أجمل ما
يبدو لنا تحزب أبي العلاء المعري
لأبي الطبيب المتنبي، وما أسخف
ما يبدو لنا غير الشريف الرضي.
ذهب أبو العلاء رحمه الله
مذهباً بعيداً في تحزبه، واسمى
شرحه لديوان أبي الطبيب، معجز
أحمد، قيل لنا أن الهيئة المصرية
العامية للكتاب قد أعادت طبعه،
فاخذنا نبحث عنه، واكثرنا همة
في البحث، صديقنا حازم هاشم
ولا فائدة، فقد كان البرق خلياً،
أولئك اخوان صدق كسا قلت،
يجملون في عيني مدينة القاهرة

الجميلة، منهم أبو سميج، رجاء النقاش، الناقد الصادق والصحفي
السابق، ومنهم أبو اشرف، محمود سالم، أخو الأريحيات وحاوي
علوم الموسوعات، ومنهم أبو عائشة، عبد المنعم سليم، الذي خدم
اللغة العربية بتراجمه من اللغات الأجنبية، ومنهم أبو أحمد،
صلاح أحمد محمد صالح، السفير اللبيب والأديب، رفيق صبوات
الشباب في لندن ذات الثلج والضباب، وأحياناً بضادفنا من محبيه
في سويسرا، عبد الرحيم الرفاعي، صديق السراء والضراء،
وجماعة آخرون، وكلهم محب للأدب، عاشق للغة العرب، يصدق
فيهم قول الحسن بن هانئ:

وخدين لذات مليل صاحب

تفتات من فكاهة ومزاحا

رحم الله أبا العلاء، لقد وقفت على قبره بمعرة النعمان منذ
نحو شهر، في طريقي إلى حلب الشهباء مدينة المتنبي، تذكرت قول
أبي الطبيب في رثاء محمد بن إسحق التتوخي:

ما كنت أحس قبل دفنك في الثرى

أن الكواكب في التراب تنور

وأي كوكب غار في ذلك الثرى، كانه عنى أبا العلاء الذي كان
أيضاً من تنوخ، وتلك من عجائب الصدف، إن يرثي السابق من لا
يزال في طيات الغيب، حين سمع أبو العلاء قول المتنبي:

أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صم

قال «ما اظن إلا أنه تمناني بقوله هذا،

لكن الشريف الرضي رحمه الله، على فضله وسؤو عقله، سمع
وكانه لم يسمع، وفهم وكأنه لم يفهم.

كان الأثر جميلاً، بقدر ما تكون الآثار جميلة، حوله زرع وأزهار
في باحة مبلطة بالرخام المنقوش، كان الضريح مسجداً فيما علمت،
ثم جعلوه ملتقى للشباب ومكتبة، ما لأبي العلاء والشباب، وأي
عزاء له في ذلك؟ لقد فر من الناس وأخذ إلى داره وأفكاره، يهجو
الحياة، ويغازل الموت:

فلما مضى العمر إلا الأقل

وقاربت الروح ترك الحسد

لو عاش أبو العلاء اليوم، لأعجبه حاكم المعرة الحالي، رجل
حسن الخلق عالي الهمة، عميق الثقافة، محب للادب والادباء

والعلم والعلماء، مسرور بأنه يصرف شؤون ذلك الإقليم العريق،
وفي عهده رفات ذلك الإنسان الجليل، سألته إن كانوا قد اختاروه
عن قصد لذلك المنصب فابتسم ولم يقل شيئاً.

وقد طمانني أنهم سوف يحولون ضريح أبي العلاء إلى مزار
لعارفي فضله، يضم مكتبة تحوي آثار الشاعر وكل ما كتب عنه.
على بعد بضعة كيلومترات من المعرة، وجدنا متوى الخليفة
العادل عمر بن عبد العزيز، كانت تلك صدفة أخرى، فقد كنت أظن
عمر بن عبد العزيز يرقد في دمشق.

ما الذي أتى به إلى دير سمعان؟ في رواية إنه كان عائداً من
غزوة في بلاد الروم، فعرج على صديقه القس في دير سمعان،
وكانت بينه وبين القسيس مودة، فمات ثمة مقتولاً بالسم على
الأرجح. وفي رواية أنه مل العيش بدمشق، فجاء وأقام في هذه
الناحية إلى أن مات، ثم جاء أبو العلاء، كأنما عن قصد، فأقام
بجواره وفي كنفه.

عند قدميه ترقد زوجته الوفية، التي عانت معه شظف العيش،
بعد نعمة ولين، ابنة الخليفة وأخت الخلفاء، فاطمة ابنة عبد الملك
بن مروان. لقد أوصت إن تدفن معه عند قدميه، فكان لها ما أرادت.
ولا أدري أي الأمرين أدعى للاستعبار والأسى، مرقد ذلك الإنسان
العظيم في ذلك المكان النائي، أم مرأى زوجته الصالحة وهي
تتشبث به في مماته كما تشبثت به في حياته، لقد خيرها حين
ولّى الخلافة، وخلع عنه حياة الترف، بين حياة الزهد والتقشف
أو الفراق، فاختارت العيش معه.

كانوا يرممون الأثر ويعيدون بناءه حين زلزاله أواخر المساء،
ووراء كل هذا الجهد، ووزارة الثقافة الفاضلة الدكتور نجاح
العطار، التي تعمل في وزارتها بهمة وعزم في ترميم مآثري
الخالدين، وصيانة آثار الماضين.

وياً للعجب! على قبر عمر بن عبد العزيز آيات للشريف
الرضي في رثائه، هاشمي فاطمي يرثي عيشياً أموياً من آل
مروان، ما أجمل ذلك.

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الطاهر الملقب
بذي المناقب.

يرتقي بنسبه إلى موسى الكاظم، فإلى الحسين بن علي،
ولهذا لقب بالشريف الرضي الموسوي. ويقول عنه الثعالبي:

«بعد اليوم أبدع أهل الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلى مع
محدثه الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ
من جميع المحاسن وأفر، وهو اشرف الطالبين من بقي منهم ومن
غير، على كثرة شعرائهم المفلكين....»

هو كذلك، والآيات التي خاطب بها الخليفة العباسي المقتدر
بالله، ما تزال أصدأوها تتردد عبر العصور، دليلاً على الشموح
وعزة النفس:

مهلاً أمير المؤمنين فأنا

في دوحه العلياء، لا تتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت

أبدأ كبلانا في المعالي مفرق

إلا اختلافه ميزتك فأني

أنا عاطل منها وانت مطوق

ما أشبه هذه الكبرياء بكبرياء المتنبي!

نعم، ولكن لا بد لكل عظيم من كيو وكيوة الشريف الرضي
التي تكاد لا تغتفر، هي أنه لم يعترف بعبقرية بكر الزمان
وقلبة الدهور، أحمد بن الحسين بن الحسين بن عبد الصمد
الجعفي، وقيل أحمد بن الحسين ابن مرة بن عبد الجبار
الجعفي، وقيل أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد
الجعفي، الملقب بابي الطبيب المتنبي، من العلويين الأشراف كما
زعم استاذنا محمود محمد شاكر وآخرون، وذلك عندنا
هو الأرجح ■ (للبحث صلة)

نحوافق بعيد

كلنا عاد من بعثت اليها
غار مني وخان فيمما يقول
حملتني القصيدة على جناحيها الى المدينة لاتنفس
الهواء الذي تنفسه الشاعر العبقري. يا له من لحن فرح
حزين يتأرجح بين الوجود والعدم
انظر الى القصيدة على ضوء ما حدث له بعد عامين من
نظمها، الا تجد احساسا قويا بقرب الغناء، بدنو الرحيل،
وهذان البيتان، الا ترى انهما اعجب بيتي غزل في ديوان
الشاعر العربي

رودينا من حسن وحبك ما دام
فحسن الوجوه حال تحول
وسلينا نملك في هذه الدنيا
فان المتنام فيها قليل.
الطريق قصير وطويل. والشمس والجمال والحياة الى
زوال. والزمان صحيح وعليل، والنعمة تحيي وتميت. لا
يوجد شيء ثابت، كل شيء متأرجح. الجاه والسعادة
والحب.

ثم هذا البيت العجيب:
لا اقمنا على مكان وان طاب
ولا يمكن المكان الرحيل.
قال ابن القطاع، المعنى لا نقيم على مكان وان طاب ولا
يمكنه الرحيل معنا، اي لا نقيم البتة، لان المكان لا يرحل
معنا...

وقال ابو الفتح، المكان لا يمكنه الرحيل معنا الى سيف
الدولة شوقا اليه...
وقال الواحدي، ويجوز ان يكون على الدعاء كما تقول لا
فرض الله فاك. يقول لم نقيم في الطريق اليه بمكان وان طاب
ذلك المكان، ولا يمكن المكان ان يرحل، اي لو امكنه لارتحل
معنا... كلما طاب لنا مكان كأنه يرحب بنا بطيب المقام به،
قلنا لذلك المكان، لا نقيم عندك لان قصدا حلب وانت الممر.
واقول، عفا الله عني، ان هذا البيت من الابيات التي
تقوم وحدها كأنها قصائد كاملة. ماذا اراد بـ «الرحيل»
تمعن في البيت الذي تقدم:

من رأها بعينها شاقه
القطان فيها كما تشوق الحمول

اليس هؤلاء را حلين كالمقيمين
وانظر الى قوله:

وسلينا نملك في هذه الدنيا
فان المتنام فيها قليل

اليس «الراحل» عكس «المقيم»
وقد قال الشاعر صراحة:

«وفي الموت من بعد الرحيل رحيل»
انني لا اري الا ان هذا الشاعر الفذ يستعمل كلمة
«الرحيل» بمعنى اوسع مما ذهب اليه هؤلاء العلماء الاجلاء.
معنى ميتا فيقيا اذا شئت. كأنه يقول «ان داء الرحيل لا
يمكننا ان نتمتع بالاقامة في المكان وان طاب ذلك المكان»
و«الرحيل» في نهاية المطاف هو الموت ■

(للبحث صلة)

خرجنا من معرة النعمان
ليلاً قاصدين حلب الشهباء
مدينة المتنبي. رأيت سهل حلب
الواسع في طريق العودة، اذ
فارقتا حلب اول الصباح. والمعرة
منها على بعد اقل من ساعتين.
في طريق رحبة معبدة.

كان سيف الدولة ما يزال
يحلب في لآلته وكبريائه. وكان
ابا العلاء حملني اليه رسالة
تقول:



بقلم الطبيب صالح

عوى في ظلام الليل عفاف لعله
يحجاب وأنى والديار عوافي
موافن خليل عند باب مملك

جمن وما ايامه بسوافي
كان ابو العلاء احسن حظا اذا صح القول، فقد لبث في
مكان واحد لا يفارقه، يغازل الموت ويناجي الابد، فمات حنث
انفه، على فراشه. ودفن حيث هو، لذلك فنحن نعرف محله.
ليس كذلك ابو الطبيب، الذي لا يعرف يقينا اين مرقد.
يقول الرواة ان المتنبي سار من واسط قاصدا بغداد في
طريقه الى الكوفة في اليوم السابع عشر من رمضان، وكان قد
اتى عليها ابن حمزة البصري. كما روى البصري. آخر
قصيدتين من شعره.

وبلغ جبل بعد ان سار زهاء سبعة عشر فرسخا، فنزل عند
ابي نصر الجبلي، ثم واصل سيره حتى قارب النعمانية، ثم
سار فمر بجرجرايا على بعد اربعة فراسخ من الجنوب
الشرقي من دير العاقول، وتقدم حتى قارب الصافية وبينه
وبين بغداد ستة عشر فرسخا، وهناك اعترضه فاتك بن ابي
جهل الاسدي، خال ضبة بن يزيد الذي هجاه المتنبي، وكان
فاتك في نحو ثلاثين فارسا مسلحين. وكان يتربص لابي
الطبيب، لينتقم لابن اخته، وليستولي على ما يحمله من ثروة
فقد كان قاطع طريق.

كان مع ابي الطبيب ابنه محسد وغلماؤه وكانوا اقل عددا
من عددهم. ولكنهم استسلوا حتى قتلوا جميعا. ويروى ان
ابا نصر قال «ولما صح خبر مقتله وجهت من دفته ودفن ابنه
وغلماؤه وذهبت دماؤهم هدرا...»
انني اتخيل انه مات عند طلوع الفجر، فقد لاقى مصرعه
من قبل بـ «درب القلة».

لثيت بدرب القلة النجر لتية

تنت كسدي والليل فيه قتيل

كان مقتله على الأرجح يوم الاربعاء الثامن والعشرين من
رمضان سنة اربع وخمسين وثلاثمائة.

قبل هذا بعامين ارسل الى سيف الدولة من الكوفة
قصيدته الفريدة التي يمدح فيها:

مائنا كنا جوى يا رسول

انا اموى وقلبك المتـ

نحوافق بعيد

فيها حنينه الى الشام وهو بالعراق، وهي قصيدة أرى انها لا تقل روعة عن أي شيء قاله المتنبي نفسه. وفيها يلجأ الشاعر الى طريقة فنية لم يسبقه اليها شاعر عربي آخر، فيصف في جل القصيدة حنين الابل وهو يقصد نفسه، ولا يذكر حنينه هو صراحة الا في الجزء الاخير من القصيدة:

إذا لاح إيمانٌ نثرتُ وجوهها
كأنى عمرو والمثنى معالي
وقد هم بضو أن يغير مع النسا
الن الشام لولا حننه يعقل

ذاك عمرو بن ربوع الذي جاء بالمرأة من أرض السعلاء فقالت له، إذا شمت البرق فأنني ظاعنة الى أهلي، فكان يغطي وجهها إذا لمع البرق. وللعرب وابلهم علاقة عجيبة بالبرق، هل تذكر قول البحري؟

أنت تترنن برق كيف أنبرى؟
وطيف البخيلة كيف احتضر؟

أه! هذي ابل إبي العلاء تقف على ملتقى دجلة والفرات، وتنتظر الى ماء عباب كانه البحر، وترى جنات مخضرة مد البصر، فلا يرضيها ذلك، وتشتاق الى ماء قليل ومرعى جذب، فتلك حال الغتها على علائها:

تنت فويتاً والحراة حبالها
تراب لها من أيترو وحمال
وأعجبها خرق العنشة أنوفها
بمثل أبار جددت ونسبال
فأبك، هذا أخضر الحبال مغرضاً
وأزرق لها شرب وازع ناعمال

هيها يا عمرك الله، فالابل ادري بما يصلحها، وكذلك الناس، ورحم الله ابا العلاء. ليس مثله أحد في وصف حنين الابل، ولا حتى غيلان. ورحم الله ابا الطيب. انني اسمع صوته يدوي في أقطار هذا المكان:

وما الدهر إلا من روعة قصائد
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشد
فأرأيه من لا يغير منشد
وعشيه من لا يغيث منشد
أجزئي إذا أنشدت شعراً فأنا
بشعري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فأني
أنا المصانع المعكب والآخر الصدى

رحمك الله يا سيدي، فانت كما قلت، ملقي من أولئك الملوك، يعطونك عرضاً زائلاً وتعطيهم ما يبقى أبد الدهر.

(البحث صلة)

زعم أناس أن سيف الدولة الحمداًني صاحب حلب، هو الذي ولد أبا الطيب المتنبي، وأن المتنبي لولاه لم يكن شيئاً مذكوراً. انني أرى أن المتنبي كان متواضعاً حين جعل سيف الدولة عدلاً له: شاعر المجد خدته شاعر اللفظ كلانا رب المعاني الدقاق. وفي رواية «صوه»، وهو عندي أفضل، والبيت من قصيدة مدح بها أبا العنسانر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان، ولكنه كانما أراد بها سيف



بقلم الطيب صالح

الدولة، كما اتضح بعد ذلك. ماذا بقي اليوم من سيف الدولة؟ وماذا بقي من مدينة حلب على أيام سيف الدولة؟ يقول العالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه الهام «المتنبي»، الذي صدر أول مرة عام ١٩٣٦ ولم يصدر بعد أفضل منه في موضوعه:

«... أن أبا الطيب... كان يرمي ببصره الى «الرجل»، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها، وصفات الكمال بأسرها، كما كان يراها قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه. و«الرجل»، في احلام أبي الطيب هو صورة مثله لها له ضميره، من احقاده والامه وثورته....»

«وكذلك لاقى العربي الشاعر الفد، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفد، على شوق وحنين، وحن الدم الى الدم، وعلقت النفس بالنفس، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر، أخرجت كلا الرجلين عن طورهم، وكان هذا اللقاء... فاتحة مجد أبي الطيب، وخلود ذكر سيف الدولة.»

يا ليت ذلك كان قد حدث حقاً. لقاء رجل الفكر مع رجل الفعل، رب القلم مع رب السيف، مثل لقاء «جوته»، الألماني مع نابليون بونابارت، حين قال «جوته»، قولته الشهيرة Das ist der Mann «ذلك هو الرجل»، وقال نابليون مثل ذلك عن «جوته».

لم يلبث «جوته»، أن خاب ظنه في نابليون، كما خاب ظن بيتهوفن، كما خاب ظن المتنبي وشيكا في سيف الدولة.

هذا، وثمة وجوه شبه عدة بين علاقة المتنبي بسيف الدولة، وعلاقة «جوته»، ليس بنابليون ولكن بـ «كارل أوغست»، أمير نويّة، وأيمار، الألمانية في القرن الثامن عشر. ولعل الأمور لو سارت بالمتنبي في حلب كما انتهى الى حال قريب من حال «جوته»، في «وايمار»، ولكن هذه قصة أخرى.

يا لها من مدينة! تقطع اليها سهلاً واسعاً خصيباً، مروراً بمدينة حماه مدينة باقوت، مروراً بحمص التي يرقد فيها سيف الله خالد بن الوليد، عبر نهر العاصي الذي وصفوا بأنه سني العاصي لانه عصى قوانين الطبيعة ولم يتجه نحو البحر كبقية الأنهار، مروراً بمعرة النعمان، مدينة أبي العلاء. وكان أول هني أن أرى نهر «قويق»، الذي يشق مدينة حلب، لأن أبا العلاء ذكره في قصيدته العظيمة التي يصف

نحو أفق بعيد

واستبدله بالآية الكريمة التي ما فتى الأئمة يرددونها في صلاة الجمعة الى يومنا هذا:
«ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».
وكان كما حدث الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، يرسل المال سرا الى بني هاشم في جفان العسل، حذرا من بني مروان. لا عجب ان الشريف الرضي رحمه الله قد قال في رثائه:

دير سمعان لا أغيبك غاد
خير ميت من آل مروان ميتك
انت بالذكر بين عيني وقلبي
ان تدانيت منك او قسدت نائيتك
وعجب أني قلت بني مروان طرا وأنبي ما قلتك
قرب العدل منك لما ناي الجور بهم فاحتويتهم واجتبتك
فلو أني ملكت دفعا لما ناك من طارق الردى لعديتك

ذاك، وقد ثوى ابو العلاء في المعرة - معرة النعمان بن بشير الانصاري - غير بعيد من دير سمعان، فثبت في الزمان والمكان. ولكن أين ثوى ذلك الانسان العجيب، الذي كانه في لا زمان ولا مكان؟

حدث ابو الحسن السوسي قال:
«كنت أتولى الاموار من قبل المهلبى، وورد علينا المتنبي ونزل عن فرسه ويفوده بيده، وفبح عيابه وصناديقه ليليل مسنها في الطريق، وصارت الارض كأنها مطارف متشورة، فحضرته أنا وقلت: قد اقمعت للشيخ نزلا، فقال المتنبي: ان كان تم فأتبه». ثم جاءه فأتك الاسدي بجمع وقال: «قدم الشيخ في هذه الديار وشرفها بشعره، والطريق بينه وبين دير فنه خشن قد احتوشته الصعالة، وبنو اسد يسرون في خدمته الى ان يقطع هذه المسافة، ويبر كل واحد منهم بنوب بياض، فقال المتنبي: ما أتقى الله بيدي هذه الادهم وذباب الجران الذي انا مستقلده، فأنى لا افكر في مخلوق». فقام فأتك ونفض ثوبه وجمع رثوت الاعارب الذين يشربون دماء الحبيح حسوا، سبعين رجلا، ورصد له. فلما توسط المتنبي الطريق، خرجوا عليه. وحمل فأتك على المتنبي وطعنه في يساره ونكسه عن فرسه. وكان ابنه أفلت، الا انه رجع يطلب دفاتر ابيه فلقع خلفه الفرس احدهم وحر رأسه، وضربوا امواله يتقاسمونها بضرورة».

يا لها من نهاية، ان صحت هذه الرواية.
هذا، وقد رثاه صاحبه ابو الفتح عثمان بن جني، الذي كان وفيًا له في حياته وفي مماته، بقصيدة جاء فيها:

عمرت خدن المساعي غير مضطهد
كالنمل لم يدرن يوما ولم يصب
فأدب عليك سلام المجد ما قلت
خوص الركائب بالأكوار والشعب

«المجد»، تلك الكلمة المدمرة، كلمة كان يحبها المتنبي، لقد اخذوا مطارقه ونفاثسه والسيوف المحلاة بالذهب التي اهديت له، وبعثوا اوراقه وتقاسموا امواله، وقتلوا ابنه او ابناؤه، وقطعوا دابر نسله. لم يبق منه الا الشعر. ان كان هذا هو «المجد»، الذي كان يطلبه، فإنه لعبري قد حاز المجد ■

(للبحث صلة)

وجسدت ان نهسر
«فويق»، الذي اشار اليه
ابو العلاء في قصيدته،
قد انقطع ماؤه ولم يعد
يجري، فقد اقاموا عليه
سدا في تركيا، ومدينة
«حلب»، لم يبق فيها
شيء من اثار
الحميدانيين، لا
تصورهم، ولا نسلهم،
ولا أسماؤهم. عفى
عليها الزمن وكانها لم
تكن.. وكان كل
«لزوميات»، ابي العلاء
خرجت من قول المتنبي:



بقلم الطيب صالح

وسا الدهر أهل ان تؤمل عبده
حياة وان يتخاق فيه الى النمل

ثم قوله:

يدفن بمنا بمنا ونشي
أواخسرتنا على هام الأوالي

وقد اقتبس ابو العلاء هذا المعنى في قوله:
خفف الوطأ ما اظن اديم الارض الا من هذه الاجساد.
بقيت القلعة بعد الحميدانيين، وقد أثنت اقواما قبلهم واقواما بعدهم، ترنو متحدية نحو الشمال والغرب، وتطل على السهل الفسيح ناحية الجنوب. مدينة كاملة في شكل حصن. فيها مسجد ودور واسواق وحمامات، وأبراج تطل على الجهات الأربع. محاطة بخندق يمتلىء بالماء، فاذا هوجمت ترفع عنه الجسور، فيصعب النفاذ اليها. وفي كل خطوة بخطوها الغازي شرك منصوب. قطران يغلي يصب من فتحات اعلى القلعة، وسهام ومنجنيق. اقتحامها يكاد يكون مستحيلا بمقاييس ذلك الزمان. وتعجب كيف ان الفاتحين المسلمين استطاعوا اقتحامها. ولكن أولئك كانوا قوما من طينة أخرى.

ابو سليمان، خالد بن الوليد رضي الله عنه يرقد في حمص. قال للروم حين تحصنوا بقلعة قيسرين: «لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم او لأنزلكم اليها». ثم مات على فراشه وليس في جسمه موضع الا وفيه اثر من ضربة سيف او طعنة رمح.

عزله عمر العظيم وهو في اوج انتصاره، لا لاية اسباب شخصية. كما يقال بلغة هذه الايام. ولكنه خشي ان يفتن به الجند، ولانه اراد ان يؤكد ان النصر بيد الله يؤتاه من يشاء، وليس بيد خالد مهما كانت عبقرية العسكرية. ولما عزله أرسل الكتاب مع بلال الحبشي. كان بلال عظيما في الاسلام وعظيما عند عمر، فكتب ابو عبيدة الخير، حتى انتهت المعركة، معركة اليرموك، وقال انه لم يرد ان يحرم خالدًا من فرحة النصر. ولما مات قال عمر: «دعوا نساء مخزوم تبكي على خالد».

ولو ان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لم يقتل في عامه ذلك، لاتخذ التاريخ مسارا آخر. ولو ان حفيده عمر بن عبد العزيز، حكم فترة اطول مما حكم. ولكنها حكمة الله الذي بيده الملك. حكم اقل من ثلاث سنوات، وقتله بالسم على الأرجح اهل بنو مروان، لانه ضيق عليهم الخناق. ودفن في دير سمعان عند صديقه النفس. وقد منع سب آل البيت على المنابر،



بقلم الطبيب صالح

ما دُمت في «حلب» فعليك
بابي الطيب سوف نجد لشعره
مذاقاً خاصاً هنا. أنها مدينته
أكثر من أي مدينة أخرى عاش
فيها. هنا قال أروع قصائده
وعاش أخصب سنوات عمره أن
لم يكن أجملها. كانه ود الإقامة
في «حلب» إلى آخر أيامه، لولا
ذلك الداء القديم الملازمه، داء
الرحيل:

لا أقمتنا على مكان وإن طاب
ولا يمكن المكان الرحيل.
كانت إقامته بالفسطاط كمن هو أبدأ على وشك الرحيل.
أما في الكوفة وبغداد، فقد سبقته أصوات عبقرية أعطت
المدينتين سمتهما وطابعهما قبله. ولكن «حلب» هي مدينته،
فهو الذي أعطاهما صوتهما الذي ما يزال يتردد في الأذان. كانت
قبله صمء بكاء، فأنطقها وأسمعها. وهي إلى الآن، لولاه
ليست بشيء. وما المدن؟ وما مساعي الناس في نهاية الأمر؟ ما
ذلك كله لولا الفن؟ وقد جق له أن يقول في سيف الدولة:
غضبت له لما رايت صفاته

بلا مراح والشعر تهذي طباطمه
أي أن صفاته، كانت «خرساء» فأنطقها كما ينطق
المثال كتلة الحجر الصماء.

مدينة فيها شيء منه. مدينة على مفترق طرق، مليئة
بالاحتمالات. احتمالات المغامرة والخطر.. والمجد.. والموت.
القلعة التي تحكمها تنبئها في الأرض، وفي الوقت نفسه كانت
توشك أن تحلق بجناحين. الأسواق القديمة ملأى بالذهب
والفضة والتوابل والعطور. والخانات والحمامات. أو كما قال
أبو العلاء للأبل:

فأبك هذا أخضر الجال مريضاً
وأزرق فاشرب وأزغ ناعم بال
لماذا لم يعمل المتنبي بالنصيحة؟ لا في حلب ولا في
الغسقاط ولا عند ابن العميد؟

هذه مدينة «بين - بين»، كانت من قديم، نصفها الأعلى في
حواضر البحر الأبيض المتوسط، فنسيا وجنوا وفلورنسا
وابعد، ونصفها الأسفل في سهول الشام ودير الزور وضياف
الفرات. وقد اختار المتنبي، المجد، فقارها وفي قلبه غصة:
ولله سيري ما أقل تنبئة

عشبة شرقي الحدالي وغرب
عشبة أحلى الناس بي من قلوته

وأهدى الطريقين التي اتجنب
وغير بعيد يرقد أبو العلاء المعري، خذن المتنبي ونقيضه
وال (anti-thesis) له، يجيء صوته أراء المتنبي كمن يصب

الماء على النار. خذ عندك المتنبي، كعهده دائماً:

ولا بد من يوم أغر محجل
يطول استماعي بعده للنوادر
يهون على مثلي إذا رام حاجة
وقوع العوالي دونها والقواضير
كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول وباقي عمره مثل ذاهب
اليك فإني لست ممن إذا اتقى
عضاض الأفاعي نام فوق العقارب
لك الله يا سيدي، فانت ما تزال في أول الطريق. سوف
تنتهي حياتك عند دير العاقول. سوف ينهبون أموالك
ويبعثون أوراقت ويقطعون دابر نسلك. لن يبقى منك إلا
الشعر.

علاني الان يا صاحبي بصوت أبي العلاء الرصين
الحزين:

(٤) إذا جمحت خيل الكلام فانما
لديك يعاني من اعتتها الضبط
ولا أذهلتني عن وداك روعه
وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنه طائفة عامرية
يُحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرائها (٦)

إلى نيل مصر فالوساع بها تغطر
فوارس طعانون ما زال لبقنا
مع الشيب يوماً في عوارضهم وخط
وكل جواد شفة الركض فيهم

وج يتمنى أن فارسه (٧) سقط
ذاك المتنبي، مشغول بنفسه وطموحاته وثارته واحقاد.
وهذا أبو العلاء، مشغول بتقلبات الأيام ومصائر البشر. وقد
صدق، قصوته صاف رائق مثل «هديل الحمام، بينما صوت
المتنبي في الغالب، كانه غابة من السباع.

هذا، وقد قال تلك الأبيات بالرملة عام ٣٣٦هـ في قصيدة
مدح بها أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوي. كان في طريقه
إلى أبي العشائر في انطاكية ومن ثم إلى سيف الدولة في
حلب.

كل طرق المتنبي كانت تؤدي إلى «حلب» المدينة الفاضلة
التي صنعها في خياله مثل مدينة «سانت أوغستين»، وثمة
«الأمير» المثل الذي يحلم كل رجل فكر أن ينيخ رحاله عنده.
ولكن هيهات! ■

(للحديث بقية)

(١) أمك أي تبا لك والبيت يشير إلى العشب الأخضر والماء الوفير

(٢) النبتة البطة في السير والحدالي وغرب جيلان بالشام.

(٣) قلوته. أي هجرته

(٤) يقصد أنك حضيف تمسك بأعنة الكلام فلا ينهب كل منهب

(٥) الجعد والسبط جعد الشعر وسيطه يقصد كافة الناس

(٦) جران النعير باطن عنقه، ويقال القى أنشء جرائه أي ثقله.

(٧) يقصد أن كل فارس تبع من الركض يتمنى لو أن الفارس الذي فوقه

كان قد سقط من بطن أمه قبل أن يتم نموه، وذلك هو «السقط».

نحوافق بعيد

الدكتور عبد الله الطيب عالم ثبت، ومحب مدنف بابي الطيب. وقد بلغ من إعجابه به انه قال: زعم ابن الاثير ان في مثل شعر ابي الطيب وهيا، وقد كذب ورب الكعبة، يقول في كتابه الجميل: مع ابي الطيب، ان الجلوس كان للمغنين، وان الوقوف كان للشعراء. ولا احسب انه قصد ان المتنبي وضع نفسه موضع المغنين، فالمغني لم يكن يقعد للغناء في مجلس الامير، بل في مكان خاص يعد له ولجوقته، واحيانا يكون بين المغني وجوقته وبين مجلس الامير ستار يزاح حين يبدأ الغناء والعزف. ثم هذا شاعر لا يجلس حيثما اتفق، بل يجلس بجوار الممدوح وعلى مرتبته.

يقدر الأستاذ محمود محمد شاكر ان هذه القصيدة قُلت عام ٣٣٦هـ. قبل، ان يتصل المتنبي بسيف الدولة. وذلك امر مهم عنده في محاولته اثبات ان المتنبي «شريف علوي»، ويريد:

لا بد لنا هنا من التنويه الى خطأ يبلغ وقع فيه احد كبار ادبائنا في كتابه عن المتنبي، اذ زعم ان المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور. والصحيح انهما قيلتا سنة ٣٣٦هـ وهو بالرملة، ومن ثم في تلك السنة رحل الى انطاكية قاصداً ابا العشائر الحمداني الذي وصل اسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧هـ. هذا على ان اسلوب الرجل في هاتين القصيدتين، ونفسه في الشعر، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة، وذلك بين لمن تدبر ادنى تدبر.

ولعمري ان «نفس» المتنبي في الشعر الذي قاله «قبل» ان يتصل بسيف الدولة و«بعد» ان يفارقه، لا ينقسم الى قسمين واضحين، وهذه القصيدة في بعض مراراتها وغلوائها تشبه بعض القصائد التي قالها الشاعر بعد ان ترك سيف الدولة. يوجد شيء ثابت، في شاعرية المتنبي، سواء كان عند سيف الدولة او عند كافور او عند ابن العميد. سواء كان في الرملة او الفسطاط او هنا في حلب. ذلك هو نفسه، في لا مكان وليس عند اي احد.

استاذنا العلامة محمود محمد شاكر، اطال الله عمره، يشير الى العميد، الدكتور طه حسين، رحمه الله، وقد كانت بينهما ملاحاة لم تضر الادب، بل افادته. والحق ان العميد، رغم عده وريادته ونظراته الثاقبة، لم يغن كثير غنى في كتابه «مع المتنبي»، ذلك لانه صحب الشاعر على نفور وقلة ود، كما اعترف هو نفسه. فلا عجب انه لم يظفر منه بباطل، فالمتنبي شاعر اما ان تحبه وتتحمس له، واما ان تتركه وشأنه. احسن النقد ما يكتب عن محبة لان المحبة تفتح البصيرة وتزيل الحجب التي تقوم بين ما يرمي اليه الشاعر وبين قواد المتلقي. هذا صنعه العميد مع ابي العلاء، وعجيب انه احب ابا العلاء ولم يأنس لابي الطيب، وقد كان ابو العلاء متيناً بابي الطيب

هكذا صنع عبد الله الطيب ومحمود محمد شاكر والشيخ عبد العزيز مع المتنبي. احبوا الشاعر واصغوا اليه بمحبة، فباح لهم ببعض اسراره، وفتح لهم عن بعض مكنونات قلبه. وهو بعد في طريقه الى «حلب»، وكان قد فارقه قبل ان يصل اليها ■

(للحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

كانت تلك القصيدة في مدح ابي القاسم طاهر بن الحسين العلوي، قالها بالرملة عام ٣٣٦هـ وهو في طريقه الى ابي العشائر الحمداني في انطاكية، ومطلعها:

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب

يردوا رقادي فهو لحظ الحبايب

وهي قصيدة محشوة بالغيب والمرارة والكبرياء، وفيها يقول:

الي لعمري قصد كل عجيبة

كأن عجيبة في عيون العجائب

ما كان سيف الدولة ليتخيل اي «بلاء» هو في طريقه اليه، ولا عجب ان العميد طه حسين رحمه الله، ظن ان المتنبي قال القصيدة «بعد» فراقه لسيف الدولة. ولكن كما ذكرنا، هذا شاعر عجيب، ابداً قادم ذاهب، حاضر غائب، مقبم مفارق.

قال العكبري قال الواحد:

ان الامير ابا محمد بن طغج لم يزل يسال المتنبي ان يخص ابا القاسم طاهراً العلوي بقصيدة من شعره وأنه قد اشتهى ذلك، وابو الطيب يقول: «ما قصدت الا الامير ولا امدح سواه»، فقال ابو محمد: «عزمت ان اسالك قصيدة تنظمها في فاجعلها فيه، فاجاب. قال محمد بن القاسم الصوفي: «سرت انا والمطلي برسالة طاهر الى ابي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من الاشراف، فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهر عن سريره والتقاء مسلماً عليه. ثم اخذه بيده فاجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه وتحدث معه طويلاً. ثم انشده ابو الطيب فخلع عليه خلعاً نفيسة. قال علي بن القاسم الكاتب: «كنت حاضراً ذلك المجلس، فما رايت ولا سمعت ان شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير ابي الطيب، فاني رايت هذا الشريف قد اجلسه في مجلسه وجلس بين يديه فانشده القصيدة».

هذا رجل شريف حقاً عرف قدر الشاعر العبقري وانزله المنزلة التي يستحقها، وجلس منه مجلس التلميذ من «الاستاذ». وما كان ضر المتنبي لو انقطع اليه والى امثاله. لكنه كان يفكر في اشياء ابعد. سوف يقبل منه سيف الدولة ذلك الكبرياء على مضض، فالامير في مذهبه امير، والشاعر شاعر، وسوف يضيق به في نهاية الامر، ولن يغني عن المتنبي قوله:

«وفزادي من الملوك وان كان لسان يري من الشعراء»

لم يكن المتنبي ينشد الشعر الا جالسا.

نحو أفق بعيد



بقلم الطيب صالح

العجب لأبي الطيب المتنبي، انه تمنع وتعزز عن مدح الشريف العلوي طاهر بن الحسين، ولم يقبل الأبعد لأي، ثم لما مدحه أدلق في مدحه، وبالع في اطرائه حتى كاد يخرج عن حدود الأدب. وفي القصيدة بيت وصل من المبالغة حدًا أزعج حتى ابن جني العتيق، رغم تعصبه الشديد لأبي الطيب، فقال: قد أكثر الناس في هذا البيت، وهو في الجملة شنيع الظاهر، فاضربت عن ذكره. وقد كان (يقصد المتنبي) يتعسف في الاحتجاج له والاعتذار بما لست

أراه مقنعاً...

ثم يضيف كالمعتذر: ومع هذا فليست الاعتقادات والآراء في الدين مما يدرج في جودة الشعر ورداعته. والبيت المشار إليه هو:-
وأبهر آيات التهامي أنه

أبوك وأحدى ما لكم من مناقب وظاهر المعنى أن أبهر معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، انه ابو هذا المدوح، والعباد بالله.

قال الواحدي: قال ابو الفضل العروضي فيما املاه علي: هذا بيت حسن المعنى، مستقيم اللفظ حتى لو قلت انه أمدح بيت في الشعر لم ابعد عن الصواب، ولا ذنب له اذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم. واما معناه، فان قريناً اعداء النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: ان محمداً صنوبر انتثر لا عقب له (الصنوبر المنفرد) فاذا مات استرحنا منه. فانزل الله تعالى: انا اعطيناك الكوثر، اي العدد الكثير، ولست بالابتر الذي قالوه.. فقال المتنبي: انتم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وآية لتصديقه، وتحقيق لقول الله تعالى، وذلك احدى (بالجيم) ما لكم من مناقب.. واما قوله (التهامي) فان الله انزل في التوراة على موسى: انا باعث نبياً من تهامة من ولد اسماعيل في آخر الزمان. وامر موسى عليه السلام أمته ان يؤمنوا به اذا بعث، ودل عليه بعلامات آخر. فانكر اليهود نبوته فقال صلى الله عليه وسلم: انا النبي التهامي الا يطعي، فلا ادري كيف نعموا على المتنبي لفظاً افتخر النبي صلى الله عليه وسلم بها، ولما رويوا: احدى ما لكم، بالحاء، اضطرب عليهم المعنى. وأقرانا ابو الحسن الرخجي أولاً والشعراني ثانياً والخوارزمي ثالثاً. وأجدي، بالجيم، فاستقام المعنى واللفظ وتشيع ابي الفتح عليه وغيره باطل.

قال الواحدي، وليس هذا المعنى فاسداً وان روي بالحاء، لانه يقول، كون النبي التهامي أباً لكم، إحدى مناقبكم، اي لكم مناقب كثيرة، وإحداها انكم تسبون الله.

كل هذا البلاء الحسن من هؤلاء الشيوخ الاجلاء، لا يغفر للمتنبي في ظني، انه شطط شطحة خرجت به عن مقتضيات الذوق، ان لم نقل الادب. وعنده مثل هذا كثير. وكثير ايضا عنده ان يمدح الكل بالانتماء الى الجزء، كقوله في رثاء جدته:-
ولو لم تكوني بنت أكرم والد

لكان أبك الضخم كوكب لي أما
انها صورة بديعة بحق، قلت فيها الأشياء رأساً على عقب، فجعل الام ابنة الولد، وجعل الولد ابا الام. وذلك كما قال الشاعر

الانجليزي، ويردزويرث، بعد المتنبي بقرون. الطفل ابو الرجل، هكذا المتنبي، اذا مدح لم يلو على شيء، لا يكاد يهجم الى من يتوجه بالمدح. وقد زعم الاستاذ محمود محمد شاكر، وسار كثيرون على دربه، ان المتنبي لم يمدح كافوراً الاخشيدي، وانما اضمر له الهجاء والسخرية فيما يخل انه مدح. وضرب مثلاً على ذلك قول المتنبي لكافور:

تفصح الشمس كلما ذرت

الشمس شمس منيرة سوداء،
ان في ثوبك الذي المجد فيه

لصبياء، يري بكل صبياء،
ويقول: تدبر التحكم العجيب في هذه الابيات وذكر
المستحبات التي لا تقع ولا تكون ولا تنوهم، ان جعله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء.

هذا يا عمرك الله، من قبيل الحكم على الامور باثر رجعي، وحسب معايير غير معايير العصر الذي حدثت فيه. كون المتنبي مدح كافوراً لاخشيدي، امر لا مراء فيه. وعلى اي حال، فنحن اليوم بعد كل ما افدناه من علوم الفيزياء، وخصائص اللون، وما فعله الرسامون التعبيريون، أقدر على تخيل الشمس كيف تكون: منيرة سوداء. وقد وضع اهل دولة غانا نجمة سوداء على علمهم الوطني، لانهم رأوها أكثر ضوءاً من نجمة بيضاء. ومن اراد ان يعرف أكثر كيف يكون السواد مضيئاً، فليقرأ شعر «سيدار سنفور»، و«ابني سيزير».

وهب ان ذلك لم يكن مدحاً، فما قولك في هذه الابيات:

تراصد كاسر توارك غير

من قصد البحر استقل السواقي
نأمت بنا اثنان عين ربابه

وخلت بيأساً خلفها وماتيا
نثر ما سريتنا في طهر حدودنا

الى عصره الأرحم التلاقي
ايا المسك ذا الروح الذي كنت تائقا

اليه وذا الفعل الذي كنت راحيا

اذا لم يكن هذا مديحاً فليست ادري كيف يكون المديح!

قال شيخنا ابو البقاء رحمه الله:-

يقال ان سيف الدولة لما سمع البيت: قواصد كافور، قال له
الويل. جعلني ساقية وجعل الاسود بخرأ.

ثم يمضي ابو البقاء فيقول:-

ان كان المتنبي قد قصد هذا، فقد ابان عن نقض عهد، وقلة مروءة، لانه مدح خلقاً، فلم يعطه احد ما اعطاه علي بن حمدان، ولا كان فيهم من له شرفه وفضله، لانه عربي من سادات تغلب، عالم بالشعر، ولم يمدح مثله في الشرف والحسب الا محمد بن عبد الله الكوفي الحسيني...

وعندي، ان اعجب من ان المتنبي جعل كافوراً بخرأ مثل «بحر النيل»، وجعل سيف الدولة «ساقية» مثل نواغير حتمص، كونه جعله «انسان عين زمانه، فيذه آية اخرى من آيات الشمس المنيرة السوداء».

بلى، مدح المتنبي كافوراً الاخشيدي، لا مراء في ذلك، ثم هجاء فيما بعد، فما كان صادقا في مدحه ولا كان صادقا في هجائه. ولكنه كان صادقا في شعره في الحاليتين، فهذا «شاعر فنان»، وجد مادة فصنع منها «فناً»، احبانا يزيد واحيانا ينقص، وقد ذهب المتنبي، وذهب سيف الدولة، وذهب كافور. لم ينق الا الشعر ■

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد

ويمضي الدكتور عبد الله الطيب في اشارته النافذة فيقول:

«ولأننا نعيش الآن في زمان نهضة أوروبا، والتاريخ الكبير لازال من صنع دولتها، فإننا بحكم ذلك نقبل قضية روايات موليير ورأسين وبن جونسون وشيكسبير، وصور فان دايك وجويا ورمبرانت وروفاثيل على أنها من صميم الفن، وننسى وجه الشبه بينها وبين المدح والهجاء (عند العرب). وقد فطن الى نحو من ذلك ابن رشد في الدرر القديم حين شبه المأساة بقصيدة المدح والملهاة بقصيدة الهجاء فما बाद كثيرا...»

نعم. لم يكن أبطال «هومير» في الواقع أكثر من رعاة وفلاحين وبحارة وقطاع طرق في بلاد «هيلاس». ولم يكن الملك لير الذي ابتدعه خيال شيكسبير الا مثل زعيم من زعماء العشائر عندنا. ونابليون بونابارت الذي خلده في لوحاته الفنان «جاك لوي دافيد» أضخم مزار من نابليون الحقيقي كذلك. «الفن» يرفع ويخفض، وقد رفع المتنبي كافورا الى عنان السماء حين شاء. نعم، وما العجب في مثل قوله:

هذه دولة المكارم والرافعة
والجند والسدى والأبادي
يرحم الدهر ركنها عن أذاها
بفنتي مارد من المارد
مُخلف مُخلف وفي أسير
عالم حكام شجاع جواد
أجفل الناس عن طريق أبي
المسك وذلت له رقاب العباد
ككيف لا يتترك الطريق ليسيل

ضاميق عن (٤) أتبه كل واد
ذاك مدح وهذا مدح، لا فرق، اللهم الا ان «المادة الخام» التي صنع منها الفنان فنه فيما يتعلق بكافور، لم تكن بشيء، فقد كان سيف الدولة «من سادات تغلب» كما قال شيخنا أبو البقاء، اذ كان كافور «عبدا لحفيد مغامر» كما قال استاذنا عبد الله الطيب، ولكن لأجل هذا يمكن القول، ان «الثوب» الذي غزله المتنبي لكافور، كان وما يزال ادعى للعجب.

أما الشعر الذي يقصر فيه «الفن» عن «الحقيقة» ولا يرقى فيه الوصف الى قريب من شمائل الموصوف، فمثل ما قال أبو ذؤيب الجهمي في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(٥) ان البيوت ميمان فنجاره
ذهب وكل بينه
عظم النساء فما يلذن شبيهه
ان النسساء بمثل عظم
صدق الشاعر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وأصحابه، ما هلت الديم، وما جرت على المذنين
أذيال الكرم ■

للحد صلة

(١) كريم النثا أي طيب الذكر، وقالوا «النساء» مثل «النساء» ولكنها يقال للخير والنشر بينما «النساء» يقال للخير محسب.

(٢) خريق رياح أي شديدة الهبوب

(٣) العجاجة والعجاج، العيار

(٤) الأني هو السيل وهو هنا يقصد قوة اندفاعه

(٥) البيوت، يعني القمائل التي يمتطي إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، والتجار، الاصل والارومة

لم يكن المتنبي، ولا كان أي من الشعراء، صادقا في مدحه أو هجائه، اللهم الا في حالات نادرة انطبق فيها الوصف على الموصوف، سلبا أو ايجابا. انما كانوا يصنعون «فنا» وكما يفعل الفن عموميا، يأخذون من الواقع، يحسنونه أحيانا، ويقبحونه أحيانا. وقد أحسن الشاعر الذي قال حين عبّروه أنه لا يحسن الهجاء «أنا لا نعيينا أن نقول (تبكك الله) بدل (أصلحك الله)». وفي هذا



بقلم الطيب صالح

المعنى يقول الدكتور عبد الله الطيب، في إشارة بارعة في كتابه «مع أبي الطيب»:

«وكان تنافس الأمراء اذ ذاك على الشعراء، كتنافس ملوك أوروبا واسرائئها على استخدام المصورين البارعين واستخدامهم. وينبغي ان ننظر الى قصيدة المدح لا على أنها تسول، ولكن على أنها واجب او عمل يطلب من الشاعر فينجزه، كما كان المصورون في أوروبا يؤدي أحدهم واجبا او ينجز عملا حين يطلب منه ان يرسم هذا الامير او تلك الاسيرة. وكان من أعظم ما ينبغي في الرسم ابراز الأبهة والجمال، وما كان كل امير بذى أبهة ولا كل اميرة بحسنة فتأمل.»

صدق، لم يكن كل امير بذى أبهة، او على أي حال لم يكن بمثل الأبهة التي أسبغها عليه «الفنان» في فنه. ويمكن القول دون حرج، ان سيف الدولة الحقيقي، ليس هو تماما سيف الدولة الذي خلده المتنبي في شعره، وأضفى عليه بهاء لم يكن له في الواقع، مثل قوله:

وما الفرز ما بين الانام وبينه
اذا حذر المحذور وأستصعب الصعيا
لأمر أعدته الخلاف للعدى
وسمته بين العالم الصارم القضا
ولم تفتقر عنه الأسته رحمة
ولم يتترك الشام الأعادي له حبا
ولكن نفاها عنه غبير كريمة
كريم النثا (١) ما سب قط ولا سبا
وجيش ينش كل طود كانه

خريق (٢) رياح واجهت غصنا رطبا
كان نجوم الليل خافت مغاره
فمدت عليها من عجاجته (٣) حبا
فمن كان يرضي الكفر واللوم ملكه

فهذا الذي يرضي المكارم والربا
ما أجمل هذا. تقول. بصرف النظر عن «المادة الخام» التي صنع منها «الفنان» فنه، وتستطيع ان تتخيل ان سيف الدولة كان حين يستمع الى مثل هذا الشعر، يستخفه الطرب، كأنه يستمع الى وصف انسان آخر، يعرفه ولكنه ليس «هو». انسان يحلم ان يكونه.

نحوافق بعيد

إذا لم تنطبي ضبيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يستلب

وكم اعطاه في تلك اللحظة بالذات؟ ستمائة دينار، وهو مبلغ لعله لا يقاس بما وصله من سيف الدولة وعضد الدولة وابن العميد، ولكنه مبلغ لا يستهان به بحساب هذه الأيام. ولو جمعت كل ما نال الشاعر من كافور طول اقامته بمصر لحسبت مالا كثيرا. ضاع كله ويا للأسف، الذي جمعه من كافور ومن الآخرين. ذهب هدرًا عند دير العاقول، انتهبه فاتك الاسدي وعصبته، يتقاسمونه بطرطوره.

لا يا رعاك الله. ما كان كافور يقدر ان يفعل غير ما فعل، فهو بعد «امير» حتى ولو كان عبدا مخصيا. وكان ملكه اوسع من ملك سيف الدولة، فقد حاز مصر واكثر الشام. وكان احد «محاور» السلطة في ذلك الزمان. والمتنبي، مهما كان، ليس غير «شاعر». ومنطق السلطة غير منطق الشعر. الا ان ابا الطيب تجرأ واراد ان يعبر الحاجز الذي يفصل بينه وبين صاحب السلطان، ويجلس معه على سرير واحد، وهذا لا يجوز، اللهم الا ان يكون الشاعر نفسه هو صاحب السلطان، الامر الذي لم يحدث الا نادرا. وحسنا فعل كافور فماذا كان يجدي المتنبي ان يصبح «محافظة» على الفيوم، كما روي انه اراد؟

هل قالوا انه لم يمدحه؟ بلى وانم الحق، لقد مدحه واظن في مدحه. قال ابو البقاء: «سالت شيخا ابا الحرم مكي بن ريان الماكسي عند قراءتي عليه الديوان سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ما بال شعر المتنبي في (مدح) كافور اجود من شعره في عضد الدولة وابي الفضل بن العميد؟ فقال: كان المتنبي يعمل الشعر للناس لا للممدوح، وكان ابو الفضل بن العميد وعضد الدولة في بلاد خالية من الفضلاء، وكان بمصر جماعة من الفضلاء والشعراء فكان يعمل الشعر لاجلهم، وكذلك كان عند سيف الدولة بن حمدان جماعة من الفضلاء والادباء، فكان يعمل الشعر لاجلهم ولا يبالى بالممدوح...»

رحم الله شيخنا ابا الحرم. لقد لمس حقيقة هامة في فهم الشعر، بل وفي فهم الادب والفن على وجه العموم. بعد ذلك، حين قلب المتنبي لكافور ظهر المجن، وفارقه على اقبح وجه كما كان حتما ان يحدث، قال متصلا من مدحه اياه:

وشعر مدحت به الكركدن
بين القسريين وبين الرقي
فما كان ذلك مدحا له
ولكنه كان هجو النوري

نعم، ولكن ليس على المعنى الذي ذهب اليه اولئك الشيوخ الاجلاء.

للبحث صلة

4823

تحامل القدماء وكثير من المعاصرين على كافور المسكين، واستكثروا عليه ان يمدحه بكر الزمان وقلته الدهور، ابو الطيب المتنبي. وكافور لم يذنب في حق الشاعر بشيء. لقد أحسن استقباله وقطع له دارا على ضفة النيل. فلا كما تقول. وخصص له خديما وحاشية، وأجرى عليه مالا، ان لم يكن مثل ما كان يصله من سيف الدولة، فقد كفاه مؤونة العيش وزيادة.

واين هو الامير في زماننا هذا الذي يصنع مع «شاعر» مثل ذلك الصنيع؟ اقصى ما يفعل ان يعينه ملحقا في سفارة او موقفا في وزارة. وقد قضى نحبه محمد المهدي المجذوب، شاعر السودان الفحل، وأحد فطاحل شعراء العربية في هذا العصر، وهو مراقب للحسابات! انكر المتنبي الجميل فيما بعد فقال في هجاء كافور:

جوعان ياكل من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيم القدر مقصود

ولعله اراد «جوعان» ياكل من زادي ويطعمني، فليس الام من مضيف يقري ضيفه من طعامه، اي من طعام الضيف. او كما قال خنزر بن ارقم يهجو قوم الراعي الشاعر:

بني قطن ما بال ناقة ضيفكم
تعشون منها وهي تلقى فتودها
عدا ضيفكم يمشي وناقة رحله
على طنب الفقهاء تلقى قديدها
وبات الكلابي الذي يبتغي القرى
بليلة نحس غاب عنها سعدوها

لا عجب، فقد ذبحوا ناقته وأطعموه واكلوا منها، وقددوا بقية اللحم، ونشروه ليحف على طنب الفقهاء، امرأة الراعي.

لم يفعل كافور مثل ذلك مع المتنبي في الحقيقة، فقد كان الشاعر ياكل من طعام ابي المسك ويرفل في ثيابه. الذي لم يفعله كافور هو ان يقطع الشاعر «ضيعة» او ولاية، كما طلب صراحة:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله؟
فبأنني اغني منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفي زماننا
ونفسي على مقدار كفيك تطلب



بقلم الطبيب صالح



بقلم الطيب صالح

الفا

اختلف الرواة في صاحب هذه القصيدة العظيمة. قالوا انها للعديل بن الفرخ العجلي. وقال آخرون انها لابي الأخيل العجلي. وذكروا ان ابا الأخيل وفد على عمر بن حنيفة الفزاري في اواخر ايام بني امية، فقبل له. ان ابا الأخيل بالباب يستأذن، فقال: «اذا والله لا ياذن له غيري». وقام من مجلسه حتى اتاه بالباب. فآخذ بيده واقعده معه على بساطه، ثم قال له: «انشدني مئصفتك»، فانشده اياها فكساه واعطاه ثلاثين

كافوا يسمون مثل هذه القصائد «المنصفات»، أي انها تُصِفُ الخصم فلا تحقره ولا تبخسه حقه. من ذلك شعر شبيل الفزاري وعبد الشارق ابن عبد العزى الجهني والعباس بن مرداس السلمى. وكل ذلك شعر شريف ظل يضيء في دياجير العصور حتى تنأى البنا في هذا العصر الحالك الظلام. ومن شريف ما قيل في وصف الخصم ابيات عبترة:

ومنجج كمره الكُساء نزاله

لما راني قسدا نزلت أريد

أبدي نراجذه لغير تبسم
الا ان هذه القصيدة - ولنقل انها لابي الأخيل العجلي - اكثر من ذلك بكثير. انها قصيدة ملحمية، لا تقل في مأساويتها واثارتها للحنن والاسى، عن «تراجيديا» اليونان. وقد كانت قصيدة طويلة، فيما رواوا، ضاع معظمها لسوء الحفظ وبقيت منها ابيات. الا ان القليل الذي وصل البنا يعطينا فكرة واضحة عن شاعر بلغ حدا من «التجرد الفني»، نادر المثال في الشعر العربي. وانت اذا استنتيت معلقة زهير في حرب عبس وذبيان، وسينية البحترى في الايوان، وبعض شعر المتنبي وابي العلاء، لعلك لا تجد الا ابياتا قليلة متفرقة من هذا الضرب من الشعر.

الشعر العربي في الاغلب، شعر «منحاز». «التزام» الشاعر واضح، ان بالحق او بالباطل، ولا اقول «انتماؤه»، فذاك امر اوسع واعمق، يجعل الشاعر «الكبير» شاعرا عظيما.

هذا ما فعله زهير في معلقته، وهذا هو الذي جعلها في رأيي، شعرا عظيما، وليس شعرا جميلا فقط. انها عندي اعظم المعلقات لهذا السبب. لقد كان زهير الوحيد بين شعراء الجاهلية، بل وظل من الفلال الى يومنا هذا، الذي سما بفته فوق اغراءات الظروف التي اكتنفته، فلم ينحز الى اي جانب في الصراع الدائر في قومه ولكنه نظر الى المأساة بكليةتها، وبذلك صنع فنا «انسانيا» ينطبق على كل زمان ومكان. كذلك فعل ابو الأخيل العجلي، وزاد على زهير انه كان «مشاركاً» في الحرب وشاهداً، عليها في الوقت نفسه. قال رحمه الله وغفر له:

الا يا اسلمى ذات الدماليج والعقد

وذات الثنايا الغر والنجاحم الجعد

وذات الثنات الحم والعاراض الذي

به ابرقت عمداً بانبيض كالشهد

كان ثايبا ما اعتبرت مداية

ثوت حججا في رأس ذي أفنة (١) فرد

جبرى بفراق العاصرية غدة

شوايح (٢) سود ما تعيد وما تبدي

لعمري لقد مرت بي الطير انفا

بما لم يكن اذ مرت الطير من بد

ظلمت أساقى الموت اخوتي الأبي

ابوهم أبي عند المزاينة والحد

كلانا ينادي يا نزار وبيننا

قنا من قنا الخطي او من قنا الهند

(٣) قروم تسامى من نزار عليهم

مخاعفة من نسخ داود والسعد

اذا ما حملنا حمة مثلوا لنا

مرفعة تدرى السواعد من صعد

وان نحن نازلناهم بصوارم

ردوا في سراويل الحديد كما نردى (٤)

كفى حزنا ان لا ازال ارى القنا

نمج نجيعا (٥) من ذراعي ومن عضدي

لعمري لن رمت الخروج عليهم

بقيس على قيس وسعد على سعد

وضيقت عمروا والرباب ودارما

وعسرو بن اذ كيف اصبر عن اذ

لكن كتهريق الذي في سقانه

لرراق الى فسوق رابية صلد

كمرضية اولاد أخرى وضيعت

بني بطنها هذا الضلال عن القصد

فأوصيكما يا ابني نزار فتابعيا

وصية مفضي النصح والصدق والود

فلا تعلمن الحرب في الهام هامتي

ولا ترمي بالنبل ويحكما بعدي

اما ترميان الله في ابني ابيكما

ولا ترجوان الله في جنة الخلد؟

فما نرب أترى (٦) لو جمعت رايها

بأكسر من ابني نزار على العد

هما كنفا الارض للذا لو ترعزعا

ترعيزع ما بين الجنوب الى السد

وانى وان عاديئهم وحفوتهم

لنسلم معا عض اكبادهم كبدى

فان ابي عند الحفاظ ابوهم

وخالهم خالي وجدهم جدي

رماحهم في الطول مثل رماحنا

وهم مثنا قد السيور من الجلد (٧)

(١) ثوت حججا الخ: خمر عنتت زمنا طويلا في مكان على قمة جبل.

يشبهه به ريق الفتاة.

(٢) شوايح سود: اغربة سود.

(٣) قروم: سادة اشراف، واصل القرم الفحل من الابل.

(٤) سراويل الحديد: الدروع، ويردى من الرديان اي سرعة المشي، وهو هنا يقصد انهم لا يقلون (عنا) اقداما وجراة على الحرب.

(٥) النجيع الدم الاسود.

(٦) اترى والثرى اسنان للارض، يقصد ان ربيعة ومضر لا يحصيها العد من الكثرة.

(٧) قد السيور من الجلد: يقصد انهم متساوون في كل شيء، كما تنساوي السيور المقطوعة من جلد واحد.



بقلم الطبيب صالح

رحم الله شيخنا أبا الحرم مكّي بن ريان بن شيبه بن صالح الماكسيني المولد الموصلّي الدار، المقرئ النحوي الضرير الملقّب بـ «صائن الدين». ولد في مأكسين، وهي بلدة من أعمال الجزيرة على نهر الخابور. ونشأ يتيماً فقيراً، ثم قصد الموصل فحفظ القرآن وتبحر في فروع اللغة والأدب. ثم سافر إلى بغداد فصحب علماءها وائتمتها ومن ثم عاد إلى الموصل وبرز للناس فعرّف وانتشر ذكره وبعد

صيته. وكان يتعصب لأبي العلاء فتأثر به ونسج على منواله. وكانت وفاته عام ثلاثة وستمئة بالموصل ودفن بصحراء باب الميدان.

رحمه الله. لقد أدرك حقيقة هامة في فهم الشعر، بل وفي فهم الأدب والفن على وجه العموم. قال أن المتنبي كان يتوجه بشعره إلى العلماء والادباء والشعراء ولا يبالي بالممدوح. وما نحن نرى في زماننا هذا مذاهب في النقد تزعم أن «النص الفني» كيان قائم بذاته، مستقل عن صاحبه، لا صلة له بحياة المؤلف، ولا ببيئته وزمانه. وذلك أبعد مراحل مما ذهب إليه شيخنا أبو الحرم، وإن كان لا يخلو من بعض ما قصد إليه. إنما يمكن القول على أي حال، أن الشعر ليس وثيقة تاريخية لحياة الشاعر، وأنه في جانب كبير منه حوار متصل بين الشاعر وفنه، وبينه وبين الشعراء في زمانه، وبينه وبين تراث قومه إطلاقاً. ويزيد بعض اخواننا في زماننا هذا، أنه أيضاً تواصل مع التراث «الإنساني» عامة. ويقولون أن «الفن» لا يصور الواقع، ولكنه «يعيد صياغة الواقع».

أياً أرادوا، فلا مراء أن الشعراء العرب، وخاصة الأفياذ منهم، كانوا يعلمون أنهم يصنعون «فنّاً» ليس مقيّداً بزمان أو مكان. وكان المتنبي من أكثرهم احساساً بذلك. فما هو ذا يقول مخاطباً سيف الدولة.

وعندي لك الشرذ السانرات لا يخضعن من الأرض داراً

تدبر يا أصلحك الله قوله «لا يختصصن من الأرض داراً» ليس هذا ما يرمي إليه بعض أصحابنا حين يصفون بعض ضروب الأدب بأنها «عالمية» و«أي عالم» يقصدون يا أم عمرو؟

كان القدماء يدركون هذا المعنى تمام الإدراك، لذلك كان الشاعر عندهم لكي يستحق صفة شاعر لا بد له أن

يتقن أدوات صناعة الشعر، ويتدرب على فنون القول من مديح وهجاء وغزل ونسيب وفخر ورثاء. هكذا يفعل كل صاحب حرفة وصناعة. وفي زماننا هذا يتعلم الرسامون مزج الألوان ورسم الأجساد والطبيعة والزوايا والابعاد وخصائص الضوء وانعكاساته إلى غير ذلك. وكان يلزم للشاعر أن يحيط بتراث قومه ويلم بما فعل الشعراء قبله. وفي الإسلام، أصبح الشعراء يدرسون علوم القرآن والحديث والفقه والتاريخ وكل ما أتيج لعصرهم من معارف. وبوسعك أن تقول أن وراء شعر أبي نواس الماजन علماً كثيراً! فالامر إذاً ليس محض كلام يجيش في صدر الشاعر عفو الخاطر، ولكنه أيضاً صناعة وذرية ومهارة. وهذا في قلبي هو المعنى الذي أشار إليه شيخنا أبو الحرم. ولو رحت تطلب شاعراً عربياً واحداً، منذ امرئ القيس إلى زماننا هذا توفّرت له كل أدوات صناعة الشعر، بالإضافة إلى موهبة خارقة لم يحظ بمثلها أحد قبله أو بعده، لما عدت أبا الطبيب المتنبي. ونحن حين نقول أنه «الأستاذ» فإنما نقصد بذلك المعنى الأصلي للكلمة.

قال صاحب «البيتية»، في معنى البيت: ازورهم وسواد الليل يشفع لي

وانثني وبياض الصبح يُغري بي «هذا البيت أمير شعره، وفيه تطبيق بديع ولفظ حسن، ومعنى بديع جيد. وهذا البيت قد جمع بين الزيارة والانتشاء والانصراف، وبين السواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والأغراء وبين «لي» و«بي». ومعنى المطابقة أن تجمع متضادين كهذا. وقد اجمع الحذّاق بمعرفة الشعر والنقاد، أن لأبي الطبيب نواذر لم تات في شعر غيره وهي مما تخرق العقول...»

تخرق العقول، أي نعم، ولا عليك من هؤلاء البنيويين والتفكيكيين والسيماثيين وما شابه. لقد جاءوا من أودية شتى إلى وادي العقيق ووادي الرّس ووادي الخزامي، فلن يطول مكثهم بها إن شاء الله. وفي البيت افضل بعد، فحكاية أبي الطبيب مع الضوء والظلام حكاية طويلة. وقد قال في موضع آخر:

وكم لظلام الليل عندك من يد تُخبر أن المانوية تكذب

وقاك ردى الاعداء تسري اليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب كان المتنبي شاعراً من رأسه حتى قدميه. شاعراً في حله وفي ترحاله. شاعراً في النعيم وفي البؤس. شاعراً في السلم وفي الحرب. شاعراً في حلب وفي الفسطاط، في الكوفة وفي شيراز. كانت حياته كلها مندورة للشعر. كانت لديه «القصيدة هي الهدف» ■

المتنبى



بقلم الطبيب صالح

بلى، كانت القصيدة، هي الهدف، بل كانت هي «القدر»، وهو قدر لم يتقبله الشاعر طائفاً، وقد حق له ذلك، فمنذا الذي يرضى أن يحصل عن طيب خاطر ذلك العيب الفادح، عيب عبقرية مثل عبقرية المتنبى؟

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبني
أني بما أنا بأك منه محسود.

وهل أبكاك يا سيدي الأ شعير؟
كان المتنبى شاعراً، أولاً وإخيراً، وهي حقيقة أدركها ذلك العبقرى الآخر، أبو العلاء المعري. هو أيضاً عبر ذلك الجسر، وقاسى ذلك الليل، وأوغل في رحلة وجودية، جريئة تختلف عن رحلة المتنبى، ولكنها تلتقي معها في نهاية الأمر، لذلك كان إذا ذكر الشعراء يقول، قال فلان، وقال فلان، حتى إذا ذكر المتنبى قال «قال الشاعر».

بيد أن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، على علمه وسبقه وجلال قدره، لم يفتن إلى هذا، ولعله فطن ولكنه غض الطرف، بسبب شعور محير تجاه أبي الطبيب. اسمعه يقول: «قد يقال هذا كله ولكنه لا يعني عن المتنبى شيئاً، ولا يزيد على أن يكون ما نذهب إليه من أن المتنبى إنما كان شاعراً كغيره من الشعراء، ورجلاً كغيره من الناس، قد رفع نفسه فوق قدرها، وزعم لها ما ليس من أخلاقها، وطمع فيما لا ينبغي لمثلها أن يطمع فيه. فنن نفسه حراً ولم يكن إلا عبداً للسلطان، وظن نفسه أبياً، ولم يكن إلا ذليلاً للسلطان، وظن نفسه صاحب رأي ومذهب، ولم يكن إلا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس أمراً واهونهم شأنًا».

رحم الله العميد وغفر له. لقد أخرجته البغضاء للمتنبى عن طوره تماماً، وجعلت بينه وبين الشاعر حجاباً مستوراً. ولكنها بغضاء مثل الحب، فالعميد رحمه الله، شأنه في ذلك شأن الشريف الرضي والصاحب بن عباد وكثيرين إلى يومنا هذا، حال المجمعين على الجحد.

لا غرابة إذاً، إن هذا العالم الحبر، عملاق الأدب في زمانه وإلى اليوم، لم يثبت به إلى المضمون الخطير في بيت من شعر المتنبى. لا عن قلة فطنة، فقد كان العميد أبة في الذكاء، ولا عن جهل حاشا لله فقد كان العميد بحر علوم. لا، إنما هي البغضاء التي تجعل الإنسان ينظر إلى الشيء الواضح أمامه، فلا يراه. قال المتنبى:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة

ففي الناس يوثقات لها وطول

فلن العميد رحمه الله، إن هذا البيت متصل بالآبيات التي سبقته في مدح سيف الدولة، فقال:

«ومعز الدولة وحده هو المعنى بهذين البيتين، ما أشك في ذلك. فهو لقب يضاف إلى الدولة، ولكنه ليس ماضياً ولا عضباً، وإنما هو لفظ ضخم لا يعني شيئاً. والبيت الثاني صريح في ذلك، فقد جعل أمير حلب سيفاً للدولة بحميتها ويذود عنها، على حين أن منافسه في بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول... والغريب أن النقد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة في إنكار هذا البيت فعابوه، مع أنني لا أعرف حياء أقذع ولا أوجع، ولا سهماً أفذ من هذا البيت...»

غفر الله لك. لو أنك تمهلت قليلاً، ونظرت بعين المحب، ولم تحلل بوقات، وطبول، على معناهما المعاصر والحقت البيت لا بالآبيات التي سبقته بل بالآبيات التي جاءت بعده، إذا لوجدت معنى طريفاً حقاً. إذا لرأيت أن الشاعر أفلت فجأة من مدح الأمير، ولا بنفسه في ثمانية أبيات، كأنها قصيدة قائمة بذاتها فيما يسمى هذه الأيام بـ «المنولوج الداخلي»، يقول:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة
ففي الناس يوثقات لها وطول
أنا السابق الهادي إلى ما أقوله
أذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيمما يربيني
أصبر ولا للقاتل فيه أصول
أعادي على ما يوجب الحب للفتى
وأهدأ والانتكار في تجسول
سوى وجع الحساد داو فأنه

إذا حل في قلب فليس يحسول
وأقول عفا الله عني، إن المتنبى لو أراد المعنى الذي ذهب إليه العميد، لعبّر عنه صراحة بأسلوب مباشر، كما فعل في قصيدته التي بعث بها إلى سيف الدولة من الكوفة بعد أن فارقه:

ليس الآن يا علي همام
سيفه دون عرضه مسلول
أما الشاعر هنا يؤكد دوره كشاعر. كأنه يقلل من شأن سيف الدولة. فهو «بعض الناس»، وهو مجرد «سيف»، مجرد «دولة». أما الشاعر، فهو طبول تصطبج وأبواق تضج. وكأنه أراد أن يقول للأمير «لا تظن أن الملك يبني بالسيف وحده، إنما أيضاً بالفكر والأدب والفن، وإذا تخيلت أن ما أنجزته بسيفك عظيم، فإن دوري أنا الشاعر، لا يقل أهمية عن دورك، ولعله يفوقه».

هذا المعنى أدركه شيخنا أبو الفضل العروضي رحمه الله، فقال:

«أراد بالبوق والطبل الشعراء الذين يشيعون ذكره ويذكرون في أشعارهم غزواته، فينتشر بهم ذكره في الناس كالْبوق والطبل اللذين هما لأعلام الناس بما يحدث».

رحم الله الدكتور طه حسين، فلنا مع كتابه عن المتنبى حديث آخر لعله بطول. وأنت يا سيدي سقى الله قبرك أينما كان. لقد صنعت من عذابات حياتك فناً خالداً، وولدت ضوءاً، تنوره محبوك، وأعشى عيون متعضيك فلم يروا إلا الظلام.

نحوافق بعيد



بقلم الطبيب صالح

اعتتمد الدكتور طه حسين اعتماداً كبيراً في كتابه «مع المتنبي» على كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير» وتبني أحكامه على أبي الطيب وشعره إلى حد بعيد. وكان «بلاشير» قد قدم دراسته التي اسمها «أبو الطيب المتنبي - دراسة في التاريخ الأدبي» كاطروحة نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون عام ١٩٣٥. وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور ابراهيم الكيلاني الأستاذ بجامعة دمشق، ونشرته وزارة الثقافة السورية عام ١٩٧٥. وتلك حسنة محمد لوزارة

الثقافة السورية، فهذا كتاب مهم بذل فيه المؤلف جهداً كبيراً في البحث لولا أنه لسوء الحظ انتهى إلى نتائج خاطئة في الغالب. والكتاب مهم، ليس لأنه يفيدنا بأي جديد عن حياة المتنبي أو شعره، ولكن لأنه يكشف لنا بصراحة كيف نظر بعض هؤلاء المستشرقين إلى الثقافة العربية بل والحضارة العربية برمتها. ولولا استثناءات ليست قليلة، لرجال ونساء منصفين لا تنقصهم الشجاعة، بذلوا جهداً عظيماً، ونظروا بعطف إلى الحضارة العربية «من الداخل». لولا ذلك لقلت أن تلك النظرة، لم تكن تتغير إلى يومنا هذا.

سوف أتطرق إلى كتاب «بلاشير» خلال حديثي عن كتاب الدكتور طه حسين أن شاء الله. ولكنني اكتفي الآن باقتطاف فقرات من الكتاب، يتحدث فيها المستشرق الفرنسي عن سيف الدولة، تحتوي في ظني، على كثير من الخطأ والتناقض للذين وسما النظرة الغربية إلى الإنسان العربي والحضارة العربية. يقول «بلاشير»:

«وكان سيف الدولة مؤسوماً، خلقاً وخلقا، بطابع عرقه العربي، يفرض نفسه من خلال صفات هي عماد السؤدد في نظير البدوي، كالشجاعة والكرم وشيء من سمو النفس. وكان يحكم الناس (١) (الرزة الوراثية)، مسرع حرب، ولكن تبعاً للمفهوم العربي، إذ لم يكن فيه ما يشعر برجل الحرب الحقيقي، وكان نصيبه كلما اصطدم بخصم عنيد، الهزيمة. وكانت طريقته في الحرب (تكتيك)، كما سنرى، ترتكز على مهاجمة العدو بعنف واستغلال عنصر المفاجأة وإغارة جنوده الفرسان. ولم يكن قبل غزواته يستعد للمعركة، أو لا يستعد الا قليلاً، كما أنه لم يكن بعد الانتصار بالاحتفاظ بثمرات فتحه أو تأمين انسحابه. وكان بالإضافة إلى ذلك كغيره من القواد الأرياء، (٢) شديد العناد، يصم أذنيه عن سماع أبسط نصائح الحيلة، وكان يجب أن يستبد برأيه ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره. بيد أنه كان يعوض عن هذه العيوب الخطيرة التي سببت له في أواخر حياته كوارث متتابعة، باحتمال هائل للمشاق، وجراً واستبسال بلغا أقصى الحدود، فإن ما كان عند الغالبية من العرب (٣) نفجاً، أصبح عنده وقائع حقيقية ويومية. وأخيراً فإن ما كان يميزه عن أخوانه بني جنسه، فهو عناد نادر مقرون بتجاهل تام لفتور العزيمة. وكان ينفذ كل ما عقد العزم عليه مهما كلفه الأمر، ولم تنل في أواخر حياته، الإحزان ولا الهزائم ولا الخيانات من شجاعته الجموح.

وكان لسيف الدولة أيضاً من صفات العربي، ذلك التقابل الذي ضلل (حبر) توقعاتنا كافة، فهل كان جاثراً أم حليماً؟ لسنا

بنري، فإن السيد الذي أعاد لنصارى حلب جثة أحد أبناء برّدرس ففاس (٤) Bardas Phocas، الذي توفي في الأسر، هو ذاته الذي أمر بقتل أسرى الروم، الذين وقفوا عقب إحدى المعارك، في قبضته.

ولسيف الدولة أيضاً من صفات العربي، تلك العصبية التي تحولت عنده إلى (٥) تقوى حقيقية. فقد كان يكن لأمه أجلاً عسيقاً، ويضمر لآخيه ناصر الدولة ولاء، وتلك لعمرى صفة استثنائية (نادرة) في الشرق. وكان لحبائه الجنسية مفارقات عجيبة لم تكن على كل حال وفقاً على العرب بل هي مشاع بين الشرقيين في القرون الوسطى. ولا يلبث هذا المحارب الذي قاسى دون تدمير، متاعب الحرب في الجبل والصحراء، أن ينقلب بعد عودته إلى بذخ مخنث، قادر مع ذلك عند الحاجة، على استرداد عزيمته دفعة واحدة. ويبدو أن قصره في صاحبة المدينة، وهو في أن واحد، دار إمارة وحصن، على غاية الترف، تقام فيه الماد طويلاً، ويطلق العنان، دون ريب، لجميع أنواع الإفراط الذي اقتضته حياة حرة جداً. والظاهر أنه كان للنساء، بالإضافة إلى ما تقدم، سلطان كبير عليه. وكانت أحدهن، وهي مسيحية من أسرة رومانية شريفة، أسرت في إحدى الغزوات، أجنت في قلبه هوى جامحاً.. ونشعر أحياناً أن ثمة شيئاً كان من الممكن أن يفوت هذا الأمير لو لم يظهر كرماً صاخباً بلغت شهرته بغداد وخراسان.. وقد كان هذا الكرم والحق يقال، أسلوباً سياسياً، الغرض منه إيقاع الدهش في قلوب أعدائه وجيرانه. ويقال أنه في سنة ٣٥٤هـ - ٩٦٥م، صرف على سبيل المثال، وفي بحران الهزائم، سبعائة ألف دينار ذهباً، على زواج اثنين من ولده. وكان سخاؤه ناشئاً، في أغلب الأحيان، عن أريحية تعثره فيعطي دون أن يحسب لمقتضى الحال والضرورة حساباً.

أما وإن الاهتمام الذي كان يعبره سيف الدولة للاسور العقلية، صادر عن عاطفة النجح فهذا مؤكد جداً، فقد كان من مقتضيات الترف في زمنه، أن يحيط الأمير نفسه بجمهور من المتملكين، وكذلك بخدور النساء العديدة، والأصطبلات الواسعة. أما وإن هذا الأمير استجاب، بجعله حلب حاضرة منافسة لبغداد، لدواعي الدعاية الشخصية ومصلحة الملك، فهذا ما لا نستطيع إخضه. ولم يكن هذا إلا استمراراً للتقاليد العربية، تقاليد اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قبل الإسلام، والامويين في دمشق بعد الإسلام.. فهل كان سيف الدولة ذاته شاعراً؟ هذا ممكن جداً لأن نظم الشعر كان شائعاً في أسرته بيد أن الأبيات المنسوبة إليه مشكوك بصحتها، وفي الواقع فليس الأمر ذا بال، فإن الواقعة التي ينبغي الاحتفاظ بها هي أن سيف الدولة كان على شاكلة الفئة الممتازة في زمنه، واسع المعرفة بالشعر العربي. وليس عجباً أن نجد عند أمير مثله ورت الكثير من الخصال الأصلية، ما يميز العربي كحب الفصاحة، والخضوع الأعنى لسحر الكلمة...

(١) لعله يقصد شيئاً متصلاً في الطبع العربي بحكم الوراثة، تجعل العربي يسلك دائماً سلوكاً معيناً، وهي كما ترى نظرة عنصرية ومتناقضة أيضاً، فهو يتكر في كتابه وجود عنصر عربي فخ، وفي الوقت نفسه يعزي إلى العنصر العربي أمجاداً معينة من السلوك

(٢) الأرياء جمع ردي، يقصد القواد الذين لا علم عندهم بفنون الحرب

(٣) يستعمل المترجم كلمة «نفج» بمعنى جيشان الحماس بشكل مؤقت، والتظاهر

(٤) Bardas Phocas هذا، هو الذي سمّاه العرب «الدستق» وأشار إليه المتنبي في شعره

(٥) تقوى حقيقية، لعله يقصد أن العصبية تحولت لديه إلى «بر ورحمة» تجاه أفراد عائلته



بقلم الطبيب صالح

تخيل مسافراً يختار لرحلته، عمداً وبمحض إرادته، رفيقاً لا يحببه ولا يأنس إليه. ألا يكون هذا عجيباً؟ هكذا فعل استاذنا العميد الدكتور طه حسين مع أبي الطيب المتنبي. أننا بذلك صراحة في مطلع كتابه مع المتنبي بأسلوبه الفريد الذي أثر عنه، وهو أسلوب يغنيك ويجذبك في الوقت نفسه، فقال:-

«وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء إلي وأثرهم عندي. ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسي منزلة الحب أو الأيثار. ولقد أتى علي حين من الدهر لم يكن يخترني ساعني بالمتنبي أو أطيل صحبته، أو أديم التفكير فيه. ولو أنني أطعت نفسي وجاريت هواي لاستصحبته شاعراً أسلامياً قديماً عسيراً كالفرزدق أو ذي الرمة أو الطرماح، أو شاعراً عباسياً من هؤلاء الذين أحبهم وأوثرهم، لأنني أجدهم عندهم لذة العقل والقلب، أو لذة الأذن، أو اللذتين جميعاً، كمسلم وأبي نواس وأبي تمام وأبي العلاء. ولكنني لم أطع نفسي، وإنما عصيتها، ولم أجار هواي، وإنما خالفته أشد الخلاف، وطلبت إلى صاحبي على كره مني أن يستصحب المتنبي».

كان ذلك في صيف عام ١٩٣٦. وكان العميد رحمه الله، في طريقه إلى جبال الألب، فراراً بنفسه كما قال من أحداث الحياة الخاصة والعامة في القاهرة، وطلباً للهدوء والراحة وقراءة مجموعة من الكتب الفرنسية. وهكذا بخبرنا العميد منذ البداية، أنه لم يكن يجد في صحبة المتنبي، لا متعة العقل ولا متعة القلب ولا متعة الأذن. لماذا إذاً يا دكتور الزمت نفسك امرأ ليس يلزمها وارهقتها كل ذلك الأرهاق؟

يجيبنا العميد بطريقته الجذابة التي نجحنا فيها مع أنها تغيبنا:-

«واكبر الظن أنني إنما فعلت ذلك لأن المتنبي كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين، ولأنني حاولت وما زلت أحاول أن استكشف السر في حب المحدثين له وأقبالهم عليه، وإسرافهم في هذا الحب والأقبال، كما اسرف القدماء في العناية به حباً وبغضاً وإقبالاً واعراضاً».

لا جرم، فقد كان الحديث مستعراً في تلك الآونة عن أبي الطيب المتنبي في العالم العربي، بل وفي العالم الإسلامي أيضاً لمناسبة الاحتفال بذكره الألفية. كان الاستاذ محمود محمد شاكر، أستاذ الله عمده، قد أصدر بحثه القيم عن المتنبي، الذي نشرته مجلة «المقتطف» في يناير عام ١٩٣٦ في عدد خاص. وكان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام قد نشر كتابه «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام»، كذلك صدرت مقالات لكبار

نحو أفق بعيد

١١٤

الكتاب أمثال العقاد والمازني. وكان المستشرق الفرنسي «بلاشير»، قد أصدر بحثه عن المتنبي باللغة الفرنسية عام ١٩٣٥. ولا شك أن الدكتور طه حسين، لم يكن لواء عمادة الأدب العربي قد عقد له بعد. لا شك أنه أحس رغبة عظيمة أن يدلّ بدلو، ويخوض في لجج أبي الطيب مع الخاضعين. ثم يقول:- «واكبر الظن أيضاً أنني إنما فعلت ذلك لأنني أحب أن أعاند نفسي وأخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر. وقد قلت في غير هذا الموضع أنني لست من المحبين للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنه فلم أجده بأساً في أن أشق على نفسي أثناء الراحة، وأنقل عليها حين تبغض الانقال عليها».

بخ بخ. كونك يا سيدي لا تحب شخص أبي الطيب، فهذا من حقدك. أما أنك لا تحب فنه فهذا أمر محير من شخص في مثل علمك وفضلك. ثم ماذا غفر الله لك؟

«نعم. لم أجده بأساً في أن أقطع عليها لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربي الجميلة وفي هذا الجو الحلو، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، والتي أعرق فيها إلى أذني كلما عبرت البحر. لم أجده بأساً بأن أثقل على نفسي أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبي والتحدث عنه والاستماع له والنظر فيه. والناس يعرفون أنني شديد العناد للناس، فليعرفوا أيضاً أنني شديد العناد لنفسي كذلك».

اللهم لقد عرفنا، ولقد كان أبو الطيب أكثر منك عناداً، جواً الأفاق، الواقف أبداً على مفترق الطرق. ولولا أننا نجحنا ونجلك، لما قبلنا منك كل هذا «الدال». وواضح أن الدكتور يستغل ظل الشاعر ويجده شديد الوطء على نفسه، فهو يقول في موضع آخر من كتابه، معلقاً على أبيات للمتنبي في رجل من طرابلس يدعى عبيد الله بن خلكان، أهده هدية فيها سمك من سكر ولوز وعسل، والأبيات ليست أكثر من لهُو تلُهِو به الشاعر، وهو بعد في باكورة شبابه:-

«فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى في وصف السكر واللوز والعسل، وفي الشكر على علية حلوى. ومن حق المتنبي أن يستريح وأن يلهو بالصفاغر، ويرقه بها على نفسه من هذه الهموم الثقالة التي يطوف بها في الأفاق، ويفكر فيها أثناء الليل وأطراف النهار. ولكن راحة المتنبي وقراغه، ودعابة المتنبي ومجونه، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح كما ستري في غير هذا الموضع من الحديث. فلم يكن المتنبي حلو الروح، ولا خفيف الظل، ولا جذاباً. وإنما كان مرا غليظ الذوق في أوقات الدعة والفراغ».

رحمك الله. أما قال لك الشاعر؟ أما اتاك صوته الجريح المثرع بكل تلك الأشجان النبيلة؟

سبحان خالق نفسي كيف لذتها

فيما النفوس تراه غاية الالم
الدهر يعجب من حملي نوائيه

وصبر جسمي على أحداثه الحطم
وقت بضيع وعمر ليت مدته

في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته

فسرهم وأثناه على الهرم



بقلم الطبيب صالح

نحن اليوم، من هذه المدة في الزمان، وقد بعدت الشقة، ومضى الدكتور العميد لحال سبيله، رحمه الله وأحسن اليه، لعلنا لا نجد غضاضة في عبث العميد بنا وتعمده أعافلتنا. ولعل ذلك لا يزيد على أن يجعلنا نضحك أو نبسم. لقد عاد العميد من فرنسا وفي نيته أن يفعل في الأدب العربي ما وجد الفرنسيين يفعلونه في أدبهم وفي فكرهم، وقد

أشار إلى ذلك بقوله... هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد، وأغرق فيها إلى أذني كلما عبرت البحر. طرح الأفكار الغربية وتاجيج نيران الجدل، والقاء الشك على الأمور التي يعتبرها الناس مقدسات أو مسئلمات، كل ذلك شائع في أوروبا، وخاصة في فرنسا، بسمونه Ico-onoelasma، أي «تخطيم الإيقونات». ولا بد أن العميد، أول عهده بفرنسا، بعد وقار الأزهر ومحاذاير شيوخه، وجد نشوة روحية ومنتعة ذهنية، لم يالفهما من قبل، في ذلك المناخ المنفتح، الذي لا يبالي أن يقول الإنسان ما يشاء ويكتب ما يشاء، ولما عاد إلى مصر أراد أن يقوم بذلك الدور في الأدب العربي، فأخرج للناس كتابه الشهير الذي زعم فيه أن الشعر الجاهلي كله منتحل، وضعه الرواة بعد الإسلام، وأن الشعراء الجاهليين، لا وجود لهم في الحقيقة، وأنهم من صنع خيال الرواة.

بهذه الروح أيضا أقدم العميد على دراسة المتنبي. اقتحم حضرة الشاعر العبقرى، بنفور يقترب من البغضاء، وثنية مبيتة على الغضب من شأنه والنيل منه، أدعاء للجدل، وأعاطة للناس. وأي نيل أبلغ من التشكيك في عروبة شاعر ترى الغالبية أنه شاعر العربية الأولى؟ يقول العميد، وهو جاد كالهازل، ومعرض كالقابل ومقرر كالسائل:

«فما الذي يمنعنا أن نصدق المتنبي، ونرى معه أنه كان عربياً قحطانياً؟ لا شيء إلا أنه لم يحفظ نسبه، ولم يحفظه له المؤرخون، فأمره في ذلك أمر الكثرة التي لا تحصى بين العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم. أفنجد عربيتهم لأنهم أضاعوا هذه الأنساب؟ وما يمنعنا إذاً أن نجحد أنسابه الناس لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول؟ أو إلى الناس الأولين؟ وإذا فلنقبل من المتنبي ومن أصدقائه أنتسابه إلى العرب...»

الأ أن هذا العبث من الدكتور العميد، لم ينزل برءاً وسلاماً على قلب أستاذنا محمود محمد شاكر، أطل الله عمره، فهو محب لأبي الطيب لا يحتمل فيه المزاح، فقال وهو يعني العميد:

«... زهو بغيبض، وخيلاء ناپيسه، وعجب لا يرحم باشاً رماه حب القراءة في تنور، وقوده من زمهرير ثرثرة قياسية... فهو دائماً يحب أن «يغيظ» القراء، وأن يثير «سخطهم»، وأن يعاند نفسه ويعاند الناس. سلسلة طويلة مكررة من الاستعلاء والاستخفاف...»

ربما يكون للأستاذ محمود بعض العذر، وما أحب إلا أنه هو المعنى يقول العميد «وإذا فلنقبل من المتنبي ومن أصدقائه» أنتسابه إلى العرب. لقد أصدر الأستاذ محمود كتابه عن المتنبي في يناير عام ١٩٣٦، أي قبل أكثر من عام من صدور كتاب الدكتور طه حسين، وبذل فيه جهداً عظيماً، وطرح فيه نظرية طريفة دعمها بكثير من الحجج القوية، أن المتنبي «شريف علوي». والكتاب من أقيم ما كتب عن المتنبي إلى اليوم. ثم إذا بالعميد، لا يكتفي بإنكار «علوية» الأ لأنه هو زعم ذلك لنفسه، وأكراما لخاطر أصدقائه!

كذلك تجاهل العميد كتاب الأستاذ محمود، فلم يشر إليه إلا تلميحاً في كتابه، بينما أشار إلى كتاب الدكتور عزام عدة مرات، وأشار كثيراً إلى كتاب المستشرق الفرنسي «بلاشير» يتفق معه في أغلب الأحيان. وكأنه استصغره وأستقل شأنه، فقد كان الأستاذ محمود يومئذ، حدثاً في العشرينات من عمره.

يصف الأستاذ محمود لقاءه للعميد، بعد محاضرة له بمناسبة الذكرى الالفية للمتنبي، وكان ذلك عام ١٩٣٦، فيقول:

«... وخرجنا من القاعة.. وإذا نحن فجأة خلف الدكتور طه، حين أنصرفه. فعزم علي أستاذي العبادي أن أسلم علي الدكتور. فاستعلن غضبي وأبيت. ولكن لم أكد حتى سمعته يقول للعبادي «هذا محمود شاكر يا دكتور». فوقف والتفت التفاتة يسيره، ومددت يدي فسلمت وغلبني الحياء والخجل مما لقيني من فرط البشاشة والخفاوة، ثم أخبرني أنه قرأ كتابي كله، وجاء بثناء لم أكن أتوقعه، وأطال وأفاض وغمرني ثناؤه حتى ساخت بي الأرض».

أغلب الظن إذاً، أن الدكتور العميد، كان يتوجه بحديثه إلى الأستاذ محمود محمد شاكر خاصة، وكأنه يتعمد أعاضته، وهو يعلم أنه سوف يغتاض حين يقول:

«ليكن المتنبي عربياً من قحطان أو عدنان، أو ليكن فارسياً، أو ليكن نبطياً، أو ليكن ما شئت، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا الصبي الذي نراه متى ما أخذنا في قراءة ديوانه، نبات شعبي خالص، نشأ في هذا الشعب الكوفي، الذي كان في أوائل القرن الرابع مضطرباً أشد الاضطراب. قد درس هذه البيئة الشعبية الكوفية التي أنبتت هذا النبات الشاذ، أقوم وأجدى من البحث عن أبيه إكان من جعفى، وعن أمه أكانت من همدان».

مرحى مرحى! ولا حظ أن العميد يصف الشاعر بأنه «نبات شعبي خالص» بلهجة من يقول بالبلدي المصري «فلان صعلوك من أرقعة حتى السيدة زينب وحواريها». ويقول أنه «نبات شاذ». ولو أنصف، رحمه الله لسمى هذا الشذوذ عبقرية ■



بقلم الطبيب صالح

لأن الدكتور العميد رحمه الله، أحب أبي العلاء المعري، فإنه أقبل على دراسته بحب، فأنحاز إلى صفة تامة، والتمس له الأعذار في مواطن الشك، وأقبل على شعره حال من يفترض النبوغ والعبقرية. لأجل ذلك، والحق يقال، جاء كتابه عن أبي العلاء، كتاباً بدعياً، مترعاً حكمة وفطنة. يقول في مقدمة الكتاب مبدئياً مذهبه في البحث:

ومن هنا لا نستطيع لانفسنا ان نحيد الأشخاص او ندمهم بحسن ما ينسب اليهم من الآثار أو قبحه، فإن الذم والحمد مع قلة غنائهما في التاريخ، ليسا من عمل المؤرخ، بل من عمل الرجل الذي قصر حياته في صناعة المدح والهجاء، بل ان مذهبنا في التاريخ يمنعا من ذلك، ويحرمه علينا، فأما لا نؤمن بانفراد الأشخاص ولا استقلالهم بالأعمال. وإذا لم ينفردوا بها ولم يستبدوا بالتأثير فيها، كان من الواضح انهم ليسوا احياء بما يسدى اليهم من حمد أو هجاء...

كتب الدكتور هذا الكلام عام ١٩١٤، ألا أنه حين جلس يكتب عن المتنبي عام ١٩٣٦، كأنه نسي ما قال بالأمس، أو كأنه أغفله متعمداً، فقال في كتابه عن المتنبي، مقارناً بينه وبين أبي العلاء، في فقرة عجيبة، لعلها تكشف لنا عن طوية نفس العميد في تلك الأيام، أكثر مما تخبرنا عن المتنبي: «وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر، رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة، واحتقر الناس وأزدرأهم، وأنكر الملوك والأمراء، وزهد في التقرب منهم، وأراد لنفسه ان تكون نفس الرجل الحر الكريم، ولعقله ان يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف، فوفى لنفسه وعقله بكل ما اراد. ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبي، فقد حرّمته بصره، ولم تنح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش. ومع ذلك فقد عاش كريماً ومات كريماً، ولم يتملق أحد عليه بذلة، ولم يغتم فيه أحد هفوه. سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان، واستطال على السلطان وعجز السلطان ان يستطيل عليه، وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته ان يخلوا بينه وبين حريته، والا يشركوه فيما يعرض لهم من خير أو شر، والا يخرجوه معهم ان خرجوا من المدينة فارين امام الروم، وان يقيموا في المدينة ان آمنوا ويقتنعوا عنها ان خافوا، ويتركوه فيها على كل حال، لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعاً. وما ارى الا انك قد عرفت هذا الرجل الذي اتحدث عنه، وهو أبو العلاء المعري».

بلى يا سيدي، لقد عرفناه. وقد أبدعت وانصفت، فهذه تحفة فنية من التحف التي تعودناها منك، واكبرناك لاجلها. ونحن نشارك الرأي في كل ما أثبتت به على أبي العلاء. ولكن العميد، غفر الله له، لا يشاركنا اعجابنا بأبي الطبيب، فهو سرعان ما يخلص إلى القول: «والذي أريد ان أصل اليه من هذا الحديث الطويل، هو ان المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه. وما أكثر ما يخدع الناس عن انفسهم، ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها، وإنما خدع معها كثيراً جداً من الناس، فظنوا به

الفلسفة وليس هو من الفلسفة في شيء، وظنوا به الحرية والكرامة وأباء الضيم، وليس هو من هذا كله في شيء وإنما هو رجل من أهل زمانه لم يمتاز منهم بأخلاقه، وإنما امتاز منهم بلسانه، كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء.

اللهم ان مراكب البغضاء قد أبحرت بك بعيداً عن سواحل الانصاف. هل أبو الطبيب المتنبي، بكر الزمان وفلته الدهور، لا يمتاز عن أهل زمانه من الكتاب والشعراء؟ وهل أبو العلاء المعري - وهو على الرأس والعين - لا يقل شاعرية عن أبي الطبيب؟ ان اول من ينكر عليك هذا القول، هو أبو العلاء نفسه. كذلك يوسع الانسان ان يسأل: أي الأمرين أجدر بالمفكر والاديب والشاعر؟ ان يلقي بنفسه في غمار الحياة بخبرها وشربها، وعسلها وصايبها، وهدبها واباطيلها، ونبلها وخسنتها، كما فعل أبو الطبيب، وكما فعل الدكتور العميد نفسه، ثم يخرج من كل هذا بمعان سامية تضئ في دياجير العصور؟ هل هذا ام ان يجنح إلى السلامة ويلود بصخرة تعصمه من الغرق كما فعل أبو العلاء؟ والمتنبي مات آخر الامر، كما يحب بعض الناس ان يموت الشاعر، فتبلاً على مذبج القوافي، إذ مات أبو العلاء على فراشه في المعرة، لذلك نحن نعرف أين ثوى أبو العلاء، لكننا لا نعرف مثوى أبي الطبيب غير هذا الشعر الفريد. وبإله من شاعر تناثر اشلاء في حنايا القصائد، وحملته القوافي في حواصلها، كحواصل الطير، من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان.

ولو شاء العميد غفر الله له، لسأل نفسه، كم من المفكرين والفنانين والشعراء، في تراث العرب وفي تراث غيرهم من الأمم، ارتفعت حياة الواحد منهم، إلى مستوى المثل العليا، التي عبر عنها في فكره أو في فنه؟ وهذا أبو تمام، الذي قال العميد أنه يحبه ويؤثره، تقلبت به الاحوال ليس أقل مما تقلبت بأبي الطبيب، وهذا أبو نواس، حين نسمع حديث الرواة عن حياته نقول: «تعبنا وترحنا وحين ننظر إلى فنه نقول لله دره». وفي الادب الفرنسي، والعميد به عليم، أمة من هؤلاء، نذكر منهم الشاعر «بودلير»، الذي ثبت شعره الرائع من أوجال الحياة وأوضارها. والرسام النابغة «جاك لوي دافيد»، الذي يصلح ان يضرب به المثل على محنة الفنان بين نوازع الفن وبين تبايرح الحياة.

لا يا رحمك الله، أنك لمعري لم تُنصف، وقد كان يجدر بك الانصاف، فما الذي دفعك إلى ذلك، وماذا اردت من وراء ذلك، وانت ولا شك تعرف منزلة أبي الطبيب عند صفيك أبي العلاء. قال أبو العلاء مدافعاً عن المتنبي، في رسالة الغفران: «وما زال (١) (الناس) يقولون، ويقصرون عن المكرمة فلا يطولون، وانهم عما أثل (٢) متناقلون، وطلاب الادب في جباله واقلون (٣). من أنفرد بفضيلة اثيرة، فإنه يتقدم بمنأقب كثيرة. وان حساد البار، لكما قال الفرزدق:-

فإن تهج آل الربرقان فأنما

هجوت الطوال (٤) الشم من آل يذبل

(١) الكلمة في الاصل كلمة قاسية، ابتليها اجلالاً لشكري العميد، الذي نعدّه رغم أي شيء، من عظماء الرجال في هذا العصر.
(٢) أثل، أي بنى وشيد.
(٣) واقلون، أي صاعدون.
(٤) الطوال الشتم، أي الجبال العالية، ويذبل اسم جبل.



بقلم الطبيب صالح

لماذا أبغض الدكتور طه حسين أبا الطبيب المتنبي؟
كتب العميد عن أبي العلاء بنحو ثلاثة عشر عاماً قبل أن يكتب عن أبي الطبيب، وكانت بينه وبين أبي العلاء وجود شبهة ووشائج لا تخفى، فأحبته لأجل ذلك كله، وأمنن في محبته. يقول، وهو يعني أبا العلاء:

«ليس هذا الرجل خليقاً بالاشفاق عليه والاعجاب به» بلى. وهو خليق بأن نحبه ونؤثره بالود، وبأن نزوره في هذا السجن الذي اتخذته لنفسه، ونقيم معه يوماً أو أياماً لنرى كيف كان يعيش فيه، لا عيشته المادية، بل عيشته العقلية الشاعرة المفكرة...» (الاشفاق) كان عنصراً مهماً في محبة الدكتور العميد لأبي العلاء، فقد كانا كلاهما كما قال أبو العلاء في آخر «رسالة الغفران»، وكما قال العميد في نهاية كتابه عن أبي الطبيب مردداً قول أبي العلاء «مستطيعاً بغيره»، لكنه لم يجد عند أبي الطبيب شيئاً يدعو إلى الاشفاق. ولو تمنن أكثر، لراى أن أبا الطبيب أيضاً كان جديراً بالشفقة والعطف والراء، ولكن بمعنى مختلف تماماً عن أبي العلاء.

كان أبو الطبيب يحبك في صدر الدكتور العميد منذ ذلك العهد، وهو يكتب عن أبي العلاء، ولا حرم، فسانت لا تستطيع أن تكتب عن المعري دون أن تتذكر المتنبي، قال العميد في كتابه عن أبي العلاء:

«مع أن أبا العلاء كان مقدماً لأبي الطبيب مفتوناً به حتى لنستطيع أن نعدّه تلميذاً من تلاميذه، مع هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا في حياتهما العملية وحدها، بل في حياتهما العقلية أيضاً. كان أبو الطبيب عبداً لشهواته بشرط ألا نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة، وإنما نفهم منها شهوات أخرى ممتازة بعض الشيء (!) شهوات الثروة والغنى والاستعلاء على الناس. أنفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات، واحتمل في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق. ذاق مرارة اليأس واحتمل ذل السؤال، وباع شعره في سوق الكساد، ومدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار، وتملق من كان يزدريهم أقبح الأزدراء، ونفع إلى المخاطرة والمغامرة، وانتهى إلى السجن وتعرض للموت، وباع نفسه وحرية وكرامته للملوك والأمراء. وتبدل رأياً برأي، ومذهباً بمذهب. وذل للفرس بعد أن كان لهم عدواً وبهم مغرباً وعليهم محرصاً. وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلقي حتى تلقاه الموت في بعض الصحراء فاراحه وأراح منه (!!).»

إلى هذا الحد بلغت كراهية الدكتور العميد لأبي الطبيب. كرهه لأنه رأى فيه جوانب من نفسه. وكرهه لأنه أفتقد فيه جوانب ظن أنها عنده. وكرهه لكل الأسباب التي أحب من أجلها أبا العلاء المعري.

كان أبو العلاء ضريباً، إذ كان أبو الطبيب حديد البصر. وكان أبو العلاء قعيد داره إذ كان أبو الطبيب جَوَّابَ أفاق مقتحماً لجج الحياة بخيرها وشرها. وكان أبو العلاء

يعيش على العدى والتين، إذ كان أبو الطبيب في بحبوحة، يملك ما يملك. وكان أبو العلاء حيناً متواضعاً إذ كان أبو الطبيب شرساً أذا غضبات ونفرات. وكان صوت أبي العلاء في شعره هادئاً رقيقاً مثل «سجع الحمام» إذ كان صوت أبي الطبيب صاخباً مجلجلاً مثل كتيبة مغيرة.

غفر الله للعميد لأن كان المتنبي، كما زعم «قد فلن بنفسه غير ما كانت عليه، فإن الأيام سوف تكشف له، أنه هو أيضاً تاه عن حقيقة نفسه، كما طوحت به أمواجها بعد ذلك التاريخ، عام ١٩١٤، حين كتب ما كتب. سوف يغرق وشيكا في بحر الدنيا بخيرها وشرها. سوف يتراجع عن آرائه التي أهاجت عليه الناس. سوف يمالئ الجمهور بكتابه «على هامش السيرة»، وكتابه «الوعد الحق». سوف يدخل معترك السياسة فيمدح ويذم، ويجادل ويخاصم. سوف يصبح عميداً ورئيساً في الجامعة، وسوف يصير وزيراً في الحكومة. سوف يقبل رتبة الباشوية من الملك، ثم حين تقوم الثورة على الملك، سوف ينحاز إليها، ويكون هو الذي يسميها «ثورة».

وأبو العلاء يا رحمتك الله. هل عوفي أبو العلاء حقاً من اشواق الحياة وأغراءات المجد؟ ألم تلحظ حتى في «اللزومات»، وراء غشاء هجاء الحياة وذمها جرائم المرض لم تزل تنفتق من حين إلى حين؟ أما رأيت حين المعري إلى عالم اللذة والحس حين قال:

أين امرؤ القيس والقيس العذاري

أذ مبال من تحتته الغبيط
له كُتَيْبَتَانِ، ذَاتِ كِبَاسٍ

تُرِيدُ وَالسَّابِغُ الرُّبِيطُ
ان المعري يومئذ هنا، كما لم يغب عن فطنتك، إلى أبيات لامرئ القيس، هي من أكثر الشعر العربي اقبالاً على المتعة واحتفاءً باللذة:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

عقرت بعيري يا امرأ القيس فأنزل
ثم قوله:

كأنني لم أركب جواداً بلدة

ولم اتيمن كعاباً ذات خلخال
ولم أسبأ الرزق الروي ولم أقبل

لخيل كربي كربة بعد أجال
ولك أن تتخيل أبا العلاء الضريب، رحمه الله، ملازماً داره في المعرة، ينكر الدنيا ويهجوها، والدنيا له بمرصد.

وكيف هو والمجد؟ هل حقاً أنه عاقه وداوى نفسه من اغراءاته؟ لماذا لم يصمت إذا؟ لماذا ألف الكتب ونظم الشعر؟ اليس ذلك من أجل أن يذيع صيته ويشتهر؟ وقصارى الزهد، كما قال العابدون، أن يذفن المرء نفسه في أرض الخمول والنسيان، حتى إذا غاب لم يفتقد، وإذا حضر لم يحس بوجوده، وإذا تكلم لم يلتفت إلى قوله.

ما هكذا فعل أبو العلاء. لقد مكث يغالب الدنيا وتغالبه. وكذلك حال أبي الطبيب، ألا أنه كان يكتفي بالبيت والبيتين، إذ كان يلزم أبا العلاء، العشرة والمائة. وكذلك كان العميد. ونحن نحمد الله أن الأمر صار كما أراد الله له أن يصير. إذا لا فتقدنا هذا الأثر الجليل. وهو الأهم، وهو الذي يعطينا آخر الليالي ■



بقلم الطبيب صالح

فلنستحامل الدكتور طه حسين على (شخص) أبي الطبيب المتنبي ما شاء، وليبغضه كيف أراد. الناس أحرار آخر الأمر في أن يحبوا ويكرهوا. سوف نقبل منه كل ذلك، وإن كنا نعجب، كيف يكره الإنسان بهذه الحدة، رجلاً توفاه الله منذ أكثر من ألف عام، ولم يتفق الرواة على أحداث حياته، وكثير منها غامض يحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق؟ كيف تكره، وتغلو في كراهية رجل كهذا، وكأنه يعيش اليوم بين ظهرانيها، ويؤذينا بسلوكة وأفعاله؟

أنما الذي يدعو إلى العجب حقاً، هو تحامل الدكتور العميد على (شعر) أبي الطيب. هل نبوغ أبي الطيب وتفرد، وإذا شئت قلت عبقريته، هل هذا في حاجة إلى برهان؟ هذا شاعر كما قال القدماء «قد ملا الدنيا وشغل الناس، لقد فعل الأعاجيب في لغة العرب، ودفع المعاني إلى أقصى حدود تحملها، وجاء منذ أكثر من ألف عام بأقوال لم تزل جديدة طريفة إلى يومنا هذا، حتى لكانه شاعر من زماننا وعصرنا شاعر له، كما قال الثعالبي «نادر لم تات في شعر غيره، وهي مما تخرق العقول».

وقال فيه ابن الأثير، الذي لم يكن مشغولاً بحبه: «وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الإطراء».

وما أجمل ما قال الشيخ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله، في مقدمة شرحه لديوان المتنبي:

«وشأن المتنبي كالأشنان في نوابع الدنيا. فالشاعر النابغة لا يهجر بارادته، ولا ينبغ بأن يخلق في نفسه مادة ليست فيها، وإنما هو يولد مهيأً بقوى لا تكون إلا فيه وفي أمثاله، وهو زائد بها على غيره ممن لم يرزق النبوغ، كما يزيد الجواهر على الحجر أو الفولاذ على الحديد أو الذهب على النحاس».

... فكثيراً ما بقرا النابغة كلاماً لغيره أو يتامل خاطراً أو يشهد أمراً. فإذا كل ذلك قد أوحى إليه وانعكس على امرأة ذهنة بمعان مبتكرة طريفة لا تشبه ما كان بسبيله وجهاً من الشبه. لا قريباً ولا بعيداً، وليس فيها إلا أنها جاءت من ذلك الطريق، وهو بعد لم يتعمل لها ولم يتكلف ولم يصنع شيئاً، وإنما هي تلقى من ذهنه وتلقى ذهنه من قوة لا يدري ما هي ولا أين هي...

... ومن هنا ترى المتنبي يأتي أحياناً بالتعقيد المستنكر واللفظ المتكلف وتراد يتعسف ويتخبط ويتسلف، ومع ذلك لا ينفى مثل هذا من شعره ولا يحذفه، وهو قادر على أن يغني عنه وليس في حاجة إليه، ولكنه بعض طريقته التي انطبع عليها، فلا يستطيع حين يجيشه الرديء أن يجعله جيداً، وليس إلا أن يأخذه كما هو، لأنه هو الذي ابتثق له عن الجيد، كما تضرع النار من مادة،

فإذا هي شعل ودخان، ثم تضرعها من مادة أخرى فإذا هي لهب صاف يتألق. ولو أنك أردتها من المادة الأولى كما تجيء من الثانية لأطفأتها وذهب نارها ودخانها معاً...

... وهذا سر لم ينتبه إليه أحد ممن كتبوا عن المتنبي، فاشدد عليه، وادرس المتنبي على هذه الطريقة، فستجده نابغة في جوده ورديته، وستجده لا يستطيع غير المستطاع، وستجد طريقته كأنما فرضت عليه فرضاً، لأنه كذلك ألهم، وعلى ذلك ركب طبعه، وكان ظلامه ظلاماً لتسطع فيه النجوم.

حقاً ما أجمل وأعمق هذا المعنى الذي وصل إليه شيخنا عبد الرحمن البرقوقي، وهو معنى ما كان لبتائى له، لولا أنه نظر إلى حياة الشاعر وفنه بعين المحب، ففتحت له المحبة، أبواب البصيرة، كما تفعل دائماً، أما أستاذنا الدكتور طه حسين، غفر الله له، قد نظر نظرة أخرى. وذلك كما قلت أصر يدعو إلى الدهشة. فالعميد لم يكن كاحد من الناس، يرسل الكلام على عواهنه، ويجعل عاطفته مطننة لعقله، بل كان عالماً جليلاً يعتد براهه ويحسن حسابه. فلماذا كتب هكذا، بقلة أكتراث تقرب من الاستهتار عن شاعر يحتل في تراث العرب مكانة مثل ما لشيكسبير عند الإنجليز، وفكتور هوغو عند الفرنسيين؟ والكتاب قد بعده بعض الناس، هفوة من هفواته، أن لم نقل سقطة من سقطاته. ولا يشفع له، أنه جاء في نهاية الكتاب، فقال معذراً، وكأنه يتنصل من كل ما كتب، وكأنه يعفي نفسه من مسؤولية ما كتب، أصعاً في البلبلة والسخرية: «وإذا فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب. وإذا فما أعرضه عليك في هذا الكتاب ليس حياة المتنبي كما كانت، ولا هو حياة المتنبي كما اعتقد أنها كانت، وإنما هو حياة المتنبي. أستغفر الله. بل لحظات من حياة المتنبي كما صورتها في أثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضي. ومن المحقق أنني كنت أرى في المتنبي قبل أملاء هذا الكتاب، آراء عدلت عنها أثناء الأملاء. ومن يدري لعلي أرى في المتنبي غداً أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبتته في هذا الكتاب. إنما نحن عبيد للحظات لا نملكها ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا ردّها حين تقبل علينا. وهي تقبل علينا بشيء كثير لا نحصى، ولما تقبل علينا به أثار لا نحصى في تهيئة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثر والتأثير».

هكذا أراد العميد، رحمه الله، أن يخلق المشارع كلها من حيث قد يجيشه الهجوم. ولك أن تبسم أو تضحك أو تغتاظ. فذلكم العميد. وكل ذلك من قبيل «الدلال»، الذي الفناه منه. لكننا سوف نفترض أن الكتاب يعبر عن رأيه في حياة أبي الطيب وفي شعره. وسوف نخاوره ونناظره بناء على هذا الافتراض، فإنه لم يكن ليقتضي شهراً ونصف شهر من حياته، مشغولاً بدراسة أبي الطيب كما قال «عن لذة الحياة في فرنسا بين هذه الربي الجميلة وفي هذا الجو الحلو». لم يكن ليفعل ذلك عبثاً ولهواً. ونحن نجل العميد عن العبث، ونجل أبا الطيب أن يكون هدفاً لعبث العميد! ■

للبحث صلة

نحوافق بعيد



بقلم الطيب صالح

يخزن أهل السودان أن
عريتهم الدارجة، هي من
أفصح اللهجات العربية.
وبعضي أبعد من ذلك العالم
الحجة الدكتور عبد الله
الطيب، صاحب كتاب «المرشد»
إلى فهم أشعار العرب
وصناعتها، فيقول أن العربية
الدارجة في السودان، هي
أفصح اللهجات العربية
إطلاقاً. الله أعلم. والحق أن
من قلّة نخت عرب السودان،
أولا أسم دولتهم، وثانياً أن
عروبهم كما تجري على
لسنتهم، أفصح أحياناً مما
ينبئ به سنتهم وسخنتهم.

وقد وجدت في الشعر الجاهلي، ثم في عامة الشعر العربي،
خاصة عند المتنبي وأبي العلاء، كلمات كثيرة تستعمل في
لغتنا الدارجة، وبعضها لا يوجد إلا في السودان، وكنت أظنها
محرّفة أو بخيلة على اللغة العربية، فإذا بها كلمات فصيحة.
المتنبي مثلاً يستعمل كلمة (غلت) بمعنى (غلط)، وأكثر أهل
السودان يقولون (غلت) بالفاء. وفي لسان العرب أن (غلت)
(وغلط) بمعنى واحد. ويستعمل (توراب)، وأهل السودان
يقولون (تيراب) للبذور التي تدفن في الأرض، كالقمح والذرة
وغيرها. وفي المعجم أن (توراب) أو (تيراب) هي الأرض أو ما
يدفن فيها.

هذا، وقد ذكر الدكتور احسان عباس في كتابه «تاريخ
النقد الأدبي عند العرب»، في الفصل عن آراء النقاد القدماء في
شعر المتنبي، وهو كتاب جم الفائدة، أن صاحب بن عبد عاب
على المتنبي استخدامه الكلمات الحوشية الغريبة مثل (توراب)
غفر الله له. أنه لم يزل يتتبع المأخذ على المتنبي، ولو أنه عاش
في السودان، لوجد أن الكلمة شائعة تجري على السنة عامة
الناس. كذلك عاب عليه استعمال (جبرين) بالنون، بدل (جبريل)
باللام، وقال: «ولقد هذه اللام إلى النون أبغض من وجه
المنون». وعامة أهل السودان، يقولون (جبرين) و(اسماعيلين).
ذاك، وقد قال المتنبي يصف الخيل:

العارفين بها كما عرفتهم
والراكبين حدودهم أماتها
ونحن نقول (أمات) ولا نقول (أنهات). وقد قال الشاعر
السوداني:

يا طير أن مشيت سئم على الأمات
وقول ليهن وليذكر في الحياه وما مات
حتى التصغير الذي كان المتنبي مولعاً به، وعابوه عليه،
مأنور عندنا، نقول (وليد) و(زويل) و(بنيه) و(مريه). ولقد كاد
ابن القارح يصبه الخيل من قول المتنبي:

أثم إلى هذا الزمان أهيله،
حتى صب أبو العلاء، رحمه الله، الماء على نيران غضبه،
فقال له:

كان الرجل مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخلسة المغير،
ولا ملامة عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع، فما حسن بها،
مألوف الربع...

وكان شاعر السودان الفحل، محمد أحمد عوض الكريم أبو
سن الملقب بالحدلو (١٨٣٠ - ١٩١٦) أيضاً مغرمًا بالتصغير،
في مثل قوله يصف أن فعل الخباء تركها في مكان وذهب
يستكشف، ثم عاد إليها:

جاءن منقلباً وقتاً عصير وشغاف

وكاس لي بهي من جديد ما نخاف
دبل المتغير دائم الأبد عياف
وفي (نايط السروج) لفين بقليل حاف

كل هذا، كلام عربي فصيح إذا تأملته، وانت ترى أنه صغر
(عصير) إلى عصير، و(بقل) إلى بقليل، و(نايط السروج) اسم
موضع، والصنف، بفتح الصاد والدال. هو ما يصادك مما
تكره، وخاصة بالليل. وانظر كيف صور الشاعر ذكر الخباء
(النس) كأنه قائد عسكري مقدم لا يهاب المخاطر، سرى
بالقطيع ليلاً، حتى أوصله إلى حيث يريد، فذلك قوله «كاسب
ليله بيهن»، ونحن نستخدم «الكسب» بمعنى النصر الحربي
أيضاً، كما قال الآخر يصف فتية مجازين:

دبل جابر الكسب بين (كاجا) و(أم سريحه)

وبما سائر من اليوم العقوبة فضيحة
أي أنهم عادوا منتصرين من تلك البلاد في الجنوب والغرب
حيث تسب حروب بين أهلها وبين القبائل العربية في الزمان
القديم.

والحدلو يصف الأطباء بانهم (عياف) والكلمة تحمل في
جوفها معنى الحذر والكبرياء والعفة، فما أجمل ذلك. كأنه ذو
الزفة، وهو حقاً أشبه الشعراء به.

وعندنا «الزول»، بمثابة «الزله»، عند أهل الشام والريال، عند
أهل جزيرة العرب، يجعلون الجيم ياء، وهو فصيح، ونحن
حيثما قريبة من ذلك. وكلمة «زول»، في المعجم، من معانيها
الشخص اللطيف المهدب. وقد وجدت بهذا المعنى عند أبي
العلاء، وذكر لي الدكتور عبد الله عبد الدايم، وهو عالم ثبت، أن
«زول»، في أحسن مرادف للكلمة الإنجليزية Gentleman. فهل
كل أهل السودان «أزوال»؟

والكلمة تستخدم للمرأة أيضاً، وقد قال الحدلو يذكر
انسانة جميلة الهنّ عن حضور العبد مع أخيه عبد الله، وكان
شاعراً أيضاً:

الزول السمع فأت الكبار والفدرة
كان شافوه ناس عبد الله كان يعذرو
السبب الحماضي العيد هناك ما أحضره
درديق الشبيكة الزلوه فوق صدره.

و«الشبيكة»، حلي متشابهة تغلق على صدر الفتاة، وقد
وجدتها بصفحتها وباسمها هذا في متحف قطر الوطني الذي
يديره العالم الشاعر الدكتور درويش الفار في الدوحة الميمونة
الطالع.

و«حمى»، بمعنى «منع»، أكثر جرياً على اللسان عندنا من
«منع»، وقد قال أبو العلاء:

تري العود منها باكياً فكانه

فصلي حماء الشرب رب عيال
هذا في وصف مبلغ حنين الأبل إلى أوطانها، وبما سبحان
الله، كيف أن اشقاءنا المصريين، وهم منا على بعد ما تطير
اليمامة، لا يصفون الفتاة بانها «منحه»، كما نفعل، بل يقولون
«جمله»، كأن الله قسم لهم الجمال وقسم لنا السحابة:

وفي ديار غرب السودان، يقولون (ينطي) بمعنى (يعطي)
وهي كذلك في المعجم، ولم أجدها عند غيرهم. وقد قال أبو
العلاء رحمه الله:

لن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا

يط اللههم مــــا ظل ينثيه الخط
رحوت لهم أن يقرّبوا فتباعدا

والأ يشطوا بالميزار فيتبد شطوا
أي والله، لقد شطوا يا أم عمرو، وهل يغدّم طيب
العيش؟



بقلم الطبيب صالح

أغلب الظن أن نار
الطلح التي رأيتموها بين
خيالي من وراء أربعين
عاماً وأكثر، وأنا حيث أنا
في لندن، هي النار عينها
التي أوقدتها صاحبة
الحارث بن حلزة البشكري:
«هيهات منك الصلاء»،
الفصل صيف، والمساء
بارد ممطر، كأنه من
أماسي الشتاء. حينئذ
ينزل الهم على القلب،
وتمطو قوافل الذكرى بلا
حاد ولا دليل. ما الذي

تذكرني بهذا البيت؟

الديباجة بينك والزمان يورك (١)

وقل المال يفرقك من بنات واديك
وبدا لي، وأنا على تلك الحال، أن البيت يصف
أحسن وصف، ما وصل إليه السودان المسكين. لقد ذاق
الهم، وكشّر له وجه الزمان، وتشبّت أهله في البلاد.
والعهود تقوم وتسقط، والثورات تستعير وتخدم. أم، ما
أجمل ما قال أخو بني حنيفة:

ألم إلى شئ الخزامي ونظرة

إلى قرقرى قبل المعات سبيل؟
ثم ساقنتني كلمة «وادي» في بيت الشاعر السوداني
إلى تلك الأرض عند منحني النيل، وذلك لأن بلدنا من
بعض اسمائه «الوادي»، إذ أن وادي «الملك» وفي رواية
«الملح»، يصب عندها. وهو وادي عظيم يقصد النيل عبر
سئات الأميال من سهول غرب السودان. وقد قال
شاعرنا:

(٢) كرمكول، صيدك ماله فار؟

يجري في «الوادي» بلا خبار

الصغار غالباً الكبار

يقصد به الصيد، الفتيات الحسان والنساء. وتلك
عادة قديمة عند العرب، أن تشبه المرأة بالطبي والبقر
الوحشي. وهذه الأبيات تغنى على إيقاع آلة وترية
عندنا تسمى «الطنبور»، وترقص لها رقصة «الدبيب»،
التي فيها بعض سمات «الدبكة» اللبنانية، وتكون في
وسط حلقة الرقص فتاة تغطس مع اللحن وتطفو،
وتروح وتجيء، وبين كل حين وحين، تلطم بشعرها
المعطر، وجوه المصفيق.

وبعينيك أوقدت منذ النار أصيلاً تلوي بها العلياء

فتنورت نارها من بعيد بخزازي هيهات منك الصلاء.

هكذا جاءتني كلمات أغنية قديمة عن «نار الطلح»،
تذكرت بعضها ونسيت. وقلت أسأل عثمان عبد الله
وقيع الله، الذي يقيم مني غير بعيد، فهو بذلك عليم
وعثمان هذا بعض الثروات المهملة في السودان

الغني الفقير. انني لا أعرف كثيرين في مثل تعدد
مواهبه. فهو شاعر مجيد بالعامة والفصحى، وقد نقل
رباعيات الخيام إلى اللغة السودانية الدارجة، في
ترجمة من أجمل ما رأيت. وكان من أوائل المبعوثين
لدراسة الفنون الجميلة في لندن، جاءها عام ١٩٤٥،
وعاد وعمل في كلية الفنون الجميلة في الخرطوم. ومن
بين من درسوا على يديه الفنان الكبير العالمي الشهرة
إبراهيم الصلحي. إلى جانب ذلك فهو بحق «أستاذ» في
فن الخط العربي، وقد كتب بخط يده القرآن الكريم عدة
مرات، في مخطوطات تعتبر تحفا فنية. وكان من أوائل
الفنانين العرب، إن لم يكن أولهم، الذي حول الحرف
العربي إلى مادة للرسم، ففجر ما فيه من طاقات جمالية
كامنة، وصنع من ذلك فناً مذهشاً. ومن بعض فنه،
اللوحات التي رسمها لديوان الشاعر السوداني الموهوب
صلاح أحمد إبراهيم، ديوانه «غاية الأبنوس»، في طبعته
الجديدة. تجد الرسوم والقصاصد كأنها أنغام في
سمفونية مكتملة، كل منهما يعطي الآخر وباخذ منه.

ثم له صوت جميل في قراءة الشعر. وكان المرحوم
محمد أحمد محبوب رئيس وزراء السودان الأسبق،
وهو أيضاً من الشعراء الأفاضل، كان أيام إقامته في لندن،
بعد أن أسقطت حكومته «ثورة» مايو، يؤثره ولا يطيب
له سماع شعره إلا بصوت عثمان وقيع الله. كذلك له
صوت عجيب في الغناء والدوبيت، يحفظ كما هائلاً منه.
وكان قبل أن يوغل في طريق العبادة والزهد، ويقطع كل
صلة له بحياته الماضية، يستحو علينا أحياناً بغناء
بعض الأغاني القديمة التي لا يعرفها كثيرون غيره.

إنه معتكف في لندن منذ سنوات، يعيش حياة
التقشف والكفاف، يصوم ويصلي ويتعبد ويرسم
ويكتب. وأنا أعجب أنه اختار لكفاحه الروحي، هذا البلد
دون سائر بلاد الله، حيث القابض على دينه كالقابض
على الجمر. إنما هو كذلك. ورغم أن له شهرة أكيدة بين
متذوقي الفن ونقاده في لندن وفي أوروبا، فإن عمله لم
يجد بعد ما يستحقه من ذبوع وانتشار في العالم
العربي.

سألته عن نار الطلح، وكيف قال المغني عن المرأة
التي قامت منها وعرقها يتصبب، فكانتني أثرت كوا من
أشجانها، وذكرته بأشياء يريد أن ينساها، فاجابني بعد
لأني:

الطبيب البوخ

قام نداء يهتف

نام من الدوخة ■

للحديث بقية

(١) في المعجم «ورينته» وأورائه إذا أعلمته.

(٢) «كرمكول» اسم حي من أحياء بلدنا، وفار من يفور أي يغلي
وهي فصيحة.

نحوافق بعيد

وبعضهم ذهب الى انه ضرب عنقه لانه سب الزمان .
وقال « لا تسبوا الزمان . الزمان هو السلطان » . وهذا
وجه لم ينتبه له جماعة الدول في أيامنا هذه ، فلم يعملوا
قوانين لمحاسبة الناس على سب الزمان .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه معجباً بذكاء
زياد ، وكان يقول « لو كان هذا الفتى من قريش لساق
العرب بعصاه » .

جاء زياد . وكان شاباً في العشرين أو دون ذلك . البر
عمر الأمين بانباء النصر في معركة القادسية ، فقد
عليه أخبار المعركة بحذافيرها بفصاحة وقوة عارضة .
أذهلت عمر ، وكان قلماً يذهل ، فقال له : .

« يا فتى . هل تصعد المنبر وتحدث الناس كما
حدثتني ، فإن للمنابر رهبة » .

فقال زياد « والله يا أمير المؤمنين ما على وجه الأرض
من هو أكثر رهبة علي منك » .

وصعد زياد المنبر في مسجد الرسول صلى الله عليه
وسلم ، ووصف المعركة وصفاً بليغاً مرّ مشاعر الناس
وكان أبو سفيان يجلس بجوار الإمام علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه ، فقال له :

« هل أعجبك هذا الفتى » .

فقال علي « نعم » .

فقال أبو سفيان « انه ابن عمك » .

فقال علي « وكيف ذلك » .

فقال أبو سفيان « أنا أبوه . قذفت به في رحم سمية » .

فقال علي « ولم لا تلحقه بنسبك » .

فقال أبو سفيان « أخاف ذرة هذا الأعسر » . يعني
الخليفة عمر .

فيما بعد هو والحجاج حملاً أوزاراً كثيرة في تأيد
دولة بني أمية . ولا أعلم أن التاريخ سجل كلمات زياد
عند موته ، إلا أنهم رووا أن الحجاج كان يردد وهو يلفظ
انفاسه الأخيرة : .

« اللهم اغفر لي وقد زعم أناس أنك لن تفعل » .

إنما رحمة الله واسعة ، ولعلها تشمل حتى زيادا
والحجاج . وما أجمل هذا الدعاء الذي جاء في الأثر : .

« اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى
عندي من عملي » .

ذلك وقد قال الشاعر الحكيم ، أجاره الله من الموقف
الصعب في ذلك المقام ، أن صحت أقوال الرواة عنه : .

لا تخظر العقر أن كنت امرأة خرجاً

نكاز خطرته في الدين إرزا .
غفر الله له ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وأصحابه ، ما هطل السحاب ، وما غنت للنارحين منازل

الأحاب .

الحديث بقية .

أوقدت هبند نار الطلح
بالحنند واللبان ، عند
منجني النيل بين
« كرمكول » و« قشاي »
فتنورها الغريب البازح
وراء تخوم بحر الروم .
أوقدتها أيام « عدل الوقت »
كما يقول الحردلو . كانت
السواقي تدور ، والضروع
ملاى ، والحقول مخضرة ،
والديار عامرة ، والزمان
يبسّم بوجه طفل .

الزمان عند الحردلو

« أعوج » أو « عدل » .

كم شؤيم لهن وقتاً عدال أيامي

شيخ « الأثراوي » ، وماشى فيهو كلامي ،

ذلك لانه كان يسافر على جملة مسافات في طلب

المحبوبة ، وكان « شيخ عرب » على القبائل على طول نهر
أثرا . الأثراوي ، نافع الكلمة . وكان في مقتبل العمر .
وفي ظني أن كلمة « شؤيم » التي تعني الترحال في أثر
المحبوبة مشتقة من « الشام » . كان الواحد منهم إذا سافر
الى الشام ، كما كانوا يفعلون ، يقولون انه « شؤيم » . فكان
السفر الى ديار الحبيبة عندهم ، كالسفر الى بلاد الشام ،
غايته المن والسلوى . وقد قال أبو العلاء : .

بناين احياناً شامون تارة

يعالون عن غر العراق ليحطوا .

هذا ، والزمان عند شكسبير أما « عليل » ، أو « معافى »

وقد قال The time is out of joint ، يعني ان الزمان
عليل ، أو مختل . ولعل أدق ترجمة لعبارة out of joint
هي كلمة « مخلوخ » التي ستجيء في تلك الأغنية
السودانية القديمة عن المرأة التي قامت من عند نار
الطلح وعرقها يتصبب . وهي كلمة فصيحة كما ستري
ان شاء الله .

ويقولون في أيامنا هذه ان الزمان « رديء » ، وهي
عبارة أفن أول من نطق بها الشاعر محمود درويش ، ثم
سار بها أبو عمار ، وتلقفها الكتاب والشعراء
والصحفيون ، فاصبحوا يقولون كلهم ان الزمان « رديء » .
وهؤلاء ما يزالون يهيبون بالزمان أن يكون رديئاً حتى
يصير رديئاً بالفعل . والكلمة من بعض معانيها « الرديء »
وذلك الأم مراحل مما أراد الحردلو أو شكسبير ، إذ أنك
تقدر ان تغدل المعوج وتطلق الأسير وتشفى العليل
ولكن ماذا بوسعك ان تصنع مع « الرديء » أو كما قال أبو
الطيب رحمه الله : .

مبيني أخذت النار فيك من العدي

فكيف تأخذ النار فيك من الحني

وقد رووا أن زياد بن أبي سفيان جلد رجلاً .



بقلم الطيب صالح

ما أحمل ما تغني فيروز، فهي من بقايا خيرات
الزمان المبارك، وصوتها كم بدد الظلمات لساري ليل..
يوم جيت أنا لعندكم
قبل العشا بنتف

ولقيتكم نايمين
وسير اجكم مطفي
مدبت أيدي ع الهدى
لاقطف أنا قطف
صاحبت بنت اللكم
بمع يمه حرامية.

هذه الطلاوة تجدوها أيضا في كلمات الأغنية من
ديارنا في شمال السودان، وما أبعد السودان، وما
أقربه من لبنان..

ود الأريل الضارب مقته
جني الغزلان بكى وأبانه جته
الناسي الكبار أصل أبيجته
شوف العين علينا محجته
تقبل لا كان صغار، لا ألقي عارفته

«ود الأريل» كما يتضح في البيت الثاني في الأغنية
السودانية، هو طفل الطليبة، الطلى، يكنى به عن
المحبوبة. والقرن والمقن، فصيحة، تعني الخدر الذي
يستر الطليبة كما يستر الفتاة فلا يوصل إليها.
ذلك، وقد وجد زهير حين وقف على اطلال أم أوفى،
أنها قد درست تماشا، وأن الطليبة قد استحوت
عليها..

بها العين والأرام يمشين خلفه

وأطلأوها ينهضن من كل مجثم
ومثل ذلك وجد «الحردلو» في «قوز ود دياب»، مع
الفارق..

«قوز ود دياب» لسبع تراو بشيايه
بهما يطرد فرحان وعاجبه خلاه

وجد زهير الطليبة بين «حومانة الدراج»، و«المتكلم»،
هاجعة مطمئنة يطول ما تقادم بها العهد بالمكان،

فأصبح ملأ لها، فحركها مجيئه، فقم من مراقدين
متشاقلات، كأنهن لا يعان به ولا باحزانه. اما «قوز ود
دياب»، فقد كان دائما مرتعا للطليبة، فذلك قول الشاعر
أنه ما يزال كما عهد عامرا بطليبه «بشياهه». ورماله
قد تذكر برمال الدهناء عند ذي الرمة:

ولا مي! إلا أن تـزور بمشرف
أو الزيف من اطلالها دمنأ قفر
تعفت لتنهال الشتاء وموشت

بها نانجات الصيف شرقية كذرا
مسكين. وما أروع قوله «لا مي» واخبروا أن «يهطل»،
و«يهتل»، بمعنى واحد، وذلك كما ترى مصدر قولنا
«غلت»، عوض «غلط».

وجد «الحردلو»، الطليبة في نشاط ومرح، تنط
وتتسابق ويطرد بعضها بعضا. فرحة دون سبب، أو
بسبب الغضاء الواسع جولها، واحساسها بالحرية
الكاملة. وقوله «فرحان وعاجبه خلاه»، من شريد
القول، فالطليبة أيضا تعشق الحرية.

أما الطليبي الحبييس في خبره في تلك الأغنية،
بكي، فأسرعت امهاته اليه يسألنه، أو يسألنها، عن
سبب بكائها. والسبب لا يخفى، وهو نفسه السبب
الذي جعل الفتى في الأغنية اللبنانية، يذهب متلصصا
آخر الليل. لذلك تقول الأغنية السودانية، إن «الناس
الكبار». الآباء والأمهات. لا توجد رحمة في قلوبهم،
كانهم لم يكونوا صغارا في يوم من الأيام، ولم يدوقوا
عذاب الحب. والحب عندنا هو «الغي» من الغواية
ولعله كذلك، ولكنها غواية قل أن يسلم منها أحد.

وعند أبي الطيب الخبيرييقين..

وما شررتي بالماء إلا تذكرأ
لماء به أهل الحبييس نزل
يحسرمه لمع الأسفة فبوقه.

فليس لظمان اليه وصول
وإن كل هذا من نار الطلح التي أوقدتها همد عند
محنى النيل

والحديث بقا.



بقلم الطبيب صالح

حديثي عن نار الطلح
التي أوقدتنيها منذ عند
منحني النيل، اشتدَّت له
مشاعر أخي العزيز الدكتور
حسن أبشر الطبيب وهو في
مبجره في ديار عمان، فكتب
الي من مسقط، حيث يعمل
مستشاراً لوزير الخدمة
المدنية، معالي الأخ احمد
مكي، وعيمان بلاد احفظ
لاهلها مودة اكيدة، فقد كنت
أزورها أيام عملي في
الدوحة. والدوحة كانت لي
وطناً كالوطن، واهلها اهلاً
كالاهل، والحديث عنها لم

يحن ميعاده بعد. كنت كلما جئت عمان اجدها قد تغيرت
الى الاخسن، وأخذت زينتها اكثر، وخطت الى الاسام
خطوات، وآخر عهدي بها كان منذ نحو ثلاث سنوات، حين
زرتها بصحبة مدير عام منظمة اليونسكو. وأذكر تلك
الأسببة التي قضيناها في ضيافة معالي الوزير احمد مكي،
في داره الجميلة المطلة على خليج رائق في البحر.

أما حسن أبشر الطبيب فكيف أصغه؟ اسان نسيج وحده
بحق وحقيق، يجمع الى الخلق الرفيع والتواضع الجم
والطبع السمح، والعقل الراجح، علماً غزيراً وأدباً كثيراً.
ورغم أنه ما يزال في مقتبل العمر - مد الله له في الأيام - فقد
درج في عدد من المناصب الرفيعة في السودان، منها على
سبيل المثال، أنه كان وكيلاً لوزارة الخدمة المدنية والاصلاح
الاداري، ومستشاراً ثقافياً في واشنطن، ومديراً لأكاديمية
العلوم الادارية في الخرطوم، ثم وزيراً. الى ذلك فهو أديب
عميق الحس واسع الثقافة، صاحب أسلوب عذب ورشيق.
وقد نهض من تلقاء ذاته باعباء يفترض أن تقوم بها الدولة
في رعاية الادباء والمبدعين، لا يدقعه الى ذلك شيء غير نبل
طبعه وعمق احساسه بقيمة الثقافة في نهضة الأمم.

أسى حسن أبشر الطبيب بصفة خاصة شاعر السودان
الفد، محمد المهدي المجذوب رحمه الله، وهون عليه
صعوبات الحياة وأغدق عليه من رعايته ومودته، واليه
يرجع الفضل أن الشاعر أوى الى بيت يملكه، بعد أن قضى
زهرة عمره في خدمة الدولة، يعيش عيشة الكفاف، يعالج
الأرقام محاسباً ومراجعا ومفتشاً ومراقباً للحسابات، وهو
من هو. ولولا حسن أبشر الطبيب لضاع أكثر شعر المجذوب،
أو ظل مجهولاً لا يرى النور. هذا والنشورات تهب وتهدأ،
ثورة وراء ثورة، والعهود تعلو وتهبط عهد في اثر عهد.

جاء في رسالة الدكتور حسن:

«جديتك عن نار الطلح آثار كوامن اشجاني، وشديني الى
أيام فترعات بالحسن، سابحات في بحار المحبة، معطرات
بغمام الطلح، وذكرت رائعة شيخنا الشاعر محمد المهدي
مجزوب «بغمام الطلح»، التي تتجسد فيها قدرته الفذة في
توظيف الكلمات، وتفسير الدلالات الحسية والمعنوية فيها.
فانت تراه يرسل نفسه على سجيته، فيعكس ما في نفسه
وما في نفسك، في نفس طويل، فيكسر بذلك كل الحواجز
التي تجعلك تقف موقف المتلقي أو القارئ. تجد نفسك في
مركز الدائرة، تستنشق عطر غمام الطلح التي لفت

نحو أفق بعيد

١٢٣

الجسنة.. حتى بدت كبد الدجي.. المجذوب شاعر مشر
باروع ما تحمل الكلمة من معان. فهو يصور لك ما راد
وأحسه وما أجاله في خاطره حتى أصبح جزءاً من نفسه.
بغمرنا بهذه المشاعر والرؤى، فيزيد حظنا من الاحساس
بالجمال ويضفي علينا بهجة وفرحاً. وأنت من قبل ومن
بعد، تقرأ هذه القصيدة فتزداد خبرة بفوائد بخان الطلح..
فتأمل..»

نعم. ذلكم هو المجذوب. والدكتور حسن أعلم الناس به،
فقد خبره طويلاً واستمع اليه ملياً، وعنده رسائله. وكان
المجزوب محدثاً بارع الحديث، ورسائله لا تقل جمالاً عن
شعره. وبأ لبت الدكتور حسن يجد الوقت ليؤلف عنه كتاب
فيكون بذلك قد أسدى اليها من الجميل مثل ما أسدى الى
الشاعر في حياته.

هذا، وقصيدة «بغمام الطلح» من ديوان «نار المجاذيب»،
وقد نظمها الشاعر بتاريخ ١٩٤٤/٩/١، وهو حينئذ في
أوائل العشرينات من عمره، لم تكن شاعريته قد اكتملت
نضجها بعد، ورغم ذلك يجد القارئ في القصيدة، كل
السمات التي تميز بها شعر المجذوب فيما بعد، كما يلمس
ملامح مغامراته الجريئة مع اللغة والمعاني. وهي قصيدة
طويلة سوف اجتزئ منها هذه الابيات، التي يصف فيها
الشاعر «الشعلة» التي تتغنى بها المرأة وهي تعبق جسداً
ببخان الطلح:

وشعلة غمرت ساقين وأثدرت
كالورح تلمس جيداً رف مشهوراً
يرق تحت دخان الطلح ساورة
كالدفع في الخد تلمحاً وتغيراً
ما شعله لسواد الليل خلكتها
واللهو اجس تفسى الفكر مخوراً
كالوحش جائنة تغلأ فهل حضنت
الأ جمال رقيق العطف منخوراً
تكنم العطر حتى يرتوي عرقاً
منها الجمال كروض بات مفسر
تري الدخان على أثنائها زبداً
كالريش في سمات الصبح مبهوراً

الى ان يقول:

ترين الكون شهوانياً وتوسعة
في الروض والغيم إغراء وتغرياً
يهترئ والأرض في اشجان ديوتها
لذائد خللت في الكون مسخوراً
ورب ذرة رمل حين حشيت
ريح أهاج لبنيها الشوق مذكور
وتند ذملت زهرل ترميهم
في الكأس جمره كرم بات مسجوراً
وبت أحسها جمعاً والزمنياً
نما تسمع مثل الماء منخوراً

رحم الله المجذوب. كان كان أبا العلاء قد لبس عباءة
الحسن بن هانيء، أو كان أبا الطبيب قد غنى بصوت يشار:
للحديث بقية.



بقلم الطيب صالح

في هذه المدينة السهباء
الجميلة (عمان) التي تسر
العين ليلاً ونهاراً، أد بعض
المدن يعجبك بالليل، وبالنهار
كانها القذى في العين، فيها
حي يسكن (عبدون)، تراه
عبدون الذي ذكره ابن المعتز
في شعره: هل تعجب لبعد
الشقة بين ضفاف دخلة
وضفاف الأردن؟ لا عجب، فقد
كانوا يذهبون بعيداً وراء
قضاء الأوطار، وهذه الأماكن
بين البحر والصحراء، وريح
الشمال وريح الجنوب، كانت
تنتجعات محبة لخلفاء بني
أمية، ثم ورثها الملوك من بني العباس. وابن المعتز كان ابن
خليفة، بل صار خليفة ولو لفترة لا تكاد تعد في حساب
الخلافة، فلعله ارتاد هذه المغاني، يلهو ويلعب..

سقى المطيرة ذات الظل والشجر
ودبر عبدون مطالاً من المطر
يا طامنا نبهتنا للصباح به
في هذه الليل والعصفور لم يطر
أصوات رهبان دير في صلاتهم
سود المذارع نعاون بالسحر

غفر الله له، ما كان أخراً ان يقوم ويتوضأ ويستعد
لصلاة الفجر! وقبله قال الشاعر الحكي، وقد كان أطول
باعاً في حلبة الشعر، وأبعد مهوى دلو في بئر المذات:

ذكر الصبح سحرة يارتاحا
وأمله ديك الصباح صياحا
أوفى على شرف الجدار سدفة
غرداً بصفق بالجنح خناحا
بادر صياحك بالصبح ولا تكن
كمسرفين غدوا عليك شياحا

ما أحسن الشعر، وما أفصح المعنى. ذاك هجع حتى نبهته
أصوات الرهبان، أما هذا فقد ظل يقظاً يترقب طلوع الفجر
ليواصل الشرب.
أفضل منهما الشاعر الشكري البكري، فقد استعان على
همه بالسفر:

غير اني قد استعيت على الهمة إذا خف بالثرى النجا
يرفوف كأنها مقلّة أم ربال دوية سقفاً
التي أن يقول:
أتلهى بها الهواجر أن كل ابن هم بلية عميا
هذا في قصيدته المعلقة ذات المطلع البارع، إذ يبيكي على
اسماء التي يصف أنها أذنت بالفراق، وكانت قد فارقته
بالفعل:

بعد عهد لها ببرقة سماء فادنى ديارها الخلاء
فالحيا فالصغار فاعناق فبقا فغارب فالوفا
فرياض القطا فآودية الشرب فالتعبان فالأبلاء

لا أرى من عيشت فيها فانكي اليوم دلياً وما برد الكاء
صدق. وهل تعرف نظيراً لهذه الـ «ستالجيا» التي
تجدها في الشعر العربي؟ وما أجمل ترداد اسماء الأماكن
هكذا كأنها ترانيم في طقوس قديمة. كذلك فعل الحرذلو،
الشاعر الشكري، وهو يصف مسيرة الظباء في رحلتها
الموسمية من هضاب الحشبة واليه، وقد كان كلفاً بالظباء
يتبهن بالشاء، وكلفاً بالشاء يتلهن بالظباء..

مرقن بن مطيقات الخوي أب دنان
ومكن فوق بعالق الوادي أب ربحان
شافن في السير زولة وحيات أسان
ونلحن ها القليع المسى بالسوان

انه كعادته - مثل المتنبي - مولع بالتصغير، صغر
(مطابق) الى (مطيقات)، والمطابق واحدًا (مطيق) وهو
الشعب في الجبل. وصغر (السنر) الى (السنير)، وهو نوع
من الشجر مثل السبال والطلع. وصغر (قلع) الى (قليع)
وهي هنا جبال تسمى جبال المرأة، فذلك قوله (المسني
بالسوان). وكون الظباء (نطختها) يعني أنها أتجهن
صوتها عدل، كما أتجهت نساء زهير الى وادي الرس. وقد
وصف الموضع الذي سرن عنه بأنه (الخوي أب دنان). وهذا
يعني انه غزير المياه كثير الشجر والنبات، أنة أنه مليء
بالذباب والحشرات التي تزن وتطن، وذلك لا يتفق إلا في
موضع خصيب. ومثله الوادي ذو الريحان، الى حيث سرن
منحدرات.

وكلمة (هكع) تعني شيط أو أحمدر، وقد يستخدمونها
ايضاً في وصف مشية المرأة الجميلة التي تتعجب في
مشيتها. وهكذا تجد أن المرأة ليست بعيدة عن فكره وهو
يتحدث عن الظباء.

هذا، وقد ذكرت لاستاذي الدكتور ناصر الدين الاسد،
انني اظن ان وقوف الشعراء الأولين على الاطلال ويكاهم
عندها والتلذذ بتريده اسماء الأماكن في شعرهم، كأنه بقايا
طقوس قديمة، وقد نبهني الى هذا المعنى ما قرأته عن الـ
(ابوروجينز) سكان أستراليا الأوائل. فما انكر مني ذلك
والدكتور ناصر الدين من علماء العربية المعدودين، محب
للشعر العربي، حافظ له، عميق الإدراك لأبعاده ومراميه، هذا
الى جانب جاذبية تميز بها. وكتابه (مصادر الشعر
الجاهلي) كتاب فريد بحق. وهو انسان حين تجلس اليه،
فكانك في بستان وارف الضلال، كثير الثمار، عاطر الأزهار.

ذاك، وطبيعة المعلقات التي تبسرت لي ما هنا، لها
جمهرة شراح، الرؤني والشنقيطي وابن النحاس
والتبريزي، وهم جميعاً على الرأس والعين. وقد أخبروا في
شرح تلك الابيات العجيبة للحارث بن حلزة:

«يقول وإنما أوقدت هند هذه النار بمرآك ومنظر منك
فكان البقعة العالية التي أوقدتها عليها كانت تشير الى
بها. أوقدت هند تلك النار بين هذين الموضعين بعود فلاح
كما يلوح الضياء».

ربما، انما الأمر يبدو لي بخلاف ما ذهبوا اليه، وحجتي
على ذلك نار الطلح، التي شبت غربي النيل في ديار البديرية
والشايقة والركابيين.

أوقدتها بين العقيق فشخصين بعود كما يلوح الضياء
فتنورت نارها من بعيد بخرازي شهباء منك الصلاء ■

نحوافق



بقلم الطيب صالح

لا أرى إلا أن النار التي
أوقدتها صاحبة الحارث بن
حلز بن العقيق فتشخصين،
هي نار الطلح التي تنورتها
من وراء تخوم بحر الروم. الفصل صيف، والمساء بارد
مطر، كأنه من أماسي الشتاء. وهي عينها النار التي
وصفها المرحوم محمد المهدي المجدوب في قصيدته. وقد قال
عثمان عبد الله وقبع الله:

النَّيَّانِ دِي، الرِّانِ دِي التَّيَّانِ
صَفْرُ دِي، دِي؟ لا مِنْ رِيغَ لا لَبَّانَا
تَقُولُ بِي بِي بِي بِي بِي بِي بِي
زِي دِي بِي بِي بِي بِي بِي بِي

هذا هو غاية المرام، أن يطرى جسد المرأة ويلمع مثل
الذهب. وجبال شقوق، عندنا على حدود الحبشة كانوا
يخرجون منها الذهب أيام دولة سبار. والريف عندنا هو
مصر، نسمي المصريين «أولاد الريف»، وهو من أعجب
العجب أن تكون مصر المحروسة ريفاً للسودان! وعند أحمد
شوقي أن «مصر الرياض وسودانها عيون الرياض
وخلجانها».

وهل ترتفع العين على الحاجب؟ والفتاة المعنية ليست
من مصر ولا لبنان، ولكنها أقرب مزاراً، ربما من «رفاعه
الربة، وطن عثمان، حيث خفق القلب أوائل الشباب، عنيت
قلبي».

كان ذلك أيام «عدل الوقت، قبل أن يختل الزمان وتميل
كفة الميزان، يوم كنا حقاً «ناكل مما نزرع ونلبس مما
نصنع». الحال اليوم كما وصفه أبو العلاء رحمه الله، وكأنه
رأى من وراء الغيب، ورأى السودان على وجه الخصوص،
السودان الغني الفقير، القوي الضعيف، الخصيب المجرب،
ذا الشعب العظيم والحظ السقيم.

يرتجى الناس أن يقوم إمام
ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا أمام سرى العقول
مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما تبعته جلب الرحمة
عند المسير والأرساء

أنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالأحساء

شيمة القوم متعة لا يرقون لدمع الشعاء والخساء.

ما أعجب ما نظر أبو العلاء، فيها نحن قد اظلمت في
الجنوب ثورة للزنج وفي الشمال ثورة للقرامطة. الله يستر
مما هو أت. في أثناء ذلك صمت المجدوب، الشاعر العندليب،
وحبست السواقي غناها للليل، وضوح الزرع ويبس
الضرع، وهاجرت تلك المرأة الشبيخة الجميلة الوجه بين
السبعين والثمانين، ربما من نواحي «رفاعه، أو «الكاملين»،
وكان قد حق لها أن تستريح. لهم الويل.

«ولا هي».

بمن تجرم بعد عهد أنيسها
حجج خلون خلالها وحرامها
فوقفت أسألها وكيف سألنا
صنأ خوالد ما بين كلامها
عريت وكان بها الجميع فأنكروا
منها وغودر نؤيتها وتماها
شاكنت طعن الحي يوم تحملوا
فتكسروا قطناً تصر خيامها
بل ما تذكر من نوار وقد نأت
وتقطعت أسبابها ورمامها
مرية حلت بغية وحساورت
أهل الحجاز فأتين منك مرامها

اه! كن يوقدن في حفرة في الأرض تسمى حفرة دخان
الطلح، ويوضع عندها حصير تجلس عليه المرأة. وحطب
الطلح زكي الرائحة حين يحترق. ويصفن إليه الصندل
والبخور. وحين تبوخ النار وتهدا جذتها، تجلس المرأة
عليها بقدر ما تحتمل، وتتغطى بشمطه فتعرق، ويتشرب
جسدها شذى الطلح والبخور. كل ما يطلبه هذه الأيام من
العطور المستوردة والدهون والاصباغ، كن يجدنه في «نار
الطلح، التي لمعت في خيال الشاعر اليشكري، ووصفها
محمد المهدي المجدوب رحمه الله:

حتى إذا ما اكتفت قامت وزايلها
نجد تساقط مثل الدر منشورا
ونفضت حلماً غنى بوحدتها
لحن الصباية غص الصوت مسحورا
أضحى لها الأمر لم تخرج هواي إلى
جهد وألمها الأحسان تدبيراً.
للحديث بقية.

الجدل شدة الفتل، وجارية مجدولة الخلق أي حسنة الخلق. وساق مجدولة وجدلاء، أي حسنة الطي. وساعد أجدل كذلك. هكذا قالت الأغنية. وحين وصف الشاعر «يد» المرأة، فأنما عنى ساعدها، وهو أمر جائز في اللغة أن يشار إلى الكل، بالجزء.

ويقول «لسان العرب»، في معنى «مملوخ»: المملخ قبضك على عضلة عضاً وجذباً. ومملخ الشيء يملخه مملخاً وامتلخه، أي اجتذبه في استلال، وفي حديث أبي رافع «ناولني الذراع فامتلتخت الذراع»، أي استخرجتها. وهذا في ظني هو معنى قول شيكسبير Time is out of joint. يقصد أن الزمان «مملوخ»، خرجت ذراعه عن مفصلها، فمن يداوي ذراع الزمان؟

ويزيد المعجم، أن من معاني «المملخ»، التثني والتكسر. وهذا ما هدفت إليه الأغنية السودانية، فقد قامت المرأة من على نار الطلح، ورأسها يدور، وعرقها يتصبب، وعضلات جسدها مسترخية، فتثنت في مشيتها، ورمت ذراعها بلا جهد، فصار ذراعها وراء باقي جسدها. «أيده عاقباه جدله مملوخة».

وما «معاليق الجوف»، يقول المعجم «المغلاق» ما يعلق به الأبناء، وكل شيء علق به شيء فهو مغلقة. ومعاليق العقود والشنوف ما يجعل فيها.

وما «الموس المملوخة»، يقول المعجم «جلخ وأجلخ إذا فتح المرء عضديه في السجود». ومن معاني الجلخ الإخراج من مثل القرباب وما أشبه.

هذا هو. كان المرأة كما رآها الشاعر، استلست سكيناً من قربابها وقطعت بها «معاليق الجوف»، فتهاوى الجسد كله. لذلك قال محمد المهدي المجذوب رحمه الله:

وما ارتويت وما كفت إخال بها
مساً يحدب منها الروح مأسورا
لأجل ذلك أيضاً بكى الحارث البشكري. لم تكن النار التي تنورها على بعد مائة عام وأكثر، محض حطب يوقد، بل كان فيها الطلح والصندل والبخور، فذلك «العود» الذي أشار إليه. وكانت هند عند النار كما وصف المجذوب بعد نحو ألف عام، فكانته قال صراحة ما أشار إليه الحارث تلميحاً. بكى، وظلّت دموعه تنهمر من مآقي القصيدة إلى يومنا هذا.

لا أرى من عهدت فيها فاني
اليوم ذلها وأومأ يرد البكاء؟
أجل لعمرى، ما يرد البكاء؟
لا نبي، ولا هند ولا أسماء.
ما يرد البكاء، أن نيران «بخان الطلح»، في جزيرة العرب وعلى عدوتي النيل قد خمدت؟ وأن الزمان كما وصفوا، معوج ومختل ومملوخ؟

* حراري ترد في شُعَات القصيدة على عدة وجوه حراري، بالحاء ثم الراء والزاي بعد الألف. وحراري، بالحاء ثم الراء. والراء، ثم الزاي. وذلك عندي أحسن حسناً. فليقل استنادنا العلامة حمد الحائس بدلاً على الوجه الصحيح

بلى، ذلكم هو الذي أبكى الشاعر البشكري، فقد كان له من العمل كما أخبر الرواة، خمسة وثلاثون ومائه، حين انشد القصيدة بين يدي الملك عمرو بن هند، وكان بخرازي* وهند بين العقيق فشخصين. فأنى له أن يرى النار رؤية العيان؟ إنما رآها بعين خياله من وراء أكثر من مائة عام. ولا هند. أغلب الظن أنها كانت قد رحلت الرحيل الأبدى. ولو كانت النار كما توقد في حطب الغضى، لجاز له أن يبكى. إنما أنها كانت كما وصفها المجذوب، فقد حق له أن يبكى «ذلها».



بقلم الطبيب صالح

لا عجب. لقد دخل العرب بلاد السودان، إلى غاية ارض شقيط، قبل الإسلام بمئة، وأخذوا معهم من جزيرة العرب عادات بقيت عندهم وبعضها درس عند عرب الجزيرة. من ذلك أن النساء كن يتطين بنار «بخان الطلح». ومن ذلك أيضاً أن الفتيات قبل الزواج كن يلبسن سراويل من سيور الجلد تسمى «الرهط». وقد ظلت هذه العادة موجودة في السودان إلى عهد قريب. وعرب السودان إلى يومنا هذا يسمون «الدخلة»، في العرس «قطع الرهط»، وكان العريس إلى عهد غير بعيد يقطع «رهطاً» حقيقياً، ثم تحول ذلك إلى عمل رمزي، ثم «استعجم العرب في البراري»، واختلط النقاء بالرغاء.

كن يتطين لبعولتهن بنار «بخان الطلح»، يضاف إليها الصندل والبخور. يفعل ذلك في جماعة. يتناولن الجلوس على النار. تجلس الواحدة وتغطي جسدها العاري بشملة، فتعرق ويتشرب جسدها شذى الطلح والبخور، وهي رائحة تظل عالقة بها ما شاء الله. وكل جلسة تسمى «بوخة». وقد تجلس الواحدة منهن مرتين «تطبق البوخة»، فذلك قول الأغنية:

الطبق البوخة
قام نداه يهتف
نام من البوخة
أيده عاقباه
جدله مملوخة
لي معاليق الجوف
موسه مجلوخه

في «لسان العرب»، في معنى «باخت»، النار، إذا فترت وهدأت حدتها، وهي تبوخ بوخاً وبوخاناً. ويقال «أبخ عنك من الظهيرة»، أي أقم حتى يسكن حر النهار ويبرد. وهذا هو ما عنته الأغنية السودانية بالتحديد، فالمرأة لا تقوى على الجلوس إلى نار الطلح وهي في شبيبة اشتعالها، بل تصبر عليها حتى «تبوخ»، ويصبح حرها محتملاً.

وفي معنى «جدله»، يقول المعجم:



بقلم الطيب صالح

نحو أفق بعيد

١٢٧

يروى الجاحظ في كتابه «التاج» في أخلاق الملوك: أن الحجاج أوفد جريراً إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه قال محمد بن الحجاج: «يا أمير المؤمنين. هذا جرير بن الخطفي مدحك وشاعرك.» فأعرض عبد الملك وقال: «بل مادح الحجاج وشاعره.» قال جرير، فقلت: «إن رأى أمير المؤمنين أن ياذن لي في إنشاء مديحه.» قال عبد الملك: «هات في الحجاج.»

فقلت: «بل في مدحك يا أمير المؤمنين.»

قال: «هات في الحجاج.»

قال جرير، فأنشدته قولي:

صبرت النفس يا ابن أبي عَفْـفَـيْلٍ

مُحَافِظَةً فَكَيْفَ تَرَى الثَّوَابَ

إذا سَفَرُ الخليفة نَارَ حَرْبٍ

رَأَى الحجاجَ اثْنَيْبَهْـبَهْـبَا شَهَابَا

فقال: «صدقت، هو كذلك.» ثم قال للأخطل وهو خلفي وأنا لا أراه: «قُمْ فهات مديحنا.»

فقام فأنشده فاجاد وأبلغ، فقال عبد الملك:

«أنت شاعرنا وأنت مادحنا، قُمْ فاركنه.»

قال جرير: «فالقي النصراني ثوبه وقال (جَبَّ يا ابن المراغة) فاغضب ذلك من حضر من المضرية وقالوا:

«يا أمير المؤمنين، لا يركبُ الحنيفُ المسلم ولا يُظْهَرُ عليه، فاستحيا عبد الملك وقال للأخطل: «دعه.»

قال جرير: «فانصرفت أسوأ خلق الله حالاً لما رأيتُ من أعراض أمير المؤمنين عني وأقبله على عدوي، حتى إذا كان يوم الرواح للوداع، تخلت لأودعه، فكنت آخر من دخل عليه. فقال له محمد بن الحجاج:

«يا أمير المؤمنين. هذا جرير، وله مديح في أمير المؤمنين.»

قال: «لا. هذا شاعر الحجاج.»

قلت: «وشاعرك يا أمير المؤمنين.»

قال: «لا. أنت شاعر الحجاج.»

قال جرير: «فلما رأيتُ سوء رأيه أنشأت أقول:

أتصحو أم فؤادك غير صاحي

فقال عبد الملك: «بل فؤادك.»

حتى إذا بلغت إلى قولي:

الستم خيبر من ركب المطايا

واندى العـمـالـيـن بطن راح.

استوى جالساً، وكان متكئاً، وقال:

«بلى، نحن كذلك. أعد.»

فأعدت البيت، فاشرق وجهه، وذهب ما كان في قلبه، ثم التفت إلى محمد بن الحجاج وقال:

«تري أم حُرَّة (زوجة جرير) ترويه مائة من الأبل؟»

قال جرير، فقلت: «نعم يا أمير المؤمنين. إن كانت من فرائض كُلب فلم تروها فلا أرواها الله.»

قال: «فامر لي بمائة فريضة. وكانت بين يديه أربعة صحاف من فضة أهديت إليه، فمددت يدي وأخذت واحدة منها وقلت: «المحلب يا أمير المؤمنين.» يقصد لحلب اللبن.

قال عبد الملك: «خذها لا يبارك الله لك فيها.»

ويخلص الجاحظ إلى القول:

«وهذه أخلاق لمن فهمها. وليس بعجب أن تتلون أخلاقهم، إذ كنا نرى أخلاق القرين المساوي، والشريك والالف تتلون ولا تستوي، ولعله يجد عن ألفه وقربنه وشكله مدوحة، فكيف بمن ملك الشرق والغرب، والاسود والأبيض، والحر والعبد، والشريف والوضيع، والعزير والدليل.» ■



بقلم الطبيب صالح

يقول الجاحظ في كتاب «التاج» في باب «إكرام الأوفياء»: «ومن أخلاق الملك إكرام أهل الوفاء وبرهم والاستئانة اليهم والثقة بهم والتقدمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادي. وذلك أنه لا توجد في الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدراً ولا أنبل فعلاً من الوفاء. وليس الوفاء شكر اللسان فقط، لأن شكر اللسان ليس على أحد منه مؤونة.

واسم الوفاء مشتعل على خلال. فممنها أن يذكر الرجل من أنعم عليه بحضرة الملك فمَنْ دونه. فإن كان الملك فيه سبب الرأي، فليس من الوفاء أن يُعَيِّنَه على سوء رأيه. فإن خاف سوط الملك وسيفه، فاحسن صفاته أن يمسك عن ذكره بخير أو شر.

ويذكر الجاحظ في هذا السياق، أن سعيداً بن عمرو بن جعدة ابن هبيرة المخزومي، حين حمل رأس مروان بن محمد، أخرج خلفاء بني أمية إلى أبي العباس السفاح بالكوفة، قام سعيد فأكب عليه، ثم قال:

«هذا رأس أبي عبد الملك خليفتنا بالأمس. رحمه الله». فغضب السفاح، وطعنه بأصبعه في بطنه.

وانصرف سعيد بن عمرو إلى بيته والناس يتوقعون أن أبا العباس السفاح لا بد قاتله. ولأمه بنوه وأهله وقالوا: «عرضتنا ونفسك للهلاك». فقال لهم: «استكنوا قبحكم الله. أستم الذين أشاروا علي بالأمس بجران بالتخلف عن مروان، ففعلت في ذلك غير فعل أهل الوفاء والشكر» وما يغسل عني عار تلك الفعلة إلا هذه. فإنما أنا شيخ هامة، إن نجوت يومي هذا من القتل مت غداً.

قال، فجعل بنوه يتوقعون رسل أبي العباس، أن تطرقه في جوف الليل. فأصبحوا ولم يأتهم أحد. وغدا الشيخ فإذا هو بسليم بن مجالد. فلما بصر به قال: يا ابن جعدة. ألا ابشرك بجميل رأي أمير المؤمنين؟ أنه ذكر في هذه الليلة ما كان منك فقال: «والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ إلا الوفاء، ولهو أقرب من قرابة، وأمس بنا رحماً منه بمروان، أن أحسننا إليه».

ويحكى عن شيرويه أحد ملوك الفرس أن رجلاً

نحوافق بعيد

١٢٨

اعترض طريقه وقال: الحمد لله الذي قتل أبرويز على يدك وأراح الناس من قهره وعتوه وبخله ونكده». فقال له شيرويه:

«كم كانت أرزاقك في حياة أبرويز؟»

قال: «كنت في كفاية من العيش».

«فكم زيد في أرزاقك اليوم؟»

«ما زيد في رزقي شيء».

«فهل وترك أبرويز فانتصرت منه بما قلت؟»

«لا».

«فما دعاك إلى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادة رزقك، ولا وترك في نفسك؟ وما للعامة والوقوع في الملوك؟»

فأمر أن يُنزع لسانه وقال: «إن الخرس خير من الكلام فيما لا يجب».

ومن جميل ما روى الجاحظ في الوفاء أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور سأل شيخاً من أهل الشام، وكان مقرباً إلى هشام بن عبد الملك في حياته، كيف كان هشام يفعل في حربه للخوارج، فكان الشيخ يقول في حديثه: «فعل هشام رحمه الله كذا، وصنع هشام رحمه الله كذا».

فغضب المنصور وقال له: «قم، عليك لعنة الله. تطا بساطي وترحم على عدوي؟».

فقام الرجل، وقال وهو يهيم بالذهاب: «إن نعمة عدوك قلادة في عنقي، لا ينزعها إلا غاسلي». فقال المنصور: «أشهد أنك نهيض حرة وغراس شريف. اجلس وعذ إلى حديثك».

ولما فرغ الرجل، أمر المنصور له بمال، فقال:

«والله يا أمير المؤمنين، ما بي حاجة إلى المال. ولقد مات عني من كنت في ذكره أنفاً، فما أحوجني إلى الوقوف على باب أحد بعده. ولولا جلالة عز أمير المؤمنين، وإيثار طاعته، ما لبست لأحد بعده نعمة».

فقال المنصور: «لله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك لكنت قد أنقيت لهم مجداً مخلداً».

ويضيف الجاحظ: «ويقال أن الرجل كان من شيبان».



بقلم الطيب صالح

يذكر الجاحظ في كتابه السديع، الناج في أخلاق الملوك، أن السخاء والحياء لازمان للملك السعيد. ويقول: «ومن أخلاق الملك الكرم والحياء، فهما قريبان كل ملك كان على وجه الأرض. ولو قال قائل أنهما ركنان في الملوك، كتركيب الاعضاء والجوارح، كان له أن يقول، إذ كنا لم نشاهد، ولم يبلغنا عن مضي من الملوك، ملوك العجم ومن كان قبلهم، وملوك الطوائف وغيرهم، القحة والبخل.

فأما السخاء، فلو لم يكن أحد طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتساب أن كان الملك من أهل التمييز، وذلك أن الملك يفيد أكثر مما يتفق. فإذا كانت هذه صفة كل ملك، فما عليه من اتخاذ الصنائع، وعم المن، والإحسان إلى من نأى عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمة للفقير والمسكين، والعائدة إلى أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من اجناس الرحمة، وحقيق للملك إذا كان الراعي، أن يرحم رعيته، وإذا كان الاسام أن يرق على المؤتم به، وإذا كان المولى أن يرحم عبده. وأقول، غفر الله لي، أن أكرم من أقلته السماء، وأرحم من أقلته الغبراء، هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. كان أرحم بالناس من الأم على وليدها، ومن الثقة على فصيلها، وكان في سخائه كالريح المرسلة. وقد مدحه بحق، أحمد شوقي، أمير شعراء هذا الزمان فقال:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
مها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقيم ديناً لتماثت وجهها
ديناً تحيي بنوره الآلاء
فإذا رحمت فانت أم أو أب
هذان في الدنيا هما الرحماء

هذا، وقد خلق الرسول الكريم برده على كعب بن زهير حين جاءه لائذا ومدحه بقصيدته «بانت سعاد». وقد أخبروا أن معاوية بن أبي سفيان اشتراها منه بثلاثين ألفاً، وفي رواية بثلاثمائة ألف، فكانت شعار دولتهم، إلى أن ورثها الخلفاء من بني العباس. وفي ذلك يقول أحمد شوقي أيضاً - رحمه الله وأجل ثوابه، فما أجمل ما قال في مدح الرسول الأمين:

ليست برد النبي السيرات
من بني العباس نورا فوق نور

ثم الت إلى ملوك آل عثمان، ثم لا ندري. ذلك، وقد انبرى الجاحظ للدفاع عن أبي جعفر المنصور، وقد عرف عنه البخل. لا غرو، فقد ألف كتابه أصلاً للفتح ابن خاقان وزير المعتصم بن هرون الرشيد، وقال في ذلك: «... نخص بوضع كتابنا هذا، الأمير الفتح بن خاقان

مولى أمير المؤمنين، إذ كان بالحكمة مشغولاً، وعلى طلبها مثابراً، وفيها وفي أهلها راغباً، ليبقى له ذكره، ويحيى به اسمه، ما بقي الضياء والظلام.

صدق فلن الجاحظ، فقد انطوى ظل الفتح بن خاقان، وعفى الزمن على آثاره، عدا أن أبا عثمان العبقري وضع له كتاباً اسمه «الناج في أخلاق الملوك»، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

يقول أبو عثمان مدافعاً عن أبي جعفر المنصور: «وقد ذكر بعض من لا يعلم في كتاب الله في البخلاء من الملوك، أن هشام بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد، وأبا جعفر المنصور، منهم... وكيف يكون المنصور ممن دخل في جملة هذا القول، ولا يعلم أن أحداً من خلفاء الإسلام ولا ملوك الأمم، وصل بالف ألف لرجل واحد غيره؟» ثم يمضي الجاحظ فيورد قصة مؤثرة، يدل بها على كرم المنصور، فيقول:

«وحدثني بعض اصحابنا عن أبيه عن زيد مولى عيسى ابن نهيك، قال:

دعاني المنصور بعد موت مولاي، فقال:

«كم خلف أبو يزيد من المال؟»

قلت «الف دينار أو نحوها».

قال «فأين هي؟»

قلت «انفقتها الحرة في ماتمه... يعني زوجته».

فاستعظم ذلك، وقال «انفقت في ماتمه الف دينار؟ ما أعجب هذا!».

ثم قال «كم خلف من البنات؟»

قلت «ستاً».

فاطرق ملياً، ثم رفع رأسه وقال «أعد إلى المهدي».

فغدوت فقيل لي «معك بغال؟»

فقلت «لم أؤمر بأحضار بغل ولا غيره، ولا أدري لم دُعيت؟»

فأعطيت ثمانين ومائة ألف، وأمرت أن ادفع لكل واحدة من بنات عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلت. ثم دعاني المنصور فقال:

«قبضت ما أمرنا به لبنات أبي يزيد؟»

قلت «نعم يا أمير المؤمنين».

قال «أعد علي باكفائهن حتى أزوجهن منهم».

فغدوت عليه بثلاثة من ولد العكي وثلاثة من آل نهيك من بني عمهن. فزوج كل واحدة منهن على ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يجعل صداقهن من ماله. وأمرني أن اشتري بما أمر لهن ضياعاً يكون معاشهن منها.

ويختم الجاحظ قصته البليغة بقوله:

«وقلما استعملت العامة وكثير من الخاصة التمييز، أثاراً للتقليد، إذ كان أقل في الشغل، وأدل على الجهل، وأخف في المؤونة. وحسبك من جهل العامة أنها تفضل السمين على النحيف، وإن كان السمين مافوناً، والنحيف ذا فضائل. وتفضل الطويل على القصير. لا للطول ولكن لشيء آخر لا ندري ما هو. وتفضل راكب الحصان على راكب البغل، وراكب البغل على راكب الحمار، اقتصاراً على التقليد إذ كان أسهل في المأني وأهون في الاختيار».

رحمه الله، فما أجمل ما كان يكتب، وما كان أحفاد باهل المروءة والفضل. ورحم الله أبا جعفر المنصور فإن حديث الجاحظ عنه يرفعه من الكرم المحض، إلى سماء الشهامة والنبل.

نحوافق بعيد

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان، إذ جلس للناس في يوم عيد، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصلوات. وجاء رجل فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم: «تنح فليس هذا موضعك». ولما سمع معاوية قال: «دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس». فأخذ الرجل الكيس ودسه في ثيابه وقام، فلم يجسر أحد أن يتعرض له. فقال الخادم: «أصلح الله أمير المؤمنين. إنه قد نقص من المال كيس دنانير». فقال معاوية: «أنا صاحبه وهو محسوب لك».

ويروى: أن سليمان بن عبد الملك خرج في نزهة، فبسط له في صحراء فتغدى مع أصحابه. فلما حان انصرافه وأنشغل غلمان به بجمع المتاع، جاء أعرابي واختطف عباءة سليمان وطرحها على عاتقه، وسليمان ينظر إليه. فبصر به بعض الخدم فصاح به: «اللق ما عليك». فقال الأعرابي: «لا القىها والله. إنها كسوة أمير المؤمنين وخلعته».

فضحك سليمان وقال: «صدق، أنا كسوته». فانطلق بها الأعرابي كأنه اعصار. وحيء لجعفر بن سليمان بن علي برجل سرق منه درة نادرة، وأراد أن يبيعه ببغداد. وكانت الدرة قد وصفت لتجار الجواهر، فأخذ الرجل وسبق إلى جعفر. فلما راه استجيبا وأخذته الشفقة عليه. فقال له: «الم تكن طلبت هذه الدرة مني فوهبتها لك؟» فباع الرجل الدرة بمائتي ألف درهم.

وبيزيد الجاحظ قوله: «وأنت لا تجد أبداً يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن مبايعته إذا غبن، وعن التقصي إذا بخس، إلا وجدت له في قلبك فضيلة وجلالة ما تقدر على دفعها. وكذا أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال: «يرحم الله سهل الشراء سهل البيع سهل القضاء، سهل التقاضي». هذا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «من خدعنا في الله الخدعنا له».

وأثر عن معاوية رحمه الله قوله: «إنني لأجر ذيلي على الخداع».

وقال أبو تمام: ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المثغابي.

ويعجبني قول الشاعر الذي يخفي وراءه كلاماً كثيراً:

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعيداً
دنتهم بصحراء الغمير القوافيا
فإن قلتهم أنا ظلمنا فلم نكن ظلمنا ولكننا أسأنا التقاضيا

ويوسعك إن تتخيل ما حدث، فمثل ذلك ليس منك بعيد. وحسبك قوله (بني عمنا). وأقول: عفا الله عني، أن من سوء التقاضي، ما هو الظلم بحذافيره! ■

يلزم الملك السعيد في رأي الجاحظ، ألا يشغل نفسه بصغائر الأمور، ويقول:

«ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدر في الملك، ولا يجرح المال، ولا يضع من العز، ويزيد في الأبهة».

وفيما يحكى عن بهرام جور، أنه خرج يوماً لطلب الصيد، فعار به فرسه حتى وقع إلى راع تحت شجرة، وهو حاقن. فقال للراعي:

«احفظ علي عنان دابتي ريثما أقضي حاجتي». فامسك الراعي عنان الفرس، وكان لجامه ملبساً ذهباً، فوجد الراعي غفلة من بهرام، فأخرج من خفه سكيناً، فقطع بعض أطراف اللجام. فرفع بهرام رأسه فنظر إليه، فاستحيا، ورمى بطرفه إلى الأرض، وأطال حتى يأخذ الراعي حاجته من اللجام. حتى إذا ظن أنه أخذ حاجته قام، وقال للراعي: «قدم لي فرسي فإنه قد دخل في عيني شيء من هذه الرياح، فما أقدر على فتحهما».

وغمض عينيه لثلا يومه أنه يتفقد حلية اللجام. فقرب الراعي فرسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعي: «أيها العظيم، كيف أخذ إلى موضع كذا وكذا؟»

قال بهرام: «وما سؤالك عن الموضع؟» قال الراعي: «هناك منزلي، وما وطنت هذه الناحية قط غير يومي هذا، ولا أراني أعود إليه ثانية».

فضحك بهرام، وفطن لما أراد، فقال: «أنا رجل مسافر، وأنا أحق بالأعود إلى ههنا أبداً».

ثم مضى. ولما نزل عن فرسه، قال لصاحب دوابه ومراكبه: «إنني وهبت معاليق اللجام لسائل مر بي، فلا تنهمن بها أحداً».

ويحكى عن أنو شروان، أنه قعد ذات يوم في نيروز، ووضعت الموائد ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم. وقام الموكلون بالموائد على رؤوس الناس، وكسرى بحيث يراهم. فلما فرغ الناس من الطعام، جاءوا بالشراب في أنية الفضة وجامات الذهب. فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في أنية الذهب. فلما أنصرف الناس، ورفعت الموائد، أخذ بعض القوم جام ذهب فأخفاه في ثوبه، وأنو شروان يلحظه، فصرف وجهه عنه. واقتد صاحب الشراب الجام فصاح: «لا يخرج أحد من الدار حتى يفتش».

فقال كسرى: «لا تتعرض لأحد، وأذن للناس فانصرفوا». فقال صاحب الشراب: «أيها الملك، أنا فقدنا بعض أنية الذهب». فقال الملك: «صدقت. فقد أخذها من لا يردّها عليك، وقد رآه من لا ينم عليه».



بقلم الطبيب صالح

نحوأفق بعيد



بقلم الطيب صالح

على الملك السعيد، كما يقول الجاحظ، ان يقسم يومه اقساماً. اوله لذكر الله تعالى، وصدره لرعاياه وتبدير امورها وتصريف شؤون دولته، ووسطه لأكله ومبامسه، وطرفيه للهو وشغله. وعليه الا يتأخر على ادمان الشغل في كل يوم، وان طالبت هذه الانقسام بمواضعها، فانه لن يجد للهو لذة، ولا للتعميم رونقاً ويقول:

«ومن ادمن شيئاً من ملأ الدنيا، فانه لن يجد له من اللذة وجود القرم النهم المشتاق. وذلك ان الذ الطعام واطيبه ما كان علي جوع شديد، والذ المخالطة اذا اشتد الشبق وطالت العزبة والذ النوم واهناه ما كان يعقب التعب والسهو».

ويصف الجاحظ ان الخلفاء من بني امية وبني العباس كانت لهم اوقات يسرون فيها عن انفسهم بالسماع الى الغناء والطرب، ويقول:

«اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر احد من الندماء على ما يفعله الخليفة اذا طرب للمغني حتى يتقلب ويمشي ويحرك كتفيه. فاما بعض خلفاء بني امية فكان لا يتخرج ان يرقص ويتجرد بحضرة الندماء».

واما عمر بن عبد العزيز فانه ما طن في اذنه حرف غناء منذ ان افضت اليه الخلافة الى ان فارق الدنيا. وكان قبل ذلك وهو امير للمدينة، يسمع الغناء ولا يظهر منه الا الامر الجميل.

واما ابو العباس السفاح، فانه كان يظهر للندماء في اول ايامه، ثم احتجب عنهم بعد سنة، اشار عليه بذلك اسيد بن عبد الله الخزاعي. وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة. احسنت والله. اعد هذا الصوت، فيعاد له مراراً.

ولم يكن ابو جعفر المنصور يظهر لنديم قط، ولا راه احد يشرب غير الماء. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً، وبين الستارة والندماء مثلها، فاذا غناه المغني فاطربه، حركت الستارة بعض الجواري، فاطلع اليه الخادم صاحب الستارة، فيقول له المنصور: قل له احسنت بارك الله فيك، وربما استخفه الطرب واراد ان يصفق بيديه، فيقوم من مجلسه، ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك. وكان لا يتيب احداً من ندمائه وغيرهم درهماً، فيكون له رسماً في ديوانه. ولم يقطع احداً ممن كان يضاف الى مناهية او ضحك او هزل، موضع قدم من الارض. وكان يحفظ ما اعطى كل واحد منهم عشر سنين، ويحسبه ويذكره له.

وكان المهدي في اول امره يحتجب عن الندماء، متشبهاً بالمنصور، ثم ظهر لهم. فكلمه في ذلك احد وزرائه، فقال له: «اليك عني يا جاهل. انما اللذة في مشاهدة السرور، وفي الدنو من سرني، فاما من وراء وراء، فما خيرها

ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور للندماء والاخوان الا اني اعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلت لهم في ذلك حظاً موفراً».

وكان كثير العطايا وافرها، قل من حضر الا اغناه. وكان لبني العريكة، سهل التريفة، لذيد المنادمة، قصير المناومة. ما يمل نديماً ولا يتركه الا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السن، قليل الاذى والبذاء.

ويصف الجاحظ ان الهادي كان شكس الاخلاق، صعب المرام، قليل الاغضاء، لا يبذل الا لمن توفاه وعرف اخلاقه. ويحكى ان ابراهيم الموصلي غناه يوماً صوتاً اخرجه عز طوره من الطرب، فقال له:

«انت صاحبني، فاحتكم».

فقال ابراهيم:

«يا اسير المؤمنين، تقطعني حائط عبد الملك بن مروان بالمدينة».

قال، فدارت عيناه في راسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال:

«يا ابن اللخناء! اردت ان تسمع العامة انك اطرقتني، وانني حكمتك فاقطعتك. اما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربت الذي فيه عيناك».

قال ابراهيم: ثم سكت فرايت ملك الموت قائماً بيني وبينه، ثم نادى ابراهيم الحرائي فقال:

«خذ بيد هذا الجاهل، فادخله بيت المال، فليأخذ منه ما شاء».

هذا، ويمضي الجاحظ في رسم صورة لهارون الرشيد، تلفت الانبياء، لأنها بخلاف ما شاع عنه، فيقول:

«وكان الرشيد في اخلاق أبي جعفر المنصور، يمثلها كلها الا في العطايا والصلات والخلق، فانه كان يقفو فعل ابي العباس والمهدي. ومن خبرك انه راه قط يشرب غير الماء فكذب. وربما طرب للغناء، فتحرك حركة بين القلة والكثرة».

ويخبر الجاحظ عن الامين نقلاً عن اسحق فيقول:

«ما كان أعجب امره كله، فاما تبذله، فما كان يبالي أين قعد، ومع من قعد. وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرقتها كلها، والقاما عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا. وكان من اعطى الخلق لذهب وفضة، وانهبهم للاموال اذا طرب اولها».

ويختم الجاحظ حديثه عن الامين بلفتة من لغتاته العجيبة فيقول:

«ولقد حدثني علوية عنه قال: لما أحبط به، وبلغت ججارة المنجنيق بساطه، كنا عنده، فغنته جارية غناء لم تحسبه، فصاح:

«يا كذا، تغنيني الخطأ خذوها».

فخملت وكان آخر العهد بها».

كان الجاحظ اراد ان يقول: «وكان ذلك اخر العهد بالامين». فقد أخذ بعد ذلك واصلب. وكان اخر صوت سمعه صوتاً نشازاً، ومع ذلك فقد مدحه الحسن ابن هانئ، غفر الله له وللأمين، ببیت من أجمل شعر المديح:

واذا المني بنا بلغن محمداً

فظهر من على الرجال حرام

(التحيت بقية)



بقلم الطبيب صالح

يُقرُّ الجاحظ سيبدأ في الحرب، أصبح من ركائز سياسة الدول في هذا العصر، وكان فيلسوف الحرب الألماني، كلوزفيتز، أخذ عنه بالحرف، يقول الجاحظ:

«ومن أخلاق الملوك المكابدة في حروبها، ولذلك كان يقال أنه ينبغي للملك السعيد أن يجعل الحاربة آخر حيله، فإن النفقة في كل شيء أنفاسا في من الأموال، والنفقة في الحروب أنفاسا في من الأنفس، فإن كان للحيل محمود عاقبة، فذلك بسعادة الملك، إذا خسر ماله وحقق دماء جيوشه، وإن أغتبت الحيل والمكائد، كانت الحاربة

من وراء ذلك».

ويقولون في هذه الأيام أن الحرب هي سياسة الملاذ الأخير، أو سياسة الحد الأقصى: War is the policy of last resort. ليس هذا ما عناه الجاحظ نصا حين قال: «ينبغي للملك السعيد أن يجعل الحاربة آخر حيله».

كان الجاحظ كان يتوجه بحديثه إلى الخليفة، غير وزيره الفتح ابن خاقان، ويظهره بوصفه أباه بـ «الملك السعيد»، وعندي أن كتابه ليس أقل أهمية من كتاب «الأسير» لما كُتِبَ، ويزيد عليه أن الجاحظ سبق نظيره الإيطالي بقرون، وإن كتابه أفكه روحاً وأخف وطأة.

يقول أبو عثمان رحمه الله، في عبارة لا تخلو من جرأة: «وابضا فإن لنا أجرين، أما أحدهما، فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها، وأما الآخر، فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها، ورد كل نافر إليها».

هذا كما ترى، مذهب طريف، فهو ليس ضد الملوك من حيث أنهم ملوك، ولكنه يقول أنه صوتهم المدافع عنهم لدى العامة، كما أنه صوت العامة وصوت الحق لدى الملوك. أو كما نقول بلغة هذه الأيام، أن دوره دور «رجل الفكر» الذي يكون جسراً بين «الشعب، وبين السلطة».

وذاك لعمرى أمر عسير. ألا أن الجاحظ كان محفوظاً أنه وجد تاييدا وسندا من وزير واسع الإطلاع، عميق الفكر مثل الفتح ابن خاقان، وقد أخبروا أن الفتح بن خاقان، لم يكن يفوقه إلا الجاحظ في أقباله على الكتب وشغفه إلى المعرفة، وأنه يكون في مجلس الخليفة، فإذا قام الخليفة عن المجلس ولو لفترة وجيزة، فإن الفتح يخرج من ثيابه كتاباً يقرأ فيه إلى أن يعود الخليفة.

ولا بد أن الجاحظ قصد أيضا أن يمنح لصديقه الوزير لدى مولاه، وحق له أن يفعل، فقد كان الرجل جديراً. يقول الجاحظ: «وبعد فإن أكثر كلامنا في هذا الكتاب، إنما هو على من دون الملك الأعظم، إذ لم يكن في استطاعتنا أن نصف أخلاقه بل نعجز عن نهاية ما يجب له، لو رمنا شرحها... وليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية تقوم في وهم، ولا يحيط بها فكر، وأنت تراها تتزايد منذ أول ملك الدنيا إلى هذه الغاية...».

هذا، كانه المتنبي يمالئ سيف الدولة. وكان أبا عثمان خجل من كثرة ما بالغ في أطراء الخليفة، فما لبث أن أضاف كالمعتذر: «ولعل قائل يقول أن رانا قد حكينا في كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب: قد ناقض واضع هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهاية. فيظلم في اللفظ ويعتدي في المقال. وأولئك الملوك هم عند ملوكنا، كالطليقة الوسطى عند النبط الأعلى. أنت تحد ذلك عياناً وتشهده بياناً...».

هذا، ويؤكد أبو تمام ميذاً متناقضاً لما ذهب إليه الجاحظ في قضية السياسة والحرب، وذلك في بيته الذائع في قصيدته المدوية

في مدح المعتصم.

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حشد الحشد بين الحشد واللحش

وقد ذهب بعضهم إلى أن المقصود بـ (الكتب) هو (الفكر) كما تقول رجل الفعل ورجل الفكر ورب السيف ورب القلم، وأغلب الظن أن أبا تمام لم يرد إلا الكتب التي يرسلها الملوك بعضهم إلى بعض في أمور السلم والحرب.

كان المعتصم حقاً ملكاً محارباً، بغزو أولاً ثم يفكر فيما بعد والجاحظ رغم أنه يؤثر الدفع بالحسني أن أمكن، فإنه لا يخفى إعجابه بالمعتصم ويصفه وصفاً يكاد ينط من بين السطور: «وكان المعتصم قلماً يمس الطيب، وكان يذهب في ذلك بقوة يده وأعانه على شدة البهش والأيد، وأما في أيام حروبه، فكان من دنا منه، وجد رائحة صدا السلاح والحديد من جسمه، كان خشناً جلفاً إلى حد أن أهل بغداد - وقد كانت في ذلك الزمان مثل باريس اليوم - ضايقوا به وبغظاظه جنده، فهجروهم وبني عاصمة جديدة هي (سر من رأى). لم تلبث طويلاً حتى اندثرت، وقد رثاها ابن المعتز بابيات بليغة:»

تد افسرت سر من را
فالتفت يحمل منها
كلماته الأجر
ماتت كما مات فصيل
تسل منه العظام

وقد أصبحت قصة فتح المعتصم لعمورية اسطورة يضرب بها المثل في الأقدام والنجدة في تراث العرب، ألا أنهم أخبروا أن المرأة التي صرخت «وامعتصماه»، لم تكن في عمورية، بل كانت في «زبطرة»، على الحدود بين ملك الروم وملك العرب. وكان امبراطور الروم «تيوفيل» قد غزاها عام ٨٢٨م فحرق وهدم وقتل وسبى. سمع المعتصم استغاثة المرأة العربية فهتف «ليبك، ليبك»، ويذكر بعض الرواة أنه كان ممسكاً بكأس فوضعتها وهب وإقفاً من فوره، وسال قواده، أي بلاد الروم أمنع وأحصن، فقالوا «عمورية»، وأن المسلمين لم يجزؤوا على اقتحامها من قبل، فصحبها بجحافلها وديكها دكاً واقتحم «أنقرة»، في الطريق.

وكما قال الشاعر «ولو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت»، فإن هذه الواقعة قد هزت وجدان الشاعر العملاق حبيب ابن أوس الطائي، فأتى بالعجب العجيب:

رمى بك الله برجينا فهدمها
ولو رمى بك غير الله لم يصب
أحسنته مُعلنًا بالسيف متسلطاً
ولو أجبت بغير السيف لم تجب

إلى أن يقول:

خليفة الله حازي الله سعيك عن
جروثة الدين والاسلام والحـ
نصرت بالراحة الكسرى فلم ترها
تعال إلا على جسر من النـ

ثم جاء العبقري أبو الطيب، فنصب الميزان القسط بين مذهب الجاحظ ومذهب أبي تمام:

وضع الندى في موضع السيف بالعملا
مصر كوضع السيف في موضع الندى

(للحديث بقية)



بقلم الطبيب صالح

كانت مبادرة حميدة من الاخ محمد بن عيسى وزير الثقافة في المغرب، وهو صاحب أريحيات كثيرة، انه خصص اسمية في موسم اصيلية هذا العام، لتذكر - ولا اقول تابين - الكاتب العملاق يوسف ادريس. وكان يوسف قد شارك في موسم من مواسم اصيلية منذ بضعة اعوام، وترك أثراً لا ينسى، كما كان يفعل دائماً!

ارتجل محمد بن عيسى كلمة بليغة، تحدث فيها عن صداقته بيوسف ادريس، وعن المكانة السامية لادبه، الذي وصفه بأنه اعظم بكثير حتى مما اعترف به الناس. وقال ان موسم اصيلية الثقافي سوف يصدر عنه كتاباً. ولعل هذه هي اول مرة في العالم العربي، تكرم فيها ذكرى كاتب بهذه الطريقة، خارج وطنه الام. وتحدث لطفي الخولي، الكاتب المرموق، زميل يوسف في دار الاهرام العتيقة، وصديقه الحميم طيلة سنوات، فأعاد الى الازهار صورة يوسف، انساناً حياً نابضاً بالحياة.

كذلك تحدث الدكتور احمد ابراهيم الفقيه، الكاتب الروائي الليبي الموهوب، فنوه بمكانة يوسف ادريس في الادب العربي المعاصر، واعترف بعمق تأثيره عليه. ويمكن القول ان احمد الفقيه، كان احد حواريين يوسف ادريس، وكان احد اصدقائه المقربين. وفي كلمة حزينة عبر الدكتور مبارك ربيع من المغرب، عن عمق احساسه واحساس جيله كله بالفجيعة لفقد يوسف ادريس. وقال الكاتب الروائي المبدع، جمال الغيطاني، ان الفراغ الذي أحدثته موت يوسف ادريس، فراغ لن يمتلئ بعده، وان الخسارة بفقدته خسارة لن تعوض. وكنت انا ايضا من المتحدثين.

كان يوسف ادريس، صاحب موهبة ضخمة، لا يبلغ الانسان اذا وصفها بالعبقريّة. والموهبة عيب ثقيل فيه بعض معاني اللعنة. وان حمل نجيب محفوظ هذا العيب بجلد ومصابرة، كما يفعل الزهاد العاكفون، كان يوسف ادريس يبدو احياناً وكأنه ينوء بهذا العيب، وكأنه يود لو استطاع ان يلقيه عن كاهله. كان يتأرجح بين احوال من الاكتئاب والبهجة. وربما حاول امراً عسيراً، ان يحيا الحياة الى اقصى مداها كما يشاء وان يصنع فناً عظيماً. ولعله نجح بعض النجاح. ولكنه دفع الثمن الذي لا

مناص منه آخر الامر. قلت له في بغداد اثناء الضجة التي افتعلها حين نال نجيب محفوظ جائزة نوبل، يا اخي انت عاوز تتمتع بالحياة، وتتفسيح وتعمل ما تعمل، وكم ان تأخذ جائزة نوبل؟

ضحك من اعماق قلبه، كما كان يفعل، فلم يكن يضمر حقداً لاحد، وقال لي، ووليه لا؟

كان يوسف في الحقيقة انساناً كريماً طيباً طيبة باللغة، اذا وجد منك وداً ومحبة، اعطاك وداً بلا حدود. وعلى مدى ربع قرن من الزمان، لم اجد منه، ولم يجد مني، غير الاخاء والود. ولبي انسى ما حييت عبارة قالها لي ذات يوم، تعرف يا طبيب، انا لما اقرأ لك بحس بالوش، كانت عبارة عميقة مؤثرة، ظلت اذكرها وانوه بها، فالكتاب على وجه الخصوص، يدرك مدى الوحشة التي تجلبها ممارسة هذا الفن الملعون. ان تعلم ان لك اخوة، في البلاء، يعزيبهم انك موجود، وانك تكتب، وانك تفرح بوجودهم وابداعهم، ذلكم الذي يبدد الوحشة، ويصير على البلوى، ويجلب الـ (الوش)، اصوات تنشد في حلقة الوجود، يأخذ بعضها من بعض ويعطي، تتجاوب اصداؤها من بلد الى بلد، ومن قطر الى قطر، ومن قارة الى قارة، بل ومن زمان الى زمان، تصنع من تفاهات الواقع، وعذابات العمر القصير العابر، شيئاً لعله يستمر. لعله يبقى. ذلك هو. ولا يمكن تحقيقه الا بالمحبة. وكان صوت يوسف ادريس صوتاً نادراً من هذه الاصوات. سوف يقوى وقعه وتأثيره على مدى الايام.

كان عامراً بالمحبة، رغم ما كان يبدو احياناً عكس ذلك، بسبب تناقضات سلوكه في الحياة والمعارك التي كان يفتعلها ويلقي بنفسه في غمارها دون مبرر في الغالب وبلا اسلحة، ثم يخرج منها، وينساها تماماً. لم يكن يعرف الحقد. لم يكن ذلك الا مظهرًا من مظاهر احساسه بفداحة العيب. عيب الموهبة الكبيرة التي ابتلى بها.

وايضاً كان شجاعاً شجاعة قل نظيرها. قام في فنه بمغامرة طريفة، حذق فيها بعيني طفل عبقري بنهم وجودي، في عوالم لم يجزى احد من الكتاب المعاصرين على التحديق فيها. وكان يعود من التجربة مملوءاً بالشهوة. فقد كان يعرف ضخامة موهبته - ولكنه يعود ايضا مزعزعا متأثر الاجزاء. لا يلبث ان يلقي بنفسه في غمرات الحياة، باندفاع وطيش احياناً، فيخاصم ويعارك ويثير العواصف بما يقوله، وما يكتبه في الصحف، وبعض ما يفعله. ولعل هذا صرف انظار بعض الناس عن ادراك مدى روعة فنه.

ها هو الانسان، الكائن البشري المحدود الاجل، الذي يقطع رحلة العمر كما ينسبط الظل ثم ينطوي، ها هو ذا قد مضى: يوسف ادريس لم يعد. سوف يبقى فنه العظيم. انما حتى هذا عندي، وعند الكثيرين امثالي الذين احبوه واحسوا «بالوش»، لمجرد انه موجود برشف السمع لصوته، وثرّف السمع لصوته ذي الجاذبية الفريدة. اقول حتى هذا لا يعزّي عن فقدته ■



بقلم الطبيب صالح

تركت حامد الخواض رحمه الله، حياً ممتلئاً حياة، ضاحكاً ابداً كعادته. كنت أمر عليه في مكتبه في الصباح، وأشرب معه قهوة الكاسنجر، وهي قهوة تركية يضاف إليها اللبن المغلي. أول مرة قدمها لي، قلت له إنها تذكرني بالقهوة التي كنا نشربها في محطة الكاسنجر، ونحن في طريقنا بالقطار من الخرطوم إلى كريمة. فاطلق حامد الاسم عليها، وأصبح كل الموظفين في المكتب يطلبون من «عم شعيبان» صاحب البوفيه قهوة الكاسنجر.

«أبو طارق» كان يزورني كثيراً في مكتبي. يقبل مني سجارة، وأحياناً يشرب معي الشاي بالسعناج. وكان يذهب من عندي ضاحكاً في أغلب الأحيان. أت لأتني عشر طفلاً، ويسكن في مخيم من مخيمات اللاجئين. أستطيع أن أتصور العذاب الذي ذاقه. سائق ماهر حين يكون رائفاً، ويعمل بهمة ونشاط حين يسخو. يثور أحياناً ثورات عنيفة. يوصلني إلى المطار، والسفارات للحصول على «الغيزات». كنت أعلم مما يقص علي أنه يعاني من اضطرابات نفسية، وكأية تشابه دون سبب واضح. إلا أنني ابداً لم أتصور أنه سوف يكون قاتلاً، وسوف يقتل، دون سائر الناس. حامد الخواض، الذي أكرمه وعامله بلطف لعله لم يجده في أي أحد صافه طيلة حياته.

وعجيب أن يحدث هذا أيضاً في مكتب اليونسكو في عمان. هذا مكتب أقليمي يخدم الدول العربية جميعاً. وكان أول مدير له في عمان، الدكتور محمد إبراهيم كاظم، وهو رجل من الأخيار الأفاضل. بعد تقاعده بقليل، أصيب فجأة بمرض خطير شفاه الله، وقد أخبرني «أبو طارق» أن ذلك حدث لأن كاظم «ظلمه»، وأنه لن يشفى إلا إذا زاره هو في القاهرة وعفا عنه.

لم أأخذ مثل هذا الكلام مأخذ الجد، فقد كنت أعلم أن «أبو طارق» يحس أن الحياة ظلمته، ومثل كثير من المظلومين، كان يواجه حقه ضد أناس لا صلة لهم بما حدث له. كان كاظم في الواقع كريماً معه، وكذلك كان حامد الخواض.

مكتب عمان من أفضل مكاتب اليونسكو، يضم نخبة من جنسيات مختلفة، رجالاً ونساء، كلهم أكفاء ذوو خلق رفيع، يعملون كأنهم أسرة واحدة. ويغلب على المكتب جو من التآلف والود والبعد عن المراسم والشكليات، يرجع الفضل فيه إلى الدكتور محمد إبراهيم كاظم، ثم تعمق في عهد الدكتور حامد الخواض.

وفي الفترة القصيرة التي قضيتها معهم، حضرت اعراساً لمسلمين ونصارى، وحفلات استقبال ووداع، عزيت معهم، وسمرت معهم. ابداً لم يخطر لي أن هذا المجتمع الودود المسالم سوف يشهد حادثاً مروعاً، لم تشهد مثله منظمة اليونسكو طوال تاريخها من قبل. كانوا كل حين يجمعون التبرعات المناسبة ما، وأكثر ما جمعوا له «أبو طارق».

لا تقل أنه الموت، يضفي على بعض الناس شألة لم تكن لهم في الحقيقة. ابداً كان حامد الخواض انساناً نبيلاً نادر المثال بحق، كان عذبا مثل الماء السلسيل، فيه تواضع أهل السودان. ودعائه طبعهم وسماحتهم وزهدهم. حين يكونون في أحسن حالاتهم، من آل الخواض الكرام، من كبوشيه في

ديار الجميلين. كان محباً للناس ليس في قلبه ذرة من الحقد. كان مهندساً معمارياً، وكان مشغولاً ببناء مدارس قليلة التكلفة من مواد محلية بسيطة، فأشرف على تنفيذ مشاريع في اليمن وفي الصومال وفي السودان وفي أماكن أخرى. مسافر ابداً، لا يقر له قرار. أقول له «يا زول، السفر الكثير دا بيكتلك»، فيجيبني ضاحكاً «الراعي واعي»، يقصد الله عز وجل. وفي الفترات القصيرة التي يقضيها بين الاسفار في عمان، يعمل صباح مساء، ينقل إلى الخامسة والسادسة مساء دون طعام، ويعمل أيام العطلة. يعمل في صمت وفي زهد، لا يهتم بالدرجات والترقيات.

وكان مهتماً بـ «أبو طارق»، اعطاه كثيراً من وقته وأسبغ عليه كثيراً من رعايته. كان «أبو طارق» يعمل سائقاً مؤقتاً وكان يمرض ويتغيب كثيراً عن العمل. في كل مناسبة يجمعون له التبرعات. إذا ولد له طفل، إذا مات له قريب. إذا احتاج للعلاج. وقد رفضت إدارة المنظمة في باريس أن تضعه إلى الخدمة المستديمة، فبذل حامد، رحمه الله، جهداً عظيماً، بل ذهب إلى باريس، وأقنع الإدارة أن يشبثوه ويمنحوه عدة علاوات استثنائية دفعة واحدة.

هذا حدث منذ أقل من ثلاثة أشهر. كان «أبو طارق» لا تكاد الدنيا تسعه من الفرح. طاف بالمكاتب يضحك ويوزع الحلوى. وأكثر ما أسعده أن كتاب ترقيته جاء من باريس، وباللغة الإنجليزية. وتحت اسمه خط باللون الأحمر.

«شايك يا سيد طلب. شايك اسبي، صقر سكر»، سعدت لسعادته، وقلت هذا انسان لعله قضى حياته يبحث عن الاعتراف، فما هو ذا قد وجده. قلت له:

«مش قلت لك اصبر» شايك نتيجة الصبر».

«اي والله. دكتور حامد طلع راجل، أوفى بوعده. قال لي يا بوطارق ااعتمد على الله وعلى...»

قال لي يومذاك ان حامد الخواض «أبوه»، وملاذه بعد الله.

لم أنتبه حينئذ، ولكنني أدرك الآن أنه حين جعله بمثابة

أبيه، فقد اختاره لأمر جليل.

ثم قبيل سفري إلى اسبيلة بالمغرب جاء يدعوني للغداء.

أخبرني أنه سيعمل وليمة في داره على شرف حامد الخواض.

«لأزم تحضروا كلكم. الدكتور عبد الواحد يوسف والدكتور

هاشم وأنت والباقيين. تشوفوا بيت أخوك الصغير».

قلت له أن ذلك سوف يكون شرفاً عظيماً لنا، واتفقنا أن

تكون الوليمة بعد عودتي. قبل عشرة أيام فقط، وكان حامد

الخواض حياً مملوءاً حياة.

كيف إذا تحول الحب إلى حقد، والسرور إلى حزن، وحفل

الغداء إلى ماتم؟

هل أقول إن حامد الخواض شهيد آخر في هذه المأساة

الرهيبية التي يقتل فيها الأبرياء، دائماً يقتل الأبرياء، وتختلط

الأمور، فلا يميز الناس بين العدو والصديق؟

ومن أعزّي في حامد الخواض؟ هل أعزّي أسرته وعشيرته

الأقربين؟ هل أعزّي السودان الذي أحبه حامد وأسرف في حبه؟

هل أعزّي منظمة اليونسكو التي لن تجد أحداً مثله؟ هل أعزّي

عبد الواحد يوسف الوفي وهاشم أبو زيد اللذين عادا بجثثاته

إلى مستشفى رأسه؟ هل أعزّي زملاءه وزميلاته في مكتب

اليونسكو الذين يادلهم وداً يود؟ هل أعزّي اصدقاءه ومحبيه

الكثيرين في عمان وفي غير عمان، في السودان وغير السودان؟

هل أعزّي «أبو طارق» المسكين، القاتل المقنول الظالم

المظلوم؟ لعله إذا أفاق من الكابوس المرعب الذي يعيش فيه،

لعله يدرك، أنه قتل «أباه»، وخسر سنده بعد الله ■



بقلم الطيب صالح

فكرة ملهمة، حولت بلدة معمورة، على بعد نحو أربعين كيلومتراً جنوب طنجة، على ساحل الأطلسي، إلى اسم دائم يتردد صدى في العالم، وملتقى سنوياً يقد إليه الكتاب والشعراء والرسامون والموسيقيون من الشرق والغرب.

ما كنت لأعرفها أو أزورها، لولا أنني قابلت محمد بن عيسى في الدوحة أواخر السبعين، عام ثمانية وسبعين أو تسعة وسبعين. رأيت شاباً واضح الذكاء، نطق العيين، حسن السمات متدفق الحماس، ثالفاً بلا شفقة، فالأرواح جنود مجنونة، وقد اكتشفت فيما بعد،

أننا على بُعد الدار والمزار، نشأنا في بيتين متشابهين، وأبحرنا في رحلتين في الحياة، متماثلتين رغم اختلاف النتائج.

عرفت منه أنه عمل لسنوات في منظمة الأمم المتحدة، وفجأة قرر أن يستقيل ويعود إلى بلده أصيلة، ويبدأ حياة جديدة تماماً. انتخب عضواً في المجلس البلدي، ثم ما لبث أن صار رئيساً له، وعُيِّنَ لأصيلة، ثم أصبح نائباً في البرلمان. بهرني كل ذلك، وأحسست كما لو أن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» قد انتهت نهاية سعيدة.

أول مرة زرت أصيلة، منذ أكثر من عشر سنوات، وجدت بلدة أقرب إلى القرى منها إلى المدن، سوقها مثل أسواق القرى في شمال السودان، وطرقاتها متربة، وماؤها شحيح، والتيار الكهربائي ضعيف متقطع، فيها فندق واحد صغير لا يكاد يفي بالحد الأدنى من متطلبات النزيل. ومع ذلك، فقد كانت لها جاذبية واضحة، بموقعها على البحر، وفلعتها التي تقوم شاهداً على تاريخها العريق في مقاومة الأسبان والبرتغاليين.

غير بعيد من هنا في «وادي المخازن»، هزم المغاربة ثلاثة ملوك من ملوك الفرنجة، وأوقفوا المد الاستعماري الأوروبي في غنفوانه البيوت في الحي القديم، لها طابع الحصن، كلل المدن الإسلامية المرابطة بكفى، يعرضها على بعض أرقعتها ضيقة بحيث أنك تستطيع أن تمد يدك عبر الطريق فتصافح يد جارك. رأيت بلدة تطوي ضلوعها على ماضٍ تليد وأنشجان بعيدة، مثل امرأة جميلة جار عليها الزمان.

لم يكن أي من ذلك غريباً عليّ، وقد صادف أول زيارة لي، يوم آخر رمضان، فصليت معهم صلاة العيد، كأنني بين أهلي في شمال السودان.

الآن أصبح الماء دافقاً، والتيار الكهربائي متصلاً، الطرقات المثربة تغطت بالأسفلت، وباحات الحي القديم وأزقتها، رُصفت ببلاط جميل على هيئة الموج، من تصميم الفنان الكبير محمد الملتحي، ابن أصيلة، ورفيق محمد بن عيسى منذ طفولته، وعونه في النضال لنهضة المدينة. كذلك الكاتب الشاعر أحمد البقالي.

في نحو عشر سنوات، خطت البلدة خطوات واسعة. أصبحت مدينة جميلة، تتميز على كثير من المدن بالذوق والحس الجمالي الذي تشاهده في اللوحات الجدارية التي يتركها فنانون عالميون، تعبيراً عن حبهم لأصيلة، وتقديراً للوقت الجميل الذي قضاوه بين أهلها. كذلك تلمس هذا الذوق، في الكورنيش الواسع الذي يزدحم بعد الغروب بأهل البلد وزوارها. تمتلئ المطاعم والمقاهي وتعرف الفرق الموسيقية المغربية والوافدة في الباحة عند سفح القلعة. يتقاطر الشباب المغربي، وبعضهم يقد من مراكش وفاس والدار البيضاء وتطوان والرباط لحضور الندوات والمحاضرات في المركز الثقافي.

هذا مركز به قاعة كبيرة للمحاضرات والعروض السينمائية.

وقال لي: لعرض اللوحات الفنية وغير ذلك. وقد بنى بدعماً مالي من السلطان قابوس، سلطان عُمان. وأيضاً يوجد قصر للثقافة، كان بناء قديماً متداعياً، فتم وأعيدت عمارته بتحويل من الحرس الثاني، ملك المغرب. وقد أخبرني محمد بن عيسى أن هذا الملك المستعير، يواصل دعم النشاط الثقافي من ماله الخاص، كلما أحس أنهم في ضائقة. أمدكم بالعون دون إعلان، ودون أن يطلبوا منه.

في أصيلة اليوم عدة فنادق مريحة، يجد فيها الزائر كل ما يحتاج إليه، وفندق الضيعة، حيث تنزل وفود موسم أصيلة، فندق رجب، به حمام للسباحة، وغرفة نظيفة مؤثثة ببساطة، يمتلئ أغلب العام بالسواح.

ليس من المبالغة القول، أن محمد بن عيسى، حقق في أصيلة شيئاً يشبه المعجزة. لقد حول الأحلام التي يكنها الروائيون، والأفكار التي تلوكها الأسن في الندوات والمؤتمرات، عاماً بعد عام، إلى واقع محسوس. مزج بين الثقافة والتنمية، وضرب مثلاً بعيد الدلالة، كيف يستطيع مجتمع أن ينهض بجهد أبنائه ومثاقه، معتمداً على طاقاته الإبداعية الكامنة. وهو مثل جدير أن يتامله المفكرون والدارسون، ففي الوقت الذي يبدو فيه، أن الخلط الشمولية والأيدي العنصرية في أحداث ثورات اجتماعية كبرى في العالم العربي، لم تات بكبير طائل، هاهنا تجربة أكثر تواضعاً وأعظم جدوى. لذلك يقول محمد بن عيسى، كل واحد ينهض بما حوله. يصلح ما يستطيع إصلاحه في حدود قدرته. كل واحد ينظف أمام داره.

هذا هو السلوك الذي حضنا عليه ديننا الحنيف، فنسبناه فانساناً الله أنفسنا، وأقبلناه فحاشاً بنا الذلة والمسكنة. لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

وأضح من الآية الكريمة ومن الحديث الشريف، أن الهدف لا يتحقق إلا بالكراه والقهر، ولكن بان يتحرك الناس بملء حريتهم ومحض إرادتهم. كذلك كان الأمر في البدء، ولا مناص أن يكون كذلك اليوم.

في أثناء ذلك، قام محمد بن عيسى برحلة جريئة في إعادة اكتشاف ذاته والعودة إلى جذوره، طالما حلم بقتلها الشعراء والروائيون وأنا واحد منهم. وعجيب أن عودته كانت إلى بلدة تسمى «أصيلة»، هاجر إلى مصر أوائل الخمسينات طلباً للعلم، وكان المغرب في قبضة الاستعمار الفرنسي والأسباني. تعذب وعانى. كان يعود إلى المغرب فيجمع بعض المال من العمل في إذاعة طنجة، ثم يرجع ليوصل دراسته. وبعد ذلك سافر إلى الولايات المتحدة لمزيد من العلم. أيضاً كان يدرس ويعمل، وتزوج من أمريكية. وحال تخرجه التحق بالعمل في منظمة الأمم المتحدة، حيث صعد السلم الوظيفي قفزاً، وأصبح مديراً في منظمة الغذاء والزراعة وهو في أوائل الثلاثينات من عمره. وقد عمل مدة في أفريقيا وكون صلات واسعة مع زعمائها وفكرها، وتعمقت اهتماماته بأحوال الشعوب السوداء، الأمر الذي ترك أثراً عظيماً في نفسه، وظهت نتائجه في عمله الثقافي في أصيلة.

ثم فجأة، كما أخبرني، استقال من عمله، وكان في أوج نجاحه. قرر أن يعود أدراجه إلى نقطة البدء. اشترى بتمانية آلاف دولار داراً خربة في الحي القديم، حيث ولد ونشأ. أعاد بناءها حسب تصميم صديقه الفنان محمد الملتحي.

حدثني محمد بن عيسى، أنه استيقظ ذات ليلة على طرق حاد وصوت بنادي باسم أمه. قال:

«أدركت فجأة أنني بنيت داراً بجوار قبر أبي، طلق زوجته الأمريكية، وتزوج من سيدة من أسرة عربية في فاس. أنشأ أسرة جديدة وبدأ حياة جديدة وهو في الأربعينات من عمره. وقد ارتبطت رحلته الذاتية ارتباطاً وثيقاً بعمله الأدبي لنهضة إسقط رأسه، ثم بعطائه للمغرب بأسره، بوصفه وزيراً للثقافة»



بقلم الطيب صالح

في كل موسم من مواسم أصيلة، يحدث شيء طريف بلغت الانتباه. في هذا الموسم الثقافي الرابع عشر، حدثت عدة أشياء مهمة. عقدت ندوة عن جذور الفكر العربي المعاصر وأي دور له في المستقبل. واستضيف الكاتب البرازيلي (جورج أمادو)، وهو في نظر الكثيرين واحد من عظماء كتاب الرواية في هذا العصر، ويعتبره البعض. وأنا منهم. أعظم الكتاب الأحياء في أمريكا اللاتينية. وقد ترأس ندوة عميقة الإشارات والدلالات، عن التمازج الثقافي في البرازيل.

وأيضا تم في احتفال كبير تقديم جائزة (تشيكايا أوتامسي) في الشعر الأفريقي، للشاعر (ريني دبستر). هذا بالإضافة إلى ندوة عن المرحوم يوسف ادريس. فلأبدا بالحديث عن تشيكايا أوتامسي.

كنا زملاء في منظمة اليونسكو في باريس طيلة خمس سنوات. تعرفت عليه في أول شهر، فلم يكن التعرف على تشيكايا صعبا. كان نوعا من الناس، يجعلك تحس أنه يعرفك، وانك تعرفه، منذ وقت طويل. لعلني تعرفت عليه عن طريق المهدي المنجرة أو محمد عزيزة أو محمد بن عيسى. كان محمد بن عيسى أول ما يصل إلى باريس، يتفقد أصدقاءه ويجمعهم حوله، ويكون بينهم دائما هذا الشاعر الذي يحمل قلبه على راحتيه، يضحك كثيرا ويطوي ضلوعه ولا شك، على حزن بعيد القور.

أذكره ضيق الصدر بالنظم البسيط وقراءة في اليونسكو، نحن إلى التفرغ لكتابة الشعر. ولعله كان يحلم أن يبني دارا في أصيلة، في الحي القديم، بجوار صديقه محمد بن عيسى. وكان قد أخذ في تعلم اللغة العربية، يتحدثها بلكنة حلوة، ويضحك اثر كل عبارة ينطقها.

لم أكن قد قرأت شيئا من شعره تلك الأيام، فقد كان يكتب باللغة الفرنسية، التي كنت قد بدأت اتعلمها لتوي، لكنني كنت أعلم أنه شاعر كبير، يحظى بتقدير واسع حتى في فرنسا.

يقول محمد بن عيسى في كلمة مؤثرة القاها في رثائه في أصيلة عام ١٩٨٨:

«كالطفل في مواسم أصيلة، كان من الرواد الأوائل، قدم إليها في الموسم الأول راكبا حمارا، حيث لم يكن في أصيلة وقتئذ وسائل مواصلات من محطة القطار إلى المدينة.

قدم إليها بانسانية جميلة ترعرعت مع المواسم. سكن في الفندق الوحيد في السوق. كان يخرج كل صباح ليحمل الماء من البحر حيث لم يكن في الفندق ماء (١٠٠٠). عرفته عن طريق صديقنا المشترك المهدي المنجرة. عشنا معا كل الإفراح والأفراح. بعد ذلك احتل أصيلة. دخل ليسكن بيوتها كواحد من أهلها (١٠٠٠).

وبعد أن اختطفته يد المنية، كان لي ولصديقي المهدي المنجرة بتكليف كريم من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، الشرف في توديعه إلى مثواه الأخير (١٠٠٠) وصاحبنا في «بوانت نوار»، في رحلته إلى المقبرة الحميلة، حيث يرقد جثمانه قرب المحيط. وقال لي صديقنا المهدي أنها امتداد لشاعرية تشيكايا على المحيط الأفريقي من أصيلة إلى «بوانت نوار».

يا له من عمل متحضر حقاً، أن ترسل دولة وفداً رسمياً لتشيع جثمان رجل ليست له أي صفة رسمية. شاعر وحسب. ولا بد أن ذلك أسعد تشيكايا حيث هو في العالم الآخر. لأن تكريم أصيلة للشاعر لم يقف عند ذلك الحد، فهذا العام افتتحت حديقة جميلة تحمل اسم تشيكايا أوتامسي في الباحة أمام القلعة، في احتفال حضره ضيوف موسم أصيلة، وكان بينهم (جورج أمادو). وفي وسط الحديقة شيد نصب من الرخام، حفرت عليه أبيات من شعر تشيكايا. وقبل ذلك أنشئت جائزة للشعر الأفريقي باسمه.

أنني أذكر كل ذلك، أحس بتقدير عميق لدولة المغرب ووزير ثقافتها الموهوب، إلا أنني أحس أيضا ببعض الأسى، حين أفكر أن قليلين حتى في السودان، يعرفون ابن ثوى جثمان الشاعر العبقري التجاني يوسف بشير، الذي يرقد في قبر مغمر في أم درمان، ولم يخطر لأحد أن يسمى شارعاً باسمه أو يفعل أي شيء يمجده ذكره. وقس على ذلك. والثورات تشب وتخدم. فهذا مثل جميل آخر يضربه المغرب الكريم، عسى أخواننا في السودان وفي غيره من ديار العروبة والإسلام، ينسجون على منواله.

هذا، وتقول ندوة عن حياة تشيكايا، في كتيب صدر عن المنتدى الثقافي العربي - الأفريقي بأصيلة، أن تشيكايا ولد عام ١٩٢١ في بلدة «مبيلي»، في الكونغو - برازافيل. وكان والده فيليكس تشيكايا، من زعماء الكونغو البارزين، وكان عضواً في الجمعية الوطنية الفرنسية.

لم يلبث تشيكايا أن هجر الدراسة في فرنسا، حيث وصل عام ١٩٤٦، وأنصرف إلى كتابة الشعر. وكان يعيش من عمله في مهن صغيرة، فعمل خمالاً وبواباً في مطعم وعاملاً في مخزن وعاملاً في مزرعة. وفي عام ١٩٥٥ صدر ديوانه الأول «الدم الفاسد»، يحمل اسمه الكونغولي الخالص الذي عرف به، «تشيكايا أوتامسي». بدلاً من الاسم الأوروبي الهجين «جيرالد فيليكس تشيكايا»، وهو عمل، على بساطته، يلخص روح الشاعر، في حياته وفي شعره. الحنين إلى الجذور والتسرد على التزييف والوجه المستعار.

ظل يكتب الشعر، ويعيش كيفما اتفق، لا يبالي أي حرفة يحترف. وسرعان ما ظهر ديوانه الثاني «نار الأدغال»، الذي أحدث صدى كبيراً. وفي عام ١٩٦٦ نال جائزة الشعر الكبرى في المهرجان العالمي للفنون الزنجية بذكاء، على ديوانه «موجز: مداخل فهرست العشوق».

ترجم شعره إلى لغات عدة ورشح أكثر من مرة لجائزة نوبل. وحين فاز بها الشاعر النيجري وولي شويكا عام ١٩٨٦، قال أنه يعتبر تشيكايا أوتامسي شريكاً له في الفوز ■

(للحديث بقية)

أصغر



بقلم الطبيب صالح

في قصيدة رائعة تهز
الوجدان بحق، يقول الشاعر
الكبير بلند الصيدري في رقاء
تشيكاي أوتامسي:
يا من أخيت بوضحك كل
الأرض
لا تفض
فاصلة قد كثرت... صارت
أجمل من كل صباحا
الدنيا
وأصيلة أذ نحيا... نحيا
صارت تفهم سر الدمعة
والضحكة في عينك
وصارت تعرف من قطع كل
أصابعي العنبر
ومن القى في النهر يغري
ومن داس رؤيا
صارت تكتب شعرا... ترسم

تعرف كيف تغني ولين ستغني
حفظت كل حكايات الانبي
وكل حكايات الجن
وصارت شيئا منك وشيئا مني
وصارت تعرف ان العم تشيكاي من بعض صباحا
تؤمن ان تشيكاي لن ينساها
لكن تشيكاي
لوح لي ولها ومضى في العتمة حتى اقصى
أمداءها.

ما أجمل قوله «صارت شيئا منك وشيئا مني»، وذلك كما
ينبغي ان يكون، وقد صدق الشاعر. بل انني لا اعرف مدينة عربية
تعرضت لما تعرضت له «أصيلة» من ثقافة وفكر وفن. وإذا تجد
عواصم عربية كبرى لا يميز أهلها هل أنت من اليمن أو عمان أو
السعودية أو السودان، ها هنا، الناس في الأسواق والمقاهي
والفنادق، يعرفون الكتاب والشعراء والفنانين باسمائهم. هؤلاء
الشباب والشابات الذين يستقبلون الضيوف ببشاشة لا تكلف
فيها، ويرتبون شؤون اقامتهم وتنقلاتهم، ويعملون بسعادة
واضحة، ويسألون ويحاورون ويناقشون، كانوا أطفالا حين شرع
محمد بن عيسى في تجربته الرائدة. كبروا الآن، وكبرت البلد
معهم. بعضهم في الجامعات، وبعضهم تخرج وشق طريقه في
الحياة. وبعضهم يواصل دراسات عليا في جامعات المغرب وخارج
المغرب.

وكلهم يذكر تشيكاي أوتامسي، الشاعر الكنفولي، ذا الوجه
الابنوسي التوسيم، الذي كان السبوات مسته برفق، فلم تجرحه
بمخالبتها القاسية كما تفعل. الشعر واللحية وخطهما الشيب،
والعينان العميقتان مغروقتان بالاحزان.

وقيم الاحزان؟
يقول الكاتب الموهوب شربل داغر في كلمة جميلة مؤثرة عن
تشيكاي:

«الآن انه كان لا يني عن القول ان الشاعر مثل السلحفاة «بيته
على ظهره». كان يقول، ويعني ما يقول، ان وطنه أينما ينتقل، أي
صورة الوطن فيه، أي غربته،

هذا يذكرني بتعبير إمام المغترين، جيمس جويس:

«يا جني الأول والأخير، يا أولندا،

القسيس بك والقسيس،

مثل البد في القفار،

أنتي لن أدعن،

لكن هذه الترجمة، لا تحيط بالمرامي الشاسعة في عبارة

جيمس جويس: I shall not serve

نحو أفق بعيد

١٣٧

يقصد، لن أدعن ولن أروضع ولن أهدأ ولن أقبل ولن أعمل ولن
أنسى ولن أسلو ولن أغفر ولن أهمل ولن أنجب ولن أحضر ولن
أقطن ولن أسكن، وهلم جرا.
كذلك كل شاعر مع وطنه، وكذلك كان حال تشيكاي مع الكنفو.
نعود الى حديث شربل داغر الحصف عن تشيكاي أوتامسي:
«حمل الكنفو معه، على ظهره، بصفته، الدم المتشطر، الدم
الأسود! تصاحبه دقات طبل زنجي بعيد، مثل أصوات الليل تنفقها
دون جدوى، مثل صباحات الخيبة الدامية (...) الإنسان ينسى،
يتناسى، يتحائل أو ينضح، اما الشاعر فيتعب ولا يغفر أبدا.
قد لا يكون الشاعر مشاء أو أعمى، إلا انه كائن حزين مؤكدا،
حزين لما جرى وللازدياح الحاصل بين... وبين... كان حزينا دون
هوادة مثل سبه منطلق،

ان شربل داغر يعرف ما يقول، وإذا تحدث عن تشيكاي فعليا
ان نهدف السمع. هذا الشاب اللبناني الموهب هو نفسه من بركات
«أصيلة». ثمة تعرف على تشيكاي، وأحببه وأحب شعره، وترجم عن
الفرنسية ديوانه «دم فاسد»، كما ترجم مختارات من الشعر الزنجي
سوف تصدر قريبا. وهو أمر مفرح طال انتظاره في عالم العربية
الذي يصدق فيه قول شاعر الليل:

أمة تـد فـت في سـاعـدا

يـفـتـنـها الأمل وحب الفـتـراء
والرثـنـة والافارقة، اهلکم ونووا ارحامکم اکثر مما تتصورون!
هذا وقد حاول تشيكاي ان يستقر في الكنفو، ولكنه لم يفلح.
وهجره اثر الأحداث المساوية على عهد باتريس لومومبا. ومنذ عام
١٩٦٠ عمل في منظمة اليونسكو التي ان احتل الى التقاعد قبل
وفاته. وكان ذلك من مائر احمد مختار أمبو، مدير عام اليونسكو
السابق، الذي فتح أبواب المنظمة لمبدعين ومفكرين من افريقيا وبقية
اقطار العالم الثالث، كانت مغلفة في وجوههم قبله. وهو رجل
يصدق فيه قول الشاعر القديم:

أصاعوني وأي فتى أصاعوا

ليـسـوم كـرـيـهـة وسـدداد شـر
هكذا ترى يا أصلحك الله، ان مبعث حفاوة محمد بن عيسى
بهذا الشاعر الكنفولي الشابة، بالإضافة الى التقدير والمحبة، ولكن
أيضا لتحقيق غاية نبيلة ما أكثر ما تحدثوا عنها ولم يفعلوا شيئا،
الا وهي شد العرى بين افريقيا السوداء والعالم العربي، عرى الروح
والفكر والثقافة والفن. وهي بحق قارة شقيقة لعالم العرب، وتلقى
منهم ما يلقي الأشقاء. في غمرة هذا الاهمال، لا يملك المرء الا ان
يزجي الخناء لدولة المغرب ووزير ثقافتها الذي انشأ في وقت مبكر
ضمن موسم «أصيلة الثقافي» «المنتدى الثقافي العربي - الافريقي»،
ويشترك في رئاسته الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سغور والأمير
المفكر الحسن بن طلال ولني عهد الأردن. وكان شيكاي من أعضائه
الذين اسهموا فيه بحفظ وافر.

اسمع يا صديقي ان استطعت، مناجاة خليلك الشاعر العربي،
الذي هو أيضا، يحمل وطنه على ظهره:

«ما زالت في مقهانا الساهر حد البحر زوايا

تسالنا عن وعد آخر

عن باقة شعر

عن قصص وحكايا

عن بيت في غابات الكنفو عن نهر يشدو لرباه

تسالنا ان لا ننسى موعدنا القادم في الصيف القادم

تسالنا عن غربتنا البقلى في الزمن النائم

عن ألم أسود نحيا

ونابي ان نرت في لجة مرماة.

أخيلك طربت لقوله «تسالنا عن غربتنا البقلى في الزمن

النائم، بل، لقد أحس، وأنه لأمر عسير كما تعلم، ان نصحو

والزمن معتل ومختل ومملوخ... ونائم ■

(لحديث بقية)

نحوافق بعيد

مراجعة



بقلم الطبيب صالح

حين تقابل (ريني دبستر) لأول مرة، تدهش لسببين على الأقل. لا تجد شاعراً كما يتخيل الناس الشعراء، ولكنك تلقى انساناً وديعاً يحتضن احزانه بجلد كسا ترضن النباتات الصجراوية بالماء.

كنا في مبنى واحد في منظمة اليونسكو في باريس، في عمارة «ميوليس»، هو في الطابق العاشر وأنا في الطابق السابع. رايت رجلاً مثل عرب موريتانيا او السودان او اليمن، أسود سجاذاً، لانه هو ظل يؤكد في شعره انه زنجي. ولان الأوروبيين لا يرون من الألوان غير البياض والسواد. الله اعلم من اين جاءه هذا اللون، كما يتعادل الشاي مع

الحليب مناصفة. خافت الصوت، وقور الحركات. ولكن النظر الى العينين. ثمة يكمن الشعر. الحزن، نعم، لا مفر من الحزن في عيني الشاعر الحق. وايضا اشياء اخرى. الكبرياء، والرفقة والاقدام والاجام والحكمة والجنون، وما شئت.

... الا انني، مصاباً بحالة الشعر، كنت ابني بيتي قرب عصفور من الفردوس، حتى ان منحدراتنا ونيراننا تتلاصق. كنت استمع في المساء لصديقي يطلب من رفيقة عشه اعداد حمام من الهرمونات الطازجة له. كنت اقبال مع هذا اللثائي يرتقلا واجنحة وصورا بذينة وقصص الساحرات. كان يحدث لنا نحن الثلاثة بعد ظهر احد نهارات تشرين الاول، ان نرسم بالازرق احزان شجرة الليمون الحامض الصديقة.

هذه الشراسة المبهدة لا تراها في عيني الشاعر من اول نظرة. شيكايا اوتامسي كان شاعراً كما يتخيل الانسان الشعراء، متدفقاً حوله مثل عباءة فضفاضة. كان يضحك قهقهة، ويلعن منظمة اليونسكو علناً، ومع انني لم اره يبتكي، فاني اتخيل انه كان يبكي بسهولة. اما هذا الشاعر الهاييتي، فهو بخلاف ذلك، من فصيلة محمد المهدي المجذوب.

لم ينبلع الفجر بعد في البيت والحنين مستلق الى جاني
بنام. يستعيد قواه.
ذلك ان مصاحبة زنجي
متعدد ورومانسي متعة

له خمس عشرة سنة او الف عام.
او ولد للتو.
وما هو نومه الا.
تحت السقف نفسه مع قلبي

منذ خمس عشرة سنة او منذ قرنين
استيقظ من دون ان احسن التحدث
بلغة شعبي.
من دون صباحات اربابها الوثنيين.
من دون طعم خبزها من شتلة (المانيهوت)

منذ خمس عشرة سنة او منذ عبور
دمي للبحر باكبيا.
الحياة الاولى التي احببها عند استيقاظي.
هي هذه المجهولة ذات الجبهة النقية
التي تستمير عني ذات يوم
من فرط استعمالها لعينيها الخضراوين
وتعدادها للكنوز التي اضعتها.

هذا، وقد جاء في كلمة محمد بن عيسى وزير الثقافة المغربي، في حفل تقديم جائزة شيكايا اوتامسي الى ريني دبستر قوله: «الفائز علم في سماء هذا الشعر، بعد ان نشر ما يزيد على عشرة دواوين وعددا من القصص والروايات والبحوث النقدية، وقد حظيت في حينها وحتى ابانها هذه باهتمام النقاد والقراء، حتى ان جائزة (رينودو) المرموقة كرمته في عام ١٩٨٨ (٢٠٠٠).

الشاعر الفائز هو شاعر الحرية قبل اي شيء، وقد عانى من عذابات المنفى والسجن بعد ان طمع بعد افضل ومشرق لشعبه كما لشعوب القارة السمراء. بهذا الاحتفال نجتمع بين شيكايا اوتامسي وريني دبستر، وبالتالي بين اطراف افريقيا حينما كانت في العالم. كما اننا بتكريمه نسلط الضوء على رافد مهم في الشعر الزنجي. الافريقي، وهو القصيدة السوداء خارج افريقيا.

بدشتك ايضا ان ريني دبستر من (هاييتي) ذلك البلد الذي حوله الروائي الانجليزى (جبراهام جرين) الى مبهزلة في روايته (الكوميديون)، حكمه الدكتاتور السفاح (بابا دك) بخلط من السحر البدائي والدهاء الشيطاني وسفك الدماء بلا ادنى رحمة بواسطة زبانيته ال (تون تون ماكوت). وسار ابنه (بيبي دك) على طريقه الشنع. ولعلك تعجب كيف ان شاعراً كبيراً مثل ريني دبستر خرج من بلد مثل (هاييتي). وقد بخطر لك ان (هاييتي) قطر تافه. تكون مخطئاً، وتذكره ان شعب (هاييتي) كان اول شعب اسود يتور ضد الاستعمار الاوروبي ويقدم جمهورية مستقلة عام ١٨٠٤. وحين نمنع النظر في شعر ريني دبستر، يتأكد لك انه لا يوجد شعب تافه. يوجد بعض الحكام التافهين احياناً.

ثمة ولد الشاعر عام ١٩٢٦، وقد اصدر ديوانه الاول (شرارات) وهو في التاسعة عشرة من عمره. وبعد ان لعب دوراً بارزاً في مقاومة النظام الديكتاتوري قرب الى كوبا، حيث قام قرابة عشرين عاماً. ومن ثم سافر الى باريس حيث التحق بعد فترة بمنظمة اليونسكو، وقد عينه المدير العام احمد مختار امبو بمكتبه الخاص اول الامر، ثم عمل الى ان تقاعد عام ١٩٨٦ في قسم الثقافة. كان مكتبه في الطابق العاشر في عمارة (ميوليس) حيث سعت الى التعرف به.

بدا لي رقيقاً بل شتاً وانا احاوره في ذلك الصباح، وارهف السمع الى صوته الخافت، لكنني كنت اعلم ان مظهره الوبيع مظهر خادع، وان وراء ذلك ارادة مثل الفولاذ المطروق. والا فمن اين يجينه مثل هذا الشعر؟

المسكين دبستر
قال رجل ذو عينين زائغتين
لماذا مسكيناً؟
ليس العيش بعيداً عن الوطن
مصيبة الا لمن فاتهم قطار الطفولة الازرق
قطار ايامي البهيجة
استقله دائماً كل صباح
على اصغر قشة

اسافر باستمرار طوع جذوري
حدائقي رطبة من قملاتي الاولى
عجلاني ومرارحي وصوارخي
تعرف دروب الشعر السرية
انها نهاية الرحلة
ليبق الجميع في الفطار
بما بعد حدود حياتي
تبقى مطاقات السفر صالحة
الفجر والغروب يسطآن بفرح تحت قدمي
جزراً اكثر استدارة من الحنين.

ترجم هذه القطعة لريني دبستر وشعره المذكور في هذه المقالة، عن الفرنسية الكاتب اللبناني شربل داعر.
(للحديث بقية)



بقلم الطيب صالح

حين يقرأ العربي أدب أمريكا اللاتينية، يدخل عالماً غريباً ومألوفاً لديه في الوقت نفسه. كأنه ينظر إلى نفسه في مرآة. كأنه يكتشف أشياء في ذاته كان قد نسيها. هذا لا يحدث له حين يقرأ الآداب الأوروبية.

في أدب (أستورياس) و(بورخيس) و(فوتس) و(أمادو) عوالم مثل عالمنا، تزخر بالحسوبة وتعج بالتناقضات، الإنسان الفرد لا يتقصه الذكاء ولا سعة الخيال، ولا الطاقة على العمل.

ومع ذلك تجد المجتمعات على وجه العموم أقل من حصيلة قدرات الأفراد، في حالة غليان مستمر، لا تكاد تستقر على حال. ونحن نشترك وإياهم في التجربة الاستعمارية، والتراث العربي الإسلامي الذي أخذته إلى هناك، الإسبان والبرتغاليون.

أمريكا اللاتينية مثل أفريقيا، تهتمنا لعدة أسباب، ولا نعرف عنها إلا القليل. لذلك كانت دعوة محمد بن عيسى للكاتب البرازيلي الكبير (جورج أمادو) إلى أصيلة، مبادرة من مبادراته البارعة.

هذا عملاق من عمالقة فن الرواية في هذا العصر. ولد عام ١٩١٢ في مقاطعة (باهيا) في الشمال الشرقي من البرازيل، وهي المنطقة التي تجري فيها أحداث كل رواياته. وقد التحق عام ١٩٣١ بكلية الحقوق في (ريو دي جانيرو) لكنه لم يلبث فيها طويلاً، فقد قرر أن يتفرغ للأدب بعد نجاح روايته (أرض الكرفال) التي صدرت في العام نفسه. وفي عام ١٩٥٨، تأكدت شهرته حين نشر روايته (قابر بلا - القرنفل والقرفة)، وهي رواية دأبت ذيوعاً واسعاً حين ترجمت إلى اللغة الإنجليزية. أنتج بغزارة، وزادت شهرته ذيوعاً، فقد حول كثير من أعماله إلى أفلام ومسلسلات تلفزيونية، وربما يكون هذا هو السبب أنه لم ينل جائزة نوبل إلى اليوم، فقد ظل اسمه يتردد كمرشح لها منذ عام ١٩٦٢.

بلغت النظر في أدب (جورج أمادو) اهتمامه العميق بالتأثير الزنجي في البرازيل، حتى لتحسبه كاتباً أفريقياً مثل (أشيبى) أو (نقوى). بل هو في الواقع أكثر زنجية من بعض الكتاب الأفارقة الذين يكتبون باللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية. تجد ذلك واضحاً في روايته (جويابا) ثم في روايته (خيمة المعجزات ١٩٦٩). وتعتبر روايته (الموت مرتين لكونكاس ووتريل - ١٩٦٥) من روائع الأدب المعاصر.

تجد في أدب (جورج أمادو) أن إرادة الإنسان تنتصر على ظروفه، وأن بوسع الفرد أن يرتفع فوق عقبات الحياة التي تبدو مستحيلة أحياناً. وكثيراً ما تحدث المعجزات. وعالمه عالم متسامح، يغفر للناس أخطاءهم. قد تتحول فيه المرأة الساقطة إلى قديسة. وقد ابتدع

الكاتب نماذج لا تنسى، كما في روايته (تيتادو أفرستي) لنساء تغلن ببسالة على ظروفهن البالغة التعاسة، وأصبحن ذوات هيبية ونفوذ في المجتمع.

بلغت النظر أيضاً في أدب (جورج أمادو) أن العربي عنده ليس انساناً مخادعاً خبائناً غادراً جشعاً إلى آخر هذه الانترابات التي تعودنا عليها في كثير من الأدب الأوروبي والأمريكي. وهو في أسوأ الظروف إنسان عادي كبقية خلق الله، عنده القدرة على فعل الخير والشر. بل أنه يفخر بأنه ينتمي إلى التراث العربي الإسلامي الذي نقله البرتغاليون إلى البرازيل، وأن ذلك جزء من تكوينه الروحي، ويقول أن تاريخ إسبانيا والبرتغال، لا يمكن أن يفهم على الوجه الصحيح إلا بالرجوع إلى تاريخ العرب في الأندلس.

قل أن يسمع العربي مثل هذا الكلام من كاتب أوروبي أو أمريكي. لذلك أقول أنها كانت مبادرة موفقة من محمد بن عيسى أنه دعا (جورج أمادو) إلى أصيلة، وعقد ندوة عن التمازج الثقافي في البرازيل ضمن نشاط (جامعة المعتمد بن عباد الصيفية). إلى ذلك، نظم له وزوجته ومرافقيه جولة زاروا فيها طنجة والدار البيضاء وفاس ومراكش. في مراكش خاصة وجد (أمادو) ملامح واضحة للعالم الجديد الذي يدعو إليه، ويجد فيه خلاص الإنسان، مراكش تلك المدينة الحمراء الفريدة، بموقعها بين أفريقيا الزنجية ودينا العرب والبربر وأوروبا إلى الشمال. وذلك الخليط البشري الجذاب المتعدد السحن والألوان.

كان هذا الكاتب العظيم حقاً مخلصاً حين قال لنا في أصيلة، أنه يعتبر أمريكا اللاتينية امتداداً لأفريقيا، وأن المحيط الأطلسي ليس حاجزاً بينهما، وأن بوسع الإنسان أن بلغى وجوده في خياله. وذهب أبعد، فدعا أن يغير اسم أمريكا اللاتينية إلى (أفريقيا اللاتينية).

وجد (أمادو) في المغرب أشياء كثيرة حركت وجدانه وأثارت خياله، وأكدت له صدق ما يدعو إليه. فهم أكثر من الاختلاط والتمازج وتوالد السلالات وتلاقح الأفكار والأخذ والعطاء بجرأة نادرة المثال، كل تلك أمور تميزت بها الحضارة العربية الإسلامية. بل هي أهم ما أعطته للتراث الإنساني. وإن بدا اليوم أننا ننحو نحو التطرف بدل الاعتدال، والتزمنا بدل التسامح، والجمود والصغار عوض الأفاق العقلية والروحية الشاسعة التي فتحتها العرب والمسلمون في تاريخهم، فما ذلك إلا لأننا نهنا عن منابع الصافية، وشربنا من أبار موبوءة المياه.

بلى، وقد صادف وجود (جورج أمادو) في أصيلة، بلوغه التاسعة والسبعين من العمر، فنظم محمد بن عيسى احتفالاً بالمناسبة كأنه عرس، انعكس ضوء الشموع على مياه النوافير في صحن قصر الثقافة الجميل. أنشدت جوقة الموشحات الأندلسية كما كانت تفنى ولا بد أيام محمد العرب في الأندلس. رقصت بنات أصيلة في ثيابهن المغربية الأخاذة. وجود عربية وبربرية وأوروبية وزنجية، ووجود مزيج من كل ذلك.

رأيت عيني الكاتب الكبير تفيض بالدمع، ولا أظن أنه سوف ينسى أبداً ■

(المحدث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٠



بقلم: الطيب صالح

والتمازج. أنجبوا أطفالاً غير شرعيين من النساء الزنجيات ونساء الهنود سكان البرازيل الأصليين. كان هدفهم إنتاج مزيج من الرقيق للعمل في حقول البن وقصب السكر. إلا أن هذا العنصر الخلاسي المولد جاء أكثر حيوية من البرتغاليين وأكثر ذكاء، بل وأكثر جمالا ووسامة، فلم يستطيعوا أن يفرضوا سيطرتهم عليه مدة طويلة.

والحق، أن ما حدث في البرازيل وفي أماكن أخرى. نوع من المفارقة الحادة التي مايفتا يقدمها لدعاة التفوق العرقي والتفرد الحضاري. ظل البرتغاليون منذ عام ١٥٣٢ يجلبون إلى البرازيل الأنثى من الزنوج الأرقاء من غرب أفريقيا، من قاصبيا وسيراليون ومالي وساحل العاج وساحل الذهب وخاصة من أنجولا التي استعمروها ربما لهذا الغرض. وكان كثيرون من هؤلاء الأرقاء، كما يقول كاتب إنجليزي مسلمين يعرفون القراءة والكتابة. وكانوا أكثر رقياً وتحضراً من ساداتهم البرتغاليين الذين كانوا أميين في الغالب.

وكما حدث للعنصر الأوروبي في أماكن كثيرة بدرجات متفاوتة، فقد عاش البرتغاليون في البرازيل النساء الزنجيات وأنجبوا منهن مزيداً من الأرقاء. ولكن هذا العنصر الجديد كما قال جورج أمادو، خرج يحمل جينات، أكثر صلابة، ومصابة على الحياة لا يملكها أسياهم البيض. وكان حتماً أن يفقد البرتغاليون وضعهم المميز، ويذوبوا في هذا المحيط البشري الهجين. يقول جورج أمادو:

«في الموسيقى مثلاً، حين تستمع إلى هيتور فلأ لويوس، أو إلى ملحنين أمثال دورفال قايني، وكايتانو فلوسو، وقلبرتو جل، تجد الأثر الأفريقي واضحاً. بلادنا فيها ثلاثة روافد ثقافية كبرى: البرتغالي الأوروبي الأبيض. رغم أن البرتغاليين ليسوا بشخصاً تماماً. والأفريقي والمحلي. الثقافة البرازيلية هي جماع كل هذا. ثقافتنا صنعت في الفراش».

بدأ البرتغاليون تحرير الرقيق، بتحرير أنبائهم من أمهات مسترققات. وقد أصدروا عام ١٨٧١ قانوناً أطلقوا عليه اسماً عجيباً هو «قانون الرحمة الحرة». ولم يكن ذلك بدافع إنساني، ولكن لأن أسعار السكر في العالم كانت قد هبطت إلى مستوى جعل الاحتفاظ بالرقيق العاطلين في مزارع القصب أمراً باهظ التكلفة. وفي عام ١٨٨٥ أصدروا قانوناً بتحرير الرقيق فوق سن الستين. وفي عام ١٨٨٨ صدر قانون شائل

بتحرير الرقيق. في ظل هذه الظروف القاسية نشأ كتاب وشعراء عظام من أصل زنجي، منهم الشاعر «كروزو داسوزو»، والكاتب الروائي «الفونسو هنريك دي ليمبا بارتو»، الذي تعالج أعماله مشكلة الاضطهاد العنصري الذي تعرض له الزنوج والمولودون في مجتمع يعتبر نفسه أوروبياً. لا تيباً. وتعتبر روايته «المصير المحزن لبوليكاريو كوارسما». ١٩١١، علامة هامة في تاريخ الأدب البرازيلي. وفي روايات «قلبرتو فريري»، تأكيد على عمق التأثير الأفريقي في الأدب البرازيلي، كما في روايته «السادة والعبيد». ١٩٣٣. وهو مولد من الإقليم الشمالي الشرقي وهو الإقليم نفسه الذي جاء منه «جورج أمادو». وتجدر الإشارة إلى شاعر مولد من أصل عربي هو «كارلوس نجار»، يحظى بشهرة واسعة، ومن مؤلفاته «قنعة للمواسم». هذا، ويقول العالم الكبير الدكتور عبد الله الطيب في إشارة جميلة إلى بيت عنتره العبيسي:

بركت على خبث الرذاع كأنما
بركت على قصب أجش مهضُم

يقول أن عنتره كأنما كان يصف صوته، ذلك لأن الناقة حين بركت على القصب أحدثت صوتاً كما تنفخ في مجموعة من النايات. نعم، بوسعك أن تسمع في هذا البيت، وفي كل شعر عنتره الخافل بالنبل والشجن، صوتاً كصوت المغني الأمريكي الزنجي العظيم «بول روبسن». هذه الأعماق والأبعاد جاءت إلى عنتره من أرته العربي الزنجي.

ذلك أيضاً تجده في أدب «جورج أمادو». هذا الإنسان الأوروبي الذي يحمل روحاً زنجية. الكاثوليكي الذي يحتفي بترات الإسلام. الأبيض الذي يتمنى لو كان هجيناً. المواطن البرازيلي من «باهيا» الذي اكتشف أشياء يعرفها ويحبها في «أصيلة»، في المغرب. يقول:

«سوف يمضي الأدب البرازيلي في طريقه وفيما لخصائصه الأساسية ومحافظاً على التزامه بقضايا عامة الناس. في أدبنا وحدة عريقة منذ عهد شاعرنا العظيم «فريغوريو دي ماثوس». ذلك الرجل المولد من «باهيا». لقد قاوم الاستعمار البرتغالي، وحتى في تلك الظروف العصيبة، رفع لواء الحرية وحارب في سبيلها. هذا التراث الذي وصل إلينا اليوم، يؤكد أن الأدب البرازيلي كان دائماً في خدمة عامة الناس» ■

في حوار أجري معه في باريس عام ١٩٨٧ قال «جورج أمادو»:

«أنا كاتب بسيط من (باهيا). لا أعرف كيف أرقص أو أغني أو أقود السيارة. فقط أكتب. وأنا أكتب عن الأشياء التي أعرفها. أخذ من تجارب حياتي. منذ بدأت أكتب وأنا صبي، كنت أحس بتعاطف تلقائي مع الطقوس الأفريقية. وما زال. في البرازيل تعرض العنصر الزنجي والثقافة الزنجية إلى اضطهاد عظيم من قبل الكنيسة الكاثوليكية. كانوا هدفاً لضروب وحشية من الاضطهاد. اضطهاد على أساس العرق والدين والطبقة. وأنا كواحد من الذين قاوموا الاضطهاد باستمرار، فأنني أقف في صف عامة الناس. أقف في صف الثقافة الزنجية، في صف الجماهير الزاخرة التي يتكون منها الشعب البرازيلي».

في «أصيلة»، في شهر أغسطس الماضي، قال أمادو أن البرازيل أصبحت اليوم مثلاً يحتذى في التعايش السلمي بين مختلف الأجناس، والتمازج الخلّاق بين الثقافات. وقد سألته كيف حدث ذلك، ولماذا في البرازيل بالذات، فقال:

«أنها معجزة». وبعد أن فكر قليلاً أضاف: «البرتغاليون رغم أي شيء، أمتازوا عن الأسبان والانجلوسكسون باستعدادهم العظيم للاختلاط

نحو أفق بعيد

١٤١



بقلم الطبيب صالح

ليتني كنت شاعراً مثل غازي القصيبي. إذا قلت شعراً في هذه المناسبة، ما أسرع ما تمر الأعوام. تغمض وتفتح فإذا عشرة أعوام، فإذا عشرون عاماً من عمرك قد ذهبت، لا تدري إلى أين وكيف ذهبت.

وتخيل اليك أنك أنت أنت. ولكن هيهات. أنني أذكر قصيدته الجميلة بمناسبة زواج ابنته. كان يتحدث بلسان الآباء جميعاً. كان سعيداً وكان حزينا، وهو يكون في أحسن حالاته حين يتأرجح بين السعادة والحزن. الفرح لأن البنت قد كبرت وتزوجت، ولكن ماذا حدث لسنوات العمر؟ الطفلة شبت عن الطوق وذهبت إلى كنف رجل آخر. ولعمري أن في سررات الحياة المشوبة بالأحزان، كعندها دائماً مشوبة بالأحزان، ما يغني الشعراء، خاصة الكبار منهم، عن مزلق الهجاء.

كنت وزوجتي نحضر حفل التخرج في كلية «قولد سميث» التابعة لجامعة لندن. لأن ابنتنا الكبرى (زينب) كانت بين المتخرجين. نادوا على اسمها فخرجت من بين صفوف الطلبة والطالبات في عباءتها الجامعية السوداء، والقبعة المستطحة ذات الذيل الذي يتدلى على الجانب. الفرح، نعم، كما أحسن غازي القصيبي. شئت على المنصة واثقة الخطو، فيها طيبة السودانيين وعناد الاسكتلنديين، صافحها رئيس الجامعة وابتسم لها. يا سبحان الله. هل هذه طفلة الأمس التي نعرفها؟ كان بين المتخرجين أيضاً ميسون ناصر، ابنة صديقنا نديم ناصر وزوجته مديحة المدفعي. كنا زملاء في هيئة

الإذاعة البريطانية. منذ متى ما أسرع ما تمر الأعوام.

إنما ليس هذا موضوع حديثي. كنت أفكر طوال الاحتفال الذي استمر نحو ساعتين، أفكر وأقارن وأسائل نفسي، لماذا هؤلاء القوم على ما هم عليه، ولماذا نحن على ما نحن عليه؟ ما هو الذي عندهم وليس عندنا؟ الذكاء؟ نحن ما شاء الله لا ينقصنا الذكاء. القدرة على العمل؟ في تاريخنا أدلة كافية على قدر استطاعتنا. الطموح؟ لعلنا أكثر طموحاً مما يجب. الحكمة؟ ربما يكون هذا. لعلهم أكثر منا حكمة.

بدأ الاحتفال بأن عزفت الأبواق من موسيقى «مادل»، وسارت المواكب، موكباً في إثر موكب. موكب الرئيس، ثم موكب العمد. عدة «لويشام»، عمدة «برفلي»، عمدة «كرويدن»، عمدة «لاميث»، عمدة «مكسلي». كل هذه مناطق في لندن لها صلة قديمة بهذه الكلية التي أنشئت أصلاً لخدمتها، موكب تثير خيالك وتدهش سمعك وبصرك. الموسيقى تصدح، وكل عمدة في زيه المميز، أمامه ووراءه حاشية يحملون شارات سلطانه العريقة التي توارثوها منذ قرون. كل شارة لها مغزى في ذاكرة الشعب، وكل خطوة لها معنى، فكان الزمان الذي ذهب لم يذهب سدى، وكان الماضي، تعاد صياغته في الحاضر ويمتد إلى المستقبل.

الحكمة، نعم، لعلهم أكثر حكمة منا. ساروا بتؤدة محسوبة على أنغام موسيقى «مادل»، موكباً في إثر موكب. موكب الأساتذة وموكب الرؤساء الفخريين. وارتقوا صفاً صفاً فوق المنصة.

تحدثت أولاً عميد الكلية «برفسر اندرو رذر فوردر» ولكنه اسكتلندي واضح، وأنا من زمن أحمل إعجاباً خاصاً بالاسكتلنديين. ناظر مبرسنا في وادي سيندا، مستر فاركسن لأنج، كان اسكتلندياً. كان مريباً فاضلاً. يعجبني فيهم أنهم قبائل مثل العرب، وأن طبعهم فيه سماحة مثل العرب، وهم كرماء عكس ما يروج عنهم الإنجليز. وموسيقى «القر» عندهم مليئة بالشجن خلاف موسيقى بقية أوروبا. وقد أخذها عنهم، وأجاد فيها الجيش السوداني والجيش الأردني. وكانت فرقة الموسيقى في الجيش السوداني يضرب بها المثل، تعزف موسيقى القر كما تعزف في اسكتلندا. لا بد أنهم بعثروها الآن، كما خربوا سكة الحديد وجامعة الخرطوم والخدمة المدنية. وكسروا محطة السكة الحديدية في الخرطوم، وسوق الخضار وسوق اللحوم، بحجة أنها من مخلفات الاستعمار متى يفهم هؤلاء القوم أن الأشياء الحسنة التي تركها الاستعمار

هي ملك للشعب.

سير «والتر سكوت» صاحب روايات «ويفرلي» اسكتلندي، والشاعر العبقري الصعلوك «روبرت بيرز» اسكتلندي. أنه صاحب الأبيات الشهيرة التي اصنعت أغنية دانتة.

إذا انسان
قابل انساناً
سائراً في حقل الشعير،
إذا انسان
كلم انساناً

فهل لا بد أن يني ذلك الانسان
كل النبات يغازلني بعبونته،
وأنا أسير في حقل الشعير.

ولا يخفى أن الانسان الذي كلمه الانسان، ليس انساناً بل انسانة. وقد اقتبس الكاتب الأمريكي «آر. دي. سالجر» من هذه الأبيات، عنوان رواية الشهيرة «صباح في حقل الشعير». وقد ترجم بعض أخواننا كلمة Rye إلى «شوفان». وأنا شخصياً لا أعرف «الشوفان»، ولم أره، وما أظن إلا أنه «الشعير»، فكله عند العرب «شعير».

ذاك «روبرت لوي ستيفنسن» صاحب رواية «جزيرة الكنز» اسكتلندي. و«هارولد ماغفلان» آخر نهضة حكاه بريطاني اسكتلندي. وفوق هذا وذاك «توماس كارلايل» الكاتب الشجاع الذي أنصف نبينا الكريم في زمن عز فيه الانصاف، اسكتلندي.

هكذا أحببت الاسكتلنديين إلى حد أن صار لي عندهم صلة ورحم، فهل أنا في ذا يال همدان ظالم!

بلادهم ذات طبيعة ساحرة، تتخللها البحيرات والخلجان التي يسمونها «لنجر»، واحدها «لنج»، فهم ينطقون حرف «الخاء» مثل العرب. وقد كانوا فقراء مدفعين إلى عهد قريب، حتى وجد عندهم البترول والغاز في بحر الشمال، لذلك هاجروا زمراً وتفرقوا في البلاد فشب لديهم حين قوي إلى موطنهم الأصلي يظهر في أغانيهم كما عند اللبنانيين. وفي طبعهم ميل عظيم إلى العدل الاجتماعي ومناصرة المظلومين، وغالبيتهم العظمية تؤيد حزب العمال.

حاربوا الإنجليز حقاً قبل أن يتحدوا معهم، وعاصمتهم «أدنبرا» بقلعتها الضخمة ومعمار مبانيها الذي يمتد إلى القارة الأوروبية أكثر مما يمتد إلى الجزيرة البريطانية، تشهد على صلابتهم وقوة مراسهم.

جامعتهم الأولى، في «سانت أندروز»، لا تقل عراقية عن «أكسفورد» أو «كامبريدج»، وصحيفتهم «ال«سكسيمان» أكثر صحف بريطانيا رصانة، وأكثرها عدلاً وانصافاً في النظر إلى شؤون العرب ■

لتحدث بقى

نحو أفق بعيد

١٤٢



بقلم الطبيب صالح

مباني كلية «قولد سميث» في منطقة «نيو كروس» العمالية في جنوب شرقي لندن، مثل البنت الجميلة التي تستعني بشبابها عن الحلي والثياب الغالية. عطل من الأبوة التي تفحصك في مباني الجامعات العريقة، مثل «أكسفورد» و«كامبريدج». تلك مؤسسات قامت في عهود الاقطاع وغلبة الطبقة الارستقراطية والكنيسة، ففي معمارها أصدا من ذلك، انما جامعة لندن فهي وليدة علو نجم الطبقات العاملة، وكلية «قولد سميث» خاصة، يرتبط تاريخ مولدها ونشأتها بالتحويلات الاجتماعية الكبيرة التي تعرض لها المجتمع البريطاني منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم.

مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي أشهر كليات جامعة لندن، أنشأها «سدني وب». كان أرستقراطياً، ولكنه انحاز مثل كثيرين من تلك الطبقة إلى صفوف غمار الناس. أنشأوا جمعية الفايبانيين التي كانت في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن بمثابة العقل الذي غذى حزب العمال بالفكر. انضم إليهم الكتاب أمثال «بيرنارد شو» والعلماء أمثال «برفسر توني» العتيق، وكان «سدني وب» وزوجته «بياتريس وب» من أقطاب الفايبانيين، وقادة الرأي في حزب العمال.

أيضا كان «سدني وب» أحد الذين رعوا كلية «قولد سميث» منذ بدايتها المتواضعة. في عام ١٨٩١ اشترت شركة «قولد سميث» التجارية بخمسة وعشرين ألف جنيه، مباني كانت تستعملها البحرية البريطانية في اغراض التدريب وأنشأوا معهدا حددوا هدفه:

«تنمية المعرفة والقدرات الابداعية ومنح الصحة والسعادة للشباب والشابات الذين ينتمون إلى الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة».

كان ذلك بلا شك، بدافع انساني، ولكن أيضا بدافع غريزة البقاء والمحافظة على الذات. فقد بدأت الطبقات المحظوظة في بريطانيا تحس أنهم امسا ان يعطوا الفقراء والمساكين من فضول أموالهم طواعية، وأما ان الطوفان الجارف للمطالبين بالعدالة الاجتماعية، سوف يغرقهم في وجهه.

فلت الشركة تنفق على المعهد من مالها الخاص، وكانوا يؤملون ان يكون نواد لكلية جامعية تامة تستفيد منها مناطق جنوب شرقي لندن الفقيرة. وفي عام ١٩٠٤ قدموا المباني هدية لجامعة لندن مشترطين ان تظل تستعمل في الاغراض التعليمية.

هذا الحلم لم يتحقق الا في عام ١٩٨٨، فبعد مفاوضات طويلة مع سلطات جامعة لندن، وجهود رجال ونساء أذنان نوه بهم «برفسر رزفورد» في كلمته الافتتاحية. أخيرا صدر «ميثاق ملكي» نص على ان تكون كلية «قولد سميث» (مدرسة)، أي كلية جامعية كاملة من كليات جامعة لندن.

فذلك الاحتفال كان مجموعة احتفالات كما قال العميد، ذلك الرجل الاسكتلندي الواضح، الذي تحس أنه يقول ما يعني ولا يبالي، وكان خطابه مزيجاً من الجد والهزل، والثناء والنقد، ووراء كل ذلك الحكمة في توخي المصلحة العامة. ذكر ان الاحتفال يصادف ذكرى مرور مائة عام على انشاء الكلية، وأنه اول احتفال بتخريج الطلبة. كما انه احتفال بان كلية «قولد سميث» قد أصبحت كلية جامعية كاملة. وأشاد بالدعم الذي قدمه «لورد وايتلو» للكلية، أثناء مفاوضاتها الطويلة مع سلطات جامعة لندن. وقد كان «لورد وايتلو» إلى وقت قريب نائباً لرئيسة الوزراء، وكان في نظر الكثيرين احق من تلك السيدة برئاسة الوزارة. كذلك أنشأ على «لورد فلورن» للمساعدة التي وجدوها منه، وقد كان رئيساً لجامعة لندن Vice Chancellor في الفترة التي كانوا يتفاوضون فيها مع الجامعة.

الأ ان العميد لم يأل في نقد سياسة الحكومة ازاء الجامعات، وخاصة في عهد «مسز تاتشر»، وهي نغمة ظلت تتردد في ما تلى من كلمات. ومعروف ان «مسز تاتشر» ضيق الخناق على الجامعات وقطرت أشد التقدير في الدعم الذي تقدمه الحكومة لها. ذلك اثار حفيظة الاكاديميين، وهم أصلاً بحكم تقليد قديم لديهم، لا يكونون على وفاق مع الحكومات خاصة حكومات المحافظين. في هذا السياق، نوه «برفسر رزفورد» بالخدمة الاكاديمية

والاجتماعية المميزة التي تؤديها كلية «قولد سميث»، وقال ان بها اليوم ثلاثة آلاف وخمسمائة طالب وطالبة يتلقون العلم في شتى فروع المعرفة. جاءوا من لندن ومن بريطانيا عامة، ومن أصاير كثيرة في العالم. هذا بالإضافة إلى ارب آلاف طالب وطالبة في فصول «الدراسة المستمرة». وقال ان الكلية حافظت على دورها القديم في تدريب المعلمين وفي تدريس الفنون، وقال ان بها اكبر قسم لتدريس الفنون في أي من جامعات بريطانيا.

فكرت وأنا استمع إلى الكلمات، وما تزال ترن في أذني أصدا موسيقى «شابل» التي كانت تهب بحشد ان يقدم، قلت، هؤلاء اناس احرار في بلد حراً، كل واحد واثق من نفسه وواثق من انتمائه لوطنه، مؤمن بأهمية العمل الذي يقوم به، لا يحس انه اقل من الوزراء او رئيس الوزراء. كل واحد يقول بأمانة، في حدود اللياقة والكياسة ما يرى انه الصواب. ان عاجلاً وان أجلاً تتلاقى الافكار وتتفاعل وينتج فكر متجانس يرضى به الناس ويترجمونه إلى عمل، الهدف هو المصلحة العامة، ولا هدف سواه.

وفكرت في السودان المسكين الذي انأخوا عليه بكلهم منذ آمد. كل يجيء بخيله وخيلائه ينادي بالإصلاح. ثم يذهب، فيهم يذهبون ثلثة ثلثة طال الزمان أو قصر. وتتلقت حولك فلا تجد الا الخراب. هؤلاء قرروا الآن ضربة لأزب ان يفتحوا جامعات جديدة، في كسلا وفي غطبرة وفي شندي. الله اعلم أين اسموا ذلك ثورة تعليمية. في أثناء ذلك خربوا الجامعات القائمة أصلاً. خربوا جامعة الخرطوم العريقة فهجرها اساتذتها واصفر غشب ميادينها. وقرروا أيضاً كما ينطلق السهم الطائش وخلاف ما نصح به العارفون، ان يعربوا التعليم في الكليات العلمية مثل الطب والهندسة والزراعة، علماً بان هذه قضية معقدة لم يبت الخبراء في اسرها بعد، في منظمة اليونسكو وفي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. عرب التعليم يا هذاك الله، ولكن خذ الاهية واستعد الاستعداد. انما هكذا، فانك سوف تملأ البلد حملة شهادات لن ينفعوك ولن ينفعوا البلد.

قصارن يا اصلحك الله بين عجلة أصحابنا اولئك، وبين حكمة هؤلاء القوم. انتظروا اكثر من تسعين عاماً حتى يجعلوا كلية «قولد سميث» كلية كاملة بنص عهد ملكي، في نطاق جامعة لندن. أما كان باستطاعتهم ان يفعلوا ذلك بين غمضة عين وانتباهتها حسب هذه الاساليب «الثورية» وهم عندهم المال والعدة والعتاد؟ هل قلت الحكمة؟ بلى، لعلمهم اكثر حكمة منا ■

نحو أفق بعيد

١٤٣



بقلم الطبيب صالح

الله أعلم ماذا حدث لتلك السيدة الجميلة الوجه التي أوفيت على الثمانين؟ لقد عرفته في أبتسمت لي ذات يوم في مطار الخرطوم الجزيين؟ من نواحي رفاعة أو الكاشلين. أو لعلها من جهة أبعد شمالاً أو جنوباً. من «الجنينة» أو «سار» من «المنمة» أو «الغدار» عرفته لأنني أحببتها وأنا بعد طفل يقعد ويقوم، وحملت حينها وطوقت به في الأساق. ثم ما أنذا وقد تداعى البنبان وترعزت الأركان. لم تجدي قبراً يسترك في ذلك البلد الطويل العريض. أجبروك على النزوح وقد حق لك أن تستقري وتستريح. لعلك تموتين وتدفنين في بلد بعيد، في أرض ليست أعطاك وجيرة ليسوا جيرانك. لك الله. والثورات تشب وتخدم، والعهود تجيء وتذهب.

نعم. قلت أن ذلك الاحتفال اثنائي وحرك أشجاني، خصوصاً حين جاء وقت منح الزمالات الفخرية التي تعادل الدكتوراهات الفخرية في جامعات أخرى. خمسة رجال، كل واحد منهم بلغ شأواً في ميدانه، وكل واحد منهم قدم خدمة من نوع ما لكلية «قوله سمث».

ينادي الرئيس باسم الشخص الذي اختاروه للتكريم، فيقوم من مقعده ويقف متجهاً بوجهه إلى الجمهور في القاعة. وينادي الرئيس على اسم رئيس القسم الذي رشحه، فيقوم ويأخذ في تقرير

الرجل وبيان الأسباب التي جعلت الكلية تمنحه زمالتها الفخرية.

الموسيقى البارز «جاك برايمر» حامل وسام الامبراطورية البريطانية OBE. ومن أشهر عازفي آلة الكلارنت، في المملكة المتحدة. ترجع صلته بكلية «قوله سمث» إلى عام ١٩٣٣ حين التحق بها ليتدرّب ليصبح مدرساً للموسيقى. كان يعزف مع فرقة معهد الدراسات المساندة. وكان أيضاً يلعب الـ «رقبي» مع فريق الكلية، ومثل كلية «قوله سمث» في مباريات جامعة لندن.

عمل مدرساً فترة، وحين شبت الحرب انضم إلى سلاح الطيران. وفي عام ١٩٤٧ اختاره «سير توماس بنتشام» عازفاً في فرقة «الفيلهارمونكا» الملكية، التي كانت قد أنشئت لتوها. لمع اسمه كواحد من أبرز عازفي الكلارنت في بريطانيا، وأصبح عازفاً أول في الفرقة السيمفونية لهيئة الاذاعة البريطانية، وأستاذاً في الاكاديمية الملكية للموسيقى.

إلى جانب اشتغاله بالموسيقى الكلاسيكية، اهتم بموسيقى الحجاز. وعزف مع فرق بريطانية وأمريكية. وقد أدى دور «السولو» للكلارنت أوائل هذا العام في الحفل الموسيقي الذي قدمته فرقة كلية «قوله سمث» في ذكرى عيدها المئوي، وعزفت فيه كثنائين موزار، التي صادف أن مضى عليها هي أيضاً مائة عام منذ تأليفها.

فكرت في قوسي رعاكم الله، غربي وشرقي، السوي، وإلى الشمال منه والجنوب، حيث «الأسوأ» مثل الأفضل، كما قال أحد شعراء هؤلاء القوم، (رديارد كبلنج). ذلك، والرجل المحتفى به يستمع الثناء عليه في استحياء. رجل ربعة القامة في السبعين أو يزيد، ولكن كانه في الخمسين، أقرب إلى هيئة لاعبي كرة الـ (رقبي) منه إلى الموسيقيين. ولما فرغ الخطيب من تركيزته، اتجه نحو الرئيس، وانحنى كل منهما للآخر، احتفاءً لم تأخذ غير ثواني، ولكنها كانت حافلة بالمعنى. صافحه الرئيس وسلمته براءة زمالته الفخرية.

ثم.. الرابت أنريل لورد فلورز، زميل في الجمعية الملكية، وعضو مجلس اللوردات. وقف رجل مديد القامة، فوق السبعين ولا بد ويبدو أصغر سناً. أخذ يصغي إلى رئيس قسم العلوم يعقد مناقشه، بانتباه وسعادة كان ذلك أعظم شرف مثاله في حياته، رغم أنه نال أمجاداً كثيرة من قبل.

عالم «فيزيائي» خدم في جامعتي «بيرمنجهام» و«مانشستر». كما عمل في قسم الأبحاث الذرية في «هارول». وفي عام ١٩٧٣ أصبح رئيساً للكلية الامبراطورية للعلوم، وهي من أشهر معاهد تدريس العلوم في العالم. ثم صار رئيساً لمجلس البحوث العلمية، ورئيساً لمعهد الفيزياء. وتوج حياته الاكاديمية

بأن صار رئيساً لجامعة لندن. في تلك الفترة، كان له دور كبير في نجاح المفاوضات بين كلية «قوله سمث» والمجلس الأعلى لجامعة لندن، وجعل الكلية «مدرسة» كاملة في نطاق الجامعة. بعد تقاعده، أصبح له دور فاعل في مجلس اللوردات، الذي اختاره رئيساً للجنة المختارة لدراسة أوضاع العلوم والتكنولوجيا، كما ظل منذ عام ١٩٧٨ رئيساً لمؤسسة «نغليد» الخيرية.

ولم ينس الخطيب أن ينوه بالدور الذي يلعبه «لورد فلورز» على نطاق الفكرة الأوروبية، مثل عضويته للاكاديمية الأوروبية، وأنه يحمل وسام الشرف من فرنسا.

كيف لم ينو كاهل هذا الرجل تحت ثقل الأنجاد التي يحملها والأعباء التي نهض بها؟ يحق له إلا أن يرتاح. ياوي إلى سريره في الربيع، يربى الأبقار ويلعب الـ «جولف» ويقرأ روايات «آقانا كريستي». لكن هذا لن يحدث. هو الآن في قمة نضجه العقلي، وسوف يحملونه أعباء أكثر في خدمة المجتمع. أناس أحرار في بلد حر، وكل يعطي حسب قدرته على العطاء، لا يمنع عن ذلك إلا حدود موهبته.

كم من الرجال والنساء. قلت لنفسي. حبل بينهم وبين خدمة أوطانهم وهم في ذروة العمر؟ ضباط في الجيش قتلوا أو سجنوا أو أحيوا للتقاعد؟ معلمين أرغموا على ترك وظائفهم؟ سفراء استغنى عن خدماتهم ظلماً فتحولوا إلى تجار، موظفون أنفقوا زهرة أعمارهم في الخدمة المدنية فالقي بهم كما تلقي القمامة. أساتذة في الجامعات اضطروا على الهجرة اضطراً أفتشتوا شرقاً وغرباً.

أكثر ما حدث في هذا السودان المسكين، ذلك البلد الغني الفقير، العظيم الصغير. وكل ذلك بسبب هؤلاء «الرعاة»، النجباء، الأذكى الأغبياء، الذين يتوهمون أن إرادة الله قد اختارتهم ليكتبوا الصيغة النهائية في سفر التاريخ. من الذي يبتلي لك المستقبل يا هداك الله، وأنت تدبج الخيل وتبقي العربات، وتميت الأرض وتحبي الأفاق؟

المستقبل لن يجيء على صورة محددة. أما علموك ذلك في جامعات لندن و«هارفرد» و«سوربون»؟

الأوطان لا يبنيتها رجل واحد ولا حفنة رجال، مهما بلغ منهم الألباء والبعثرة. ولكن يبنيتها مئات الآلاف من الرجال والنساء. ناس أحرار في وطن حر. كل يعطي على طريقتيه وقدر استطاعته. المستقبل بيد الله. المفتاح ليس بيدك، وأنت لا تدري ويمسك الغرور والكبرياء أن تعترف أنك لا تدري ■

• أعطان الأيل، مرابعاً

(المصدر: مجلة)

نحو أفك بعيد

١٤٥



بقلم الطيب صالح

اول مرة زرت مدينة نيويورك، كانت في عام ١٩٦٠، ارسلني القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية لاصف وقائع جلسات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في تلك الدورة التاريخية التي حضرها اغلب زعماء العالم. اذكر وصولي من لندن قبيل الغروب، واذكر احساسي بالغربة وانا انظر الى لون الشفق، لون بين البنفسجي والارجواني الاحمر، كانت تنظر الى رسم سوريمالي، كانه لا ياتي من جهة بعينها، فلم استطع ان اميز أين الشرق وأين الغرب، وهل ثمة شروق أم غروب.

هل كان اسم المطار «ايدنوايلد» في تلك الأيام؟ لم يكونوا قد أسموه مطار «جون اف كندي» لم يكن «كندي» قد صار رئيسا بعد. كل تلك الأحداث المأساوية لما نزل في طيات الغيب. احس بغير قليل من التوجس بعد رحلة طويلة عبر المحيط الاطلسي، وفارق الوقت، والزمن كانه لا يتحرك، وصورة «امريكا» في ذهني فوضى، خليط من انطباعات غير مترابطة.

من الكتب. كنت قد قرأت كثيراً بالطبع في الادب الامريكي. روايات «شتاينبك»، و«همنجوي»، و«سكت فتزجيرالد»، و«سالنجر»، و«فولكنر»، خاصة «فلكنر»، والشعراء «والتر واثامان»، و«روبرت لويل»، و«روبرت فرست». كنت وما ازال شديد الاعجاب بـ «روبرت فرست». والمسرح. قرأت وشاهدت على مسارح لندن اعمال «يوجين أونيل»، و«آرثر ميلر»، و«تينسي ويلنر»، و«التقصاد»، و«دوسوند ولسن»، و«لبل ترلينج»، و«ماري مكارثي». والكتاب السياسي خاصة «والتر ليمان»، و«برفسر كينان».

وراء ذلك كله، تلك الصورة الزاهية التي انطعت في ذهني وانا بعد صبي، من قراءة الطبعة العربية من «الريدز دايجست» التي كانت تصدر في الأربعينات باسم

«المختار». كنت انتظر صدورها لا اكاد اقوى على الصبر، اتخر من مصروفي القليل، لاستيربها كل شهر. كان يترجم المقالات عن الانجليزية كمار الكتاب في مصر، أمثال ابراهيم عبد القادر المازني وأحمد زكي وفؤاد صروف، وربما العقاد ايضا.

انني اذكر شكلها الجذاب، بين الكتاب والمجلة، والرائحة الغضة النافذة، حين تأخذ في قلب اوراقها، والمواضيع الطريفة المتنوعة. واللغة. انني ما ازال اذكر بعض العبارات التي انحفرت في ذاكرتي حفرًا، مثل قول «النس كارل»:

«ليس الشباب زماناً من أزمنة الحياة، بل هو شعور في النفس وارهاف في العزيمة وتوقد في الخيال، وغلبة شهوة المغامرة على حب الراحة....»

كنت انتفض طرباً وانا اقرأ مثل هذا الكلام. وانا بعد صبي، وكانت عبارات مثل عبارة «شهوة المغامرة» تحدث بليلة في وجداني. انا الطفل المرهون باتفاق وادي النيل.

كانوا يقدمون عالماً مزيجاً من الصدق والكذب. كما أدركت فيما بعد. عالماً مغرباً بسوده العدل والحب والسعادة. يتحول فيه الفقراء بجهدهم ومخابرتهم الى اغنياء. يتغلب الناس على الصعاب، لا يحد شيء من طموحهم. عالم مرح متفائل. وكانوا يقدمون في كل عدد ملخصاً لكتاب بسمونه كتاب الشهر. اذكر كتاباً عن حياة «هتلر» كثر، تلك السيدة الكمياء الصماء التي لم تمنعها عاشراتها ان تتعلم ويصبح لها شأن. وكتاب اسمه «لوبيو ملك الذئاب»، وكتاب اسمه «الملكات بمخن كريمات»، عن الاعمال (البطولية) لقائدات القبائل الامريكية في المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية. وكتاب «اكسل منتي» الشهير «قصة سان ميشيل». قرأت الكتاب باللغة الانجليزية فيما بعد، وزرت «قلعة سان ميشيل» في نورماندي، التي يقال انها أوجت لأفضل منتي بالكتاب، وعيناً حاولت ان استرجع المنفعة التي وجدها من قراءة الملخص في مجلة «المختار».

ثمة سمعت لأول مرة عن «مارك توين» صاحب القصص الرائعة عن مغامرات «توين سوين»، و«هكليري فن»، وعن «امرسن»، وهو توين، و«ماك لندن». كانت «المختار» زويدة ثقافية بحق. لقد عادت الآن الى الصدور، بعد ان كانت قد توقفت زماناً، ولا اعلم كيف في الان، وهل الاجيال الجديدة يقبلون عليها بشغف كما كنا نفعل. ولعل الامريكيين لا يدركون أي رصيد من الاعجاب تجاه بلدهم صنعتته تلك المجلة لدى مئات الآلاف من العرب، وهو رصيد ظلت امريكا تبذره بقسوة منذ عام ١٩٤٧ وإلى اليوم.

ضع الى جانب هذه الصورة «المشرقة» صورة أخرى بدأت تتكون لدي بعد مجيئي الى لندن. الانسلاخ عن العنف والمآسي والاجرام. والانباء في الصحف الانجليزية عن حكايات الخطف والنهب المسلح، وخاصة في مدينة نيويورك، حيث لا يامن الانسان ان يسير في وضح النهار، حسب تلك الروايات.

بكل تلك الاحاسيس المتضاربة اتجهت الى جاري في «ال بصر». رأيت رجلاً ضخماً لا يتكاد المقعد يتسع لحسمه، صارم الوجه، تماشاً مثل مجرم في فلم عن «ال كابون». صدمني المنظر وكنت أحجم عن السؤال، ولكنني تماسكت، كما افعل، ومضيت قدماً: «معدرة. هل تعلم كيف اصل الى هوتيل (بلتمور)».

ادخلني في ورطة حين قال على الفور: «انني انزل في هوتيل قريب منه. سوف اوصلك اليه».

عجبت لصوته. كانه لا ينتمي الى ذلك الجسم. صوت رقيق مهذب فيه لئكة خفيفة، ربما تكون اسبانية.

كانت الشمس تؤذن بالغروب حين حببنا من «ال بصر» في «مانهاتن». الغروب او الشروق او لعلها غربت بالفعل او شرقت. لا تدري. انما ذلك الضوء العجيب ينعكس من الزجاج، مساحات شاسعة من الزجاج، من المباني العملاقة التي حشدت في ذلك الحيز الضيق. أي خيال مجنون فعل هذا؟ ولماذا؟ والضوضاء والزحام. كانت في كوكب آخر.

قلت للرجل:

«هل تأخذ تاكسي؟»

«لا داعي لذلك. هوتيل «بلتمور» على بعد خطوات من هنا».

شكرته على لطفه ولكنه لم ينصرف، بل انتظر حتى اتهمت اجراءات تسجيل وصولي، واعطوني مفتاح غرفتي. قلت له: «انا حقا مسكين لك. اشكر على مساعدتي. اظن انني سوف انام مبكراً لأن امامي غدا مهمة شاقة».

«عندك وقت كاف للراحة. سوف اتركك الآن وسوف امز عليك في الساعة التاسعة. يسعدني ان تقبل دعوتي للعشاء».

أي ورطة هذه؟ العشاء مع واحد من جماعة «ال كابون» ولكن «شهوة المغامرة» لدي، تغلبت على ايثار السلامة، وقلت قلميكن.

وصلنا مطعماً في شارع شديد الاتساع، اوسع حتى من «الشاتلبري»، في باريس. عرفت من الرجل انه شارع الامريكتين. وعلى العشاء اخبرني انه محام من قوايتمالا وله مكتب في نيويورك. كان مهذباً جداً، واسع الاطلاع، كثير الاسفار فيما يبدو. زار مصر وسوريا، وعنده فكرة عن السودان. يعرف على الأقل ان عاصمته تسمى الخرطوم. لكنني رغم ذلك لم استطع ان اتغلب على احساس الشك الذي ساورني ازاءه من اول ومله. لعله تاجر سلاح. لعله مهرب مخدرات. كل شيء جائز في هذا العالم الغريب.

اعطاني الكرت باسمه وعنوانه وارقام تلفونهاته.

«ارجو ألا تتردد في الاتصال بي اذا احتجت الى أي مساعدة».

الأ انني لم أره بعد ذلك. لم اتصل به، وحسدت الله انه لم يتصل بي. جذبتني فصول المسرحية المثيرة التي كانت تمثل على مسرح الأمم المتحدة ■ (للتحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٦



بقلم الطبيب صالح

قاعة الجمعية العمومية في مقر هيئة الأمم المتحدة. حين دخلت وجدت شاباً اسبانياً غش الوجه واقفاً على المنصة، يخطب باللغة الفرنسية، صوته يرتعش بالغضب والعاطفة. يقول:

«صحيح أنا أمثل دولة صغيرة لا وزن لها بمقاييس القوة في العالم. لكن ذلك لن يمنعني من التعبير عن رأيي بصراحة...» ثم مضى الشاب يهاجم بشراسة ما وصفه بالتدخل الاستعماري في شؤون كمبوديا.

كان في صوته عمق ورثة صدق تهزّ مشاعر السامع، مهما كان. الأمير سيهانوك المسكين. تستمع إليه اليوم بعد مضي ثلاثين عاماً، فلا تشعر بشيء، هل هو تغير أم أنت تغيرت؟ ظلّ على خشبة المسرح، لا يريد أن يختفي، يقول الكلام نفسه، ويلعب الدور نفسه، وإسنوات تمر، وجسمه يشيخ، وشعره يبيض، ووجهه يتجدد، ومشاكل كمبوديا لا تحل بل تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

القاعة رحبة مصحفة بعناية. دائماً نجلسون في بناء القاعات. اجلس في غرفة زجاجية تطل على القاعة، في المكان المخصص للصحفيين والمراسلين على يمين المنصة. الرئيس وإلى يمينه «داج همرشولد»، الأمين العام. سوف أشهد فيما بعد، دراما احتمال استقالة «همرشولد». أمامي مباشرة لوحة جدارية تجذب انتباهي. وصفتها في أول رسالة أذاعية بعثت بها بأنها تشبه قلباً آدمياً مفتوحاً أو دجاجة مشوية.

القلب وقّده على طبق لأحد ما لياكله. لكن لعنني لم أكن أعى تماماً ما أقول. لعنني فقط كنت تملاً براح الشباب. كادأخ من جدة المكان، مزهواً بما حسنته قدرتي على التعبير، أهذي بكلام لا أفهم معناه. قلت أيضاً في تلك الرسالة، إن صوت الأمير «سيهانوك»، الغاضب هو صوت دول العالم الثالث... دول عدم الانحياز.

إن كان ذلك حقاً، فإن صوت الأمير «سيهانوك»، اليوم، بعد ثلاثين عاماً، صوت ضعيف، متعب، بائس، مغلوب على أمره.

كان التعبير جديداً تلك الأيام. العالم الثالث، وكان مفهوم «عدم الانحياز» بغضاً إلى الدول الكبرى في الغرب، وخاصة الولايات المتحدة. وقد استمعت إلى «جواهر لال نهرو»، «العظيم»، استمعت إليه عدة مرات بعد ذلك، بشرح للأمريكان بصوته الهادئ المتحضر، إن «عدم الانحياز» لا يعني «الشيوعية»، كما يظنون، وأنه لا يمثل أي خطر عليهم.

ها هم جميعاً في القاعة. أبطال «حركة عدم الانحياز»، نهرو ونكروما وسكتوري وسوكرانو وجمال عبد الناصر. كلهم ما عدا تيتو. راحوا عن بكرة أبيهم، بالحق أو بالباطل. يوغوسلافيا التي كونها تيتو بعد جهد جهيد تتناثر أشلاء.

كانت روح عدم الانحياز، هي الروح الطاغية على ذلك الاجتماع. وكنت أعمل في إذاعة دولة من الدول الكبرى التي يهاجمها هؤلاء الزعماء في خطبهم. ووجدتني في التقارير التي أرسلها أبنئي موقف «عدم الانحياز»، ليس عن وعي أو تدبير، ولكن بغفوة كاملة، كان ذلك هو الموقف الطبيعي. ليست هيئة الإذاعة البريطانية هيئة «مستقلة، محايدة».

لم يعترض رؤسائي الإنجليز في لندن على ما كنت أبعث به إليهم، فكانوا يديعونه بلا حذف أو تغيير. لم يفرضوا علي رقابة من أي نوع، فقد كانوا يفهمون، أنني تعلمت منهم «الامانة المهنية»، لم أكن أزيغ شيئاً، أو أغري أو أبذل شيئاً. كنت أنقل بأمانة ما أراه يحدث أمامي. وكان معظم ما يحدث في ذلك الاجتماع مخالفاً لسياسات دولتهم. ومع ذلك تركوا لي الحبل على الغارب، وكانوا يقدرون بلا شك، إن ذلك لن يضرهم في نهاية الأمر.

في جلسة بعد الظهر، سادت في المكان روح جديدة. اجتمعت كلمتهم، ونسوا خلافاتهم. احتفلوا بقبول نيجيريا التي استقلت لتوها، عضواً في الأمم المتحدة. كان احتفالاً بهيجاً. شتاً مثل العرس. دخل وفد نيجيريا القاعة في ثيابهم الجميلة القضاضة، بتقديمهم رئيس وزراءهم، أبو بكر تافاوا بليوا. هل تذكرونه؟ وكان أبو العروس، إن صح الوصف، ذلك السياسي الداهية، هارولد ماكملان. وقف بقامته المديدة، وشاربه وعينه التين تعطشان وجهه طامعاً مغولياً. وقف مرحباً ومهتماً.

رجل تعجب به، كما تعجب بممثل بارع، حتى وهو يؤدي دوراً بغضباً اليك. أرستقراطي، ولكن ليس بالوراة، فهو ينحدر من أسرة اسكتلندية، دفعها الفقر إلى الهجرة إلى إنجلترا، فعملوا بجد، وتكونوا ثروة، وأنشأوا دار ماكملان، وهي من دور

النشر الكبرى في لندن. تعلمت تعليماً أرستقراطياً، وتزوج ابنة (دوق). دخل البرلمان بسهولة، كما يحدث لأبناء الأسرة العريقة، وكان حزب المحافظين يعنبره «ناشراً»، ثم تحول تدريجياً إلى اليمين، وأصبح مغبولاً لاقطاب الحزب، الذين وجدوا صالحاً لرئاسة الوزارة، بعد فشل فئات المدلل «أنتوني آيدن».

كان حزب المحافظين يسمى آيدن «الفني الذهبي»، فقد كانوا يجدون فيه كل الصفات التي يطلبونها في الزعيم. كان أرستقراطياً أياً عن جد، وسيماً بمقاييس الإنجليز، درس في جامعة أكسفورد، وخدم في الجيش، وأبلى بلاء حسناً. ولم يكن وفاد الذهن إلى الحد الذي يخيفهم منه، فهم لا يطمنون إلى النوايا، ولا يؤمنونهم إلا مضطرين. وكان يعرف الفرنسية والعربية والفارسية، واكتسب شهرة واسعة لمهارته الدبلوماسية. أصبح وزيراً للخارجية ولما يبلغ الأربعين من العمر، ثم استقال من ذلك المنصب في وزارة «تشميرلين»، احتجاجاً على سياسة الحكومة في مهاذنتها لهتلر ونظامه النازي. ذلك فؤى من رصيده السياسي. ولما تولى «تشميرشل»، رئاسة الحكومة، عاد «آيدن» إلى وزارة الخارجية وأصبح نائباً لتشميرشل في زعامة الحزب وفي رئاسة الحكومة. ونزل سنوات ينتظر أن يخل محله، وبعد لأي قبل تشميرشل أن يذهب.

لم يكن يمضي عامان على تولي «آيدن» رئاسة الوزارة، حين بخل في صراع مع شاب من صعيد مصر يسمى جمال عبد الناصر. وكان كل خبرته في الدبلوماسية، ومعرفته بشؤون الشرق الأوسط قد فارقته، فتورط في مغامرة طائشة حين تآمر مع فرنسا وإسرائيل على غزو مصر. حول القضية إلى صراع شخصي بينه وبين عبد الناصر، وحاول أن يقنع الشعب البريطاني أن عبد الناصر «هتلر» جديد يجب القضاء عليه. لكنه لم يفلح، بل أحدث أشفاقاً خطيراً في الرأي العام البريطاني، وفي البرلمان، وفي صفوف حزب المحافظين، واستقال «أنتوني» ننتخ، وزير الدولة للشؤون الخارجية، وواحد من المقربين إلى «آيدن»، وتوترت علاقة بريطانيا مع أمريكا. وانتهت المغامرة بالفشل.

حين اضطر «آيدن» إلى انقاف الحزب، أعلن في البرلمان أن «الحملة» قد حققت أهدافها، فتصدى له «آنتون بيلان» نائب رئيس حزب العمال، من سلالة عمال المناجم في «ويلز». حاد الذكاء، سليل اللسان، قوي الحجج، من الخطباء المعدودين في تاريخ البرلمان البريطاني. قال بصوت مملوء بالاحتقار الذي عرف عنه لحزب المحافظين:

«إن رئيس الحكومة ينفخ أنبواق النصر وهو يتجرع غصص الهزيمة». البريطانيون، وحزب المحافظين خاصة، لا يغفرون لزعمائهم إذا قادوهم إلى هزيمة. لذلك ضحكوا بفقاظه «الذهبي»، تخلصوا منه بهدوء، كعادتهم، وجاءوا بدلاً منه، بهذا الثعلب الماكر «هارولد ماكملان». ليخرجهم من الورطة ■

نحو أفق بعيد

١٤٧



بقلم الطبيب صالح

كان رجلاً عجيباً ذلك الرجل -
هارولد ماكملان.

ها هو ذا يقف على المنصة الخضراء من الرخام وراءه على مستوى أعلى حيث يجلس الرئيس - وزير خارجية أيرلندا، إذا لم تخنى الذاكرة - والأمين العام، داج همرشولد، الرجل السويدي الذي يتأرجح مصيره في الميزان.

حياتها بانحناءة خفيفة، ثم تمهل وهو ينظر في القاعة المحتشدة. رجل طويل القامة، غزير شعر الرأس، أشيبه - ضيق العينين - في وجهة شيء من وجه السحاب. هيئته، خليط من الاستعلاء والسخرية والملل. كأنه يمثل على المسرح دوراً لا يكرهه ولكنه ليس راضياً عنه تماماً. كان كذلك طوال الفترة التي حكم فيها.

جاء به حزب المحافظين بعد ورطة «حزب السويس» ليصلح ما أفسده «انتوني آيدن» فاتجه أولاً إلى إصلاح الأمور مع الأمريكان، ثم ساق الحزب ناحية اليسار، وهو يحدث حديث أهل اليمين، وعمل على تفكيك الامبراطورية البريطانية، وهو يؤكد لهم أن بريطانيا ما تزال دولة عظيمة. قال للشعب البريطاني على التلفزيون، والسخرية في عينيه، توحى بأنه لا يعني ما يقول:

«يجب أن تعترفوا بأنكم أبدأ لم تتمتعوا بالحياة كما تتمتعون بها الآن».

حين ذهب حزب المحافظين وجاء حزب العمال، وجدوا الاقتصاد منهاراً والخزينة خاوية.

في خطبة له في «جوهانسبرج» معقل النظام العنصري في جنوب إفريقيا، قال قولته الشهيرة:

«أن رياح التغيير تهب على القارة الإفريقية».

والسوم ونحن ننظر إلى ذلك النظام الكريه يتقوض ونكاد نرى نهايته رؤية العين، لا نملك إلا أن نتذكر بغير قليل من الإعجاب، هارولد ماكملان، الاستعماري القديم، الذي عرف أن زمان الاستعمار قد ولى.

كان يجب قراءة روايات «ترلوب» التي يسخر فيها من الطبقة الأرستقراطية وكانت فضيحة «برفيومو» التي حدثت في عهده، كأنها رواية من تلك الروايات. حين كشفت الصحافة عن علاقة وزير في الحكومة ببانعة هوى تسمى

«كرستين كيلر» انكر الوزير العلاقة أول الأمر، ثم اضطر إلى الاستقالة تحت ضغط الرأي العام والبرلمان.

هاج الشعب واضطرب حزب المحافظين، واشترت الحكومة وهذا الرجل العجيب هادئ الأعصاب، يراقب ما يجري مثل رجل كبير يراقب عبث أطفال.

اختفى «برفيومو» عن مسرح السياسة، وقد كان أحد الذين يتنبأون لهم برئاسة الوزارة في يوم من الأيام، وانقطع لأعمال الخير في أحياء لندن الفقيرة.

أما «ماكملان» فقد جمع شتات الحزب كما فعل بعد «حزب السويس»، وحكم بمزيج من الدهاء والسخرية إلى أن مل اللعبة فتنازل طواعية لـ «لورد هيو» لكنه حتى وهو يفعل هذا، لم يستطع أن يقاوم رغبته في العبث، فرشح خلفاً له، «ارستقراطياً» من اسكتلندا، يشهد الناس له بالاستقامة وحسن الخلق، ولكن ليس بالكفاءة، وتجاوز «راب بترل» الذي شهدوا له بالقدره والكفاءة. كان بترل هو الذي أقنع حزب المحافظين بقبول الخطوات التي اتخذتها حكومة العمال من قبلهم، لخلق مجتمع أكثر عدالة، ووضع أساس «الاجتماع» الذي قبله الحريان وحكما بمقتضاه، إلى أن جاءت «سيز ثاتشر».

كان يؤمل أن يخلف «آيدن»، وظل ينتظر أن يخلف «ماكملان»، فلم يسعفه هذا الثعلب المراوغ.

يقف الآن على منصة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، يواجه الشاب المصري من الصعيد الذي تطاول على هيئة الامبراطورية. وثمة زعماء عدم الانحياز الذين عاونوه على جراته. بعضهم مثل نهرو ونكروما، يمثلون دولاً كانت إلى اليمين القريب، تخضع للتاج البريطاني.

بعد أن فرغ «ماكملان» من القاء كلمته، وقف رئيس وزراء إنجلترا، سير أبو بكر تافوا بليوا، فالتقى كلمة بلغة انجليزية رصينة، شكر فيها بريطانيا على حسن تصرفها لشؤون إنجلترا واعدادها للاستقلال. وكان «ماكملان» يستمع راضياً، مثل اب يشهد حفل تخريج ابنه من الجامعة. ولعله أحس أن ذلك يكفي لازالة المرارة التي أحدثتها غزو بريطانيا لمصر.

(استمرت بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٨



بقلم الطبيب صالح

بينما كان «هارولد ماكملان» يقف خطيباً على المنصة، بتلك النبيرة المتعالية قليلاً، الساخرة قليلاً، التي يغلب عليها ذلك السأم الأرستقراطي، كان ينظر من حين لآخر إلى رجل يجلس في أقصى يسار القاعة، وكأنه يتوجه بحديثه إليه شخصياً. رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، ليس حسن الهندام، هيئته مثل هيئته رئيس عمال بناء، أو عمال شحن في ميناء. رجل لو خير «هارولد ماكملان»، لما اختار أن يدعو إلى العشاء في داره في لندن، مع صهره «دوق دفتشاير». إلا أن ذلك الرجل، الذي يجلس متحفزاً مثل ذئب رابض، هو نجم هذا المهرجان دون منازع. نكيتا سيرقيفتش خريتشوف، أمين عام الحزب الشيوعي ثمة، وأقوى رجل في الاتحاد السوفيتي.

أراه بوضوح من حيث أجلس في غرفة من الغرف الزجاجية المخصصة للمراسلين، التي تشرف من عل على بحر القاعة. خيل لي أنني رأيت شفتيه تتحركان بعصبية وكأنه يهمهم بعبارات بذية. فيما بعد قال شيئاً بذياً بالفعل. حين أظن «هارولد ماكملان» في وصف خيرات الاستعمار علي نيجيريا، وكان الاستعمار نعمة كبرى من الله بها على تلك البلاد.

كان يصل دائماً قبل بدء الجلسة

بنحو ربع ساعة، يقود وفده الكثير العدد، تماماً كما يأتي رئيس عمال مع عماله لاستقبال سفينة بضائع حلت بالميناء. ويجلس متحفزاً طوال الجلسة، السماعات على أذنيه، يكتب أحياناً، ويرفع رأسه إلى المتكلم أحياناً، لا يكل ولا يمل، ولا يترك مقعده حتى نهاية الجلسة.

مرة لاحظ قلة الحضور في جلسة صباحية، فهدأ واقفاً، وصرخ غاضباً قبل أن يعطيه الرئيس الأذن:

«أين ذهب هؤلاء المندوبون؟ ماذا يفعلون؟ إن دولهم الفقيرة تدفع أموالاً طائلة لترسلهم إلى نيويورك، ليس للفسحة والتسكع ولكن للعمل». لم يلبث المندوبون الذين كانوا بالفعل يتسكعون في الردهات ويشربون القهوة في الصالة الفاخرة المخصصة لأعضاء الوفود، أن جاءوا يتسابقون إلى قاعة الجمعية العمومية.

حول جلسات تلك الدورة بمهارة عظيمة إلى فصول في مسرحية «تراجيكوميدي»، البطل الذي يمثل قوى الخير والعدل والحرية، هو الاتحاد السوفيتي. الشرير الذي يمثل قوى الظلام والباطل والقهر، هو «الأمريكان»، ومعهم حلفاؤه دول الغرب، وما أسماهم بالخدم والأذيل في بقية أنحاء العالم.

لم يكن يسمنى الدول المتخاصم معها باسمائها، وكأنه لا يعترف بوجودها، فيقول «الأمريكان» و«الإنجليز»، و«الفرنساوي»، و«الطلياني»، وهكذا. ولم يكن راضياً تماماً عن دول عدم الانحياز، شأنه في ذلك شأن الأمريكان، فقد كان يريد أن يعلنوا صراحة انحيازهم إلى معسكر الاتحاد السوفيتي، لكنه كان يكف عن شتمهم، ويكتفي بالسخرية منهم من وقت لآخر.

ثم اختار عمداً بعض المندوبين ليمثلوا أدواراً كوميدية، ويكونوا هدفاً لمزاحه وعيبه وسخريته. فعل ذلك خاصة مع مندوب الفلبين.

كان مندوب الفلبين رجلاً قصيراً نحيلاً بلبس نظارة ويتحدث اللغة الإنجليزية بلكنة أمريكية واضحة واسلوب متفعر. ومع أن الرفيق نكيتا سيرقيفتش نفسه، كان أبعد ما يكون عن وسامة «كلارك جيبيل»، فقد وجد في ذلك الرجل الطيب ولا بد، هدفاً مستديماً لسلطة لسانه. وكان

«الفلبيني» استساغ ذلك الدور، كما بين القط والفار، فكان يتحصى لخريتشوف، مدافعاً عن وجهات نظر يعلم أنها سوف تثير ثأرته. وخيل لي أنه نشأ بينهما شيء يشبه اللفة. قال خريتشوف مرة، إن «الفلبيني» يتبع «الأمريكان»، كما يتبع الكلب سيده. فإذا.. الأمريكان.. الفلبيني. والكلمة بذية ترجمتها المترجم الإنجليزي بهدوء ورضانة. مندوب الفلبين واقفاً، وقال بغضب، والناس يضحكون:

«انني احتج يا سيدي الرئيس على اللهجة البذية التي يستخدمها رئيس وفد الاتحاد السوفيتي. أنه يتهم على ممثل دولة مستقلة ذات سيادة».

فقال خريتشوف:

«الفلبيني يتحدث عن استقلال بلاده، أين هو هذا الاستقلال؟ الإنسان يحتاج إلى منظر مكبر كي يراه».

تحت ستار المزاح والعبث والبذاءة، كان واضحاً أنه يلعب دوراً ليس لعباً. كان يوجه ضربات موجعة إلى «هيمنة» الولايات المتحدة، ويريد أن يرزعزع العلاقات بينها وبين حلفائها خاصة في آسيا وأفريقيا. وربما أراد أن يهيج الشعوب على حكامها في بعض البلاد. كان يخاطب الشعوب مباشرة فوق رؤوس حكامها من ذلك المنبر العالمي. وكان يعرف أوضاع الفلبين حق المعرفة، وإن أجزاء ليست صغيرة من الرأي العام متبرمة من النفوذ الأمريكي في الفلبين ووجود قواعد عسكرية هناك. في آخر جلسة حضرها قبل سفره اعتذر لكل الذين قد يكون أساء إليهم، وطيب خاطر «الفلبيني» بصفة خاصة. قال:

«الفلبيني رجل لطيف في الحقيقة. أرجو ألا يكون غاضباً مني وأسف إذا كنت قد ألمته أحياناً».

ضحك الناس وضحك مندوب الفلبين، الذي لا بد أنه تنفس الصعداء، وحمد الله أن ذلك العبء قد انزاح عن كاهله. إلا أن الصحفيين، وخاصة الأمريكان، أحسوا بغير قليل من الحزن لسفر خريتشوف قبل نهاية الدورة، فقد نشأت بينهم وبينه علاقة لا تخلو من الود ■

(تحدثت بقية)

نحو أفق بعيد

١٤٩



بقلم الطبيب صالح

الساعة قبل منتصف نهار الجمعة الثاني والعشرين من نوفمبر عام واحد وتسعين وتسعمائة والف. هذه أول مرة أدخل قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة منذ أن دخلتها قبل ثلاثين عاما.

تغيرت أشياء كثيرة، ولكن هذه القاعة كما أذكرها. أجلس الآن في المكان المخصص للجمهور. أصابي مباشرة منصة الرئيس، وأسفلها منصة أصغر حيث يقف الخطباء، السجاد أكثر اخضراراً مما أذكر، ومنصة الخطباء ليست من الرخام الأخضر كما ظننت، ولكنها رمادية اللون مشربة بالترقة، منصة الرئاسة أعلاها هي التي من الرخام الأخضر. اختلطت الألوان في ذاكرتي كما اختلطت أشياء كثيرة، فثلاثون عاما ليست بالأمر السهل. هنالك في أقصى الركن الأيسر من موضعي الآن، الغرفة الزجاجية حيث جلست طيلة شهر كامل، أراقب فصول مسرحية محزنة أحيانا، مضحكة أحيانا.

القاعة ما تزال كأنها بنيت لتوها، يعلق بها طابع الجدة، مستديرة، أو كالمستديرة، ينزل فوقها السقف في شكل مخروط، يميل إلى الأمام، المناضد، حيث يجلس المندوبون خضراء أيضاً. الجدران رمادية، يتخللها اللون البني، لون الخشب. أعلى منصة الرئاسة على الحائط

المواجه لي، دائرة واسعة، تضم غصن الزيتون الشهير، الذي يحمل خرطة العالم، كما تحمل راحة اليد الكاس. اللوحة الجدارية التي وصفتها قبل ثلاثين عاما بأنها تشبه قلبا آدميا مفتوحا، ما تزال في مكانها. أراها الآن على يميني. اسمع فيها النظر. الله اعلم. ماذا تعني؟ أتخيل الآن أنني أمس في الخطوط الملساء المنحنية.

أرى على يساري لوحة لم انتبه لها يومئذ. تشبه اللوحة على اليمين، كأنها انعكاس لها في مرآة.

كنت برفقة زوجتي وشاب سوداني يعمل في سكرتارية الأمم المتحدة اسمه خضر الطيب عبد الرزاق. سوداني كما يحب الإنسان أن يكون السوداني. درس الهندسة في موسكو وحاول أن يستقر في السودان. يعمل هنا مترجماً، يترجم من الروسية والانجليزية إلى العربية. هو والدكتور علي عبد الله عباس والدكتورة كنستاس بيركلي، كانوا لنا خير عون في هذه الرحلة.

الدكتور علي عبد الله عباس، استاذ الادب الإنجليزي في جامعة الخرطوم. إنسان نابغة، له شهرة واسعة في ميدانه. كريم الخلق، جم التواضع، أصيل، اهله نزحوا من «أبو حراز» إلى أم درمان. يحاضر الآن في جامعات أمريكا وقلبه يخفق بحب السودان ويهفو إلى جامعة الخرطوم. اخواننا هؤلاء أدخلوه السجن مكث ستة أشهر دون أن توجه إليه أية تهمة. حمد الله أنهم أدخلوه سجن «كوبر»، فهو سجن قديم من أيام الإنجليز، تراعى فيه اللوائح والأصول. ثم خرج دون أن يكلمه أحد. جاء إلى الولايات المتحدة بمنحة من مؤسسة «فلبرايت».

كانوا قد صنعوا ذلك بشيخنا إبراهيم الصلحي أو آخر عهد النميري. كان وكيلاً لوزارة الاعلام والثقافة. فنان موهوب، لوحاته تعرض في متاحف الشرق والغرب. رجل ثقافة وفن وسلام، لا صلة له بالثورات والانقلابات. وجدوه يعمل في مكتبته ذات صباح باكراً، وكانت تلك عادته، وصادف حدوث محاولة انقلاب في ذلك الصباح، وأن قائد الانقلاب كان من أقبانيته. أدخلوه السجن حيث مكث ستة أشهر دون أن توجه إليه أية تهمة. ثم خرج وهو لا يعلم لماذا أدخلوه السجن ولماذا أخرجوه منه.

خرج فوجد منزله الحكومي لم ينزع منه، ومرتبته الشهري يدخل حسابه في البنك بانتظام، وأكثر من ذلك أنهم كانوا يحسبون له «بدل طبيعة عمل» وهو في السجن. ثم طلبوا منه أن يعود إلى عمله، وكان شيئاً لم يك. يقول إبراهيم الصلحي: «قررت حينئذ أن أترك السودان. قلت هذا بلد مجانين».

السودان من أعقل بلاد الله، والسودانيون من أحسن خلق الله، ولكن بعض حكام السودان هم المجانين، وعجيب أن أمة كهذه تنتج حكاماً كهؤلاء.

نعم، لا بد أن هذا الرسم على الجدار هو «قلب آدمي مفتوح»، فيه كل ما يستطيع الفن أن يفعله في نهاية الأمر، وسط هذا العالم الهمجي. أن يحول الأم الإنسانية إلى لوحات على الجدران، وكلمات على الورق، وذلك لغري، ليس بالأمر السهل.

ما أن استقر بنا المقام، حتى نادى الرئيس على المتحدث. يا لها من صدقة حسنة. الموضوع قضية فلسطين، والرئيس سعودي، والمتحدث ممثل دولة قطر في الأمم المتحدة. صديقنا من قديم الدكتور حسن نعمه. تذكرونه؟ يوم زواجه، مسي وأنا في دلهي، حين كان سفيراً بها.

رجل عالم شاعر أدب، ناصع البيان قوي الحجة، هذه لغة لا تسمع مثلها كثيراً في مثل هذا المكان، لغة العرب حين يرخى لها العنان، فيستخفها الطرب وتحلق بجناحين. تحدث عن مساعي السلام وتعت الأسرائيليين وأحزان الفلسطينيين الشتات. كلمات تلمع مثل قصائد الدموع في عيون الأطفال في المخيمات. لا تقل أن الكلام الجميل لا يجدي. أن عاجلاً وإن أجلاً تتحول الكلمات الصادقة إلى أفعال.

تحدث الدكتور حسن نعمه عن الجرب الباردة واللدادة التي انتشرت بين المعسكرين، قال إن ذلك كله قد انتهى.

نعم. اليوم لا توجد حرب ولا معسكران متقاتلان.

إنما هذه القاعة هي هي، والعرب هموا هموا، بعض العرب ما يزالون كما قال الشاعر القديم:

وقد بنيت الخطي على دمن النرى

وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(للمصير مئة)

نحو أفق بعيد

١٥٠



بقلم الطبيب صالح

أراد خرسستشوف ان يشرب جرعة من الماء، وهو يخطب. رفع الكاس ونظر اليها برهة ثم قال:

«لو كنت في جورجيا لكنت هذه الكاس ملأى بالفودكا. فلنشرب نخب جورجيا».

هكذا كان، متقلب الأحوال، يذهب فجأة من النقيض الى النقيض. وهذا مسرح ليس له نظير في العالم، تذكرت الآن، انه يشبه «والس بيرى» ذلك الممثل الموهوب. كان يمثل أدوار الثوار في أفلام عن أمريكا اللاتينية، وأحيانا يمثل دور تاجر سلاح، يبيع السلاح للطرفين المتقاتلين.

يكون رقيقاً جداً أحياناً، معتدلاً في رأيه، ينادي بالتعاون مع الولايات المتحدة ودول الغرب عموماً، يسعى الى «التعايش السلمي». وأظن خرسستشوف هو الذي ابتكر ذلك التعبير. ثم ما لبث ان يتحول فجأة الى حيوان شرس حاد الأنياب. ولم يكن يفعل ذلك اعتباطاً، بل بحساب وتدبير. كان مسرح الأمم المتحدة في تلك الدورة حافلاً بممثلين لا يستهان بهم، اما هذا فقد كان شيئاً مختلفاً، نمطاً لم يعرف الناس مثيله من قبل، ولعلهم لن يروا نظيره من بعد.

ظن كثيرون انه عزم على تحطيم الأمم المتحدة، فقد اتهمها بأنها تخضع لسيطرة الولايات المتحدة ودول الغرب، وحمل حملة ضارية على الأمين العام «داج همرشولد» واتهمه بأنه يسخر المنظمة لخدمة سياسات دول الغرب، وقال ان الاتحاد السوفييتي لم يعد يثق فيه.

بعد أكثر من عشرين عاماً، شهدت في باريس مسرحية مماثلة حين اتهمت

الولايات المتحدة مدير عام منظمة اليونسكو، أحمد مختار أمبو، بأنه يوجه المنظمة لخدمة سياسات تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة. وذهبت أبعد، فانسحبت من المنظمة وجرت وراءها بريطانيا.

لم تكن الولايات المتحدة عادلة في اتهامها، ولا كان الاتحاد السوفييتي ولكنه منطلق القوة، اذا بدا ان كفة الميزان اخذت تميل. وكان خرسستشوف في تلك الدورة، يطالب أحياناً بنقل مقر الأمم المتحدة من نيويورك، وأحياناً يهدد بان الاتحاد السوفييتي سوف يتسحب ويقيم منظمة جديدة لا تخضع لسيطرة الغرب، وأحياناً يطالب ان يكون منصب الأمين العام، «ترويكاً» من ثلاثة أشخاص مثل العربات الروسية التي تجرها ثلاثة خيول.

كان صراعاً بيناً، كما حدث طوال التاريخ، بين قوتين عظميين، كل منهما، تريد ان يستتب لها الأمر. وزعماء معسكر (عدم الانحياز) هؤلاء، صحيح ان كل زعيم منهم له مواهب لا تخفى، ويمثل جزء من العالم لا يستهان به، ولكنهم في نهاية الأمر، يحاولون أمراً مستحيلًا. ان يقيموا لأول مرة في تاريخ البشرية، نظاماً عالمياً لا يخضع لمنطق القوة. استتب الأمر طوال التاريخ، اما بتوازن القوى، واما بغلبة قوة واحدة. هكذا كان السلم الروماني، (الباكس رومانا) والسلم العربي، (باكس ارابكا). من يصدق اليوم ان العرب فرضوا نظاماً عالمياً في يوم من الأيام. والسلم السوفييتي (باكس سوفيتكا) والسلم الأمريكي (باكس أمريكانا).

لا غرابة، ان الأمريكيان والسوفييت، كانوا ينظرون الى زعماء (عدم الانحياز) باحتقار واضح أحياناً، وستور أحياناً. وكان احتقار الرفيق نكيتا سيريغيفتش لأولئك الزعماء لا يكاد يخفى.

كتم غيظه بصعوبة ذات مرة، وهو يستمع الى توبيخ الزعيم الغيني (سكتوري) له، كانت الصحافة الأمريكية تصف (سكتوري) بأنه شيعوعي، وأنه يخضع لارادة الاتحاد السوفييتي، غير مكترثة بأنه كان يخرج من جلسات الجمعية العمومية بانتظام لاداء فريضة الصلاة. كان رجلاً حسن السمعة في زيه الابيض، يجلس في اعتداد واضح بنفسه بين وفده من رجال ونساء، ألوانهم بين خضرة الزنج وسمرة العرب. أجل سفره، لان خرسستشوف اخرجته الغضب عن طوره في جلسة مسائية، بسبب قضية الكونغو. كان سكتوري أول من تحدث في جلسة الصباح، فآلقى خطبة أدهشت الناس لجرأتها، قرع فيها خرسستشوف بعبارات حادة، وقال:

«ان الدول الافريقية ودول العالم الثالث ليست لعباً تلعب بها أي من الدول الكبرى كيف تشاء».

كتم خرسستشوف غيظه لأنه كان يعلم ان (سكتوري) مهما كان، فهو ليس أكثر من

رئيس لدولة افريقية فقيرة لا تقاس بجبروت الاتحاد السوفييتي في ميزان القوة. لم يرد على (سكتوري) وترك الأمريكيان ودول الغرب يهللون له على غير عادتهم، ويستمرنون مذاق الانتصار على الاتحاد السوفييتي.

قبل ذلك في جلسة المساء، حدثت تلك الحادثة الشهيرة، حين تجرأ خرسستشوف جرأة لا مثيل لها في تاريخ التعامل بين الدول، فخلع حذاءه وضرب به المنضدة أمامه وصرخ بعبارات روسية كان واضحاً انها شتائم. كان ذلك بسبب شيء قاله رئيس وزراء بريطانيا عن قضية الكونغو. توقف (هارولد ماكملان) عن الكلام، ووضع السماعات على أذنيه، وقال ببراءة مصطنعة، وعلى وجهه تلك الابتسامة الغامضة:

«أشئ انتظر ترجمة ما تفضل به رئيس وفد الاتحاد السوفييتي».

الذي قاله الرفيق نكيتا سيريغيفتش، بلغ حداً من السوقية والبذاءة جعل المترجمين بجميع اللغات يتخرجون عن ترجمته. وسالت زميلي «مستر غولد بيرج» مراسل الإذاعة العالمية بهيئة الإذاعة البريطانية، وكان مهاجراً من أصل روسي، وكان شديد الكراهية للاتحاد السوفييتي، فشرح لي العبارة وقال:

«هذا رجل صعلوك لا يستحق ان يدخل هذا المكان».

كان خرسستشوف بالفعل، شاذاً في ذلك المكان حيث تعود الناس على العبارات المرتبة والشتائم المهذبة. هذا كان شيئاً مختلفاً، كأنه طاقة فجأة من طاقات الطبيعة، لا تدري متى تعصف ومتى تهدأ. ربما لأجل ذلك انجذب اليه الصحفيون، خاصة الأمريكيان، فكانوا يهرعون الى القاعة كلما تحدث، ويتبعونه حيثما ذهب. قال لهم مرة:

«بما اننا نعترف كل شيء عن جواسيسكم وأجهزة مخابراتكم، وأنت كذلك تعرفون كل شيء عن جواسيسنا عندكم، فلماذا لا نوجد جهودنا بدلاً من تبديد الموارد واضاعة الجهد؟».

أضح فيما بعد، انه كان يعني ما يقول بأسلوبه العجيب، وانه لم يكن يمانع في الوصول الى تفاهم بين القوتين العظميين، يقتسمان بموجبه مناطق النفوذ في العالم، فلا تتعدى أي منهما على نفوذ الدولة الأخرى. ولكن الأحداث قد برهنت ان الأمريكيان كانوا يطلبون ما هو اعظم، ولعلهم حصلوا عليه، فالعالم يشهد الآن، ولو الى حين، زمان آل (باكس أمريكانا). سال صحفي أمريكي خرسستشوف عن تقييمه لما أنجزته تلك الدورة للجمعية العمومية فاجاب ضاحكاً:

«كنت في شبابي اعمل حطاباً في جورجيا. كنت أعرف آخر اليوم ماذا أنجزت، من كمية الحطب الذي قطعته. أما هنا، فكيف تقبس الانجاز؟» ■

(المحدث طيبة)

نحو أفق بعيد

١٥١



يقلم الطيب صالح

صعب أن تجد رجلين أكثر اختلافاً من هذين الرجلين، اللذين رمتهم الأقدار، واحدهما أزاء الآخر، في ساحة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠. نكيتا خروشوف، وداغ همرشولد. الأول كأنه شخصية في رواية من روايات «دستوفسكي»، الطبع الروسي المتأجج، والاحساس الحادة المتقلبة، الذكاء والصراحة والمكر، والطيبة والقسوة. والثاني كأنه خرج من مسرحية من مسرحيات «أنسن»، القتامة الاسكتلندية، وضبط النفس، وتقديس الجهد في حد ذاته، والصراع بين نوازع النفس البشرية ومتطلبات المثل العليا، والشعور بالذنب من جراء محاسبة الذات بلا هوادة.

كان همرشولد من خلاصة الصفوة الاسكتلندية، من عائلة سويدية عريقة، تعلم في جامعة «انيسالا»، حيث درس الأدب والفلسفة والقانون والاقتصاد. اشتهر بثقافته الواسعة وطاقته الذهنية الهائلة وكفاءته في الإدارة. تقلب في المناصب الى أن أصبح الرجل الثاني في وزارة الخارجية السويدية.

لكنه لم يكن معروفاً خارج السويد، وحتى اسمه الذي يعني «درع الحديد»، كان ثقيلاً على اللسان أول مرة. ولما اقترحه الانجليز والفرنسيون عام ١٩٥٣ خلفاً لـ «ترجفي لي»، النرويجي، تعجب كثير من الناس، ولم يكن حتى الامريكان قد سمعوا به. لكنهم لم يمانعوا في

ترشيحه أميناً عاماً للأمم المتحدة، ورضي به السوفييت في غمرة فترة الانفراج القصيرة التي أعقبت موت ستالين.

اتخذ مجلس الأمن قراراً بترشيحه دون علمه، ولما عرض المنصب على همرشولد تردد في قبوله ثم قبل على مضض.

قال له «ترجفي لي» يخوفه من صعوبة المهمة.

«أن مهمة الأمين العام للأمم المتحدة، هي أشق مهمة في العالم، ويكاد النجاح فيها يكون مستحيلاً. سرعان ما يكتشف أي أمين عام ذلك، إذا هو أراد أن يؤدي مهمته كما تصورها ميثاق سان فرانسيسكو. وإذا كان فهمه للمنصب كما أفهمه أنا، فإنه سوف يجد أن من المستحيل عليه أن يجتنب إغضاب دولة من الدول الكبرى أو الدول الصغرى. سوف يكون هدفاً للنقد من اليمين واليسار والوسط. وإذا أن الأمين العام يخدم الأمم المتحدة ككل فلا سبيل أمامه إلا أن يضحي بنفسه في سبيل إيجاد حلول عادلة».

وجد همرشولد كل ما تكهن به «ترجفي لي». وهو الآن في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠ يقف في الجمعية العمومية يواجه قاعة مكتظة ليعلن قراره، هل يبقى في منصبه أو يستقيل. ويتوقع كثير من الحاضرين ومنهم الرفيق نكيتا سيركيفيتش أن يقدم همرشولد استقالته.

قبل همرشولد المنصب عام ١٩٥٣ دون حماس، وقال في أول خطاب له أمام الجمعية العمومية بعد أن أذن القسم:

«المهمة التي أمامنا هي التصالح والواقعية والبناء».

وختم خطابه ببیت من الشعر لشاعر سويدي:

«أعظم صلاة يتوجه بها الإنسان، ليست التي تطلب النصر، ولكن التي تطلب السلام».

ولكن أحداث الكنفوس، والصراع الشرس للدول الكبرى على السيطرة، سرعان ما كشف له، أن السلام مطلب عسير.

يستمد الأمين العام للأمم المتحدة سلطاته من المادة السابعة في الميثاق التي تجعل الأمانة العامة مساوية للجمعية العمومية ومجلس الأمن ومجلس الوصاية والمجلس الاقتصادي والاجتماعي. وينص البند ٩٧ بأن الأمين العام «هو المسؤول الإداري الأول في المنظمة». وينص البند ٨٦ بأن الأمين العام، الى جانب صلاحياته المنصوص

عليها «يقوم بأي مهمة تكلفه بها أي من تلك الهيئات».

فوق ذلك، فإن البند ٩٩ يعطي الأمين العام الحق في أن يلفت نظر مجلس الأمن الى أي وضع في العالم قد يهدد السلام والأمن، وأن مجلس الأمن لا يحق له أن يرفض النظر في أي موضوع يرفعه إليه الأمين العام حسب نص تلك المادة.

استغل همرشولد هذا النص استغلالاً واسعاً خلال سنوات عمله، مما أغضب عليه بعض الدول أحياناً، وخاصة الاتحاد السوفييتي. وقد وجد أنه يستطيع أن يحرك كل جهاز الأمم المتحدة بناء على تفسيره الخاص لما يمكن أن «يهدد السلام والأمن»، وأن يتخذ كل الخطوات التي يراها هو مناسبة للتأكد بأن وضعاً ما «يحتل أن يهدد الأمن». وقد أرسل مراقبين دوليين الى «لاوس»، مثلاً دون تحويل من مجلس الأمن، مما أغضب عليه الاتحاد السوفييتي.

كان همرشولد في رأي المعجبين به «رمزاً أخلاقياً ونفوذاً ذا هيبة طاغية». وقد حول منصب الأمين العام بالفعل الى دائرة نفوذ أوسع بكثير مما أرادته الدول الأعضاء، وخاصة الدول الكبرى. حدث ذلك بسبب تفوقه العقلي الواضح وطاقته الهائلة على العمل. وأيضاً بسبب توازن القوى السياسية في العالم، الذي أحدث شللاً في المنظمة وأصبح الأمين العام في حالات كثيرة، الجهة الوحيدة القادرة على الحركة.

كانت مغامرة جريئة انتهت بالفشل في الكنفوس.

كان همرشولد يصف دوره قائلاً:

«السياسة والدبلوماسية ليست قضية تهاية في اللعب لا صلة لها بمواقف اللاعبين. النتائج لا تحددها المقدرة السطحية، ولكن يحددها عمق الالتزام بالمبادئ. أن النجاح السهل يحققه المهرجون، أما النتائج التي تبقى وتصمد، فلا بد لها من شخص يبني بعزيمة وصبر».

وكان يقول إن ولاءه للمجتمع الدولي ككل يحتم عليه أن ينزع كل ولاءاته الأخرى حتى ولاءه لوطنه ويضيف:

«كيف يستطيع شخص ما أن يفعل هذا دون أن يفقد المقومات الروحية التي يكتسبها الإنسان من انتمائه لبلد بعينه؟ الإجابة هي، أنه إذا فعل هذا، واعتمد على إمكانياته الذاتية، فسوف يجد بدلاً... وطناً في كل مكان. سوف يجد الأبواب مفتوحة أينما ذهب».

(استحدثت بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٢



بقلم الطبيب صالح

ليس جديداً هذا الموقف الذي بلغه (داج همرشولد) اليوم في شهر نوفمبر عام ١٩٦٠، فقد كان يستقبل من قبل، في شهر أكتوبر عام ١٩٥٦، المشكلة اليوم هي قضية الكونغو التي يتعرض بسببها إلى هجوم مركز من الاتحاد السوفييتي الذي يجلس حاكمه المحلي إزاه في هذه اللحظة في قاعة الجمعية العمومية للأمم المتحدة ينظر إليه شتيراً، ومنذ أربع سنوات، قامت دولتان كبيرتان، وعضوان دائمان في مجلس الأمن، بعدوان صريح على دولة من الدول الأعضاء، اعتبره الأمين العام بمثابة ضربة مخزية لكل المساعي التي بذلتها لتحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط.

كان همرشولد بحكم تكوينه الفكري والثقافي أقرب ما يكون إلى بريطانيا وفرنسا. كان يتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، متعمقاً في أدبيتهما، محباً للشاعر الفرنسي «سان جيون برس» وصديقاً حميماً للشاعر الإنجليزي «ديليو أنش أودن». في لندن أو باريس، يحسب نفسه بالشعراء والفنانين والكتاب والمفكرين، ويحس كأنه في ستوكهولم.

أيضاً كان يحمل بعض الإعجاب لرئيس وزراء إسرائيل «دافيد بن غوريون»، ويرى فيه مثلاً للزعيم الفيلسوف الذي يجمع بين الفكر والعمل، وكان يحب أن يتحدث معه في التاريخ والفلسفة، ويجاوره في أفكار الفيلسوف اليهودي «مارتن بوبر»، الذي كان همرشولد معجباً به.

أما في الجانب العربي، فقد كان بينه وبين الرئيس جمال عبد الناصر، احترام متبادل، ولكن علاقتهما كانت متحفظة من الجانبين، يتقصيا الدفء، فقد كانت مشاورتهما وأنجاشتهما الفكرية، مختلفة، كان أميل إلى الدكتور محمود فوزي، وزير خارجية مصر يومئذ، كان يحب فيه صفاء تفكيره، وهذوء طبعه، وبهارته في فن الدبلوماسية، وكان أيضاً يؤثر المنجي سليم، وزير خارجية تونس، وعبد العزيز مندوب السودان. وكان يعرفه أنه لم يكن يمانع أن يخلفه في منصب الأمين العام، وأخذ من هؤلاء الثلاثة، وخاصة محمود فوزي.

كانت صدمة كبيرة لهمرشولد حين شاجحت

إسرائيل مصر في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٥٦، وفي الوقت نفسه بدأت بريطانيا وفرنسا هجومهما جويًا على المخابرات المصرية والقواعد العسكرية المصرية، وبدأت قواتهما تتحرك نحو مصر. كانت حجة إسرائيل هي القضاء على معسكرات العدوان على الحدود بينها وبين مصر، وكانت أربعة بريطانية وفرنسية هي «الفصل بين الفوتين المنحاربين على ضفتي القناة».

كان واضحاً منذ البداية، وتأخذ ذلك فيما بعد، أنه كان ثمة توافق بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا، فقد كان الهدف واحداً، عبر عنه رئيس وزراء بريطانيا، أنتوني ايدن، صراحة في رسالة وجهها إلى الرئيس الأمريكي «إيزنهاور»، بتاريخ ٦ سبتمبر عام ١٩٥٦، جاء فيها: «أنا مقتنعون بأن الاستيلاء على القناة، ما هو إلا الرمية الأولى، في حملة مدبرة، خطط لها عبد الناصر للتخلص من النفوذ العربي حيلة، وطرد المصالح الغربية من البلاد العربية، وهو يؤمن بأنه إذا نجح هذه المرة، متحدياً ثمانين عشرة دولة، فإن نفوذه في البلاد العربية، سوف يبلغ حداً يمكنه من تجميع ثورات بقوونها ضيافة شتبان... ونحن نعلم من مصادرها المشتركة أنه يدبر بالفعل لتورة في العراق، الذي هو أكثر الدولة العربية استقراراً وتقدمية. سوف تكون الحكومات الجديدة في واقع الأمر، خاضعة لمصر، إن لم يكن لروسيا. سوف يكون لزاماً عليهم أن يضعوا مواردهم البترولية تحت سيطرة دولة عربية موحدة بزعامة مصر وخاضعة للنفوذ الروسي. ونحن نجو ذلك الوقت، فسوف يمنع عبد الناصر البترول عن أوروبا الغربية وسوف تكون جميعاً تحت رحمته...».

كان العراقي أقرب الدول العربية إلى بريطانيا، وأكثرها صداقة لها. ورغم ذلك، اضطر الأمير عبد الله، حين قامت الحرب، أن يكتب إلى ايدن محذراً، وقال:

«إن (عزو بريطانيا لمصر) وضع أصدقاء بريطانيا. وأنا أعد نفسي واحداً منهم. في وضع خرج إزاء الرأي العام في العالم العربي وفي العراق».

وقد ابغ الوصي، السلفير البريطاني في بغداد، أن الحكومة العراقية لن تستطيع أن (تسكت) أكثر من أسبوع واحد، ولا بد أن موقف العراق قد ادش ايدن، الذي كان يتوقع منه تأييداً مطلقاً، غير مدرك، رغم دراسته للغة العربية، أن ثمة حدوداً لا يمكن أي حاكم عربي أن يتجاوزها، مهما بلغ منه العداء لحاكم عربي آخر، فكذب إلى عبد الله، مستنداً إلى حجج أخرى غير التي قدمها للرئيس الإسرائيلي.

«أؤكد لك تأكيداً قاطعاً بأن الهدف الوحيد لتدخل القوات البريطانية، هو إيقاف الحرب بين إسرائيل ومصر وضمان القناة (حرية الملاحة)». ونحن مقتنعون بأن وجود قواتنا في مواقع حامة، هو وحده الكفيل بتحقيق هذا الهدف. وتدل كل المعلومات التي وصلت إلينا، أن إسرائيل قد الحقت بمصر هزيمة ساحقة، وأن العمل الذي قمنا به هو وحده الذي انقذ مصر من حدوث مزيد من الكوارث، وقد علمنا أن القوات الإسرائيلية، سوف تستجيب لطلبنا بالاقتراب من القناة إلى مسافة أكثر من عشرة أميال، مع العلم بأن أيوب مصر، حتى القاهرة نفسها، مفتوحة على مصاربعها أمامها. هذا على الأقل، يعتبر مكسباً، وأرجو أن يتضح قريباً للعالم، أن عملنا هو وحده الذي حقق هذه النتيجة، وبمجرد أن نحتل المواقع الهامة على القناة فسوف نطلب من الإسرائيليين الانسحاب من الأراضي المصرية...».

لكن الذي أقلق ايدن أكثر من تحذيرات العراقي، كان عاصفة الاستنكار التي همت في وجيشه من أقرب الدول إلى بريطانيا في

البحر المتوسط، رابطة الشعوب البريطانية، فقد أرسل إليه رئيس وزراء سبيلان مصر عن احساسه بالصدمة والإنزعاج، لتدخل بريطانيا ومطالبا بالانسحاب الفوري، وكتب جواشرا ل بنهرو رسالة مهددة ولكنها تتصير سخفاً واضحاً، ختمها قائلاً:

«إنني عبرت عن شعوري بوضوح وصراحة لأنني أعتقد أن هذا هو الأسلوب الذي يجب أن يتخذه الصديق نحو صديقه. وإذا لم يوضع حد لهذه الأعمال الخاطئة، فإن المستقبل سوف يكون فيما يبدو لي، مظلماً جداً».

كذلك عبرت كندا ونيوزيلند عن سخطهما، وحتى روبرت مثيريس رئيس وزراء استراليا، الذي كان قريباً جداً من السياسة البريطانية، لم يجد بداً من أن يكتب إلى ايدن مغرباً عن حزنه لما وصفه بالصراع الواضح في مجلس الأمن بين بريطانيا وفرنسا من جانب والولايات المتحدة من جانب آخر، وأضاف قائلاً:

«يجب ألا نشك لحظة في ولاء هذا البلد لبريطانيا. ورغم ذلك أجد لزاماً علي أن أطلب منك أن تسأل كل جديك، شتني السبل، للوصول إلى تفاهم مع الولايات المتحدة أخذاً بعين الاعتبار أن أعدائنا سوف يحتسبون الانشقاق في صفوف المعسكر الديمقراطي، أعظم انحسار أحزوه في الحرب الباردة».

يبد أن الدول الثلاث، بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، كانت رغم ذلك، مصففة على بلوغ هدفها المشترك، تحطيم القوة العسكرية والمعنوية المتزايدة لمصر، ومنع قيام أي نوع من الوحدة العربية، لا سيما وحدة تترعها دولة «تورية»، لكن من سوء حظ ايدن بالذات، أن الولايات المتحدة لم تكن طرفاً في اللعبة، ولم تكن موافقة عليها. وغريب أن ايدن لم يدرك ذلك باكراً فقد أوفد إليه الرئيس إيزنهاور عدداً من المبعوثين، منهم وزير الخارجية (جون فوستر دالاس) وكتب له عدة مرات، يخذره مخبة العمل الذي ينوي القيام به. وقد كتب له في ٩ سبتمبر ١٩٥٦ يقول:

«استعمال القوة العسكرية ضد مصر في هذه الظروف، سوف تكون له نتائج أخطر من دفع العرب إلى تأييد عبد الناصر، سوف يحدث ذلك خلافاً عميقاً بين بلدينا، ولا بد أن أخبرك بصراحة، أنه إلى الآن، لا يوجد أي اتجاه في الرأي العام الأمريكي لتأييد عمل كهذا، بل أن الأمر المحسوس في الرأي العام، هو الاعتقاد أن الأمم المتحدة قد أسست أصلاً للحيلولة دون حدوث مثل هذا العمل».

لذلك، فأننا تابعنا بقلق تحركاتكم للقيام بعمل عسكري ضد مصر. ونحن نعتقد أن عبد الناصر قد لجأ إلى الأمم المتحدة مطالبا أياها شجب هذه الأعمال واعتبارها عدواناً، وأنها تنطوي على رفض للوسائل المتاحة لحل النزاع حلاً سلمياً...».

إنه يبدو لنا - فوستر - أننا، إن الهدف الذي نسعى إليه، نحن وأنتم، يمكن الوصول إليه بوسائل أبطأ وأقل إثارة من استعمال القوة العسكرية. توجد محاولات واسعة للعمل، لم ندرسها دراسة كاملة، لأن ذلك سوف يأخذ وقتاً.

إن عبد الناصر يتألق ويزداد حيوية بالاثارة، إذا صبرنا عليه حتى تخف عناصر الدراما، ويتركنا على تبريعه من الهواء بوسائل قد تكون بطيئة ولكنها مصفونة، كالتى ذكرتها، فأنني وأنت بأتنا سوف نصل إلى النتائج المطلوبة... أما الأمين العام للأمم المتحدة، داج همرشولد، فقد وجد في أكتوبر عام ١٩٥٦، أن الهجوم الثلاثي على مصر، قد سد ضربة كادت تقضى على كل آماله في إيجاد حل عادل لقضية الشرق الأوسط.

أي قضية فلسطين ■

(تحدث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٣



بقلم الطيب صالح

كان (داج همرشولد) يشعر بغير قليل من الرضى في ربيع عام ١٩٥٦. كان قد نجح الى حد كبير في تهدئة الامور على امتداد خطوط الهدنة بين اسرائيل والدول العربية، وخاصة مع مصر. كان يحس أنه نجح في خلق حالة نفسية، ايجابية نستطيع ان نستثمرها لتوجيه المنظمة لاجاد حل عادل لقضية الشرق الاوسط.

ظن همرشولد، وكثير من الناس حينئذ، ان منظمة الامم المتحدة، اخذت تشكل كقوة جديدة، لا تخضع لطموحات الدول الاعضاء، وخاصة الدول القوية، قوة معنوية هائلة، يسندها الرأي العام في العالم، يمكن ان تنجح اذ فشلت عصبة الامم، في اقامة نظام عالمي مستقر، لا يخضع لمنطق القوة، ولكن لمنطق العدل والمساواة. لذلك كان يقول بكثير من التفاؤل:

«تستطيع الدول، بقليل من التبصر، ان تستخدم المنظمة لمحاولة ايجاد حلول للقضايا الكبيرة في العالم، بدلا من محاولة حلها بطريقة فردية. هذا سوف يقوي المنظمة، ويجعلها بالتالي اقدر على معالجة قضايا السلام».

ثم، كانما فجأة، بدا كما لو ان كل جهود الامن العام، قد ذهبت سدى، ففي يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر، شنت اسرائيل هجوما عسكريا واسع النطاق على مصر، وأعلنت ان قواتها اكتسحت سيناء للقضاء على قواعد الفدائيين.

لم يكن الحدث مستغربا تماما، فممنذ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦، كرد فعل مباشر لسحب أمريكا عرضها لتمويل السد العالي، أخذت بريطانيا وفرنسا تخططان لتدخل عسكري في مصر.

اتضح فيما بعد، ان بريطانيا وفرنسا، بينما كانتا تحاولان في الظاهر التوصل الى حل من خلال منظمة الامم المتحدة، كانتا تعملان سرا بالتواطؤ مع اسرائيل، على فرض ارادتهما بالقوة على مصر.

لم يكن همرشولد يعلم حينئذ، ان بريطانيا وفرنسا واسرائيل، وقعت في ٢٤ اكتوبر اتفاقا سريا في Sevres في فرنسا بنص على ما يلي:

«في عصر يوم ٢٩ اكتوبر تشن القوات الاسرائيلية هجوما واسعا على القوات المصرية».

في يوم ٣٠ اكتوبر توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية، نداء الى مصر لوقف اطلاق النار ووقفا تاما، وسحب قواتها الى مسافة عشرة اميال غربي القناة، وان تسمح للقوات البريطانية - الفرنسية المشتركة، ان تحتل بصفة مؤقتة، مواقع رئيسية على القناة.

في الوقت نفسه، يوجه نداء للحكومة الاسرائيلية لوقف اطلاق النار، وسحب قواتها الى مسافة عشرة اميال شرقي القناة.

اذا رفضت أي من الحكومتين، او لم تُعط موافقتها خلال اربع وعشرين ساعة، في تلك الحالة، تتدخل القوات البريطانية - الفرنسية. واذا لم تستجب مصر للنداء، فان القوات البريطانية - الفرنسية، تبدأ الهجوم في وقت مبكر من يوم ٣١ اكتوبر.

وعدت اسرائيل ألا تهاجم الاردن، واذا هاجم الاردن اسرائيل فان بريطانيا لن تكون ملزمة بنص المعاهدة بينها وبين الاردن لمساعدته، لان المعاهدة تلزم بريطانيا فقط في حالة اعتداء اسرائيل على الاردن.

تحتل القوات الاسرائيلية الساحل الغربي لخليج العقبة وتحكم سيطرتها على خليج تيران».

في اليوم نفسه - أي يوم ٢٤ اكتوبر - عرض (انتوني ايدن) الخطوط العامة للخطة على مجلس الوزراء البريطاني، دون ان يكشف لهم ما اتفق عليه في Sevres مع فرنسا واسرائيل، وأضاف: «يمكن الاستراض أنه في حالة حدوث هذه العملية، فان اسرائيل

سوف تقوم بهجوم شامل على مصر. هذا سوف يساعد على اختصار فترة الهجوم الجوي (من القوات البريطانية - الفرنسية)، الهدف الثاني من العملية هو ضمان سقوط نظام الكولونيل عبد الناصر في مصر».

لم يكن همرشولد على علم بكل هذا، لذلك حين بدأ الهجوم الاسرائيلي على مصر، اصيب بصدمة عنيفة، وكان غاضبا أشد الغضب حين اجتمع عشية ذلك اليوم مع (كابوت لدج) مساعد وزير الخارجية الأمريكي الذي أبلغه غضب الرئيس ايزنهاور لما حدث، وطلب منه ان يدعو مجلس الامن للانعقاد، فقال همرشولد أنه كان ينوي ان يفعل ذلك على أي حال.

اجتمع مجلس الامن يوم ٣٠ اكتوبر، واستمر الاجتماع الى وقت متأخر من الليل، قوى اعتقاد الامن العام بتواطؤ بريطانيا وفرنسا مع اسرائيل، حين استعملت الدولتان حق الفيتو ضد قرار مجلس الامن الذي يطلب من اسرائيل وقف القتال فوراً.

قضى همرشولد الليل ساهراً يحاول ان يحدد موقفه. وفي بداية اجتماع المجلس في اليوم التالي - ٣١ اكتوبر - قرأ بياناً كتبه بيده، يطوي على تهديد واضح بالاستقالة، قال فيه:

«الامين العام يخضع لنصوص الميثاق ومبادئه. وهو لا يستطيع ان يؤدي واجباته، الا اذا أوفت الدول الأعضاء بكل العهود التي قطعتها لاحترام الميثاق بكل نصوصه».

ثم اضاف:

«اذا كانت الدول الاعضاء تعتقد ان مصلحة المنظمة تقتضي ان تكون واجبات الامن العام بخلاف ما ذكرت، فعليها في هذه الحالة، ان تفعل ما تراه مناسباً على ضوء اعتقادها هذا».

ادرك كل من يعنيههم الامر، خاصة بريطانيا وفرنسا، ان استقالة الامن العام في تلك الظروف، سوف تواجههم بوضع لا قبل لهم به، ويكون بمثابة احتجاج سوف يجد تأييدا واسعا من الرأي العام في العالم. لذلك سارعوا جميعا الى تأكيد ثقتهم به، والتمسك باستمراره في منصبه.

سوف تختلف المواقف ويختلف الممثلون في عام ١٩٦٠، ولكن جوهر القضية لن يتغير - الصراع الازلي بين ما تظن الدول، خاصة القوية منها - أنه يخدم مصلحتها، وبين متطلبات نظام عالمي يقوم على العدل والاخلاق والمثل العليا ■

(للتحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٤



بقلم الطبيب صالح

خرجت منظمة الامم المتحدة من «أزمة السويس»، كما خرج أمينها العام «داج همرشولد» أكثر قوة ونفوذاً. حدث ذلك لأن القوتين العظميين في العالم الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، كانتا متفقتين. القضية واضحة بالقياس الى أزمة الكونغو فيما بعد. في جانب وقعت دولتان كبيرتان، أخذ نجمهما في الأفول، تشيكتان بتلابيب مجد غابر، تحاولان محاولة يائسة إثبات قوتيهما باستعمال «ديبلوماسية البوارج». وفي الجانب الآخر وقعت القوتان الوليدتان ومعهما كافة القوى الحديثة في العالم، والرأي العام العالمي.

كانت محاولة يائسة بحق. والانسان اليوم يعجب حين يعيد قراءة تاريخ تلك الحقبة، كيف أن دولتين عربيتين في فن السياسة والحكم، لجأتا الى تلك الحيلة التي ما كان لها ان تنطلي على احد، فرنسا التي أنجبت ريشليو وتاليران وكلمنصو. وبريطانيا العظمى، التي أنجبت لورد قريبي ولورد هلفاكس ولويد جورج. ولا بد ان أيدن ورث هؤلاء الدهاقنة، شعر بمرارة شديدة، وهو يتلقى الدروس في فن الدهاء السياسي، من أيزنهاور، رئيس الدولة التي كانت مستعمرة بريطانية الى عهد ليس بالبعيد.

الأمر في جوهره، كان وما يزال، كما قال ذلك الحبر البريطاني «لورد برايرلي»: «القانون الدولي ليس الا عباءة تستر أوضاعاً شتت بالقوة».

كذلك قال الأنثيون لاهل «ميلوس» في القرن الخامس قبل الميلاد:

«... أما فيما يتعلق بالحق والباطل، فليس ثمة فارق بينهما في نظر الناس، الذين احتفظوا باستقلالهم الى الآن، استطاعوا ذلك لأنهم أقوياء.. والذين لم

نهاجمهم، لم نهاجمهم لأننا نهاب قوتهم ان فرض سلطاننا عليكم، لن يضيف فقط الى مساحة استرطورتنا ولكنه أيضاً سوف يزيد من احساسنا بالامن، نحن نسيطر على البحر، وانتم أهل جزيرة ولكنكم ضعفاء، ليس لكم من القوة ما للجزر الأخرى، لأجل ذلك يعيننا عناية قصوى الا تغفلوا من قبضتنا».

لا توجد صراحة ولا صدق أكثر من هذا، أما ورثة أثينا - وروما - في النصف الثاني من القرن العشرين، فقد حاولوا ستر سياساتهم بـ «عباءة» كما قال لورد برايرلي، ولكنها كانت عباءة مزرقة مهلهلة لا تكاد تستر عورة.

لماذا فعلت بريطانيا وفرنسا ذلك؟ لماذا لم تمضيا قدماً كما فعل الأقوياء طوال التاريخ؟ لماذا البحث عن ذريعة؟

ربما لأن الدولتين لم تعودا قويتين بالفعل، أو لم تعد لهما القوة الكافية. تأكد ذلك حين شبت الحرب. السبب الثاني هو ظهور عنصر جديد في السياسة الدولية، ربما لا يكون واضحاً تماماً، ولكنه محسوس الأثر - ذلكم هو «الرأي العام» فيما بعد في حرب فيتنام أصبح الرأي العام قوة هائلة.

يبدأ ميثاق الامم المتحدة بعبارة فيها اصداء واضحة من مقدمة دستور الولايات المتحدة «نحن شعوب الامم المتحدة».

من كتب ذلك؟ وهل كانت الدول الكبيرة التي خرجت ظافرة من الحرب العالمية الثانية، وأخذت المقاعد الدائمة في مجلس الأمن، وأعطت نفسها حق «الفيتو».. هل كانت هذه الدول تعني ما تقول حقاً؟

الأمين العام للأمم المتحدة، أخذ العبارة مأخذ الجد. انه ابن السويد، الدولة التي لم تفرق في أوجال الاستعمار الأوروبي في افريقيا واسيا واستراليا والقارة الأمريكية. وفي في النصف الثاني من القرن العشرين تقدم نموذجاً طريفاً، يعتبره كثير من الناس مخرجاً من غلواء الرأسمالية او الشيوعية.

وهمرشولد الى ذلك من صفوة نتاج التراث الأوروبي «الإنساني»، ذلك الوجه الآخر، الوجه المضيء للحضارة الأوروبية فيه شيء من روح الشعراء والفلاسفة، وكان بالفعل يكتب الشعر. مثلاً هذه الفقرة من خطاب له، يجد الانسان فيها أثراً واضحاً من فكر الفيلسوف الفرنسي «تيلهاردي» شاردان:

«السعي على هامش تطور المجتمع الإنساني، يعني السعي على حافة المجهول. سوف يظهر في المستقبل، أن كثيراً مما نضله اليوم، عديم الجدوى. لكن ذلك لا يشفع لنا اذا نحن احجمنا عن الفعل، حسب ما يمليه علينا ادراكنا، غير متغاضين عن قصور هذا الإدراك دون أن نفقد الإيمان بالنتيجة الحتمية للتطور الخلاق الذي أسعدنا الحظ بالمساهمة في تحقيقه».

«التطور الخلاق»، وإذا شئت قلت «تراكم الأبداء»، ذلك ما كان يدعو اليه «دي شاردان»، ذلك الفيلسوف الزاهد، وقد كان همرشولد، احد حوارييه. أما تاريخ الإنسانية الى الآن، لا يدل على أن «تراكم

الأبداء»، له أي تأثير على سياسات الدول، بعضها أزاء بعض. بل ان منطلق القوة يسير في خط مواز لمنطق «الأبداء»، ونادراً ما يلتقي معه. كان عبد الملك بن مروان رحمه الله، مع علمه وأدبه، يدرك ذلك تمام الإدراك، فقد كان من أوائل أساطين «الريال بولتيك».

الآن، في عام ١٩٥٦، يبدو لهمرشولد على أي حال، أن الامم المتحدة هي القوة المعنوية الجديدة، التي سوف تحدد من غطرسة الدول، وتحمل طموحات الشعوب نحو السلام. وقد أسعده ان الأمريكان والسوفييت، بالتعاون الوثيق معه، استخدموا الجمعية العمومية، التي يصفها بعض الناس بأنها «مستودع ضمير الإنسانية»، أغلقت بريطانيا وفرنسا الطريق في مجلس الأمن، فجأوا الى وسيلة كانت الولايات المتحدة قد ابتدعتها للتدخل في كوريا باسم الامم المتحدة، واسميت ذلك «الاتحاد» من أجل السلام. أصبح ممكناً بتلك الوسيلة تخفي مجلس الأمن والعمل بتفويض من الجمعية العمومية، على اتخاذ الخطوات اللازمة لصيانة الأمن والسلام في العالم.

هكذا خرج «همرشولد» منتصراً من أزمة السويس، إذ خرجت بريطانيا وفرنسا مضعضعتين. كانت مرحلة فاصلة بالنسبة لهما. أصبح واضحاً انهما لم تعودا قوتين من الدرجة الاولى. لم تلبث فرنسا ان فقدت الجزائر، وكاد ينقرض عقدها لولا ان جاءها ديجول. وتنازلت بريطانيا عن دورها «شرقي السويس» للولايات المتحدة.

أما اسرائيل، «سبارط»، الشرق الاوسط فإنها لم تخسر كثيراً. ادعت للقوتين العظميين، وخاصة امريكا، وانسحبت من سيناء، ظلت تترصد عشر سنوات، ثم انقضت، بمفردها هذه المرة، بعد ان حصنت نفسها وضمنت الولايات المتحدة الى جانبها، والرأي العام في أوروبا وامريكا. وكانت مصر قد اعطتها المبرر الـ Casus Belli كما يقولون على طبق من ذهب.

ان سلوك اسرائيل، ينبئ بوضوح انها تعمل بوحى المبدأ القديم الذي حوله الفلاسفة الألمان الى مذهب محترم في السياسة - «الريال بولتيك».. من هؤلاء «شينجلر» الذي يبغضه اليهود بغضاً شديداً، فهو يقول:

«الدولة، هي تصير قوية، لا بد لها من الدخول في صراعات مستمرة مع جيرانها، انهم يقولون، يمثل الصراحة التي خاطب بها الأنثيون اهل «ميلوس»:

«خود اسرائيل تكون حيث تنتهي قوة اسرائيل».

وحين يقيمون المستوطنات فوق ارض فلسطين فإنهم يعلمون أنهم لا يفعلون شيئاً جديداً. لقد كانت المستوطنات طوال التاريخ طلائع وضع اليد على الأرض باكملها. ولا يحسون أنهم يحتاجون الى أي مبرر «خلفي». كذلك فعل الغالبون من قبل. كذلك فعل الأنثيون منذ أكثر من ألفي عام ■

نحو أفق بعيد

١٥٥



يقام الطبيب صالح

لم يتحمس زعماء دول الغرب لدعوة خرسنشوف لهم لحضور دورة الجمعية العمومية للأمم المتحدة الخامسة عشر المزمع عقدها في ٢٠ سبتمبر عام ١٩٦٠. لم يكونوا قد نسوا بعد، كيف أن الزعيم السوفييتي، نسف، قمة باريس بينه وبين الرئيس أيزنهاور، منذ ثلاثة أشهر فقط، ولكن حين أبحر الرفيق نيكيتا سيرغيفيتش على السفينة السوفييتية «بولتكا» قاصدا نيويورك، حاملا معه زعماء، بلغاريا والمجر ورومانيا، لم يجدوا بدا من إعلان نيّتهم على الحضور. واضطر الأمين العام للأمم المتحدة أن يصدر بيانا يوجب فيه بمقدم أولئك الرؤساء، لأنه «يهيئ الفرصة لتبادل الآراء على أرفع مستوى، بشأن القضايا الكبرى التي تواجه العالم». اليوم، بعد مضي أكثر من ثلاثين عاما على تلك الأحداث، يرى عدد من المؤرخين، أن خرسنشوف لم يذهب لتحطيم الأمم المتحدة، ولا النظام العالمي القائم، ولكنه كان يريد الاعتراف بالوضع الجديد للاتحاد السوفييتي، كقوة كبرى موازية للولايات المتحدة وبقيّة دول الغرب. وربما جاز له يومئذ أن يحس بكل تلك الثقة. حقق الاتحاد السوفييتي انتصارات علمية واضحة، وأحرز مكاسب دبلوماسية في آسيا وأفريقيا، وفي أمريكا أعطته الثورة الكوبية الاحساس بأنه يزاحم الولايات المتحدة في عقر دارها. وقد اختار ساحة الجمعية العمومية، ميدانا لحرب

العصابات» الكلامية، التي شنها دون هوادة.

لم يكن سعيدا وهو يستمع الى خطاب الرئيس أيزنهاور، وأريد وجهه بوضوح حين قال أيزنهاور:

«إن الهجوم على الأمين العام، هو في الواقع هجوم على منظمة الأمم المتحدة نفسها».

ثم لما قال:

«ما سوف يحدث في الكونغرس سيقرّر مدى قدرة الأمم المتحدة على حماية الدول الحديثة العهد بالاستقلال في أفريقيا. ليس ذلك فحسب، ولكن قدرتها على حماية الدول الصغيرة اطلاقا من العدوان».

كان ذلك ما يدعو اليه الأمين العام. كانت تلك هي الفلسفة التي يستند اليها في عمله. ولكن لعله تمنى لو أن أيزنهاور لم يذهب الى ذلك الحد، في تأييده، خاصة أنه ربطه بقضية الكونغو، التي يعلم همرشولد انها تثير ثائرة الرفيق خرسنشوف.

هذا، منذ وصل الى نيويورك، وهو لا يكل عن مهاجمة الأمين العام. وفي خطابه في الجمعية العمومية في اليوم التالي لم يترك مجالاً للشك. قال أن الأمين العام منحاز «الى معسكر الاستعماريين»، وأن الأمم المتحدة لم تعد تعكس حقيقة الوضع في العالم. لا يوجد معسكران ولكن ثلاثة معسكرات. المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي، ومعسكر الدول غير المنحازة. لذلك يجب الغاء منصب الأمين العام، واستبداله بثلاثة أمناء «ترويكاء»، يمثل كل منهم قوة من القوى الثلاث.

قال همرشولد في رده «القضية لا تتعلق بشخص الأمين العام، بل بالمؤسسة. صف منصب الأمين العام بأي كلمات تشاء - الاستقلال، الحياد، النزاهة. كلها صفات يجب ان يتصف بها الأمين العام.. وهذه الصفات، ربما تقوم عقبات في وقت من الاوقات، في سبيل أولئك الذين يهمهم تحقيق اهداف سياسية يصعب عليهم تحقيقها ما لم يتخل الأمين العام عن مبادئه».

واضاف همرشولد أن كلام خرسنشوف، يطرح موضوع الثقة في الأمين العام.

لم يتردد خرسنشوف عن إزالة أي غموض بهذا الصدد، فطلب حق الرد مباشرة، وقال:

«كي نتجنب أي لبس أو سوء فهم، اريد أنؤكد أننا لا نثق في مستر همرشولد ولا نستطيع ان نثق به. وإذا لم يجد هو الشجاعة الكافية للاستقالة بأسلوب الفرسان - اذا صح القول - فإننا سوف نستخلص النتائج التي يحتملها

مثل هذا الموقف».

بوسع الانسان ان يتخيل وقع هذه الكلمات. هذا الرجل الذي قد تقتحمه العين، ليس رجلا عاديا. انه زعيم ثاني أقوى دولتين في العالم، وتطالب ان تعترف بها ندا للولايات المتحدة، الدولة الأولى. هل كان خرسنشوف يعني ما يقول، ام انه كان يمثل عمدا دورا بغضا بمهارة عظيمة؟

في جلسة بعد الظهر، امتلات القاعة باعضاء الوفود والمراقبين والصحفيين. وازدحمت الاماكن المخصصة للجمهور. لم يبق موطىء لقدم، وكان كثيرون يتوقعون ان يعلن همرشولد عن استقالته.

تحدث بصوت خفيض هادئ، يخفي توترا عظيما. قال:

«انني لو استقلت سوف القي بالمنظمة في مهب الرياح، في هذه الظروف الصعبة المملوءة بالمخاطر. انه لا يحق لي ان أفعل ذلك (...) انني اتحمل مسؤولية آراء الدول الاعضاء كلها، الدول التي تمثل المنظمة بالنسبة لها اهمية قصوى (...) الاتحاد السوفييتي ليس في حاجة الى حماية المنظمة، ولا اي من الدول الكبيرة. الدول التي تحتاج الى المنظمة هي الدول الاخرى. وبهذا المعنى فهي منظمة هذه الدول (الصغيرة) قبل كل شيء (...) سوف ابقي في مناصبي الى نهاية فترتي، خادما للمنظمة، وحاميا لمصالح تلك الدول، طالما ارادت لي البقاء (...) لقد تحدث مستر خرسنشوف عن الشجاعة. سهل جدا على المرء ان يستقيل. سهل جدا ان ينحني المرء لرغبة دولة كبيرة. إنما ان تقاوم، فذلك شيء آخر، وهو أمر يعلم اعضاء هذه الجمعية، انني لم أتردد عن فعله مرارا...».

إنني اذكر جيدا الاثر البالغ الذي أحدثته هذا الخطاب، والتصفيق الذي قوطع به عدة مرات. ثم في النهاية حين وقف الناس وظلوا يصفقون ويهتفون زمنا. الأ رفيق نيكيتا سيرغيفيتش. ظل جالسا مع جماعته، يضرب على المائدة بكلتا قبضتيه. مثل دوره الى آخر مدا. في مساء اليوم التالي دعا خرسنشوف همرشولد الى حفل الاستقبال الذي اقامه في مقر الوفد السوفييتي في (بارك افنيو). استقبله بحفاوة عظيمة، وقبله وعانقه، وقال له ضاحكا:

«لا تراهن على حصان الرأسمالية. انه حصان خاسر. راهن على الحصان الأبيض، حصان الاشتراكية» ■

نحو أفق بعيد

١٥٦



بقلم الطبيب صالح

بلغ تكاليف أوروبا على الاستعمار أوجه في القرن التاسع عشر. باستثناء دول سكندنافيا التي استعمر بعضها بعضاً، لم تبق دولة أوروبية لم تحصل على مستعمرة أو أكثر. حتى هولندا، حتى البرتغال. ماعدا بلجيكا. لأجل ذلك كان ليوبولد الثاني ملك البلجيك يحس بالغبن ويريد أن يحصل على مستعمرة بأي ثمن.

وفي السابع من يناير عام ١٨٧٦، أحس أن حلمه يمكن أن يتحقق. كانت صحيفة الـ (تايمز) اللندنية تصله بانتظام يوم صدورها بوسائل معقدة. وبينما كان يقرأ في عدد ذلك اليوم. بامعان كعادته. جذبت اهتمامه رسالة بعث بها مراسل الصحيفة من (لواندا) عاصمة أنجولا، المستعمرة البرتغالية، يدل تاريخها إن المراسل بعث بها قبل سبعة أسابيع. فحوى الرسالة أن الملازم (كامرون) الرحالة الإنجليزي قد وصل إلى ساحل أفريقيا الغربي. بعد رحلة عبر القارة استغرقت ثلاث سنوات، وأنه لم يستطع العودة إلى إنجلترا بسبب مرضه، ولكنه أرسل تقريراً عن رحلته ليعرض نيابة عنه في اجتماع الجمعية الملكية الجغرافية في لندن.

بعد أربعة أيام، نشرت صحيفة الـ (تايمز) في مكان بارز، وقائع اجتماع الجمعية الجغرافية. وذكرت أن رئيس الجمعية (سير هنري رولسن) وصف رحلة (كامرون) بأنها «أصعب رحلة قام بها أي من الرحالة المكتشفين في قلب القارة الأفريقية وأكثرها نجاحاً».

ثم توقف الملك ليوبولد طويلاً عند قول الملازم كامرون، كما جاء في الصحيفة: «وسط أفريقيا بلاد رائعة في الغالب، ذات مناخ صحي، تخفي ثروات خرافية».

لقد حصلت على عينة من الفحم الحجري، وهو من النوع الممتاز، وتأكد لي وجود معادن أخرى بكميات كبيرة، مثل الذهب والنحاس والفضة. ولا شك عندي، أنه باستثمار رأس مال ليس كبيراً، يمكن خلق شبكة من أحسن طرق الملاحة الداخلية في العالم. في ثلاثين إلى ستة وثلاثين شهراً، سوف تبدأ هذه الشبكة تدر أرباحاً كبيرة، على أي شخص عنده الجرأة على الاستثمار».

أحس ليوبولد أن تلك الأرض البعيدة المجهولة، التي لا يعرف اسمها بعد، هي المستعمرة التي سوف يقدمها هدية إلى شعبه. بعد يومين فقط كتب إلى الجمعية الجغرافية يعرض عليهم المساهمة في عملية الاستكشاف نظير مائة ألف فرنك (أربعين ألف جنيه استرليني) تنفق على رحلات (كامرون).

ورث ليوبولد الثاني عرش البلجيك عام ١٨٦٥، خلفاً لأبيه، ليوبولد الأول. كانت أسرته، أسرة المائنة فقيرة من صغار النبلاء، تربطها قرابة قريبة بالأسرة المالكة الإنجليزية، وأسرة «لوي فيليب، الفرنسية. وقد أراد الأب أن يدعم موقفه بأن تزوج الأميرة شارلوت ابنة الملك جورج الرابع ملك إنجلترا وولبة عهده، على أمل أن ترث ذريته عرش الإنجليز. ولكن الأميرة توفيت، واضطر ليوبولد الأول. كما عرف فيما بعد - أن يرضى بعرش البلجيك.

لم يكن وضعاً مغرباً، فقد كانت بلجيكا دولة لا يؤبه لها، محشورة بين دولتين قويتين في خصام مستمر، هما ألمانيا وفرنسا. وكان الشعب منقسماً إلى فريقين بينهما حزازات قديمة وعداوات لا تهدأ، الـ «فلمنش» والـ «والون».

استقر رأي الملك، والحال كذلك، أنه لا بد من الحصول على مستعمرة لبلجيكا، مستعمرة في أي مكان، وبأي وسيلة. وقد قدر أن ذلك سوف يعطي شعبه متنفساً لطاقتها، ويصرفه عن الاحتراب الداخلي، كما يعطي بلجيكا وزناً واحتراماً، ويدخلها «نادي» الدول الأوروبية المستعمرة.

الآن وزراءه لم يكونوا متحمسين للفكرة، خاصة رئيس وزرائه المتحيز، الذي كان يمتق فكرة الاستعمار من حيث المبدأ. كانوا يقولون له أن شعب بلجيكا أهل تجارة، والاستعمار تجارة خاسرة، خاصة في المناطق الاستوائية، وأن الدولة لا تملك المال الكافي الذي تتطلبه عمليات الاستيطان وفرض النفوذ والتمسبة والاستثمار. يجيبهم بأنه مستعد للأفناق من ماله الخاص، وكان قادراً بالفعل، فقد كان في طليعة أثرياء أوروبا، إذ ورث ثروة كبيرة من أبويه، نماها وأضاف إليها بصنقات ذكية مثل شراء أسهم في قناة السويس.

أخذ الملك يتلفت يمينا وشمالاً يبحث عن مستعمرة. عرض على الإسبان أن يستأجر منهم مستعمراتهم الفلبين لقاء عشرة ملايين فرنك، ولكنهم رفضوا حتى سجرّد النظر في عرضهم، ذهب إلى

البرتغاليين عارضاً الشراء. «هل تبيعونني أنجولا؟ لا، إذا موزمبيق. لا، إذا جزيرة نيمور».

رفض البرتغاليون أن يبيعوه حتى جزيرة نيمور.

ماذا يفعل؟ إلى من يتجه؟ من يا ترى عنده مستعمرة للبيع؟ الـ الانجليز. غينيا الجديدة.

هؤلاء لهم مستعمرات كثيرة، ولن ينقص من امبراطوريتهم كثيراً إذا باعوه غينيا الجديدة.

زاقته الفكرة تماماً وتأكد من النجاح، فالأسرة الانجليزية المالكة أقرباؤه، والانجليز اصدقائه، وغينيا الجديدة لا تهتم كثيراً إذ أنهم لم يهتموا بأن يتبنوا وجودهم فيها بشكل محسوس. وفي شهر يوليو عام ١٨٧٥، استدعى السفير البريطاني في برنكسل، وقال له بأسلوب حاسم، مثل رجال الأعمال:

«اسمع. دولتنا تحتاج إلى متنفس لطاقتها المكبوتة. أبي كان يؤمن أن الحل الأسهل هو في الحصول على مستعمرة. ذلك سوف يمكننا من تنمية مصالحنا التجارية، أيضاً نرفع الروح المعنوية للجنش، وننشئ اسطولاً تجارياً. ليس عندنا كما تعلم اسطول تجاري الآن. جاء الوقت كي تؤدي بلجيكا واجبتها في المساهمة في العمل النبيل. المهمة العظيمة التي تقوم بها أوروبا. نشر الحضارة والتمدن بين الشعوب البدائية، مقتدبة بالإنجلترا بشكل متواضع طبعاً. وأنا يسعدني أن أهدى شعبي مستعمرة. أقدم له هدية في شكل مستعمرة. سوف أتكفل بجميع النفقات من جببي. المشكلة هي أين تكون المستعمرة. قرار صعب. فكرت طويلاً في الأمر، واعتقد أن غينيا الجديدة هي بالغرض. نعم. غينيا الجديدة. أنها على الطريق الواسع، طريق المستقبل، بين أستراليا واليابان».

استقبل وزير الخارجية، (لورد داربي)، عرض الملك لشراء غينيا الجديدة من بريطانيا بدهشة بالغة، وقال:

«كيف بحق السماء يستطيع ليوبولد أن يوطن بلجيكيين مع أسرهم بين قوم متوحشين يأكلون لحوم البشر؟ نحن إلى الآن لم نحرق على ذلك».

بعد أيام جاء السفير البريطاني إلى ليوبولد برد الحكومة البريطانية، بأنها لا توافق على عرضه، لأن المستوطنين في أستراليا يعتبرون غينيا الجديدة تابعة لأستراليا.

لم يتسبط ذلك من عزيمة الملك. قال لرئيس وزرائه:

«حالة السوق ليست مشجعة. اظن من الحكمة ألا ألح في هذه الظروف. لا أحد يريد أن يبيع. لا الإسبان ولا البرتغاليون ولا الهولنديون ولا الإنجليز. لا بأس. سوف اتحرى بهدوء. لعننا نجد شيئاً ما في أفريقيا» ■

نحو أفق بعيد

١٥٧



بقلم الطيب صالح

لماذا الجزع يا قلبي؟ أما ودعت الاحباب من قبل؟ أنسيت ان الموت اقرب اليك من حبل الوريد يجيئك من حيث لا تحتسب؟ كأنك تمنيت ان يبقى بعدك، يرثيك ويترحم عليك. كان أوثق صلة بربه، واصفى روحاً، وابلغ دعاء، فياليته ظل، وانت ذهبت - ولو كان الموت يقبل المفاداة، لكانت تلك قسمة عادلة.

انما الله قاهر فوق عبادده، ومشيئته لا ترد، فالحمد لله.

جاءك الخير الفادح على غفلة، فزعزع اركانك. واحسرتاه. من لي بعدك بتلك الابتسامة المضيئة، وذلك الوجه الرضي، كانه مرآة مجلوه تعكس دخيلة قلب يفيض بالخير والمحبة وتقوى الله؟

كان تاج السر محمد نور، اخي وصديقي، ابن عمتي وصهري من بقية النفر الابرار الذين مشوا على الارض هونا، ونادتهم الحياة ونادوها بلسان المحبة. الاصفياء الذين صابروا ورابطوا في الحمى، وظلت نيرانهم موقدة. ولد في السراء فلم تبطره السراء، وحين تحول الزمان لم يأس على تحول الزمان، مثل الجيل الاثيم، يمر به السحاب وتهب الأعاصير.

ما أوسع الحزن وما اضيق الكلمات، وهذا عدل نفسي بحق. الا

يعزبك أن تعلم أنه رجل عن الدنيا قريير العين راضي النفس، أما كان دائماً كأنه على أهبة السفر؟ لم يترنث للوداع. لم يلوح بيده. لم يتلفت وراءه. كان ذاهباً الى لقاء ربه في صلاة الجمعة، مقبلاً اليه بكلية، على أهبة الاستعداد للسفر. في الطريق، ثمّة، ناداه الصوت الذي تبعه منذ البدء. استحباب له ببساطة، بلا حيلة ولا ضوضاء، كان مقدراً ان يتم الأمر على هذه الصورة، فقد عبد الله في خفية.

عبد الله بخشية وخفية، فلا تكاد تعرف طول عبادته. ولكن سره كانت تفضحه الأنوار التي تلمع على وجهه.

نشأنا معاً منذ طفولتنا، فقد كنا من سن واحدة، يصغرني بعام. كان الزمان جميلاً، فتقاسمنا حلاوة الزمان. وحين تغير الزمان، كان بعضنا يشد أزر بعض فلم نكتثر لتغير الزمان. أولئك اخوتي في العهد الأول، هو وعلوب وسيد وأبراهيم عباس مد الله في أعمارهم.

وكان هو اسرعنا بذلاً، واصدقنا قولاً، وامضانا عزيمة، وارجحنا عقلاً، واكثرنا مرحاً، واصبرنا على الشدائد.

كانت فيه غبطة وفرح داخلي، كأنه يتكلم بلسان سارا. وتلك السكينة لانه أبداً لم يجرب الاحساس بالذنب. ومن أين يجينه الاحساس بالذنب؟ نشأ في طاعة الله. طاع الله ببساطة، وكأنه لا يبذل جهداً، وكان سبيل الحياة المحيرة قد سدت كلها عليه، وانفتح أمامه طريق واحد، هو طريق الخير والصلاح، فسلكه، وظل يسير فيه الى لقائه الموعود بربه يوم الجمعة.

من أين يجينه الاحساس بالذنب؟ لقد أوفى بالعهود كلها وأكثر. برّ بابويه ووصل ارحامه، ورضي عن الناس ورضوا عنه. استقبل القادمين وودع المسافرين، وعاد المرضى ودفن الموتى. وفي بنصيبه ونصيبه ايضا. بسد كل ثغرة اغفلتها، ويتنهد بكل واجب تركته يقبلني على علاتي، ويغض الطرف عن هفواتي.

رجل ثابت في زمان متقلبت. كنت أعجب العام والعامين، وحين أعود أجده كما عهدته دائماً. داره تتسع قليلاً، واثاث بيته يتحسن قليلاً، أما أبداً لا تجد عنده آثار نعمة طارئة او ثروة مفاجئة. والدار أبداً عامرة

بالناس، عشيرته واصدقاؤه، لا يكادون يتغيرون على مرور السنين. عمل في مصلحة الجمارك وهو دون العشرين من عمره، وظل يرقى الدرجات بفضل اخلاصه وجده وذكاؤه الخارق، وتلك العناية الالهية التي كانت تقود خطاه، حتى وصل إلى أرفع المناصب، واصبح من قلة يضرب بهم المثل في الكفاءة وعفة اليد. كان يقول انه قطع عهداً على نفسه ألا يطعم عائلته من المال الحرام، وما كان أكثر المال الحرام.

ظل من الصابرين المرابطين في الحمى. مرة سافر الى بعثة دراسية في معهد الجمارك في الاسكندرية. ومرة ذهب معاراً من حكومة السودان الى اليمن. وخرج مرتين لأداء فريضة الحج. غير ذلك لم يبرح السودان أبداً. وأنا وامثالي نضرب في البلاد ونجوب الافاق.

شجرة وارفة تنفياً ظلالها وتاكل من ثمارها. تجلس اليه فتغرف من نبع لا ينضب. كان قوي الذاكرة بشكل عجيب، يحفظ القرآن والحديث والشعر القصيح وشعر الدوبيت والتاريخ والأنساب والملح والطرائف. يغمرك بروحانيته، وينسبك عنك الحياة. يجعلك تحس انك افضل مما انت في الحقيقة. تحس ان مجرد وجوده في الدنيا يجعلها أكثر خيراً وأقل عدواناً.

رجل مصباح، يكون قدوة ويضرب به المثل. جاد به الزمان في لحظة من لحظات أرحبته النادرة، فرف مثل طيف جميل، مثل الغيث في الربيع، ثم مضى على عجل ويا للحسرة، ولما استرد الخالق وديعته، فكان الزمان عاد بخيلاً كعهده. رحيله ورحيل الصالحين أمثاله، علامة كما جاء في الاثر.

مضى الى حياة افضل ان شاء الله، مع الصديقين والابرار. وأنا لي الله. لانه اغنى حياتي بحبائه، وافاض علي من بركاته، فأنته برحيله قد افقرني جداً، وتركني أقل مما كنت. وأنا قليل أصلاً في ميزان الحق.

أف للدنيا، تعطيك هباء بحسبه الناس هبات. والذي تحبه يذهب ولا يعود. ولا عزاء.

رحم الله تاج السر محمد نور. وصبر جميل والله المستعان ■

(التحديث بقية)

نحو أفق بعيد

١٥٨



بقلم الطبيب صالح

منذ القرن الخامس عشر، والبرتغاليون يحومون حول أفريقيا، كما تحوم النسور فوق جسد وعمل جريح، وقع من الاعياء، يحاول ان ينهض فلا يستطيع. الذهب بغيتهم، خاصة الذهب. لا عجب، فقد كانت كنوز افريقيا تسيل لعاب الأوروبيين منذ امد بعيد، يسمونها «الدورادو». أرض الكنوز الخرافية. وكان الذهب الافريقي الذي يتسرب الى (جنوا) والبندقية، وبقيّة مدن البحر الابيض المتوسط يفتح شهيتهم، ويلهب خيالهم. ولكنهم لم يكونوا يعرفون من اين يجيء، وكيف يصل إليهم. وكانوا قد تسمعوا من قبل، أن السلطان موسى، سلطان مالي، قد مر بمدينة القاهرة في طريقه لاداء فريضة الحج، ومعه حاشية من خمسمائة مرافق، كل واحد منهم يحمل قضيباً من الذهب الخالص، زنته أربعة أرطال، ليهدبها الى بيت الله الحرام. جن جنونهم، وتساءلوا، من اين يجيء كل ذلك الذهب؟

وفي نحو عام ١٤٨٠، نجح البرتغاليون في ان يجدوا لهم موطئ قدم على ساحل أفريقيا الغربي، وبدأت سفنهم تشحن الذهب في مصب نهر السنغال وفي خليج غينيا. يصلهم من أماكن غامضة في وسط القارة، لا يعلمون أين. لم يستطيعوا النفاذ الى قلب القارة، فآخذوا يضغطون جنوباً. وفي عام ١٤٩٧

وصل (فاسكو داغاما) الى طرف القارة من ناحية الجنوب، فسموه (رأس الرجاء الصالح) The Cape of good Hope، وكان آخرى بهم أن يسموه (رأس الجشع الفادح) فلم يكن البرتغاليون يأملون في شيء غير الكنوز والثراء. والآن انفتح لهم طريق بحري الى الهند وبقيّة آسيا، بديل عن الطريق البري الشاق.

في اثناء ذلك، كان الفرنسيون والانجليز في سياق محموم، أيهم بفوز بقلب القارة. وكان الانجليز يحسون أن الفوز سوف يكون من نصيبهم، بسبب جهود مكتشفهم، أمثال (النجستون) و(سبليك) و(غرانت) و(بيرثن) وأخيراً الملازم (كامرون). وقد بدا الرأي العام في بريطانيا يهتم بأفريقيا، حين أنشئت أول بعثة تشيرية على سفينة على بحيرة (نياسا) مما أدخل عنصراً جديداً أسبق ثوباً أخلاقياً على الجشع الاستعماري. اما الفرنسيون فقد ظلوا يتلقطون أنباء الرحالة الانجليز ويحاولون أن يجدوا منفذاً الى قلب القارة من مستعمرتهم في (غامبيا).

لعل السعار الأوروبي كان سيئته الى الأمريكتين، بعد ان وصلوا اليهما على اثر (كولمبس) في أواخر القرن الخامس عشر. ولكن التوسع في زراعة القطن وقصب السكر هناك، أضاف الى سعارهم في أفريقيا، سبباً جديداً. كانت تلك المزارع تحتاج الى أيد عاملة، ملايين الأيدي العاملة. وكانت أفريقيا، الوعل البري الجريح، لا حول لها ولا قوة، لا تستطيع ان تدافع عن نفسها في مواجهة التكنولوجيا المتقدمة. البوارج والمدافع والبارود. هكذا نشأت تجارة الرقيق. كما كان الذهب يصل الى موانئ الساحل الغربي، أصبح الرقيق يتدفقون من وسط القارة، فيتم فرزهم وتصنيفهم مثل السلع التجارية، وشحنهم مكشزين في السفن في ظروف مخزية، الى البرازيل وأمريكا وجزر الهند الغربية.

رحلت أوروبا نحو عشرة ملايين آدمي في هذه التجارة البشعة. كانت اكبر عملية تهجير قسري في التاريخ. سوف يجيء وقت يحس فيه الضمير الأوروبي بوطاة الاحساس بالذنب. فيبحثون عن شعب آخر يحملونه وزر خطاياهم. ومن تظن الشعب الغافل الذي يحمل أوزار الآخرين عن طيب خاطر؟

كل ذلك وبلجيكا بمغزل. كان ليوبولد الثاني يرى الكلاب الأوروبية تنهش في لحم أفريقيا، ويتلمظ يرب غظماً أو مرققة من لحم. عند رأس مال حاضر، يبلغ خمسة عشر مليون فرنك، يريد أن يحصل به على مستعمره، ولا أحد يسخو بالبيع أو الإيجار. لا بد من الحصول على مستعمرة. كيف يفعل؟

خطرت له فكرة ملهمة. يكسو الجشع رداء الحضارة والمثل العليا وخدمة العلم. فكر أن يعقد مؤتمر كبيراً في برنسل، يدعو اليه العلماء والرحالة والمكتشفين. وفي الثاني عشر من سبتمبر عام ١٨٧٦، افتتح الملك المؤتمر في القاعة الكبرى في القصر الملكي، في جو ساحر من الأبهة والفخامة، وأنغام الموسيقى وأضواء الشموع. كان ذلك بداية شر مستطير للكنغو الباش. مأساة لم تتم فصولها بعد. حقاً التاريخ لا ينسى ولا يغفر. البذور الشريرة التي غرسها ليوبولد في تلك الليلة، أنبتت فيما بعد. كما كان حتماً أن يحدث. شجراً شوكة الندم، وثمره الحسرة.

خطب الملك في جمع العلماء والمكتشفين والرحالة والمغامرين والأفاقيين الذين شمووا رائحة الثراء، ولمع في خيالهم بريق الذهب من قلب أفريقيا المتعب. قال:

«... أن نفتح للحضارة الجزء الوحيد من كوننا الذي ظل مغلقاً دونها... أن نضيء الظلام الكثيف الذي يخيم على شعوب باكملها... تلكم هي، اذا جاز لي التعبير، المغامرة النبيلة... الجهاد المقدس الذي يليق بهذا العصر. وأنه يبدو لي أن بلجيكا مؤهلة لاجتماعها هذا، بحكم موقعها المتوسط في أوروبا، وبحكم حيادها. هذا هو الذي شجعني أن ادعوكم الى داري المتواضعة في هذا الاجتماع الصغير الذي يشرقني ان افتتحة اليوم. ولا حاجة بي أن أؤكد لكم، ان دعوتي لكم الى هذا الاجتماع، لا تخفي وراءها أية اغراض أنانية. أبدأ أيها السادة، صحيح ان بلجيكا دولة صغيرة. ولكنها دولة سعيدة راضية بحظها. ان طموحي الوحيد هو أن اخدم شعبي وبلادي».

بين عشية وضحاها، تحول ليوبولد الثاني ملك البلجيك، من ملك مغمور لدولة لا يؤبه لها، الى نجم يتالق في سماء أوروبا كلها ■

نحو أفق بعيد

١٥٩



بقلم الطبيب صالح

كان المؤتمر ناجحاً بكل المقاييس، أَرْضَى تَوْفِعات الملك كلها. ووجد أولئك العلماء والرحالة والمكتشفون أنفسهم غرقى في محيط من العطف الملكي السامي، والبذخ والأضواء والسحر، الى درجة دوخت رؤوسهم وأعشت أبصارهم، فكتب العالم الوقور «سير هنري رولنسن» مكتشف طلاس اللغة الهيروغليفية، كتب الى زوجته في لندن بحماس صبي يرى السر ك لأول مرة:

«تصوري انهم خصصوا لي جناحاً فاخراً، جناحاً كاملاً لي انا وحدي كل ما فيه أرجواني ومذهب. اللون الأحمر يطغى على كل شيء حتى ورق التواليت».

وقال البارون (فون رختنهوفن) رئيس الوفد الألماني:

«أدار الملك جلساتنا بلطف وتهذيب يفوقان الوصف. انني لا اعرف نظيراً لكرم الضيافة والترف الذي عوملنا به».

أجل، أحس ليوبولد بالرّضى. تحول بين يوم وليلة، من ملك عاطل الذكر لدولة لا وزن لها، الى نجم يشع في سماء أوروبا، من بحر البلطيق

الى سواحل الاطلس وما وراءه، تهبو اليه قلوب سيدات الصالونات في «مبي فير» في لندن وال «فوبور سانت أنري» في باريس. اصبح رمزاً لنور الحضارة الأوروبية، الذي سوف يجلو الغياض في قلب «القارة المظلمة». اصبح بمثابة الاستجابة للدعاء الذي وجهه «لفنجستون» في الخامس من ديسمبر عام ١٨٥٧:

«أتوسل اليكم ان تهتموا بافريقيا. اعرف انني سوف اقضي عما قريب، وينقطع خبري، في تلك الارض التي انفتحت الآن. لا تدعوها تنغلق من جديد. سوف اعود الى افريقيا لأواصل الجهد كي افتتح طريقاً للتجارة وللدّين المسيحي. فهل تواصلون انتم العمل الذي بدأته؟».

وكأن ليوبولد قد هتف «لبيك. لبيك». فقد كانت التجارة والمسيحية تتفقان تماماً مع مخططاته. تحت سحائب الكرم والبذخ والأنبه التي دوخت كل أولئك العلماء والمكتشفين في بركسل، كان الملك يعرف ما يريد. كتب الى سفيره في لندن يقول:

«يجب ألا اضيع الفرصة للحصول على قطعة من هذه الكعكة الافريقية المدهشة».

سارت الامور على ما يرام، وانتهى المؤتمر الى النتائج التي اراد له ليوبولد ان ينتهي اليها. وكان اهمها «انشاء هيئة تسمى (الجمعية الدولية الافريقية) تعمل على تنسيق اعمال الاستكشاف في افريقيا، وتحارب تجارة الرقيق، وتنشر الديانة المسيحية». وطبعاً عرضت رئاسة الجمعية على الملك، فتمنع في القبول، ثم قبل بعد الحاج:

«ماذا بقي اذا؟ بقي ان يحصل ليوبولد على رجل عليم بدروب افريقيا يعينه على تحقيق هدفه. الحصول على مستعمرة. وكان الملك يظن ان «كامرون» هو ذلك الرجل، ولكنه اكتشف في رحلة سرية قام بها الى لندن متخفياً، ان (كامرون) كان يحاول ان يعرض خدماته على الحكومة البريطانية، واقناعها ببسط نفوذها على الجزء الذي اكتشفه في وسط افريقيا، يعني (الكنغو).

من هناك اذا؟ ستانلي، لمع الاسم

في ذهن ليوبولد، واحس بالشسوة. كلما تعمق في التفكير، زادت قناعته ان «ستانلي» هو الرجل الذي يطلبه. ولكن اين هو؟ آخر ما سمع عنه انه في مكان ما وسط القارة يحاول ان يتبع مجرى نهر (لوا لبا) - النهر العظيم، كما سماه «لفنجستون»، ليتحقق هل هو نهر النيل ام نهر الكونغو.

تاريخ الاستكشاف في افريقيا يموج بشخصيات كانها من قصص روائية، وكان «هنري مورثن ستانلي» من اكثرها غرابة. كان طفلاً لقيطاً من ابوين من مقاطعة (ويلز)، فنشأ في ملجأ أيتام نشأة بائسة، كما روى هو نفسه فيما بعد. وفي سن السابعة عشر هرب الى امريكا، وفي مدينة (نيو اورلينز) في الجنوب صادف رجلاً كريماً من اصل انجليزي، يملك مزارع للقطن يسمى (هنري هوب ستانلي) فاواه واعطاه اسمه، وانفق على تعليمه.

عمل «ستانلي» مراسلاً لصحيفة (نيويورك هيرالد) واستطاع ان يجد طريقه الى افريقيا مراسلاً للصحيفة الامريكية بالإضافة الى صحيفة الـ (ديلي تلغراف) الانجليزية.

حين التقى بـ (لفنجستون) عام ١٨٧١، والرحالة الشيخ يجهد ان يكتشف (النوافير) التي ذكر المؤرخ اليوناني «هيرودتس» ان نهر النيل ينبع منها، قال رجل لـ «لفنجستون» «هذا الشاب الامريكي المتعجرف سوف يصنع مجده على حسابك».

فقال «لفنجستون»:

«اذا كان ذلك ما يريد فهنيئاً له. انه اكثر مما استطيع صنعه لنفسه».

بعد ذلك اللقاء بقليل كان «ستانلي» واحداً من ثمانية رجال أعطوا شرف حمل نعش الرحالة الشيخ الى مثواه في «وستمنستر أبي على حافة القبر الى على نفسه ان يكمل العمل الذي بدأه «لفنجستون»، ان يفتح قلب افريقيا لنور (التجارة والمسيحية). وذلك تحديداً ما كان يسعى اليه ليوبولد الثاني ملك البلجيك ■

نحو أفق بعيد

١٦٠



بقلم الطيب صالح

في بلدة تُسمى «أوجيجي»، على نهر «لوالابا»، عثر «ستانلي» على الرحالة القس «ديفيد ليفنجستون» في أكتوبر عام ١٨٧١. كان لقاء درامياً طار ذكره في الأفاق. كان الرحالة الشيخ، رغم المرض والارهاق، يواصل السعي بتصميم رجل اسكتلندي ينتمي إلى المذهب المسيحي الكالفيني، كي يجد منبع النيل. كان يظن أن نهر «لوالابا» هو نهر النيل، الذي سوف يصل بواسطته «نور» المسيحية والتجارة إلى «قلب أفريقيا المظلم». بعد أن يموت «ليفنجستون»، سوف يكتشف الملازم «كامرون» أن الرحالة العتيق، كان يلاحق سراباً، وأن نهر «لوالابا» ليس هو نهر النيل، بل نهر «الكنقو»، وأن طريق «الحضارة» الأوروبية، ليس من ناحية الشمال، ولكن من ناحية الغرب. وكان الأمران سيئين لدى الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك.

احسن «ستانلي» لاول وهلة، بألفة طابعة نحو ذلك الرجل العجيب. كان يحكم طفولته التعيسة يبحث عن أب. وجده من قبل في «نيو أورلينز» في «مستر هنري هوب ستانلي»، وما هي الاقدار قد قبضت له الآن هذا الرجل المهذب الرحيم القلب. كان رحيماً أكثر مما يجب، في نظر «ستانلي». فقد كان يعامل خدمه الزوج برقة شديدة، ولا يقوى على عقابهم اذا اخطأوا. بعد موته، كتب «ستانلي» في مذكراته يقول:

«اسأل الله أن يختارني كي أتمم ما بدأه في فتح أفريقيا لنور المسيحية الواحج. لكن أسألكي سوف تختلف عن أسأليتي. كانت طريقته مليئة بالأخطاء، مع أن الرجل الشيخ نفسه كان مثل القديسين

في طبيته وصبره وتضحيته. هذا العالم القاسي يحتاج إلى رجال أقوياء بوسعهم أن يتحسّسوا في أموره، أكثر من حاجته إلى رجال محبين».

كانا مختلفين أشد الاختلاف، فقد ترك «ستانلي» وراءه، أثراً من الجثث والدماء. وأدّ مات «ليفنجستون» وحيداً، إلا من أتباعه الزوج الأوفياء، في خيمة في الأدغال، مضى «ستانلي» ليصبح نابه الذكر، يقابل الملكة فكتوريا. ويُنال لقب «سير»، ويقضي أيامه الأخيرة سداً على مزرعة واسعة في الريف الإنجليزي. ولعل الكاتب العبقرى «جوزف كتراد» كان يفكر في «ستانلي» حين كتب روايته الشهيرة عن «الكنقو» «قلب الظلام».

ولد «ديفيد ليفنجستون» في ١٩ مارس عام ١٨١٣ في بلدة «بلانتيير» في اسكتلندا، أحد سبعة أطفال، في عائلة فقيرة متديّنة، تنتمي إلى المذهب الكالفيني المتزمت. وقد اضطره فقر أسرته أن يعمل وهو بعد صبي في محلح للقفن، فكان يعمل ويدرس. وفي عام ١٨٣٤ قرأ إعلاناً في الصحف عن حاجة «جمعية الكنائس البريطانية» إلى مبشرين أطباء للعمل في الصين، فالتحق بجامعة «فلاسكو»، حيث درس، وهو ما يزال يعمل، اللغة اليونانية واللاهوت والطب. وفي عام ١٨٣٨، قبل في جمعية لندن التبشيرية، ولكنه لم يستطع السفر إلى الصين، وأقنعه أحد المبشرين في أفريقيا، رجل يسمى «موفات»، أن يذهب إلى أفريقيا. سوف يتزوج «ليفنجستون» ابنة «موفات»، هذا فيما بعد.

في ٢٠ نوفمبر عام ١٨٤٠ رسم كاهناً في الكنيسة، وسافر إلى مدينة «كيب تاون» في جنوب أفريقيا. كانت تلك بداية حياته الاستكشافية الخافلة. اتجه شمالاً فقطع صحراء «كالاهاري» إلى أن وصل في نوفمبر عام ١٨٥٥ إلى نهر «الزامبيزي». وقد قدر له أن يكون أول من أسمى الشلالات «شلالات فكتوريا».

كانت أنباء رحلاته وجهوده التبشيرية تتسرب إلى إنجلترا، بطريقة أضفت عليه رونقاً من الجاذبية والسحر. ولما عاد إليها عام ١٨٥٦، استقبل استقبال الأبطال، ووجد حفاوة عظيمة من المجتمع بمختلف طبقاته. وعزّز شهرته حين نشر كتابه «رحلات مبشر وبعوته في جنوب أفريقيا». لقي الكتاب رواجاً لم يحدث لكتاب من نوعه من قبل، وبيعت منه سبعون ألف نسخة في فترة وجيزة.

وهكذا حين لقبه «ستانلي» في «أوجيجي» لم يكن «ليفنجستون» في حاجة إلى الشهرة. بل الثابت أن «ستانلي» هو الذي أقام شهرته على كسفي الرحالة الشيخ، وقد اتخذ لذلك أساليب خشنة أغضبت كثيرين من محبي «ليفنجستون» وبعضهم تشكك في أن يكون قد قابله أصلاً.

أعطاه المؤن والمعدات التي أرسلها له اصدقائه في إنجلترا، وصحبه طيلة أربعة

أشهر في رحلاته حول بحيرة (تاتانانكا). عاد «ستانلي» إلى إنجلترا ونشر كتابه (كيف وجدت ليفنجستون) الذي أحدث دوياً، وجلب للكاتب شهرة ومالاً.

أما «ليفنجستون» فقد واصل بحثه عن منبع النيل، كأنه يلاحق طيفاً سحرياً. في ٣٠ أبريل عام ١٨٧٣، جُذّ رحاله في قرية صغيرة على نهر (موليلامو). كان قد بلغ منه الأعياء مبلغاً، وهذه النزيف الداخلي الذي كان يعاني منه. ليس معه غير أتباعه الأوفياء من الأفريقيين (سوزي) و(شوما) و(جيكوب ويرايت).

في صباح أول أبريل، وجدوه راكعاً عند سريريه في الخيمة كأنما يصلي. تأكدوا أنه قد مات. بعد ذلك قام هؤلاء الثلاثة بمغامرة ألهمت خيال الشعب البريطاني، وكانت سبباً مهماً في أن تسيطر الحكومة البريطانية نفوذها على منطقة البحيرات في أفريقيا. قرروا أن يعيدوا الجثمان إلى إنجلترا.

شقوا الصدر، وأخرجوا منه القلب، ودفنوه تحت شجرة، وأقاموا شامداً، عليه الاسم وتاريخ الوفاة. هذا العمل سوف يكون له مغزى رمزي عظيم فيما بعد. حنطوا الجثمان بطريقة بدائية وجفّفوه في الشمس، وحملوه في رحلة طويلة شاقة إلى زنجبار. كانوا يسهرون على حراسته بالليل حتى لا تخطفه الضباع من ثمة حذل على سفينة إلى لندن، يصبحه الصبي الزنجبي المخلص (جيكوب ويرايت). جاشت عواطف الإنجليز من التأثر، واختاروا لأجل ذلك (جيكوب ويرايت)، ليكون واحداً من الثمانية الذين حملوا نعش الرحالة إلى مثواه في (وستمنستر أبي)، حيث يدفنون عظماء رجالهم. فيما بعد، دعوا الخادمين الآخرين (سوزي) و(شوما) إلى لندن، وغمرتهما بالحفاوة والتكريم.

قبل ذلك، شاعت الصدف، أن يصل الجثمان في الطريق إلى زنجبار، إلى بلدة تسمى (تابورا). ثمة وجدوا الملازم (كامرون)، عجب أشد العجب لما فعله أولئك الثلاثة، ونصحهم أن يدفنوا «ليفنجستون» حيث هو، ولكنهم أصروا على المضي قدماً. أخذ منهم بعض معدات «ليفنجستون»، وواصل رحلته غرباً. سوف يصل بعد نحو عامين إلى ساحل (أنجولا) ويكون أول رحالة أوروبي يعبر القارة من الشرق إلى الغرب. لم يجد مصب نهر (لوالابا) ولكنه تأكد أن «ليفنجستون» كان مخطئاً، وأن الـ (لوالابا) ما هو إلا نهر الكنقو. سوف تنشر صحيفة «ال (تايمز)» أخبار هذه الرحالة، فيقرؤها ليوبولد الثاني ملك البلجيك في قصره في بروكسل، فتخطر في ذهنه الفكرة بعد ما تكون عن المسيحية وخدمة العلم ■

• ويخدم مخططات ليوبولد، وينال لقب سير... الخ

(المحبت بقية)

نحو أفق بعيد

١٦١



بقلم الطبيب صالح

سوف يصل (ستانلي) الى مصب نهر الكنغو، ويثبت بما لا يترك أدنى شك، ان (النهر العظيم) الذي ظنه (الفنجستون) نهر النيل، ليس غير نهر الكنغو. ولكنه لن يجد جلاوة الانتصار. حين مات (فرانك بوكث) آخر مرافقيه من الاوربيين، كتب في مذكرته يقول:

«اه يا صديقي فرانك. انك رجل محظوظ ارتحت من هذه الفوضى الفظيعة. نجوت من الوحل الذي غرقت انا فيه الى أدنى».

ان كان في هذه الكلمات، احساس بتوبيخ الضمير، فلا جرم، فقد ارتكب (ستانلي) كثيراً من الآثام للوصول الى غايته. وكأنه تنبا بما سوف يحدث في المستقبل. سوف يغرق كثيرون بعده في «وحل» الكنغو. سوف يروح فيه (داج همرشولد) الرجل السويدي المتحضر الذي لم تكن له يد في كل ما حدث. سوف تشب حروب يقتل فيها الاف الناس، وترهق روح (باتريس لوممبا) التعيس. وهي مأساة من ماسي جشع الانسان لم تكتمل فصولها بعد.

في الخامس من اغسطس عام ١٨٧٧، بعد نحو عام من انقطاع اخبار (ستانلي) اوصل اربعة سواحليين رسالة بالانجليزية، الى بلدة صغيرة عند مصب نهر الكنغو تدعى (بوما) جعلها الاوربيون قاعدة تجارية. كانوا خليطاً من الانجليز والبرتغاليين

والاسبان والهولنديين. كانت من (ستانلي). قراها تاجر برتغالي اسمه «داموتا فيجا» تقول: «الي اي رجل كريم يتحدث اللغة الانجليزية في (أمبوما)».

سبدي العزيز. لقد وصلت الى هذا المكان قادما من زنجبار وفي صحبتي مائة وخمسة عشر انسانا، رجالا ونساء واطفالا. اننا لا نستطيع ان تشتري شيئا من الاهالي، الذين يرفضون ما نقدمه لهم من الثياب والخرز ويجدون مدعاة للضحك والسخرية. لا يمكن شراء الطعام في هذه البلاد الا في ايام الاسواق، ونحن نكاد نهلك من الجوع ولا نقوى على الانتظار. لا اعرف من انت، وقد سمعت بوجود رجل انجليزي في (أمبوما). لكنك مسيحي وجنتلمان، لذلك فأنني اتوسل اليك الاتصم اذنك عن ندائي. ضروري ان يصلنا المدد في غضون يومين وإلا فأننا هالكون لا محالة».

ارسل له (فيجا) المدد المطلوب، وفي الثامن من اغسطس وصل (ستانلي) الى (بوما) - التي سماها في رسالته (أمبوما) - وصل مع من بقي من اتباعه في حالة لا توصف من الجهد والاعياء. كان قد مضى على بدء رحلته من زنجبار قرابة ثلاثة اعوام، وقطع اكثر من سبعة الاف ميل. حين بدأ كان معه مئتان وخمسون، وحين وصل الى (بوما) كان قد بقي منهم اقل من النصف. بعضهم هرب منه في الطريق، وبعضهم اهلكه المرض، وبعضهم قتل في المعارك التي خاضها.

اجهش (ستانلي) بالكاء، بينما اخذ اتباعه يغنون غناءهم الافريقي عند النصر في الحرب، بأصوات ضعيفة متعبة. سوف يحزن اكثر، فما يزال القدر يخفي له مزيداً من الألم.

حين عاد الى زنجبار، وجد رسالة جرحت قلبه جرحاً عميقاً، من خطيبته (السون بايك). كانت فتاة امريكية في السابعة عشر، ابنة ثري يهودي من (سبسانتي). تعاهدا على الزواج ووقعوا ميثاقاً بذلك يقول:

«نقسم على ان نظل وفيين احداً للآخر، وان نتزوج حالما يعود هنري مورتن ستانلي من رحلاته في افريقيا. كان يسميها «الحلم والملاذ والامل»، ولكنها لم تستطع الانتظار، فتزوجت رجلاً مليونيراً من (اوهايو).

سمى قاريه (ليدي أليسون) على اسمها. كان قارباً من عدة اجزاء، تفك ويعاد تركيبها، غرق في ما بعد في

مياه نهر (لوالابا). وكان يحمل صورتها في جيب (جاكتته) الداخلي قريبا من قلبه.

التقى أثناء طوافه حول بحيرة فكتوريا بالكاباكا (مئسا) ملك الـ (بوغاندا). وجده يميل الى اعتناق الاسلام، فأغراه بالدخول في المسيحية، ووجه نداء عبر صحيفتي الـ (ديلي تلغراف) والـ (نيويورك هيرالد) برسالة مبشرين الى (بوغاندا). سوف يتدفقون وشيكا على شواطئ بحيرة فكتوريا، وفي اقل من عشرين عاماً سوف تصبح بوغاندا باكملها مستعمرة بريطانية.

خرج (ستانلي) من بلاط ملك الـ (بوغاندا) سعيداً مرتاح الضمير، فقد احس انه حقق هدفاً من اهداف (الفنجستون). ولكن يديه سرعان ما تلطختا بالدماء، وكانت وصمة لاحقته طول حياته.

وصل الى جزيرة في بحيرة فكتوريا، تسمى (بميري). طلب من اهليها ان يبيعوه الطعام والمؤونة، فرفضوا. شن عليهم الحرب فقتل منهم اربعة عشر. لم يكتف بذلك، بل عاد اليهم في اليوم التالي «كي يلقتهم درساً»، فأخذهم بغتة، وغمرهم بنيران بنادقه. كانت مذبحة قتل فيها اكثر من مائة انسان. كتب في مذكرته مزهوا بما حققه من (نصر):

«يا له من نصر عظيم! سارت قواربنا خدلي بحذاء شاطئ البحيرة. سبعة وثلاثون قارباً. كانت المجاذيف تضرب الماء على دقات الطبول وانغام الابواق، والاعلام الانجليزية والامريكية والزنجبارية ترفرف في الهواء. كان منظراً منمناً بحق».

كانت رحلته بتمويل من مصادر انجليزية - امريكية، وقد حق للاعلام الانجليزية والامريكية ان ترفرف في الهواء. اما العلم الأحمر القاني، علم سلطان زنجبار، فكان كما تنثر الرماد للريح. لقد استعان (ستانلي) بالزنجباريين لانهم كانوا ادرى بتلك الدروب. سوف يلتقي عما قريب بالعربي اسطورة، جامد بن محمد المعروف بـ (تسوتب)، الرجل الذي حملوه اوزاراً في تجارة الرقيق، بعضها صحيح وأغلبها محض افتراء. كذلك فعلوا مع العربي السوداني الزبير (باشا) ود رحمة، وولديه رابع وسليمان. وهي من الاوزار التي حملها العرب الى اليوم. عن طبيب خاطر - بدلاً من الجناة الأصليين ■

نحو أفق بعيد

١٦٢



بقلم الطيب صالح

حين عاد (ستانلي) الى لندن في يناير عام ١٨٧٨، استقبل استقبالاً محيراً. اعتبر كثيرون اكتشافه لنهر الكونغو أعظم اكتشاف في إفريقيا، ووجد ترحاباً على نطاق واسع. وفي المقابل استقبله كثيرون بفتور واضح. وقد حُرِّف في نفسه أن بعض المقاعد كانت شاغرة في قاعة (سانت جيمس)، حين ألقى محاضرة عن رحلاته لأعضاء الجمعية الجغرافية الملكية.

أسبوا من ذلك أن الحكومة لم تتحمس لاقتراحه أن تستعمر بريطانيا حوض نهر الكونغو. وكتب في مذكرته:

«لقد عجزت عن فهم هؤلاء الانجليز، أما أنهم يظنون أنني أعمل لمصلحتي الخاصة، أو أنهم يعتبرونني كاذباً.. كان جزائي أنهم يصفونني بأنني لست أكثر من مغامر يبحث عن الثراء... ونظير اغاثي لـ (لنجستون) اسموني محيلاً. وحين أحاول تحريك عزائهم للعجل يسخرون مني ويقولون أنني غر لا أفهم أمور المال والتجارة».

كان الانجليز بالفعل في شغل عن الكونغو في ذلك الوقت. كانت الحكومة منصرفة الى أمور أخرى، مثل أحداث البلقان وديون الخديوي في مصر. وكان عدد كبير من

السياسيين ورجال المال غير متحمسين للدخول في مغامرات استعمارية جديدة. كانوا مثل رئيس وزراء ليوبولد، يقدرّون أن إقامة مستعمرة في الكونغو، يحتاج الى رأسمال كبير. لن يدر ربحاً الا بعد زمن طويل. حتى رجال الكنيسة لم يكونوا متحمسين. كانوا منصرفين الى فتح ارساليات في يوغندا ونياسالاند.

كل ذلك كان يثلج صدر ليوبولد. كان سفيره في لندن يرصد تحركات الرياح ويرسل اليه الأخبار أولاً بأول فتتزل على قلبه برداً وسلاماً. فلينتظره، ولكن يجب ألا ينتظر طويلاً. صحيح أن الانجليز ليسوا متحمسين لاستعمار الكونغو اليوم، ولكن من يضمن أن شهيتهم لن تنفتح غداً؟ هؤلاء القوم الماكرون، اذا ارادوا شيئاً حصلوا عليه! فلينبص الشراك لـ (ستانلي) وينتظر.

أما (ستانلي) فإنه ازاء صدود الانجليز وسخريتهم، فقد ندم أنه لم يستجب من قبل لدعوة الملك. اول ما أرسلت سفينته في ميناء (مرسيليا) في الطريق الى لندن، وجد في انتظاره دعوة من ليوبولد لزيارته في بركسل. كان (ستانلي) يعلم أن الملك لن يتحدث معه عن أنواع النباتات والطيور في غابات الكونغو، فضرب عنها صفحاً. سوف ينيخ اماله وأحلامه عند قوم أجدر بها وأقدر على تحقيقها.

وهكذا حين أعاد ليوبولد الكرة في شهر يونيو عام ١٨٧٨، سارع (ستانلي) الى تلبية الدعوة. وصل الى بركسل في الحادي عشر من يونيو، فاستضافه الملك في قصره وأسبغ عليه ألواناً من بذخ الضيافة أدارت رأسه، كما حدث من قبل مع أولئك العلماء الأجلاء. لكنه لم يفتاحه في موضوع الكونغو. تركه أياماً يتقلب في ذلك الترف ولا يقول له شيئاً.

عرف (ستانلي) مقاصد الملك فيما بعد على مستوى أدنى من مستوى صاحب الجلالة. في باريس في شهر اغسطس افتتح عدد من اتباع الملك المفاوضات مع (ستانلي) في موضوع الكونغو. كانت مفاوضات دقيقة مفصلة عن الأسعار والتكاليف والوسائل والسبل.

الا أن (ستانلي) لم يكن أقل مراوغة من الملك. لم يلتزم لهم بشيء. عاد الى لندن وحاول من جديد أن يذكي حماسة الانجليز على استعمار الكونغو. ولا من مجيب. ولم يكن يعلم أن صورته عند الانجليز قد ساءت تماماً، فقد أرسل القنصل البريطاني في زنجبار تقريراً سرياً الى وزارة الخارجية وجه فيه اتهامات دامغة لـ (ستانلي).

كان رجلاً يدعى (دكتور جون كيرك)، وقد تارت العداوة بينه وبين (ستانلي) لأن هذا اتهمه على الملأ في لندن بأنه تقاعس عن نجدة (لنجستون). كال له (دكتور جون كيرك) الصاع صاعين، فأنهم في التقرير بأنه اتخذ لنفسه محظية زنجبية. كان ذلك افطع ما يمكن أن يتهم به رجل (أبيض) في ذلك الزمان. لم يكتف بذلك بل اتهمه بالقتل والنهب والاتجار في الرقيق.

كانت وزارة الخارجية بلا شك مثقلة بالعنجهية الطبقة الانجليزية، فسارعت الى تصديق (دكتور كيرك). أو ليس انجليزيا جنتلمان؟ ومن هذا الـ (ستانلي)؟ أليس من ويلز؟ أليس امريكياً؟ ألم يكن لقيطاً نشأ في ملجأ أيتام؟

إذا لا مفر من ليوبولد الثاني ملك البلجيك. في خريف عام ١٨٧٨ قرر (ستانلي) أن يضع نفسه تحت تصرف الملك، ويرتبط معه بعقد عمل لمدة خمس سنوات.

ماذا تطلب مني يا صاحب الجلالة؟ مشاريع بسيطة... مشاريع علمية وإنسانية. ثلاث مستشفيات.. بعض محطات للبحوث.. دراسة خطة للمواصلات النهرية تربط أعلى نهر الكونغو بأسفله. هذا كل ما في الأمر... انما عليك بمراعاة السرية التامة... لا تقل شيئاً لذرأيلي... سوف يتم كل هذا بأشراف الاتحاد الإفريقي الدولي.

الا أن (ستانلي) لم يكن ساذجاً. كتب في مذكرته:

«هذا الملك سياسي داهية. انه ذكي جداً! ولكنني لم أجلس معه كل هذه الساعات دون أن أعرف حقيقة نواياه... انه يريد تحت غطاء (الاتحاد الإفريقي) أن يجعل من حوض الكونغو مستعمرة بلجيكية».

نحو أفق بعيد

١٦٣



بقلم الطيب صالح

تغديه دواوين من بعض شعر هذا الزمان:

وليست عشيّات الحمى يرواجع
أليك ولكن حل عيبك تدمعا

أواه يا أم عمرو! من لي بعشيّات
الحمى لو تعود
كذلك مثل هذا الشعر، يحرك أريحيات
الإنسان الكريم، أو كما قال البحرّي:

إذا هجن وسواس الخيل تولعت
بنا أريحيات الجوى والسواس
ومنه مشغول به الطرف هارب
بعينيه من لحظ الحب المخاسر

وقد ذاق (الحدلول) مثل هذا العناء في
نواحي (الرصيم):

بت أليارمان قبل (الرصيم) تنأى
فيها خمس حُرُز شورتين غف خنافة
تلت وبكت العجاج النخرة دقافة
فوت (ها) على البنات تمرّة لسان وحداقة

العاج، وفي رواية (الخنوخ) النقرته
دقافه، هو وسواس الحلي، عند نساء
البحرّي، فقد حركت الفتاة عند الحدلول
يدها فاضطخت الاساور بالعاج، وبعضها
تبعض، فاشاحت الوسواس الذي يلبس فؤاد
الشاعر. وهي بعد طويلة الرقية، قاسها
الشاعر كأنما بالمسطرة، فيها خمس طيات
(حزوز) تحتها عقدان (شورتين) ثم عقد
(خنافة).

عثرت في الرياض ايضا، على ابيات
من شعر الحدلول ضاعت مني ولبنت
أبحث عنها زما. لسبب ما اسقطها جفيد
الشاعر، الدكتور أبراهيم الحدلول من
الديوان الذي جمعه من شعر جده. وذلك
جهد عظيم يحمد له. لقيت الابيات عند
شاب اسمه عوض الله يعمل في اذاعة
الرياض، من سودانيي آل دياسبوراء،
لكثرة ما تجد من السودانيين في بلاد الله،
تحسب ان لم يبق عندهم أحد يتأخر عليه
أخواننا هؤلاء.

قال الحدلول رحمه الله:

البارح شحوب شلّ بريق النور
وحس رعداً يكركر في الضمير كوك
ذاك طير القمل دوز مشارع الهو
وفرقان البطانة اتماست بالضمير

(بريق) تصغير (برق). و(شلّ) يلمع،
والنور، يعني النوء، يقصد الرياح التي
تسوق المطر، ولعله غنى المطر بعينها.
(الهو) ترخيم لـ (الهوج) وهي ناحية
الجنوب من أرض البطانة.

هذا وقد فعل البرق الاعاجيب في شعر
الاقدمين، ولكن اثره انقطع في شعر هذا
الزمان، اللهم الا في الشعر النبطي وشعر
الدوبيت والرجل، فشعراء هذه الايام في
الغالب، مشغولون بصخرة سيزيف ودموع
عشتار وهموم يولييسيس وما شابه، ولن

تجد شعراً عربياً غفلاً من لمع البروق
وسجع البمام وهبوب الصبا وريح
الخرامى، وتقعقة سنائك الخيل وحسين
الابل واصطخساب الدلاء في الابار، الا
وجدته شعراً كأننا تمزج اللبن الحليب
بالماء.

كان الشعراء يغفدون أما لمع البرق، من
شدة التباريح، ويقول الواحد منهم (أعنى
على برق أريك وميضه)، وأنت تعلم ما فعل
البرق بابل أبي العلاء، بل بابي العلاء
نفسه حين:

إذا لاح أيماض سنرت وجوهها
كأنى عمرو والمنى سعالى

ثم حين وصف لمعان البرق في ليلة
ظلماء كأنه، زنجية فصدت عرقاء،
جل المستبنة، فصدت عرقاء، أم ان احداً
ما أدنى ظهرها بسوطه كما فعل (ستانلي)
وأضرابه في الكنفو البائس، وكان الشيخ
الضريّر المبصر يشير من وراء الحجب الى
(المناسة الكونية) والدساء التي لم تزل
تسيل من ظهور المستعبدين على أيدي
المستأسدين.

كيف قال الحدلول غفر الله له؟
وحس رعداً يكركر في الضمير كوك

يا له من شعرا وفي رواية:
وحس رعداه يجرح في الضمير كوك

وهذا عندي ابلغ، فكون الرعد يمزق
نياط الضمير، أشد ايلاماً من ان (يكركر)
فيه كما تطرق على باب مغلق.
هذا وقد اختلف الشراح في معنى
قوله:

وفرقان البطانة اتماست بالضمير

وقد ذهب بعضهم الى ان اضاء
مضارب قبائل البطانة الذين تجمعوا في
موسم المطر، قد تماسكت وأقترنت وربطت
بين كل حي واخر، لكثافة الغطان، وهو
معنى جليل يذكر بقول شوقي يصف
التماتيل الغرقى في النيل، ممسك بعضها
من الذعر بعضاً.

لكنني لا ارى ان الشاعر ذهب اليه، ففي
ديارنا في شمال السودان، نقول (نتماسك
بالضوء) أي ندخل بيوتنا قبل ان يخيم
الظلام، يكون ذلك أيام العواصف والأمطار.
وعندي ان الحدلول أراد ان الناس أووا الى
بيوتهم او خيامهم قبل مغيب الشمس
وحلول الظلام، والمعنى هكذا أقرب منلا
وأصدق بواقع الحال.

وبعد، فهذا بعض ما استفدته من
رحلتي للرياض. وقديما قال الامام
الشافعي رحمه الله:

سافر في الاسفار عشر فوائد.

أم تراه قال (اسيع فوائد)؟ اما بقية
الفوائد فلها حديث آخر ان شاء الله ■

(المصنعة بقية)

ان تعجب فاعجب لرجال يقتحمون
مسرح التاريخ - من اين لهم كل هذه الثقة
بالنفس؟ - كان الاوطان صفحات بيضاء
تخط فيها كيف تشاء. كان احداً لم يجئ
قبلهم ولا احد سوف يجي بعدهم. وقد
زعموا انهم اهل تقوى وقران. أفلا
يتدبرون معاني كتاب الله الكريم؟ ومن اين
لهم ان يحيطوا بكل احتمالات المستقبل؟
بدأت الامور في الكنفو البائس مثل
اللعب، وانتهت بمأساة. والتاريخ كذلك في
الاغلب الامم، الا من رحم ربي.

لكنني لن اتحدث اليوم عن الكنفو، ولا
عن اصحابنا هؤلاء، النجباء الاذكياء
الاعبياء، اصلحهم الله. فقد شأقني حديث
الشعر، وكان من فوائد زيارتي الاخيرة
للرياض انني لقيت شاباً يدعى عبد الله
نور، من تلاميذ استاذنا حمد الجاسر،
طويلاً نحيلاً أسمر متوضج العينين، حسن
الصوت حين ينشد الشعر، نجدياً كأنه من
عندنا من نواحي (بابنوسه)، جلسنا في
(قصر الرياض) مع جماعة نتناشد الاشعار
الى ان طلع الفجر.

انشدنا من شعر الصنعة بن عبد الله
القشيري، وانشدناهم من شعر ذي الرمة
وابي العلاء. وما شعر مثل شعر العرب
يطرد بنات الكرى ويحرك بلابل الفؤاد.
والصنعة هذا، هو صاحب الابيات
الشهيرة التي أبكت عيون الزمان منذ الف
عام.

نحن الى ربا وننسك باعديت
مزارك من ربا وشعبا كما معا
وما حسن ان تاني الامر طانعا
وتجزع ان داعي الضيابة اسمعا

الى ان يقول ذلك البيت الفريد، الذي

نحو أفق بعيد

١٦٤



يقلم الطيب صالح

واضح أن تلك الأبيات، صدرت عن قلب مكلوم بحق. عاش الشاعر التجربة، كما يقال بلغة هذه الأيام، واحتمل من الألم ما احتمل. ثم حوّل التجربة إلى فن، ذهب، وعفى الزمان على ملاسات حياته، وظلت الأبيات مثل نجم في السماء يضيء من زمان إلى زمان.. ولعل الشاعر كان يفضل لو أنه سعد في حياته ولم يقل الأبيات، فأي عزاء له أن الناس بعده يطربون للشعر؟

حدث صاحب الأغاني أن الصمّة بن عبد الله القشيري، أحب ابنة عم له تسمى الغامرية، فخطبها إلى أبيها فابى أن يزوجه أباهما وفضل عليه رجلاً من بني مالك بن ملاعب الأسنة، لكثرة ماله ولا بد، فقد كان دميماً قبيماً رخواً، فلم يطق الشاعر صبراً وانطلق إلى الشام. وفي رواية أن عمه اشتط عليه في المهر، فطلب من أبيه أن يعينه، وكان ذا مال، فابى عليه. فسال عشيرته فاعطوه، فجاء بالآبل إلى عمه فلم تحببه وقال له لا أقبل هذه في مهر ابنتي، فاسأل أباك أن يبدلها لك. فاستمع أبوه أن يبدلها. فلما رأى الصمّة ذلك من أبيه ومن عمه سرح الآبل وهام على وجهه. ورات ابنة عمه ما صار فقالت «تالله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته باعرة».

ولحق الصمّة بأحد ثغور الشام. ومّا طال مقامه، تشوّق إلى ابنة عمه ففاضت قريحته بتلك الأبيات، التي لم تزل تهيج لواعج المحبين منذ ذلك العهد.

حنّنت إلى رياً ونفستك بأعدت مزارك من رياً وشعباكما معا

وفي رواية «حنّ إلى رياً، وفي رواية «اتبكى على رياً، وكله محزن».

والقصيدة تُروى على أوجه عدة، فهي من الشعر الذي يصل غوراً بعيداً، فاصبح أهل كل زمان يضيفون إليها شيئاً ويحذفون منها شيئاً حتى لكانها ليست لشاعر بعينه.

قالوا وذكر ابن دريد أن أبا حاتم أكد نسبتها للقشيري وكان يستجدها وكذلك إبراهيم بن محمد بن سليمان الأزدي الذي قال:

ولو حلف خالف أن أحسن أبيات قبلت في الغزل في الجاهلية والإسلام هي أبيات الصمّة القشيري، ما حنّ.

هذا يا عمرك الله، من قبيل المبالغة المستحقة التي يدفع إليها التحيز للشاعر. ولم لا؟ أما أنها حقيقة أجمل ما قبل من شعر الغزل في الجاهلية والإسلام، فاللهم لا. إذا ابن يروح غزل امرئ القيس كمثل قوله:

ديار لسلمى عافيات بذى خال
الح عليها كل أسخم مطال

وإبن يذهب أكثر شعر أبي الخطاب الذي شغل ابن عباس عن وقده في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ضربوا إليه أكباد الأبل:

أمن آل نعم أنت غاد فمُكر؟
غداة غد أم رانح فمُجر؟

وماذا تقول في غزل جرير، عفا الله عن جرير:

يا أم عثمان ما تلقى رواحنا
لو قست مصحنا من حيث منسا
تري بأعينها تحداً وقد قطعت
بين السلوطة والروحان صوفاً
يا حبذا جبل الريان من جبل
وحبذا ساكن الريان إنساناً

وهي القصيدة التي قال فيها بيته الشهير:

يا أم عمرو جزاك الله صالحاً
ردي علي فؤادي مثل ما كانا

إنما هيهات يا أم عمرو!

وإبن تذهب شعر غيلان في صاحبتة (خرقاء) الذي أطرب الرجل الكريم عبد الله أولاد أربيه رحمه الله، والكريم يطرب لمثل شعر غيلان:

وتفتنا نسلتنا فردت تحية
علينا ولم ترجع جواب الخضايط
عصفتي بها نفس تريغ إلى الهوى
إذا ما دعاها دعوة لم تغالب

وعين أرشنتها باكناف (مُشْرِف)
من (الزرق) في سفك ديار الحنات

ثم غزليات أبي عبادة البحثري الذي البى البرق له ولأصحابه وهم موجود على بطن مر) وقوله العجيب:

ظباء ثناها الشيب وحشاً وقد تُرى
لربيع الشباب وهي حد أوانس
صدون مصحراء (الأريك) وربما
وصلن بأخفاء (الدخول) ف (رائس)

دع دار، وخذ أبيات (الرماح بن سيادة) وهو شاعر لا يعد بين الفحول:

وحسراتك قد قلن يوم توافد
قول المجد ومن كُـالرماح
يا لبتنا في غير أمر فادح
طلعت علينا الخسيل بالرماح
بيننا كذاك رائني متسرلاً
بالخيز فسوق خلالة سرادح
فيهن صفراء المعاصم طغلة
بيضا. مثل غريضة التفاح

فسروا (الخلالة السرداح) بأنها الناقة العنيلة العظيمة، والشاعر عليها (متسرلاً بالخز) في تلك القفار، فأي نعمة هو فيها! والفتاة التي يطلبها (صفراء المعاصم) لأنها تلبس أساور الذهب، وهي بعد غضة كتفاح لبنان، فما أجمل الحال وما أحسن المقال.

ذكر أستاذنا الدكتور عبد الله الطيب، أن أستاذه الشاعر الكبير المرحوم عبد الله عمر البنا كان يحب هذه الأبيات. وأنا أيضاً.

هذا، والرواية الثالثة لقصة الصمّة القشيري، أمر وأشد إيلاماً. قالوا إن الصمّة أخبر أباه بطلب عمه، فساق الأب الآبل إلى العم، فعندما فوجدها تنقص بعيراً، فحلف لا يقبلها إلا كاملة، وأقسم الأب ألا يزيد عليها. غضب الشاعر لذلك، وحق له أن يغضب، وقال «والله ما رأيت قط الأم منكماً».

ثم ركب ناقته وضرب على وجهه حتى أتى ثغراً من الثغور. قال بعضهم الشام وقال آخرون طبرستان.

هكذا ولدت هذه الأبيات الجميلة، التي أن لم تكن أجمل ما قاله العرب في الغزل، فهي من أكثر الشعر رقة وأثارة للشجي:

ألا يا خليلي الذين تواصينا
بلومي إلا أن أطيع وأنيسما
فبنا إنه لا بد من رجح نظرة
يمانية شتى بها القوم أو معا
لمتصحب قد عزه القوم أمره
حياء يكف الدمع أن يتعلفا
فليست عشبات الحمى برواجع
إليك ولكن خل عينيك تدمعا
(نصبت فبة)

نحو أفق بعيد

١٦٥



بقلم الطبيب صالح

غفلتُ زماناً عن هذا الشعر الجميل،
شعر ذي الرمة، حتى نبهني اليه عبد
الله أولد أربييه. كانوا في مورتانيا
يعدونه من الحفاظ، وإذا علمت أن أهل
مورتانيا من أحفظ خلق الله لشعر
العرب، أدركت كم كان يحفظ عبد الله
أولد أربييه. تزامننا في غفلة من صروف
الدهر في الدوحة المسمونة الطالع.
رحمه الله. كان انساناً كريم الشبائل
بشكل عجيب. من بادية بتلميت من
أرض شلف، وهي بلاد تذكر ببادية
كردفان في غرب السودان، وفي كليهما
أوجه شبه بأرض نجد، حيث غنى
غيلان ما شاء له الغناء، شعراً يجري
تحت مظهره الخشن، كأية نهر
سلسيل. وبين غيلان والحدردلو شاعر
البطانة، وشائج من قرى لا تخفى.
كانت عيناه تدرقان حين ينشد شعر
ذي الرمة. وكنت أعجب لذلك أول الأمر.
ثم لما أطلت صحيفة عبد الله وصحبة
الشاعر، وصبرت على شوارد عباراته،
وغير استعاراته، تكتفت لي أعاجيب
مذاهب هذا الشاعر العجيب. ليس
جمالاً هذا؟

ونشوان من طول النعاس كأنه
بحلّين من مشوبة يتسرجج
أطرت الكرى عنه وقد مال رأسه
كما مال رشاف الفضال المروءة
إذا مات فوق الرّحل أحبت روحه
بذكران والعيس التراسيل حنّ

إذا أرفض أطراف السباط وملت
حروم المطايا عند نهر صيد

جعل صاحبه دلواً معلقاً بحبل
النعاس في بئر الكرى، وهي بئر لا بد
أن الشريف الرضى رحمه الله متح
منها حين قال:

ثم انتنينا إذا ما هربنا طرب
على الرّحال تعلّنا بذكر

ونذكروا أن «رشاف الفضال المرنج»
هو الذي يشرب ثمالة الكاس، فأنظر أي
سكر حلال هو فيه، لأن المتبروب نعاس
وليس خمر. و«ملت حروم المطايا»
يعني أن أجساد الإبل صارت مثل
الآلهة من شدة الهزال بفعل ما
جسّموها من أسفار. و«صيد» هي
ناقته التي تكبدت منه مثل ما تكبد
«العاتي»، جمل الحدردلو في طلاب
المحبوبة. قال الحدردلو:

يا (عتيت) كبرنا وحالنا قد ما زل
وفي كل يوم تراني مستنك منزل
كل ما طربت الزول آل دعة حاس منهل
خلق الريف بفتح ناري وشمنك قل

صغر اسم جملة «العاتي» إلى
«عتيت» فكانه عاد وإياه إلى عهد
الصبي. وفجأة قال لك (كبرنا)، فادخلك
في حيرة. وحال الغواية مع الشيب،
كما كان في عهد شباب الجمل وشباب
الجمال. وهو كل يوم يقول له «خذ هذا
المكان وخذ هذا المكان»، فمن الذي يأخذ
ومن الذي يعطي؟ كان أبو الطيب أدري
حين خيرته خيله عند تقاطع الدروب:

وبانت نخسرينا بالنقصاب
وأدي المبيضاء وودادي الغرى
نقلنا لها «أين أرض العراق»
نقالت ونحن بتربان «ها»
يعني «هاك» أو «ها هي ذي».

وفي لهجتنا «يطرى» تعني «يتذكر»
و«خلق الريف»، خلقان من الفضّة أو
الذهب تجيء من مصر «الريف».
هذا ولا بد أن الذكرى أبكت الشاعر
أيضاً، رغم أنه لم يصرح وجعل أن
المحبوبة «الزول» هي التي بكت. وعلبك
أنت أن تتخيل أيهما بكى وأيها بكى
أكثر. لم يكونوا يتخرجون من البكاء
في مثل هذا الموقف، ودموعهم لم تزل
تدرف منذ أن قال طرفة

وقوفاً بها صبحي علي مطهيم
بقتول لا تهلك أسى وتحلم

فماضر الحدردلو لو بكى وماضر
غيلان:

كان ديار الحي (الزّو) خلّة
من الأرض أم مستبوبة بعدد
إذا قلت نعلو، لا من منها طبع
علي الهيرى من طارف وتلاد
وما أنا في دار لي عرفت بها
حلم ولا عيني بها سعاد

لك الله: هذا وقال أناس أن (خرقاء)
(وي) امرأة واحدة، وأن (خرقاء) لقب
لـ (في). وقال آخرون أنهما مختلفتان.
وأنا أميل إلى رأي ابن سلام أنهما
امرأة واحدة، إذ أن هؤلاء الشعراء في
نهاية الأمر، كل واحد له معشوقة
واحدة، وإن اختلفت الصور والأسماء.

رووا أن ذا الرمة واسمه غيلان بن
عقبة بن مسعود بن بني عدي بن عبد
مناد، من بضاء بني وهي بجوار أمها،
وكان معه أخوه وأبن عمه، ولما راها
صعق لجمالها وخرق أداته، وقال لها
«أخزي لي هذه». قالت «والله لا أجسن
ذلك وإنني لخرقاء». فقال لامها «مريها
أن تسقيني ماء». فقالت لها «قومي يا
خرقاء فأسقه ماء». فجاءت له بالماء،
وكان على كتفه رمة، أي قطعة من حبل،
فقالت له «اشرب يا ذا الرمة».

هكذا صار. تقول أن القصة من
تلغيق الرواة؟ ربما. ولكنني أرى أن
الامر قد صار على هذا النحو. أسماها
(خرقاء) واسمته (ذا الرمة). أي أنها
جعلت منه رجلاً آخر، وجعل منها امرأة
أخرى. هذا ما يصنعه الفن ويصنعه
الجمال ويصنعه الحب.

بعد قرون وقف شاعر السودان
الفحل، محمد سعيد العباسي الموقف
نفسه ببادية كردفان، واستسقى وجين
له بالماء، فقال:

حسبات بما تلت مل
حاجة مثلي منك ما؟

أم ماذا تريد يا عمرك الله؟ هذا وقد
ذكروا أن ذا الرمة قال في ذلك الموقف
أول شعر له:

قد سخرت أخت بني لسيد
مئي ومن سلم ومن مسعود
أنت غلامي سندر بعيد
يدرعيان الليل ذا السكود
مثل أراع التلق الحسيد

نحو أفريق بعيد

١٦٦



بقلم الطبيب صالح

مرت سنوات قبل ان يحول الشاعر ملايسات لقائه الاول مع محبوبته الى شعر فيه فن، وصناعة، فكانت قصيدته الشهيرة (هل تعرف المنزل بالوحيد)، التي يقول فيها:-

يا مبي ذات الميسم البرود
بعد الرقاد والحناء المخمود
والقطنين وبياض الحديد
والكنخ من أدمغة غنود
عن الطبيب متسع فرود
أهلكني باليوم والشيفيد

نزوح من أخرى، واصبح ابا كما توضح الارجوزة، فزادت القصة تعقيدا. وحين تتذكر ان الشاعر يسترجع شيئا عزيزا ضيعه، تتحول لديك اوصاف الفتاة التي تبدو عادية، الى امر غير عادي. وقد غير تلك الابيات التي عنت له غفو الخاطر اول ما صغقه حب (مي) فقال:-

ند عشت أخت بني لسيد
ومزنت مني ومن مسعود

وكانت (أخت بني لسيد) - قد (سخرت) منه ومن سلم ومن مسعود. لكن سخرية الفتاة بقيت تمشي في اكناف القصيدة وتعطيها جاذبية لا تخفى.

قالوا ان الكنخ في الجسم ما بين الخاصرة الى الضلع، ولا تفس انه يصف امرأة، والأدماة في الطباء البيضاء أو هي البيضاء المشربة، والعنود التي ترعى وحدها بعيدة عن القطيع. والمتبعة الغلبية التي يتبعها صغارها.

وكم تری فان الشاعر ينظر الى المرأة فيرى غلبية وينظر الى الغلبية فيرى

محبوبته. يراها حقيقة وليس مجازا. كذلك كان الحردلو، كمثل قوله:-

من البارسان حنن عري (الشيرة)
دموا الساي صرف مؤر عتدا (الشيرة)

في بيت واحد تتحول الغلبية أمام عينيك الى امرأة. ليست المرأة (كأنها غلبية) بل هي الغلبية بعينها. وإذا تخيلت، كما يحدث في بعض الحيل السينمائية، سوف تجد الغزال الذي شرد نحو (البقوة) في اول البيت، قد عاد اليك امرأة تغسل شعرها بالشاي الصرف في نهايته. ولا بد ان غسل الشعر بالشاي في ذلك الزمان كان من مظاهر الترف. وقوله (ال يا زمان) فيه طلاوة، إذ أدخل أداة التعريف على المنادي، كمن يتنثرت باعثة الرياح!

يشرب الشاعر في تلك الغلوات، فتعنه له سوانح الغلاء مثل أطياف الذكرى التي ترجم خياله..

انقول لدقناوية غومج حيرت
لنا بين أغنى برقة بالحرانم
أبا طيبة الوغساء بين جلال
وبين النسا ا أنت أم أم سالم؟

لا فكك له منها، يراها حينما اتجه، وقد غاب عليه أخوه مسعود. وكان شاعرا أيضا - تشبيهه محبوبته بالغلبية، فقال:-

فلو تحسن التشبيه والتعت لم تقل
لشاة النسا ا أنت أم أم سالم
جعلت لها ترين فرج قصاصها
وظلمين مسودين تحت القروانم

مسعود كان يمزح ولا شك. والآ فهو مثل النقداء الذين ابتلي بهم أبو الطيب المنصبي. واضح ان الشاعر لم يقصد بالتشبيه (كل) الغلبية، حتى اطلاقها وقرونها، ولكنه أراد روحها، وتلك (الأنثوية) التي تحيط بالغلبية، وتجعلها اقرب مخلوقات الله إلى (الأنثى الادمية). بل ان كثبان الرمل ونعومتها وانحاءاتها واستداراتها، كانت تذكر الشعراء الاوائل بجسد المرأة. وقد قال ذو الرمة:-

أناة تلوث الرط منها بدغصة
ركام وتحتاب الوشاح فيقتر

يعني أنها تلف إزارها على مثل كثيب الرمل (دغصة) وتضع وشاحها فلا يستقر عليها لضمور بطنها ثم تجر أكثر فقال:-

ورمل كأوراق العذاري قطعته
إذا حلقته المظلمات الحنادس

إذا كيف المفرد؟ فهي أما ظباء تسنح على كثبان الرمل، أو هي الكثبان بعينها، وأنا أجد حلاوة لقوله (ا أنت أم أم أم سالم؟) فكانه يسأل الغلبية: هل أنت غلبية حقاً أم أنت أم سالم؟ لشدة ما اختلط عليه

الامر، وكأنه يقول لها: يربك اليست أم سالم أجمل منك، وفي ذلك أي خلط.

كان جرير والغزدقي، أماما الشعر في ذلك الزمان، يحسدان ذا الرمة لفصاحته وعذوبة شعره وأنه ذاع حتى كاد يطمس شعرهما أحيانا. وقال إنه لم يكن يحسن المديح والهجاء. وقال اخرون مثل ذلك. حتى الشيخ الجليل عمرو بن العلاء غاب عليه ذلك فقال:-

أنا شعر ذي الرمة بعز ظباء، لها شم في أول شمة تم تعود الى أرواح البعر. ولعسري ما أنصف الشيخ، وكأنه من بعض (دكاترة) هذا الزمان. حدثوا ان الغزدقي وقف على غيلان وهو ينشد قصيدته التي مطلعها:-

أمرلني (مي) سلام عليكما
على الساي والساي يود وينسخ

فقال ذو الرمة: كيف تسمع يا أبا فراس؟

قال الغزدقي: أسمع حسنا، قال ذو الرمة: إذا سالي لا أعد في الفحول من الشعراء.

فقال الغزدقي: بمنعك من ذلك اكثارك من ذكر الأبقار وبكاؤك على الديار،

سبحان الله! حتى في تلك الأيام كانت عندهم هذه السنويزم، أم كيف تقولون يا أم عمرو؟

سرق الغزدقي في وقفته تلك، عيانا بيانا قول ذي الرمة:

إذا أرفض أطراف السياط وملئت
جروم المطايا عدتبن مسيدج

سطا على البيت، وقلبه الى حياء للشاعر، فقال:-

ودية لوزر الرمية) أمها
لتسرع عبا (ذو الرمام) وصيدج
قطعت الى معروفها منكراتها
إذا اشتد ال الأعر المتروخ

جعل (ذا الرمة)، (ذا الرمية) و(ذا الرمام) ولعله قال (ذو الرمية) تصغير (رمة).

هذا، وقول الغزدقي (قطعت الى معروفها منكراتها) قول عميق بليغ لشاعر طويل الباع في حلية الشعر. ولكن أبا فراس لم ينصف، إذ أنك قل ان تحسد في ديوانه كله شيئا يقارب قول غيلان عذوبة ودقة وصف:-

ذكرتكم إذ مرت بنا أم شادن
أمام المطايا تشرب وتسنع
من المؤلفات الرمل أنما حرة

شعاع الضحى فم مثها بتوض
تغادر بالوغساء. وعساء (شترف)

طلا طرف عينيها حواله يلمح
رائنا كائن قاصدون لعهدا

به، فهي تدبر تارة وترجز
في الشبه أعطابا وجيدا ومقلة
وسية أهر بعد مها وألمح

(السميت مية)

نحو أفق بعيد

١٦٧



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله.)

سرّني إذ علمت أن بن المعتز، كان يُعجب بذي الرمة ويقدمه، وكان يجزم براعة في التصوير عند الشاعر كقول ذي الرمة:

فلما راين الليل والنسيم حبيبة حياة الذي ينفس حشاشته نار
فنان بارع، لم يتحفظ عن ابداء إعجابه ببراعة فنان آخر، مثل هذه التحيزات، عند أشعراء الكبار، بعضهم لبعض، تلفت النظر، تجسدها عند أبي نواس وأبي العباس، والحردلو، والصورة بدعة حقاً، إذ أن الحمر الوحشية رأت أنها بالليل، ولما يحل الليل، فلم تكن الشمس قد غربت بعد. كانت بين الحياة والموت، وهو بيت يكاد يعدل قول أبي العلاء:

لعل كراماً قد أراها حذاهما
دوان طمّ بالبنفسج ومال
وسرّنيما في مثل أخرى كتبها
إذا أظهرت فيه ذوات حمال
يعني أن الأبل لما نعست في سبورها، تخيلت الحبال التي تقاد بها، كأنها أغصان طلع غضة تاكلها، وأنها ترعى بين شجر وأرف في مراتعها. وقوله (إذا أظهرت فيه ذوات حبال) يعني أن الأبل وقفت تستعرض جمالها وزينتها كما تفعل النساء. وقد وقع الحردلو على المعنى نفسه، فقال يصف الظباء:

نمرت في منامهم الرئاد والغز
ملاخ المنى يسهر تين تدرى
قصد أنها تقف على شعاب الحبال
ومساقط المياه، مختالة بجمالها. ذلك قوله (تنب تنورى)، ولا يخفى أن كلمة (يوري) فصيحة، تعني (يظهر).
كان ابن المعتز شاعراً مثرفاً ليس في حياته وحسب، بل في شعره أيضاً، وقد

احتفى القدماء بقوله يصف الهلال:
أشهر النسيم كبريق من مسحة

فقد أثبتت حسنة من شعر
قالوا لابن الرومي، وهو من الشعراء (المصورين)، ما لك لا تقول مثل هذا فأجابهم، هذا أصبر يصف ما يراه في الغصور، أما أنا فمن أين لي بمثله، إلا أن المحدثين، قد لا يكتفون لهذا التشبيه، ويجدون فيه (سطلحية) و(استغالياً) ولو تميلوا قليلاً لوجدوا أن الصورة لا تخلو من (ثراء) (وترف) كما في ألوان (ماتيس)، وفيها (فر صرف) كما تجد في رسوم (الحياة الساكنة Still life) هذه الأبيات. الفنان يستعرض أدوات فنه، لا أكثر ولا أقل. ليس هذا ما تفر له عيون بعض أصحابنا من اللغوسكتيين) وال(السميانيين) في زماننا هذا

ربما هذا (الفن الصرف) في شعر ذي الرمة، هو الذي أعجب ابن المعتز، فانت إذا استنبتت (طريديات) أبي نواس، لعل لا تجد في العربية، شعراً أنصب على الوصف وتفنن فيه، وذهب فيه كل ذهب، حتى أصبح الوصف هدفاً في حد ذاته. لا تجد ذلك كما في شعر ذي الرمة.

والقصيدة التي ورد فيها البيت الذي أعجب ابن المعتز، هي التي مطلعها:

حليبي عرجاً عرجاً نانتسكنا
على طلل بين (القلات) و(الشراع)
وهي تبدأ بالنسيم، كعادة الشعراء، وهو عند غيلان أكثر رقة منه عند كثيرين.

وقد أتينا حبراً من عيوننا
سرع كنفنا ما بالأسباب
وشنا سباماً من حديث كانه

جس النخل مروجاً ما الونان
تقول، وهل ماء العيون إلا الدموع، ولكن صبراً، حين يقول لك الشاعر، مزوجاً بماء الوقائع، ألا تحسن أن ماء، الأولى هي ماء، الثانية وكان الشاعر قد شرب العسل مزوجاً بماء، دموعه، والوقائع جمع وقيعه، وهي نقرة في الصخر يجتمع فيها ماء المطر. كانوا يطلبون طلاوة الحديث لا أكثر.

تلفت الشاعر من النسيم، كما يفعلون، ويوغل في (الرحلة) كخروج من (المازق)، والمازق هو الحب، أو كما قال عبدة بن الطبيب:

بعد عينا ولا تشمك عر عسل
أن العساة بعيد الشيت تخيل
(والعسل) هنا هو السفر، لذلك أسموا المطايا، البعلمات، وقد قال (الاستاذ):
وأمدى فلا أيدي إلى الماء حياحة
والشمي سرق البعثات لمار
يدخل ذو الرمة في الرحلة، فيعكف على وصفها بدقة مذهلة قل تخفيها في الشعر العربي، بل في كل ما نعرف من شعر الإنشائية، تطاوعه لغة شائعة وقريحة دفاقة:

سدد ذا، ولكن رب وحاً عرس
بداء لعل السارح المنسي
ناقة (الوجناء العرس) هي وسيلته إلى الهروب، ومحاولة الخلاص من الذكرى التي تشغل باله، ولا خلاص ولا مهرب في الغالب. كذلك فعل محمد سعيد العباسي إذ قال:

ثم يبرّ عيبر السري ما شمر له
بمسي وعيبر مات العيبر من عيبر
ثم أنكر بعد لأي وعادوه داؤه القديم.

استنصر الله لي شوقاً يحدده
تبر النسيم والمعالي أي تحديده
وهذا إعلان، شوق وراءه وشوق أمامه، يخبط في الغلوات على نائنه التي تشبه الخمر الوحشية في سرعة عذوها،
تكنني ورختي يسبحي أخت لأخ
من السيف نل المطبات الرأ،
ذلك حمار الوحش الذي أضمر حسنة كثرة ملاحقته للأنث من الحمر الوحشية،
وحين يرد الحمر الوحشية الماء، يتألمها الشاعر بعيني، رسام، عبقري، لا تغفل منها صغيرة ولا كبيرة.

سبأ تبت الموق عن مراثيها
سبأ تبت الموق عن مراثيها
يذكر عن أترابيه من رجل
وأشأ زغر الهلب، زغر الهلب
الحمر واقفة (صياماً) تذب الحشرات عن أنوفها، بتحريك رؤوسها كمن يوءى (لا) والنخرات هي الأنوف، واحسنتها نخرة وعندنا في السودان، الأنف هو (النخرة)، وليس (الخشم) الذي يعني (الدم) بليجتنا ونحن بطردن الذباب الأزرق، أو الأسود، نادنا بهن القليلة الشعر (زغر الهلب) فالأزعر هو الغليل الشعر، وكمن من أزعر كنيف الشعر في هذا الزمان.

ثم لما شربت الحمر الماء، وصف الشاعر شربها وصفاً لا أعرف أن أحدا سبقه إليه.

بدوين من أجواسهن حمرارة
حمر كاشاح الغلا الشباب
وهي صورة في غاية الإعجاب، إذ جعل سرعة شرب الحمر الوحشية وتنابعه كأنه أفواج متتابعة من طير القطا، وإذا تخيلت الريح تحرك صفحة الماء، وتجعل منه (أفجاجاً) متدافعة نحو حمر الوحش، سوف ترى أفواجاً في السماء وأفواجاً في الأرض، لم يكنف الشاعر بأنه أعطاك (سرعة) الشرب (وصوله) (ولونه) ولكن كأنه نفد إلى (عقول) الحمر الوحشية، وجعلك ترى، كيف ربطت هذه الحمر، بين أفجاج (الماء) وأفجاج (الطير) وكيف أحست بالشرب نفسه، بطريقة (Abstract).

ثم أخذ لك هذه الألوان، وطلّى بها سرعة عذو الأبل:

أولئك أشباه الغلام التي طوت
ما النعد من نغى (فيسا) (المساح)
لأحسانها بالليل وقع كانه

على البير نرشبات العشاء السواب
الله أكبر، شرب الحمر الوحشية يشبه تتابع أفواج القطا، وسير الأبل يشبه تيرب الخفاء اللاني لم يشربن لسبع، فانظر كم صورة ولد الشاعر، وهي صور تتكاثر وتزداد عجا كلما تعمقت.

ولا تنتهي القصيدة قبل أن يفجأك الشاعر بصورة ترج خيالك رجاً، يقول لك أن الأبل:

إذا أشفت يوماً فمار تسحرت
علالة ندم أحمر الليل طالع
تخيل النجوم التي ابتلعها هذه الأبل، وكلما أقل نجم، تسحرت ببقايا نجم طلع لها قبيل الفجر! ولم أجد في شعر المحدثين على غرابة طرائفهم، شاعراً (اعتسقب) بنجم (وتسحر) بنجم
كان الشعراء، الواحد منهم يخبط رأسه بالحائطة لجمال مثل هذا البيت.

نحو أفق بعيد

١٧٢



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله ماولد أوربيه رحمه الله)

بلغ بهن القصْد، ولم يكْد ينصْـدعْ عمود
الفجر، وسَمْعنْ نَقِيقَ الضَّفادعْ وبِلْبطةِ
الحيثانِ في البحيرةِ. ثم رَأينْ في الضَّوءِ
الشاحِبْ ماءً (أثال)، الحلم الذي احتَمَلنْ في
سبيلهِ وعِشاءَ الطريقِ، بحدوهِنْ قائدَ همامٍ
شجاعٍ رابطَ الجأشِ، كما وصفَ ابنُ المعتزِ:

شاحجٌ يرفعُ النهيقَ كما عرَدَ
حادٍ يأنقِرُ نجدِي

بطل ملحْميٍّ في الحقيقة، بصفهِ كل
واحدٍ من هؤلاء الشعراء الثلاثة الفحول،
كلٌ على طريقتِهِ، وكأنه يصفُ جانباً في
شخصية واحدة متعددة الجوانب.
أما خيالُ ذي الرمةِ رياحُ الصيفِ،
فأذهبتِ الماءَ وجففتِ العشبَ، وهضمتِ
الحمرَ آخرَ ما تبقى من الطعامِ المخزونِ في
بطونِها. تجمَعنْ حولهَ وأخذنْ ينظرنِ اليه
بتلك الطريقة التي تثيرُ بها الأتشي هُـمُومَ
البعل. «لم يبق ماء ولا طعام يا أبا العيال،
فماذا أنت فاعل؟»

الأ أن صاجِبِهِنَّ ليس بالمتواني ولا
الثَّكلَة. فهم لغورُهُ ما يجبُ عمله، واستقرَّ
عزمُهُ أن يسريَ بهنْ بَـلِيل، ويبلغهِنَّ الماءَ
بالغدَاة.

والهمُ (عين أثال) ما يَنازِعُهُ
من نفسه لسواها موزداً أرب

كذلك هو عند ابن المعتز، إلى جانب أن
فيه حميةً وغيره على حريمه.

شـمْلُهُ لهُ أَقْبَى مـلَـائِـه
غـيـرُهُ مـلَـيْـه خـلـيـه
قاسمٌ حـسـيـباً إليـه كـما
حـمـهُ أُنـيـامـهُ إليـه الـيـومِ
فـدعـاهـما لـتـنـسـرَ المـاءَ
عـطـشـانَ فـكـرَتِ لـو مـتـعـيـنَ لـي

هذا، والطريق عند الحريدلو أطول،
والهدف أبعد، ولا بد من الإقامة والرحيل.
وعلى (البعل) أعباء أثقل، فمساوؤه يطلن
مكاناً أمناً يضعن فيه أحمالهن. لذلك هو
شديد الحذر يخلو كل خطوة بحساب.

خـلـاهنْ يـنـدعُ في بـقـيلٍ وخـرجتْ نـالَ
لا من دور الوادي السري سِيالَ
فوق (فمزور) طلع شات في مبيته زوالَ
وقلعة (كو) حفيها لتي له فيها نعال

ترك حلالته رُتعا في مرعى من البقل
والنَّال، وراح يرتاد سِـبَـراةِ الوادي، أي
اعسله، والوادي سائل بمائه. رأى من
هضبة (تمزوز) أطياناً فأحس الخطر، ثم
وجد قليلاً من الماء، بمقدار ما يغطي النعل
(نعال) في الحفرة أسفل قلعة (كو). عاد
اليهن عند العصر، وقد استقر عزمه أن
يسري بهن بـلِيل.

جـاهـنْ مـنـقـلـبٍ وفتاً عـصـيرٍ وشَفَافٍ
وكاسٍ ليلٍ بيهنْ من صدف ما نحافٍ
دِيلُ الطبعين دايماً الأبد عَيَافٍ
وفي (نايط السروج) لغين بقلين جاف

فلتقر أعينهن، هؤلاء الظباء المخصفات.
أنهن في حنى بعل باسل لا يهاب فجاءات
السري، ولا مخاطر الطريق. سوف
يوصلهن سالمات إلى الهدف أن شاء الله.
لندعهن يرتحن قليلاً في (نايط السروج)،
ولندهب إلى ابن المعتز لنرى كيف فعل
صاحبه ونساووه.

فـتـسـدِّي لِهِنَّ بِالنَّحْفِ المـفـسـر
مـاءَ صـامِي الحـمـامِ عـذِي
يـتـمـشـي عـلـى حـمـسِي يـلـب
الرَّيـحَ قـدَّاهُ مـسـكـتُهُ مـجـلِي
فإذا ضاحكته ذرة شمس
خلت كسرت عليه الحلي
وسم غلاب وأبكة يتسغنى
فوق أغصان أيكها الغسري

هذا الفردوس العجيب، فردوس ملعون!
وصلته الحمر، يسوقها الفحل الكريم، وقد
أذاب أحسادها الجوع والظما، لكنها لن
تنعم بالورود، ثمة بكمن شيطان على هيئة
إنسان، يذكره لك الشاعر، وكأنه لا يبالي.

عندما ملَّحَمَ سبيلهم خصب
كل يوم له شواء طيري

يا له من جزار، أقام عند ذلك الشبع
الصافي، ليكرز على مخلوقات الله الجميلة
عيشها، ويعكر صفو أحلامها. وهذا

الشاعر المجيد المرفه كأنه لا يبالي. علينا
أن نلجأ إلى الشاعر الكبير حقاً، كبير
القلب والخيال، لنعرف حقيقة هذا
الشيطان الجالس عند باب الفردوس.

وبالسماثل من (جلان) مـتـعـيـنَ
رذل الثياب حفي النخمس مـزـز
معد زرق هيت قسماً حـصـيرة
ملس البطون حذاها الريش والعف
كسنت أذا ودقت أمشالهن له
سبعهن عن الألف منسعر

جالب أوصاب، ومفرق أحباب، هذا
(البلاء) الأدمي. رث الثياب، شبع قمعي
الهيئة، كأنه شبع، مـزـزب في جلبابه، أعد
سهماً ملس البطون مثل الأقاعي. (الرجل)
الكريم، بعلهن قد بلغ بهن القصْد، أو ظن
أنه، وقد ظهر لهن ماء النبع كأنه حلم قريب
المنال. وهن فائنات سراييلهن ناعمة الوبر
تضرب إلى السواد، وفي أحقابهن بياض.
دخلن الماء، فأحسسن شيناً وتوجسن
خبثه. أخذت أكبادهن ترتجف في
أحشائهن من الهم.

تجاذبتهن الرغبة في النجاة، وشهوة
العب من ذلك الشراب السحري الذي قطعن
اليه كل تلك الأبعاد. ثم طغى خربير الماء
على الخوف.

فأقبل الحقب والأكباد ناشرة
فوق الشراسيف من أحشائها تجب
حسنى إذا زلحت عن كل حنصرة
إلى الغليل، ولم يتحصنه، نُفب

تخيل: بعد كل ذلك العناء، لم تكذب
ريقها من الماء. هنا يخبرنا ابن المعتز دون
أكتراث:

تـمـطـي له باهرغ مـيـاض
موقد النصل مـتـه مـبـري

هكذا تنتهي قصته. لم يقل لنا هل
الرامي أصاب أم أخطأ. ولكن قوله (ماض)
يرجح أنه قد أصاب، فلا بارك الله له.
أما ذو الرمة، الشاعر الغنان حقاً،
الإنسان حقاً، فإنه لم يترك مجالاً للشك.
عاطفته مع الوحش:

رمى فأخطأ والانداد غـالـيـة
فأنصغ، والويل هجيراً والحرب
ينغ بالسنح مما قد رأين به
وقعا يكاد حمى المعزاء يلتهب

تتنفس الصعداء، وتقول الحمد لله،
تترك الإنسان المعتدي، يولول ويندب،
ويعزبك أنك تعلم أن ذلك البعل الكريم،
سوف يجد لنفسه موزداً آخر، لعلته أقل
عدوية من (عين أثال)، ولعلته لا يعود أبداً
إلى ذلك النبع المحبوب الملعون ■

نحو أفق بعيد

١٧٣



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولاد أوربيه رحمه الله)

كما بطرف جفن العين، أو كما تقلب الصفحة في (اليوم) صور، أو كما ينبعث مشهد مشهداً على شاشة السينما - أو قل، كما يتلاعب رسام عبقرى مجنون مثل (فان غوخ) بالألوان - يصرف هذا الشاعر العجيب المشهد الأول، وينادي مشهداً آخر.. يفعل ذلك بشجاعة وجراحة تتركك تلهث..

إذاك؟ أم نشئ إليسوشي أكثره مسفع الحد عاد ناشط نشئ

بين قوله (إذاك؟ وقوله أم)، يخشفي عالم كامل، ويولد عالم جديد. أساحر هو؟ روي عن جرير، أنه خرج حاجاً مع المهاجر بن عبيد الله، فلقياً ذا الرمة، فاستنشده، فقال:

ومن حاجتي لولا الثنائي وديما
محب الهوى من ليس بالمتقارب
عطابيل (١) بيض من ربيعة عامر
عذاب الثنايا مشرفات الحنان (٢)
يقطن (٣) (الحمى) بالزمل) منهن مربع
يشرب البان الهجان الجانبي

فقال المهاجر لجرير «مجنون هو».. لا بل هو شاعر موهوب حتى الجنون. ساحر، مثل (برسيرو) عند شيكسبير، يشير بعضاه، فيخشفي عالم في الخيال، ثم يشير، فيظهر عالم. انظر! يقتحم الشاشة مخلوق يضع بالحياة من مخلوقات الله متفرد وحده في الأفق. لم ذلك؟ حوله الثرى والنبات والجماد والأشياء. وفوقه قبة السماء. تلتئم عليه الأفاق، كأنه (أمير) من أسراء الحياة. أنظر

إليه يتشكل في الخيال، ويتوضح. موسى مثل يسوع نادر، أبيض، على سيقانه فقط سود، جده مسفع داكن يغلي بالنشاط ويتفجر بحيوية السحاب، كما وصف ابن المعتز:

فاعدأ في الثرى بمنير ساقاً
يشترى فيها ثياباً وري

ليث يفتات مما تغطر عنه الأرض آخر الصيف بلا ماء، الأمن الندى في برودة الليل. يظله ظل شجر الأرض. ثم حملت إليه الرياح عبق نبات الرية، فتبعها إلى (ذي الفوارس):

أمنى - (ومين) محنازاً طريق
من (ذي الفوارس) تدعو أنه الرب (٤)
حتى إذا جعلته بين أظهرها
من غيمة (٥) الرمل أشباح لها حب (٦)
سم الظلام على الوحشي شملت
ورائح من شياص الدلو مسك

كم لجة غاب في غمراتها هذا الثور الوحشي! أشباح الرمل، وأصواج الليل، ثم هطل عليه طوفان من السماء، فهو في ظلمات بعضها في بعض. وقوله (ورائح من شياص الدلو مسك) يقصد السحاب الكثيف المعطر الذي يأتي في ثوب الدلو، ولكن الشاعر كأنما جعل في السماء دلاء تصب الماء على ظهر الثور.

فبات ضيفاً إلى أرطاة مرتك، من الكشيبي بها دف ومحنجيب ميلاء من معدن الصيران (٧) قاصبة أسرارهن على أهدامها كئيب

لا افلك لم تلتفت لقوله (فبات ضيفاً إلى أرطاة مرتك)، فهذا الشاعر السابق لزمانه، لا يرسي الكلام جزافاً. الطبيعة، أو (البيئة) كما نقول اليوم، هي لديه في إحاء تام. ما خلا الإنسان. هذه السيدة الكريمة، شجرة الأرتي والأرطى مثل الطرفاء - النامية في كشيبي متراكم، أعصانها متهدلة على الرمل حولها، فيها وقاية ودفء. وقد استضافت من قبل قطعاناً من بقر الخلا، تركن عندها ذكريات أقاسمت، أبعاراً حال لونها وببست فكانها الثوت والعنب.

من بساختها عابر سبيل، طارق ليل من مخلوقات الله، والريح تنفخ بالبرد، والمطر. يهطل، فهتت له وقالت «يا هلا ويا حيا».

إذا استهلكت عليه غيباً أرحت
مرابض العين حتى يارج الخشب
كشاته بيت عطار يمسحه
لطانم المسك يحويها وتنته

يا لها من ضيافة! أعدت له مخدعاً أمنا دافئاً يفوح بروائح الصندل والمسك. هطل المطر غزيراً رجة بعد رجة، فابتل الحطب في مرابض البقر الوحشي، ففاحت المرابض بروائح شذية، خلطت من رائحة الأرض والحطب الميت، والروائح التي تركتها الوحوش وراعيها، روائح أجسادها وأبعادها وأحلامها وذكرياتها. كتابات غامضة في سجل الطبيعة، أذاع أسرارها هطول المطر.

أنلق المطر وأصبح الكون بأسره (بيت عطار)، فسبحان الله الخالق المصور القهار. هل يوجد نزلاء غير مسدقنا الثور الوحشي في تلك (المضائف) أنى أوتر أن تخيل أنه وحده في تلك الفلاة، في ضيافة شجرة الأرتي.

تجلو السراور عن منظر لهر
هانه متشبي بلنق (٨) عرر
والودق يستع من أعلى طريقتيه
جنول الجمال جرى في سلكه الثن

قول الشاعر (عرز) بقوى ظني إن صاحبنا وحده، ليس معه أحد. هل تزوج وطلق؟ هل هجرته خلانله؟ هل أحب ولم ينل من حب؟

انه هنا وحده، محل وحده، ويرحل وحده. ويحارب وحده، كما سوف نرى. يلعب البرق كما تفتح العين وتغضب، فنرى (رجلاً) أعزب مشتتلاً بعامة، متجمعاً على ذاته في جوف الكهف وجوف الظلام. ثم يومض البرق، فنرى قحطرات المطر تندرج على ظهره كما تنتشر حبات خضمان أنقرط عقدها. تفاصيل دقيقة بريشة فنان قارح، هي عناصر في (دراما) بالغة البساطة وبالغة التعقيد. وحسبك هو من بطل (ملحمي) وإذا شئت، من بطل (وجودي):

بعشى الكناس بروقيته يهيدمه
من هائل الرمل متفاض (٩) ومتكئ
إذا أراد انكراساً فب من له
دين الأرومة من أمانها طن

لا يكاد المكان يتسع له، كلما تحرك اصطدم قرناه العظيمان (روفاه) بجوانب الكناس، فيهدمها ويهيل عليه الرمل، وإذا انضم أو تمطى في سريره، ضرب قرناه بعروق الشجرة وعاقاه عن الحركة.

وقد توخس رجزاً مقفر نرس (١٠)
بنانة الصوت، ما في يسمعه كذب
نسات يشبهه ناد يشبهه
تدوت الريح والوسواس والهس

لله انت من عابر سبيل. ساهراً تتقلب، تصغي إلى عواء الريح والوسواس، وانت في ضيافة شجرة الأرتي تنتظر الصباح. يجلو عنك البرق في ظلمات كهفك، مرة بعد مرة، كما يضئ الفن العظيم ظلام الحياة. أتركك في رعاية الله، فاسامك منذ الغداة موقف عسير

- (١) العطابيل النساء الحسن الفارغات الطول
- (٢) الحنات، الأكفال
- (٣) يقطن، أي يقطن أيام الحر
- (٤) أربح جمع ربة، نبات طيب له شذى
- (٥) غمة الرمل مظلمة
- (٦) حسب الرمل طرائفه
- (٧) الصيران جمع صوار، وهو القطيع من بقر الوحش
- (٨) التلمق القاء أو هو ما يشتمل به كالعلاء
- (٩) المتفاض من الرمل من الانتفاض، الذي ينهار، والمتكئ الثالث المستقر
- (١٠) النسر الذكي العسل (يشبهه) أي يثقله والد (ثاء) الليل والرطوبة مع برودة

(الحدث بقعة)

نحو أفق بعيد

١٧٤



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولاد أورييه رحمه الله)

تدرك الآن، لماذا ركز الشاعر انتباهك على قرني النور. لشدة ما فعل ذلك، فكان الثور كله قرون. تذكره يتلمظ في الكهف، يتقلب على جانبيه، يضرب قرناه الجدران، فينهزم عليه الرمل، ويصطدمان بالأرض وبغروق شجرة الأرضي. القرنان سلاحه، فهو مدجج بالسلاح، يحارب في ظلمات الكهف، معركة لم تحدث بعد. ثم كما يفعل مخرج سينمائي ملهم، يسلط الشاعر الضوء، درجة درجة، على وجه (البطل) ..

حتى إذا ما حلا عن وجهه فلق هاديه في أخريات الليل منتصب أغباش ليل تمام كان طارقه تططح الخيم حتى ماله جوب

تططح الخيم، أي تراكمت ظلماته على ظلمات الليل، فكان كطراق النمل، طبقة على طبقة. وكل ذلك تططح به وجه الثور الوحشي. ثم جلا عنه ضوء الصباح، قليلاً قليلاً، كما تغسل الخضاب الأسود الكثيف. وفجأة ينطلق الجن من الحبس ..

غدا كان به حنا تدامه من كل أنطاره يحشي ويرتج

عجيب! أمجنون هو؟ المثل هذا قال المهاجر لجريير حين أنشد فما أنجنون

هو ..
الآن سوف تقع الحرب. في جانب، هذا (القرن). وحده أزاء جيش. عابر سبيل، لا تعلم من أين جاء، والي أين يقصد، وما هي قصته. لا يضمر سرا ولا عدوانا. مسافر وحده في سباحات ملكوت الله. قوفه السماء، وتحت جوافره الثرى، وحوله الأفاق. حمر طليق، نبيل أرسقراطي في مملكة الحياة. ليس أقل. وفي الجانب الآخر، في المعسكر الآخر، من يا ترى

صاحت له جوع رزوي مضمرة
نيزارت لأحيا التفريث والجنب
غضت شهرة الانساق خسارية
مثل السراحين في أعناقها العذب

هذا هو الجيش، وبأله من جيش! كلاب سود ضامرة البطون من الجوع، أذانها مائلة الى الوراء كأنها الريش في السهام، وفي أعناقها سيور الجلد، رمز عبوديتها، وهي في تراسستها مثل الذئب.

أنما ابن سيد هذا الجيش الكثيب، الذي يحرك الحرب من وراء ستار

ومظم الصيد فبال لبغيتيه
التي أباه ذاك الكسب يكتسب
مترع أطلس الأطمار ليس له
الأ خسراء والأ سيدها نشب

دوئك هو. آدمي كربة الهيئة، عليه أظمار ثياب بالية متسخة، وشعره في رأسه نقر مثل كتل متفرقة من الغيم. العديوان تجارته، أخذها أباً عن جد. ذلك ديدنه وميراثه.

هنا، يفعل الشاعر شيئاً عجيباً حقاً. لا يزوج بـ (البطل) في المعركة فوراً كما يفعل الحقيقي، وقد أخبرك من قبل أنه (مفكر نذس) أي أنه ذكي فطن مراوغ عليم بتلك القفار. ولا بد أنه خاض حروباً من قبل. ولا بد أنه قدير أنه قد ينجو بنفسه دون قتال، والفر، ولا أقول الفرار، ليس عاراً، حين تكون القوى غير متكافئة ..

فانصاع جانبه الوحشي وأنكرت
يلحجن لا يأتي المطلب والطلب

الجانب (الوحشي) هو الجانب الأيمن، أما الأيسر فهو الجانب (الأنسي). وتلك في نظر الشاعر قسمة عادلة، فالإنسان في رأيه (أعسر) على مذاهب الحياة.

المطلوب هو الثور الوحشي، فمن الطالب ليس الكلاب بالتاكيد، فهي ليست إلا أدوات يحركها مكر الإنسان. الآن، يفعل الشاعر ما هو أعجب. كان

يوسع الثور ان ينجو بنفسه، ولكن فجأة يكف عن الجري.

حتى إذا دبت في الأرض راحته
يثير، ولو شاء، حتى نفسه الهير
خزاية أدركته بعد حبلىته
من جانب الحمل مخلوطا بها الغص

توقف، وتركها تلحق به، مدفوعاً بأحاسيس الكبرياء، وبخافة العار والغضب. وقد غضب، ربما، لأنه أحس أن الحرب قد فرضت عليه فرضاً دون ذنب، وهو سائر في طريقه، لا يضمر سراً لأحد. أما الآن، وقد وطن نفسه على القتال، دفاعاً عن النفس، فسوف نرى منه العجب، وسوف نفهم لماذا ركز الشاعر انتباهنا منذ البداية، على قرني الثور، فهما سلاحه الوحيد في مواجهة هذا الجيش الكثيب.

فكر يمشو طعياً في حراشها
كبانة الآخر في الإتيال بخنيس
نتارة يخض الأعناق عن عرض
وخضاً وتنظم الأسحار والحجب
يتحي لها حد مدير يحوف به
حالا ويصرود حالا لهدم سلب

ها أنت ترى (الرجل) المسالم قد تحول الى مقاتل شرس، يطعن صدور الكلاب، طعناً سريعاً متتابعاً، ويضرب بقرنيه ذات اليمن وذات الشمال، فيبقر البطون ويمزق الجلود. كأنه رمز للحق أزاء الباطل، يطلب الثواب بقضائه على الشر والعدوان ..

حتى إذا كن سحجراً بنابذة
زاهياً وكبلاً رؤيه مختصب
ولى يهد أنهباً وسطها زعلاً
جدالاً قد أفرحت عن روعه الكرك

ترك جثث الكلاب منتورة على أرض المعركة، ومن بينها فرحاً نشطاً غاضباً، قرناه بقطران دماً يلمع ولا بد في ضوء الصباح.

كانه كوكب في اثر عفرية
مسموم في سواد الليل منتعيب

كانه شهاب ثاقب انقض على شيطان من مرده الجن في ظلام الليل. أنظر إليه مهبوماً في الفضاء الرحب، مزهواً بانتصاره، فرحاً بحريته، وقد ألتامت حوله الأفاق. وهل كثير على هذا الشاعر العبقري أن نقول، أنه أقام هذا الثور الوحشي رمزاً لنوازع الخير في الوجود، في مجابهة قوى الشر والعدوان

(تحدث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٦



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوريبه رحمه الله)

ترى رجلاً راجعاً الى داره اول المساء، والظلام لم يستتب له الامر بعد. منقلباً من مكان ما، الى مكان ما. معه زوجته وعياله. وهو (مجنع)، طويل، في كتفيه أنحناء، رأسه يميل الى أمام، وهو أسود. كأنك لم تر سواداً من قبل. جن جنون الشاعر وهو يصف سواده، مثل عاشق متيم، أو أكل نهم، أسود مثل بغير من أبل كلبية، وهي إبل كريهة مشهورة بسوادها، والبغير أضله راعيها، أسودان ولا بد. أسود مثل حبشي يقتفي أثره، فهو مطرق برأسه الى الأرض. أسود مثل زنجي من معاشر متقبي الأذان. هل الحبشي والزنجي هما الراعيان اللذان أضل البعير الكلبى؟

لم يكذ بقوى على مفارقة السواد، فكسا كل ذلك بعباءة سوداء من المخمل لها هذب، وتخيل ما طاب لك عن الهدب، مثل أهذاب العيون، مثل الطحالب الطافية على وجه البحيرة، مثل وذب شجر الطلح، مثل أبيات القصيدة تتخلق في خيال الشاعر.

صور لا حصر لها. صور تردك الى صور، وصور تدفعك الى صور. كان بوسع الشاعر ان يعكف عليها الى الأبد. كان يقدر ان يقضى حياته كلها يصف هذا الظلم.

ولم كل ذلك السواد، كان ذو الرمة،

وهو عربى من عدنى، أسود وضاح السواد، فهل نشر نفسه شغلها فرقتها على شخص قصته

حتى إذا التفت أنسى، نام أثره ومن لا يمسس باباً ولا

كأنه أحس بتغير الضوء واختراب الليل، أو هو شعور الأب. انتهى فجأة. وكان قد انشغل بالرعى. تلقت حوله فإذا صغاره لا شيء بعيد عنه بعد يدعو الى الناس، ولا شيء قريبة قربا يحلب الاطمنئنان. انطلق من لحظته لا يلوي، وانطلقت معه الأفاق والأرض والسماء، وأحوال ترى وأحوال لا ترى.

يرقد (١) في ظل عراض ويظربه حفيف نامحة عشونها حسب

عدا (الرجل)، فعدت فيه وبعده كل تلك الشخصوس التي ركبها الشاعر منها. معه وحوله وفوقه وتحتيه وإسمه ووراءه. جرى البعير الكلبى والراعيان. جرى الرجل الحبشي والرجل الزنجي. هاجت أحوال الطبيعة دفقة واحدة، فعصفت الريح وحملت في وجهها الرمل والحصى وورق الشجر، ودفعت (الرجل) تلزه لزا ولع البرق، وقام الرعد خطيباً مرتجيزاً في الأفاق، واسودت الدنيا بالسحاب الكثيف والظلام، وانتشرت عباءة المخمل السوداء على كل ذلك، فاهالت ظلاماً على الظلام. هذا حال الأب، فكيف حال الأم؟

تبرى له مسلة جرحاء خاضعة فالحرق دوى بنات البصر منتبه كأنها دلو ينزجد ماتحها حتى إذا ما راها خاضه الكرب

دونك هي، تقتحم المشهد اقتحاماً مفاجئاً عنيفاً من حيث لا تدري. وتخيل شاعراً يوقف دلواً مملوء ماء شامياً في بئر، يوقفه في منتصف سقوطه. يوقف النعامة في سرعة عدوها لحظة، فيحرق فيها بتلك العين الفاجضة التي لا يفلت منها شيء، هي (صغلة) أي صغيرة الرأس، وهي (جرحاء) أي أنها ذات ألوان يغلب عليها اللون الأسود. وهي (خاضعة) فسر ذلك بعضهم بأنها ذليلة منكسرة، وقال آخرون منكسة الرأس في عدوها. وقوله (تبرى) أي أنها تباري الأب في عدوه، وقد تلحق به وتفوته.

ويلمها روضة (٢) والريح مفضفة والعبث مرتجرج والليل مقتررب

لا يدخران من الإنفال باتسبة حتى تكاد تبرى (٣) عبيها الأمر

هل تسمع صوت هذه الأم المذعورة على صغارها تصرخ وتولول (يا ويلي يا ويلي) تقول فيختلط عويلها بصراخ الريح، والرعد يوزم في الأفاق. والظلام غير بعيد قد جل أو كاد. قال الشاعر (ويلنفا) وهو تعبير يأتي على عيانه فلا تلتفت إليه. أنها هنا، فإن كلمة (ويل) ترن في أذنك، وكلمة (أم)، فكانك تسمع هذه العبارة القديمة لأول مرة. كذلك صنع (الاستاذ) في قوله..

ألا يا ليت شعري بأي أنسى تقبل في قناة أو حسام

وبعيداً ما بين قولي (يا ليت شعري) وقول أبي الطيب، (يا ليت شعري)، هذا كما وصفوا، هو ما يفعله الفن العظيم. إنه يجعلك تنظر الى الشيء الذي ألفته، فكانك تراه لأول مرة. بتلك الحساسية الثائرة المثال، حدق الشاعر وهلة في (الأم) وأسبع عليها من مؤثرات الشفقة والرحمة. راها (صغلة) يبدو رأسها الصغير محزناً وهي تعدو عدوها المرتاع، (جرحاء) فكان ثوبها قد انحسر عن رأسها، وقد يسقط عن جسدها لشدة ما أخذها من الروع على صغارها. وهي (خاضعة)، وفي الكلمة ما فيها من إيحاءات الذلة والانكسار. مهما كان مدلولها في سياق البيت. ووصف الفراخ بـ (بنات البصر) وهي أناث وذكر، فجعلها كلها أناثاً، أمعنا منه في تأكيد الجانب (الأنثوي)، وهو الجانب الذي لم يزل يقع عليه العنف والعدوان.

أنت اذا، ازاء (أم) - مطلق أم - ككل الامهات اللأى تراهن صباح مساء على شاشات التلفزيون، يحملن في أذرعهن جثث أطفالهن الذين ماتوا أو قتلوا في المجاعات والحروب. مثل نعامة ذي الرمة، يبكين ويتبدبن (يا ويلي يا ويلي). والناس عنهن في شغل، كما قال أبو العلاء.

شبهة القوم متعبة لا يرقون لدمع الشيباء والخنساء

(١) يرقد بعدو عدواً سريعاً، عراض، سحب كثير البرق. البامحة، أول الريح، عشونها، أي مقدمتها، وأصل العشون، اللحية

(٢) الروضة الحدية أو العمدة في المساء. العبث مرتجرج بعقد الرعد، وكانوا يستبهون الرعد بالراجز أو بعض

(٣) تبرى الأب، أي تترن

(انست بقية)

نحو أفق بعيد

١٧٧



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

رجل وامرأة، أم وأب، وحدهما في كون بكر كانه خلق لسباعته يعدوان حتى تتقطع أنفاسهما وتتفرق جلودهما، ينضم اليهما بعير أسود، ينضم اليهما راعيان أسودان، ينضم اليهما حبشي أسود، ينضم اليهما زنجي أسود، يطاردان غنم كثيف منتشعب البروق، تطاردهما ربح نافحة تجعل في وجهها الحصى، يطاردهما نيل يضمر شرا، فيا للطالب والمطلوب، مثل الملك (الير) ورقيقه في العاصفة والثلج، كان (الير) المسكين يطلب ابنته، وهذان يطلبان أطفالهما، فيما أعجب اتفاق الأفكار الجليلة عند العبريين.

لا بأمان سباع الليل أو برداً ان أطفالاً من أطفالها تحت

قصد ب (سباع الليل) مطلق الوحوش والأفات التي تفكك ليلاً، ولم يرد السباع تحديداً والأطفال لها (الجب) أي ضجيج وصو صوة وشغب، ذلك ما تخيله الأيوان وهما يجريان، وكان الأم تسمع بخيالها صراخ أطفالها، فتجيبهم مولولة (يا ويلي يا ويلي)، وهكذا تجد ان الشاعر أقام لك تحطتين من القلق الدرامي، أب يجد وأم تولول في مكان، وأطفال يصرخون في مكان، وبينهما أحوال الطبيعة تغلو وتهبط وتزيد وتنقص.

هذا البيت الجميل، يرى العالم الحبر الدكتور عبد الله الطيب، أنه منجول على ذي الرمة، يورد ذلك في كتابه القيم (شرح أربع قصائد لذي الرمة) الذي صدر عن

جامعة الخرطوم عام ١٩٥٨، وقد أسعدني أنني حصلت عليه أخيراً، يقول: ويبدو لي أن صانع هذا البيت نظر الى القصائد التي وصفت فيها القطاة، لأن الشعراء هناك يصفون فرخ القطا بأن لها (الجب)، ولم أجد شاعراً وصف فرخ الله بذلك.

إذا قالت حرام فصدتوها، إذ لا يخفى ان الدكتور عبد الله من علماء العربية المعدودين في هذا الزمان، وهو الى سجله الأكاديمي الحافل، ناقد بعيد النظر، وشاعر عميق غور العاطفة مالك لأعنة لغة العرب عليم بدقائق أسرارها، ومثله قليلون في حفظه للشعر العربي، وذوقه وفهمه وكتابته (المُرشد الى فهم أشعار العرب وصانعتها) من الكتب المصاحبة، وهو بعد استاذي، وأكن له محبة وتقديراً.

وجد الدكتور عبد الله، ان البيت لا يناسب تفسيره لجملة تلك الأسباب، فهو يرى منذ البداية ان الظلم كان قد ترك صغاره (بيضا) لم يفسد بعد، ويقول في شرح البيت:

حتى اذا البيضُ أمسى شاماً انرخه ومن لا مونس نأيا ولا كُنْ

«شام انرخه، من باب الإيجاز الشديد، لأن ما سبق من الكلام، يذ لنا ان هذه الأفراح بحسب علم الظلم، لم تكن إلا بيضا وكان وجه القول للشاعر ان يقول (شام بيضه)، ولكن أراد ليدلنا ان البيض صار أفرخاً أثناء غيبة الظلم....» ويقول في تفسير البيت:

جاءت من البيض رُعرأ لا لباس لها إلا السدماس وأنم سررة وأب

«جاءت، أراد (جاءت) أو (جاء)، فعامل المنثى هنا معاملة الجمع، ومعنى (جاء) هنا (وجد) ... (الدخاس) بالرفع والنصب، الرمل الناعم، وأم برّة الخ عطف على (إلا لباس لها)، كانه قال (لا لباس لها ولا أم برّة ولا أب إلا الدخاس)، هذا وقوله (من البيض) أي بدل البيض، واستعمال (من) بمعنى (بدل) كثير، ومنه قوله تعالى (أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة) أي بدل الآخرة، وقصد ذو الرمة هنا أن يبين أنها وجدتها أفرخاً وقد كانت تركتها بيضا،»

ويختم تفسيره للبيت بقوله: «يقول، وجد هذا الظلم ونعامته مكان البيت الذي تركها، أفرخاً ضعافاً قليلة الرأس، ليس عليها لباس من أجنتها يقبها المطر وليس لها من معين ولا أب ولا أم، اللهم إلا هذا الرمل الناعم المنتشر.» هذا كما ترى تفسير غاية في الطرافة، جدير بالتقدير، وأد الدكتور عبد الله بحر، فلا غمانر بالسباحة في بحره، وأد هو استاذي، فلا بأس ان أصنع معه ما يصنع التلميذ مع الأستاذ، فأقول، عفا الله عني، ان الأستاذ الجليل، قد أرقق نفسه أي

أرقق كي يستفيد له ان الفراح ليست فراحاً وإنما هي بيض، جعل البيت الذي يصف الفراح بأنها (أطفال لها جب) أنه منجول على ذي الرمة، فلم هذا البيت وحده المتحل، وجعل الجمع مثلي في قول الشاعر (جاءت)، وفسر (جاء) بأنها تعني (وجد)، وبدل (أن تجيء) (الفراح من البيض، صار المعنى ان الظلم والنعامه وجدوا البيض قد صار فراحاً، فمتى وجداه، وفسر حرف الجر (من) بأن معناها (بدل)، وهكذا بدت الشفة.

وعندي، ان المعنى الظاهر والأقرب مثلاً، والأوفق بالسياق (الدرامي) للقصة، هو أننا حيال (عائلة)، أب وأم وأطفال، وقد كانت العائلة اول ما تعرفنا عليها ملتزمة التمثل، الأب بكل ما حمله الشاعر من انقال، سبحانه الله، بينها (زاد وأندام وأخفئة)، والأم المسكنة صغيرة الرأس، خاضعة كالمنكسرة، والعيال يتسبون بأبويهم يسبون في بلاد الله، كما يفرح السودانيون من الجنوب الى الشمال، يحملون زادا قليلاً، وأنداماً بالية ممرقة، وأخفئة أشياء نافية لا تغني.

هذا وقد أسماها الشاعر (أفرخ) وأسماءها (أطفال) وعدّها منذ البداية، فهل عدّ بيضاً أم عدّ فراحاً، ونعت الظلم بـ (أبي ثلاثين) كما تقول (أبو سعد) أو (أبو زينب)، وأغلب الظن ان عود الفراح قد أشد الى حد أنها تستطيع ان تخرج مع أبويها، ولكن ليس الى حد أنها تستطيع ان تسرح وحدها.

انشغل الأب برمة بالرعي، وانشغلت الأم، انتهز الأطفال الفرصة، كعادة الأطفال، فراحوا يلعبون ويمرحون، فابتعدوا عن أبويهم بعداً مقلقا، انتهت الأب وانتهت الأم، فكان ما علمت من هلع وولول وأحوال، في آخر القصيدة، ان كان لها آخر، صور الشاعر الفراح، ليس كما هي الآن، بل كما كانت اول ما تكسر عنها البيض، وذلك شيء معروف عند ذي الرمة، ان الأمر يقوده الى أمور، والصورة الى صور، عاد بالذاكرة الى الوراء، وتصور الفراح في هشاشتها وغضاضتها اول ما خرجت من البيض، وكأنه أراد ان يستدر عطفك، ويعطي مبرراً مضاعفاً لهلع الأبوين، هكذا يتخيلان صغارهما، كما يتخيل كل أبوين أطفالهما صغاراً حتى حين يكبرون.

هذا، وإذا أخذنا برأي الدكتور عبد الله ان الظلم والنعامه وجدوا بدل البيض فراحاً، فهذا يعني ان القصة قد انتهت نهاية سعيدة، وفي ظني ان الشاعر لم يفرغ من القصيدة، بل تركها مفتوحة مثل سمفونية نافضة، ترك لك احتمالات لا حصر لها، وترك لك صورة رمية لا تنسى، لا تقل روعة، لو أنصفنا، عن الصورة التي صنعها شيكسبير في الملك (لير).

وبعد، فانه يجعني بالدكتور عبد الله أيضاً حب العربية والعروية، والسودانيين والسودان، وحب ذي الرمة وأبي الطيب، فليت أنا بقدر الحب نقسم ■

(استمرت نقية)

نحو أفق بعيد

١٧٨



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

قضى ذو الرمة هذا الشاعر (الجسيم)، كما ينعته الدكتور عبد الله الطيب، ولما يبلغ الأربعين. ويقول الدكتور عبد الله في المقدمة البديعة لشرحه لقصائد أربع من شعر ذي الرمة: «وان القلب ليتفطر إذ يجد قلباً كبيراً غيلان، عاجله الموت في غفوان الأمل، وفي السن التي يكتحل فيها النضج. ولعله لو عاش لكان عفى على آثار من تقدموه من فحولة الشعراء، ووصفوا موته، كما كان يصف شخوص عالمه المتخيل. أذاك؟ أم؟ الحقيقة ليس لها وجه واحد، ولكن عدة وجوه».

قال هارون بن محمد بن عبد الملك، حدثني القاسم بن محمد الأسدي قال، حدثني جبر بن رباط قال، أنشد ذو الرمة الناس بالشعلبية شعراً وصف فيه الفلاة، فقال له حابس الأسدي «أنك لتنعث الفلاة نعثة لا تكون منك إلا بها».

قال وصدر ذو الرمة على أحد جفري بني تميم وهما على طريق الحاج من البصرة. فلما اشرف على البصرة قال:

إني لعاليها وإني لخائف
لما قال يوم الشعلبية حابس

فلما توسط الفلاة نزل عن راحلته،

فتفرت منه، ولم تكن تنفر منه، وعليها زاده، فظل يطلبها وهي تنفر منه حتى مات».

إن قبلنا هذه الرواية فلنقبل إن صوتاً غامضاً هتف بـ (صيدح) فتبعته، حتى تأخذ المقادير مجراها، كانت وصاحبها من قبل كأنهما شيء واحد. مات فلاناً، وهل ارتوى أبداً، وهل زارته (مي) في موقفه ذلك، وهل اعانته على الرحيل

الا خيلت خرقاء، وسنا لثنية
فجود وأيسار المطي وسائد
أناخوا لتطوى تحت أعجاز (١) سدفة
أيادي المياري والجفر سواد

روى أحمد بن عبد العزيز، عن الرياش عن الأصمعي عن أبي الوجيه قال دخلت على ذي الرمة وهو يجود بنفسه، فقلت له (كيف تجدك؟) قال (أجدني والله، أجد ما لا أجد أيام أزعج أني أجد ما لم أجد، حيث أقول).

كأنني غداة (الزرق) يا مي مذنب
يجود بنفس قد أحم جملها

قال أبو الوجيه (وكانت منيته هذه في الجدري).
غفر الله لأبي الوجيه، فما اظن إلا أن الشاعر قد وجد ما وصف أنه وجد غداة (الزرق)، والمنايا شكول.

الا خيلت مي وقد نام صجليتي
بها نغر التهويم الأسلامها
طروقاً وجلب (٢) الرجل مشدودة به
سفينه بر تحت خدي زمامها
أنيسخت فالتت بلدة (٣)
قليل بها الأصوات الأبنامها

أذاك؟ أم؟

عن هارون بن الزيات عن موسى بن عيسى الجعفري عن أبيه قال «أخبرني رجل من بني تميم أن ذا الرمة وكان قد اعتل، قال لأخيه مسعود (يا مسعود، قد أجدني تماثلت وخفت الأشياء عندنا واحتجنا إلى زيارة بني مروان، فهل لك في ذلك؟) قال نعم، فأرسله إلى الله ياتيه بلبن يتزوده وواعده أن يلتقي في مكان. وركب ذو الرمة ناقته فقصصت به وكانت قد اغفيت من الركوب زمناً، وانفجرت العلة التي به. وبلغ الموعد وجهه، وقال (اردنا شيبنا وأراد الله شيبنا)، ودفن برأس (حزوي) وهي الرملة التي كان يذكرها في شعره».

ألم تال اليوم الرسوم الدوارس
بحزوي وهل تدري القفار البسابس

مضى العهد من حلقها أم كم انقضى
من الدهر إذ جرت عليها الرواس
ديار لمي ظل من دون صحتي
لنفسى بما هاجت عليها وسواس
تكيف بمي لا تؤاتيك دارها
ولا است طاري الكنع (٤) عنها فيانس

قالوا إنه مات وهو قاصد هشام بن عبد الملك، وكان ذلك عام ١١٧ هـ عند ابن خلكان. وللدكتور عبد الله الطيب قول جميل في هذا يقول:

«وهذا خبر تشتم منه رائحة المساءة.
وكان شيطان الحب والشعر قد غارا من غيلان ونقما عليه خروجه عن مذهبه (.....) ألا ترى أن وفاته قد حدثت أثناء ميهاجته للمرني وقد كاد يعلو عليه، وقبيل رحيله إلى الخليفة، وبعيد مصارمته لمية».

لعل الشاعر، عزم أخيراً، تحت وطأة الحاجة، أن يمدح الخليفة كما ينبغي، وكان قد مدحه في سالف الأيام، ببنت واحد في قصيدة من كذا وستين بيتاً، ثم بحفنة أبيات في قصيدة من ثمانية وأربعين بيتاً، يقول فيها:

جشمتك اليك البعد لا في خصومة
ولا مستجيراً من جزيرة مجرم
ولو شئت قصرت النهار بطفلة
هضم الحشا برأفة المتيسم

وأي جراحة، إن يقول الشاعر لصاحب التاج، «كان يؤسعي أن أقضي وقتي فيما هو أكثر متعة من المجيء إليك».

لا غرو أن هشاماً قال له «أنك لم تمدح إلا ناقتك فخذ منها الثواب».

ليس أنه لم يكن يحسن المديح، بل كان معرضاً عنه أعراضاً متعمداً. ولو كان الخليفة يحتفي بالموهبة من حيث هي ويقدّر الفن في حد ذاته، لوجد جمالاً كثيراً في تلك القصيدة، كمثل قول الشاعر في «مي»:

أحب المكان القفر من أجل أنني
به أتغنى باسمها غير معجم
ولم يبق إلا أن مرجوع ذكرها
نهوض بأحشاء الفؤاد المتيم

١. أعجاز سدفة، بقصد آخر الليل
٢. جلب، بكسر الجيم المعجمة وسكون اللام، عيدان الرجل
٣. بلدة الأولى، صدر التعبير
٤. طوى كشحه عن الأمر، تركه وانصرف عنه

نحو أفق بعيد

١٦٨



بقلم الطبيب صالح

الى قوله:

لو أن حسبه الناس كانوا متلعة
وحسنت بسدي ظالم وأبى ظالم
لعلت رقات الناس ساجدة لنا
سجوداً على أقدامنا بالحاح

فخلع لثامه وأقبل عليه وقال: أنت يا
أبن أبرص صاحب هذه الصفة كذبت والله
وكذبت من سجع ذلك منك فلم يكذبك. أنا
أولى بهما منك..
فذلك قوله:

لو أن جميع الناس كانوا متلعة
وحسنت بسدي دارم وأبى دارم

ولا ينكر أن أباء الفرزدق كانوا أشبه
ذكراً من أباء الرماح الذي أسموه ابن
ميادة، لأنهم كانوا يعيرونه بأنه التي قالوا
أنها من صقلية أو أسبانيا. والأبيات
ليست بشيء، وما كان الفرزدق يعجز أن
يأتي بمثلها، ولكنه طغيان هؤلاء الشعراء
العمالة. وكان أبو نواس يقول: والله لا
يقول شاعر في الخمر وأنا حي..

حتى (الأستاذ) لم يترفع عن الغارة
على شعر غيره. وقد ضحى التقاد في ذلك
فالفوا الكتب عن «سرقبات المتنبي». والأمير
أهون من ذلك. كان متبعاً عندهم لا يرون
فيه أي عيب.

ذلك، وقد رووا أن جريراً قبل أن
يصطليح مع ذي الرمة، جاءه هشام المري
فأنشده في هجاء ذي الرمة فقال له جرير
«لم تصنع شيئاً». قال: «فماذا أفعل يا أبا
حرزة، وأنا راجز وهو يقصد، والرجز لا
يقوم للقصيد في الهجاء» فلو ردتني،
فأعانه جرير بالأبيات التي يقول فيها:

مثل بسدي تستن بسانيها
على فخذ أعيا عدياً رحالها
إذا الرما قد قلت قنومك رمه
بطينا بأمر المطلقين أحلالها

فلما بلغت الأبيات ذا الرمة قال: والله
ما هذا بكلام هشام، ولكنه كلام ابن الأتار..
كان جرير، كما وصفه الفرزدق، خشن
الناحية شرود القافية. وكان في الهجاء
صاعقة لا راد لها. وما أبعد الشاعر. وأظنه
الراعي. حين قال:

ذهب الفرزدق بالنخار وأنابا
حلو القريض ومره لحير

وفي مذهبي، أن «خلو القريض» لذي
الرمة.

١. مددت بضبيغي، يعني نصرثني
وشدت إزري
٢. زهاء، أي جيش ضخم

(تتبع)

كان فحلاً كاسراً في الهجاء. لا يقاربه
ذو الرمة ولا حتى الفرزدق الذي وصفه
بقوله «قاتله الله، فما أحسن ناحيته»
وأشدد قاصيته. والله لو تركوه لأبى
العجوز على شبابها والشابة على
أحبابها. ولكنهم هرود فوجدوه عند
الهراش نابحا، وعند الجراء فارحاً.
كذلك هو. وفي تلك القصيدة أبيات
عذبة في المطلع. كأنها قصيدة قائمة
بذاتها، يقول فيها:

وهاج السرور ليلة أذرعاع
هرى ما يستطيع له طلاباً
فقلت بحاحاً وطويت أخرى
فهاج علي بينهما اكتساباً
سألناها الشفاء فما شفينا
ومشينا المواعد والخلاب

هذا، وقد هيئت (أذرعاع) أشجاناً
كثيرة، من ذلك قول امرئ القيس العجيب:

تورثها من أذرعاع وأهلها
بيثرب أدنى دارها نظراً عالي
نظرت إليها والنجوم كأنها
مصابع رمان تشد لفتال

عجيب، لأنه استشرى من وراء الحجب
النور الذي تفجر من يثرب وشيخاً وغمر
الدنيا. وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وأصحابه ما وضعت مثقلة أحمالها، وما
استقبلت يثرب زوارها.

هذا، ولا يصير ذا الرمة، أنه لم يكن
مثل جرير في الهجاء ولا الفرزدق في
الفخر، فقد شيد بناء شامخاً لم يعترفوا له
به. وأحسب أنه لو خير لما قال مدبحاً ولا
فخراً ولا هجاء، ولأنصرف إلى الغزل
والوصف. لكن الشاعر في تلك الأيام كان
يضطر إلى الخوض فيما يخوض فيه
الشعراء.

حدثنا أن جريراً غضب على ذي الرمة
لأنه ظن أنه يتحيز للفرزدق، فكان يمد
خصومه بالشعر لهجائه. فجاء ذو الرمة
وأعذر له وأرضاه. وكانت بحري قرابة
برهط ذي الرمة من ناحية أمه. فأعانه
بأبيات في هجاء هشام المري، قالوا، ولما
سمع هشام الأبيات جعل يلطم ويولول
ويقول «قتلني جرير قتله الله. هذا والله
شعره الذي لو نطقت منه نقطة في البحر
لكرته».

الشعر في ذلك الزمان، كان (بضاعة)
عزيزة، شاع وتهدى وشدان وتثني. وكان
الفرزدق من أكثرهم انتهاها لشعر الشعراء
الاقصر منه قامة. وكما فعل مع ذي الرمة
فعل مع جميل فأغصه بيته الشهير:

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا
وان نحن أوسانا إلى الناس وقنا

كذلك فعل مع الرماح بن ميادة. حدثنا
أنه وقف على الرماح وهو ينشد حتى أتى

روى صاحب الأغاني عن الضحك بن
بهلؤل الغنبي قال:

«بينما أنا بكاطمة وذو الرمة ينشد
قصيدته (الآحي) اطلالاً كحاشية البرد) إذا
راكبان ملثمان قد تدليا من ثغف كاطمة
فوقفا يسمعان. فلما وصل إلي الأبيات
التي يقول فيها (أحين أعادت بي تميم
نساعها) حسر الفرزدق عن وجهه وقال
لراويه «يا عبيد، أضمتها إليك». فقال ذو
الرمة «نشدتك الله يا أبا فراس». قال «دع
عك ذا. أنا أحق بها منك». والأبيات هي:

أحين أعادت بي تميم نساعها
وجردت تحريد الحسام من العمد
ومدت بضبيغي (١) الرباب ومالك
وعمره وسالت من يراني بنو سعد
ومن ال يربوع زهاء (٢) كسانه
دجى الليل محمود النكاية والرقد
تننى ابن راغي الأبل شينى ودوب
معاقل صعبات طوال على العبد

عنى براغي الأبل، الراعي النعميري الذي
محقه جرير ببنيته الذائع:

نعض الطرف أنك من تميم
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

في تلك القصيدة، أحرق جرير
بصواعقه جمهرة شعراء في آن واحد،
منهم خصمه الالد الفرزدق الذي قال فيه:

لقد خزي الفرزدق في مدد
فأسمى جهد بصوته اعتياباً

نحو أفق بعيد

١٦٩



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله اولد أوربيه رحمه الله)

اختلف الرواة في صفة ذي الرمة. بعضهم قال جميل وبعضهم قال دميم. نسب إلى زُرعة بن أذبول، وهو من عدي قوم ذي الرمة أنه قال:

«كان ذو الرمة مدور الوجه، حسن الشعر أجعده اقنى أنزع خفيف العارضين أكحل حسن الضحك مفوها إذا كلمك كان أبلغ الناس. يضع لسانه حيث يشاء».

ومن الروايات التي تناقض هذه الصورة ما حدث به ربيع النميري قال: «اجتمع الناس مرة وتلقوا على ذي الرمة، وكان دميماً شخناً أجناً. فقالت أمه: اسمعوا إلى شعره ولا تنظروا إلى وجهه».

يشكك في هذه الرواية أن المنسوب إليه من نمير قوم الراعي، الذين جرحهم ذو الرمة بهجانه. وقد يلصقونها بجريز، فقد كان أكثر لهم أساءة. والافتعال فيها واضح.

وروي نضر عن رجل يسمى أبا حفصة عن عمته عافية وغيرها من أهله أنهم رأوا ذا الرمة بالنعامة عند المهاجر بن عبد الله، شيخاً أجناً سقاطاً متساقطاً.

وهذه الرواية يسقطها أن ذا الرمة بما يشبه الأجماع، مات وهو بعد في

أوج الشباب، لم يدرك الشيخوخة. وقد ذكروا أن الصنقل لما سمع شعر ذي الرمة استحسنته وقال: «ما له قاتله الله! ما كان إلا ربيقة. هلاً عاش قليلاً».

ولا خلاف بين القدماء، أن ذا الرمة كان أحسن شعراء الإسلام تشبيهاً، ولكنهم نزلوا به عن طبقة الفحول. وكان رأي الشعراء فيه، بوجه العموم، خيراً من رأي النقاد. روي عن الكندي الشاعر أنه حين سمع قول ذي الرمة:

أعاذل قد أكثرت من لوم قاتل
وعيب على ذي الود لوم العواذل

قال: «هذا والله ملهم، وما علم بدوي بدقائق الفطنة ونخائر العقل المعد لذوي الالباب! أحسن ثم أحسن». ثم لما سمع البيت:

دعاني وما داعي البري من بلادها
إذا ما نأت حرناء، عني بمنال

قال: «لله بلاد هذا الغلام! ما أحسن قوله وما أجود وصفه».

لقد شفع البيت الأول بمثله في جودة الفهم والفطنة.

نبح إذا وهو غلام. ومات في عز الشباب. وكان جميل الصورة فيما يبدو لي، فشعره شعر (وسيم) فيه روح «ارستقراطي، كما عند ابن المعتز وكان يترفع عن بذاء الهجاء واستخذاء المديح. وفي لاميته التي مدح بها بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعري يقول:

فلم أذنب لمؤمنة حسان
بحسد الله مرجئة عضالا
ولست بمداح أبداً لنبيماً
بشعري أن يكون أفاد مالا

وهي قصيدة من مائة بيت أكثرها في الوصف، وأقلها في المديح، تذكرني في رصانتها بقصيدة الحسن بن هانئ في مدح الخصيب، حيث يقول بيته السامخ النبيل:

وما أنا بالمشغوب ضربة لازب
ولا كل سلطان علي أمير

هذا، وقد ذكروا أن ذا الرمة كان حين يفرغ من الانشاد يقول: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر».

نسب إلى حماد الرواية أنه قال: «ما أفر القوم ذكره إلا لحدائث سنه وأنهم حسدوه».

وقال الأصمعي: «ما أعلم أحداً من العشاق الحضريين وغيرهم سكا حبا

أحسن من شكوى ذي الرمة مع عفة وعقل رصين».

وقال أبو عبيدة: «ذو الرمة يخبر فيحسن الخبر، ثم يرد على نفسه الحجة من صاحبه فيحسن الرد، ثم يعتذر فيحسن التخلص، مع حسن أنصاف وعفاف في الحكم».

وروي عن محمد بن سلام أنه قال: «كان لذو الرمة حظ في حسن التشبيه لم يكن لأحد من المسلمين كان علماءنا يقولون».

أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً ذو الرمة».

ولعل الأصمعي قد أجمل إحساس القدماء تجاه شعر ذي الرمة بقوله: «كان ذو الرمة أشعر الناس إذا شبه ولم يكن بالمخلف».

الأ أننا في هذا العصر أفدر على فهم مرامي قول أبي عبيدة: «مع حسن أنصاف وعفاف في الحكم». هذا ما قصد إليه الشاعر الإنجليزي الكبير «وليم بيرنزويرث»، بقوله: «التأمل سكبنة، وما أوصى به الكاتب جريهام فريب، حين قال: «لا بد أن تقطع الحبل السري الذي يربطك بالتجربة، يعني تنظر إليها بحياد وتجرد كأنها حدث لشخص آخر».

ذاك، وقد وصف ذو الرمة صلبته بغثة أحسن وصف حين قال: «من شعري ما طواعني فيه القول وساعدني. ومنه ما أجهدت نفسي فيه. ومنه ما جنت به جنونا. فاما ما طواعني القول فيه فقولتي (خليلي عوجاً من صدور الرواحل)، وأما ما أجهدت نفسي فيه فقولتي (إن توسست من خرقاء منزلة). وأما ما جنت به جنونا فقولتي (ما بال عينك منها الماء ينسكب)».

لا عجب أن جريراً وهو من هو، غبطه على تلك القصيدة، وقال: «ما أحببت أن ينسب إلي من شعر ذي الرمة إلا قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) فقد كان شيطانه له فيها ناصحاً».

وروي عن حماد أنه قال: «ما تمم ذو الرمة قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) حتى مات. كان يريد فيها منذ قالها حتى توفي».

كانت القصيدة لوحة فنية لا تنتهي، وكأنه أراد أن يصل إلى نهاية (القول) وفصل (الخطاب) بطريقة نهائية ومطلقة، ولكن هيهات. كان (فناناً) بالمعنى الدقيق لكلمة (فن) كما نفهم ذلك اليوم ■

نحو أفق بعيد

١٧٠



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

القصيدة مفتوحة، لا أول لها ولا آخر، مثل بحر محيط، تبدأ بداية معتادة، كما يخيل اليك. تظن أنك تقف على الساحل تنظر الى عرض البحر، والأمواج تذهب بعيداً عنك في اتجاه الأفق. وفجأة حين تصل الى البيت الثلاثين، إذا أنت في قلب اللجة، وإذا الأبيات السابقة مثل أمواج تجيء من ناحية الأفق في اتجاه الشاطئ، تصبح البداية لا نهاية، واللا نهاية مثل المبتدأ. لا عجب أن الشاعر (جنونا). وقد كان بوسعنا ان ينطلق من هذا الموضوع.

زار الخيال لمي هاجماً لعبت به الثنائف والمهزفة اللجب ممرساً في بياض الصبح وقبعته وسائر السير الا ذاك منجذب أخصاً تنائف أغفر عند ساممة بأخلق الدف من تصديرها جلب

الوقت بين الليل والصبح، اللون بين السواد والبياض. المكان متحرك، ليس ثابتاً، كأنه (لا مكان). الشاعر، وإذا شئت (بطل القصة) هو وراحلته شيء واحد، ولكنهما ليسا جسماً صلباً ذا حدود وأبعاد. محض (صوت) أو (طيف) أو (هاجس) مما تهجس به تلك الغلوات، ولا يقلل من هذا ان الشاعر لا

بنى يعطيك اوصافاً بالغة الدقة توهمك ان كل ذلك واقع ملموس. تخيل: الشاعر قد أغفى في ذلك الوضع المتأرجح، كأنه على ذروة موجة في البحر، وأسند رأسه الى جنب راحلته. جنبها أفليس، عليه آثار جروح بفعل حزام الرحل. وقد كان سيره مثل حبل متصل، لم ينقطع إلا الآن، في هذه الأغفاء القصيرة، من هذه النقطة، كما يبدو لي، تتناثر أطياف القصيدة، وتذهب كل مذهب. الآن انظر في اتجاه المطلع، سوف تبدو لك الأبيات مختلفة كلية. من قبل تخيلتها (أعضاء) في جسم متماسك، له رأس وله ذيل، او ربما اجزاء في بناء هندسي له جدران وغرف ونوافذ وأبواب. الآن لعلك تراها ككتابان رمال متحركة كما وصف الشاعر.

من دمنة نسفت عنها الصبا سفعاً كميما تنشر بعيد الطية الكتب سبلاً من الدغص أغشته معارفها نكباء تسحب أعلاه فينسحب

بلى. لعلك ترى القصيدة الآن، ربما تتفرق وتتجمع او موجات في بحر متلاطم، كل بيت موجة، وكل موجة هي البحر. من قال ان القصيدة العربية تكون لها (وحدة عضوية) ولماذا تكون لها وحدة (عضوية)؟

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنها من كلى مفترية سرب

قل أن دمعها كالماء يتبزل من قربة مخرقة: تبكي لماذا يا مسكين؟ حب «مي» تذكر الديار التي عفت؟ ثم ماذا؟ حدثوا انهم رأوا ذا الرمة واقفاً في مرصد البصرة، يشهد قصيدته (ما بال عينك منها الماء ينسكب) ودموعه تسيل على لحيته.

لعلك بكيت لجمال (الفن) الذي صنعته، كما بكى (اوسكار وايلد). او لعلك بكيت من الغيظ. لانك أحسست ان الذي بقي في صدرك، اكثر بكثير مما أسعفت به الكلمات. تعرف ما تريد ان تقول، ولا تطاوعك الكلمات. تريد ان تصل الى نهاية (القول) بشكل (مطلق). لذلك جننت جنونا، وتركت القصيدة مفتوحة بلا نهاية. وبعدها أحس الحسن بن هانئ الاحساس نفسه، فالتمس الخلاص حيث لا خلاص: أدبراً على الكاس تنكشف (البلوى). ما هي (البلوى) يا غفر الله لك

It is the cause my soul

(أنها البلوى يا روحي) هكذا قال شيكسبير على لسان عطيل. هذا، وحين زار طيف (مي)، أم هل زار طيف (مي) فهي معه انى توجه وحيثما ذهب. جاءته متجردة من ثيابها كما عند (روبنز)، فأرعة الطول، عظيمة العجز، ضامرة البطن، كحلاء شديدة بياض العينين، في غمانم من العطر حملها في خياله كل تلك الاعوام، لا بيضاء ولا صفراء، لونها بين الفضة والذهب:

إذا أخو لذة الدنيا تمسها البيت فوقهما بالليل محتجب سافت بطيبة العرين، مارتها بالمسك والعنبر الهندي مختصم تزداد للعين أنجاساً إذا سمرت وتصرخ العين فيبها حين تنتقب لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب كحلاء في برج صفراء في يعج كأنها فضة قد مسها ذهب

لا يغرنك دقة الوصف، فما هي الا طيف، محض طيف يجيء ويذهب. او كما قال ابن المعتز يصف ليلة ممطرة:

جاءت بجفن أكجل وانصرفت سرها من أسبال دمع ينسكب اذا تعري البرق فبها خلعة بطن شجاع في كتيب يضطرب وتارة تبصره كأنه ألق ممال حله اذا وثب وتارة تخسأله اذا بدا سلاسل مصقولة من الذهب

تقول هل أخذ ابن المعتز ذهبه من خزان ذي الرمة؟ لا بد.

هذا وقد فسروا ان اللمياء هي التي في شفتيها سمرة تضرب الى السواد، وكانوا يرون ذلك من آيات الجمال، وهو كذلك في ديارنا الى اليوم، يصنعه صناعة اذا لم يكن خلقة. والشنب عذوبة في الفم مع حسن في الاسنان. والبرج اتساع في بياض العين. والنعج البياض في لون الجسم.

كل ذلك يتشكل ويذوب في خيال الشاعر، وهو مسند رأسه الى جنب راحلته، بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض. عنده (مي) و(لا مي)!

(المحدث بقية)

نحو أفق بعيد

١٧١



بقلم الطيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحية لذكرى الصديق عبدالله أولد أورييه رحمه الله)

أسند الشاعر رأسه الى جنب راحلته، كأنه واثقا على ذروة موجة في بحر. بين الليل والصباح. بين الظلام والضياء. رفيقة الدرب والوسيلة. وشريكة (الإنسان) في المغامرة. يعرفها ولا يعرفها. كأنها جميل وهم وما بقيت إلا النخيلة والاوراق والقصب مثل الجمل لعظمها، أنثى كالذكر، لكنها نخلت وذابت. أذابها طول السير، فاصبحت كلا شيء. محض طيف يختفي ويتشكل في صور عدة. تارة حمار وحش وتارة ثورا برياً، وتارة ظليماً. (الإنسان) وهم، يمتطي وهماء، يروح ويجيء وهما بعد وهم.

نصفي إذا شدياً بالكور راكبها جئني إذا ما استوي في غرزا تشب وثب المسح من عانات (معلقة) كأنه مستبان الشك أو جنب عجيب. كانت في البيت الأول (ناقة) ذكية تعرف صاحبها. أصغت إليه، وأميلته حتى استوي على (غرزا)، وهو السير، الذي توضع فيه القدم. لم تنتظره حتى يجلس على الرحل. ثم وثبت. وفجأة أصبحت في البيت التالي شيئاً آخر. أصبحت حماراً وحشياً معضضاً لكثرة ما هاوش الحمار، من قطع من مكان بعينه هو (معلقة) يظلم كأنه يشكو شيئاً في جنبه. الطيف تشكل صورة محسوسة واضحة كل الوضوح.

يحدو نحيانهم أشباحاً مَحْلُحة رُزِقَ السراويل في ألوانها خطب له عليهن ب (الخلصاء) برتعه (الودجات) محني (واحف) صحر مع وثوب الناقة، انهض الشاعر هواجع الخيال، كما تهب العاصفة في البحر. فجأة ترى (رجلاً) كالمجنون، دائم الحركة والصراخ والضحك، يسوق (نسوة) بين (الخلصاء) و(الفودجات) و(واحف). يسوقهن سوقاً عنيفاً، لأنه يعرف الهدف، وقد قر عزمه على أن يوصلهن إليه طوعاً أو كرهاً. وهن متشابهات نحائض لم يحطن بعد، متسريلات بسراويل ورق، ناعمة الوبر، وألوانهن تضرب الى السواد.

نرايح متصلات يحدو جلالته أدنى تقايذه التفريق والخيب كأنه مغول يشك بلالته إذا تنكح عن أجوارها نكب هن زوجاته حاللاً، حسب أعراف الوجود الأزلية، مشغول بهن، يحمل همهن، يعدو بهن، أدنى سيره الركض، لأنه يعلم أنه إذا لم يصل بهن الى الهدف، فسوف يهلكن ويهلك. وكلما تنكبت منهن واحدة عن القصيد، أعادها بصراخ وعويل. انه (البغل) المسؤول، وتذكر أن من معاني (مغول)، كثير العيال. وسوف ترى وشيكاً أنه يسوقهن الى حيث يكن الهلاك، إذ ظن أنه يجد النجاة.

كانه، كأنها أرغمت حزينتها بالصليب من نهشه أكفأليها، كتب كأنها ابل ينجر بها نفر من آخرين أغاروا غارة، جلب هذا الجن الذي عن للشاعر في غفوته، وهو مسند رأسه الى جنب راحلته، هذا السائق الشرس المجنون (العصلي)، بصرخ وينوح وينهش أكفأليهن كأنه مصاب بداء الكلب، الى أين يقصد؟ والهم (عين أثال) ما ينارعه من نفسه لسواها مؤرداً أرب

لا عجب. جرب موارد كثيرة، لكنه لم يجد مثيلاً لعذوبة (عين أثال). ثمة الرعي والامان. ذكرى الورود في ذلك النبع، ذكرى لا تنسى. وهي ذكرى أفسدت على ابل أبي العلاء شربها عند ملتقى الأنهار بالبصرة، فقال يعزيها:

فأبك هذا أخضر الجال مبرحاً وأزرق فاشرب وأرع ناعم بال ستس مباهاً بالفلاة بميرة

كسيانها ورداً ب (عين أثال) وحين تعرف ما سوف يحدث، تعجب هل كان أبو العلاء يشير الى ورود حمر ذي الرمة. وهل الضيفر في (كسيانها) يعود الى تلك الحمر، فما أظن أنها عادت الى تلك العين بعد الذي حدث لها ثمة.

● وصل (البغل) بحالته عند الغلس، وقد انصدع عمود الفجر، وصل بين الظلام والضياء، بين السواد والبياض.

كما تتخلق أشباح القصيدة. فعلت وعمود الصبح ينصدع عينا وسانده بالليل منحدر عينا مضمضة الأرجاء. طامسية فيها الضفادع والحيتان تصطخب لتترك صاحبتنا ونساء عند (عين أثال) فلن يبنوا بالورود ولنعرج على محمد أحمد عوض الكريم الملقب بالحدردلو، ولننظر كيف فعل (البطل) عنده، النيس، فحل الخباء. ذاك أيضاً مشغول بهم حالته، يسوقهن الى هدف بعينه. جذر كثير الشكوك لا يسير على غير هدى، لذلك تركهن وذهب يرتاد ويحقق من مخاطر الطريق. عاد اليهن مع الفجر، وصرخ بهن مؤذنا بالرجيل.

من (أيات رميله) متركنات لاشمال سبعين هدرى لأقدام كزير واضلال أشرجط بريق راح يشيل ولوال وتيس زاعلن ماكر مع الشهلل

ملن يسارا من (أيات رميله) فلم يلبث أن سمعن هدير الرعد واظللتهن ظلل غيم كثيف، وتلاعت البروق في السماء كأنها تولول، وهن بلا (بعل). لبيثن ينتظرن عودته، على قلق وخوف، حتى جاءهن مع الفجر وأغضبته وأغضبهن على المسير. عند الفجر أيضاً تبدأ قصة ابن المعتز، لكن ما أبعد الفجر عنده، عن فجر الحدردلو وفجر ذي الرمة.

لما تقري الأفق بالضيياء

مثل ابتسام الشفة اللبيا.

وشمطت ذوائب الخلاء

وهم نجم الليل بالأغفاء

فدنا لعين الوحش والظبياء

دائمة محذورة اللقا.

لماذا يا رحمت الله ما كان غيلان ولا

أبو العلاء ولا الحدردلو، يرضى بهذا. وقد

قال الحدردلو:

خلفن كيف برملهن نيمر حبال

يعني أن الخيلاء، هذه المخلوقات الجميلة، كيف ينصبون لهن الشراك

أي شر مستطير يحمل في جوفه، هذا

الفجر الجميل الذي أفتت كافترار الشفة

اللبيا، بينما هم النجم المنعم بالأغفاء،

بعد أن قضى الليل في السر والقصف.

وشتان بين ماء ذي الرمة الذي تطفو عليه

الطحالب وتصطخب فيه الحيتان

والضفادع، وماء ابن المعتز.

وترى الرياح إذا مسح غديره

صقلة ونفيع كل فداة

ما أن يزال عليه ظبي كارع

كتمطع الحسناء في المراة.

سوف تتحطم المراة وتتأثر الدماء

وبعك (الإنسان) السادر في غبه سكبنة

الاشياء. وهو شعر جميل، لا شك، ولكن

الفارق بين هذا وذاك، كالفارق بين الموهبة

والعبقرية ■

نحو أفق بعيد

١٧٩



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله أولد أوربيه رحمه الله)

كانت نهايته، ان صحت أقوال الرواة. ولم لا؟ مثل نهايات قصائده، نهاية مفتوحة، غيبوه في رمال الدهناء، عند رأس (جزوى)، كأنه معنى شرود مغيب في تلافيف القصيدة، عاش كالخلم، وكل شيء مسه أسبق عليه رواء الخلم. عن محمد بن الحجاج الاسدي التميمي قال:

«حجبت فلما صرت بمران منصرفاً، إذا أنا بغلام أشعث الذؤابة قد أورد غنيمات له، فجلست فاستدشنته، فقال لي (اليك عني فاني مشغول عنك). ولما ألححت عليه قال (ارشدك الى بعض ما تحب، أنظر الى ذلك البيت الذي يلقاك فان فيه حاجتك. هذا بيت «خرقاء» صاحبة ذي الرمة) فمضيت نحوه فطرحني السلام من بعيد، فقالت (أين). فدنوت، فقالت (إنك لحضري فمن أنت؟) قلت، من بني تميم، وأنا أحسب انها لا معرفة لها بالناس. قسالت (من أي تميم؟) فأعلمتها، فلم تزل تنزلني حتى انتسيت الى أبي.. قالت (حياك الله يا بني وقربك. من أين أقبلت؟) قلت من الحج، قالت (فمالك لم تمر بي) قلت، وكيف ذلك؟ قالت «أما سمعت قول عمك غيلان:

تمام الحج ان تبقي المطايا على خرقاء واضعة اللثام.

قال «وكانت هي قاعدة بفناء البيت، كأنها قائمة من طولها، بيضاء، شيلة فخمة الوجه». يا له من بيت! كأنه أسكنها كوكبا سيارا، أعطاه أبعادا مترامية في الخيال، فودت لو يراها الناس، لا كما هي في الحقيقة، ولكن كما مثلها لهم في مرآة الفن.

وعيناه مبهاج كيان إزارها على واضح الأعطاف من رمل عاجز تبسم عن أجرى اللثام كأنه ذرا أنحوان من أقاصي السوائف دعني بنسب الهوى ودعوتها به من مكان الألف غير المساعف.

عن ابن تزيذ، عن أبي حاتم عن الاصمعي عن محمد بن بكر المخزومي قال:

«قال رؤبه (كلما قلت شعرا سرقه ذو الرمة) فقبل له (وماذا؟) قال (قلت: - حي الشهيق ميت الانفاس، فقال هو: - تطرحني بالمهمة الاغفال)»

كل حصين لصيق السربال حي الشهيق ميت الاوصال

فقبل له (فقوله أجود من قولك، وان كان أخذه منك) قال (ذلك أعم لي).

ما هاج عينيك من الاطلال المزمناات بعدك البوالي كالوحي في سواعد الحوالي بين النكتا والأجرج المخلال

حدث ابن عبد العزيز قال «قبل لذي الرمة، إنما أنت راوية الراعي. فقال (أما والله لئن قبل ذلك ما مثلي ومثله إلا شاب صعب شخا فسلك به طرقا، ثم فارقه فسلك الشاب بعده شعابا واودية لم يسلكها الشيخ قط».

وشعر قد أرق له غريب أجبت المسألة (٢) والمحال نبت أتيمه وأتيد منه قوافي لا أعيد لها مثالا غرائب قد عرفن بكل أفق من الافاق تستغل استعلا

رووا ان ذا الرمة حين حضرته

الوفاة، قال: «أني لست ممن يدفن في الغموض والوهاد».

قالوا «فكيف نصنع بك ونحن في رمال الدهناء».

قال «فأين أنتم من كئلبان جزوى» قالوا: «فكيف نحفر لك في الرمل وهو هائل».

قال «فأين الشجر والمدر والاعواد» قالوا، وصلوا عليه في بطن الوادي، وحملوه وحملوا له الشجر والمدر على الكباش وهي أقوى على الصعود في الرمل من الأبل، فجعلوا قبره هناك ودثروه بالشجر والمدر. وقالوا إن قبره باطراف (عناق) من وسط الدهناء قبالة (الأوعس) وهي جبال سوارع يقابلن (الصريمة) النعام».

بلى. كانت نهايته كما وصفوا، لا بد. سارت في جنازته الكباش الوديعة المسالمة، كأنها حرس شرف. صنعت له الطبيعة لحافا من أوراق شجر الارطي، وفروع شجر السبال والطرفاء، وعطرته بازهار الطلح، خباته رمال (جزوى) في طياتها، كما خبا المعاني في تلافيف القصائد. رحمة الله، حياه شاعران عظيمان، ابو العلاء بقوله:

وإني تيممت العراق لغير ما تيممه غيلان عند بلال

وحياه أبو تمام:

ما رتغ مئة معميرا يطيف به غيلان أبهى ربي من ربعا الخرب.

رحمه الله. ما أجمل ما غنى الحب والحياة والاشياء، لن يلبث ان ينطلق على تور ناقته الأسطورية، كانه وإياها سفينة فضاء، تحل وترحل من زمان الى زمان. أو كما قال:

فقلت أجلي ضيوء الفراقد كلها يمينا ومهوى النسر من عن شمالك

(١) الأبيات في الديوان، طبعة مكارثي، تصحيح مطبع بيبي المصادر عن المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت

يطرح بالمهاجر الاعمال كل جهيم لئلا السربال حي الشهيق ميت الاوصال

(٢) الحوالي، أي اللاتات الحلي

(٣) النساء في الشعر، اختلاف الحركة في القافية. كان يأتي الحرف الذي قبل القافية مكسورا، وانحرف قبل القافية في البيت الذي يليه مفتوحا

نحو أفق بعيد

١٨٠



بقلم الطبيب صالح

(هذه المقالات عن ذي الرمة، تحيةً لذكرى الصديق عبدالله اولد أوربيه رحمه الله)

أيام عملي في باريس مع منظمة اليونسكو، أنفقت جهداً كبيراً على الصومال، وهذه القصة هي في الأصل، قصة بعض ما جرى لي مع الصومال، وأن كان الحديث، كما قال الأولون، أوديه، وأد يؤدي إلى واد، وشعاب شعب يوصل إلى شعب. يقولون لك أن منظمة اليونسكو - أكرم وانعم بها من منظمة - ليست منظمة عون ودعم مالي، مثل صندوق النقد والبرنامج الإنمائي والفاو واليونيدو واليونب وهلم جرا، لأي شيء هي إذا؟ إنها تعطي ما هو أغلى من المال. تعطي النصح والخبرة والأفكار وأيضاً قليلاً من المال.

كان المال قليلاً، وهو اليوم أقل بمراحل، كان المبلغ المخصص لمساعدة الدول العربية لتطوير وسائل اتصالها، من إذاعة وتلفزيون ووكالات أنباء وغيرها، يوزع على ست دول تعتبر أكثر حاجة من غيرها. بهذه الوسيلة، كان ما تحصل عليه أي من هذه الدول لا يجدي إلا كما تنقط قطرات الماء للظمان.

بذلت جهداً عظيماً حقاً لاقتناع مساعد المدير العام أن ذلك الأسلوب لا يجدي، وأنه من الأفضل أن تركز المنظمة كل كذا عام على دولة واحدة، بحيث يكون للمساعدة أثر واضح.

وحين تعلم من هو مساعد المدير العام هذا، تقدر كم من الجهد بذلت في اقتناعه. كان رجلاً أوروبياً كيف أقول؟ لثيماً - أو هكذا خيل إلي. ولؤمه لم يكن ينبع من كونه أوروبياً فقد عرفت أوروبين أرق من بني عذرة وألسن قياداً مما كان الحسن بن هانيء رحمه الله لجهالات الشيايب. كان هذا لثيماً في نفسه وفي حد ذاته، تماماً بخلاف ممدوح أبي تمام حين قال:

هذب في نفسه وشذ عن جلوسه فهو وحده جليس.

بدأ صاحبي هذا، ولنسمه مستر (سين) - بدأ حياته موظفاً ادارياً صغيراً في المنظمة أوائل انشائها، وظل يصعد السلم درجة درجة، بمزيج من الجهد والكفاءة وغير ذلك، إلى أن أصبح قاب قوسين من منصب المدير العام. ولعله ظن أن ترقبته جاءت متأخرة، وأمر من ذلك أن (السيد) الأمر النهائي، الجالس في الطابق السادس في عمارة (فونتلوا) المجهزة، رجل من العالم الثالث. وأضح جداً أنه من العالم الثالث، وهو نفسه يزهو بكونه من العالم الثالث. وكان صاحبي هذا، (مستر سين) لا يكاد يخفي احتقاره للعالم الثالث.

أمر محير، لم الاحتقار؟ فكرت ملياً في سبب هذا الاحساس الذي تلمسه عند بعض الأوروبيين والأمريكيين بطبيعة الحال. ومن يدري، لعل اليابانيين أيضاً بدأوا يحسون مثلهم.

هل هو احتقار القوي للضعيف؟ لقد تعلمنا من تراثنا أن الضعيف أمير الركب. وهؤلاء لعلهم يحملون الضعيف مسؤولية ضعفه، وإذا سقط

في الطريق من الأعياء، لا يبالون أن يواصلوا السير، فلا تتوقف القافلة لأجله. وجاء حكيمهم فقال لهم (البقاء للأصلح)، وهو في واقع الأمر لم يقل ذلك، بل قال بالإنجليزية Survival of the Fittest والـ Fittest في مذهبي ليس (الأصلح) بل (الأقوى).

هل يعقل أن يخرج من أظهرنا حكيم مثل (تشارلز داروين) هذا؟

كنت أبادله احتقاراً باحتقار، كما قال (الاستاذ) (جزيت على ابتسام بابتسام) وكان صديقي حمدي قنديل الذي كان يومئذ مديراً لقسم تدفق المعلومات، وقد اعانني وشد أزري، كان يعجب من أمري وأمر (مستر سين) ويقول لي:

«هو صحيح ابن... بس طول بالك عليه».

كان محقاً، فقد كان مساعدو المدير العام، وما يزالون، أباطرة، يخفضون ويرفعون ويشيلون ويحطون. لكنني رغم ما أظنه لدي من لين العربية، أخو جهالة حين أرى أنه تحسن الجهالة بالرجل. ورتت ذلك عن قوسي، ولنا في عمرو بن كلثوم أسوة حسنة. ثم أنا لم أجيء إلى هذا المكان لأصبح أي شيء، وقد كنت مع اهلي القطريين حياتهم الله وزادهم من فضله كما قال الشاعر:

حللت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن محل فما زال بي أكرامهم واحتفاؤهم والطافهم حتى كأنهم اهلي

بل كانوا لي اهلاً بالفعل. كنت عندهم حيث أسمع نداء الأذان في الفجر، حيث تتنزل الملائكة عياناً بياناً على حلقات القرآن في المساجد في شهر رمضان. حيث الناس على علاقتهم أهلي، والزمان على غبراته زمني. وأم القرى على مرمى حجر، ويثرب بمقدار ما ينطلق السهم. والنيل قريب... النيل قريب.

لك الخير، أنبئني لم أجيء لشيء من هذا، وأنا جئت لأكون قريباً من (بنياتي) في مدارسهن في لندن. وإذا كان القرب يقتضيني ثمناً باهظاً كان اسالي هذا (العلاج) إذا لعصري أن في الأرض متسعاً للرجل الكريم ■

نحو أفق بعيد

١٨١



بقلم الطبيب صالح

طغى حب المعرفة لدي على الكره، واستيقظ عندي الحس الروائي، فأصبحت أنظر إلى «مستر سين» كأنه شخص في رواية. أراقبه يصول ويجول، ويجر ويرد، ويرغي ويزيد. كان حقيقة يرغي ويزيد. وأتعجب، وأقول لنفسي: ما الذي جعل هذا الرجل هكذا؟ ما الذي حدث له في حياته جعله بهذه التعاسة؟ ويا للغربة، أصبحت أحس تجاهه احساساً لا يبعد عن الرثاء.

مرة طلب منه المدير العام، دون سابق انذار، أن يحضر فوراً ليعرض قضية في المجلس التنفيذي. هكذا كان أحمد مختار أمبو، يعامل مساعديه الأوروبيين والأمريكان خاصة، بشدة تقرب من الشراسة.

من قبيل الدفّاع عن النفس، فقد لاقى منهم ما لاقى.

طلب مني (مستر سين) أن أصحبه، فقد كانت القضية تتصل بعملتي. دخلت معه المصعد، وكان بادي الاضطراب، محمر الوجه، صدره يعلو ويهبط، يحمل حقيبتين منتفختين بالأوراق، واحدة باليمين وواحدة باليسار. وكان عليّ أن نسير على الأقدام مسافة، من حيث نحن إلى مكان الاجتماع في المبنى الرئيسي.

عطفت لحاله، وقلت له:

«تسمح أحمل عنك إحدى

الحقيبتين؟»

نظر إلي متعجباً، وتردد قليلاً،

ثم أعطاني الحقيبة.

مشى يهرول، وأنا أسارع الخطى للاحق به، واسمع صوت شهيقه وزفيره. كان قد جاوز الستين. دخلنا مبنى «فونتنوا» وعدينا فناء الواسع وقاعاته المتعددة ودواليزه الطويلة، حتى وصلنا إلى قاعة المجلس التنفيذي. أعشيت الأضواء عيني وهلة، ثم جئلت نظري في الحاضرين. رأيت وجوها أعرفها. منهم الرجل الكريم عبد العزيز حسين عضو المجلس عن دولة الكويت. ابتسمت له وابتسم لي بطريقته الودودة دائماً.

كان المدير العام، أحمد مختار أمبو متصديراً المائدة المستديرة، متحفظاً مستأسداً، ممسكاً بمجامع المكان. نظر إلينا ونحن ندخل. كنت أقبله لما في المناسبات، لا يكاد يعرفني. فيما بعد سافرنا معاً وحججنا معاً، وأعجبت به وصرنا صديقين، وأصبحت أدعو صراحة لإعادة انتخابه، وهو أمر لم يحببني إلى قلوب المعسكر المناوئ وهو معسكر الغالبين.

رشق المدير العام «مستر سين» بنظرة تخلو من أي ود، ولم يمهله حتى يستقر في مقعده، بل قال له فوراً «هيا».

أحسست بعطف شديد على صاحبي. هذا موقف ليس سهلاً. المجلس التنفيذي هو أعلى سلطة في المنظمة. يصنع القرارات ويرسم السياسات ويأتمر المدير العام والسكرتارية بأمره. ماذا يفعل

«مستر سين» المسكين، وقد جاء يهرول حتى انقطع نفسه؟

تعلقت به الأبصار وساد الصمت. وضع الحقائق على الأرض بجوارده. لم يفتحها ولم يأخذ منها أي ورقة يستعين بها. أخذ يتحدث ارتجالاً. كان صوته هادئاً محايداً. تحدث نحو ربع الساعة، فعرض الموضوع عرضاً بيناً مقنعاً. وحين فرغ من حديثه أقر المجلس التوصية المقدمة دون أي اعتراض.

عدنا أدرجنا نمشي على سهل، وإن كان «مستر سين» حتى في الظروف العادية، يمشي على عجل، كأنه يطلب شيئاً أو يهرب من شيء، نظرت إليه برهة. ربعة القامة أقرب إلى القصر. مجتمعاً على ذاته أخذاً نفسه بالشدّة. يرى الأمر جليلاً، ولا يميز أنه ما من أمر يستحق كل هذا العناء. يخاف الشيخوخة، واضح ذلك من ميالغته بالعناية بشيابه ومظهره. يرعبه الموت، لا بد. حين يجيئه الموت، فلن يكون مستعداً له. استيقاه «أمبو»، بعد سن الستين حاجة في نفس يعقوب.

عرضت أن أحمل عنه إحدى الحقيبتين، كما فعلت من قبل. رفض والحتت فرفض بأصرار أدهشني. سبحان الله. كأنه لا يأمّني على أوراقي، فكيف استأمنني عليها ونحن رائحان؟ قلت لعل تلك التجربة الإنسانية الفريدة التي ربطت بيننا وهلة. رجلان يهرولان، كل منهما يحمل حقيبة مملوءة بأوراق لا قيمة لها في موازين الحياة والموت. قلت لعلها تمتد، فأنظر إلى (مستر سين) نظرة جديدة.

أبدأ. عاد صاحبي سيرته الأولى. أول ما دخلنا مبنى «ميوليس»، حيث هو مساعد للمدير العام، أشرت ورثاً، وسرى في عينيه البريق، وفي وجهه الدماء. لم يتركني استمرى أحساس العطف الذي أحسست به تجاهه، وهو يركض كأنه تلميذ تأخر عن المدرسة. متى اتعلم ألا أشفق على أناس هم في واقع الأمر، أقدر مني وأكثر حيلة على تقلبات العيش؟ وكنت أريد أن أسأله: لماذا حمل كل تلك الأوراق وهو لم يستفد منها شيئاً؟

نحو أفق بعيد

١٨٢



بقلم الطبيب صالح

قد لا يصدق الإنسان، ان اهم موظف في منظمات الأمم المتحدة، بعد الامين العام، كان الى عهد قريب صوماليا، هو السيد عبد الرحمن فرح. رجل مؤهل كفاء بجميع المقاييس، يصلح ان يكون رئيسا للوزارة او رئيسا للدولة.

جلسنا نتحدث في الاستراحة، اثناء انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في الرياض. قلت له:

«ليس عجيباً ان يوجد صوماليون امثالك، ويكون الصومال بهذه التعاسة؟»

نظر الي مبتسماً، وكنت اعرف الاجابة عن سؤاله، فالصومال مثل بلاد كثيرة في العالم الثالث، وهو اسوأ من السودان مثلاً، فقط من حيث درجة السوء. سألني اسئلة فاحصة واستمع الي بدھشة احياناً وبخزن احياناً. كان بحكم منصبه في سكرتارية الأمم المتحدة في نيويورك، يعرف حقيقة الوضع في الصومال، ورغم ذلك فقد كان يبدو على وجهه احياناً انه لم يكن يتصور ان الحال قد وصل الى ما وصل اليه.

كنت احس بالحزن كلما زرت الصومال، ولكنني ايضا كنت احس ببعض الارتياح - انني اجد بلداً اسوأ حالاً من السودان. كنا تلك

الأيام او آخر عهد النميري، وكان قد ضل الطريق وافلس تماماً من أية افكار نافعة. ولم يعدم من زينوا له، وحسنوا له سبل الخراب، ثم تنكروا له، وبعضهم ما يزال يخرب الى اليوم.

لكن النميري على الاقل بدأ بداية طيبة، واخذ براحاً من الوقت، فقد كان في السودان اشياء كثيرة صالحة حصلت على مدى سنوات، اشياء كثيرة تحتاج الى جهد ووقت لاقتادها. اما في الصومال المسكين، فقد بدأ زياد بري عهده (الثوري) وهو خالي الوفاض كلبه، مثل رجل يفتح شركه وليس في يديه رأس مال.

تزور مقديشو، وما كان اصعب الوصول الى مقديشو، فلا تجد شيئاً. لا تجد دولة ولا حكومة. ولا توجد حتى ادنى مظاهر العهود الثورية. على الاقل في الخرطوم، عملوا بعض الاشياء، وغيروا بعض الاسماء، وبنوا التذكارات والانصاب، وهدموا كثيراً، واصلحوا قليلاً. الشعارات في الشوارع والصحف والاذاعة والتلفزيون تخبرك بان هذه (ثورة) ولك ان تصدق او تكذب.

اما هنا في مقديشو، فلا شيء. صور (الزعيم القائد) قديمة باهتة ولا تكاد تراها لقلتها. الشعارات بانسة مثل صرخات مكتومة، مثل محاولات انسان ابكم ان يفصح عن نفسه. لا توجد نصب ولا تماثيل ولا أي من مظاهر الابهة التي تجيء عادة مع هذه النظم (الثورية). هذه ثورة نسيج وحدها بحق، فلا اظن ان التاريخ على طول امتداده، قد شهد ثورة قامت وعاشت بمثل تلك الاملالة.

كانت مدينة مقديشو كما رايتها تلك الايام، شاهداً بليغاً على سخريه افريقيها بالحلم الاستعماري الاوربي. اخذت (موسوليني) بكبريائه وصلفه، وجردته من ثيابه العسكرية ونياشينه، وحولته الى متسول يقف على باب الكاندرائية الضخمة التي اقامها الايطاليون وسط المدينة. وباله من حلم مجنون. كانوا ارادوا ان يجعلوها رمزاً ابدياً لاشعاع (الحضارة) الاوربية.

وقفت انظر اليها في صباح يوم اجد، استمع الى اجراسها تدق دقات متعبة، تأتي كأنها من بعيد، وكأنها

صرخات (حضارة) تغرق. بناء ينهار، نهبت الوانه وتساقطت حجارته، وتشققت نوافذه الملونة، ودخلت يحدوني حب الاستطلاع فوجدت رجلاً ونساء طاعنين في السن، لا يزيدون عن العشرة، يتلون صلوات باللغة اللاتينية! لا تميز من وجوههم هل هم ايطاليون ام اثيوبيون ام صوماليون، ام مزيج من كل هؤلاء. هذه الوجوه مثل الابنية، مثل الشوارع، مثل شعارات الثورة، ذاب بعضها في بعض فكونت خليطاً لا يفصح عن شيء.

مطار مقديشو، كانهم غيروا رأيهم فجأة ونفضوا ايديهم. تركوه، لا هو ناقص فيتم، ولا تام فينقص. الشوارع كأنها اطلال شوارع لمدينة مهجورة من عهد غابر. الاشجار قليلة. لعلمهم زرعوا اشجاراً ذات يوم، ثم اهلوا ان يسقوها فذبلت وماتت.

وهذا النزول حيث اقيم، لا بد انه اخذ يتداعى اول ما فرغوا من بنائه. جديد وقديم في الوقت نفسه. رائحة الطلاء جديدة، ولكن الحيطان مشققة مخدشة. قماش الستائر ليس قديماً ولكنه ممزق مهلهل. مكيفات الهواء كالجديدة ولكنها لا تعمل.

كان الانهيار مكتملاً وفضلياً. وهل اقول رانعا. كأنك تشاهد لوحة للفنان الامريكي المعنوه. (اندي وورمول).

وهي جميلة بالفعل، احببتها رغم كل ما ذكرت. موقعها جميل، وبحرها جذاب، وتربتها تتوهج مثل التبر. فيها مساكن ودور لا تخلو من الفخامة على الشاطئ، وفي الحي الذي يقطنه الرئيس. وسط ذلك الموات، تجيش الحياة احياناً في دفقات مدھشة. تمتلئ المساجد بالمصلين، وتتعج الطرق بالناس رجالاً ونساء.

في غمرة ذلك الموات، تخطر نساء الصومال بقاماتهن الشوامخ كأنهن اميرات واقدات من زمان آخر. والرجال يسبرون لا يعاونون بأحد ولا بشيء. كان الثورة لم تحدث، وكان زياد بري لم يكن. ترى لبرهة قصيرة ذلك الاحتمال الرائع. لو ان هؤلاء البشر أتيح لهم ان يمتدوا في المساحات التي يستحقونها من افاق الحياة ■

نحو أفق بعيد

١٨٣



بقلم الطبيب صالح

أعظم بها من وزارة! تشمل الاعلام والثقافة والسياحة. لها وزير ومساعد وزير ووكيل وزارة ومدير عام، وعدة مدراء، بينهم مدير للتلفزيون، ولم يكونوا قد أنشأوا التلفزيون بعد، ولا أحد منهم يهمه الأمر.

لا أحد يرد على التلكسات ولا الرسائل ولا البرقيات ولا التلفزيونات. وكنت حين تعييني الحيلة الجا الى الملحق الثقافي للصومال في باريس، وهو رجل فاضل اسمه أحمد قورو، فيبذل هو أيضا قصارى جهده، مستنفرا وزارة الخارجية في مقديشو. ولكن لقد اسمعت لو ناديت حيا. لم أدهش حين علمت ذات يوم أنه ترك العمل مع حكومة الصومال، وأصبح لاجئا سياسيا في لندن. كذلك استقال السفير ونجا بجلده.

كان الصومال ينهار ويتساقط في الداخل والخارج، والثورة ماضية قدما، والزعيم القائد، يحتفل احتفالاته البائسة بانتصاراته الموهومة، عاما بعد عام. أكثر من عشرين عاما.

لو كنت حكيما لنفضت يدي حينئذ، ورضيت من الغنيمة كما فعل أحمد قورو، ولكنني قلت أسافر الى مقديشو على أي حال، وقد استبد بي أن أعرف أي دولة هي هذه الدولة العجيبة التي اقحمت نفسي في

أمورها طواعية واختياراً. وكان صاحبي «مستر سين» يتابع مصاعب علاقتي بالصومال، لا يكاد يخفي سعادته انني دخلت في ورطة. سوف يقعد مني فيما بعد مقعد القاضي «ن» المتهم، انني بددت مال المنظمة على قلته، في السفر والدراسات وإرسال الخبراء الى الصومال، دون أي أثر يذكر، ولم اكن وحدي في ذلك، لو يعلم، فقد وجدت في مقديشو عشرات انثالي، من موظفي منظمات الأمم المتحدة وخبرائها، ومنظمات الجامعة العربية وغيرها يلاحقون سراب الصومال الخادع.

لم اجد احداً ينتظرني حين وصلت، كنت قد تنقلت من طائرات الى طائرات، وغفوت وصحوت في مطارات بعد مطارات. حتى مكتب الأمم المتحدة للتنمية لم يحرك ساكنا. وجدت فيما بعد أن مديرة الهولندي قد ينس تماماً من عمل أي تنمية في الصومال، فاستسلم لتيار الخمول السائد، وانصرف الى لعب «الجولف» وصيد السمك وعمل رحلات في البر. والصومال بلاد متنوعة الجمال، مليئة بالمسرات لمن يطل عليها.

ولم اجد احداً من «المسؤولين» في وزارة الاعلام والثقافة والسياحة. لا الوزير ولا نائب الوزير ولا وكيل الوزارة ولا مدير عام الوزارة. وكنت اجد دائما مدير المطبوعات، وهو ايضا مسؤول عن شؤون الرقابة، وأد انني لم اتبين صحفا ولا كتبا، فقد عجزت من أمره. أصبحت الاحق «المسؤولين» كمن يطلب ذبنا. ثم ذات يوم، وبمحض الصدفة، وجدتهم جميعا مرة واحدة، وقابلتهم جميعا، الواحد تلو الآخر، ببساطة، كأنهم كانوا موجودين دائما، ينتظرونني، وانني لم أجدهم لأنني أعشى، لا أرى الشيء وهو واضح امامي.

استقبلوني بحرارة بالغة ولطف عجيب. وذلك في طبع الصوماليين عموما، ثم لأنني سوداني، فبين الصومال والسودان صلات وعلائق من نوع خاص، يروى في السودان القدوة والمثل. مثلهم من (عرب الاطراف)، عربيتهم قد يطلب لها البرهان. وأيام الاستعمار الانجليزي، كانوا يرسلون الصوماليين في بعثات الى مدارس السودان، وإلى كلية غوردون، ثم جامعة الخرطوم. بعد الاستقلال، اعتنى السودان

بالصومال، فاعانهم بالاطباء والمدرسين والمهندسين والفخاسة وخبراء الزراعة وغير ذلك. شعب الصومال الوفي لم ينس ذلك للسودان. هذا الى جانب وشائج أخرى. فوجود الصوماليين وسحبهم لا تكاد تميزها عن السودانيين. وموسيقاهم واغانيتهم، يحبون أحمد المصطفى وحسن عطية والكابلي والبلابل مثل السودانيين.

قلت لمدير عام الوزارة ذات يوم، وكنت قد انست له بصفة خاصة:

«لماذا لا تجلسون في مكاتبكم؟ اين تذهبون كل صباح؟» اجابني بتلك الطريقة الصومالية الجذابة:

«يا اخي انت ما تعرف اننا في حالة حرب» نحن مشغولين في حرب الاوغادين.

«وانتو في وزارة الاعلام مالكم ومال حرب الاوغادين؟»

«كيف ما لنا ومال حرب الاوغادين؟ يا اخي الدولة كلها في حالة استنفار.

«طيب يا اخي فهمننا الجيش يحارب في الميدان. مش مفروض الاعلام يساعد المجهود الحربي؟»

«نعم. لهذا السبب القيادات في الدولة في حالة اجتماعات مستمرة.

لا عجب ان الدولة انهزمت في حرب الاوغادين. وثمة امر آخر جبرني في الصومال. النظم الدكتاتورية، كما هو معروف، تفتعل صراعات خارجية، تكون حروبا في الغالب، تقدم للشعب على انها دفاع عن تراب الوطن ونوذ عن كرامته. نعبا الجماهير، وتؤجج نيران العواطف الوطنية، وتقوم المظاهرات. تحرق اعلام بعض الدول، ويعتدى على سفاراتها، وتقدم العرائض وترسل الاحتجاجات. اصبح هذا اجراء روتينيا تفعله أي ثورة تحترم نفسها، تلهي به الناس عن فساد الادارة، وسوء الحال، وبؤس الحياة في داخل البلد.

ألا هذه «الثورة» العجيبة التي لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل، اشتعلت نيران الحرب وخمدت، وقتل من قتل وجرح من ابناء الصومال، وضاعت الاوغادين، ومدينة مقديشو تتقلب في بؤسها العادي، كان لا علم لها ولا خبر، و(الزعيم القائد) لا يسمع ولا يرى، ووزارة الاعلام والثقافة والسياحة تسير او لا تسير، بلا وزير ولا وكيل ولا مدير ■

نحو أفق بعيد

١٨٤



بقلم الطبيب صالح

وشأنه؟ لماذا قطعوا أوصاله بكل ذلك الاستهتار؟

يقول مؤرخ انجليزي بسخرية واضحة:

«... أثناء ذلك انتهى الصراع الفاتر (بين بريطانيا وفرنسا) على البلاد الفقيرة على ساحل البحر الأحمر، وصحاري الصومال، دون أن يخلف وراءه مرارة كبيرة».

كان الصومال في واقع الأمر، شيئاً ثانوياً، بلداً لا يؤبه له، مجرد محطة في الطريق، تلتهم به القوى الأوروبية بعض الوقت في لعبة الشطرنج المدمرة، بعضها مع بعض. كان مساحة فارغة على الخريطة، يجب أن تُملا. كان الاستعمار الأوروبي في أوجه، مثل كلب أصيب بالسعار، يعض وينهش دون سبب.

فهم (منليك) الداهية أصول اللعب، ولم تكن يده غفلاً من أسباب القوة، فقد كبد الجيش الإيطالي في موقعة (عدوه) هزيمة نكراء جلتهم بعار حاولوا أن يغسلوه باحتلال إثيوبيا بعد ذلك، في عهد موسوليني. رمى (منليك) بسهم، وخرج بنصيب الأسد - أسد يهوذا.

هكذا حكموا على الصومال البائس بالشقاء زمناً لا يعلم مداه إلا الله. شعب ذو انفة وكبرياء وملاحم بطولية وذاكرة ترجع إلى الوراء بعيداً. تركوه ممرق الأوصال، مهزوز الهوية اجزأوه يحن بعضها إلى التوحد مع بعض. ولا حول له ولا قوة.

كان الصومال، غداة استقلاله عام ١٩٦٠، يحتاج إلى معجزة. يحتاج إلى زعماء ذوي حنكة ودراسة وبصيرة، يللمون أجزاءه المبعثرة، ويعيدون له أحساسه بذاته. وبدأ أول الأمر أن ذلك قد يحدث. ثم حلت الكارثة مع (ثورة) زياد بري ■

على الجبران وابتداء السبيل. اعطوا كينيا قطعة، واعطى الانجليز قطعة لـ «منليك»، امبراطور إثيوبيا لقاء وعده أياهم بمساعدتهم على أخمد الثورة المهدية في السودان. كان داهية لا يشق له غبار، أجاد لعبة الـ (ريال بولتيك) وكان صلاً أفريقيا مع افاعي أوروبا. ففي ذات الوقت أذ تعاهد مع الانجليز لاسقاط نظام الحكم في السودان، أبرم معاهدة مع حكومة السودان للتبادل التجاري.

كذلك اخذ قطعة كبيرة من الفرنسيين، منحوه أياها من حصصهم في الصومال، أذ وعدهم سراً أن يساعدهم ضد الانجليز لبسط نفوذهم في جنوب السودان. ولو أن ذلك حدث بالفعل، وقد كاد يحدث، أذا لتغير الوضع كلية في السودان، ولراينا اليوم في جنوب السودان دولة (فرانكوفونية) ناطقة باللغة الفرنسية. ومن يدري. لعل السودان كان سوف ينجو من كثير من التعاسة ووجع القلب.

الأ أن القوتين الأوربيتين وقفتا وجهاً لوجه في (فشوده) في اعالي النيل، وحملت العيون الزرق في العيون الزرق بغضب وأشرعت المدافع الأوروبية قبالة المدافع الأوربية، وكادت تنشب الحرب. ثم رأوا رأياً وأبرموا امورا، ورضي الفرنسيون بالانسحاب، وترك ذلك الجزء من افريقيا للانجليز.

ماذا رأوا في الصومال؟ كان في حاجة أهله، وكانوا في الغالب من البدو رعاة الأبل، وقليل من الزراعة وقليل من التجارة. لكنه لم يكن مثل الكنقو حلما يسيل اللعاب. لم يكن فيه ذهب ولا فضة ولا مناس ولا بترول ولا رقيق ولا اراض واسعة خصبة للاستيطان. وكان أهله مسلمين كلهم لا سبيل إلى أي نشاط تبشيري بينهم. لماذا لم يتركوه

لا أدري من قال «القرن الأفريقي»، والقرن يكون في الرأس، فكانهم قلبوها رأساً على عقب، وجعلوا عاليها سافلها، وهو أمر لا يبعد عن الصواب. ولو كان استعماراً واحداً لخف البلاء، ولكنهم مرقوه ثلاث مرق. مرقاً أخذها الانجليز، فذلك حيث «هرقيسا»، في الشمال، ومرقة أخذها الطليان، فذلك حيث مدينة «مقديشو»، ومرقة أخذها فرنساوية، حيث جيبوتي اليوم. كان الصومال مثل لحم لم يسع لطماعه، فتصدقوا بقطع كبيرة منه

نحو أفق بعيد

١٨٥



بقلم الطبيب صالح

فدخول الـ (كروشي دي سود) في مقديشو لم يكن أقل صعوبة من دخول نادي (الأتينيم) الاستقراطي في لندن. وقد كان سودانيا - بمحض الصدفة - أقول بمحض الصدفة، لأن أبناء الحلال وبنات الحلال، لم ينعيموا في الدنيا من سائر الملل والنحل، وإن بدا الأمر بخلاف ذلك أحياناً. وتصور أن استطعت، مدى سعادتي بتلك النعمة السابقة. ذلك من بعض بركات السفر والترحال في افاق الأرض، أن الإنسان قد ينسى لطائف حيات المولى سبحانه وتعالى عليه، لكثرة ما ألفها واعتاد عليها.

فجأة تستعيد طعم (الجدة) ومذاق (الدّهشة)، كما يحلو لبعض أخواننا النقاد أن يقولوا. وهم على حق. وهل الشباب إلا هذا؟ وهل الشيخوخة إلا فقدان هذا؟ أنظر إلى لبدي:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبدي.
لأنك لم تسافر إلى مقديشو يا عمرك
الله. كان الكاتب الإنجليزي (أوليس هكسلي) يقول:

«إذا لم تكن قد قطعت تذكرتك إلى اثينا فانك لم تجرب شيئاً. بقصد اثينا حين كانت اثينا. وأنا أقول (إذا لم تر مقديشو فانك لم تر شيئاً).

أذهب إلى مقديشو، إذا مللت الحياة لكثرة ما أغدقت عليك من هبات لم تعد تحسها أو تراها لكثرتها، فإذهب إلى مقديشو. إذا مللت الدار الواسعة والسيارة الفارهة والمائدة العامرة، والثياب الزاهية، فإذهب إلى مقديشو، خاصة في هذه الأيام. سوف ترى وتسمع عجباً. سوف يفارقك الملل، وتستعيد طعم (الجدة) ومذاق (الدّهشة). ويقيني أنك سوف تجد وسط كل الخراب الذي نقرأ عنه وتسمع، تلك السيدة الإيطالية الباسلة، أن كانت ما تزال على قيد الحياة. تجدها تدير (بنسيون الكروشي دي سود) بكفاءة ومقدرة، وسط كل ذلك الدمار.

سوف تعطيك غرفة نظيفة، وسيراً مريحاً، وطعاماً بسيطاً، لا يسبب لك التخمّة. ولعلي لا أكون مخطئاً أن قلت لك، أنك سوف تلقى في العشيات، في فترات الهدنة بين المعارك، كل القادة المتحاربين، يسمرون في مقهى البنسيون، يشربون قهوة الـ (كابوشينو) أو ما هو أقوى، يتمازحون ويتضحكون، ثم يعودون إلى حروبهم التي لا يموتون هم فيها، ولكن يموت الرجال والنساء والأطفال، من شعب الصومال الكريم المسالم ■

(للحديث بقية)

القياصرة ويوقف الفلك عن الدوران. إلا أن التليان، مثل الأقريق، مثل العرب، كانوا قد شبعوا من المجد، وأخذوا حظهم من الفتوحات والغزوات، فأصبحوا كما قال الخطيب للبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتنا
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي.
حيثما وجدت الأقريق والتليان في بلاد العرب، وجدت خيراً وبركة. وقد يكون أن كل ما حدث للسودان من مصاعب بعد الاستقلال، هو بسبب جلاء هذين العنصرين الطيبين منه. ولعل هذه تكون (ايدولوجية) لنظام جديد، فيقوم ضابط في الجيش يحب هذين، ويعمل (ثورة) يكون شعارها (إعادة الأقريق والتليان إلى بلاد السودان).

حمدت الله أن التاريخ قد دار دورته، فقبلت هذه السنوورة الإيطالية أن تكون صاحبة (بنسيون) في مقديشو، بدل أن تكون زوجة لحاكم روماني في سوريا أو بلاد إفريقية. قبلتني نزلاً عندها في الـ (كروشي دي سود)، وكنت قد تعبت من صراصير هوتيل (جوبا) وفئران نزل (العروبة).

وجدت نزلاً صغيراً من نحو عشرين غرفة، أغلبها محجوز على طول العام لموظفي وكالات الأمم المتحدة وهيئاتها، والهيئات والصناديق العربية. كانوا مثلي يذهبون ويجيئون، يحدوهم الأمل أن تحدث معجزة ويلمع فجأة بريق ضوء في غياهب الصومال. تتحرك المشاريع، وتجيئ الطاقات، وتعمل الحماسة في الصدور، ويتحسن الأداء الحكومي. يكتبون في تقاريرهم إلى منظماتهم، أن النظريات التنموية التي سهرروا على دراستها وتمحيصها في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم، في نيويورك وباريس وروما ونيينا وجنيف، أنها برهنت على صلاحها وقابليتها للتطبيق. أن تلك الحالة المستعصية في الصومال، بدأت تستجيب للعلاج، انتظمت دقات القلب، وضبطت درجة الحرارة. فتح المريض عينيه، وانفتحت شهيته للطعام والشراب. كان الصومال بالفعل، مثل حالة مرضية نادرة، من الحالات العسيرة التي ينكب عليها الأطباء يجربون فيها فهم ومهارتهم، وإذا نجحوا، يجدون تلك المتعة المهنية النادرة التي تهون عليهم مصاعب عملهم. ربما لأجل ذلك أعقدت منظمات الأمم المتحدة من الخبراء على الصومال، ما لم تغدق إلا على قليل من بلدان العالم الثالث. كنت مثلهم في ذلك، وأيضاً، كما أدركت فيما بعد، أنه كان يحدوني حافز آخر، هو الشعور بالذنب.

قلت أن ابن حلال قد توسّط لي لدى السيدة الإيطالية فقبلتني نزلاً عندها،

في زيارتي التالية دلتني ابن حلال على (بنسيون) صغير تملكه سيدة إيطالية طاعنة في السن، من بقايا الوجود الإيطالي في الصومال. علمت منها فيما بعد، أنها ولدت في الصومال، ونشأت وتزوجت وأنجبت في الصومال. استقل القطر، وجلا الإيطاليون، ومات عنها زوجها، ولكنها أثرت أن تبقى في المدينة التي افتتها واحبتها، مع من فضل البقاء من أبنائها وبناتها.

لو كان لي من الأمر شيء، لفتحت أبواب العالم العربي على مصاريحها لـ (التليان) و(الأقريق) اليونانيين. خاصة اليونانيين. فهؤلاء أوريون ليس فيهم عنطرة المستعمرين، تجدهم في الحارات والأسواق، يكسبون لكسب عيشهم كسائر الناس، يصلحون السيارات، ويبيعون العمارات، ويبيعون الجينة والزيتون.

الأقريق أقل نجمهم ودالت دولتهم قبل ظهور المسيح عليه السلام، فلم يستعمروا بعد ذلك أحداً ولم يتسلطوا على أحد. والتليان كذلك، انتهى أمرهم مع نهاية الـ (باكس رومانا)، اللهم إلا من بضع سنين على عهد زعيمهم المخبول (موسوليني)، الذي ظن أنه يرجع زمان

نحو أفق بعيد

١٨٦



بقلم الطبيب صالح

واسماعيل، وانهم اعطوا اليهود وعد بلفور، مما نتج عنه ضياع ارض فلسطين الغالية اخرى لليالي، وانهم عاثوا ما شاءوا بارض الرافدين، وتركوا جزيرة العرب (مثل الخباء المبوق).

نعم، كل ذلك لم يكن خافيا عني، انما سبجان الله. الشباب يفعل كما وصف الحسن بن هانئ ان الخمر تفعل بالمرء، ترك القبيح جميلا، او على الاقل تلهيك عن الله قبيح. الحكمة تجيء ضحى الغد، وقد لا تجيء ابدا. واذا كان في الشباب عذر عن الضلال، فاني عذر للمرء اذا ضل بعد ضياع الشباب.

في تلك المرحلة الهوجاء من العمر، من يلتفت الى هذه القضايا المعقدة الذي تعرفه وتحسه وتلمسه انك في عالم جديد، يضغط على سمعك وبصرك وعقلك في كل لحظة. وانت مستنفر الحواس، يفظ العقل، مليء بحب المعرفة، شهيتك متفتحة للحياة. هل تجلس وتفكر في الآثار المترتبة على معركة أم درمان وصندوق الدين في مصر، وكيف سرق دز انيلي قناة السويس، وكيف تأسر الانجليز والفرنسيون على تقطيع اوصال بلاد الشام، وماذا فعل ساكس ويكو، وماذا فعل لورنس، وماذا فعلت قبر ترود بل؟ مستبعد هذا، اغلب الظن أنك تلقي بنفسك في اللعبة، تغطس وتطفو وتضيع وترجع. عندك متسع من الوقت. ما افسح ما يبدو لك العمر حينئذ. غدا.. وغدا.. وغدا.. سوف تجد براحا من الوقت للتأمل، والتحسس على الزمن الضائع. فسحة من الوقت للنوم حينئذ فقط تفهم معنى قول الحسن بن هانئ..

كان الشباب مطية الجهل ومحسن الصنوات والعدل

لا عليك الآن، فانت في عشرينات العمر، وهذه مدينة الضوء. الضوء في باريس ليس كما عهدت في لندن. هذا جزء من جسد القارة الأوروبية الممتد، وبلاد الانجليز تنتمي الى العالم الجرمانى - الاسكندنافي الداكن. كانت لندن تلك الايام، سماؤها ابدا كالحلقة بسبب السحاب الذي يغطيها اكثر العام، والضباب الكثيف المخلوط بدخان الفحم الحجري من مداخن البيوت. اليوم تغير الطقس، وتوقف استعمال الفحم، وقل الضباب. كان الظلام، يومئذ هو الأصل، والضوء هو الاستثناء.

رائحة لندن رائحة مبتلة. رائحة الشوارع المبتلة، رائحة الثياب المبتلة، رائحة القطارات المبتلة، رائحة البيوت المبتلة. اصف الى ذلك روائح الطعام.

القربيط المغلى والكربب المغلى، والبقل المغلى، والبيض المغلى ولحم الخنزير المغلى، والبطاطس المغلى. اصف الى ذلك رائحة البحر الذي يحيط بالجزيرة ويعترض مشارع الرياح.

رائحة باريس خليط من روائح القهوة والنوم والتبيل والعطور والخبز الساخن الذي خرج لتوه من الفرن. لم يكن الانجليز يشربون القهوة تلك الايام ولا يستعملون الثوم في طهيهم، وما يزالون الى اليوم يعتبرون الاسراف في استعمال العطور من فساد الذوق. وكان خبرهم بلا رائحة.

اليوم تغير الحال قليلا بدأ الانجليز يقتربون متردين من القارة الأوروبية ورغم معارضة جزء كبير من الرأي العام، كاد النفق الذي يربط بينهم وبين فرنسا ان يتم. لا عاصم لهم بعد اليوم. سوف يدخلون في غمار العالم الأوروبي العريض، شاءوا او ابوا. تجد الآن في بعض الاماكن القهوة الفرنسية والثوم في الطعام، وفي بعض المخازن تجد الـ (Bagette) الخبز الفرنسي المستطيل مثل العصا.

كان الضوء في باريس هو الاصل والظلام طارئ عليه. وليس ذلك فقط لأن الشمس تسطع أكثر والسماء أقل كثرة مما هي في لندن، انما ايضا اتساع الشوارع والمباني، وطراز العمارة، والوان اسقف البيوت. ينعكس الضوء عليها بطرائق والوان تعطي المدينة بهاء لا يوجد في لندن.

ميدان الطرف الاغر، رغم ما بذله الانجليز من جهد، لا يقاس بميدان الـ (بلاس كونكورد) وشوارع الـ (Mall) الذي يؤدي الى قصر كنجهام، لعله اعرض في الواقع، ولكن لماذا يخلل اليك ان الـ (شانتز اليزيه) اكثر اتساعا، حتى نهر التمز العتيق يبدو متواضعا بالقياس الى نهر السين.

هذه مدينة تجعلك تتذكر باستمرار، اذ لندن تجعلك تنسى، اشياء تجيبك كأنما من ماضٍ سحيق ومن عصور غابرة. لعلها الاشياء التي اخذوها عن العرب زمان تالق مجدهم في الاندلس. ايام كانت غرناطة واشبيلية وقرطبة. اشياء اخذوها ثم اغفلوا ان يذكروها، عن قصد او عن غير قصد. بل ان العرب انفسهم نسوا انهم اعطوها ذات يوم لعلنا حين نقع في غرام حضارات الآخرين، انما نحب اجزاء ضائعة من انفسنا، لا نعلم انها جاءت من عندنا، ونظن انهم اجترحوها من العدم.

كنت انهد واجيء كمن يحل دينا، كمن يقضي بذرا، كمن يكفر عن خطيئة، وكان في الصومال عوضا عن السودان. لانني كنت اعيش في باريس، وباريس (مدينة النور) كما اخبرنا اساتذتنا من الرواد، من مصر ولبنان، وعرب البحر الابيض المتوسط. المنجدين ابدا الى حواضر اوربا. ومن يلومهم؟ انه عالم جذاب، وباريس مدينة مضيئة فعلا، ربما اكثر مما زعموا لنا، وبطريق مغايرة عما زعموا لنا.

زرتها اول مرة عام ١٩٥٤، جئتها من لندن. وما هي الا ساعة بالطائرة، او بعض يوم بالقطار والسفينة والقطار. لكنها دنيا اخرى. كنت متلقعا بعباءة الحضارة الانجلو - سكسونية، شغوفاً بادابها، مقبلاً على تاريخها، معجباً بنظمها واساليبها في العيش. اعلم بالطبع ان الانجليز قد فتحوا السودان واستعمروه دون وجه حق، وانهم فعلوا الافاعيل بمصر منذ عهد محمد علي

نحو أفق بعيد

١٨٧



بقلم الطبيب صالح

اعترض طريقني منذ أول يوم، رجل معتدل القامة، متوسط العمر، دقيق تقاطيع الوجه، كأنه من قبيلة الـ (بني عامر) في شرق السودان، الدم الحامي والسامي فيه بكميات متساوية. ليس به عاهة ولا توجد في عينيه ذلة أو انكسار. تقدم نحوي كأنه كان ينتظرني، ونظر الي بجرأة تقرب من الوقاحة..

«يا سوداني، هات (.....) شلني».

اعطيته ما سال، عددتها عدا، لا اقل ولا اكثر، كأنني اقضي ديني، كأنني اوفي نذرا، كأنني اكفر عن خطيئة.

صار هذا شأني معه، مدة اقامتي، وحين انتقلت الى هوتيل الـ (كروشي دي سود) لحق بي. لم يكن عسيرا عليه ان يعرف اين ذهبت، لم يكن متسوولا. كان طالب حق. يدخل يمشي على مهل، وقد يحني احدا، وقد يجلس في المقهى، وقد يطلب قهوة.

لا يتحدث معي ولا يشكرني. ياخذ (حقه) دون أي احساس بالجميل. لا يعرف اسمي ولا عملي، وانا لم اساله عن اسمه ولا عمله. كان عاطلا بلا عمل، لا شك.

انا (سوداني) وكفى... لست انجليزيًا ولا فرنسيًا ولا ايطاليًا... الناس الذين تسببوا في البداية فيما

حدث له.. لا، ولست زياد بري، الرجل المسؤول مسؤولية مباشرة انه الآن عاطل عن العمل.

ماذا اعطيته: يضع شلنات. لا اقله اخذ مني طول مدة اقامتي اكثر مما قيمته عشرة دولارات. يذهب في سبيله واذهب في سبيلي. احبانا اراد في المسجد القريب من الهوتيل في صلاة العشاء. كان يحلو لي ان اصلي العشاء في ذلك المسجد. صوت الاسباب حنون حزين، يرثل القرآن بقراءة ورش. اراد، نظيف الثياب، حسن الهندام، مؤثرا ازاراً يمانياً، وعلى رأسه الطاقية الصومالية المزركشة، يتجاهلني كلية كأنه لا يعرفني. انه هنا شخص آخر.

ليس بيد الأمريكان ولا الانجليز ولا الفرنسيين. ليس بيد زياد بري. انه هنا، في هذا المكان، يعلم في حقيقة نفسه ان الامر بيد الذي لا مانع لما اعطى، ولا معطى لما منع. سوداني، او صومالي، مثله. وايضا عبد من عباد الله سخره لما جعله مستخلفا فيه، على قلته. مثله، عابر سبيل، ضيف على مائدة الحياة. وكون الحياة اعطتني اكثر مما اعطته، وجعلتني اعيش في باريس وهو في مقديشو، واعمل في منظمة اليونسكو وهو عاطل بلا عمل... اه. تلك ايام يداولها الله بين الناس وهو العليم الخبير.

باريس. شوارع باريس في شهر اغسطس جسيم مقيم لأولي النهي. مدينة تعرض مفاتها على قارعة الطريق ولا تترك للخيال بقية. عالم جذاب، اي نعم، لكن ما أبعد كل هذا عن منحني النيل وعن مقديشو. خبرات الارض الفرنسية مكثبة، تلالا تلالا، في الـ (منويري). الـ (باقت) حار يقرقش، خرج لنوده من القرن في المخبز على ركن شارع (قوتيليرج). الـ (كرواسان) التي تغني بها محمد الصاوي محمد رحمه الله. قرانا له ونحن صبية في المدارس الثانوية، انه كان يتمتع بها مع القهوة الفرنسية بالحليب، الـ (كافي اوليه) وهو جالس في الصباح في الـ (تراس) الزجاجي في مقهى الـ (دوم). يقرأ صحيفة الـ (فيقارو) ولا بد.

اتي سحر في تلك الاسماء؟ كان (جان بول سارتر) يلم احبانا بمقهى الـ (دوم)، يجيء من مربعة المعتادة في (سان جيرمان دي بري) ومقاهي الحي اللاتيني حول الـ (بولفار سان ميشيل). معه رفيقته (سيمون دي بو فوار) وحوله المعجبون والحواريون. يجادلون في هيقول وساركس وكبير كقارد والوجودية. يلعبون بالافكار كما تلعب بكرة الـ (بنج بنج). لا توجد حدود ولا

قيود في ذلك العالم المفتوح. الأستاذ العميد عشق كل ذلك، وبقية الاساتذة الرواد، من مصر وبلاد الشام. ومن يلومهم، نقلوا لنا نقفا من تلك الافكار، وربما اخذوها مأخذ الجد اكثر مما اراد اصحابها. ونقلوا لنا الاسماء. نقرأ، ونحس النسوة وانصاب بالذعر. يا لها من اسماء! يا لها من افكار! يا له من عالم جذاب!

صدقوا. ولكنّه (عالم ليس لنا)، كما قال غسان كنفاني رحمه الله. لم نشارك في مخاضاته السياسية، ولا ثوراته الصناعية، ولا قفزاته الفكرية. تقول، أين رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون؟ من يذكر لك هؤلاء الآن؟

تمتع بها ما استعفتك، ولكن تذكر أن تحت هذا المظهر اللاهي، تحت معرض الازياء المتصل الذي يتدفق اسامك في شارع الـ (شارلوتيه)، تحت العيث الفكري والجدل الفلسفي والسياسي في مقاهي الحي اللاتيني، تحت بذئات حي (مونبارناس) والـ (بيقال) وخلاعة الـ (فولي بيرجير) والـ (مولان روج) تحت كل هذا قاعدة صلبة من الصناعة والبنوك والشركات العملاقة، والعتاد الحربي، وقطارات الـ T.G.V الكهربائية السريعة، وخريجي الـ (ايكول نورمال) سيويرير والـ (ايكول ناشيونال د ادمستراسيون). المعهد القومي للإدارة. العقول التي تحكم فرنسا في كل العهود، ومهما تغيرت النظم والحكومات. ثم بعد كل كذا عام، يجيئهم رجل عظيم حقا مثل ديغول.

يا لها من اسماء لها في اللسان طعم الشهيد. وقد اعطانا الدكتور العميد رحمه الله عددا منها. حدثنا عن (كورنيي) و(موليير) و(راسين) و(بلزاك) و(فكتور هوتو) و(اميل زولا). اسماء.. اسماء.. اسماء. امن مخلصا ان يربط مصر بالعالم (الهليني) عبر البحر، ومن ثم بفرنسا، فقد كانت (لا فرانس) في رايه، هي وريثة (اينا) وحاملة مسعل الحضارة بعدها.

لا تثريب عليه، فهو عالم اسر بحق. ولعلني لو كنت مكانه، لفعلت فعله، ورأيت رايه. ولكن ما بال الدكتور العميد، رحمه الله وغفر له، لم يشك (حسب علمي) ان هومير هو مؤلف (اللياذة) والـ (أوديسه)، وقد زعموا انه عاش منذ الف ومائتي عام قبل ميلاد المسيح، ولكنه شك في ان يكون اسرؤ القيس هو اسرؤ القيس؟ وما اسرؤ القيس منا ببعيد.

نحو أفق بعيد

١٩٤



بقلم الطبيب صالح

يُعد المؤرخ الفرنسي (فيرناند برودل - Fernand Braudel) من عظماء المؤرخين في هذا العصر. ولد عام ١٩٠٢ في قرية من قرى منطقة الـ (لورين). المنطقة التي انحلت (جان دارك)، وتوفي عام ١٩٨٥. كان (خلدونى) النزعة، مثل (أرنولد توينبى) في بريطانيا، يمزج بين التاريخ وعلم الاجتماع في دراسته لماضي الإنسانية. أشهر أول الأمر بكتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط في عهد الملك فيليب الثاني)، ثم شغل كرسي الأستاذية في معهد الـ (الكوليج دي فرانس) المرموق. وقد كان أيضاً استاذاً في معهد الدراسات العليا، الذي أنشئ في باريس لتشجيع الدراسات التي تزوج بين التاريخ وعلم الاجتماع.

كتابه (هوية فرنسا)، هو آخر كتاب له، وقد نشر بعد وفاته، يحاول فيه أن يتعرف على العناصر التي تكونت منها شخصية فرنسا. يقول فيه:

لنسمح لي القارئ أن أقول بوضوح منذ البداية، أنني أحب فرنسا حباً قوياً عميقاً لا يقل بأي حال عن حب (جول ميشليه - Jules Michelet) (١). لا أميز في هذا الحب بين ما هو حسن وما هو قبيح، بين ما يعجبني في فرنسا، وما أجد من العسير عليّ تقبله. إنما هذا الحب لن يمنعي أن أقول الحقيقة كما أراها. سوف أحرص أن أضع حبي لفرنسا جانباً. سوف أراقب نفسي

مراقبة صارمة. ولعل الحب يغلب عليّ أحياناً، متخذاً شتى الحيل. حين يحدث هذا فسوف أتبه القارئ.

إنني عتدت العزم أن أكتب عن فرنسا، وكأنها بلد آخر، وطن آخر، أمة أخرى. ومهما يكن فإن صناعة كتابة التاريخ اليوم، أصبحت تقتضي منا مزيداً من ضبط النفس والسيطرة على العواطف.

على المؤرخ بصفته (مراقباً محايداً) أن يأخذ على نفسه (عهداً بالصمت). إذا صح القول، ولعل العمل الذي أنجزته من قبل، يسهل مهمتي هذه، إذ أنني في كتابي عن البحر الأبيض المتوسط والراسمالية، نظرت إلى فرنسا من بعيد، وأحياناً من بعيد جداً. وهكذا أعود الآن إلى أرض الوطن، ربما في وقت متأخر. إلا أنني لا أنكر أنني أجد سعادة عظيمة في هذه العودة، إذ لا مراء في أن المؤرخ لا يقف على أرض صلبة إلا حين يكتب عن وطنه. إنه يعرف دون جهد، تموجات ذلك التاريخ، وصعوده وانحداره، وعناصر القوة والضعف فيه. أبداً، لن يكون بمثل هذه الثقة، مهما بلغ من العلم، إذا هو نصب خيمته في بلاد غير بلاده. لذلك يصح القول أنني أندخرت (خبري الأبيض) إلى النهاية. أبقيت تلك الفضلة زادا لشيخوختي.

هدفنا إذا أن نتحرر من العاطفة مهما كانت دوافعها، سواء كانت في طبيعتنا، أو وضعنا الاجتماعي، أو بسبب (معادلاتنا) الشخصية، أو أي من هذه الدوافع التي ترى بها الحياة في وجوهنا. هذا بالتأكيد لم يفعله (هوليت تين) (٢) في كتابه (مقومات تكوين فرنسا الحديثة)، مهما خيل له عكس ذلك. لقد زعم أنه أراد أن ينظر إلى فرنسا (كأنها حشرة في مراحل نموها). كان (الكسي دي توكفيل) (٣) أكثر توفيقاً منه في كتابه الجميل (المعهد الملكي والثورة الفرنسية). (...)

وأضح أن الأمة في أطوار نشوئها، لا تكون مخلوقاً بسيطاً. لا تكون (شخصاً) محدداً، كما قال (ميشليه) متفزعاً. بل هي انقاص تراكمات، واشباح تصورات، ومجموعات كائنات حية. لا يستطيع أن يفهمها حقها، المؤرخ (السردى) الذي ينظر إلى الأحداث في تسلسلها، يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وعاماً بعد عام.

يوجد في نظرتنا نوع آخر من التاريخ. تاريخ يعنى بالأماد المتطاولة، ويميز بين العناصر المكونة للتراكمات العجيبة، ويتبين دورات الحياة البشرية في أقبالها وأدبارها. هكذا نصل إلى

أسلوب في كتابة التاريخ، فاحص غواص في الإعماق، بالطريقة نفسها التي كشف بها التحليل النفسي في مطلع القرن العشرين، مجاهل العقل الباطن. ولعل (أرنولد توينبى) قد بالغ قليلاً حين قال (أن الأربعة أو الخمسة قرون التي تضرمت منذ كولمبس وفاسكو داغاما، ليست أطول من اغماضة العين بالقياس إلى عمر الأرض كما حدثنا علماء الجيولوجيا). ومع ذلك فإن في عبارته تحذيراً لأولئك الذين يقيسون التاريخ بمقاييس قصيرة. (...)

أنما الذي يعيظني أكثر من أي شيء، هو ضيق الأفق الذي تفرضه هذه النظرة. النظام الملكي والثورة الفرنسية، قريبان لنا في الزمان، إذا مددنا أيدينا نكاد نلمسهما، وكأنهما معاصران لنا. ما يجب علينا عمله هو أن ننظر إلى تاريخ فرنسا في تدفقه المتصل منذ احتلال الرومان لبلاد الـ (غال). حين وصل الملك لويس الرابع عشر، كان تاريخ فرنسا قد أصبح رجلاً طعن في السن جداً لأجل ذلك فإنه يحزنني أن الجهد الضخم الذي بذله (ثيودور زلدن) (٤) في كتابه (تاريخ الإخاسيس الفرنسية)، يقض منه أن التاريخ لديه يبدأ عام ١٨٤٨.

كأنما التاريخ لا يعود إلى تلك العهود السحيقة التي يحجبها الضباب! كأنما التاريخ القديم والحديث ليسا نهراً واحداً! كان قري بلادنا لم تكن قد قامت وضربت جذورها في الأرض في الألف الثالث قبل الميلاد! كان أرض الغال لم تكن قد اتضحت معالمها، التي سوف تتشكل في إطارها شخصية فرنسا! كان تدفق القبائل الجرمانية عبر نهر الرين، لم يصبح سمة مهمة من سمات العالم الحديث! كان الدماء التي تجري في عروقنا لا تحمل خصائص واضحة موروثية من تلك القبائل (البربرية) الغارية في ذلك الزمان البعيد! كان معتقداتنا ولغتنا لم تنحدر إلينا من عصور الظلام تلك!

هذا ما يعني تحديداً في كتابة التاريخ. التاريخ الغامض. الذي يجري تحت السطح مثل نهر جوفي. التاريخ الذي يرفض أن يموت ■

١ - جول ميشليه. (١٧٩٨ - ١٨٨٤) أكثر مؤرخ فرنسي في القرن التاسع عشر. كتابه (تاريخ فرنسا) من أربعين مجلداً.

٢ - (هوليت تين). ورد ذكره ضمن اسدياق الاميرة (مندا يونانارت).

٣ - (الكسي دي توكفيل). (١٨٠٥ - ١٨٥٩).

٤ - (ثيودور زلدن). مؤرخ معروف نشر الكتاب المشتمل على اللغة الأسبيرية أولاً. عام ١٩٧٣. ونشر بالفرنسية عام ١٩٧٨.

نحو أفق بعيد

١٨٨



بقلم الطبيب صالح

ليس هذا قلب باريس. باريس لها أكثر من قلب. ولكنه أوضح علامة في المدينة. تراه حيثما كنت، مضيقاً بالليل، وبالنهار يلمع في شمس الصيف، وإذا كان الفصل شتاء، ياخذ لونا رماديا داكنا.

تخرج من مبنى منظملة اليونسكو في (بلاس فنتيوا). تتجه يساراً حتى تصل الى شارع (سوفرن) الواسع، تتجه فيه يمينا وتسير ناحية النهر، لن تسير طويلا. عند ضفة النهر على يمينك تجد البرج. (برج أيفل).

يخبرك الدليل السياحي، انه اقيم في عامين. من عام ١٨٨٧، حتى عام ١٨٨٩، وان ارتفاعه ٩٨٤ قدماً، ويزن سبعة الاف طن، وكلف سبعة ملايين ونصف مليون فرنك، رغم حجمه الهائل، فانك لا تحس به جسماً صلباً، لانه مفتوح على الافق من النواحي جميعها. يرتفع في شكل هرمي، وينتهي بمسلة طويلة من الحديد. احد اعاجيب الدنيا، وواحد من اهم رموز باريس. يصنفه المفكر الفرنسي الكبير (رولان بارت) قائلاً:

... في أي فصل من فصول السنة، في الضباب والغيم، في الأيام التي لا تشرق فيها الشمس، وفي أيام الضحو، في المطر، اينما كنت... قمة البرج، يتغلغل في نسيج الحياة اليومية حتى لا تستطيع ان تتصور له صفات محددة.

مثل فلاهرة من ظواهر الطبيعة، يتساءل الانسان عن معناها الى ما لا نهاية. ولكن وجودها ثابت بما لا يدع مجالاً للشك...
...بالأضافة الى ما يعنيه البرج لأهل باريس، فإنه ينفذ، عند الناس قاطبة، الى مستودع التذاعيات الدفينة في مخيلاتهم. هيئته البدائية البسيطة، تسبغ عليه صفة لغز لا قرار له. أنه حسب ما يشط بنا الخيال. رمز باريس، رمز الحداثة، الاتصالات، العلم، القرن التاسع عشر، صاروخ، جذع، ونش، Phallus (رمز الذكورة)... برق، قضيب حديد، حشرة. يشتمل على انواع احلامنا كليا. أنه (العلامة) التي لا تهرب منها... وخليفته المثلوجية الوحيدة، كما يبدو في شكله البسيط ان يجتمع القاعدة الى القمة، او الأرض الى السماء، كما عبر الشاعر...
... يجذب البرج المعنى اليه، كما تجذب الأسلاك الصواعق. أنه يلعب بالنسبة لعشاق اصطصاد المعاني، دوراً مدحشاً. انه المعنى الذي يأخذونه من تجاربهم واحلامهم وتاريخهم، دون ان يكتسب هذا المعنى بعداً نهائياً ومحدداً.

كتب (رولان بارت) هذا، في مقالة نشرت باللغة الفرنسية، عام ١٩٧٠ او نحوها، ونشرت باللغة الانجليزية عام ١٩٧٩ مع مجموعة مقالات. وهو كما لا يخفى، من كبار علماء (السيميو لوجية) ومن اخبار المذاهب الحديثة في النقد. ولد عام ١٩١٥ وتوفي عام ١٩٨٠. وكان الى حين وفاته أستاذاً في ال (كوليج دي فرانس). بصفه البعض بأنه (البنيوي) الذي وضع علماً للادب). وقد ناصر (الرواية الجديدة) ونادى بما سماه (صوت المؤلف)، يقصد أن النص هو المفعول، وان المؤلف لا اهمية له. ذلك لم يمنعه هو نفسه ان يكتب عن (راسين) و (بلزاك). وقد كان مثار اهتمام عظيم، بشخصه وبفكره، لا يقل عن الاهتمام الذي اتاره (جان بول سارتر) في الخمسينيات والستينيات. مساهماته الفكرية لا تنكر، واثره واضح في كثير مما يكتب من نقد ادبي هذه الايام، حتى في العالم العربي.

قارن بين وصفه لـ (برج أيفل) وبين هذا الوصف في قصة تسمى (دومة ود حامد) لشجرة دوم، في قرية في شمال السودان. والدوم كما تعلم مثل النخل، الا انه اكبر وأطول. وقد نشرت القصة باللغة العربية عام ١٩٦٠، ونشرت مترجمة باللغة الانجليزية عام ١٩٦١، او نحوها.

... ها هي ذي.. دومة ود حامد. أنظر اليها شامخة برأسها الى السماء، أنظر اليها ضاربة بعروقها في الأرض، أنظر الى جذعها المكتنز المتكلى كقائمة المرأة البدينة، وإلى الجريد في اعلاها كأنه

عُرف المهر الجامحة، حين تميل الشمس وقت العصر، ترسل الدومة ظليها من هذه الربوة العالية عبر النهر، فيستظل به الجالس على الضفة الأخرى. وحين تصعد الشمس وقت الضحى، يمتد ظل الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل الى المقبرة.

اتراها عقاباً اسطورياً باسطاً جناحيه على البلد بكل ما فيها...
... أغلب الظن أنها نمت وحدها..

ولكن ما من أحد يذكر انه راها على غير حالتها التي رايتها عليها الآن. ابناؤنا فتحو اعيينهم فوجدوها تشرف على البلد. ونحن حين ترد بنا ذكريات الطفولة الى الوراء، الى ذلك الحد الفاصل الذي لا نذكر بعده شيئاً، نجد دومة عملاقة تقف على شط في عقولنا، كل ما بعده طلاس، فكأنها الحد بين الليل والنهار. كأنها ذلك الضوء الباشق الذي ليس بالفجر، ولكنه يسبق طلوع الفجر (...). كل جيل يجيء، يجد الدومة كأنها ولدت مع مولده ونمت معه (...). وهكذا يا بني. ما من رجل او امرأة، طفل او شيخ، يحلم في ليله، الا ويرى دومة ود حامد، في موضع ما من حلمه...
الفرق شاسع بالطبع، كالفارق بين قرية في شمال السودان وبين باريس، كالفارق بين شجرة دوم تطل على نهر النيل، وبرج من الحديد زنته سبعة الاف طن، يطل على نهر السين.

انما احسن من هذا وذاك، ما صنعه ابو عبادة البحري منذ اكثر من الف عام. لا يغرنك تذاكي (الحبر) الفرنسي، وتلاعبه بالكلمات والافكار كمثل قوله: «البرج حماد يرى (يفتح الباء) ونظرة ترى (يضم التاء). انه فعل تام، لازم ومستعدي. تحت هذا اللعب الذكي فكرة بسيطة. هي ان برج أيفل (رمز).

كذلك فعل البحري في قصيدته السينية العصيمة عن (الايوان). الرمز عند العلامة الفرنسي (فارغ) يملؤه الراي بالصور والاحاسيس والمعاني، كيف يشاء. وهذه فكرة اساس في مذهب الاستاذ (بارت). اما البحري قد صنع رمزاً داخله مجموعة رموز، مثل كهف مسحور مليء بالفجاءات. لغز وراءه لغز. المتلقي لا يملأ بتخيلاته فراغاً كاملاً، ولكنه يملأ فراغات بين دروب المعاني التي اختطها الشاعر سلفاً وعن عمد.

انها قصة طويلة ليس هذا محلها، ولكن من يوازن لك في زحمة هذه السوق، بين ابي عبادة البحري و(رولان بارت) وهل كانت بغداد زمان البحري الا كمثل باريس على عهد بارت؟ وهل (دومة ود حامد) الا (برج ود حامد)؟ وهل (برج أيفل) الا (دومة باريس)؟ ■

نحو أفق بعيد

١٨٩



بقلم الطيب صالح

الأمر البالغ الأهمية هو أن قائد الفرنجة السالبيين، أكبر القبائل الجرمانية، أصبح في عام ٤٩٦م حامي العقيدة الكاثوليكية...

«التحالف الطويل بين الملكية الفرنسية وكنيسة روما، الذي انتهى عام ١٨٣٠، بفرار آخر ملوك البوربون من باريس أمام غضب الجماهير والدماء، تعمد بالدم في ساحة القتال في الأتراس، قبل ألف وثلاثمائة عام، كانت نقطة تحول في تاريخ الـ (غال) بل وتاريخ أوروبا، حين أصبحت الكنيسة الكاثوليكية، سيدة بلا منازع، من سواحل الأطلسي حتى نهر الراين، بعد أن ادعى ملك (همجي) لسلطان الكنيسة ورضي أن يحكم بواسطة الاساقفة حسب النظم الإدارية التي أعطتها روما في عهودها الأخيرة إلى فرنسا في القرون الوسطى. قائد محارب، وضع نفسه على رأس كنيسة مقاتلة.

جاءت الثورة الفرنسية، متاثرة بأفكار (روسو) و(فولتير) والأفكار العقلانية من الـ (رينسانس) وأرادت أن تقضي على العلاقة بين الكنيسة والدولة قضاء مبرماً، وذهبت في ذلك مذاهب بعيدة في التطرف. لكنها لم تفلح، وبقيت فرنسا إلى اليوم، دولة كاثوليكية وثورية في الوقت نفسه.

وما هو ذا الدليل، ماثل أمامك، قف على جسر (بونت نف - Pont Neuf) عند رأس أصغر الجزيرتين، إنه أقدم جسر في باريس. افتتح عام ١٦٠٤ في عهد الملك هنري الرابع. انظر ناحية الشرق. بل انظر في أي اتجاه تشاء، فسوف يرد بصرك مكرها إلى هذا الهيكل الضخم الذي يحتم كالجبل على وجه الأرض، كاتدرائية (نوتردام دي باري). بنوها على الطراز القوطي الصريف، متعمقين أن يملأ البناء أكبر حيز من الفراغ، مهيمناً على الأفق، ساداً منافذ الخيال.

بعد ذلك تعلموا من المعماري الإسلامي في الأندلس أن يوسعوا القوس القوطي، ويسطوا الأعمدة، ويحاكوا رشاقة الماذن في الإبراج، ويقتصدوا في الزخرفة، ويخففوا من كتل الصخر التي تجعل العمارة عبئاً ثقيلاً على جسم الأرض.

كان المستشرق الفرنسي (ماسينيون) رجلاً منصفاً. قال إن المسلمين صنعوا في الأندلس، عمارة متينة راسخة في الأرض، وفي الوقت نفسه تكاد تطير في الهواء لخفتها ورشاقته! ■

(للمزيد بقية)

روح (الإمبراطور)، القائد العبقري، نابليون بونابارت، قد ترفرف على باريس. لكنك لا تحس بوجوده إلا إذا زرت ضريحه في الـ (انفاليد). نابليون الذي ترك أثراً أوضح، وأعلى المدينة هيئتها التي هي عليها الآن، هو ابن أخيه، نابليون الثالث. وهذا أيضاً من بعض سخریات التاريخ الفرنسي، مثل شوارع باريس. ملوك الـ بوربون ذهبوا ثم عادوا ثم ذهبوا. والثورة الفرنسية بقيت حين بدا أنها لن تستطيع البقاء، وحين استتب لها الأمر، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فجأة رحلت. وكان في موتها حياتها، فإن روحها تغلغلت في باريس وفي فرنسا وما وراءهما. والـ بونابارت أقاموا ثم رحلوا، ثم عادوا ثم ذهبوا.

أخيراً استقرت باريس، وفرنسا بطبيعة الحال، على وضع لا يحسنه إلا الفرنسيون. جمهورية ثورية كانتها ملكية. انظر إلى متحان ومن قبله الجنرال ديغول. ودولة كاثوليكية وعلمانية في الوقت نفسه. ومجتمع لعله أكثر مجتمع في أوروبا اشتراكية، وفي الوقت نفسه أكثر مجتمعات أوروبا رأسمالية.

لا يسعك إلا أن تعجب بهذه المهارة في عمل توازن بين نقائص يصعب التوازن بينها. أنه دليل على مرونة فكرية وصلابة، وثقة بالنفس نادرة المثال. ولعل في تاريخهم ما يعين على قدر من فهم ذلك. يقول المؤرخ الإنجليزي الكبير (اتش. إيه. إل. فيشر H.A.L. Fisher):

«عند (كلوفيس) مؤسس الأسرة الميروفنجية، وأول من أنشأ دولة فرنسا (٤٨١ - ٥١١)، تميز بثلاث انتصارات. الأول انتصاره على (سيافارين) ملك الرومان في (سواسون) عام ٤٨٦، والثاني على الألمان في الأتراس بعد عشر سنوات، والثالث على (الايك) ملك الـ (فزيقوث) بالقرب من (بواتيه) عام ٥٠٧. بعد انتصاره الأول، انتقل (كلوفيس) من (سواسون) إلى باريس فجعلها عاصمته. وبعد انتصاره الثاني تحول من الوثنية إلى الكاثوليكية. وبعد انتصاره الثالث، طرد أعداءه الـ (فزيقوث) إلى إسبانيا، ودفع حدود مملكته إلى جبال البرانس. وسواء كان تحول (كلوفيس) إلى المسيحية بسبب تأثير زوجته (كلوتلدا) الأميرة البيزنطية أو لأنه آمن أن المسيح هو الذي نصره على أعدائه الألمان، أو بسبب حسابات سياسية ذكية، فإن

لن تجد مدينة تمشي في شوارعها ليلاً أو نهاراً خيراً من باريس. مدينة كانتها متحف مفتوح. طبقات من التاريخ تمتد أكثر من ألفي عام، متراكمة بعضها فوق بعض. الوثنية والمسيحية. الملكية والثورة، عالم البحر الأبيض الجنوبي والعالم الجرمانى الشمالي. العالم الكلاسيكي القديم وعالم التكنولوجيا المفرط في الحداثة. المحافظة الصارمة والتحرر المنفلت من كل القيود. تخطر لك أفكار متناقضة وانت تسير. ترى شيئاً فتقول، باريس هي هذا، ثم تسير بضع خطوات، فإذا المدينة، وكأنها تعبت بك، تقدم لك دليلاً آخر، مناقضاً تماماً لما رأيته من قبل.

هذه مدينة لم تخلق لتخطوي على نفسها، ولكن لتنظر إلى المفتونين بها وهم بمعون النظر في مفاتها. وكأنما البارون (هوسمان) وضع ذلك في اعتباره. الشوارع واسعة، على جوانبها دائماً طرقات للمشاة. وحتى الشوارع الضيقة، بها طرقات للمشاة. نادراً ما تمتد في خطوط مستقيمة من بدايتها إلى نهايتها، ولكن فجأة تجد ميداناً أو تتوقع أن تجد ميداناً، وإذا شوارع أخرى تخرج في زوايا حادة ذات اليمين وذات اليسار.

نحو أفق بعيد

١٩٠



بقلم الطبيب صالح

بعد مارسيل بروست بحق (١٨٧١ - ١٩٢٢) واحدا من عظماء كتاب الرواية في القرن العشرين، وروايته الضخمة (البحث عن الزمن الضائع) من العلامات المهمة في تاريخ الأدب. كان يعشق مدينة باريس، لا يفارقها إلا مضطرا، ولفترات قصيرة، يتحرك بين دور أصدقائه من الطبقة الأرستقراطية التي كان مأخوذا بها. وقد كتب مجموعة من المقالات، نشرها باسم مستعار في صحيفة الـ Figaro، وهو هنا، في إحدى هذه المقالات يصف (صالون) الأميرة (متلدا) ابنة أخي نابليون بونابارت.

كان الأمير لوي نابليون يقول ذات يوم لبعض أصدقائه في صالون الأميرة (متلدا) أنه يحب أن يكون ضابطا في الجيش. صاحت عمته الأميرة، وقد ازعجها أن ابن أخيها المفضل قد يبعد عنها:

«يا لك من ولد أحق. كون عائلتك انجبت بمحض الصدفة رجلا عسكريا، هل هذا ميراثك أن تدخل الجيش؟»

لا يمكن أن يتصور الإنسان استخفافا بالمظاهر والرتب، أكثر من قولها (رجلا عسكريا) وهي تشير إلى نابليون بونابارت.

والحق، أن البساطة، كانت أبرز صفة في الأميرة (متلدا). كانت تتحدث عن أي شيء يتعلق بالنسب والحسب والمنصب باستخفاف واضح، سمعناها تقول مرة لسيدة من برجوازيي آل (فويور سان جرمان):

«الثورة الفرنسية! لولا الثورة الفرنسية لكنت أنا اليوم لا أكثر من بائعة يرتقال في شوارع أجاكيو».

هذا التواضع مع الكبرياء، هذه

الصراحة التي تصل أحيانا إلى درجة السوقية، يعطى حديث الأميرة طعنا حارقا مميزا. أنني لن أنسى أبدا تلك الحدة التي أجابت بها ذات يوم على سيدة سألها باحترام مبالغ فيه، هل تتفضلين يا صاحبة السمو أن توضح لي أن كانت الأميرات أمثال سموك، عندهن الإحاسيس نفسها التي نحس بها نحن المسكينات بنات الطبقة البرجوازية، أجابتها الأميرة باحتقار. هذا السؤال لا يوجد لي أنا. أنني لست من سلالة (الحق الأنهي) (١).

هذه الخشونة الرجالية لدى الأميرة، يخفف من حدتها، رقة عظيمة في العينين وعذوبة في الابتسامة، وخفاوة لا مثيل لدونها.

لكن لماذا احاول أن اصف لك سحر تلك الخفاوة، دعني اجعلك تذوقها بأن اصف لك كيف تستقبل الأميرة ضيوفها، تعال معي إلى (رو دي بري)، واسرع، فهناك تبدأ السهرة في وقت مبكر.

انتهى العشاء باكرا ربما ليس بمثل بكور تلك الأيام، حين جاء (الفرد دي موسيه) (٢) للعشاء للمرة الأولى والأخيرة. وصل متأخرا جدا، فوجد أن العشاء قد انتهى. وكان لا يستطيع الكلام من شدة السكر. جلس صامتا لم يفتح فمه بكلمة. وحين قاموا من المائدة، خرج...

بعد العشاء، تدخل الأميرة غرفة الجلوس الصغيرة، وتجلس في كرسي كبير، يكون على يمينك حين تدخل من الباب الرئيسي، ويكون على يسارك اذا دخلت من القاعة الكبيرة.

لم يصل كل الضيوف بعد، فقط النخبة الذين دعيتهم الأميرة للعشاء. بجانبها بعض الذين تجدهم غالبا على مائدتها. الكونتيسة (بيدي)، جميلة جدا ولطيفة جدا. دمام (راستوني)، دمام (اسيناس) وصيفة الأميرة. ثم السيدة التي يحبها الجميع، دمام (قاندراكس)، زوجة محرر آل (رفيو دي باري).

تجد أيضا على مائدة الأميرة أغلب الأيام رجلا صغير الحجم، ورغم أنه طاعن في السن فهو في مثل حيوية الشباب. خذاه متوردان وناعمان كخدي طفل. شعره قصير، حسن الهندام، شديد التهديب والذكاء، هذا هو الكونت (بيدي) والد الكونت الحالي، وقد كان سفيرا لفرنسا في برلين...

يفتح باب الصالون. تدخل الأميرة (جان بونابارت) يتبعها زوجها الماركيس (دي فيلنوا). يقف الجميع. حين تصل إلى نصف المسافة بينها وبين الأميرة (متلدا) تقف الأميرة وترحب بها وبدوق (دي تريفييس) التي دخلت لتوها مع دوق (دالبوفيرا).

يفتح الباب، انه دوق (قراسون) وزوجته. ثم تدخل الأسرة البونابارتية رقم واحد، العائلة المقلدة باللقاب الضخمة، عائلة شارع (ريفولي)...

الأميرة (متلدا) لم تعد جالسة. انها تتحرك بين الضيوف، ترحب بكل قادم

جديد، تتوسط معهم في الحديث، تسخر كل واحد منهم بكلام يجعله يظن انه اهم شخص بين الحاضرين.

أننى أستعمل كلمة (صالون) بالمعنى المجرد، إذ أن الصالون الفعلي كان في شارع (رو دي كورسيل) قبل أن ينتقل إلى (رو دي بري). حين يفكر الإنسان أن تلك الصالون كان ملقى للحياة الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أن (مرمي). (٣) (Merimee) و (فلوبير) (Flaubert) (٤) و (غونكور) (Goncourt) (٥) و (سانت. بوف) (Sainte - boeue). أن هؤلاء كانوا يجيئون كل يوم بحرية مطلقة دون أية قيود، وانهم كانوا يجدون الأميرة دائما مستعدة لاستقبالهم، ومائدتها دائما عامرة بالطعام.

كانت تعاملهم بصراحة وعفوية، وهم أيضا، لا يخفون عنها شيئا من أسرارهم. وكانت تسعى دون توقف إلى مساعدتهم وإسداء خدمات اليهم. ليس فقط المساعدات اليومية الصغيرة، ولكن أيضا الخدمات الجليلة المدهشة. كانت تحبهم من القهر والأضطهاد وتزيل الكراهية ضدهم. تسهل أعمالهم. تعمل على بحاسهم وديوع شهرتهم. تساعدكم ماديا وتصلح أحوال معيشتهم. تغير مصائرهم.

كان (سانت. بوف) يقول أن دار الأميرة (متلدا) هي بمثابة (وزارة للعطف).

حين يفكر المرء في هذا، لا يسعه إلا أن يؤمن أن بعض اصحاب النفوذ الديني، قادرون فعلا، ورغم كل شيء، على التأثير في مجرى تاريخ الأدب. وقليل هم الذين استعملوا نفوذهم وسلطانهم في خدمة

الأدب، كما فعلت الأميرة (متلدا بونابارت). قال (سانت. بوف) أن ذوق الأميرة (كلاسيكي) مثل كل الاسراء، انما المرء يتساءل، هل كان (سانت. بوف) محقا؟ هل كان عملا (كلاسيكيا) أن تصطفى الأميرة (فلوبير) وأن تتحسس لـ (غونكور) في ذلك الوقت، حين كانت مستعدة على ذوق عصرها، بل على ذوق (سانت. بوف) نفسه؟ لكن لعل الأفضل أن ننظر إلى حماسيتها لهما، على أنه وفاء صديق بحسن اختيار الاصدقاء، أكثر من كونه بعد نظر ناقد، عرف عبقرية الاول وموهبة الثاني ■

(١) تشير إلى أسرة (ال بوربون) الذين كانوا يرعسون، ككل ملوك أوروبا، أنهم يحكمون بمقتضى (حق أنهي).

(٢) الفرد دي موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) شاعر وكاتب مسرحي. أحد عشاق الكانتة (جورج ساند).

(٣) (مزمي) (١٨٠٣ - ١٨٧٠). كسانت روماني أشهر قصص (كارمن) التي أصبحت أوبرا مشهورة.

(٤) فلوبير (١٨٢١ - ١٨٨٠) روائي وكاتب مسرحي صاحب رواية (دمام بوماري) إحدى العلامات في تاريخ الرواية.

(٥) غونكور، الديميد (١٨٢٢ - ١٨٩٦) الأخ الأكبر من الاخوين غونكور. اشتهرا بالمشكلات والمانحارة الأدبية المعروفة التي تحمل اسمهما.

(مصحح نغمة)

نحو أفق بعيد

١٩١



بقلم الطيب صالح

بواصل الكاتب الفرنسي الكبير (مارسيل بروت) حديثه عن الأميرة (متلدا بونابارت) فيقول:

«مهما يكن، فلا شك أن اسم الأميرة (متلدا) سوف يبقى محفورا على الألواح الذهبية للآداب الفرنسية لقد خلد ذكرها مرمي Merimee في مجلة كامل من رسائله. (رسائل إلى الأميرة). كذلك فعل (فلوبير - Flaubert) في عدد من رسائله، وانشاد بها (سانت - بوف Sainte - Boeue) في (اثنيثاته) (١). وجاء ذكرها في صفحات بعد صفحات من (يوميات الأخوين - قونكور - Gougeon). كل هؤلاء الأدباء الأفاضل، اشادوا بالأميرة، ورسموا لها صورة جذابة تمتع على الإعجاب.

كان من أصدقائها المعجبين بها أيضا (تين - Taine) (٢) و(رينان - Renan) (٣) وقد ساعدت علاقتها بـ (تين) في سنواته الأخيرة، بسبب نشر كتابه (نابليون بونابارت). أرسل لها الكتاب وطلب رأيها فيه. قرأت تلك الصفحات الغريبة التي يظهر فيها نابليون كأنه قاطع طريق. في اليوم التالي أرسلت بطاقتها إلى (تين) أو بالأحرى تركت بطاقتها عند زوجته وعليها الأحرف (P.P.C) - سوف أكون في اجازة). وهذا معناه حسب العرف (مع السلامة). لا أريد أن أراك بعد اليوم.

قطعت الأميرة صلتها بـ (تين) و(سانت - بوف) ولكنها اصطلحت مع أكاديمي آخر هو الدوق (د أومال - D'Aumale) (٤) حين عادت إلى فرنسا عام ١٨٤١، وجدت ترحيبا ومعاملة كريمة من العائلة المالكة، تركت في نفسها شعورا بالجميل لم تنسه لهم أبدا، حتى أنها لم تكن تسمح لأحد أن يذكر في مجلسها اسرة (اورليان - Orleans) بأي سوء، وقد بذلت جهدا كبيرا في حمايتهم، ولكن حكومة (الامبراطورية) لم تكن كريمة معهم، فصارت ممتلكاتهم رغم جهود الأميرة. وبعد الخطاب الذي القاه الأسير نابليون، وأنشأ فيه للأسرة الملكية، بعث إليها دوق (أومال)، تلك الرسالة

الشهيرة، الرسالة العجيبة الرائعة. بدا كما لو أنها لن يلتفيا أبدا بعد ذلك وبالفعل عاشا بعيدا أحدهما عن الآخر سنوات طويلة. ولكن الزمن مسح المرات، ولم يبق إلا عرفان الجميل والإعجاب المتبادل. كانا في الواقع متشابهين في خلفيتهما، هذان الأميران (غير الرسميين)، لم يكن الدوق منعصبا لعائلته الملكية، ولم تكن الأميرة منعصبة لأسرتها البونابارتية. كان اسم من ذلك عندهما، أن لهما أصدقاء مشتركين، هم قادة الفكر في عصرهم.

ظل هؤلاء الأصدقاء لسنوات يسعون لإصلاح ذات بينهم، يتفكرون للأميرة الإتياء الجميلة التي يقولها الدوق عنها، وكذلك يفعلون مع الدوق. وأخيرا، تم اللقاء ذات يوم في مرسم الفنان (بونا - Bonnant) (٥). تم ذلك بتدبير من (الكساندر دوما الابن). لم يكونا قد التفتيا منذ أربعين عاما. كانا يومئذ شابين، وجميلين. ما يزالان جميلين الآن، ولكن الشباب قد مضى. وفقا بعيدا عن الضوء في البداية. في الليل، كل منهما يخشى أن يرى الآخر ماذا فعلت به الأيام. ثم زال الخجل، وعاد بينهما الود القديم الذي لم ينقطع إلى أن مات الدوق. كان باستطاعة الأميرة (متلدا) لو أرادت، أن تتزوج ابن عمها الإمبراطور نابليون، أو قريبها ابن فيصير روسيا، ولكن قدر لها أن تتزوج وهي في العشرين من عمرها الأمير الروسي (نيدوف). وحين ذهبت إلى روسيا، قال لها الفيصير الذي كان يتمنى لو تزوجت ابنة (لن اغفر لك أبدا زواجك من نيدوف). كان يفتقد نيدوف، وحين أحس أنها ليست سعيدة في زواجها قال لها (إذا احتجت إلى فنانا رخص اشارت في أي وقت). وكان كما وعد. لم تنس له ذلك أبدا.

حين عادت إلى فرنسا بصفتها ابنة عم الإمبراطور، كان أول شيء فعلته أنها سارعت بالكتابة إلى الفيصير نيكولاس. أرسل لها ردا بتاريخ ١٠ يناير ١٨٥٣ قال فيه (سعدت سعادة بالغة يا عزيزتي برسالتك التي تضمنت مشاعر نبيلة انخلت العجيلة على قلبي. إن فرنسا قد استرديت اليها كما تقولين. إذا تمتعي بكل ما تقدمه اليك من مسرات، وليس أحد أحق منك بالسرور. لقد أسعدني أنني استطعت أن أقدم لك بعض العون خلال إقامتك معنا).

ثم شبت حرب القرم، ووجدت الأميرة نفسها ممزقة بين ولائها لفرنسا وحبيها وإحساسها بالجميل لفيصير روسيا، فكثرت له رسالة مؤثرة، ولكنها رسالة ليس فيها شيء يمكن أن يعترض عليه أشد الفرنسيين تطرفا. وقد رد عليها الفيصير بتاريخ ٩ فبراير عام ١٨٥٤.

«أشكر من أعماق قلبي يا عزيزتي، على ما ورد في رسالتك من عواطف جميلة لشخصي. إن قلبا مثل قلبك، لن يتحول أبدا مع تقلبات السياسة. كنت متأكدا من ذلك. لقد أحسست بسعادة خاصة أن تصلني هذه الكلمات، من قطر أصبح فيه اسم روسيا وقبصرها يشيران أشد الكراهية. وأنا حزين منك لقطع العلاقات بين روسيا وفرنسا، رغم كل جهودي لإيجاد طريق يؤدي إلى اتفاق ودي. حين عادت الإمبراطورية إلى فرنسا، راودني الأمل ألا تؤدي عودة ذلك النظام إلى قيام تنافس ينتهي بصراع مسلح بين الدولتين.

أسأل الله ألا تهب العاصفة التي تبدو

نذرها في الأفق. هل كتب على أوروبا، بعد فترة أربعين عاما من الهدوء، أن تصبح مرة أخرى مسرحا لمأس دموية، ماذا تكون النهاية إذا حدث هذا؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ. ولكن منيما حدث يا عزيزتي، فأنتي تؤكد لك، أن الصداقة التي عاهدتك عليها، لن تتزعزع أبدا.

هاتان الرسالتان قد شترتا من قبل. اند الشيء الجديد، الشيء الذي ليس معروفا، هو ما سوف أذكره الآن. إن الصداقة التي تعاهد عليها الفيصير نيكولاس مع الأميرة (متلدا) بقيت تقليدا راسخا لم ينقطع حتى بعد أن أصبح نيكولاس الثاني فيصرا روسيا. (٧)

وكما هو معروف، فإن من المراسم التي تضمنها برنامج الاحتفالات بزيارة الفيصير الشاب إلى باريس - وكانت تلك أول مرة يزور فيها باريس - زيارة لضريح الإمبراطور نابليون في (الأنفاليد). أرسلت الحكومة الفرنسية دعوة إلى الأميرة (متلدا) وخصصت لها مكانا بارزا بين كبار المدعوين على المنصة. وبغدد كانت الأميرة تستخف بالمظاهر والمناصب كما رأينا، إلا أن الأمر كان يختلف، حين تحسب يأتي استخفاف شرف العائلة البونابارتية نفسه. ردت قائلة أنها لا تحتاج إلى بطاقة دعوة لتزور ضريح عمها في (الأنفاليد) وأنها تملك مفاتيح خاصة، فيوسعها أن تذهب في أي وقت تشاء. وقالت إن الحكومة إذا وافقت على دعائها بتلك الطريقة، فسوف تذهب، وألا فاتها ترفض الدعوة.

كان وضعها محرجا للحكومة، لأن معنى ذلك أن تدخل الأميرة إلى مرقد الإمبراطور، في الحجر الداخلية من الضريح، قبل أن يدخل الفيصير. وفي صباح يوم الزيارة أسرع مندوب عن الحكومة إلى دارها وأخبرها أنها تستطيع أن تدخل ضريح عمها الإمبراطور مستعملة مفاتيحها الخاصة.

استقبلت بكل مراسم الحفاوة التي تليق بمقامها، ثم دخلت في ووصيفتها وحدها إلى مرقد الإمبراطور، حيث لا يسمح لأحد بالدخول بعد قليل وصل الفيصير، فحياها وتحدث معها بكل لطف واحترام. وكان يرافقه مسيو (فيلكس فور) (٨) رئيس الجمهورية، فقدم نفسه إليها بأسلوبه المهذب الذي عرف عنه طول حياته. وقبل يدها بتلك الطريقة الفريدة التي تجد بين أعماق المشاعر الجمهورية، والولاء لأحد.

التاريخ الفرنسي ■

- ١ - سانت - بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩). كان أهم قائد في عصره. كان ينشر مقالات، تصدر أيام الاثنين، مسببة (الانتخابات).
- ٢ - تين - (١٨٢٨ - ١٨٩٢) ناقد وفيلسوف ومؤرخ أدبي كان له تأثير كبير على الاتجاهات الفكرية في القرن التاسع عشر.
- ٣ - ريمان - (١٨٢٢ - ١٨٨٢)، مؤرخ وناقد، تخصص في اللغة العبرية والدراسات اللاهوتية. عمل أستاذا للغة العبرية في (كوليج دافراس) كتابه (حياة المسيح) الذي أشكر فيه الومنة المسيح أعادت روعة في زمانه.
- ٤ - هنري بوجيه فيليب د أورليان، دوق أورمال، الابن الرابع للري فيليب. عسكري ومؤرخ ومهتم بالفن والثقافة. كان حاد للحرارة عام ١٨١٧ وعلى يده استسلم الثائر العزائري. أحد أعد القادر. ويذكر أن عائلة الأمير عند القادر لقبتم منه مع كريمة.
- ٥ - بونا - (Bonnant) (١٨٢٢ - ١٨٩٢) الرسام المفضل للطبقات العليا في الجمهورية الثالثة. واشتهر خاصة بلوحاته نساء تلك الفترة.
- ٦ - نيكولاس الأول - حكم روسيا من ١٨٢٥ إلى ١٨٥٥.
- ٧ - نيكولاس الثاني - آخر قسار روسيا. حكم من ١٨٩٤ إلى ١٩١٧ حين قامت الثورة.
- ٨ - فيليكس فور - انتخب رئيسا في عهد الجمهورية الثالثة في يناير عام ١٨٩٥ شبيه من أنصار الملكية والجمهوريات القبطية في عهده حدثت المواجهة بين بريطانيا وفرنسا في «مؤودة» في حرب السودان.

(الحدث مله)

نحو أفق بعيد

١٩٢



بقلم الطيب صالح

يوميات الأخوين (قنكور)، من أشهر المذكرات في تاريخ الأدب، ليس في فرنسا فقط، ولكن في العالم. كانا يكتبانها معاً، كما كتبا كل أعمالهما الأدبية. تبدأ يوم ٢ ديسمبر عام ١٨٥١، وهو اليوم الذي قام فيه (لوي نابليون بونابارت) - الذي عرف فيما بعد بنابليون الثالث، وكان إلى ذلك الوقت، رئيساً منتخباً، بانقلاب، حل بموجبه البرلمان، وحظر الأحزاب، واعتقل زعماءها، وأعلن نفسه امبراطوراً لفرنسا. وكما تقدم، فقد كان الأخوان (قنكور) وخاصة أكبرهما (ادموند)، من أصدقاء الأميرة (متلدا) ابنة أخي نابليون الأول، وابنة عم نابليون الثالث. وفيما يلي مقتطفات من اليوميات، يصف فيها الأخوان (قنكور) بعض الأمسيات التي قضوها في دار الأميرة (متلدا):

الأربعاء ١٩ أغسطس ١٨٦٣.

انتقل الحديث في دار الأميرة إلى (مدام صاند) (١)، تحدثنا عن علاقاتها الغرامية، واهتمت رأينا على أنها مسترجلة، ليس فيها رقة انثوية. وفي طبعها قسوة وبرود، يجعلانها تكتب عن عشاقها، أثناء علاقتها بهم. وروى أحد، ان (ميرمي - Mérimé) كان معها ذات يوم، فرأى ورقة على المنضدة وحين أخذ يقرأها، اختطفها من يده بعنف. كانت تتحدث عنه في الورقة.

كانت أحياناً ترتدي زي الرجال، خاصة خلال علاقتها بـ (صاندو - San-

deau)، كانا يترددان على مطعم صغير يملكه رجل يسمى (بنسون)، كان يقول: العجيب أنني حين أراها في ثياب رجل أقول لها (مدام)، وحين تكون في ثياب امرأة، أقول لها (مسيو).

حتى لنا (سانت - بوف)، انه راحا في زي رجل، مرة واحدة. ذهب يزور (بولور) أيام عزوبيته. أول ما دخل، قفز شاب من (الكنبة) وحياء قائلاً (هلو). هل تأخذني إلى الأب (لامني) (٢) لم يكن ذلك الشاب غير مدام صاند، وكانت علاقتها قد ساءت بـ (موسيه)، اثر عودتها من (فنيسيا). قال (سانت - بوف): تصوروا. كان (لامني) ما يزال قسيساً، وكان الفصل شتاء، وكان (لامني) يعيش في آخر الدنيا، في (برتاني).

انتهى الأمر بـ (سانت - بوف) انه بدل ان يأخذها إلى (لامني) أخذها إلى (موسيه). عند الباب قال لها (هل ادخل معك؟) فسكت سيفها في وجهه - كانت تحمل سيفاً - وقالت له (لا. مع السلامة). يرى المرء، في كل هذه القصص التي يحكيها (سانت - بوف) نوع الدور الذي كان يقوم به تلك الأيام. دور المتسقط لأخبار الفضائح، المصلح بين العشاق، الذي تفضي إليه النساء بأسرارهن. ولا شك عندي، ان حب الاستطلاع، كان يبلغ به ان يختبئ في غرف النوم، يسجل ما يجري، ليضممه مذكراته.

٦ يناير ١٨٦٤.

حملنا إلى الأميرة الاليوم الياباني الذي طلبته. حدثتنا عن لقاء (سانت - بوف) للامبراطور في (كسبيني) حيث لم يحسن التصرف.

تصوروا. تركنا وخرج لأمور غرامية. كل الحاشية الامبراطورية لاحظت ذلك.

هل ترك اثراً حساساً لدى الامبراطور؟

أبداً. لم يستطع احد ان يفهم ما يقول. الامبراطور يفهم فقط الأشياء العملية. لو ان (سانت - بوف) طلب منه شيئاً محدداً. منصباً مثلاً. ولكن يبدو انه لا يحب ان يتحمل اية مسؤولية. يريد ان يكون طليقاً لينتقد من يشاء وما يشاء بحرية.

ثم أخذت تستدرجنا لنحدثها عن ذوقه في النساء، وكانت تتظاهر انها لا تصدق ما نقصه لها، لنعطيهما المزيد. تقول ضاحكة:

لو كان شاباً! مثل هذه الاعمال، تكون مسلية في الشباب. ولكن هو، وكرسه تلك.

الأربعاء ١ فبراير ١٨٦٥.

في دار الأميرة، ضمت المائدة هذا المساء عدداً من رجال الأدب، منهم (دوما) (٣) الأب. ضخم الجسم، عملاق، شعره أكثر نثلاً شعر الزنوج، وعيناه

صغيرتان كعيني فرس البحر، يقظ ماكر. يرى كل شيء حتى وهو مغمض العينين. هيئته تذكر بعامل في سرك، او حمال في قسص ألف ليلة. انه الصنایعی المحصص، عداء المسافات الطويلة. رياضي القصة المسلسلة. لا يشرب. النبيذ، ولا حتى القهوة. ولا يدخن.

يتحدث بطلاقة، ولكن دون اي بريق او جاذبية. كل ما يفعله انه ينتقل المعلومات من اعماق ذاكرته الواسعة ويلقيها بصوت اجش. يتحدث عن نفسه اغلب الوقت، بغرور صبياني لا يخلو من ظرف. ايضاً (لنيس) (٤) شاق القنوت، وسيم، عيناه داكنتان تحت شعر مبيض. كان على مائدة الأميرة هذا المساء، على اثر عودته من مصر. هذا الرجل الحديدي اعترف لنا، انه احجم عن القيام بعدة اعمال مهمة في حياته، بسبب تنبؤات عرافة في شارع (تورنون).

الأربعاء ٢٦ ابريل ١٨٦٥.

استقبلتنا الأميرة هذا المساء ببرود شديد لا يتفهم احد مثلها. تجاهلتنا تماماً ولم تتفضل علينا بأي نظرة. وكانت تخالفنا في كل ما نقول. ركزت اهتمامها فقط على (فلوبير) الذي اجلسته بجوارها. اخبرني (فلوبير) فيما بعد ونحن خارجان، انها جعلته يتمشى معها في الحديقة مرتين.

من حسن الحظ ان الامراء، والاميرات خاصة، تتأبهم هذه الحالات الغريبة من النفور وتقلبات المزاج، والا لاصبح الانسان اسيراً لحبهم بشكل مطلق ■

١ - جورج صاند، الاسم الأدبي المستعار للكاتبة (اورود دوبار، البارونة دو دفان. ١٨٠٤ - ١٨٧٦) من عائلة إرستفراطية. توفيت في دير، ثم تانتت بامكار روسو وبابرين وشاتو برياند، وتركت زوجها البارون دوبار، بعد ان ولدت له طفلين، وعاشت حياة بوهيمية في باريس متفرقة للادب. اتصلت أولاً بالكاتب (جول صاندرو) وبدأت تكتب باسم (جول صاند) ثم أخذت اسم (جورج صاند) الذي عرفت به. كانت كاتبة باحثة في زمانها. عشقها كثيرون منهم (الفرد دي موسيه) والموسيقى (شوبان). نشرت رسائلها الكاملة عام ١٩٦٤، وهي ذات أهمية أدبية عظيمة.

٢ - الأب روبير دي لامني De Lamennais. ١٧٨٢ - ١٨٥٤. كاتب ديني خرج على أفكار الكنيسة، ووجدت أفكاره ترحيباً كبيراً من أدباء أمثال (هوقو) و(لامارتين) و(سانت - بوف)، وأحدث أثراً عميقاً لدى (جورج صاند).

٣ - الكساندر دوما الأب - (الاسكندر دوما) - ١٨٠٢ - ١٨٧٠. من عائلة نبيلة وكانت حدث زنجية. كان كاتباً ناححاً غزير الإنتاج، بلغت أعماله ١٠٣ مجلدات. من رواياته المعروفة (الكونت دي مونت كرسنو) و(الفرسان الثلاثة).

٤ - فيرناند دي لنيس (١٨٠٥ - ١٨٩٤) دبلوماسي وأداري ومغامر ارتبط اسمه بقناة السويس وقناة بسا.

مقالات الأستاذ الراحل (الطيب صالح) ..

والتي نشرت بمجلة (المجلة .. السعودية) ..

تحت عنوان (نحو أفق بعيد) ..



نحو أفق بعيد

١-

وأما اليهود، فإنهم بطريقتهم، المثلوجية، في النظر إلى تاريخهم، أعطوا مأساتهم، وهي مأساة لا شك فيها، إبعادا ملحمة كما في الأساطير القديمة، فجاء ألن تيلور، ونظر إليها كما ينظر إلى مصائر البشر كافة عبر التاريخ. هذا، ولأن اليهود لم يكونوا بمعزل تماما عما حدث لهم، في تلك الآونة أيضا، صدر كتاب للفيلسوفة اليهودية الشهيرة همن أرندت اسمه «أيخمان في القدس»، قالت فيه إن اليهود في ألمانيا كانوا يحفرون قبورهم بأنديهم، ثم يدخلون فيها فيقتلون رميا بالرصاص. وكانت الكاتبة تتساءل: ماداموا قد ايقنوا بالموت، فلماذا لم يفعلوا شيئا؟ لماذا لم ينوروا؟ لماذا لم يقاوموا؟، والكتاب كله دراسة رائعة في ظاهرة الشر، وأنه ليس أمرا خارقا، ولكنه أمر عادي، يقوم به أناس عاديون. لقد اختطف الإسرائيليون أيخمان، وكان من كبار النازيين الذين تسببوا في مصرع آلاف الناس، وجاءوا به في ضوواء اعلامية محاكمته، على أنه وحش مصاص دماء مثل دراكيولا. ولما أظهِروه للناس في قفصه الزجاجي في المحكمة، اسقط في أيديهم. ظهر للناس رجلا عاديا، كأنه



يكتبها: الطيب صالح

موظف في بنك أو مسؤول صغير في دائرة حكومية. وكان دفاعه أنه كان ينفذ أوامر رؤسائه، تماما كما يقول الموظفون في دوائر الحكومة. واتضح في المحاكمة أنه كان منظما جدا، دقيقا في حساباته، مثل موظفي البنوك. كذا ألف إنسان أحرقوا في دكاو، وكذا ألف إنسان أحرقوا في أوشفيتز. كشوفات مفصلة بوسائل النقل، وأرقامها وأوقات مغادرتها ووصولها. ووسائل القتل وأنواعها وأسماء القائمين عليها. رجل عادي، يؤدي وظيفة عادية يأخذ عليها مرتبا. له بيت وزوجة وأطفال. يحنو على القطة، ويزرع الورود في الحديقة. هذا أيضا كتاب عظيم يعلق بالذاكرة، يقترب فيه التاريخ من الأدب، في ملاحقته لنوازع الخير والشر الكامنة في تلافيف روح الإنسان. وما اصدق قول أبي العتاهية:

لسدواعي الخير والشر دنس ونزوح

● ● ●

أذكر ندوة تلغزيونية تلك الأيام، كان ألن تيلور يرد فيها عن أسئلة حول كتابه. قال له أحد المشاركين، وكان واضحا أنه يهودي، أنك بافترضك هذا تغض من عظمة الكفاح البطولي للشعب اليهودي في إقامة دولة إسرائيل، فرد عليه تيلور بتبرم واضح، «اسمع، لا تحدثني عن إسرائيل والكفاح البطولي وهذا الكلام الفارغ. إسرائيل لا شيء. بريطانيا لا شيء. فرنسا لا شيء. أمريكا لا شيء. روسيا لا شيء».

يعجبني من المؤرخين الإنجليز المعاصرين، أي، جي. تيلور، أو ألن تيلور، كما يسميه أنصاره، فهو رجل له معجبون كثيرون وخصوم كثيرون. ذلك، لأنه ينظر إلى التاريخ بجرأة وطرافة وغير قليل من السخرية التي تقترب من روح شكسبير التي ترثي لتفاهة مسعى الإنسان، وهو يشن الحروب ويبدل الدول ويرتكب الحماقات. في سميت هذا المؤرخ العتيق، تبرم كأنما بنفسه وبالناس، وضيق صدر، ربما لكثرة ما يعلم من قصور طموحات البشر عبر التاريخ. هذه المعرفة تعني بعض المؤرخين سماعة ورحابة صدر، لكن ليس ألن تيلور. تقرا كتابه، فإذا فرغت منه فكانما قرأت رواية عظيمة لروائي عظيم. حياته قلقة، فقد تزوج وطلق، وتزوج وطلق، وتغير موقفه في السياسة من أقصى اليسار إلى لا قرار. كان متحمسا لحزب العمال، ثم فتر حماسه، أنه الآن في نحو الثمانين، عليل، يقف على حافة القبر. أسأل الله أن يشفيه، فهو من هؤلاء الإنجليز الذين يجعلونك تغفر لقومهم كثيرا من سيئاتهم.

قرأت كتابه، جذور نشوب الحرب العالمية الثانية، وأنا اصارع الموت في مستشفى الدكتور بدر في بيروت، عام ستين، أو تراه واحدا وستين؟ في ذلك العام قتل داج همرشلد في الكنجو، ووقعت اتفاقية أيفيان التي أدت إلى استقلال الجزائر. قضيت ليالي وأنا أقاوم مع الجزائريين، ولو مت حينئذ، لعلمي كنت أموت شهيدا بمعنى من المعاني. ثم بدا كما لو أن حبل العمر لم ينقطع بعد، فأخذت أطفو قليلا قليلا، يساعدني على التنشيط بالحياة هذا الكتاب الجميل. قامت زوجة أول ما صدر الكتاب، أخريات الخمسينات، لأن ألن تيلور قال، إن أدولف هتلر لم يكن، عبقريا شيطانا، كما يزعم، ولكنه كان رجلا عاديا، لا يملك أية مؤهلات خارقة، وأنه لم يكن يعمل وفق خطة جهنمية، ولكنه كان، يتخطى، كبقية الزعماء والسياسيين وأنه نجح لأن الإنجليز والفرنسيين كانوا أكثر تخبطا منه. هذا الرأي أغضب اليهود وكثيرا من الأوروبيين. أما الأوروبيون فلأنهم لم يجدوا سببا منطقيا لما حدث، فخلقوا أسطورة، أدولف هتلر العبقري الشيطان، كانت ألمانيا أكثر الدول الأوروبية تحضرا، وكان اليهود في ألمانيا، من أكثر الجاليات اليهودية في أوروبا رخاء واستقرارا. لماذا إذا حدث ما حدث؟ لماذا أقام هذا الشعب المتحضر معسكرات الاعتقال، التي زج فيها بالأميين كما تزج البهائم؟، لماذا أقيمت أفران الغاز التي مات فيها فيما يقدر ستة ملايين إنسان؟ وإذا كانت ألمانيا قد فعلت هذا، فهل كان محتملا أن تفعله فرنسا أو بريطانيا؟ هل السبب الحقيقي نزعة همجية قابعة في أعماق اللاوعي الأوروبي عموما؟ أبدا، السبب هو رجل مجنون يدعى أدولف هتلر.

نحو أفق بعيد

-٢-

بدراسته عن تاريخ فرنسا ، وتاريخ الثورة الفرنسية خاصة . من ذلك كتابه «الجيش النوري في ليون» وكتابه «الموت في باريس» . عن الفترة من عام ١٧٩٥ الى عام ١٨٠١ . لا عجب اذا انه اغتاز ان المؤرخ الفرنسي قال في مطلع كتابه المسمى «هوية فرنسا» . «لا يستطيع المؤرخ ان يكتب بفهم تام الا عن تاريخ وطنه .. مثل هذا الفهم لا يتأتى له ابدا . مهما بلغ علمه ، اذا نصب خيامه في ارض قوم آخرين» . ويعلق المؤرخ الانجليزي بغيبظ واضح «هذا الراي الاحتكاري يناقض عمل «برودل» نفسه الذي اكتسب احتراماً كبيراً لمؤلفاته عن تاريخ اسبانيا والامبراطورية الاسبانية وعالم البحر الابيض المتوسط في عصر فيليب الثاني . وانا اعجب ماذا كنت افعل اذا طيلة الخمسين عاما الماضية ؟»

وفي فقرة قاسية تنم عن راي الانجليزي في الثقافة الفرنسية ، عموماً يقول المؤرخ الانجليزي «يشتمل اغلب هذا الكتاب على بديهات ترتدي اثواباً براقه ، لا تثبت لضوء اللغة الانجليزية النافذ» . وفي اغلب الاحيان يقدم المؤلف اشياء واضحة كأنه اكتشف امورا عظيمة . والهدف هو - كما يقول برودل - (ان نخرج تاريخنا من وراء الحيطان التي اقامها حوله الآخرون) اي

المؤرخون الذين لا ينتمون الى النادي . يعني المؤرخين الانجليز . ويتضح غيبظ المؤرخ الانجليزي «ريتشارد كيم» من احتقار المؤرخ الفرنسي «برودل» لجهد المؤرخين الانجليز . وضوحاً لا مراء فيه ، في هذه الفقرة «يخصص برودل صفحات عدة لبناء «روان» الصغير متجاهلاً ذلك التحليل المفصل لسكان البلدة الذي عمله «كلن روكاس» (الانجليزي) في كتابه الرائع (مقومات الرعب) . ويتحدث عن موجات الهجرة دون اشارة واحدة لاعمال «الون هفتن» (الانجليزي) . ويسرد باسهاب اصناف الطرق عبر القرون ، غير مدرك فيما يبدو «ان مؤرخاً انجليزياً (يعني نفسه) قد كتب عن الناس الذين قطعوا الطرق مشياً او على ظهور الدواب متجهين صوب باريس . وفي كتابه فصول طوال عن حروب وراثة العرش الاسبانية دون ان يشير ولو مرة واحدة الى تاريخ كيمبريدج الحديث الذي اشرف عليه المؤرخ النابغة «جون برمل» .

ويكاد هذا المؤرخ الوقور يفقد اتزانته حين يصل الى هذه الفقرة . حقاً انه ليس اكتشافاً عظيماً ان تقول ان روان و في هافر ميناءان وان مرسيليا تطل على البحر . ثم ان مؤرخين آخرين قد اشاروا الى السخط الذي احسه سكان البلدان الصغيرة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، تجاه مدينة ليون . حتى المؤرخون الانجليز يستطيعون ان يفهموا شيئاً من خرائط ودين عن احوال الطرق والانهار في الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر .

ويختتم الاستاذ الانجليزي «ريتشارد كيم» عرضه لكتاب الاستاذ الفرنسي «فيرناند برودل» قائلاً «هل اوصي بقراءة هذا الكتاب ؟ ربما» .

كأنني بهذا العالم الوقور . وهو يركب دراجته في الشارع الرئيسي في مدينة اكسفورد . وقد نفخ الهواء عباءته الجامعية السوداء ، يصرخ بأعلى صوته «بريطانيا تحكمني في امواج البحر» .

اما الحبر الفرنسي برودل ، فانه ينظر اليه بتلك الدهشة الفرنسية الجذابة على طريقة الممثل «موريس شفالييه» . بهز كتفيه ويمط شفقيه ويقول «يوف» . هؤلاء الانجليز . ثم يضحك بصوت مرتفع ويقول عبارة بذيلة لا تليق بالاساتذة المحترمين ■



يكتبها : الطيب صالح

العداء القديم بين الانجليز والفرنسيين . تحول على مر السنين الى مرارة خافتة يشوبها عجب متبادل . يظهر كأنما قسراً الجانبان من وقت الى آخر . احدهما نحو الآخر . لم يغفر الانجليز الانغلو سكتون للفرنسيين انهم غزوا بلادهم مع وليم الفاتح عام ١٠٦٦ . واحتلوها ردحاً من الزمن . وغروها الى الابد . والفرنسيون لم يغفروا للانجليز . بصفة خاصة ، انهم هزموا امبراطورهم المحبوب . نابليون . عام ١٨١٥ في موقعة واترلو . وغروا بذلك مجرى التاريخ . وظل الشعبان ينظر بعضهما الى البعض الآخر . عبر المضيق . الذي يسميه الفرنسيون «المانش» . ويسميه الانجليز . «مضيق دوفر» . بمزيج من الحذر والاعجاب والغيبظ . ولكن ربما يكون الانجليز اكثر غيبظاً . فانهم يجدون في الفرنسيين صفة غامضة لا يفهمون سرها . تجعل كل عمل ياتونه يبدو اكثر جاذبية . من طعامهم الى ازيائهم . وعطورهم . ومدنهم وثقافتهم . حتى «الستربتيز» . تؤديه الانجليزية فيبدو مبتذلاً . وتؤديه الفرنسية . فيبدو جذاباً . وقد تكون الفرنسية اقل جمالاً من الانجليزية . ولكنها لسبب ما . تبدو اكثر منها حيوية وجاذبية ووقعا

على السمع والبصر . نشيد «المارسييز» الذي ينبع ارتجالاً . وتغنى به ثوار مرسيليا وهم يسرون للانضمام الى الثورة في باريس . وتحول بعد ذلك الى نشيد وطني لفرنسا . لسبب ما . يبدو اصدق واكثر اثارة للحماس . من النشيد الوطني «يا بريطانيا تحكمني في امواج البحر» الذي يؤديه الانجليز على استحياء . وكأنهم لا يؤمنون تماماً بما يقولون . وحين كان شارل ديغول لاحقاً في لندن يطلب النجدة من الانجليز . يوم احتل النازيون فرنسا . كان بعامل الزعيم البريطاني ونستون تشرشل يتعال واضح . كما يقول المثل العربي «حسنة وانا سيدك» . وقرأ الفيلسوف الانجليزي «برتراند راسل» فاذا فكر ثابت واسلوب ناصع وقول ليس عسيراً على الفهم . وقرأ الفيلسوف الفرنسي «جان بول سارتر» وهو اقل عظمة من راسل في راي الكثيرين . فاذا اراء متضاربة . واسلوب مفتعل واحابيل عقلية لا تنطلي على ذي فطنة . ومع ذلك فان شهرة «راسل» تقتصر على الخاصة . بينما شهرة «سارتر» قد طبقت الافاق . ومذهبه الوجودي مايزال له اتباع وانصار . ورغم ذلك فقد وجد في فرنسا دائماً . فرنسيون يحيون الانجليز او على الاقل يحترمونه . ربما يكون منهم «الامبراطور» نفسه الذي اثر . حين مالت به اقداره . ان يلجا الى رحمة الانجليز . مؤثراً اياهم على الالمان والروس . ومنهم «شاتوبريان» . العتيق . صاحب «مذكرات من القبر» . ومنهم في الالونة الاخيرة «اندريه مورو» . والانجليز كذلك . كان منهم دائماً محبون للفرنسيين او معجبون بهم . منهم الشاعر الانجليزي العظيم «ويردزورث» الذي تغنى في شعره بالثورة الفرنسية . ومنهم الناقد الكبير «وليم هازلت» الذي سيح ضد الشعور الوطني الطاغى في انجلترا . بتأييده لنابليون .

سقت لكم كل هذا . لانني قرأت مؤخراً مقالة للمؤرخ البريطاني المعروف «ريتشارد كيم» . ينقد فيها كتاباً لشيخ المؤرخين الفرنسيين «فيرناند برودل» . وقد توفي قبل ان يخرج كتابه باللغة الانجليزية . كان «ريتشارد كيم» استاذاً للتاريخ الحديث . في جامعة اوكسفورد حتى عام ١٩٨٤ . وقد عاش في فرنسا تسع سنوات . واشتهر

نحو أفق بعيد

-٣-



يكتبها: الطبيب صالح

.. انما واصلن السير بليل ، وفي الليل يطيب الغناء للمغنين ، ويطيب السير للسائرين . وعند الصباح يحمد القوم السرى . كما قال خالد بن الوليد . اذا لماذا يا فداك نفس . يستكثر على الشاعر انه انفق كلمتين لقاء كل هذا الزاد الشعري ؟

ومن اين بدأت الرحلة ؟
الم تسمع ؟ اما قال لك الشاعر ؟
ابن ام اؤي بمنة لم تكلم
بحومانة الذراج فالتلثم
ديار لها بالزفتين كانها
مراجيع وشم في مناشر معظم
بها العين والارام يمشين خلفه
واطلاؤها ينهضن من كل مختم
وقفت بها من بعد عشرين جئة
فلابا عرفت الدار بعد ثوهم
من تلك الديار بدان رحلتين . وظللن يسرن . ولعلن ما زلن سائرات في
مسارب الخيال الى يومنا هذا .

هذا ما يفعله الشاعر العظيم . انه يفتح لخيالك افقا لا تحد .
فتخيل كما يحلو لك . ولا عليك من هؤلاء الالسنين والسيمائين
والبنائين والتعيريين والسوريالين والمادين والجدلين وما شابه . انهم
جاءوا من اودية شتى الى وادي الرس ووادي العقيق ووادي الخزامي . فلن
يطول مكثهم ان شاء الله . تبصر خليلي . كما حثك الشاعر . ولا تكن اقل
بصيرة من مطايا ابي العلاء المعري
تخلبت الصباح معين ماء
فما صدقت وما كذب العيائ
وكاد الفجر يشربه المطايا

كنت اظن هذا البيت لابي تمام :

وحبب اوطان الرجال اليهمو

مارب قضاهما الشباب هنالكما

ولكنني اراد احبانا ينسب لشعراء آخرين منهم ابن الرومي . هل يقوى

ابن الرومي على مثل هذا ؟ ثم الا يمضي ابو تمام فيقول

اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهمو

عهود الصبي فيها فحنوا لذلكما ؟

لا ادري . فليس بين يدي الان ديوان ابي تمام لانظر فيه . ولكن هذا شعر

نبيل . وابن الرومي كان شاعرا كبيرا . ولم يكن شاعرا نبيل .

واذا كنت قد اوردت البيت الثاني على وجهه . فما قولك ان الشاعر كبر

ذكره . وذكرتهمو ؟ اليس هذا عيبا في البيت ؟

لذلك انت تفضل ان يكون بيت المتنبي :

ولم ار في عيوب الناس عيبا

كنقص القادرين على التمام .

على هذا النحو :

ولم ار في عيوب الناس شيئا .

هكذا يرد البيت في اغلب طبقات الديوان .

لا يارعاك الله . المتنبي عظيم لا يقول شيئا .

هذا شاعر عرف دقائق اسرار لغة العرب . وما تحويه الكلمات من طاقات .

كان يستعمل الكلمات كأنها عملة غالية . ليست مثل جنيه السودان وليرة

لبنان . فلم يخش ان يقول عيبا . بعد ان قال عيوب . لان في الكلمة

الواحدة سعة لمزيد من الانفاق . وقبل قال زهير

بكن بكورا واستخزن بشخرة

فهو وادي الراس كاليد للقم

انظر كم انقضى وقت . كم انطوت مسافة . بين البكور والسحور . لذلك فان

هؤلاء النسوة . حين اشرفن على وادي الراس . كن مثل الصائم الذي دنا

موعد افطاره . ليس فقط . لان اليد لا تخطيء الغم .

ولم قال الشاعر بكن بكورا ؟ اما كفاه ان النسوة قد بكن . صدقت .

ولكن لم يكن هؤلاء النسوة على سفر ؟

الم ينهضن مبكرات فيصنعن الزاد ويجمعن المتاع . وتفوض الخيام

وتشدد الخمول ؟ تذكر ان الخدم لم تضع لهن حوائجهن في حقائب

السمسونات . وتحملن سيارات المرسيدس . الى المطار . وتقلن طائرة

الـ بوينج . الى وادي الراس . انهن سرن سيرا مضنيا قبل ان تحر شمس

النهار . ثم ربما قيلن . في الظهيرة . لا كما فعل صديقنا عبد الرحمن

الابنودي :

نحو أفق بعيد

-٤-

غزلته بتؤدة وحكمة . اصابع رجال عباد
زهاد . ونساء صابرات قانتات . فمزقته وانت
تظن انك تحسن صنعا ؟

●●●

المدينة مثل ثوب قديم مبتل . لم يغسل منذ
زمن طويل . دار عثمان محمد الحسن في
«المقرن» اغرقها المياه . ومحت بعض رسائل
جمال محمد احمد التي يعمل عثمان على
جمعها واخراجها في كتاب . ان الله سبحانه
وتعالى قد راف باستاذنا الجليل انه مضى ولم
يشهد كل هذا الخراب . الشوارع مثل اطلال
خولة . وانصاب «ثورة» مايو التي هتموها
ايام الانتفاضة لم يستطيعوا ازالها بعد .
كتل قبيحة من الاسمنت والحديد . لا تقول
شيئا ولا تعني شيئا . الا انهم اعطوها
صفات طنانة مثل «تحالف قوى الشعب
العاملة» او «الثورة فكر وعمل وانتاج» . ولا
فكروا عمل ولا انتاج . وقد اصبحت ازالها
مشكلة ككل بقايا ذلك العهد الميمون .
وتقول . ما لهم وللتعائيل ؟ في مدينة ارضها
صلصال ونيلها زلال . اما كان يكفي قليل من النبات وقليل من
الازهار ؟ لكنهم جاءوا بخبراء تخطيط المدن من ايطاليا والسويد .
فدفع من دفع . واخذ من اخذ . ورحل الخبراء وازدادت المدينة قبحا .

●●●

انني ادري لم انا حزين الان في هذا المكان . لقد وقفت على قبر
انسان عزيز . اعز انسان عندي . وانقطع اهم خيط كان يربطني الى
هذه الديار . الحزن يعلو ويخبو . ويمتد عبر زمن طويل . ويأتي على
اشكال عدة . ويهجم عليك من حيث لا تحتسب . لقد صبرت حين كان
يتحتم علي ان ابكي . وبكيت حين كان يجعل بي الصبر . لذلك يدهمني
الحزن الان . في هذه الصالة الرثة . في هذا المطار القبيء . في هذه
المدينة المهمله . في هذا الوطن الحبيب اللعين . وتحول الحزن
الخاص الى حزن عام . بسبب هذه اللوحة امامي في صالة المغادرة .
منذ كم الف عام وضعت هذه اللوحة في هذا المكان ؟ ومن الذي
وضعها ؟ وماذا كان يدور في راسه ؟ لوحة بهتت ألوانها واختلطت .
كُتب عليها باللغة الفرنسية Bon Voyage وباللغة العربية «رحلة
سعيدة» .



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ٨٨/٩/٢١

مطار الخرطوم . صالة المغادرين .
الساعة ٤.٥٠ مساء

خرجنا من دار عثمان محمد الحسن متأخرين
لانه وقف طويلا في صف البنزين . هذه
الطوابير اصبحت سمة من سمات الخرطوم
منذ عهد بعيد . طابور الخبز . تقف فيه منذ
منتصف الليل حتى طلوع الشمس . نساء
حرائر . ماكن يقفن مثل هذا الموقف من قبل .
من اللائي قال فيهن الشاعر «ما خرجن لريبة
كظباء مكة صيدهن حرام» . طابور السكر .
الرجال والنساء والكهول والشيوخ
والمصبيان . طابور الاحذية التي جاءت من
مصر . والثياب الجاهزة التي وصلت من
كوريا والصين . طابور حلويات العيد .
طوابير عند ابواب السفارات . للسفر .
للخروج . للهروب . للرحيل . ناس من
الشمال يضربون في ارض الله شرقا وشمالا .
وناس من الجنوب . مثل جيوش النمل .
تسير . تسير . من جوبا الى ملكال . ومن

ملكال الى سندي . ومن سندي الى اثرا . الى مروي . الى الدبة . الى
حلفا على حدود مصر . امواج في اثر امواج من اقوام زلزلتهم الحروب
والمجاعات والفيضانات . والحكام الاغبياء والوعود الكاذبة . ما
كانوا من قبل يابھون للطعام والشراب . فاصبح همهم الطعام
والشراب . فلا تكن يا عبد الله كالسائمة التي وجدت مرعى خصبا .
فاصبح همها في الشمن وداؤها لو تعلم في السمن . ما كانوا يابھون
للمظهر . فاصبحوا يتناذبون باللقاب . ويتناولون في البنيان .
ويتفخرون بسيارات المرسيدس . وترى المرأة وهي تحمل على جسمها
من الثياب والحلي ما كان يكفي لاعاشة اسرة كاملة . حولا كاملا . في
الزمان القديم . زاد الكلام عن الاسلام وكثرت المساجد . وضعف
الايمان . زادت المدارس . وعم الجهل . زادت المستشفيات وتفشيت
الامراض . لا عدل ولا حرية ولا ديموقراطية الا في بيانات الحكومة
ومحطات الاذاعة .

الحكام السابقون واللاحقون والسابقون اللاحقون . وجعفر محمد
النميري في منفاه يحلم بالعودة . تعود لاي شيء يا رعاك الله ؟ اما
حكمت قرابة عشرين عاما . فكنت مثل طفل شرس اطلق سراحه في
متحف للخزف النادر . فكسرت وهشمت ؟ اما وجدت ثوبا ناعما فريدا

نحو أفق بعيد

-٥-

قمرء ، فوراء الظلام الذي تراه ضوء كثير . وقد اعطت تصاريح الأيام ونوائب الدهر ، بعدا آخر للبيتين . كما يقول نقاد الشعر . لم يكن هؤلاء القوم ، يبرحون ، هذه الديار المترامية الاطراف . كانوا قانعين بما قسم الله لهم فيها ، وهو كثير . يزرعون النخل في ديار «المخس» ، و«السكوت» ، ويزرعون الحنطة والشعير في ديار البديرة والشايقية والركابيين . يزرعون الموز في كسلا ، والبرتقال والجوافة في شندي ، والذرة في أرض البطانة ، والقطن في أرض الجزيرة ، ويجنون الصمغ العربي من شجر الهشاب في كردفان . يصيدون البقر الوحشي في جبل مزه والظباء عند تخوم بحر الغزال . ياكلون سمك النيل الابيض وسمك البحر الاحمر . يخرجون الذهب من مكانه في «حلاب» ، وفي «جبال شنفول» . كانوا يتناشدون شعر «الدوبيث» ، على الابار ، ويرقصون «الدليب» ، في ضوء الاقمار ، ويرتلون القرآن في جوف الاسحار ، ويستخفهم الطرب في حلقات مديح المصطفى المختار . كانت البلاد تضج في الغشيئات بثغاء الشياه ، وزغاء الابل ، وصهيل الخيل ، وكان الرجل يمشي من «ابو حمد» الى «ابو دليق» ، فلا يخشى الا الله والذئب على غنمه . لكن انظر اليهم الآن يا ابا تمام ، في هذه الصالة الرثة ، في هذا المطار القميء ، في هذه المدينة المهملة ، في هذا الوطن الحبيب اللعين .

هذه المرأة الوسيمة من عرب النطاحين دون شك ، وهذه الشلوخ الافقية على الخدود الحنطية ، لا بد انها «شايقية» ، من نوري او تنقاسي وهذا الرجل الاخضر ، سواده زنجي

وسفته عربي . وهذه المرأة ، لونها مثل الذهب المترب ، بجاوية لا بد ، من القوم الذين امتطى المتنبي ناقه من نوقهم حين خرج هاربا من مصر :

الا كَلْ ماشية الخيزلُ فدى كل ماشية الهذبي وكل نجاة بجاوية خنوف وما بي حسن المني
انظر اليهم يا ابا تمام ، ينتظرون الطائرات تحملهم الى بلدان الخليج . الخروج . الهروب . الرحيل . انهم ينتظرون ، وانا مثلهم انتظر ، ولكن الحزن الذي يلسع قلبي ، وكأنما ينبع من هذه اللوحة الباهتة امامي ، يخصني وحدي ، فانا بعد كاتب ، وهذه الاحزان هي زادي وعدتي ، كما يتزود الاثرياء بحساباتهم في البنوك . لقد اختلط الحابل بالنابل ، واصبح النازح كالمقيم ، والمقيم كالمسافر . هل انت قلت حقا يا ابا تمام ؟

وحبب اوطان الرجال البهيم
ما رب قضاها الشباب هنالك ؟



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين .
الساعة ٤،٥٠ مساء .

انما هذان البيتان ، حتماً ، لابي تمام :
سود الوجوه كأنما شجبت لهم

ايدي الشموم مذارعاً من قار
لا يبرحون ، ومن راحم خالهم
ابداً على سفر من الاسفار

وكانما عني بهما هؤلاء القوم ، الذين يُسمون مجازاً ، السودانين لان زعماءهم عشية الاستقلال ، لم يستقروا على رأي ، ويا ليتهم عادوا الى الاسم القديم «سنار» . كان السناريون معروفين في العالم الاسلامي شرقا وغربا ، لهم وقف في المدينة المنورة والازهر الشريف ، وهداياهم تذهب كل عام في محفل عظيم الى مكة المكرمة . وربما يكون من اسباب ان هذا البلد لا يستقر على حال ، ان اسمه لا يعني لاهله شيئا . فما السودان ؟ مصر مصر ، واليمن يمن ، والعراق عراق ، ولبنان لبنان ، ولكن ما السودان ؟ لقد اطلق المستعمرون هذا الاسم على كل تلك الرقعة الممتدة من حدود الحبشة شرقا الى غاية بلاد السنغال غربا ، فوجد الناس لبلادهم اسما تعني لاهلها شيئا ، وبقينا نحن وحدنا نحمل هذه التركة الاستعمارية الجوفاء . لذلك يستند «جون قرنق» ، على الرمز الاستعماري في دعواه الباطلة ، فيقول ، هذه بلاد السود ، بلاد الرنخ . وانتم اهل الشمال عرب دخلاء ،

ويعتبر الارض مغتصبة ، يريد ان يحررها «شبرا شبرا» ، كما يزعم . والا فمَنْ يريد ان يحرر السودان ؟ وما معنى «جيش تحرير السودان» ؟ واذا سار الحال ، على هذا المنوال ، فما الذي يحول بينه وبين تحقيق هذا الحلم ؟ انه الآن ، في هذه اللحظة ، يستطيع ان يسقط مئات من المظليين من طائرات الهليكوبتر ، التي تعد بها هذه الدولة او تلك ، ويحرك مئات الالاف من اعوانه الذين يحيطون بالخرطوم كحلقة الخاتم . حينئذ سوف يجد الصادق المهدي وحسن الترابي ومنصور خالد وبقية هؤلاء السادة النجباء ، ان النسيج الذي نسجوه ، اوهى من بيت العنكبوت . سوف تراق دماء كثيرة . حينئذ سوف نسمع نشيدا جديدا ، ونرى وجوها جديدة على شاشات التلفزيون . سوف تُخلق ابواب وتفتح ابواب ، وتعيش احلام وتموت احلام . وسوف يكون السودان «سودانا» ، بحق وحقيق حينئذ .

أه . صدقت يا ابا تمام . ولكن هذا السواد مثل غيم كثيف في ليلة

نحو أفق بعيد

-7-

مرايعها ؟ وهذا الشاب سفته سميت ضابط في الجيش ، ربما أرسلوه في بعثات عسكرية الى امريكا وبريطانيا وموسكو . ثم اخرجوه في حركة من حركات التطهير الكثيرة . قد ينتهي به الامر ان يعمل حارسا في محل تجاري في دبي . وهذا الشاب واضح انه من هذه الطبقة الجديدة التي ولدت وربت مع ثورة ، مايو . الله اعلم يهرب ماذا ، او يبيع ويشترى ماذا . يريد ان يغتني بأي وسيلة . ثم يفعل ماذا ؟ وهذا شاب يافع ، تخرج لتوه من جامعة الخرطوم . درس الزراعة . يكون محظوظا لو وجد عملا كتابيا في شركة مقاولات في غجمان . انهم ينتظرون وانت مثلهم تنتظر . وتسال نفسك ، ما الفرق بين هذا الحشد في هذا المطار ، وبين جمع من اهل الشام ؟ في اولئك حركة وتوتر وتذافع . وطنوا انفسهم على الاغتراب منذ زمن ، وهم اهل حياة ومطلب عيش ، ينظرون الى امام ، الى حيث يقصدون . اما هؤلاء ففي حركتهم بطء وتراخ ، ينظرون الى الخلف ، تشدهم الى مواطنهم ، من حيث خرجوا ، قبيو لا فكاك منها . تحسبهم كسالى ، وما هم بكسالى . لكنهم لا يعملون للعمل في حد ذاته . يعملون حين تستثار همهم ، نخوة او خيبة او غيره .

لذلك فبوا في اكتوبر وهبوا في ابريل يعملون محبة . ويعملون جلبا للمدح ودفعاً للذم ، ولا يعملون لمجرد الطعام والشراب . حينئذ يعمل الواحد منهم عمل عشر رجال ، وقد يعمل بلا مقابل . فيهم ، حين يكونون في احسن حالاتهم ، كبرياء وعذوبة وزهد . وتسال نفسك وانت تجلس في هذا المكان الذي تسلخت حيطانه وتشققت جدرانها وبهتت ألوانه ، تنظر الى لوحة تقول لك بالفرنسية «Bon Voyage» وبالعربية «رحلة سعيدة» ، هل بقيت من ذلك بقية ؟ ام ان صروف الزمان ونوائب الدهر ، وغباء الحكام ، قد قضت عليه الى غير رجعة . كما قضى النيل على العالم الذي حملته في خيالك كل تلك الاعوام . واخذت تسافر وتعود ، تسافر وتعود ، تبحث عنه . مثل جندي في جيش منهزم ؟ ■



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ١٩٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم ، صالة المغادرين .
الساعة : ٤ ، ٥٠ مساء .

نعم . لا بد ان يكون البيت لابي تمام ، فما لابن الرومي وذلك ؟ انه شاعر كبير لا شك . احسن القول في وصف المغنيات ومجالس الطرب ، وولد معاني عجيبة عن الآلات والاصوات . وهل مثل شعر العرب في الحنين الى الاوطان ؟ وقد قال اخو بني خنيفة :
الا هل الى شم الخزانى ونظرة
الى قرقري قبل المات سبيل
فاشرب من ماء الخجلاء شربة
يداوى بها قبل المات عليل
فيا أثلاث القاع قلبي موكل
بكى وجدوى خيرك قليل
ويا أثلاث القاع قد ملل صحتي
مسيري فهل في ظلك قليل
اريد انحدارا نحوها فيردني
ويعننى ديبى على ثقيل
أحدث نفسي عنك اذ لست راجعا
اليك ، فحزني في الفؤاد دخیل

وقد رووا ان عبد الملك بن مروان ، وقد كان ملكا عالما بالشعر محبا له ، بكى لما سمع هذه الأبيات ، فأرسل الى الشاعر مالا يقضي دينه ويرده الى اهله ، فلما جاء الرسول وجد الشاعر قد مات .

وانت ايها المسكين ، تجلس كأنما منذ قرون وكانك سوف تظل جالسا الى الابد . في هذا المكان الأهل المهجور . في هذه المدينة الجميلة المهملة ، في هذا الوطن الغني الفقير . ينتظرون طائرات الخليج . هذان عريسان جديدان يجلسان خجلين في بركة من العطر والحناء ، والعروس في وجهها ذلك الخفر القديم . وهذه الطفلة البسوها «فستانا» ابيض مزركش الاطراف ، لا يليق بها ولا يليق بهذا المكان .

وهذا رجل مريض مسافر للعلاج ، ربما في الرياض او في الدوحة . وهذه المرأة المسنة ، بين السبعين والثمانين ، وجهها جميل يذكر بوجوه احببتها في الزمان القديم ، ربما من نواحي رفاة او الكافلين ، ساكنة وادعة مطمئنة . ما الذي اخرجها من جفائها وأجلأها عن

في رحاب عبد الله بن عمر

(6)

وسبعين، خطب الناس بالمدينة فقال: «أما بعد، فأني لست بالخليفة المستضعف (يعني عث ان)، ولا الخليفة المدهن (يعني معاوية)، ولا خليفة المنافون (يعني يزيد). إلا وأن من كان من الخلفاء كانوا يأكلون ويطلعون من هذه الأسرار. إلا وأني لا أدوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. تكلفونا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم! فلن تزدادوا إلا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد، قرابته قرابته، وموضع مومناة برأسه هكذا، فقلنا بأسيا فها هكذا.

الا وإنا نحمل (نحتمل) لكم كل ش وثوباً على أمير أو نصب راية. الجامعة (الأغلال) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد، عندي. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه». هذه الخطبة النكباء، لا تكاد تصدق، لولا أنها تواترت لدى عدد من المؤرخين الثقات، مما يرجح صحة روايتها. وما أقدم عليه عبد الملك قبل وبعد، يؤكد على الأقل صحة النوايا التي انطوت عليها. حديثه عن (تقوى الله) يؤكد ما روي عن الحجاج أنه كان يقول (انظروا إلى هذا! إنه يأمرنا بتقوى الله)، وما كان الحجاج لعبد الملك بن مروان إلا كما كان (أيضاً) لهتلر!

أنه مذهب بائس في الحكم، هو النقيض تماماً من مذهب الرجل العمل حقاً. أبي عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب.

حدثوا عن خالد بن سمير قال: «قيل لابن عمر (لو أقمت للناس أمرهم فإن الناس كلهم قد رضوا بك). فقال أرايتم إن خالف رجل بالمشرك؟ قالوا (إن خالف رجل قتل، وما قتل رجل في صلاح الأمة؟). فقال:

«والله ما أحب لو أن أمة محمد صلي الله عليه وسلم، أخذت بقائمة رُمح، وأخذت برُجّه، فقتل رجل واحد من المسلمين ولي الدنيا وما فيها» ■

* فسروا أن رُج الرُمح هو الحديد التي تُركَّب في أسفل الرُمح، تركز به في الأرض، والسنان أعلا الرُمح يطعن به.

(للحديث بقية)

من ذرية عبد الله بن عمر رحمه الله، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه. أمه حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب. كان من أمجاد فتيان قريش، وكانوا يلقبونه بـ (المطرف) لشدة وسامته. تزوج فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم، فولدت له محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الذي أسموه (الديباج) لشدة وسامته أيضاً.

ذكروا أن عبد الله بن عمرو بن عثمان كتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يقول: «أما بعد، فإنك تعلم بلاء أمير المؤمنين عثمان عندكم في رفع أقدارك وإحسانه اليكم. وإن مروان أوصي بقضاء دين عمرو بن عثمان، فإن تفعل فأهل ذلك نحن، وإن لم تفعل فسيغني الله عنك والسلام».

فرد عليه عبد الملك بن مروان: «أما بعد، فإن عمرو بن سعيد كان أقرب رحماً بي منك. وأنه لما أخطأ قدمه، فرقت بين رأسه وجسده. ولقد هممت أن ألحق به». فرد عليه عبد الله بن عمرو: «أن تفعل فأنني لمعرق في الشهادة، فانا ابن أمير المؤمنين عمر وعثمان». تلك الجذوة العمرية لا تخبو أبداً.

هذا، وعمرو بن سعيد الذي أشار إليه عبد الملك، هو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية. وأبوه سعيد بن العاص، هو الذي ذكرنا من أمر توليه الكوفة على عهد عثمان، وفتح طبرستان وغيرها من بلاد ما وراء النهر. وهو الذي ذكره الرازي الغوغائي من الذين تسوروا الدار على الخليفة الشيخ رحمه الله بقوله:

يطلبن حق الله في الوليد وعند عثمان وفي سعيد وكان مروان بن الحكم، بعد أن وثب على الملك أثر انتصاره في موقعة (مرج راهط) قد أوصى أن يكون عمرو بن سعيد خليفة بعد عبد الملك، لكن عبد الملك لم يلبث أن قتله. وقالوا أن ذلك أول غدر كان في الإسلام. وفي ذلك قال بعضهم:

يا قوم لا تغلبوا عن رأيكم فلقد جربتم الغدر من أبناء مروان أمسوا وقد قتلوا عمرواً وما رشدوا لكي يولوا أممور الناس ولدانا رويوا أن عبد الملك بن مروان، بعد أن قتل عبد الله بن الزبير بن العوام عام خمسة

البرورة



الطيب صالح

نحو أنو بعيد

372

نحو أفق بعيد

-٧-

تقوم الطائرة ؟ فقلت لا ادري . ياخذون متاعك ويختفون . لا احد يسأل ولا صحف تقرا ولا ماء يشرب . وسوق الاشياء المعفاة من الضرائب . مثل قطعة من الاثاث الحديث في دار انسان فقير . عطور . شامبل . وسجائر . مارلبورو . وربطات عنق . ايف سان لوران . انه امر عسير .

لماذا لا يبدؤون بالاشياء الصغيرة لانجاز الاحلام الكبيرة ؟ كل واحد من هؤلاء الناس الاذكاء الاغبياء عنده مشروع شامل . لاقامة مجتمع . فاضل . يدوم الى الابد . وما ادراه ما الابد ؟ ويقتلون انفسهم ويقتل بعضهم بعضا لتطغى احلام على احلام .

المرأة المسنة الجميلة الوجه من نواحي رفاعة او الكاملين ابتسمت لك . كأنها تعرفك . نعم . انها تعرفك . فقد احببتها . اذا أنت تطلب يحبو . واذا أنت صبي دون البلوغ . لهم الويل . كيف اجلوها عن جفاتها . وقد ان لها ان تستريح ؟

انهم ينتظرون . وانت مثلهم تنتظر . وحالك كما قال مجنون بني عامر :

كان فؤادي في مخالب طائر
اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كان فجاج الارض حلقة خاتم
علي فما تزداد طولاً ولا عرضاً
تجلس . وفي خيالك ذلك العطر الذي لن ينضب مادمت حيا . وهو حب اودي قبلك بالتجاني يوسف بشير ومحمد المهدي المجذوب . ومثلك كثيرون . منهم صلاح احمد ابراهيم في باريس . وسيد احمد الخردلو في صنعاء . والفيتوري في الرباط . وابراهيم الصلحي في الدوحة . وعبد الواحد يوسف في عمان . وحسن ابشر الطيب في الكويت .

ان تنتمي الى هذا الوطن البعيد المثال . ذلك امر عسير . ان تكون سمعت زغاريد النساء في الاعراس . ورايت انعكاسات الضوء على وجه النيل وقت الشروق ووقت الغروب . ان تتذكر مذاق تمر . القنديل . اول الموسم . ولبن البقر الغريص . ورغوته معقودة عليه في الحلابات . ذلك امر عسير .

وهؤلاء الزعماء النجباء . الاذكاء . الاغبياء . الا يحبون الوطن كما تحبه انت ؟

بلى . اذا لماذا يحبونه وكأنهم يكرهونه . ويسعون الى اعمارهم وكأنهم مسخرون لخرايبه ؟ ■



يكتبها : الطيب صالح

الاربعاء ١٩٨٨/٩/٢١
مطار الخرطوم . صالة المغادرين .
الساعة ٤.٥٠ مساء .

تجلس في هذا المطار الذي لم تعد تنزل فيه الطائرات الا لاما . واذا نزلت لا تقوم الا بشق الانفس . في هذه الصالة التي تسلخت حيطانها . وتشققت جدرانها . تنظر الى الصور التي اخذها مصورو وزارة الاعلام . منذ كم الف عام اخذت هذه الصور . فكانك تنظر اليها من وراء سحاب او من تحت ماء عكر ؟ مجموعة من رجال الهندس . بشعورهم الكثة وسراويلهم الطويلة وصديرياتهم القصيرة يرقصون بالسيف .

نساء . الرشائدة . الجميلات في عيونهم بقية من بريقي رغم تقادم العهد بالصورة . قافلة من البقارة . ربما في نواحي بابتوسه . رجل ضير تلعب اصابعه باوتار الطنبور . ذلكم النعام ادم . العازف الموهوب . انه من ديار قريبة من ديارك . ويغني الحانا قريبة الى قلبك . رجال من جبال النوبة . على رؤوسهم قرون الثيران وفي اذرعهم الخيز . وفي ارجلهم الخشاخيش . يرقصون رقصة الكفيلة . نساء . الدنكا . الفارعات . صدورهن نصف عارية ونصف مغطاة . غابة نخل في نوري . هاماتها تنوء باحمال الشبيط . وساقية الله اعلم اين . لقد انقضت الشواقي وصمت غناؤها للنيل منذ سنين . وحيد القرن وفرس النهر . ووعل في الدندر . وقطيع افيال عند خط الاستواء . جبل البزكل وجبل مژه وجبل ثوريت .

اه . اي وطن رائع يمكن ان يكون هذا الوطن . لو صدق العزم وطابت النفوس وقل الكلام وزاد العمل ! اعلان يحثك باللغة الانجليزية واللغة العربية ان تجيء الى اركويت . ماذا في اركويت ؟ وكيف تصل الى اركويت ؟

الحبال التي ربطت هذه البلاد بالعالم شرقا وغربا . شمالا وجنوبا . تقطعت حبالا بعد حبل . وقفت سفن النيل وقطارات السكة الحديد والطائرات الا القليل . وال هذا المطار كأنه محطة خلوية في صعيد مهجور . لم تبق الا قوافل الابل كما كان منذ قرون . وحافلات هالكة تشبثا بغير معبدة . تنوء وتقوم . انه امر عسير .

الطفلة التي زينوها مثل وصيفة في عرس . جاءت وقبلك بغتة . فانتبهت فرحا . ونظرت اليها توزع قبلاتها كيف تشاء . شاب استعارك قلما فاعرته . ورجل طلب فكة . عشرة جنيهات فلم تجد له الفكة . رجل استكتبك رسالة فكتبتها له . منذ كم وانت تكتب الرسائل لقوم لا يقرأون ولا يكتبون ؟ وسالك واحد واثنان وثلاثة متى